ديفيد أوين

في المرض وفي القوة

عن متلازمة الغطرسة وأمراض زعماء الدول خلال السنوات الـ 100 الأخيرة

ترجمة : يوسف الصمعان



Jadawel جداول

DAVID OWEN

IN SICKNESS AND IN POWER

ILLNESS IN HEADS OF GOVERNMENT DURING THE LAST 100 YEARS

Published by Methuen 2009

ديفيد أويـن

في المرض وفي الـقوة

عن متلازمة الغطرسة وأمراض زعماء الدول خلال السنوات الـ 100 الأخيرة

ترجمة:

يوسف الصمعان

الكتاب: **في المرض وفي القوة**
المؤلف: **ديفيد أوين**
ترجمة: **يوسف الصمعان**

جداول
للنشر والترجمة والتوزيع
رأس بيروت ـ شارع كراكاس ـ بناية البركة ـ الطابق الأول
هاتف: 746638 1 00961 ـ فاكس: 746637 1 00961
ص.ب: 5558ـ13 شوران ـ بيروت ـ لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net

الطبعة الأولى
شباط / فبراير 2017
ISBN 978-614-418-187-4

طبع في لبنان

Caracas Str. - Al-Baraka Bldg.
P.O.Box: 5558-13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2017 Beirut

طُبع على نفقة مؤسسة
ريم وعمر الثقافية

المحتويات

الجزء الثالث: شخصيات تاريخية

الجزء الرابع: دروس للمستقبل

مقدمة المترجم

«هذه علّة أكتمها عن الناس كلهم، وكل واحد من ولدي عليَّ رقيب وما منهم أحد إلا وهو يحصي أنفاسي ويستطيل عمري».

هارون الرشيد. ت 1908م[1]

أولئك الذين سبق لهم أن ثملوا بالقوة مرة واستمدّوا منها أي نوع من المنفعة، ولو لعام وحد، لن يتخلّوا طواعية عنها أبدًا. قد يكربون في خضم كل قوتهم، ولكن لن يبحثوا عن أي شيء عدا القوة لسلواهم. متى ألزمت الكرب أميرًا بأن يتنازل عن سلطته قط؟ وما التأثير الذي ستملكه على أولئك الذين صدقوا أنهم من حاشية الأمراء؟

إدموند بيرك. ت 1792م. رسالة إلى عضو من المجلس الوطني[2]

«إني لا أقبل قانونك الذي يقول بأن علينا ألا نحاسب البابا والملك كما نحاسب غيرهم، منحازين لاعتقاد أنهم معصومون، إذا ما كان هناك اعتقاد فعليه أن يكون العكس، أي محاسبة القابضين على السلطة، ثم يستأنف السلطة مفسدة، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة».

اللورد أكتون. ت 1866م[3]

كثر الاهتمام نسبيًا بالكتابة عن العلاقة بين المرض والسلطة، وتحديدًا المرض النفسي. إلا أن هذا الكتاب قد يكون متفرّدًا عن كثير من الكتب المشابهة، كون مؤلّفه قد خاض غمار المجالين، فقد بدأ طبيبًا متخصّصًا في الطب العصبي وتدرّب أيضًا في تخصّص الطب

(1) محمد بن جرير الطبري. تاريخ الأمم والملوك ج 5 ـ 11. دار الكتب العلمية بيروت ط1. 1987م

(2) Liberty of Standard Literature Works of Edumond Burke with a Memoir, V1, P 570. New York, George and Dearborn Publisher. 1935.

(3) Lord Acton and others: Lecture on Modern History, JMED-Acton, Edited by JN Figgis and RV Laurence. Macmillan 1906 ,1St Edition, P 77.

النفسي، كما يحكي هو عن سيرته، بيد أن المؤلف لم يمكث طويلًا في مهنة الطب، إذ ارتحل إلى عالم السياسة، ليسطع نجمه سريعًا ويتوّج بزعامة الحزب الديمقراطي الاشتراكي البريطاني، ومن ثَم وزيرًا للخارجية البريطانية، إذ كان آخر مسؤول غربي يلتقي الشاه محمد رضا بهلوي قبل سقوطه. بالإضافة إلى تكليفه ببعض المهام السياسية، من أبرزها الوساطة الأوروبية في حرب يوغسلافيا، والتي لم يوفّق بها.

لا تطمح هذه المقدمة الموجزة أن تستقصي ما كتب عن سيكولوجيا القوة أو السلطة، لقد أشبع هذا الموضوع بحثًا، وإن بقيت أكثر جوانبه عصية على الفهم. إلا أنه من المجدي التنويه إلى إدراك الإنسان المبكّر لآفات القوة المنفلتة. فقد كتب الإغريق عن اقتران الغطرسة(*) بالعقوبة (Hubris/Nemesis)، فقد كانت نميسيس إلهة تجسّد العدالة، تثأر للجريمة وتعاقب على الغطرسة، والتي لا يمكن لأحد أن يفر منها[1]. فهي التي أغوت نارسيس، عقابًا على غطرسته، ليرى انعكاسه في صفحة الماء ويقع في غرام صورته ليموت بعدها كمدًا لأنه لا يستطيع الوصول لها[2]. كما عزا أرسطو تأويل الكلمة إلى (التمتّع بالإيذاء ذاته) إلا أن المعنى تطوّر مع دخولها القاموس الإنجليزي لتحمل معنىً مقاربًا لـ«ثمالة القوة»(Intoxication of Power)، والذي استخدمه فلاسفة وسياسيون أمثال إدموند بيرك أتكون ونيتشه حتى قبل ظهور التصنيف ICD أو الأميركي DSM للأمراض النفسية[3].

تعرفت على هذا الكتاب عام 2009م بعد قراءة ورقة لمؤلفه في دورية الدماغ (Brain) مع جونثان ديفدسون، الطبيب النفسي بجامعة ديوك تحت عنوان «متلازمة الغطرسة: اضطراب

* اخترت (غطرسة) لترجمة (Hubris) لأني لم أجد ـ حسب اطلاعي ـ استقرارًا في ترجمتها في ما سبق من أعمال، إذ عكست إيتمولوجية المفردة تغيّرًا في المعنى عبر الأزمنة. فبرأيي، مفردة غطرسة أقرب للمعنى المراد في سياق هذا الكتاب. وهي كلمة تترجم أحيانًا (عدوانية) أو (عجرفة) وهما مفردتان لا تستقيمان مع معنى (Hubris)، والذي سنقرأ له محددات في الفصل الأول.

(1) Encyclopaedia Britannica. 19 (11th ed.). Cambridge University Press. p. 369.

(2) Ovid, The Metamorphoses, translated by A.S. Kline, illustrated edition, (A.S.Kline, 2000) p 154 - 159.

(3) A Brief History of Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders; Issues and Implications for the Future of Psychiatric Canon and Practice. Philosophy, Ethics and Humanities in Medicine. 2012. 7;2.

الشخصية المكسب»[1]، كانت الورقة ملفتة، لا سيما لطبيب نفسي لا يزعم عزوفًا عن هذه الإشكاليات، لخّصت ورقة المؤلف وزميله فكرة تأثير اكتساب القوة «السلطة» على نفسية الناس أو لنقل بعضهم.

لم يكن هناك جديد في تلك الورقة ولا هذا الكتاب الذي وصف هذا التأثير، فهو معروف منذ الإغريق، وكما تظهر الاقتباسات أعلى هذه المقدمة، فقد وصف تأثير تملّك القوة على الشخصية البشرية في مجالات حضارية مختلفة وأزمنة تفصلها قرون. إلا أن الملفت في الأمر هو أن الأقوال في صدر هذه المقدمة لم تصدر عن أطباء، بل عمن عملوا بالسياسة بدرجات مختلفة.

لا عجب أن يصدر من هارون الرشيد، خامس خلفاء بني العباس في الحقبة العربية الإسلامية في نهاية الألفية الأولى، وهو ابن خليفة وحفيد خليفة وشقيق خليفة، ورث الخلافة عن شقيقة الهادي، مثل هذا القول. فقد وعى بنفسه الحيل وحتى الصراعات في البيت الواحد التي آلت بالخلافة إليه. وها هو يدرك أن أبنائه لن يكونوا استثناء، كان يعي أن سطوة التوق إلى القوة سطوة لا يعيها إلا من جرّبها وقد تعمي من يصبو إليها.

الغطرسة في هذا الكتاب، أو ثمالة القوة كما نحتها الفيلسوف والسياسي البريطاني ثم الفرنسي أدمون بيرك، والذي قد يكون أول من تنبّأ بأن آفات القوة لا يكتمل تشكّلها إلا بعد وقت، ولو كان عامًا واحدًا على الأقل 2. يقترح أوين في هذا الكتاب، بعد استقصاء تاريخي طويل، وكذلك زميله ج ديفيدسون، أن عامين في القوة يغمرها نشوة النجاح والإنجاز هما الزمن الكافي لتشكيل متلازمة الغطرسة.

كان اللورد أكتون سياسيًا إصلاحيًا مع أنه نشأ كعالم دين كاثوليكي. ربما هذا جعله أكثر تبصرًا في أن مفاسد القوة لا تستثني أحدًا، بل إن القوة، وإن تأسّست على مكانة دينية، هي عرضة للمفاسد، ولا يستثني من هذا أحدًا. فهي القوة أيًا تكن القواعد التي قامت عليها، حتى ولو كانت تلك القواعد تصدر عن حالة مرجعية أو مؤسسة دينية، أو لنقل إن تلك القوة المكتسبة من علوم الدين ومؤسساته التي عادة ما يناط بها تهذيب وتزكية النفوس، هي أيضًا ليست محصنة بما تزعم أنها تصدر عنه، إذ إن نوع المعارف

(1) Hubris Syndrome: An acquired personality disorder?A study of US Presidents and UK Prime Ministers Over the last 100 years «Brain: June 2009, David Owen and Jonathan Davidson, Special Paper.

التي في الذهن ليس وقاية ضامنة ولا شخوصها من علماء الدين معصومون من أن تدركهم فتنة القوة ومفسدتها.

في عام 1887، في مراسلاته الطويلة الشهيرة مع المطران ماندل كريتيون، سطّر اللورد أكتون في إحداها عبارته الشهيرة التي حفظناها في المدارس «القوة المطلقة مفسدة مطلقة». والحق أن كل سطر في رسالة الخامس من نيسان/ أبريل1887يصلح أن يكون اقتباسًا، كما أن من يقرأها كاملة يوقن أن أي اقتباس من دون النص الكامل مخلّ 3.

وليس جديد هذا الكتاب أيضًا نحت مصطلح «Hubris/ الغطرسة»، أعني محاولة فهم تأثير القوة/ السلطة على النفس البشرية. فقبل عقد ونصف العقد من صدور هذا الكتاب، صدر عن معهد راند كتيّب استعار المصطلح الإغريقي «عقدة الغطرسة والعقوبة»، Hubris _ Nemesis Complex يعيب هذه الدراسة ـ وإن صدرت عن معهد مشهور وبتكليف من الحكومة الفيدرالية ـ افتقارها للمنهج العلمي وتحيّزها السياسي[1].

وليس جديدًا القول كذلك إن الزعامة تؤثر في شخصية الكثير من القادة، تستوي في ذلك الأنظمة الديمقراطية التي تمثلها شخوص الكتاب والتوارثية التي أورد لها المؤلف مثالًا أوحد هو شاه إيران. إلا أن القارئ سيجد نفسه أمام تقصٍ معلوماتي شامل عن العلل الجسدية لرؤساء أميركيين ورؤساء حكومات بريطانيا في الأعوام المائة الأخيرة التي سبقت صدور الكتاب، قد يجوز الزعم أن هذا الزخم المعلوماتي عن أمراضهم هو سفر لا سابق له، على الأقل في زعامات العالم الغربي في القرن الأخير، وفوق هذا يتتبع المؤلف متاعب علاجهم بحكم إشكاليات السلطة وتقديم الحرص على السرية، وإن ترتّب على ذلك مجازفة بصحة الزعيم «المريض».

يسوق المؤلف عن رئيس أميركي تُجرى له عملية جراحية لاستئصال ورم سرطاني في سفينة كي لا يتسرب خبر مرضه (جروفر كليلاند)، وآخر تتوالى عليه الجلطات الدماغية متسببة في خرف وعائي «فقدان الذاكرة» في آخر سنة من حكمه، تتفق فيها زوجته السيدة الأولى إديث ويلسون وطبيبه الخاص الضابط كاريل غرايسون على كتمان أمر مرضه ومنع نائبه ووزرائه من زيارته، حتى إن وزير خارجيته يقسم أمام الكونغرس أنه لم ير الرئيس لستة أشهر، وما كان بمقدور الكونغرس فعل شيء، إذ رفض طبيبه توقيع تقرير العجز، ولتحكم

(1) David Ronfeldt, Beware the Hubris-Nemesis Complex: A Concept for Leadership Analysis, (RAND Corporation, 1994).

زوجته إديث باسمه في آخر دورته ـ يتفاوت تقدير مدة عجزه التام من ستة أشهر إلى سنة ونصف السنة ـ. هذه ليست قصة من العصور الوسطى، بل هي عن أهم شخصية في الحرب الكونية الأولى، وعن لحظة تأسيس عصبة الأمم. ومن هنا كثيرًا ما قيل إن «إديث ولسون» تعد أول امرأة تترأس أميركا.

يورد المؤلف علل الأمراض النفسية مثل الإدمان واضطرابات المزاج بأنواعها، الموثق منها مثل إدمان كندي للأمفيتامين المنشط، وإدمان رئيس الوزراء البريطاني للمنشطات والمهدئات في الوقت ذاته. علينا أن نتذكر أن حرب خليج الخنازير وأزمة الصواريخ الكوبية أدارها رئيس يتعاطى الأمفيتامين المنشط بالوريد، كما أن أحد أطراف أهم الحروب العربية رئيس الوزراء البريطاني أنطوني إيدن الذي كان مدمنًا على الأمفيتامين المنشط وعدة أنواع من المهدئات.

في هذا السرد الشامل للأمراض المصنفة طبيًا سبق يصعب أنكاره للمؤلف اللورد الطبيب ثم السياسي ديفيد أوين. وهو وإن كان همه الأول تقصي صحة وعلل رؤساء أميركا ورؤساء الحكومات البريطانية، إلا أنه يعرج أحيانًا على شخصيات تتقاطع مع الأحداث، مثل الزعيمن السوفياتيين ستالين وخروتشوف، والفرنسي ديغول، والألماني هتلر والإيطالي موسيليني، والزعيم المصري عبد الناصر، وبشيء من التفصيل عن آخر ملوك إيران محمد رضا بهلوي.

كل ما ذكر أعلاه كنز معلوماتي غير مسبوق، غير أن مفاجأة الكتاب الأبرز هي محاولة اقتراح محددات تنهج لاضطراب الشخصية المكتسب بفعل ممارسة السلطة، بمعنى أنه وخلافًا للتعريف الكلاسيكي لمحددات اضطراب الشخصية كما في التصنيف العالمي أو التصنيف الأميركي للأمراض النفسية اللذين يلزمان أن تكون محددات اضطرابات الشخصية قد اكتملت في سن الثامنة عشرة، فإن المؤلف يحاج بأن القوة قد تولّد اضطرابًا، ولو بسن متأخرة عما يطالب به التصنيفان العالميان. يرى المؤلف أن أسوياء تجاوزوا العقدين الأولين من العمر ـ أي تجاوزوا العمر الأقصى المحدد لاضطراب الشخصية وهو سن الثامنة عشرة عامًا ـ ثم تربعوا على الزعامة لمدة يقترح ألا تقل عن عامين تميّزا بنجاحات، يرى المؤلف أن هذا قد يتسبب بنشوء تدريجي لمتلازمة الغطرسة «Hubris Syndrome». ويحاول صياغة أعراض هذا الاضطراب المقترح متأسيًا بصياغة المحددات التقليدية للاضطرابات الشخصية الواردة في DMM4 وهو التصنيف المعتمد وقت تأليف الكتاب.

قد لا يتفق البعض مع هذا الطرح، فمع أن غالبية ما دوّن من أمراض الزعماء هي من الأرشيفات الحكومية المفسوحة أو وثائق مؤكدة، إلا أن بعضًا منها لم يكن بذات العلو من التوثيق، لأجل ذلك قد يرى بعضهم أنه تجاوز تقاليد تشخيص أمراض الاضطرابات النفسية التي تطالب ألا ينعت أحد باضطراب نفسي ما لم يُعاين من طبيب مختص. لا تنشد هذه المقدمة المحاجة حول هذا السؤال، من هو مع ومن هو ضد التفسير النفساني للتاريخ*، في المقابل قد يرى بعضهم هذا الاضطراب المقترح (متلازمة الغطرسة) هو شرح بديهي معلوم بالمشاهدة ويحكيه التاريخ وكتبته السير.

يخصص المؤلف الفصل السابع، والذي يعد أطول فصول هذا الكتاب، لدراسة ملاحظات تغير شخصية زعيمين معاصرين، الرئيس الأميركي جورج بوش الابن ومعاصره رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، كمثال لنشوء أعراض متلازمة الغطرسة. فيحكي أنهما كانا شخصين سويين، وبحكم معرفته على مستوى شخصي بتوني بلير، كتب المؤلف بإسهاب عن ملاحظاته عما سيجد في شخصية تربّعت على كرسي رئاسة الحكومة البريطانية، مراقبًا تولّد أعراض اضطراب الغطرسة على شخصية بلير، بلغت أقصى مداها بخديعة الرأي العام البريطاني في حرب احتلال العراق وما تلاها من ويلات. وفّق المؤلف بمراقبة دقيقة لشخصية بلير تحديدًا، منذ تقلده رئاسة الحكومة وحتى طرده من حزبه والحكومة. ثم يكرر ذات الجهد في رسم ملامح التغييرات في شخصية بوش بعد السلطة، كان هذا الفصل قد سبق أن صدر في كتاب مستقل يحمل عنوان متلازمة الغطرسة[2]. (Hubris Syndrome) كم كان ملفتا أن تكون صورة الزعيمين بلير وبوش يمشيان معًا بخيلاء هي غلاف الكتاب. فللغطرسة أعراض كثيرة من بينها تلك المشية.

يوسف الصمعان

يناير 2017

---

* انظر مقدمتي المترجم والمؤلف والفصل الأول من كتاب ناصر قائمي، جنون من الطراز الرفيع، ترجمة: يوسف الصمعان، (بيروت: جداول، 2016)، صفحة 19-49 لتوضيح المحاجة بين مع وضد تأويل التاريخ من منظور نفساني.

وانظر أيضًا كتاب:

The leaders, the led, and the psych. Essay in psychohistory, Bruce Mazlish Transaction Publisher, 213,

(2) David Owen, The Hubris Syndrome: Bush, Blair and the Intoxication of Power, (Politico›s Publishing, 2007).

مقدمة

يا ربِّ نجنا من عدم القناعة بما هو ناجع، ومن الحماسة الزائدة للجديد واحتقار القديم، ومن وضع المعرفة قبل الحكمة، والعلم قبل الفن، والمهارة قبل الحس السليم، ومن معاملة المرضى كأشياء، ومن جعل العلاج أشد ألمًا من المرض.

السير روبرت هوتشيسون (1871 ـ 1960م)، «دعاء الطبيب»

لقد شعرت دائمًا أن دعاء هذا الطبيب يصلح للسياسيين، وذلك باستبدال الناخبين بالمرضى. فالسياسيون، كذلك، يمسكون بأرواح الناس في قبضتهم، وهذا يبدو جليًّا في حالة الحرب، وليس حينها فقط. فالسياسيون، وخاصة رؤساء الحكومات، يتخذون العديد من القرارات التي لها آثار بعيدة المدى على حياة الناس الذين يحكمونهم. وفي الحالات الأكثر تطرفًا، تؤدي هذه القرارات إلى حياتهم وموتهم.

يشير دعاء هوتشيسون أن على الأطباء تذكر واجبهم الأول، وهو عدم جعل الأمور أكثر سوءًا ودورهم مهم عند ظهور مرض ينشأ بسبب الأدوية أو خلال العلاج وينتشر جدًا. وعلى السياسي التدخل إذا كان من الراجح أن تدخله سيحسِّن الوضع الراهن فحسب، كما أن عليه أن يقاوم صخب العمل للحفاظ على نفسه. ومقولة بسمارك الشهيرة القائلة: «بأن السياسة هي فن الممكن»، تعبِّر عن الفكرة نفسها، التي تدعو إلى التواضع في الطموح. إن الكفاءة والقدرة على صنع تقديرات واقعية حيال ما يمكن وما لا يمكن تحقيقه شيم حاسمة للسياسي والطبيب على السواء، ولذا فإن أي شيء يعيق هذا التقدير قد يؤدِّي لضرر عظيم.

لقد فتنت طوال سنوات رشدي بتداخل العلاقة بين السياسيين والأطباء، وبين السياسة والطب. ومما لا شك فيه أن خلفيتي الشخصية كطبيب وسياسي في نفس الوقت غذَّت اهتمامي وأثَّرت على وجهة نظري؛ لا سيما وأني مهتم بتأثير مرض رؤساء الحكومات على مسار التاريخ. يثير هذا المرض العديد من القضايا الهامة: كتأثيره على صنع القرار،

والأخطار الكامنة في إبقاء المرض سرًا، وصعوبة إزالة القادة المرضى في الديمقراطيات وكذلك في الديكتاتوريات، وأخيرًا المسؤولية التي يضعها المرض على عاتق أطباء ورؤساء الحكومات؛ فهل يجب أن يكون ولاء هؤلاء الأطباء لمرضاهم فقط كما هي الحالة عادة، أم أنه من الواجب عليهم أن يضعوا في اعتبارهم العافية السياسية لوطنهم؟.

عمل العديد من أعضاء عائلتي على مرِّ الأجيال في مجال الطب أو في مهن متعلقة به. كما شارك العديد منهم في ممارسة السياسة أيضًا، غالبًا على المستوى المحلي. وتمكن بعضهم من ممارسة المجالين في آن واحد[1]. ولربما سهَّل ذلك تزاوج الطب والسياسة في حياتي. وعلى الرغم من مزاحمة السياسة للطب في الكثير من الأحيان، فإن ذلك لم يضعف من حبي للطب؛ فحتى عندما كنت وزيرًا للخارجية، كنت أصف نفسي في الوثائق الرسمية - بتحذلق - أني طبيب، كما لو أنني اعتبرت مسيرتي السياسية مجرد عمل مؤقت. وبالتأكيد فإنني لم أعتبر السياسة مهنة على الإطلاق. وقد عشت من انتخابات إلى أخرى، يراودني الشك في إعادة انتخابي والحفاظ على مقعدي الهامشي كممثل في دائرة بليموث. في النهاية، تنحيت عن السلطة عام 1992م، بعد أن قضيت 26 سنة في مجلس العموم، وقد أصبحت فترة خدمتي كنائب هي الأطول في تمثيل المدينة عبر تاريخها.

بدأت في الجمع بين الطب والسياسة عندما اعتمدت كمرشح للانتخابات البرلمانية التي جرت سنة 1962م، حين كنت مجرد طبيب مبتدئ في مستشفى سانت توماس، الواقع على ضفاف نهر التايمز، قبالة قصر وستمنستر في لندن. لقد أقحمني الطب بالسياسية بشكل ما، ففي عام 1959م، انضممت لحزب العمال حين كنت طالبًا بكلية الطب، لما عاينته من الفقر ورداءة السكن في منطقة جنوب لندن التي يخدمها المستشفى. لقد كنا نعالج المرضى من علَّتهم لكنهم يرجعون إلى ذات الشقق الرطبة المكتظة، ولذا سرعان ما يعودون إلى المستشفى ثانية، وبعدما أصبحت طبيبًا سنة 1962م، طُلب مني أن أضع اسمي على قائمة مرشحي حزب العمال عن دائرة ريفية كبيرة كان احتمال فوز الحزب بمقعدها ضئيلًا. ولا يزال سبب اتخاذي هذه الخطوة لغزًا يحيرني حتى اليوم، ولكن أعتقد أنه كان لردع نفسي من أن أصبح ما اعتدت تسميته «نباتي طب»؛ أي: شخص مهووس بالطب فقط. وكنت قد رأيت الكثير من جيلي الذين ما إن يصبحوا أطباء حتى ينغمسوا في الأمور الطبية على

(1) David Owen, **Time to Declare** (London: Micheal Joseph, 1991), pp. 5-18.

حساب جوانب أخرى كثيرة في الحياة؛ فحرموا أنفسهم مطالعة الصحف ومشاهدة التلفاز أو الاستماع إلى المذياع.

عندما حان الوقت لخوض الانتخابات العامة لعام 1964م أخذت إجازة بلا أجر لثلاث أسابيع. وتمكَّنت من الحصول على أصوات كافية تكفل لي عدم خسران وديعتي المالية فحسب. حينها عدت إلى المستشفى، وصار الطب في واجهة اهتماماتي، وتنحَّت السياسة إلى الخلف. لقد تخصصت في مجال الأعصاب بمستشفى سانت توماس، الذي يتداخل معه بعض أوجه الطب النفسي، لقد كانت بيئة محفِّزة بالفعل، وسرعان ما عملت باحثًا في مجال كيمياء الدماغ. وفي صيف 1965م، طلب مني حزب العمال، بشكل غير متوقع، إدراج اسمي في المجلس المحلي للحزب في الدائرة الانتخابية لبليموث، القريبة من مسقط رأسي: بليموث ساتون. كان هناك اعتقاد سائد أن انتخابات عامة ستجري عام 1966م، وكان هذا المقعد هامشيًّا. وبالنظر إلى الماضي، كان ينبغي أن أعرف أنني عندما أُخترتُ كمرشح فإن انتخابي هذا قد يغيِّر مجرى حياتي. ولكن على الرغم من صعوبة تصديق ذلك، لم أكن أعي احتمالية أن أصير نائبًا في البرلمان. ومع ذلك كنت أقوم باختيار نوعي، إذ أردت أن تتاح لي الفرصة كي أرسم في رحاب لوحة أعرض. فلعلي لم أتخذ قرارًا نهائيًا في اختيار السياسة، لكني كنت منفتحًا حيال إمكانية أن يختار الناخبون السياسة مهنة لي. ورغمًا عن ذلك، فوجئت بأن وجدت نفسي عضوًا في مجلس العموم بعد انتهاء يوم الاقتراع لسنة 1966م.

وطيلة سنتين لاحقتين، عبرت جسر وستمنستر غدوًا ورواحًا لمواصلة العمل على كيمياء الدماغ في مختبري في سانت توماس، بينما كنت أحضر أيضًا جلسات البرلمان على الجانب الآخر من النهر. وانتهى كل ذلك فجأة حين عُيِّنت وزيرًا للبحرية في عام 1968م؛ حيث كان التقليد المأثور ألا يسمح للوزراء بالعمل في مهنة أخرى.

وبعد خسارة حكومة حزب العمال للانتخابات عام 1970م، ظللت نائبًا عامًا وعاودت العمل بدوام جزئي. وشمل ذلك وضع نماذج حاسوبية لعملية صنع القرار في شركات كبرى، بعضها كان يعمل في مجال الصيدلة. ومنذ سنة 1995م خدمت في مجلس إدارة مختبرات أبوت، إحدى كبار الشركات الأميركية العاملة في مجال الرعاية الصحية.

فاز حزب العمال في الاثنتين من الانتخابات العامة عام 1974م، وترادفا الطب والسياسة

في صيغة مغايرة هذه المرة، حيث شغلت منصب وزير الصحة لمدة سنتين ونصف السنة[1]. وهي فترة عادت علي برضى شخصي لا مثيل له في أي من الأعمال التي قمت بها، بدءًا من عملي كوزير للخارجية من (1977 حتى 1979م)، مرورًا بزعامة الحزب الاشتراكي الديمقراطي (SDP) من (1983 حتى 1987م) ومن (1988 حتى 1990م)، وانتهاء برئاسة المؤتمر الدولي حول يوغوسلافيا السابقة من (1992 حتى 1995م).

وعمومًا، مارست الطب لمدة ست سنوات وتعلمت الكثير من تلك التجربة المذهلة، هي عصارة هذا الكتاب. ولكن جانبًا واحدًا بقيت له أهمية خاصة، لقد مال الاستشاريون وأطباء الأعصاب والنفسيون الذين عملت لهم في سانت توماس إلى علاج عدد من السياسيين البارزين، ولقد عاينت شخصيًا التوترات والضغوطات للحياة السياسية ضمن السياق السري للعلاقة بين الطبيب والمريض. لقد ساعدت في علاج سياسي بارز أصبح مدمنًا على الكحول، وآخر كان يعاني من الاكتئاب الشديد. ورأيت حجم الضغط الذي كانوا يرزحون تحته، وبدأت أتساءل عن عامل الضغط وانعكاسه على أمراضهم؟ عالجت مرضى آخرين يعانون من الإدمان على المخدرات، سواء كانت الأمفيتامينات أو الهيروين أو المهدئات. وأُحيل المرضى من جميع أنحاء البلد إلى مستشفانا، والذين كانوا يعانون من حالات نادرة في الغالب منحتنا تبصرًا فريدًا، أسهمت في منحنا المزيد من الفهم. لقد كنت حينها أخصائيًا دقيقًا، واعتدت أن أمزح بقولي: إني مختص بالرأس وما فيه؛ كوني أركز بشكل تام على الدماغ، حتى أني قضيت الدورة الجراحية الإلزامية كجراح للعيون، وهي خبرة لا ترتقي للشروط القانونية والفنية للجراحة العامة حاليًا. وأظن لو كتب لي البقاء في مجال الطب لحاولت أن أكون أستاذًا للطب النفسي العصبي. وخلال تلك السنوات الطبية بدأت اهتمامات حياتي تتركز على كيفية اتخاذ القرارات الحكومية، ولا سيما على أعلى المستويات. فقد عاصرت افتتان الجمهور في 1962م بأزمة الصواريخ الكوبية وتطوراتها، وتجليات حرب فيتنام التي لحقتها بعد ثلاث سنوات. ففي عام 1972م. كتبت كتابًا بعد عملي في وزارة الدفاع عن صنع القرارات الدفاعية: أوجه قصورها، وتعقيداتها ومخاطرها[2].

كثيرون هم الذين يعرفون مقولة اللورد أكتون الشهيرة: «السلطة مفسدة، والسلطة المطلقة

(1) David Owen, **In Sickness and in Health: The Politics of Medicine** (London: Quartet, 1976).

(2) David Owen, **The Politics of Defense** (London: Jonathan Cape 1972).

مفسدة مطلقة»[1]. لكن أكتون سبق ذلك بطلب أن يحاسب أصحاب السلطة بمعايير أعلى من تلك التي يحاسب بها من لا يملكونها: «إني لا أقبل قانونك الذي يقول بأن علينا ألا نحاسب البابا والملك كما نحاسب غيرهم، منحازين للاعتقاد أنهم معصومون. إذا ما كان هناك اعتقاد، فعليه أن يكون العكس، في محاسبة القابضين على السلطة». وكما كتبت المؤرخة الحائزة على جائزة بوليتزر، باربرا توتشمن:

«إننا أقل إدراكًا لحقيقة أن السلطة تولِّد الحماقة؛ وأن القدرة على إعطاء الأوامر تعطِّل القدرة على التفكير، وأن المسؤولية الواقعة على السلطة تضمحل مع ممارستها. إن مسؤولية السلطة هي الحكم بشكل معقول ومقبول لضمان مصلحة الدولة ومواطنيها. والواجب في هذه العملية هو الحصول على المعلومات، وإبقاء العقل والتقدير منفتحًا ومقاومة السحر الماكر للذهنية المتخشبة. فإذا ما كان العقل منفتحًا بما فيه الكفاية ليدرك أن اتباع سياسة معينة يضر بدلًا من أن يخدم، وواثقًا بنفسه للإقرار بذلك، وحكيمًا بما يكفي ليعكسها، فإن تلك هي ذروة فن الحكم»[2].

وقد واجهت عندما أصبحت وزيرًا للخارجية عددًا من المناسبات أوضحت لي مدى تأثير المرض على عملية الحكم وصنع القرار لدى رؤساء الحكومة، لدرجة الحماقة والغباء والتهور، وقد أثار ذلك اهتمامي مذ ذاك الحين. كما فتنت أيضًا بالقادة الذين لم يعانوا من المرض، حيث كانت قدراتهم النفسية والذهنية في قمتها، ولكنهم أصيبوا بما أسميته: (**Hubris Syndrome**) متلازمة الغطرسة. وتصرفات الغطرسة أكثر شيوعًا عند رؤساء الحكومات، سواء كانت ديمقراطية أو ديكتاتورية، مما يُعتقد في كثير من الأحيان. والغطرسة هي المرادف الرئيسي في تعريف باربرا توتشمن لمفهوم الحماقة: «الاستمرار في سياسة من الجلي أنها غير مجدية وذات نتائج عكسية». وتتابع بالقول: «إن الذهنية المتخشبة هي منبع خداع الذات، وعامل يلعب دورًا كبيرًا في الحكم. وذلك من خلال التعاطي مع الأمور من خلال أفكار مسبقة، وتجاهل أو رفض أي مؤشرات معاكسة... وكذلك التعالي على التجارب»[3]. ومن خصائص الغطرسة عدم تغيير المسار، لأن هذا يتضمن اعترافًا بالخطأ.

(1) كُتبت في الخامس من نيسان / أبريل عام 1887م إلى ماندل كريتون، كاتب: «تاريخ البابوية في الإصلاح».

(2) Barbra W. Tuchman, **The March of Folly: From Troy to Vietnam** (New York: Ballantine, 1985), p. 32 _ 33.

(3) المرجع نفسه، ص 7 _ 33.

كتب برتراند رسل ذات مرة: «كان مفهوم «الحقيقة» كشيء يعتمد على حقائق خارج سيطرة الإنسان أحد الأسباب التي جعلت الفلسفة حتى الآن تهتم بغرس عنصر ضروري، هو التواضع. وعندما يزول هذا التواضع الذي يكبت الغرور، فإن خطوة قد سبقت قدمًا على الدرب المتجه نحو ضرب معين من الجنون، هو: الثمالة بالسلطة»[1]. وكثيرًا ما وصفت حالات ثمالة القادة بالغرور والسلطة من طرف العوام بأنها «انفصام» أو «خبل»، وحتى «جنون»، على الرغم من أن مثل هذه المصطلحات ليست مستخدمة في مهنة الطب لتوصيف حالاتهم.

لقد وضعت المجتمعات الديمقراطية، خاصة تلك التي تطوّرت من الملكية المطلقة، أنظمة من التسديد والمقاربة، في محاولة لحماية نفسها من قادة كهؤلاء. لكن هذه الآليات، مثل مجلس الوزراء والبرلمان ووسائل الإعلام، ليست فعَّالة دائمًا. أما في حالة الزعماء الدكتاتوريين، حيث لا وجود لضوابط وآليات ديمقراطية داخلية تسمح بإزالتهم، ربما سوى الانقلاب العسكري، أما إزالتهم بوسائل خارجية، فلقد أثبتت التجربة أن الإدانات والعقوبات الدولية ليس لها إلا أثر محدود، بينما التدخل العسكري الخارجي فنجاحه موضع تساؤل. لقد كنت محظوظًا حين عملت في حكومتين تحت قيادة رئيسي الوزراء البريطانيين هارولد ويلسون وجيمس كالاهان، اللذين لم يصبح أي منهما ثملًا بالسلطة، وكان كلاهما مناسبين لموقعهما. وكنت معهما حينما أُزيحا من السلطة من طرف الناخبين على التوالي سنوات (1970 و1979م). لم أشعر حينها بإيجابية ما حدث. لكنها كانت تجربة مفيدة للغاية، علمتني محصلتها أنه في ظل الديمقراطية يكون السياسي هو «خادم للشعب» وبأن السلطة يمكن إعارتها وسحبها كذلك.

لقد كان ويلسون في صحة جيدة خلال رئاسته الأولى منذ سنة (1964 إلى 1970م)، على الرغم من أنه في مطلع سنة 1970م واجهته بغض المتاعب الصحية في الأوعية الدموية للقلب مما جعله مترددًا في البقاء لفترة أطول. وعندما عاد إلى السلطة عام 1974م، اكتشف أن ذاكرته القوية بدأت بالضمور. بالإضافة إلى ذلك، استمرت المشاكل السياسية والاقتصادية تتكرر كما كانت، ولم يعد يمتلك الطاقة والهمّة كما في السابق. حينها فاجأ ويلسون الجميع بتنحيه الطوعي عن السلطة سنة 1976م. وفي بضع سنوات لاحقة، ظهرت عليه أعراض متقدمة

(1) (انظر: أيضًا الفصل السابع).

لمرض ألزهايمر مع تدهور تدريجي خطير في عمل دماغه[1]. جاء جيمس كالاهان خليفة لويلسون على الرغم من أنه يفوقه عمرًا. وأجرى عملية لاستئصال البروستاتا عندما كان في المعارضة سنة 1972م، لكنه تعافى وأصبح وزيرًا للخارجية في عام 1974م. واستمر في الحكومة كرئيس للوزراء ومتمتعًا بصحة جيدة، لقد تعامل مع صندوق النقد الدولي بقوة ومهارة سياسية، وبالرغم من خسارته الانتخابات العامة سنة 1979م إلا أنه ترك الرئاسة لمارغريت تاتشر بكرامة وأريحية، ولقد تميَّز بأنه أطول رؤساء الوزراء عمرًا. وفي محادثة طويلة لي معه في صيف 2004م، وجدت أنه لا زال يتذكر الأسماء والأحداث بصورة بارزة. توفي كالاهان بعد فترة قصيرة من عيد ميلاده الثالث والتسعين في عام 2005م.

تمكنت عن كثب أيضًا من متابعة أربعة رؤساء آخرين للحكومات البريطانية المتعاقبة هم: إدوارد هيث، مارغريت تاتشر، جون ميجر، وتوني بلير. ومقابل تلك الخلفية الغير معتادة لأكثر من أربعين سنة في الطب، سأحاول تمحيص الحوادث الماضية للصحة المعتلة لرؤساء الحكومات حول العالم ـ موضع مرضهم ـ بجانب أحداث سياسية في ذلك الوقت، بحيث يمكن للقراء الحكم بأنفسهم بعلاقاتها المتداخلة. إن مناقشة عامة لمرض القادة السياسيين سهلة بشكل معقول إذا ما وصفت العلة بالجسدية، ولكنها تتوارى ولا تدرك إذا ما وصفت بأنها عقلية. والسبب يعود إلى اختلاف المصطلحات اللغوية التي يستخدمها العوام للأمراض العقلية عن تلك التي يستخدمها الممارسون المهنيون، وليس كما يحصل من إجماع على المصطلحات عندما يتحدثون عن الأمراض الجسدية. هناك أيضًا عدم تطابق بين ما تتحدث عنه الصحافة والجمهور بخصوص المرض العقلي، وما تستعد المهنة الطبية لتشخيصه على أنه مرض عقلي، فعندما تستخدم الصحافة مصطلحات مثل «مختل عقليًّا»، «جنون العظمة» أو «الغطرسة»، فإن بعض هذه العبارات، أو كلها، تُستخدم لوصف طغاة مختلفين مثل أدولف هتلر، عيدي أمين، ماوتسي تونغ، سلوبودان ميلوسيفيتش، روبرت موغابي، صدام حسين من جهة؛ ومن جهة أخرى لوصف زعماء ديمقراطيين مثل ثيودور روزفلت، ليندون جونسون، ريتشارد نيكسون، تاتشر، بلير، وجورج بوش.

وبعبارة أخرى، فالصحافة والجمهور يستخدمون هذه العبارات التي هُجرت منذ زمن بعيد في الممارسة الطبية، أو أُعيد تعريفها أو حصرها في استخدام مقيد جدًا. «فالجنون

(1) (انظر: الفصل الثاني)

«والخبل» مصطلحات استبدلت عند الأطباء «باضطراب عقلي محدد» . وأصبح الاختلال العقلي نوعًا ضيقًا من اضطراب الشخصية، وبات «جنون العظمة» و«أوهام العظمة»، وغالبًا الرؤساء الذين يعتبرهم العامة مجانين، ليسوا كذلك بالمنظور الطبي.

فلا يمكن اعتبار «الاكتئاب» و«المرض العقلي» صفات تنزع الأهلية ممن هم في مناصب عامة. فإبراهام لينكولن هو الحالة الأكثر إثارة للاهتمام من وجه أنه يمكن أن تتشكل صفات زعيم من خلال تجربة الاكتئاب. قلة من الرؤساء عانوا مشاق الاكتئاب لفترة أطول من لينكولن، الذي رفض الانحناء أمامه. فقد واجه عندما كان شابًا تقلبات عميقة في مزاجه، أكثرها حالات إحباط غائر، حتى أنه كتب مقالًا عن الانتحار، يقول: «يبدو لي أني أستمتع بالحياة عندما أكون مع رفقة. ولكن عندما أكون وحدي، فكثيرًا ما تغمرني الكآبة لدرجة أني لا أتجرأ على حمل سكين في جيبي». ونشرت مجلة **Sangamo** في 25 آب/ أغسطس عام 1838م قصيدة غير موقّعة، بعنوان: «منتحر يناجي نفسه»، تشير الدلائل بقوة إلى أن لينكولن من كتبها. هناك إجماع على أنه كان من أعظم رؤساء الولايات المتحدة، وأنه خلال ضغوطات الحرب الأهلية «يحمل إيمانًا لا يهتز في قضية وطنه»[1]. ومن المحتمل أن تكون محاولته للتغلب على الاكتئاب قد ساهمت في تشكيل طبيعته كرئيس للجمهورية. فلقد تعرض لانهيارين كبيرين في عشرينياته، وأصبح الاكتئاب أكثر وضوحًا وتأثيرًا في الثلاثينيات من عمره. ولكن لم يجد مؤلف كتاب حول هذا الموضوع أية أدلة على وجود هوس عند لينكولن، على الرغم من أنه يعتقد أنه من الممكن أن يكون قد عانى من هوس خفيف، يتميز بطاقة زائدة[2]، ولقد شُخِّص هذا أيضًا عند نيكيتا خروتشيف[3].

بينما يقوم المهنيون بتشخيص حالة الزعماء السياسيين، بأثر رجعي، بصفتهم مصابين بمرض عقلي، يبقى الجمهور أقل استعدادًا في كثير من الأحيان لقبول التشخيص، لا سيما أن القادة المعنيين بات ينظر إليهم كأبطال قوميين. تكمن صعوبة تشخيص الاضطراب ثنائي

(1) Doris Kearns Goodwin, **Team of Rivals: The Political Genius of Abraham Lincoln** (New York: Simon & Schuster, 2005), p.xvii.

(2) Joshua Wolf Shenk, **Lincoln's Melancholy: How Depression Challenged a President and** Fulled his Greatness (Boston: Houghton Mifflin, 2005).

(3) (انظر: الفصل الرابع، ص 171).

القطب[1] مثلًا، في أن من يعاني منه يجب أن يكون قد أصيب بنوبة هوس واضحة المعالم، يظهر فيها الاكتئاب والقلق والاضطراب العاطفي. ففي الماضي لا تشخص نوبة الهوس إلا إذا كانت متجلية الوضوح، ولذا كان التردد في التشخيص نابعًا من انعدام علاج لها، إلا أنه حين اكتشف الليثيوم كعلاج فعَّال لاضطراب ثنائي القطب، صار الأطباء أكثر استعدادًا للتشخيص.

في تشخيص نوبة الهوس في الاضطراب الثنائي القطب ينظر الأطباء لعدد من العلامات والأعراض التي يمكن لمحصلة تراكماتها أن تحدد التشخيص. وبالنسبة للطبيب النفسي فإن المرحلة المبكرة من الهوس تسمى: «الهوس الخفيف»، ويشبهها بعضهم بحالة الوقوع في الحب، وميزتها ابتهاج وحماس وطاقة زائدة وثقة عالية بالنفس. نادرًا ما يؤدِّي الهوس الخفيف إلى الاضطراب الثنائي القطب، بعكس الاكتئاب وهوس القطبين، وكلاهما يجتمعان في حالة الهوس والاكتئاب. وتتفاوت التقديرات إلا أن أكثر من أربعة عشر مليون شخص في الولايات المتحدة يعانون من اضطرابات المزاج والاكتئاب والقلق. هذا بالإضافة إلى مليوني شخص من المرجَّح أنهم يعانون من اضطراب ثنائي القطب، لتمييزه عن اضطراب الاكتئاب أحادي القطب. هناك العديد من الدراسات الجينية والكيميائية الحيوية عن موضوع الاضطراب الثنائي القطب، ولكن لا تزال الدعامة البيولوجية له غير مؤكدة.

يبحث الأطباء لتشخيص نوبة هوس في مرض الثنائي القطب عن عدد من الأعراض والعلامات التي يمكن لتراكماتها أن تصنع تشخيصًا:

1 ـ زيادة الطاقة والنشاط والأرق.

2 ـ مزاج مفرط البهجة.

---

(1) كان اضطراب ثنائي القطب يُسمى بحالة الهوس والاكتئاب. حيث يصيب الهوس واحد بالمئة من نسبة السكان، بينما حالات الهوس الأقل حدَّة يكون الاكتئاب فيها سائدًا وتصيب 4 ـ 5 بالمئة. (بي توماس «صور الاضطراب ثنائي القطب: نظرة حديثة على مرض قديم؛ **مجلة الاضطرابات الوجدانية** (2004). الجزء 79، الملحق الأول، ص 3 ـ 8) وتتداخل أعراضه مع أعراض انفصام الشخصية، واضطراب نقص الانتباه، والاضطرابات الشخصية. يُعتبر اضطراب ثنائي القطب من الأمراض العقلية التي تستجيب للعلاج بالأدوية، بدايةً بالليثيوم، ثم بدأ استخدام فالبورات الصوديوم بشكل أكثر، والذي يستخدم أيضًا لعلاج الصرع. ومنذ سنوات عدة لاحظ أوبري لويس، أحد أكبر الأطباء النفسيين البريطانيين، بأن الأطباء في أميركا أظهروا تراجعًا في تشخيص الاكتئاب المتكرر وحالة الهوس والاكتئاب على حساب زيادة في تشخيص انفصام الشخصية. إلا أن الفجوة تلاشت تدريجيًا خلال سبعين سنة مضت، وأصبح الممارسون الأميركيون أكثر احترافية واستعدادًا لتشخيص الاضطرابات ثنائية القطب من زملائهم البريطانيين. ويعتبر انفصام الشخصية موضوعًا شاملًا لاضطرابات نفسية عدة تتسم جوهريًا بتشتت التفكير واضطراب السلوكيات والمشاعر. ولا يعتبر مماثلًا لـ «الشخصية المنفصمة» كما يشيع عنه.

3 ـ التهيج الشديد.

4 ـ تسابق الأفكار والتحدث بشكل سريع جدًّا، والقفز من فكرة إلى أخرى.

5 ـ التشتت وعدم القدرة على التركيز.

6 ـ قلة النوم اللازم.

7 ـ أفكار غير واقعية حول القوة والقدرات الذاتية.

8 ـ سوء تقييم الأمور.

9 ـ سلوكيات غريبة الأطوار تستمر طويلًا.

10 ـ زيادة الرغبة الجنسية.

11 ـ تعاطي المخدرات، لا سيما الكوكايين والكحول وأدوية النوم.

12 ـ الاستفزازية، والتطفل والسلوك العدواني.

13 ـ إنكار وجود أي خطأ.

14 ـ التبذير[1].

زعمت ورقة بحثية أُعدِّت مؤخرًا من قبل ثلاثة أطباء نفسيين أميركيين أن ثيودور روزفلت وليندون جونسون كانا يعانيان من الاضطراب الثنائي القطب إبَّان رئاستهم[2]. مما لا يقبل الجدل أن كليهما يعانيان من مرض الاكتئاب. إنما شكك البعض في التشخيص، بما أنه لا تتوفر أدلة وافية على حالات محددة من نوبات الهوس. ما يثير الاهتمام حول التشخيص بأثر رجعي للاضطراب الثنائي القطب لدى الزعماء السياسيين، هو ما يبدو من استعداد الجمهور لقبول أن أبطالهم كانوا يعانون من نوبات من الاكتئاب، ولكن أقل استعدادًا للاعتراف بأن أبطالهم مرضى هوس وأن لديهم مؤشرات مرض عقلي. فقد قيل، على سبيل المثال، بأن ونستون تشرشل كان يعاني من اضطراب ثنائي القطب، ولا ينكر أحد أنه سقط تكرارًا في هوَّة الاكتئاب السحيقة، يصفها هو نفسه بمزاج «الكلب الأسود». لكن هناك مقاومة كبيرة

(1) المصدر: موقع **MedicineNet**.

(2) Jonathan R. T. Davidson, Kathryn M. Connor and Marvin Swartz, «Mental Illness in US Presidents between 1776 and 1974: A Review of Biographical Sources», **Journal of Nervous and Mental Disease** (2006), vol. 194, pp. 47 ـ 51.

لقبول تشخيصه بالهوس، إما بسبب شعور بأنه لم يكن بيِّنًا في التشخيصات السريرية، أو لأن آثاره غير مشاهدة؛ أو لأن الناس يفضلون مشاهدة تشرشل كشخصية فريدة من نوعها، كما يفعل الأمير كيون إزاء ثيودور روزفلت[1].

ربما يتوقع الناس، أو حتى يريدون، أن يتجاوز قادتهم المألوف؛ يملكون مزيدًا من الطاقة، ويعملون لساعات أطول، ويظهرون البهجة فيما يقومون به من أعمال، ويتمتعون بالثقة؛ باختصار، أن يتصرفوا بشكل يظهر للطبيب في مرحلة ما على أنه هوس. وما دام هؤلاء القادة يحاولون بجد تحقيق رغبات الجمهور، فلن يُقبل أن يقال عنهم بأنهم يعانون من أي نوع من الاختلال العقلي، ولكن ما إن يفقد هؤلاء القادة دعم جمهورهم حتى تنقلب الآية. حينها يكون الجمهور على استعداد لاستخدام تلك الكلمات التي شجبتها مهنة الطب لوصف المرض العقلي، كوسيلة للتعبير عن الاعتراض للطريقة التي يتصرف بها القادة.

من هنا تصبح الأمور مثيرة للاهتمام أكثر، ربما فيما يتعلق بصحة الجسد السياسي على الأقل، حتى عندما لا يعاني القادة من أي مرض. فتتجلى ردَّة فعل الجماهير عندما يتصرف الزعيم بطرق تتعارض مع رغبتها، فُيفسَّر التغير غريزيًّا على أنه تغير في الحالة العقلية للقائد: لقد «ضل»، أو «فقد توازنه» أو «انفصل عن الواقع»، أو لم يعد «مسيطرًا على نفسه». وبالرغم أنها ليست كافية لمنح تشخيص مهني للمرض العقلي، فإن الجمهور مقتنع أن القائد لا يقوم بأخطاء، هكذا ببساطة وإنما يُظهر نوعًا من فقدان الأهلية العقلية لصنع قرارات عقلانية. وهنا تكون اللغة الطبية ذات نفع قليل. ولذا نحن مجبرون بالمقابل للتحدث بمصطلحات تقليدية على الأقل حتى نحصل، إذا ما أمكننا بالفعل، على فهم طبي أكثر لما يمكن أن يكون سببًا لفقدان الأهلية تلك.

أحد تلك المصطلحات التي لم تعد جزءًا من المعجم المهني، ولكن يبدو لي أنها مصطلح مشروع الاستخدام من طرف الجمهور، «جنون العظمة». فلقد كنت أنا شخصيًا متهم بأعراض «جنون العظمة» من قبل صديق صحافي في صيف 1987م. وباستخدامه هذا المصطلح فإنه لا يريد القول فقط إنه يعتقد أن ما كنت أفعله كان خطأ (في مقاومة اندماج الحزب الديمقراطي الاجتماعي مع حزب العمال) بل أن ذلك كان نتيجة للحالة النفسية التي تعرضت لها بعد استقالتي من منصبي كزعيم سياسي، عندما انهار الحزب الديمقراطي

(1) (انظر: الفصل الأول).

الاجتماعي[1]. لعل المجال الطبي لا يستخدم مصطلح «جنون العظمة»، ولكن هذا لا يعني أن أحدًا آخر لن يفعل. يمكن لجنون العظمة أن يصبح أحد المخاطر المهنية للسياسيين، وتجلياته في صيغة ناشئة «الغطرسة» موضوع دراسي مبرر لمهنة الطب.

«الغطرسة» ليست مصطلحًا طبيًّا. ويعود معناها الأساسي إلى اليونان القديمة، حيث توصف ببساطة: بأن التصرف يكون متغطرسًا عندما تُظهر قيادة قوية فخرًا وغرورًا وثقة زائدة في نفسها، وتتعامل بوقاحة واحتقار مع الآخرين. ويبدو أن القائد المتغطرس يجد لذة في استخدامه للسلطة بهذه الطريقة المسيئة. وكان مثل هذا السلوك غير المشرف محل إدانة قوية في اليونان القديمة. تُحدَّد معالم الغطرسة في محاورة فايدروس لأفلاطون: «عندما تدفعنا الرغبة بشكل غير عقلاني اتجاه الملذات والأهواء، فإننا نصبح مفرطين (متغطرسين)»[2]. ويرى أفلاطون أن «تحكُّم الرغبة» شيء غير عقلاني يدفع الرجال إلى الوقوع في الأخطاء. ويستلهم أرسطو في كتابه: «البلاغة» أفكار أفلاطون فيقول: إن الغطرسة تنبع عن الاستعلاء، لذلك «يميل الأغنياء واليافعون إلى إهانة الآخرين، لأنهم يعتقدون بأنهم بفعلهم هذا يظهرون بشكل متعال»[3].

يعود فضل استكشاف مفهوم الغطرسة وأشكاله وأسبابه وانعكاساته إلى المسرح أكثر منه إلى الفلسفة. حيث تأخذ الغطرسة عادة المسار التالي: يكسب البطل المجد والتزكية عندما ينجز نجاحًا غير مألوف، ويسيطر هذا عليه، فيبدأ بمعاملة الآخرين باحتقار وتقزز، ويظن أنه قادر على كل شيء. وتقود تلك الثقة المطلقة صاحبها إلى سوء تقدير الواقع والوقوع في فخ الأخطاء. وأخيرًا مواجهة «العقاب» الذي يقضي عليه. و«العقاب» هو اسم ربة الجزاء، وغالبًا في في المسرح اليوناني تنزل الآلهة العقاب بالمتغطرس، لأنه يتحدَّى الواقع الذي قدّرته الآلهة. ويهدف البطل المتصف بالتغطرس إلى تجاوز الحدود الإنسانية، متخيلًا نفسه متعاليًا عليها، وممتلكًا قدرات تشبه تلك التي للآلهة. ولكن الآلهة تعترض فعله، وتهلكه. والحكمة هي أن نبقى متيقظين حتى لا تثملنا السلطة والنجاح، فيصيبنا الغرور.

(1) Owen, **Time to Declare**, p. 732.

(2) **Plato, Phaedrus, 238a**, in Euthyphro/Apology/Crito/Phaedo/Phaedrus, tr. H. N. Fowler, Loeb Classical Library (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1914).

(3) **Aristotle, Art of Rhetoric**, tr. J. H. Freese, Loeb Classical Library (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1926), 1378b.

ومما لا شك فيه أن افتتان الكُتّاب المسرحيين بموضوع الغطرسة يعود لما يقدمه من فرصة سانحة لسبر أغوار النفس البشرية في إطار مسرحي مثير، كما في دراسة شكسبير له من خلال عمله كويولانس. ولكن ستضرب مسيرة التغطرس وترًا في أي أحد درس تاريخ القادة السياسيين. لقد وصف الفيلسوف ديفيد كوبر الغطرسة بأنها نوع من المبالغة الزائدة في الثقة بالنفس، يتخذ صاحبها موقفًا ازدرائيًا للسلطة، صارفًا النظر عن أي تحذير أو نصيحة قد تقال حتى قبل أن تقال، متخذًا من نفسه قدوة[1]. وكتبت الفيلسوفة حنة آرندت، المعروفة بإعجابها بأثينا القديمة، عن أوجه القصور في حاكمها بركلز، الذي كان مأخوذًا «بغطرسة السلطة»، مقارنة إياه بشكل سلبي مع مشرِّع أثينا صولون[2]. كما اختار المؤرخ آين كرشاو بذكاء عنوان «الغطرسة» و«العقاب» لسيرة حياة هتلر التي كتبها في جزئين[3].

ما أثار اهتمامي في متابعة القادة السياسيين وغطرستهم التي توصف بأنها نوع من فقدان الأهلية، هو ما يميز هذا الطراز عادة من القادة السياسيين الذين يشعرون بثقة ذاتية زائدة تجعلهم يحتقرون النصيحة المنافية لطرحهم، وأحيانًا النصيحة بشكل مطلق، والذين يبدؤون بالتصرف بطرق تتحدى الواقع نفسه، وحينها يحوق بهم العقاب وإن لم يكن دائمًا.

أريد أن أكشف ما إذا كان لهذا النوع من سلوك الغطرسة بين أوساط القادة السياسيين علاقة معينة بنوع الشخصية التي تجعل أحدهم ميالًا إلى السلوك المتغطرس، وما إذا كانت طبيعة الشخصية تخلق القابلية لأولئك الذين يحملونها وهم على أبواب دخول معمعة السياسة. ومن زاوية أهم، هل سيكون القادة السياسيون من أصحاب الشخصيات المختلفة عرضة للسلوك المتغطرس كنتيجة شبه حتمية لممارسة السلطة؟ أي: تعبير مغاير، هل تحدث تجربة دخول السلطة وممارستها في حدِّ ذاتها تغيرات في الحالة العقلية بحيث تبزغ لاحقًا في سلوك متغطرس؟. أعتقد أنه من المجدي الحديث عن متلازمة الغطرسة هذه والتي يمكن أن تؤثر على أولئك الذين في السلطة. حين يكون المرء مصابًا بمتلازمة، فتلك صنيعة

(1) David E. Cooper, **The Measure of Things: Humanism, Humility, and Mystery** (Oxford: Clarendon Press, 2002), p. 163.

(2) Margaret Canovan, ‹**Hannah Arendt as a Conservative Thinker**›, in Larry May and Jerome Kohn (eds), Hannah Arendt: **Twenty Years On** (Cambridge, MA: MIT Press, 1996), p. 29.

(3) Ian Kershaw, **Hitler 1889 - 1936**: Hubris (London: Allen Lane, 1998); Ian Kershaw, Hitler: Nemesis (London: Allen Lane, 2000) 1936 - 1945.

الطبيعة، جمع من الدلالات على هيئة أعراض وعلامات من المحتمل جدًّا ظهورها مجتمعة أكثر منها منفصلة.

تنمو قوة الأعراض السلوكية التي قد تستدعي تشخيصًا بمتلازمة الغطرسة كلما بقي رئيس الحكومة مدة أطول في منصبه، وأعتقد أن عليه أو عليها أن يُظهر ثلاث أو أربعة أعراض فأكثر وفقًا للمواصفات التقريبية التالية قبل البتّ في تشخيص كهذا:

- النرجسية التي ترى العالم كميدان لممارسة السلطة والبحث عن المجد، أكثر منه مكانًا يعاني من مشاكل تستدعي حلولًا عملية.
- الميول إلى القيام بتصرفات تضعهم تحت دائرة الضوء من أجل تفخيم وتحسين صورتهم.
- القلق من التباين غير المتكافئ بين الصورة والأداء.
- التحدث بطريقة تبشيرية عن إنجازاتهم.
- تعريف أنفسهم بأنهم هم الدولة، لدرجة أنهم ينظرون إلى وجهة نظرهم ومصالح الدولة كشيئين متشابهين.
- ميل للحديث عن أنفسهم بصيغة الغائب، أو استخدامهم لـ «نحن» التفخيمية الملكية.
- الثقة الزائدة لدرجة المغالاة في طريقة قدرتهم على تقييم الأشياء واحتقارهم للنصائح والنقد من طرف الآخرين.
- ثقتهم المطلقة بأنفسهم، حيث يعتقدون فيها أنهم يسيطرون على كل شيء، وقادرون على كل شيء.
- اعتقادهم أنهم لا يُحاسبون أمام محاكمة دنيوية من لدن زملائهم أو الرأي العام، لكن المحكمة الحقيقية التي يجب أن يمثلوا أمامها أعظم بكثير، إنها التاريخ أو الله.
- إيمان راسخ لا يتذبذب بأنه سيتّم تبرئتهم أمام تلك المحكمة.
- عدم الراحة والتهور والاندفاع.
- فقدانهم الاتصال بالواقع مع تزايد اضطرادي للعزلة.
- ميولهم إلى السماح لـ «رؤيتهم الأشمل» خاصة فيما يتعلق بقناعاتهم باستقامة آرائهم

أخلاقيًّا لتحاشي الحاجة لاعتبار جوانب أخرى من فعلهم، كفاعليتها مثلًا، والمقابل منها والنتائج الغير مرغوبة، لكنها محتملة: أي: ذهنية خشبية رافضة تغيير مسارها.

- العجز عن تنفيذ سياسة ما كعاقبة، والتي يمكن أن نسميها عجز غطرسي. حيث تخرج الأمور عن السيطرة نتيجة لتلك الثقة المبالغة بالنفس، التي تدفع القائد إلى عدم الاهتمام بعقد وحبكات السياسة. حيث يمكن إغفال تفصيل يتحالف مع طبيعة غير فضولية، حيث يتدخل في العمل الدقيق على المعضلات المركبة، إلا أن الأخطاء في اتخاذ القرار تُصنع بغض النظر عن تلك التفاصيل.

وتميل متلازمات الشخصية بالظهور عادة عند سن الثامنة عشرة وتبقى لصيقة بصاحبها طيلة حياته. تختلف متلازمة الغطرسة في أنها لا يجب أن ترى كمتلازمة شخصية بل كشيء يتجلى في أي قائد فقط حين يكون في السلطة، وغالبًا حين يلتصق بالكرسي، والتي يمكن أن تتلاشى حينما يفقد سلطته لأي سبب. ومن هذا المنظور هي مرض السلطة والشخص في آن واحد، وبالتالي فإن الظرفية المحيطة بممارسة السلطة قد تؤثر في استسلام القائد لها. وأما مفاتيح العوامل الخارجية فستكون هذه: التبجح بنجاح زائد في الإنجازات، والتمسك بالسلطة في سياق سياسي لا يكبح الحاكم فيه نفسه ويمارس فيه سلطته الشخصية؛ المدة الزمنية التي يقضيها في السلطة.

إن مهنة الطب ليست مستعدة بعد للتحليل المرضي لنوعية الخسائر الناجمة عن سلوك الغطرسة، والذي يصفه الجمهور بأوصاف غير دقيقة باستخدامه لمصطلحات مثل: «أحمق» و«مجنون» و«مخبول»، لكن للمهنة الحق في رغبتها السيطرة على استخدام لغتها. إلا أن ذلك لا يعني عدم إثارة الأسئلة من طرف الفلاسفة والمحامين والمهنة الطبية على حدٍّ سواء. ولا أدعي في هذا الكتاب الإجابة على الأسئلة إطلاقًا، ففي الفصل السابع تحدثت عن كتاب: «متلازمة الغطرسة»[1] استنادًا إلى ورقة بحثية نشرت في بريطانيا سنة 2007م فيما حذفت بعض من تفاصيلها لدعم حجة تتعلق بقضية العراق.

وبالنظر إلى مرض رؤساء الحكومة في القرن العشرين وفي الفترة الممتدة من (1901 إلى2007م). تحديدًا، يناقش الفصلان الأول والثاني: العديد من حالات مرض رؤساء الحكومات إبَّان تلك الحقبة الزمنية. وهناك خمسة فصول تعرض حالات تاريخية محددة:

---

(1) David Owen, The Hubris Syndrome: **Bush, Blair and the Intoxication of Power** (London: Politico's, 2007).

الفصل الثالث: عن مرض رئيس الوزراء البريطاني السير أنتوني إيدن خلال أزمة السويس سنة 1956م. والفصل الرابع: يقارن سلوك جون كيندي سنة 1961م خلال إخفاقه في أزمة خليج الخنازير إبَّان اجتماعه مع نيكيتا خروتشيف، وما نتج عن ذلك في السنة اللاحقة من أزمة الصواريخ الكوبية، وعلاقة ذلك بحالته الصحية والتغيرات التاريخية إبّان تلك الأحداث. والفصل الخامس: يتعلق بصحة شاه إيران في السنوات الخمس الأخيرة من حكمه، والفصل السادس: ينظر إلى حالة الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران الذي عانى من سرطان البروستات في معظم الفترة الممتدة من 14 سنة قضاها في الحكم، 11 سنة منها لم يطلع عليها العموم. ويناقش الفصل السابع: السلوك المتغطرس للرئيس الأميركي جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير حيال العراق وأفغانستان. وأخيرًا يتناول الفصل الثامن: بعض أوجه الوقاية التي يحتاجها المجتمع للتعامل مع انعكاسات مرض رؤساء حكوماتهم على حياتهم اليومية.

الجزء الأول

مرض في رؤساء الحكومة

خلال المائة سنة الماضية

الفصل الأول

1901 ـ 1953م

كان على صانعي السلام التعامل مع الواقع وليس ما يحتمل أن يكون. لقد واجهوا أسئلة كبيرة وصعبة. كيف يمكن احتواء المشاعر القومية غير العقلانية أو الدينية قبل أن يسببوا ضررًا أكبر؟ كيف يمكننا تجريم الحرب؟ إننا لا نزال نسأل هذه الأسئلة.

مارغريت ماكميلان[1]

يبحث هذا الفصل المرض في القادة السياسيين الذين تولوا السلطة الحقيقية أو أثَّروا في السنوات من (1901 حتى 1953م)، في حين يقدم الفصل التالي السنوات (1953 ـ 2007م). شهدت هذه الفترة: أي: أكثر من مائة سنة، تغييرات كبيرة في السياسة الدولية والعلوم الطبية. وظهرت الولايات المتحدة الأميركية كقوة عالمية بحلول عام 1918م، وفي سنة 1945د كانت الأقوى في العالم أجمع. سنرى في الفصل الثاني أنه بحلول عام 1989م، وعلى الرغم من الهزيمة في فيتنام، أصبحت أميركا القوة العظمى في العالم بعد انهيار الإمبراطورية السوفياتية. وفي سنة 2006م اختبرت القوة الأميركية في العراق وأفغانستان، وبدأت تصبح الصين قوة عالمية جديدة.

وكان ازدهار بريطانيا خلال الجزء الأول من القرن العشرين قد تعرض لاستنزاف من قبل حربين مدمرتين في أوروبا. وفقدت بريطانيا تدريجيًا إمبراطوريتها قطعة قطعة بعد الحرب العالمية الثانية بطريقة دراماتيكية، أي: بعد استقلال الهند الذي تمَّت الموافقة عليه في عام 1947م. وتمّ الانسحاب من شرق السويس نتيجة لضعف الاقتصاد، واكتملت العملية تقريبًا

(1) Margaret MacMillan, **Paris 1919: Six Months That Changed the World** (New York, Random House, 2002), p. 494.

بحلول عام 1967م. وانضمت المملكة المتحدة إلى الاعضاء الستة المؤسسين للمجموعة الاقتصادية الأوروبية سنة 1973م والمكوَّنة من تسعة أعضاء، مع كل من الدنمارك وإيرلندا. أصبح الاتحاد الأوروبي اليوم يضمّ سبعة وعشرين بلدًا، وهي مغامرة فريدة من نوعها مع مصير غير مؤكد، حيث شهد القرن العشرون إحراز تقدم كبير في العلاجات الطبية، وحصل كل من رونالد روس وألفونس لافيران، وهما من أهم العلماء الذين ساعدوا في إثبات نقل البعوض للملاريا باعتبارها من أخطر الأوبئة في العالم، على جائزة نوبل للطب في عام (1902 و1907م) على التوالي. وبدأ تصنيع البنسلين للتو عندما عولج به ونستون تشرشل من الالتهاب الرئوي الحاد الذي أصابه عام 1943م.

لقد تحسن التشخيص الطبي تدريجيًا طوال القرن وشهد تحولات كبيرة من خلال تقنيات الأحياء الدقيقة، كيمياء الدم، الأشعة السينية والكهربائية، وتخطيط القلب والموجات فوق السمعية. وتتالت وتيرة الاختراعات والاكتشافات المعرفية النابعة من البيولوجيا الجزيئية واكتشاف الحمض النووي والتصوير بالرنين المغناطيسي، وانبعاث البوزيترون للتصوير المقطعي بالأشعة. لقد غير هذا المدى من العلاجات والأدوية المتاحة طبيعة المشاكل الصحية للقادة السياسيين، وبالتالي انعكاس المرض على صنع السياسات. وأصبح بمقدور الناس أن يعيشوا حياة أطول، وامتدت حياتهم العملية لفترة أطول. ولا يعني هذا أن القضايا المتعلقة بالمرض وآثاره على رؤساء الحكومة، الموضوع الذي يتناوله الكتاب، ينبع من مكان مجهول ويبدأ ببساطة عام 1901م. لقد كانت واحدة من الحالات المرضية الأكثر غرابة لرئيس حكومة هي سرطان الفم عند الرئيس الأميركي جروفر كليفلاند. ففي بداية حزيران/ يوليو عام 1893م أجريت لكليفلاند عملية جراحية لسرطان الفك في سرية مطلقة على متن يخت في ميناء نيويورك. رُبط بجلسة مستقيمة على كرسي مثبت على عمود من Oneida أونيدا وأعطيت له جرعات من Nitrous Oxide أكسيد النيتروجين مشفوعة بالـ Ether. ليُزال بعدها جزء كبير من الفك، ثم قيل للإعلام إنه يعاني من وجع الأسنان فقط، لكن نشرت صحيفة: «فيلادلفيا» تفاصيل القصة إلا أنه نُفي. كان كليفلاند الرئيس الوحيد الذي انتخب لفترة رئاسية واحدة، ثم خسر الانتخابات وأعيد انتخابه لعهدة رئاسية ثانية وتوفي عام 1908م عن عمر واحد، وسبعين عامًا، لأسباب لا علاقة لها بسرطانه الفموي[1].

(1) John R. Bumgarner, **The Health of the Presidents: The 41 United States Presidents to 1993 from a Physician's Point of View** (Jefferson, NC: McFarland 1994).

ولم تبدأ الحقيقة بالظهور إلا في سنة 1917م. حين كشف عضو من الفريق الطبي سنة 1928م تفاصيل العملية وطبيعة الورم وهو ما كُشف وتداول فعليًّا في آذار/ مارس1980[1]. تعتبر قصة كليفلاند وطبيعتها السرية منسجمة للغاية مع محتويات هذا الكتاب. لكن الطب في القرن التاسع عشر اختلف كثيرًا عن كيفية ممارسته في القرن العشرين والدروس التاريخية محدودة إلى حدّ ما، وبالتالي رُكِّز على المائة سنة الماضية وما شابهها من الأحداث.

لا ترتبط الحالات التاريخية التالية خلال هذه الفترة لرؤساء الحكومة الذين تعرضوا للمرض أو يعتقد أنهم كانوا مرضى بخيط طبي يربط بينهم جميعًا، كما أنني لم أسعَ من جهتي إلى تجميع حالاتهم بشكل مصطنع، ويسعدني أن أترك تقيّيم ترتيبهم الزمني في إطار سياق كل حالة على حدة. حيث اختلف القادة السياسيون في توجهاتهم السياسية، فمنهم الديمقراطي والديكتاتوري والمستبد، وتاريخهم في بعض نواحيه لا يعدو أن يكون مجرد سجلات طبية وجيزة لحالات مرضية فردية. لكن يتّم بناء المعرفة الطبية على مثل هذه الحالات التاريخية، وأحاول في الفصل الثامن أن أجمع الدروس المستخلصة لكل الحالات واقتراح توصيات للمستقبل.

ثيودور روزفلت

تميزت شخصية ثيودور روزفلت بطاقة هائلة. وكان نائبًا للرئيس وليام ماكينلي، الذي اغتيل في 14 أيلول/ سبتمبر 1901م. تولى روزفلت منصب الرئيس عندما كان عمره ثلاثة وأربعين سنة، وأعيد انتخابه سنة 1904م وتنحى عن الحكم عام 1909م وهو ابن واحد وخمسين ربيعًا. يقارن العديد من الأميركيين نموذج رئاسته بأسلافه من كبار الرؤساء أمثال لينكولن وواشنطن. ويوضح إدموند موريس، كاتب سيرة حياته والحائز على جائزة بوليتزر، أسلوب شخصيته الساخن لدرجة وصفها: «بشخصية الحمى» مستشهدًا بفقرة قصيرة من مقال للكاتبة الفرنسية، ليون Bazalgette: «تدل هذه الفيضانات من العدوانية الظاهرة، نصفها شراسة ونصفها دعابة، على طاقة جامحة أكثر منها تفكيرًا جدِّيًا. إنها جزئية من الإفراط الذي كان جزءًا من طبيعة روزفلت.وكان لا بد للسدّ أن يفيض للحفاظ على المياه

(1) J. Brooks, H. T. Enterline and G. E. Aponte, «**The Final Diagnosis of President Cleveland's Lesion**», in Transactions and Studies of the College of Physicians of Philadelphia (1980), vol. 2 pp. 1 _ 25.

العميقة وراءه صافية هادئة»[1].وبالنسبة للشخص العادي فإن مصطلحات مثل: «الغطرسة» و«جنون العظمة» قد لا تليق بشخصية روزفلت التي كانت رمزًا للطاقة الهائلة في تسلقها وصعودها الخارق لأعلى درجات السلم السياسي.

عُيِّن روزفلت مساعد وزير البحرية في 19 نيسان/ أبريل 1887م، نتيجة لبعض الضغوط التي مارسها بنفسه للحصول على المنصب، وسرعان ما شقَّ طريقه وهيأ البحرية لأي حرب محتملة. وبعد سنة بالضبط صوَّت الكونغرس للاستقلال الكوبي، ووقَّع الرئيس ماكينلي القرار في اليوم التالي واعدًا الكوبيين بالتحكم في مقاليد حكم بلادهم بعد استكمال التحرير. دعا الرئيس في 23 نيسان/ أبريل لاكتتاب 125000م متطوعًا للجيش النظامي الذي لم يتجاوز تعداده 28000 جندي فقط. وفي غضون أيام أُنشئت ألوية روزفلت لمجموعة الفرسان القاسية وكني بـ «Teethadore» في نيويورك بسبب أسنانه الأمامية البارزة، وهو في غمرة تبوُّء مكانته ليصبح الأكثر شهرة في أميركا. قاد فرسانه تحت اسم العقيد تيدي روزفلت في معركة انتصاره في سان خوان هيل في فاتح تموز/ يوليو 1888م، بالحرب الأميركية الإسبانية، وانبرى كالعاصفة في طريقه إلى منصب حاكمية نيويورك، ومن ثم عُيِّن مرشحًا للحزب الجمهوري لمنصب نائب الرئيس.

كتب ثلاثة أطباء نفسيين أميركين، في سابقة من نوعها، ورقة بحثية عام 2006م رجحت بشكل كبير أن روزفلت كان يعاني من اضطراب ثنائي القطب لما كان رئيسًا[2]. وعلى الرغم من ذلك خلصوا إلى أن الأعراض لم تخل بفعالية الأداء الرئاسي. وذهب البعض إلى وصف روزفلت بأنه أسعد رجل عاش في «البيت الابيض»، بينما اعتبره آخرون مجرد واهم مجنون. وفي 31 كانون الثاني/ يناير 1908م كتب روزفلت رسالة خاصة وجريئة ومثيرة للجدل إلى الكونغرس الأميركي عن انضمامه لليسار التقدمي. وهو ما اعتبرته صحيفة نيويورك تايمز نوعًا من الميل إلى «الوهم»، لا سيما الجوانب التي تتعلق بمؤامرات ضده والتي وصفتها صحيفة: «نيويورك صن» بعيِّنة من «الهجاء الطنان» تستوجب استشارة الأخصائيين النفسيين.

لقد عانى روزفلت من الربو والإسهال الدوري في مرحلة الطفولة، مرض تصفه الأسرة

(1) Edmund Morris, **Theodore Rex** (New York: Random House, 2001), pp. 425 426.

(2) Jonathan R. T. Davidson, Kathryn M. Connor and Marvin Swartz, «**Mental Illness in US Presidents between 1776 and 1974: A Review of Biographical Sources**», **Journal of Nervous and Mental Disease** (2006), vol. 194, pp. 47-51.

بالكوليرا. وحذّره طبيب في جامعة هارفارد قائلًا: إن قلبه يتضرر من مضاعفات مرض الربو وإجهاد التمارين الرياضية لتقوية العضلات[1]، وإنه إذا لم يتريث فلن يعمِّر طويلًا، لكنه رفض الامتثال للنصيحة الطبية. وفي تموز/ يوليو 1883م تعرض لأزمتين حادَّتين من أزمات الربو ومرض الإسهال وصفهما فيما بعد بالكابوس. كما توفيت أمه إثر إصابتها بحمى التيفوئيد في 14 شباط/ فبراير 1884م وفي غضون، إحدى عشرة ساعة من وفاتها توفيت زوجته أليس لي، بعد ولادة طفلهما، متأثرة بأزمة من الفشل الكلوي، أي: ما يسمونه «مرض برايت»، مما دمر حياة روزفلت النفسية. ووصف انهياره في مذكراته بفقرة كبيرة سوداء وخالية وأضاف: «لقد خرج النور من حياتي» وجرى ذلك كله وهو في الخامسة والعشرين من عمره فقط[2]. ولذا شغل وقته في ممارسة الرياضة البدنية باعتبارها ملجأ للتغلب على الحزن الذي وصفه «بالرعاية الأسود» وفسَّره قائلًا: «لن يحبطك المزاج السيء طالما تغلبت عليه بالانشغال عنه»[3].

بعد قضائه فترة زمنية في المزرعة الريفية لركوب الخيل وممارسة الرياضة، تعرض لأزمة أخرى من الربو دامت أسبوعين في أواخر آذار/ مارس، وبداية نيسان/ أبريل. وبينما كان في أجواء المزرعة وتربية الماشية اكتسب قوة بدنية تحدث عنها كاتب السيِّر جو ويليام روسكوثاير، الذي تعرف عليه في جامعة هارفارد، وتنبأ أن هذه العينة من الرجولة الرائعة برقبة عظيمة وكتفين عريضين وصدر قدير، ستكافح من أجل التوفيق بين المطالب المتضاربة لعقل وجسم قويين.[4] كما تعرض لأزمة أخرى من الربو في أيلول/ سبتمبر 1887م عندما جاء المخاض لزوجته الجديدة، أديث. ومن شبه المؤكد أن هذا القلق كان من بين الأسباب التي أدت لمرضي الربو والإسهال. وبناء عليه فإن القلق اضطراب عاطفي يمكن تشخيصه كما يشخص الاكتئاب في الاضطراب الثنائي القطب.

(1) خصص ديفد (David McCullough) فصلًا كاملًا عن إصابة روزفلت بالربو في كتابه: **Mornings on Horseback: The Story of an Extraordinary Family, a Vanished Way of Life, and the Unique Child Who Became Theodore Roosevelt** (New York: Simon & Schuster, 2001).

(2) Candice Millard, **The River of Doubt: Into the Unknown Amazon** (London: Little, Brown, 2005), p. 17.

(3) المصدر نفسه ص 17.

(4) Edmund Morris, **The Rise of Theodore Roosevelt, rev. ed.** (New York: Modern Library, 2001), p. 297.

وكان إليوت شقيق تيودور روزفلت قد توفي بعد نوبة صرع وعرف عنه تناوله المفرط للمشروبات الكحولية الخطيرة. فقد رفع إليوت دعوى قانونية في أواخر 1891م ضد صحيفة نشرت خبر جنونه ونفى صحة الخبر. وانعكست تلك الأحداث على تيودور الذي لم يستطع مغادرة سريره لمدة ثمانية أيام، نتيجة الإجهاد الناجم عن تعامله مع قضية شقيقه. واعترف تيودور عندما كان حاكمًا لنيويورك في عام 1899م بتعرضه لفترات قصيرة من الاكتئاب في ذلك الربيع. وكتب إدموند مور معّلقًا على تلك الفترة بأنها شهدت: «وقوع روزفلت في مستنقع الاكتئاب واليأس»[1]. ولذا فإن هناك دليلاً واضحًا على أن القلق السريري والاكتئاب أثَّرا على صحة رجل يبلغ من العمر اثنين وعشرين ربيعًا، بينما يراه البعض في قمة صحته ونشاطه، والذي كان نائبًا لرئيس الولايات المتحدة الأميركية.

وبينما كان روزفلت يتسلق أعلى قمة لاديروندااكس في ولاية نيويورك، أخبره حارس بأن ماكينلي قُتل بطلقات نارية. وبذا أصبح رئيسًا لأكثر من سبع سنوات لم تتأثر فيها قدرته على اتخاذ القرارات بفعل تأثير مرضي الربو والقلق بعد أن خفت حدتهما، «غلبته في شبابه دوافعه العدوانية وتغَّلب في نضجه على حالته النفسية وسيطر على احتوائها كبركان راكم حممه الصلبة دون انشطار لمدة ثلاث سنوات»[2] قبل توليه منصب الرئاسة. وفي البيت الأبيض، كان روزفلت ممارسًا للملاكمة، ربما للتخلص من عدوانيته، وخلال تلك المباراة الرياضية أصيبت عينه اليسرى بعمى دائم لم يخبر به العامة أبدًا[3].

وليس هناك حالة واضحة وأكيدة من فترات الهوس في حياة روزفلت. ولكن تشير بعض الأدلة إلى نوع من الميل للهوس. «ينام روزفلت نومًا متقطعًا، بعد دوامه لفترة ثماني عشرة ساعة يوميًا، يحسُّ بعدها بالراحة والانتعاش، وهو نقيض ما يحدث للمصابين بحالة الهوس»[4]. من الجيد في حالته، رغم التناقضات في التوصيفات، اعتقاد الجمهور أن سلوكه يظهر علامات جنون العظمة، فيما يشخِّص الأطباء حالته بنوع من الهوس. فبعد فوزه في انتخابات عام 1904م، أعلن روزفلت في مزاج من الغبطة، أنه سوف يحذو حذو جورج

(1) المصدر السابق، ص 736.

(2) Morris, **Theodore Rex,** p. 16.

(3) McCullough, **Mornings on Horseback**, p. 367.

(4) Ronald R. Fieve, Moodswing: **Dr Fieve on Depression, rev. ed.** (New York: William Morrow, 1989), pp. 132 - 133.

واشنطن بعدم ترشيح نفسه لإعادة انتخابه عام 1908م. ويُزعم أنه كان في حالة من الغضب والهوس عندما هاجم مؤسستي عالم نيويورك وإنديانابوليس نيوز بتهمة التشهير الجنائي عام 1908م. وفي 15 كانون الأول/ ديسمبر أرسل رسالة نارية إلى الكونغرس، ردَّ فيها على الإثباتات التي تتهمه بالقيام بإجراءات فاسدة نيابة عن حكومة الولايات المتحدة بخصوص الحصول على لقب لقناة بنما من الشركة الفرنسية «Universelle Interoceanique» قائلًا: «لقد كانت قصصًا تشهيرية، مزيفة وبذيئة ولا أساس لها من الصحة»، وهاجم بشدة جوزيف بوليتزر، المدير المالك لعالم نيويورك، الذي كتب في نيويورك تايمز قائلًا:

> **إنه معترض بشدة على سياسة روزفلت وما يميّزها من الإمبريالية والنزعة العسكرية، والشوفينية ؛ فله مزاج عام ينعدم فيه القانون وتشتد فيه الاستبدادية، احتقار للكونغرس، واساءة للمحاكم. آسف حقًا إنه ينبغي أن يغضب أكثر، وسوف تستمر مؤسسة «عالم نيويورك» في انتقاده دون مثقال ذرة من خوف، حتى وإن نجح في إقحامي لتحرير الصحيفة في السجن[1].**

وبصرف النظر عن نوبات غضبه، فقد حطَّم روزفلت في عهد رئاسته رقمًا قياسيًا بالإنجازات. وإدراكًا منه لضرورة استراتيجية اختصار المسافة بين المحيطين الأطلسي والهادئ، طالب ببناء قناة بنما. ومنع تفسيره لعقيدة مونرو من إنشاء قاعدة أجنبية في منطقة البحر الكاريبي، وافتراض بأن الولايات المتحدة هي وحدها من يحقُّ لها التدخل في شؤون أميركا اللاتينية، تحررت كوبا وعُززت عناصر القوات المسلحة الأميركية، وكان تحقق السلام بين اليابان وروسيا في عام إنجازًا حصل بموجبه على جائزة نوبل عام 1905م. كان الاهتمام منصبًّا على تنقية الأجواء السياسية الداخلية رغم ما صاحب ذلك من انخفاض في معدل لينش lynch وانكسار لقواعد الثقة في نظام اقتصادي حر. اعترف روزفلت بأخطائه الجسيمة في التعامل مع قضية الجنود السود في حادث براونزفيل في آب/ أغسطس 1906م. وغادر روزفلت السلطة كأعظم سياسي في مجال البيئة بعد إنشائه لخمسة حدائق وطنية وثمانية عشر مَعلمًا. وكان محبوبًا نتيجة إنجازاته التي حققها بانتزاع السلطة من الكونغرس أو عن طريق الأوامر التنفيذية، رغم مزاجه الصعب والاستبداد وقلة الصبر والعدوانية في بعض الأحيان.

وكشخصية تتمتع بالاحترام ولها عداواتها القوية، تنحَّى روزفلت عن السلطة بعد عجزه

(1) «Mr Pulitzer's reply», **New York Times**, 16 December 1908.

عن وضع حدٍّ لحياة التراخي والتقاعس عن العمل. وسرعان ما ندم على اختياره الرئيس هوارد تافت كخلف له. ولم يكن تافت فعّالًا لمعاناته من مشاكل صحية كاضطراب النوم وصعوبة بالغة في التنفس، هذا إضافة إلى سمنته وسباته العميق، مما جعله يعجز عن ممارسة مهامه. لم يكن روزفلت حكيمًا في اتخاذ قراره لمحاربة كل من تافت وويلسون وودرو، المرشح الديمقراطي، وتقديم نفسه كمرشح ثالث للحزب. أُطلق عليه النار أثناء الحملة الانتخابية، وأنقذته سترة الحماية على صدره والتي يبقيها تحت سترته. وتابع متحدثًا على الرغم من قميصه الملطخ بالدماء، وأثر رصاصة مستقرة في صدره، معلنًا: «يتطلب الأمر أكثر من هذا لقتل الأيل!» وفاز ويلسون في الانتخابات بفعل الانقسام الحاصل في الحزب الجمهوري في تشرين الثاني/ نوفمبر 1912م. كتب ثاير عن ذلك التحدِّي الانتخابي المشؤوم: «إذا لم يتمكن من الفوز ليحكم فسيخرب، وعاد الادِّعاء القديم إلى الواجهة لاتهامه بالجنون من جديد»[1]. وبعد محاربته وخسارته ـ على الرغم من فوزه على الرئيس الحالي تافت ـ فإنه كان يعاني مما تشير إليه أسرته بوصفها الدقيق: «روح مرضوضة»؛ ولقلقها البالغ على صحته العقلية وتكتمها على الأمر، طلبت أسرته زيارة الطبيب ألكسندر لامبرت، لمعاينته. واعترف روزفلت للامبرت، بعد أن أصبح شخصية سياسية منبوذة، قائلًا: «لقد كنت وحيدًا لدرجة لا يمكن أن توصف ولا أن تصدق، إنك لا تعرف كيف يمكن للمرء أن يكون وحيدًا حين يرفضه بنو جنسه»[2].

ومرة أخرى سعى روزفلت للتغلب على الاكتئاب من خلال العودة لممارسة المغامرة والرياضة والبدنية، وذهب في رحلة استكشافية لرسم «نهر الشك» في البرازيل في 4 تشرين الأول/ أكتوبر 1913م. ذلك النهر، الذي يحمل اسمه الآن، هو أحد روافد نهر الأمازون المتعرج في طريقه على امتداد مساحة تقارب 1000 كيلومتر من الغابات البرازيلية الممطرة. هناك ولد روزفلت من جديد واستعاد نشاطه فيها، على الرغم من أنه كاد أن يموت في مرحلة من مراحل رحلته. وقال لابنه كيرميت أن يواصل المسيرة رغم مخاطرها على حياته، وأن يتركه وراءه مع قارورة من المورفين، كان قد أحضرها في سفره فقط لمثل هذا الاحتمال. ورفض كيرميت المسير دون أبيه العليل، لقد كان روزفلت محظوظًا بالنجاة مع التهاب

(1) Millard, **River of Doubt**, p. 13.

(2) المصدر نفسه، ص 14.

برجله وحمى. وبذلك عاد إلى ميناء نيويورك في 19 أيار/ مايو 1914م بطلًا. وبعد سنوات قليلة، بعد أن بات خيالًا من نفسه السابقة، رفض الرئيس ويلسون إعطاء الإذن لروزفلت للذهاب إلى فرنسا للقتال في الحرب العالمية الأولى التي فقد فيها لاحقًا ابنه كوينتين.

توفي ثيودور روزفلت في سن الستين في 6 كانون الثاني/ يناير1919م. قال عنه صديقه أخصائي الطبيعة، جون بوروز، واصفًا هذا الرجل الرائع الذي كان قد تعرض لحالات من الاكتئاب الدوري والقلق، وربما كان يصارع طوال حياته الاضطراب الثنائي القطب: «إن العالم أكثر وحشية وبرودة لغيابه، ولا يمكن أن نتطلع إلى نظير له»[1].

هنري كامبل بانرمان

تولى هنري كامبل بانرمان المنصب في بريطانيا سنة 1905م على خلفية استقالة آي جاي بلفور، وكان أول من تقلد رسميًا لقب رئيس الوزراء، حيث كان يُعرف أسلافه بلقب اللورد أو الوزير الأول للخزانة. شملت حكومته ثلاثة رؤساء مستقبليين للحكومات: هربرت أسكويث، ديفيد لويد جورج، وونستون تشرشل. تبعته مرحلة من الليبرالية الساحقة عندما دعا كامبل بانرمان لانتخابات 1906م. أصبح زعيمًا ليبراليًا في عام 1899م وقادهم في البرلمان ضد «حرب البوير»، وهو موقف مثير للجدل تسبّب في رسائل مسيئة، أرسلت من طرف الناس، وأحد رجالات الدين، الذي كتب مخاطبًا هنري: «أنت نذل، وجبان وقاتل، وآمل أن تواجه عقاب الخائن أو القاتل». بيد أنه لم يستسلم، لكن مرضه تدرج أثناء تقدمه بعمله في داونينغ ستريت. ففي حزيران/ يونيو1907م، أُصيب بنوبة قلبية ثانية وتفاديًا لتعطيل عمل الحكومة سمح لأسكويث، ووزير الخزانة، اتخاذ زمام المبادرة والقيام نيابة عنه في كثير من واجباته، واعتبر كرئيس لفريقه. كما في وقت سابق من السنة الماضية كسرته وفاة زوجته الذي أخلص لها. استمرت حالته الصحية بالتراجع نتيجة للنوبات القلبية المتكررة. «ولم يستقيل من منصبه بمحض إرادته، بل كافح على فراش موته وظل متشبثًا برئاسة الوزراء»[2]. لكن أطباءه أخذوا زمام المبادرة وأجبروه على الاستقالة، حيث بقي في مبنى الحكومة حتى توفي في غضون ثلاثة أسابيع في 22 نيسان/ أبريل 1908م.

كان إرث كامبل بانرمان الرئيسي مصالحة جنوب أفريقيا. لقد مهَّد الطريق لإصلاحات

(1) المصدر السابق، ص 331 ـ 335.

(2) Lucille D'Oyen Iremonger, **The Fiery Chariot: A Study of British Prime Ministers and the Search for Love** (London: Secker & Warburg, 1970), p. 228.

الحزب الليبرالي الكبيرة ودعم تصويت المرأة في ذروة حركة مطالبتها بحق الاقتراع سنة 1906م[1]. وإلى حدٍّ ما ورغم مرضه، كان من المستغرب نجاحه كرئيس للوزراء.

ولذا مع بداية هذه الوقائع التاريخية، فإن العديد من مواضيع هذا الكتاب قد تحددت مسبقًا: رئيس الحكومة، ورئيس الوزراء البريطاني، مرضى القلب في دفة الحكم، والحاجة المترتبة على تولي الآخرين المسؤولية للحفاظ على النظام وعدم تعطيله، والمناورة مع العالم الخارجي حتى لا يكتشف الحجم الحقيقي للمشكلة المطروحة. وفي هذه الأثناء يحكم رئيس حكومي آخر، رئيس الولايات المتحدة الأميركية بنشاط وبنجاح على الرغم من تاريخه مع المرض العقلي. الميزة المثيرة للاهتمام في حالة كامبل بانرمان هي أن الأطباء، على نحو غير معتاد، فرضوا الأمر الواقع وطالبوا باستقالته، في حين لم تمارس هذه السلطة الطبية من طرف أي من الأطباء والمستشارين الطبيين في مختلف الحالات التي يعرضها هذا الكتاب.

فريدة هي حالة كامبل بانرمان باعتباره أول رئيس للوزراء يوافيه الأجل المحتوم في مبنى الحكومة البريطانية 10 داوننغ ستريت، المكان ذاته الذي وصفه مرة بأنه: «منزل ثكنة عتيقة ومتهالكة». لم تكن تلك هي أسوأ حالات العجز في قرن ونيف أي: في المائة وست سنوات الماضية. فقد كانت أسوأ الحالات حالة الرئيس الأميركي وودرو ويلسون الذي لم توافِه المنية في البيت الأبيض، وإن واجه المرض الأكثر تعجيزًا لأي رئيس أثناء فترة الحكم.

وودرو ويلسون

كان وودرو ويلسون يعاني من ارتفاع ضغط الدم لسنوات عدة قبل أن يصبح رئيسًا للبلاد سنة 1913م. كما تعرض للعديد الحوادث العصبية ابتداء من 1889م فصاعدًا، والتي تعود في الأصل على الأرجح إلى طبيعة أوعيته الدموية. فضغط دم الشخص العادي هو حوالي 120 ملم من الزئبق الانقباضي و80 ملليمتر من الانبساطي والتي يُعبَّر عنها عادة بالرمز 80/ 120. وعند حالة ارتفاع ضغط الدم، يصعد ضغط الدم الانقباضي في الأوردة إضافة إلى ضغط الدم الانبساطي، مما يعكس ضخَّ القلب والقوة التي تمارس على الأوردة. ولذا ينتج ارتفاع ضغط الدم مع مرور الوقت تغيرات في جدران الأوردة مما يهيئ لحصول جلطة أو تخثر.

(1) Dick Leonard, **A Century of Premiers: Salisbury to Blair** (Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2005).

سجلت حالة ويلسون تغيرات في أوردة الشبكية في وقت مبكر من سنة 1906م. وبينما كان يحضر مؤتمر باريس للسلام سنة 1919م لم يظهر عجزه عن التقييم فحسب، بل كان ويلسون عرضة لفعل أشياء «غير طبيعية» بالنسبة له. قال آخرون: إنه تطورت لديه حالة من حالات العقل الأحادي المسار[1]. وبحلول أيار/ مايو من ذلك العام كان غير قادر على تغيير مواقفه السياسية الانعكاسية وأصبح متحاملًا ومتعنتًا في سلوكه[2]. ومن الواضح أن فاعلية قدرته التفاوضية قد تراجعت على أساس مرض دماغي، كما بدت عليه علامات الخرف نتيجة لتعدد السكتات الدماغية القصيرة. حيث وصف بأنه «مفرط في الأنانية وكثير الشك، متكتم وأقل حذرًا في تداوله لشؤون الناس»[3].

كان رد الفعل الأوروبي على ويلسون هو علامة مبكِّرة لصراع الثقافات الذي أثاره جورج بوش، مما أسفر عن «كراهية أميركا» في أوروبا على نطاق واسع. حيث تداول همسًا حديث ويلسون في المؤتمر كما لو كان يسوع المسيح، مما دعا رئيس الوزراء الفرنسي، جورج كليمنصو بأن يتهمه بأنه يعاني من خلل عقلي«وتعصب ديني»[4] مؤلمين.

تعرض ويلسون خلال الأسبوع الأخير من أيلول/ سبتمبر 1919م لجلطة متقدمة في الشريان الرئيسي في النصف الأيمن لدماغه، أي: سكتة دماغية[5]. وأصبح عاجزًا في 2 تشرين الأول/ أكتوبر، بعد تعرضه لأضرار جسيمة في الدماغ مع شلل كامل للجانب الأيسر من جسمه وفقدان الجانب الأيسر من مجال الرؤية. لقد كان خطابه ضعيفًا ومتلعثمًا. كما تعرض أيضًا لحالة متقدمة تسمى بـ «متلازمة الإهمال» أي: مهملًا نصفًا كاملًا من جسمه. كان إنكار الرئيس لحالته طبيًا في أصله، لكن لا يمكن استحضار أي مبرر لإنكار زوجته وطبيبه الخاص، الأميرال كاري غرايسون، فلقد كذبا تمامًا حول حالته. عُيِّن غرايسون طبيبًا

(1) The Impact of Wilson's Neurologic Disease During the Paris Peace Conference', in Arthur S. Link (ed.), **The Papers of Woodrow Wilson**, vol. 58: April 23-May 9, 1919 (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988), pp. 612 - 613.

(2) المصدر نفسه، ص 629 - 663.

(3) Edwin A Weinstein, Woodrow Wilson's Neuropsychological Impainnent and the Paris Peace Conference', in Link, **Papers of Woodrow Wilson**, vol. 58, pp. 630 - 631.

(4) George Walden, **God Won't Save America: Psychosis of a Nation** (London: Gibson Square, 2007), p. 226.

(5) Bert E. Park, **The Impact of Illness on World Leaders** (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1986), pp. 3 - 73.

لويلسون حين كان مجرد ضابط صغير سنة 1913م، وبمحض الصدفة أجرى خياطة جرح لشقيقة الرئيس حيث أصبحا صديقين من بعده، مما أدّى به إلى فقدان الموضوعية في رعايته للمريض.

وفي 6 تشرين الأول/ أكتوبر، تمّ أول اجتماع لمجلس الوزراء دون ويلسون، وطلب أمين الدولة روبرت لانسينغ من الطبيب غرايسون أن يبلغ مجلس الوزراء بحقيقة مرض الرئيس. وقال لهم غرايسون: «إن ويلسون كان يعاني فقط من «الانهيار العصبي، وعسر الهضم واستنزاف لنظامه العصبي». عندما ذكر لانسينغ ذاك الجزء من الدستور الذي ينص على تولي نائب الرئيس منصب الرئاسة خلال أية فترة من العجز، امتنع غرايسون عن توقيع أي شهادة للعجز، وكرر أن فكر الرئيس لم يتأثر بعد. إلا أن الواقع كان مختلفًا، لم يكن في استطاعة الرئيس ويلسون أن يقرأ ولا أن يكتب، وبقي في غرفة مظلمة، ولم يتعامل مع أي من أعمال الحكومة لعدة أسابيع. كما لم يكن قادرًا على الاجتماع بالوزراء حتى 13 نيسان/ أبريل 1920م، أي: ما يقرب من سبعة أشهر بعد الجلطة الدماغية. كان عاجزًا بشكل واضح عن اتخاذ قرارات مهمة خلال هذه الفترة، وعلى الرغم من مناقشته غرايسون أمر الاستقالة، إلا أن أيًا منهما لم يأخذ الموضوع لأبعد من المناقشة.

ومنذ ذلك الحين وفي بلدان مختلفة، كان المستشار الطبي لرئيس الحكومة يكذب ويضلل الرأي العام حول صحة مريضه، واضعًا مصلحة المريض قبل مصلحة الدولة. كان الكذب أسهل في حالة ويلسون، لأن غرايسون خدم كضابط بحرية فهو يعالج مريضًا صفته قائده الأعلى وعليه تنفيذ رغباته.

مما لا شك فيه أنه كان ينبغي لويلسون أن يقدم استقالته سنة 1919م لفترة معينة على الأقل في انتظار أن يتضح ما إذا كانت حالته الصحية ستتحسن أم لا. لقد كانت هناك عواقب سياسة حقيقية لفشله في القيام بذلك، فعلى سبيل المثال، لو تنحى ويلسون لخلفه نائب الرئيس، توماس مارشال، حيث سيتمكن الأخير من إقناع الكونغرس بالتصديق على المعاهدة المنشئة لعصبة الأمم. لقد كانت هناك حاجة ماسة إلى إيجاد نظرة توفيقية بين وجهات نظر الشخصيات القيادية مثل السيناتور هنري كابوت لودج في معارضته والسيناتور جيلبير في دعمه لمشروع قيام «عصبة الأمم» لتتمتع فيها الولايات المتحدة الأميركية بمكانة رائدة، وهو ما لو أنه حصل بالفعل لكان جديرًا بمنع وقوع الحرب العالمية الثانية.

وكجزء من نفيه لحالته الصحية، وإثباتًا منه لقدرته على التحكم في مسار الأمور، طرد ويلسون لانسينغ بشكل وقح، وذلك بعد دعوة الأخير لاجتماعات مجلس الوزراء التي عقدت في غياب ويلسون ودون إذنه. وبدأت زوجته «إديث»، في التعامل مع أعباء عمله لبضعة أشهر، حيث أعطت بمساعدة طبيب ويلسون صورة زائفة عن الرئيس المنشغل بعمله. وفي وقت لاحق، بدأ الحديث عن إديث ويلسون كأول امرأة رئيسة لأميركا. في حين لم يكن وودرو ويلسون يفكر في الاستقالة على الإطلاق. بل كان يفكر في الترشح لعهدة رئاسية ثالثة في صيف 1920م. ولذا وُضعت معلومات وصور مغلوطة لمندوبي الحزب الديمقراطي في سان فرانسيسكو على أمل التأثير على التصويت. ولحسن الحظ، كانت مجرد دعم عاطفي بدلًا من الدعم السياسي لرئيسهم، حيث صوتوا في نهاية الأمر للحاكم جيمس كوكس من ولاية أوهايو كمرشح رئاسي، ولفرانكلين روزفلت كنائب المرشح الرئاسي. ومن العجيب أن الورقة الديمقراطية منيت بخسارة ثقيلة الوزن من قبل المرشح الجمهوري وارن هاردينغ. عقد ويلسون اجتماع مجلس وزرائه الأخير في آذار/ مارس سنة 1921م وتوفي في 3 شباط/ فبراير سنة 1924م.

ديفيد لويد جورج

أصبح ولشمان ديفيد لويد جورج رئيس الوزراء في الحكومة البريطانية يوم 6 كانون الأول/ ديسمبر 1916م. وفي مناورة معقَّدة بينه وبين عدد كبير من أعضاء حزب المحافظين في ائتلاف زمن الحرب، تمّ الضغط على هربرت أسكويث لقبول مراجعة تشكيل مجلس وزراء الحرب، وهو ما فعله في 3 كانون الأول/ ديسمبر، وتراجع عنه في الرابع منه، وكانت النتيجة انشقاقًا داخل الحزب الليبرالي لا تزال مخلفاته بادية للعيان حتى اليوم.

لقد كانت صحة أسكويث جيدة في بداية حكمه، إلا أن ما ساعد على انهياره الوشيك في2 نيسان/ أبريل 1911م هو شكواه من إصابته بدوار هيستيري لمدة ثلاثة أسابيع وظهوره في حالة قصوى من الإجهاد، إثر تعامله مع أول إضراب وطني لمنقبي الفحم لعدد من الساعات الطوال. شخّص طبيبه إصابته بارتفاع ضغط الدم وحذّره منه، وطلب الحدَّ بشكل كبير من استخدام الكحول التي كانت أساسًا تقدم في شكل نبيذ، والكونياك على مائدة العشاء. ويزعم بأنه مذ ذاك الحين «بدا أنه مسيطر على مسألة تعاطيه للكحول، إلا أن السمعة نادرًا ما تستعيد نصاعتها

بعد تعرضها لأي تشوهات»[1]. كانت حالته الصحية قد تحسَّنت حتمًا فيما تبقَّى من فترة حكمه.

إن المقارنات بين لويد جورج وأسكويث صعبة، فقد كتب روي جنكينز متحدثًا عن أسكويث في عام 1987م ومعتمدًا على السيرة التي كتبها عام 1964م، محاولًا أن يكون منصفًا رغم صعوبة ذلك: «لقد تميَّز بعلمه، وحكمته، وبصيرته وتسامحه... ومع ذلك، أعتقد أنه قضى فترة طويلة في منصبه، وكان أسلوبه غير ملائم لمتطلبات قيادة الحرب». لم يكن لويد جورج بأحسن حال منه حين حلَّ محله، كانت هناك أخطاء جسيمة تمامًا كتلك في فترة خلفه إسكويث، وبالأخص، أخطاء التقدير الاستراتيجي وعدم الفعالية في السيطرة على القيادة العليا بدعم من الملك. لكن لويد جورج تميز بحماسته وشجاعته في سلوكه مما جعله زعيمًا أفضل للحرب، لقد كان ذلك بمثابة كسب لنصف المعركة»[2].

لقد قلَّلت هذه الرواية من تدخلين مهمين للويد جورج متمثلتين في إجبار الأميرالية بقبول نظام القوافل سنة 1916م، وإصراره عام 1918م على مواجهة هجوم ودندورف بهجوم شنته قوات بريطانية جديدة، وإقناعه الأميركيين بتوفير المساندة لتلك القوات[3].

كانت ترقية لويد جورج كرئيس للحكومة بمثابة إجراء حيوي للرأي العام في أيام حرب عصيبة وقاتمة، حيث بدأت تُعرَّض الملاحة التجارية للخطر إثر تهديد الغواصة الألمانية، مما أثَّر على خطوط الإمداد الحساسة للبلاد. كان النصر بعيد المنال والهزيمة محتملة، لا سيما وأن أنصار أسكويث ليسوا على استعداد للعمل تحت إمرة لويد جورج، والعديد من المحافظين لديهم هواجس، على أقل تقدير، حول إمكانية ثبات رئيس الوزراء الجديد الزئبقي في نظرهم. فعلى عكس تحالف ونستون تشرشل عام 1940م، حيث كان تشرشل عضوًا في حزب المحافظين، ويحظى بدعم غالبية النواب، فإن تحالفات جورج لويد اعتمدت على دعم النواب المحافظين، وفشلت في الاعتماد على كل من نصف نوابه الليبراليين، والحزب الوطني الإيرلندي. ومع ذلك، جعل من الضعف ميزة، فقدم ما أراده المحافظون، مجلس مصغر لوزراء الحرب يتكون من خمسة أعضاء كان فيه لويد جورج

---

(1) Colin Clifford, **The Asquiths** (London: John Pennsylvania Press, 1986), pp. 3 _ 73. Murray, (2002), pp. 192 _ 193.

(2) Roy Jenkins, **Portraits and Miniatures** (London: Macmillan, 1993), pp. 126 _ 127.

(3) Hugh Purcell, **Lloyd George** (London: Haus, 2006), p. 142.

الليبرالي الوحيد. أصبح أندرو بونار لوو، زعيم حزب المحافظين، وزيرًا للخزانة وزعيم المجلس، واستمر زعيم حزب العمل هندرسون في منصبه، كما عُيّن اثنان من المحافظين هما إيرل كرزون وفيسكونت ميلنر، قناصل إداريين للإمبراطورية، وكوزراء ة بلا مسؤوليات محددة. في الواقع، لقد احتوى رئيس الوزراء نفسه من خلال تلك الترتيبات، حيث استطاع لويد جورج المشي يوميًا بعد تناول وجبة الإفطار على طول الممر الرابط بين 10 و11 داونغ ستريت ولقرابة ساعة زمانية، لكي يقدم فيها حصيلة عمله اليومي وأفكاره الخيالية لبونار لو والمعروف بشخصيته العملية وذكائه الحاد[1]. ومن المحتمل أن تكون تلك الطريقة لاحتواء شخصية أكثر رؤساء الوزراء البريطانيين غطرسة في القرن الماضي، نوعًا من التقييد لشخصيته الجذابة وسماته الخلّاقة.

فقد ساهمت هيكلة مجلس الوزراء في نجاحه على نطاق واسع وطيلة السنوات القادمة. كتب جون غريغ السيرة الذاتية للويد جورج، وبأن سلطته على مجلس وزراء الحرب كانت: «بسبب قوة شخصيته وموهبته بدلًا من سمات القوة الكامنة في مكانته، ورغم أنه كان جريئًا وإيجابيًا وحاسمًا، إلا أنه ليس مستبدًا ولديه قدرة على المصالحة وإبقاء الناس إلى جانبه إن أراد».

احتفظ لويد جورج بصحة جيدة طوال فترة عمله في مبنى الحكومة رقم 10، ولم يعرف عنه تاريخ مع الاكتئاب، وكانت الإصابات الوحيدة التي تعرض لها هي مجرد التهابات دورية في الحلق لها صلة بأوقات التوتر العصبية. إلا أنه تعرض في أيلول/ سبتمبر 1918م لحالة حادَّة من الأنفلونزا لمدة تسعة أيام ونقاهة هشة، حين انتهت الحرب عند الساعة الحادية عشرة في اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر عام 1918م، وخلع على لويد جورج مصطلح: «الرجل الذي فاز بالحرب» تزامنًا مع الإعلان عن شروط الهدنة.

أعلن في يوم 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918م عن موعد الانتخابات العامة المقررة في غضون شهر على أن يتم إفراز نتائجها بعد أعياد الميلاد يوم 28 كانون الأول/ ديسمبر. كان التحالف يعتزم وقتها الاستمرارية في الحكم بمناهضته الإعلان الانتخابي المشترك لكل من جورج ـ وبونار. كما سمح للمرأة ولأول مرة التصويت في الانتخابات التشريعية، التى فاز بها الائتلاف بمعدل 473 مقعدًا من أصل 707 هي مجموع مقاعد مجلس العموم.

(1) **Lloyd George: War Leader** 1916 - 1918 John Grigg (London: Allen Lane, 2002), pp. 11-13.

كان الاتحادي ماكس أيتكين عضوًا للبرلمان عن دائرة آشتون لين من (1910 حتى 1916م) والمعروف لاحقًا باسم: «مالك صحيفة اللورد»، قد خدم مع القوات الكندية في فرنسا وانضم لحكومة لويد جورج كأمين لدوقية لانكستر سنة 1918م. لقد كتب بإسهاب عن فترة لويد جورج كرئيس للوزراء في زمن الحرب في كتابه الذي نشر عام 1963م، ومن ثم عن تراجع وسقوط لويد جورج:

«إنه الرجل الذي قاتل في معركة ضد أكثر الأعداء ترويعًا لبلاده. تحركت الأساطيل والجيوش العظمى تحت قيادته. ولم تُلن من عزمه المخاطر الجسام، فأخضع أعداءه داخليًا وخارجيًا. كان ليِّنًا مع الزملاء المتمردين والأميرالات العنيدين، والجنرالات المتآمرين المستعدين لتوريطه حتى وإن تطلب الأمر إشراك الملك نفسه في مؤامراتهم»[1].

في مستهل عام 1921م انشقَّ عدد قليل عن رأي بونار لوو القائل: «بأن لويد جورج يمكن أن يكون رئيسًا للوزراء مدى الحياة إن هو أراد». لكن وفقًا لإفادة بيفر بروك: «كانت سنة 1921م مستهلًا لمواجهة عامين قاسيين، ولتمزيق الذهب المرصَّع والبهرجة الزائفة أيضًا». عُرف بيفر بروك بطبعه الهادئ، واطِّلاعه على كثير من أسرار السلطة، وقد وضع قلمه على ورقته لتحليل شخصية لويد جورج، في الوقت الذي خدم أيضًا تحت إمرة تشرشل كوزير للإنتاج، ووزير للتموين ولورد برايفي سييل. وعلى النقيض من مديحه لفترة الحرب كان من أكثر المنتقدين لرئاسة لويد جورج بعد الحرب، عندما شعر بأن الغطرسة هي مصدر مشاكله:

«قال لنا اليونانيون عن رجل ذي مكانة عالية، يثق في نفسه وفي نجاحه وتغلبه على الآخرين، ثم تنقلب فضائله إلى إخفاقات بارتكابه جريمة الغطرسة. وتنهار بنية ثقته بنفسه ونجاحه وهو يكافح قدره ويواجه عقوبته، كما حدث للويد جورج في أعوام (1921 و1922م). ثم كان ما كان وانتهت خططه الجيدة والسيئة على حدٍّ سواء إلى اللاشيء.وسقط ولم يقدر أبدًا على معاودة النهوض. وها هي مخططاته الرائعة والحيل التي لجأ إليها في الحرب، وذكاؤه وتفوقه على الزملاء والجنرالات

(1) Lord Beaverbrook, **The Decline and Fall of Lloyd George**: And Great Was the Fall Lord (London: Collins, 1963), p. 141.

والسياسيين والأحبار والملك والجميع لإنقاذ بريطانيا، تعجز اليوم عن إنقاذه من الهزيمة أمام أعضاء مجلس العموم. لقد أعرب عن ثقته بأن ما قام به مرة، يمكنه القيام به من جديد للحفاظ على مقاليد السلطة ومكانة الزعامة، وكان على استعداد لإبراز تميِّزه كقائد لرجال الإمبراطورية المفكرين، أو الظهور كرسول لليبرالية والتجارة الحرة: ورجل السلام في أوروبا، أو فارس الحرب ضد تركيا وفرنسا، أو مطرقة البلشفية الروسية، أو المصلح النبيل: المدافع عن الطبقات البريطانية العاملة ـ أو بطل الملاك المحافظين في صراعهم ضد حزب العمال، أو عدو الإيرلنديين اللدود ـ أو صديقهم الحنون وهو يحتضنهم على ميدان سباق سلتيك عندما يفرون من ظلم المستبد. لقد تولَّى بالفعل كل تلك المناصب خلال تلك السنوات المأساوية (1921 و 1922م). وتولى في بعض الأحيان مسؤوليات متناقضة بصفة موازية وجرأة رائعة المنظر. أولئك الذين لم ينسوا أبدًا مشهد عظمته في أيامه العظام، ها هي تتلاشى في اضمحلالها إلى أن أصبحت جد مثيرة للشفقة[1].

تأتي وجهة نظر أخرى أكثر توازنًا لفترة ما بعد الحرب، لتؤرخ بعض إنجازاتها التي لا يطالها الشك، من خلال كتابات المؤرخ كينيث أو مورغان: «تعود جميع إخفاقات تحالفات لويد جورج من (1918 ـ 1922م)، في وقت السلم وحده لمحاولة الحكومات البريطانية في هذا القرن تسخير عمليات التوافق السياسي لغايات إيجابية»[2]ويعترف مورغان، على النقيض من بيفر بروك، بجميل لويد جورج في مجالات الإصلاحات الاجتماعية التي فاقت بكثير تلك التي قام بها في الأعوام(1909 ـ 1913م)، لتعميم التأمين ضد البطالة والإنفاق الأخير لزيادة معاشات التقاعد والضمان الاجتماعي، وإنشاء وزارة للصحة وتحقيق العدالة للعمال الزراعيين وإصلاحات التعليم. وتعتمد هذه التدابير في عمومها على طلب الخزينة لتخفيض النفقات. إلا أن بذور الدمار كانت جلية في أسلوب لويد جورج، مثل: «المخاطر القيصرية وبديهية الدبلوماسية اللامنتظمة، إضافة إلى تشويش في الرؤية وإعداد سيِّئ للقاءات»[3]. ذهب مورغان إلى أبعد من ذلك في وصف كيف انهار لويد جورج بحلول

(1) المصدر السابق، ص 10 ـ 11.

(2) Kenneth O. Morgan, Consensus and Disunity: **The Lloyd George Coalition Government** 1918-1922 (Oxford: Clarendona Press, 1979), p. 375.

(3) المصدر نفسه، ص 147.

حزيران/ يونيو 1921م حين ظهر «كرجل يائس» وهذه ركيزة أساسية «لانهياره البدني المؤقت وتأكيدًا على طابع السلطة الشخصية في مختلف برامج الحكومة، وعلى جميع الجبهات، ولذا استخدمت الصحافة رئيس الوزراء كهدفها الأساس بطبيعة الحال»[1]. ويمكن إسقاط ذلك باستدعائه مجلس الوزراء للانعقاد في الإنفرنس، حيث كان بمقربة منها لتمضية فترة نقاهة، وتسليط الضوء على صورة «الفريق المكون من رجل واحد، مدفوع إلى وئام مصطنع تقوده عبقرية شاذة ومحمومة».

وبينما كان يبيع الشرف، ويستغل الأصدقاء والأعداء ويتلاعب باعتلائه المسرح العالمي، عوقب لويد جورج بضربة قاسية في اجتماعه الشهير مع النواب المحافظين في نادي كارلتون، وأجبر على الاستقالة في اليوم نفسه الموافق 19 تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1922م الذي لو اعترف بالواقع السياسي لكان الأمر مغايرًا. وفي أواخر حزيران/ يونيو 1920م، وبدعم من تشرشل وتشارلز مكوردي، قدم لويد جورج فريقه الليبرالي لدخول الحكومة مع خطة لدمج التحالف الليبرالي والأحزاب المحافظة. كان من المدهش فشل خطة لويد جورج بالرغم من كونه في ذروة صلاحياته ليصبح بعدها رئيسًا للوزراء دون حزب سياسي. كان عليه أن يستقيل آنذاك من منصب رئاسة الوزراء ويقبل الخدمة تحت زعيم حزب المحافظين أو التنحي للمقاعد الخلفية. وحين كان لويد جورج يأسف بشدة على رفض زملائه الليبراليين لفكرة الاندماج، وعلى الطرف النقيض، أعربت زوجته عن سرورها واهتمامها العميقين، رغم عدم حبها للمحافظين.

لقد كان بمقدور لويد جورج وهو خارج السلطة أن يعمل على رصِّ صفوف الحزب الليبرالي بعد الانشقاقات قبيل الانتخابات القادمة، ولو وُفِّق بهذا لعاد لرئاسة الوزراء في وقت لاحق بعد وفاة إسكويث عام 1928م، ولأمكنه قيادة أكبر حزب أحادي في مجلس العموم. إلا أنه استمر في المحاربة لمنصب رئيس الوزراء، رازحًا تحت وطأة الحاجة للبقاء في الحكم، ولم يكن على استعداد لتحرير نفسه من عقدة السلطة. وبذلك خلق عداوة سياسية مع كل من ستانلي بالدوين ورامزي ماكدونالد، اللذين كانا على استعداد للاتحاد مهما كانت التكاليف لمنع لويد جورج من العودة إلى السلطة. ونرى

(1) المصدر السابق، ص 259 ـ 260.

من خلال تتبعنا لسقوط لويد جورج أن الأخطاء التي وقع فيها تعود بالأساس إلى سلوك الغطرسة، أولًا: لأنه كان منبهرًا بالساحة الدولية، فبعد توقيعه معاهدة فرساي في 28 حزيران/ يونيو1919م، والتي فاوض بشأنها لعدة أشهر في باريس، استمر بإمضاء وقت طويل مبالغ فيه لتكرار القضايا الصعبة في المؤتمرات ذات الأهمية الخاصة. وقد حضر ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين مؤتمرًا ما بين سنة .(1919 و1922م)[1] ولُخصت طبيعة المؤتمرات في رسم كاريكاتوري يحمل اسمها. وثانيًا: جاء للاعتقاد بأن حضوره أمرًا لا غنى عنه البتة. اشتكى تشرشل بحلول عام 1920م لما كان وزيرًا للحرب من أن رئيس الوزراء يقوم بدور وزارة الخارجية، وكتب المؤرخون عن تلك السنوات كبداية لتشكل نظام حكم رئاسي[2]. لقد لوحظ الجفاء بين الصديقين بعد ارتباطهما الطويل وعملهما المشترك على المعاهدة البريطانية ـ الإيرلندية حتى قارب لويد جورج على احتقار كل ما له علاقة بقدرة تشرشل التقييمية.

> **«مشكلة ونستون أنه يأخذ موقفًا دائمًا. ويصرُّ دائمًا على تنفيذ خططه. أخرج خطته لمضيق الدردنيل سنة 1974م ولك أن ترى ما أودى ذلك بنا. كنت كثير التفكير في كيفية التعامل معه بعد نهاية الحرب. كنت أريده بالطبع، في عضوية مجلس الوزراء وتساءلت عن المكان الأكثر أمانًا بعد الحرب لرجل لا محالة سينفذ خططه وأفكاره؟ فكرت في مكتب الحرب، بطبيعة الحال، وأنه سوف يكون في مأمن هناك. لكن أكان كذلك؟ فقبل أن ألتفت حتى، كان قد أبدى مخططه حول روسيا، وكانت النتيجة أن ضحكنا على حماقة أنفسنا في الحرب الأهلية»[3].**

إعتقد تشرشل أيضًا أن بريطانيا ليس لديها ما يكفي من القوات على الميدان في الشرق الأوسط وغيره من البلدان. أما بالنسبة للويد جورج، فإن تشرشل كان يحمل «البولشيفية في ذهنه» جاءت خلافات الزميل الليبرالي تشرشل داخل الائتلاف لتفاقم خلافات لويد جورج مع زملائه والنواب المحافظين. حيث كتب اللورد كيرزون، وزير الخارجية، لزوجته في 21 نيسان/ أبريل خطابًا يقول فيه: «إنه يريد وزير خارجيته أن يكون خادمًا شخصيًا

(1) **MacMillan**, Paris 1919, p. 188.

(2) Robert Lloyd George, **David and Winston** (London: John Murray, 2005), p. 164.

(3) C. P. Snow, **Variety of Men** (London: Macmillan, 1967), pp. 97 - 98.

أقرب ما يكون إلى الكادح، دون اعتبار للآداب العامة للحياة». كما أقال لويد جورج وزير الدولة لشؤون الهند أدوين مونتاغو في آذار/ مارس 1922م الذي تحدث في نادي كامبريدج الليبرالي عن عبقرية لويد جورج الديكتاتورية: «إن رئيس حكومتنا، أي: رئيس مجلس الوزراء، عبقرية كبيرة ولكنها غريبة الأطوار. لقد طلب الثمن الذي يمكن لكل عبقري أن يطلبه.. ألا وهو الاختفاء الكامل لمبدأ المسؤولية في مجلس الوزراء. إنه عبقري عظيم، ولكنه ديكتاتوري»[1]. وهكذا تحول لويد جورج من ديمقراطي إلى أوتوقراطي مستبد.

وفي تلك الأثناء، تورط الجيش البريطاني في فلسطين وتركيا، وبلاد ما بين النهرين (ما نسميه العراق الآن) مما أدى إلى خسائر فادحة، وبدأ العديد من النواب يحسون بشعور التململ في أوساط الناخبين. إن فشل الرئيس ويلسون في منع الهزيمة القانونية في الكونغرس الأميركي على مستوى المادة 10 من معاهدة فرساي، التي تنصُّ على التزام الموقعين بضرورة: «احترام وصدِّ العدوان الخارجي حفاظًا على سلامة الحوزة الإقليمية والاستقلال السياسي لجميع الدول الأعضاء في العصبة»، هو ما جعل أميركا ترفض المشاركة في عصبة الأمم. وأدت كل تلك التداعيات الكبيرة إلى تأثر هيبة لويد جورج في البلاد كصانع ناجح للسلام.

كانت تلك العوامل مادية حين أتى الأمر لاجتماع نادي كارلتون وتحذير بالدوين من أن «القوة الديناميكية» للويد جورج قد أدت إلى انهيار الحزب الليبرالي، ويمكنها أن تدمر حزب المحافظين. تنعكس شخصية لويد جورج الساحرة والمتناقضة جيدًا في الرسالة التي كتبها في أيلول/ سبتمبر 1923م لبونار لوو الذي عمل معه جيدًا لمدة خمس نوات. كان بونار لوو مريضًا جدًّا، وكانت رسالة استقالته في آذار/ مارس 1921م بمثابة آخر وسيلة لردع جماح النمط الرئاسي للويد جورج، إلا أن الأمر لم يؤثر على استمرار صداقتهما، ربما لأن لويد جورج كان طموحًا للغاية، في حين لا يعرف بونار لوو معنى الطموح:

عزيزي بونار

لقد سعدت البارحة بما سمعت من ماكس [أيتكين] حول ما قلته بعد عودتك لمجلس العموم من أنك ستقضي ما تبقى من سنوات حياتك، في دعم حكومة اليوم لمواجهة صعوباتها. لقد قلت له: إني امتلكت نفس الخطة لمستقبلي، لكن كان ذلك حين

(1) Purcell, Lloyd George, pp. 93 - 94.

أطلعتك على وظائفي الوطنية التي استقبلت للتو بالتشكيك. لقد كنتَ محقًا، أجد في كوني قاضيًا متسامحًا مع عيوب خلفائي أمرًا في غاية الصعوبة. إن النزاهة هي الفضيلة التي نحن بأمس الحاجة إلى أن نلبسها، ولباسي خرقة بالية. لقد كتبت مجرد مقدمة لكتاب وصفت فيه الجميع بالحياد التام. لقد أسعدني أن أراك مرة أخرى وأنت تبلي بلاء حسنًا أفضل مني عندما مررت بتجربة مماثلة. علينا أن نتناول الطعام ثانية عند ماكس، لقد كان البارحة في حالة فاحشة من ارتفاع المعنويات.

المخلص الدائم D.Ll. G[(1)]

كان لويد جورج أفضل سياسيي القرن العشرين في تعدد مهاراته، لقب بعديد التسميات: Welsh Wizard «ساحر الويلز»، أو «وحش الغابة الكبير» أو «العنزة» كما كان يسميه آخرون. وكانت له قدرة بلاغية لا مثيل لها وعبقرية نادرة على التفاوض. كان مستشار الخزانة الأكثر راديكالية وأفضل رئيس للوزراء لثلاث سنين. ولكنه كان أيضًا أول رئيس لوزراء بريطانيا يُسقط بعد ظهور متلازمة الغطرسة عليه. كما أعرب عن إعجابه بالتطور المذهل للحكومات الرئاسية، الأولى حكومة ثيودور روزفلت، والثانية حكومة فرانكلي مع بداية 1920م بدون تحفظ. وفي وقت لاحق أعجب كثيرًا حتى بهتلر في جهوده الطيبة الذاتية، كان مزاجه دائمًا متغطرسًا إلا أنه كان متماشيًا مع الروتين الديمقراطي حتى 1920م. لينكمش احترامه لكل أحد وللجميع بما فيها حرمة البرلمان. لقد توفي في 26 آذار/ مارس 1950م. قال عنه تشرشل، في أعظم مرثاة بمناسبة تأبين مجلس العموم له بعد يومين من وفاته بأنه: «رجل مواقف، موارد وطاقة إبداعية، لقد وقف على قمته دون منافس».

بول ديشانيل

من اللافت تزامن مرض الرئيس وودرو ويلسون مع مرض الرئيس الفرنسي بول ديشانيل، الذي كانت زوجته توقِّع الوثائق الرسمية مكانه نتيجة لتصرفاته الغريبة. انتخبت الأكاديمية الفرنسية ديشانيل عندما كان شابًا كواحد من ألمع الشخصيات الأدبية والسياسية في عصره. وانتخب رئيسًا لفرنسا بغالبية ساحقة يوم 17 كانون الثاني/ يناير 1920م بمعدل 734 صوتًا من أصل 888 عضوًا يحق لهم التصويت في البرلمان. وبعد فترة وجيزة من الانتخابات، بدأت الشائعات تنتشر عن سلوك من التبذير المفرط. فعلى سبيل المثال فاجأ الجماهير بحماسة

(1) Beaverbrook, **Decline and Fall of Lloyd George**, p. 233.

تقبيله لفم أحد جنود الحرب العالمية الأولى رغم حدة تشوهات وجهه، وفي 23 أيار/ مايو اختفى ديشانيل أثناء الليل من القطار الرئاسي، بينما كان مسافرًا من باريس. وربما سقط من نافذة مفتوحة كما توحي بذلك الجروح الطفيفة في ساقه، أو خرج يتمشى في واحدة من الوقفات الروتينية للقطار، وانتهى به الأمر في ملابسه الليلية والدم يسيل على وجهه في منزل حارس في مفترق طرق للسكة الحديدية. وفي أوساط هرج ومرج شُكك في الرواية أن رئيس الجمهورية سقط من القطار إلى أن استدعي الطبيب الذي تعرَّف عليه. وصرح ديشانل «ثمة فجوة عميقة في ذاكرتي بين اللحظة التي فتحت فيها باب مقصورتي، ولحظة استيقاظي هنا». زعم بأن ديشانيل يعاني من متلازمة إلبينور وهي حالة تتميز «بوعي نصفي وارتباك في مجال الحركات التي تحدث بصفة نصف أوتوماتيكية عند الاستيقاظ، والتي تحدث لمن يشرب كثيرًا من الأشربة الروحية، أو يأخذ جرعات من الأدوية المنومة قبل فترة وجيزة من الذهاب للنوم في مكان غير مألوف، مما قد يؤدي إلى حالة السقوط أو السكر التي يعاقب عليها القانون»[1]. يقال: إن ديشانيل استعمل 50 سانتغرامًا من دواء Trional المخدر.

وزعم أيضًا أنه وفي مناسبة أخرى استقبل ديشانيل السفير البريطاني وإيرل ديربي، عاريًا إلا من ملابسه الداخلية، إلا أن احتمال حدوث هذا بعيد، حيث سألت وزارة الخارجية البريطانية فلم أجد لديها وثيقة تثبت الحادثة المزعومة. وفي مناسبة أخرى وجد الرئيس يتمشى بكامل ملابسه في بحيرة رامبوييه السطحية. وفي 15 أيلول/ سبتمبر 1920م، نشرت الصحف في عناوينها البارزة: «صحة الرئيس في انهيار» وذكرت أنه قرر الاستقالة بعد تشاوره مع رئيس الوزراء. وبالفعل قدم ديشانيل استقالته الطوعية في 27 أيلول/ سبتمبر بعد تمضيته فقط لسبعة أشهر في منصبه.

يُعتقد الآن أنه بالإضافة إلى متلازمة إلبينور، ظهرت على ديشانيل أعراض متقدمة من الاختلال الدماغي[2] الذي يبدأ في كثير من الأحيان بمرض مدمر للدماغ، عادة ما يبدأ بسلوك هادئ. توفي ديشانيل عن عمر يناهز السبعة والستين سنة في 22 نيسان/ أبريل 1922م، مع عدم ذكر أي مرض في دماغه أو فحصه بعد موته.

---

(1) Jacques Delamare (ed.), **Gamier Delamare: Dictionnaire. des termes de médecine,** 26th ed (Paris: Maloine, 2000), p. 259.

(2) Francois Boller, Annie Ganansia-Ganem, Florence Lebert and Florence Pasquier, «Neuropsychiatric Afflictions of Modern French Presidents: Maréchal Henri- Philippe Pétain and Paul Deschanel», **European Journal of Neurology** (1999), vol. 6, pp. 133 - 136.

وارن هاردينغ

كان وارن هاردينغ خليفة وودرو ويلسون رسيمًا، وكان يتمتع بصحة جيدة حين وصل للحكم وهو ابن 53 ربيعًا. لكن في الحقيقة كانت لديه متاعب صحية في القلب، إضافة إلى ضيق في التنفس مسبقًا، وتوفي قبل عجز ويلسون عن أداء مهمته. لم يكن هاردينغ شخصية عظيمة ولا نشطة في كفاحه إبّان حملته التي اقتصرت على «واجهة الشرفات» وكانت صفاته المميزة محدودة للغاية. فمما لا يُنسى وصف السيناتور وليام ماكدو لطبيعة خطبه مشبِّهًا إياها: «بجيش من العبارات تجوب المناظر الطبيعية بحثًا عن فكرة. وفي بعض الأحيان فإن هذه الكلمات المتعرجة تلتقط فكرة متناثرة ترغمها في سجنها إلى أن تتلاشى تحت وطأة الانهاك والتجاهل». إن مظاهر هاردينغ تبدو خادعة حول حقيقة حالته الصحية وكذلك قدراته. فقد عانى من الاكتئاب وأعراض القلب لسنوات عدة، حتى إنه لم يتمكن من إكمال محاضرة بسببها في سنة 1918م. كما بدأ يشكو كرئيس من آلام في الصدر سنة 1922م، وارتفاع الضغط وإعياء عام لا يخفى على ناظريه. توفي هاردينغ في 2 آب/ أغسطس 1923م ورفضت زوجته تشريح جثته بعد الوفاة. من شبه المؤكد ـ رغم اختلاف الروايات حول حقيقة نهايته ـ أن سبب وفاته يعود إلى خلل في أوعية القلب الدموية تحول إلى جلطة.

كالفين كوليدج

أدّى نائب الرئيس، كالفين كوليدج، اليمين الدستورية كرئيس في اليوم الموالي لوفاة هاردينغ أمام والده الذي كان كاتب عدل، في وقت متأخر من الليل على ضوء مصباح الكروزين في مزرعة العائلة، في بليماوث فيرمونت. كما أعيد انتخابه رئيسًا في عام 1924م، متغلبًا على المرشح الديمقراطي جون ديفيس حيث حصد 382 صوتًا مقابل 136 من أصوات الهيئة الانتخابية، وفاز روبرت أفوليت مرشح التقدميين بـ 13 من أصوات الاقتراع. وفي 27 آب/ أغسطس 1927م فاجأ كوليدج الجميع بإعلانه: «لا أرغب في خوض الانتخابات الرئاسية لصيف 1928م». الذي قد يكون سببه مدى تأثره بصحة زوجته كريس التي تعاني من «وهن في الطاقة وفقدان للوزن»[1]. وكانت مثله حزينة على وفاة ابنها الأصغر متأثرًا بتعفن في قدمه، إضافة إلى قلقها من مرض والدتها. شُخصت حالة غريس بوجود ورم في الكلى

(1) Robert H. Ferrell, **The Presidency of Calvin Coolidge** (Lawrence: University Press of Kansas, 1998), p. 193.

في صيف 1928م، ألا أنها في الواقع عاشت بعده. إن فاجعته الشخصية بالاكتئاب بعد وفاة ابنه هو ما تسبب في مغادرته الطوعية «للبيت الأبيض» وإن صحت إصابته بنوبة قلبية وهو لايزال في البيت الابيض سنة[1] 1925م، فربما تكون من بين الأسباب التي ساهمت في قرار المغادرة.

أظهر تشخيص رسمي لكوليدج عام 2006م أنه كان يعاني من حالة الاكتئاب الشديد أثناء وجوده في الحكم[2]. بينما ما زال الناس ينظرون إلى الاكتئاب كيأس، فإن القلق يمكن أن يكون سمة حاضرة بنفس القدر من الأهمية في الاكتئاب، كتلك التي لدى كوليدج. لقد كان خجولًا وحساسًا في صباه، وعاني من الحساسية التي أدَّت إلى الربو واحتقان في مداخل الأنف مما تسبب بنوع من «الوقوقة في صوته» حيث اعتاد على استعمال بخاخ له، إلا إنه أبقى الأمر طي الكتمان. كان حساسًا جدًّا طوال حياته من صعوبات أنفه وحنجرته وعسر هضمه المزمن. وبوصفه بالمحامي الممل، «والعصا الغريبة في أرجاء المدينة» اندهش الجميع من زواجه بمدرِّسة طريفة وجذَّابة ومرحة أحبت نكته الجافة، وتحملت عناء نوبات غضبه وطبيعته السرية وتمتعه بعزلته. كان ينام لمدة إحدى عشرة ساعة يوميًّا. وصف صحافي ذلك بـ «يومه المثالي، باليوم الذي لا يحدث فيه شيء على الإطلاق».

ومن المدهش في الأمر أن يفكر حتى بمجرد الاقتراب من الرئاسة، خاصة إذا ما عرفنا أنه رجل يعاني من القلق الاكتئابي ويستمتع بأحلى أيامه الهادئة والخالية من الأحداث. وصف أحد الكتّاب المتخصصين في شؤون الرؤساء الأميركين كولدج «باللغز العظيم»[3]. ففي منزله عُلِّق الاقتباس المطرَّز التالي:

جلس بوم عجوز حكيم على السنديان، وكلما رأى أكثر، تحدَّث أقلَّ؛ وكلما قلَّ حديثه، زاد إنصاته؛ فلم لا نكون مثل ذلك الطائر العجوز؟.

بدأ السياسة بالترشح لإدارة مدرسة الجمعية. وفي عام 1906م انتخب للمجلس التشريعي في ماساتشوستس، المجلس العام، وكان التقاعد بعد عهدتين رئاسيتين تتكون

(1) Stephen Graubard, **The Presidents: The Transformation of the American Presidency from Theodore Roosevelt to George W. Bush** (London: Allen Lane, 2004), p. 453, note 5.

(2) Davidson et al., **Mental Illness in US Presidents between** 1776 and 1974.

(3) **Graubard, Presidents**, pp. 214 - 227.

الواحدة من سنة وهي الممارسة المحلية، ليصبح بعدها عمدة نورثهامبتون لعهدتين أيضًا، ثم خدم في مناصب عامة لعشرين عامًا كسيناتور ولاية، وحاكمًا ومن ثم نائبًا للرئيس. وكمنتخب وكرسمي كادح، ظل طوال تلك الفترة نزيهًا وصاحب كفاءة. لكن طغيان القلق لم يترك له رغبة في البقاء في الرئاسة بعد سنة 1924م، فكتب لوالده خطابًا يقول: «آمل أن تكون هذه هي آخر مرة أترشح فيها لعهدة رئاسية».

إن الأدلة شحيحة على تضرر رئاسته نتيجة لحالته العقلية. إلا أن عبارته الشهيرة لمواقفه ورؤيته الاقتصادية تلخص سلوكه تجاه اقتصاد الحكومة، وخفض الدين: «إن شأن أميركا هو التجارة». قد يكون قلقه الاكتئابي حالة شخصية، كما كتب مؤلف سيرته: «فإنه يشبه هوفر وروزفلت وترومان وأيزنهاور وحتى من بعده، في معاناتهم من شكل نادر من حمى البوتوماك ـ التي لا تصيب إلا الرؤساء فقط. مما شكل مرسومًا يقضي بأن لا يرى أي خليفة محتمل يتميز برباطة جأشه ورصانته»[1]. ظهر اكتئابه أكثر في مرحلة التقاعد وفي رسائله. توفي كوليدج يوم 5 كانون الثاني/ يناير 1933م جراء انسداد لشرايين القلب.

رؤساء الوزراء البريطانيون بونار لو، بالدوين، ماكدونالد وتشامبرلين

بعد سقوط الشخصية الغليظة ديفيد لويد جورج، أصيب رؤساء وزراء بريطانيا على التوالي بمشاكل صحية، ربما ساهمت في تراكم سياسة الاسترضاء والتهدئة. تسلم أندرو بونار لو، والذي كان يعرف مسبقًا بأنه يعاني من سرطان الحنجرة، رئاسة الوزراء في تشرين الأول/ أكتوبر 1922م من لويد جورج. وفي نيسان/ أبريل 1923م لم يتمكن من التحدث في مجلس العموم، ليستقيل في مايو، ويتوفى في تشرين الأول/ أكتوبر. لم يعرف ما إذا كان طبيبه السير توماس قد نصحه بألا يقبل أن يصبح رئيسًا للوزراء، وإن كان فعل ذلك، فلماذا يتجاهل بونار لو المشورة، وأخفى عن زملائه حالته الحقيقية. أصبح ستانلي بالدوين رئيسًا للوزراء[2] بعد استقالة بونار لو، ومن غرائب مسيرته المهنية أنه ترشح مرتين لهذا المنصب ولم يفلح في شغله نتيجة تنحيه لاعتلال صحته. وفي الثانية كان رئيس الوزراء المريض جيمس رامزي ماكدونالد.

(1) Donald R. McCoy, Calvin Coolidge: **The Quiet President** (Lawrence: University Press of Kansas, 1988), pp. 8, 30 - 31, 145, 159 - 163, 290, 389 - 391.

(2) Hugh L'Etang, **Ailing Leaders in Power** 1914-1994 (London: Royal Society of Medicine Press, 1995) pp. 640.

أصبح ماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا، والذي لا يملك خبرة وزارية سابقة، أول من يفوز باسم حزب العمال بأكبر عدد من المقاعد، دون حصوله على الأغلبية الساحقة في الانتخابات، التي وصفت بأنها غير حاسمة في كانون الثاني/ يناير 1924م. حكم لتسعة أشهر فقط قبل الانتخابات الثانية التي أعادت بالدوين إلى السلطة. أصبح ماكدونالد رئيسًا للوزراء مرة أخرى في عام 1929م، واستمر في الرئاسة حتى صيف 1931م. لقد كان لرفضه نصيحة ماينارد كينز الحاسمة لتخفيض قيمة الجنيه الإسترليني أثرًا كارثيًّا إبَّان ضربة الأزمة الاقتصادية الوطنية، حيث لم يتمكن مجلس وزرائه من ابتلاع مرارة التدابير الاقتصادية التي تتطلبها المرحلة. وتحت ضغط جورج الخامس قرر ماكدونالد أن من واجبه قيادة حكومة ائتلاف وطني، كانت مساهمة المحافظين مهولة جدًا بحيث أصبح ماكدونالد سجينهم السياسي كأمر محتوم.

في البداية كان لماكدونالد مزايا المنصب وحضور سياسي كبير وتأثير معتبر. ولكنه بدأ يشعر بالعزلة من جرّاء انفصاله عن جميع زملائه الأقدمين في حزب العمال[1]. حيث لم يبق له إلا ثلاثة وزراء سابقين وثلاثة عشر نائبًا لدعمه. لعل الأمر سيكون أسهل إن كان أصغر سنًّا أو كانت زوجته لا تزال على قيد الحياة، حيث بدأ اعتلال صحته يقلل من امكانية تحمله ببطء. لقد عانى ماكدونالد من مرض «الزرق» في عينه وأجريت له العديد من العمليات. وبحلول عام 1933م، أصبح الأمر الأكثر إزعاجًا حيث بدأت تتدهور صحته العقلية، ولعله كان يعاني من اختلال عقلي شديد. وبحلول العام 1934، بلغ ثمانية وستين سنة من عمره ولم يعد له تأثير يُذكر على صناعة السياسة البريطانية، حيث أصبح مجرد قائد صوري، وبات بالدوين الشخصية الأساسية في الحكومة الوطنية، والمسؤولة عن اتخاذ القرارات الهامة.

جاء في ورقة دفاعية بيضاء موقَّعة بالأحرف الأولى من اسم ماكدونالدز في 4 آذار/ مارس 1935م، بأن أوجه القصور الخطيرة في السياسات الدفاعية للبلاد لن تستقيم إلا بنفقات إضافية. لكن ماكدونالد لم يكن يؤمن بوضوح تلك الرؤية، وعارض حربي بوير والحرب العالمية الأولى، لأن إنكلترا لم تكن في خطر، حسب وجهة نظره. ومن الصعب عليه الآن القبول بأنه من الضروري تبنِّي إعادة التسلح بعد أن فعل كل ما في وسعه لمناصرة سياسة نزع السلاح. ولو كان حينها شابًا قادرًا على التكيف، لوجد أنه من الضروري إعادة

(1) David Marquand, **Ramsay MacDonald** (London: Jonathan Cape, 1977), p. 640.

التسليح عندما تولى هتلر السلطة في عام 1933م. لكن ماكدونالد كان مثاليًا فقط في قضية نزع السلاح، وواقعيًا متمردًا في غيرها من الأمور.

تنحّى ماكدونالد عن منصبه كرئيس للوزراء في 7 حزيران/ يونيو 1935م وتولى بالدوين الرئاسة للمرة الثالثة. وتفاقمت مشاكله وخسر مقعده في الانتخابات العامة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1935م، لكنه تمكن من العودة إلى مجلس العموم في انتخابات شباط/ فبراير التالية باستخدامه للمنصب الشاذ لمقعد الجامعة الأسكتلندية، مما مكّنه من البقاء في الحكومة كرئيس لمجلس اللوردات، ليغادر الحكومة عند تقاعد بالدوين في أيار/ مايو1937م. توفي بأزمة قلبية في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام نفسه. بحيث بات مجرد ظلّ لأسلوبه السابق في جميع النواحي الحياتية.

لم يعانِ بالدوين لسنوات عديدة من أي مرض خطير، ووصف أحيانًا بأنه رئيس الوزراء الوحيد الذي استقال طواعية. لا أعتقد أنه ادِّعاء صحيح إذ كان يعاني بشكل متزايد من مشاكل الصمم، وقد اعتبر عاملًا رئيسيًا في رغبته في التنحي ـ حسب بعض المقربين منه ـ وتسليم السلطة لنيفيل تشامبرلين. كتب تشامبرلين عام 1936م لما كان أمينًا للخزينة عن قلق وصحة بالدوين ما يلي:

> **يتعلق المصدر الرئيس للقلق بصحة بالدوين الخاصة وبالدستور. كان جليًّا أنه يعاني من الاكتئاب والصمم وغير قادر على النوم نتيجة للإجهاد والتوتر العصبي. عانى بالدوين خلال الصيف من انهيار كامل، فأعلن طبيبه أنه بحاجة لثلاثة أشهر من الراحة الكاملة كحدٍّ أدنى لاستعادة عافيته[1].**

هلّلت بريطانيا حماسًا لتولى تشامبرلين الحكم في 28 أيار/ مايو1937م لما عُرفت به شخصيته من القوة والنشاط كرئيس للوزراء، رغم أنه شارف على السنة الثمانية والستين من عمره. عمل رئيسًا للوزراء لفترة طويلة، وانتهز الفرصة للعب على مسرح الساحة الدولية. كانت نتائج دبلوماسيته الشخصية كارثية خلال أسبوعين من أيلول/ سبتمبر عام 1938م وما صدر عن مؤتمر قمة ميونيخ الأول أيام 29 ـ 30 أيلول/ سبتمبر لم يكن إلا تحذيرًا لجميع المؤتمرين في المستقبل من مخاطر الاعتقاد بأن العلاقات الشخصية يمكنها أن تتغلب على جميع المشاكل. «والأخطر من ذلك كله مثاليته وغطرسته كسياسي، يعتقد أنه الأقدر

(1) Robert Self, **Neville Chamberlain: A Biography** (Aldershot: Ashgate, 2006), p. 256.

على إحلال السلام في أوروبا»[1]. غالبًا ما يُنسى أن تشامبرلين كان يحظى بتأييد شعبي كبير لتحقيق السلام. حيث وصف خصومه السياسيون سياسته بـ «التهدئة». كان ونستون داعية من دعاة إعادة التسلح، وكأنه أرسل ليكون نبيًّا في القفار، حيث تعرض لهجمة كبيرة من المعلِّقين اللَّاذعين، وصفه أحدهم بأنه: «حوت الشاطئ». وعلى الرغم من خلافاتهما، فإن تشرشل لم يفتح النار بداية على شخص تشامبرلين. لكنه أطلق العنان لقدح وذم تسوية ميونيخ واصفًا إياها بـ «الهزيمة المؤلمة والمطلقة» أمام مجلس العموم في جلسته ليوم 5 تشرين الأول/ أكتوبر.

من المهم تحليل حالة تشامبرلين الذهنية في ميونيخ، لقد أنهكه التعب بعد يوم من عودته المتهورة إلى مطار هستون، حيث ظهر في سابقة مع الملك على شرفة قصر باكنغهام واعترف لشقيقته أنه اقترب حينها من الانهيار العصبي لدرجة «لم أعرف لها مثيلًا في حياتي»[2]. بدا في مزاجه المتهلل وكأنه قد نجح في القضاء على احتمالية الحرب. كان يقتصر في تسييره على مستوى مجلس حكومي مصغر وتهميش معارضيه. زعم المدافعون عن تشامبرلين اليوم أنه اكتسب الوقت لإعادة تسليح المملكة المتحدة، ولكن لم يكن ذلك هدفه البتة، خدع نفسه حول مصداقية هتلر وطموحاته الشريرة.

لم يوجد توثيق يدل على أن تشامبرلين قام بزيارة لطبيبه اللورد هورد أو بونار لو أو أي تلميح لتعرضه لأي مرض خطير خلال الفترة التي سبقت زيارته لهتلر في ميونيخ في عام 1938م. ولم يظهر عليه مرض كذلك في الأشهر اللاحقة بعدما أعلن الحرب على ألمانيا في أيلول/ سبتمبر 1939م، كما لم يكن مرضه عاملًا من عوامل الاستقالة عندما تنحَّى عن منصبه كرئيس للوزراء في 10 أيار/ مايو 1940م. إلا إنه وفي غضون فترة وجيزة شُخِّص مرض تشامبرلين في 24 تموز/ يوليو بوجود سرطان متقدم، بعدما كشفت الأشعة السينية عن وجود ضيق جزئي في أمعائه. لقد بقي عضوًا في مجلس وزراء الحرب بعد إصرار تشرشل، ولكنه أصبح مريضًا للغاية حيث أظهرت عملية استكشافية وجود سرطان عصي على الجراحة والعلاج. ليستقيل يوم 3 تشرين الأول/ أكتوبر 1940م ويتوفى في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر.

(1) David Reynolds, Summits: **Six Meetings That Shaped the Twentieth Century** (London: Allen Lane, 2007), p. 91.

(2) المصدر نفسه.

ليس هناك دليل ملموس على أن سرطان تشامبرلين الذي لم يُشخَّص مسبقًا كان له أي تأثير خطير على قراراته كرئيس للوزراء. ولكن سيكون من المستغرب عدم تأثره بالمرض بحلول 1939م، ولئن كنا نعرف القليل جدًّا عن الآثار المبكرة للسرطان، فهناك أدلة وإن كانت في جزء منها قصصية، تشير إلى أن السرطان يسرِّع عملية الشيخوخة، ومن المرجح أن يكون مصحوبًا بحالة من الاكتئاب، وغالبًا ما يصاحب ذلك تباطؤ في عمليات الدماغ والجسم عامة. ولقد تأثر تشامبرلين عام 1938م بكل من الإرهاق والإجهاد، ففي آذار/ مارس 1939م زار وزير الخارجية ر.أ. بتلر، المعروف عادة باسم: «راب» تشامبرلين ليخبره باحتلال الإيطاليين لألبانيا، حيث ذهب إليه في مبني رئاسة الحكومة رقم 10، ووُصف بأنه كان عند النافذة المفتوحة لمكتب الدارسة، يرمي البذور للطيور وبدا منزعجًا من قدوم بتلر إليه. وأعرب عن دهشته من انزعاج بتلر حول الأخبار السيئة، إذ قال: «متأكد أن موسوليني قرر ألا يكون ضدنا». وعندما تحدث بتلر عن الخطر الذي يتهدد منطقة البلقان، نفى تشامبرلين الأمر قائلًا: «لا تكن سخيفًا، اذهب إلى منزلك واخلد للنوم» وواصلَ تغذية الطيور[1].

المقلق في القصة هو القدرة على خداع الذات، وما يعطي المصداقية لهذه الشهادة كونها بتسجيل بتلر، السياسي الذي أيَّد سياسة التهدئة وتسوية ميونيخ. من الممكن أن يكون تشامبرلين ضحية لمتلازمة الغطرسة في وقت مبكر من رئاسة الوزراء. لقد كان يتصرف بقدرات محدودة أقل بكثير من قدراته الذاتية بعد تسوية ميونيخ، ويعود ذلك لمعاناته من (النقرس) أو مرض المفاصل، وسرطانه الخفي في انتظار التشخيص. يتلخص مزاجه في القصيدة الخماسية الفكاهية المتداولة في وايتهول بوزارة الخارجية عام1939:

«رجل الدولة المسن صاحب المفاصل الملتهبة
حين سئل عن مغزى الحرب المشتعلة
قال في رد مكتوب «أنا وزملائي
نبذل قصارى الجهد لنكتشف الأجوبة».

(1) William Manchester, **The Caged Lion: Winston Spencer Churchill** 1932-1940 (London: Michael Joseph, 1988), p. 421.

أفضل دفاع عن سياسة تشامبرلين هو التأكيد على أنه أصبح أكثر واقعية عام 1939م حول سياسية هتلر، واستغلال الوقت لصالح برنامج التسلح، وعلمه بأن بريطانيا مرغمة على القتال. ومع ذلك لو وجد في رئاسة الوزراء رئيس جديد ومناسب أكثر سنة 1939م في مبنى رقم 10، لصنع الفرق في تلك الشهور الحرجة، ولساعد الأمر في كبح جماح تقدم هتلر لاحتلال المزيد من الأقاليم. ولكن في تلك المرحلة لم يكن من الجدير اختيار تشرشل ليحل محل تشامبرلين، بل كان من الأجدر بالقيادة أن تختار اللورد هاليفاكس للمهمة. إلا إنه وعلى الرغم من ذكائه ووطنيته ولقبه: «الثعلب المقدس»، فإن هاليفاكس لم يعترف بضرورة دخول بريطانيا لمخاطر الحرب عام 1940م بعد واقعة دان كيرت وسقوط فرنسا لهزيمة هتلر.

أدولف هتلر

يتوقف الافتراض الشعبي لجنون أدولف هتلر في جزئية منه على فداحة جرائمه ولكن، ربما أيضًا، في أسلوبه، أو على الأقل أسلوبه البلاغي، كما في تصوير النشرات الإخبارية لخطاباته والمسيرات الضخمة في نرمبرغ، حيث بدا كالمجنون في صراخه. كان خطابه جوهريًا بما يكفي، وكان بإمكانه أن يتحدث بصوت خافت وبنبرة هادئة. كما كان في متناوله أن يكون مهذبًا وخلوقًا، إلا أنه كان يشتعل غضبًا. فوجئ الكثير من مشاهدي الفيلم الألماني الواقعي«Downfall»، الصادر في بريطانيا عام 2005م عند عرضه لأيام هتلر الأخيرة في القبو ببرلين بأنهم لم يروا وحشًا.

كان هتلر كالمجنون في أوقات الغضب، ولكن من وجهة نظر طبية فإن تشخيص المرض العقلي لا يتمّ إلا في حالة الإعاقة، ومهما كانت طبيعة التركيبة الذهنية في حالة هتلر، فمن المستحيل الجدال بأنها جعلته في حالة إعاقة. فعلى العكس تمامًا، ارتقى إلى السلطة المطلقة، ثم برع في الحسابات الدقيقة والانضباط الذاتي.

لقد ضربت الأزمة الاقتصادية العالمية التي بدأت عام 1929م في الولايات المتحدة إثر الانهيار المفاجئ لسوق الأسهم بنيويورك، ألمانيا بشدة سيما في عام 1931م. ورأى هتلر الفرصة السياسية سانحة في ظل المناخ الاقتصادي القاسي حينها لحثِّ الحلفاء على دفع التعويضات التي لا يزال يصرُّ على إعطائه إياها. واستمر في استغلالها بمهارة بارعة. كتب آلان بولوك في كتابه: «سيرة هتلر»: «كان الاستياء هو مزاج شريحة واسعة من الأمة الألمانية

عام 1930م، وكان لهتلر مخزون لا ينضب من الاستياء ممثلًا في شخصيته، إلا أنه قدم لشعبه سلسلة من التبريرات لتبديد اللوم الناتج عن سوء حظهم»[1]. كانت اللائحة طويلة، ركزت أساسًا على الحلفاء (وخصوصًا الفرنسيين)، والتعويضات وجمهورية فايمار والمضاربين الماليين والأعمال التجارية الكبيرة والشيوعيين، وأهم من ذلك كله قضية اليهود. انتشرت نزعة الكراهية لمعاهدة فرساي على نطاق واسع في ألمانيا وبناءً على شروطها، فإن ثلاثة ملايين ألماني يعيشون الآن في بولندا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا، وما زالت النمسا ترفض أن تتوحد مع ألمانيا.

رأى هتلر في حساباته أن الطريق الأفضل للسلطة هو بقاء الرئيس العجوز والعاجز بول فون هيندينبيرغ في منصبه. خرج فيلد مارشال هيندينبيرغ - بشكل غير مستحق - من الحرب العالمية الأولى كبطل عسكري، وأصبح رئيسًا لجمهورية ألمانيا عام 1925م، على الرغم من شيخوخته وشكوكه حول الفكرة القائلة بإنشاء الجمهورية الديمقراطية. رأى هتلر بأنه يمكن استغلال الدستور، الذي يعطى هيندينبيرغ صلاحيات واسعة ليستخدم القوات المسلحة لقمع المعارضة، وتعليق العمل بالدستور. كانت استراتيجية هتلر متمثلة في استخدام سلطة هيندينبيرغ على الجيش الألماني لكسبه إلى جانبه في إطار تسلمه القانوني للسلطة خلفًا لرئيس عاجز جسديًا عن مواصلة الحكم.

وبحلول أواخر 1932م تعرض هيندينبيرغ لضغوط من الصناعيين والمصرفيين للسماح لهتلر بمنصب المستشار. والتقى هتلر بأوسكار، نجل هيندينبيرغ، وكانت جولة ناجحة. وفي 4 كانون الثاني/ يناير 1933م إلتقى هتلر المستشار السابق فرانز فون بابن، واتفقا على صفقة يقنع بها «بابين» هيندينبيرغ لدعم هتلر ليكون المستشار على أن يكون «بابين» نائب المستشار، والجنرال ورن فون بلومبرج وزيرًا للدفاع. وطلب هيندينبيرغ من هتلر تشكيل حكومته يوم الاثنين 30 كانون الثاني/ يناير1933م. حيث ظهر مرة أخرى دهاء هتلر، وذلك بإدخاله ثلاثة أعضاء من الحزب النازي في حكومته. ثم حُلَّ مجلس النواب الألماني ودُعي لإجراء الانتخابات. نزلت قوات العاصفة النازية إلى الشوارع للانتقام. قسم الشيوعيون صوت الحزب الديمقراطي الاجتماعي، وفاز الحزب النازي في الانتخابات بنسبة 43.9% من الأصوات مما أعطاهم الأغلبية في مجلس النواب الألماني. وكانت النتيجة من حرمان

(1) Alan Bullock, **Hitler: A Study in Tyranny** (London: Odhams Press, 1952), p. 143.

النواب الشيوعيين هي إصدار قانون يمكِّن هتلر من الحصول على أغلبية الثلثين اللازمة لتمرير القوانين، إذ لم يعد بالإمكان كبح جماح سلطته.

وقبل التصويت في 21 آذار/ مارس، اتفق النازيون والجيش في حفل رسمي كبير في كنيسة بوتسدام كارزن للاحتفال بافتتاح دورة الرايخستاغ. ومشى الرئيس العجوز هيندينبيرغ مع المستشار الشاب بشكل واضح في الممرات. وأشاد هتلر في خطابه بالرئيس فيلد مارشل، وانحنى ليمسك بيد الرجل العجوز. وبهذه اللفتة الدرامية كسب ود الجيش وأصبح هتلر رئيسًا قانونيًّا للحكومة، وتوصل إلى احتواء السلطة بشكل مطلق.

بدأ فصل اليهود من وظائفهم في الخدمات العامة كالمحاماة والجامعات في 8 نيسان/ أبريل 1933م.وفي21 حزيران/ يونيو 1934م تطورت الأزمة وذهب هتلر لرؤية هيندينبيرغ بعد أن أصابه الخرف واشتد عليه المرض. أبلغ بلومبرغ هتلر بأن الرئيس كان على وشك أن يعلن حالة الأحكام العرفية ويسلم السلطة للجيش، إلا إذا حدث أمر استثنائي يحدُّ من سلطة مليوني جندي من قوات العاصفة النازية. وفي يوم 29 حزيران/ يونيو، حين أُستدعي الدكتور فرديناند زاوربروخ ـ أحد أكبر رجالات الطب الألماني ـ لرؤية الرئيس، تحرك هيرمان غورينغ وهتلر سريعًا، خوفًا من تسرِّع هيندينبيرغ وإعلانه لحالة الأحكام العرفية حتى وهو على فراش مرضه. اعتقل وقتل ليلتها أرنست روم زعيم النازيين وغيره كثر، وقد أثلج صدر هيندينبيرغ وأنصاره من العسكريين لما بلغتهم أخبار الحدث.

توفي هيندينبيرغ في 2 آب/ أغسطس، وأعلن على الفور أن منصب الرئيس والمستشار سُيدمجا في شخص هتلر ليصبح رئيسًا للدولة، وكذلك القائد الأعلى للقوات المسلحة للرايخ. ووقع «بابين» وبلومبرغ إعلان تغيير القانون. وفي اليوم نفسه قدَّم الضباط ورجال الجيش الألماني يمين الولاء لقائد الرايخ والشعب الألماني أدولف هتلر وليس للدولة، أو الدستور. وفي استفتاء 19 آب/ أغسطس أيّد الشعب الألماني التغيير ليكون هتلر قائد الرايخ والمستشار بأغلبية ساحقة 89.93% من أصل 95.7 القوائم الانتخابية التي صوّتت بنسبة 86.06% من حصيلة الاقتراع. هذا وقد ساعد نشر الرئيس هيندينبيرغ للعهد السياسي المؤيد لهتلر، ولكن من دون تفضيله شخصيًّا، حيث صرح برغبته في استرجاع النظام الملكي. انتظر هتلر طويلًا حتى 4 شباط/ فبراير 1938م ليضيف لقب بلومبرغ لنفسه في الاجتماع الوزاري الأخير للرايخ الثالث، ليكون القائد العام للقوات المسلحة. بالإضافة إلى لقبه القائد الأعلى، وتخلصه من منصب وزير الحرب. وبذلك أصبح الجيش الألماني الفريد

بقوته وعتاده تحت إمرة هتلر شكلًا ومضمونًا. وأعتقد أنه لا يوجد إنسان يعاني من عجز نتيجة لمرض عقلي، يمكنه الوصول إلى هذه النتيجة بمثل هذه المهارة.

بدأ هتلر بعد وفاة هيندينبيرغ بتفكيك مجلس الوزراء بلا هوادة وببرودة أعصاب، إلى أن تمّ له ذلك بعد الاحتلال الناجح لسوديتنلاند في تشرين الأول/ أكتوبر 1938م. كانت السياسة الداخلية أمرًا جانبيًا لهتلر، حيث ركَّز تفكيره وحساباته على السياسة الخارجية وإعادة التسلح بشكل منتظم في تحدٍّ واضح لمعاهدة فرساي والتخطيط لتوسيع حدود ألمانيا وذلك باحتلال المنطقة المنزوعة السلاح المتاخمة للحدود الفرنسية في آذار/ مارس1936م. ومع بداية الحرب الأهلية الإسبانية ومعارضة هتلر الشديدة والطويلة لمد البلشفية في تموز/ يوليو 1936م، أصبحت الحرب حتمية مع الاتحاد السوفياتي. لقد ادَّعى أن تصرفاته كانت دفاعية، ونواياه سلمية لكنها كانت كذبة كعادته.

كانت حسابات هتلر صحيحة في تقديره أن احتلال تشيكوسلوفاكيا في آذار/ مارس 1939م لن يستفز بريطانيا وفرنسا لإعلان الحرب، ولكن غزو بولندا سيؤدي لا محالة إلى إعلانها. واعتقد هتلر أنه لن يُقهر إثر زيارته لباريس في الصباح الباكر بعد أن احتلتها قواته في14 حزيران/ يونيو1939م. وبدأت تتشكل عنده خطة جديدة بعدما أصيب بجنون العظمة لتوسع انتصاراته[1]. ففي 29 تموز/ يوليو 1940م، التقى برئيس عمليات الفيرماخت العسكرية الجنرال ألفرد جودل وقرر غزو روسيا في أقل من عام أي: في أيار/ مايو1941م.

أبلغ كبار قادته العسكريين بخطته في 31 تموز/ يوليو. وبحلول نهاية عام 1940م اعتقد هتلر أن الولايات المتحدة قد تكون مستعدة لدخول الحرب إلى جانب بريطانيا بحلول عام 1942م[2]. كان حذرًا للغاية من إصدار أي تعليمات لجيشه قد تستفز أميركا أو تعجِّل من إجراءات دخولها للحرب. وهو ما أكده جوزيف كوبل في وقت لاحق، حيث صرَّح في 14 أيلول/ سبتمبر 1941م: «كلما طال أمد تأخير الإعلان الرسمي للحرب، كان ذلك أفضل بالنسبة لنا»[3]. والقول بأن ذلك عكس وجهة نظر هتلر أمرٌ شبه مؤكد، وعليه أشار الأميرال إريك رايده بأن: «يطلب الرئيس هتلر مزيدًا من توخي الحذر وتجنب أية حوادث

(1) Ian Kershaw, **Fateful Choices: Ten Decisions That Changed the World 1940-1941** (London Allen Lane, 2007), p. 65.

(2) المصدر نفسه، ص 85.

(3) المصدر نفسه، ص 409.

في الحرب أو الإبحار قبل حوالي منتصف تشرين الأول/ أكتوبر»[1]. حيث جاءت مشورته تلك بعد خطاب روزفلت الذي دعا فيه إلى إطلاق النار حال رؤية الألمان في 17 أيلول/ سبتمبر. وفي 4 كانون الأول/ ديسمبر لاحظ وزير الخارجية الإيطالي Galeazzo Ciano أن توريط أميركا هو آخر ما يريده الألمان. واتصل به نظيره الألماني يواكيم فون ريبنتروب هاتفيًا لسعادته بهجوم اليابان على الولايات المتحدة.

وفي أواخر 1941م تجمعت في شخص هتلر كل السمات الرئيسية لمتلازمة الغطرسة. لم يكن يعاني في هذه المرحلة من حياته من أي من الأمراض الطبية المعروفة. ولم تكن هناك أي أدلة مقنعة عن معاناته من أمراض عقلية رغم محاولات لا حصر لها تهدف لتشخيص حالته. فهو لم يعان من الهوس المرتبط بالاضطراب الثنائي القطب، ولم تظهر عليه بوضوح أمراض الاكتئاب، ولا حالات الهوس.

وفي البحث عن لحظة غطرسة هتلر التي أدت إلى حتمية لعنة العقاب عند آلهة اليونان «نيمسيس»، أعتقد أن الفترة الحرجة هي من لحظة الهجوم الروسي المضاد على القوات الألمانية في أنحاء موسكو فجر الجمعة 5 كانون الأول/ ديسمبر 1941م[2] حتى بعد الظهر 11 من الشهر نفسه عندما أعلن هتلر أنه وفقًا لأحكام ميثاق الثلاثية في 7 أيلول/ سبتمبر 1940م فإن ألمانيا وإيطاليا مضطرتين، إلى جانب اليابان: «بأن يكافحوا سوية من أجل الدفاع عن حرية واستقلال شعوبهم وإمبراطورياتهم ضد إنكلترا والولايات المتحدة الأميركية».

كانت لتلك الأيام الستة الحاسمة في كانون الأول/ ديسمبر 1947م دلالة خاصة في ألمانيا، تمامًا كما حدث خلال الأيام الخمسة في لندن أيار/ مايو 1940م، نظرًا لأهميتها وخطورتها عند شعوب الإمبراطورية البريطانية والعالم كله. فخلال تلك الفترة أخذ هتلر بلا هوادة قراره المصيري مما أدى حتمًا إلى انتحاره في برلين عام 1945م. اتخذ مسوغ شن حرب على الولايات المتحدة في اللحظة نفسها التي كان يفشل فيها استيلاءه على موسكو. أخذ القرار على الرغم من وجهة النظر القانونية الواضحة لدى وزير خارجيته القائلة بأنه لا يوجد في ميثاق الثلاثية ما يلزم ألمانيا بالتحرك لإعلان الحرب ما لم تهاجم الولايات المتحدة

(1) المصدر السابق، ص 409 ـ 410.

(2) Rodric Braithwaite, **Moscow 1941: A City and Its People at War** (London: Profile, 2006), pp. 304 _ 320.

اليابان. شنّت تلك الأخيرة هجومًا مفاجئًا على الأسطول الأميركي في بيرل هاربر في 7 كانون الأول/ ديسمبر، مؤكدة بأن القوات الألمانية والإيطالية، التي اعتادت على الإعلانات الرسمية للحرب، لم تشعر بأي التزام للدفاع عن اليابان. دفعت أخبار الهجوم الياباني هتلر ليقول، وفقًا لكاتب يوميات، بأنه: «لا يمكننا أن نخسر الحرب على الإطلاق... لدينا الان حليف لم يُهزم طيلة 3000 سنة»(1). حدث ذلك عندما كان الجنود الألمان يواجهون هجومًا خطيرًا في نواحي موسكو 8 كانون الأول/ ديسمبر من لواء القوة السوفياتية 16 تحت قيادة الجنرال كونستانتين روكوسوفسكي وهزيمة كريوكوف، مما اضطره إلى تغيير مقر إقامته في تشرين الثاني/ نوفمبر.

لم يكن روزفلت تحت أي ضغوط من الكونغرس أو من الرأي العام لإعلان الحرب على ألمانيا. ومع ذلك فإن مؤشر مزاج هتلر يوحي بحتمية الحرب مع الولايات المتحدة باستباقه الأحداث، واستهدافه إثارة الرأي العام الأميركي برفع الحظر المفروض على القوارب الألمانية في مهاجمتها للسفن الأميركية يومي 8 ـ 9 كانون الاول/ ديسمبر. وما إن اختار إعلان الحرب على الولايات المتحدة حتى استعاد السوفيات مقاطعة إسترا في اليوم نفسه في 11 كانون الأول/ ديسمبر. من المؤكد بأن هتلر كان يعرف الوضعية الحقيقية في ساحات القتال في جميع أنحاء موسكو. فلم تعلن وكالة الأنباء السوفياتية «Sovinformburo» من قبل خبر الهجوم المضاد في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر، لكنها أصرت في 13 كانون الأول/ ديسمبر على أن تنشر كل الصحف عناوين الهزيمة الألمانية والتي جاءت كالتالي: «انهيار الخطة الألمانية لمحاصرة واحتلال موسكو»(2)، «هزيمة القوات الألمانية على مشارف موسكو» وفي 14 كانون الأول/ ديسمبر أمر ستالين بإزالة آثار الحرب من مصانع موسكو وجسورها ومبانيها العامة.

محا هتلر كل ما حدث من ذاكرته رغم متابعته الدقيقة للأحداث العسكرية والهجوم الروسي أيام 5 ـ 8 كانون الأول/ ديسمبر. إن تحدِّيًا عسكريًا بهذه الخطورة يعتبر مناسبة سانحة لأي قائد لإعادة تقييمه ودراسة خياراته، وكذلك الاستماع لنصيحة الخبراء إلا إذا كان استثنائيًا في غطرسته. تجاهل هتلر كل الخيارات والإمكانيات، وفتح جبهة سياسية وعسكرية جديدة على أقوى دولة في العالم، رافضًا المشورة المهنية المحذرة له من طبيعة

(1) Diary of Walther Hewel, 8 December 1941, **Institut fur Zeitgeschichte**, Munich ED 100.

(2) Braithwaite, **Moscow** 1941, p. 307.

المجازفة. وبالطبع يبقى الجدل واردًا حول منطقية وحتمية قرار بهذا الخطورة، مقارنة مع استراتيجية سابقة، لقد كان هناك بديل على الأقل.

وفي حين كان اليابانيون يضغطون من أجل إعلان الحرب، كان هتلر يريد توقيع اتفاق جديد مع اليابان من الأفضل أن يتأخر إلى حين انتهاء تقييم الهجوم الروسي. عُقد الاتفاق صبيحة 11 كانون الأول/ ديسمبر ومنع اليابان من إمكانية الاتفاق على سلام منفصل مع الولايات المتحدة. يسأل إيان كيرشاو (Ian Kershaw) عمّا إذا كان إعلان الحرب «لغزًا محيرًا؛ فترة عظمى من جنون العظمة المطلق Megalomanic» وأجاب بنفسه: «ليس هناك لغز، من وجهة نظر هتلر فإن الامر مجرد توقع لقضية حتمية. تصور بعيد محير وغير قابل للتفسير...ونظرًا لقياسات أولوياته فإن قراره كان عقلانيًا»[1]. اتضحت طبيعة الجانب المظلم من «أولوياته» في اليوم التالي عندما أعطى هتلر إشارة الضوء الأخضر لزعماء الحزب النازي في الرايخ بمستشارية برلين، للمضي قدمًا في إبادة اليهود في أجزاء أوروبا التي احتلها النازيون. وادّعى هتلر أنه قد تنبأ بهذا الاحتمال في خطابه أمام مجلس النواب الألماني في 30 كانون الثاني/ يناير 1939م.

كان طغيان نزعة العقلانية في سلوك هتلر بمثابة العنصر الأهم لمتلازمة الغطرسة. وصل هتلر إلى نقطة معنية من قيادته بحيث أصبحت أحكامه، واكتشافاته، وتصوراته هي ما يهم، ومسلمات لا تقبل النقاش إطلاقًا. ولم يعد يقيم وزنًا لوجهات نظر الآخرين كما تضاعفت أخطاءه؛ أصبحت أخطاءً بالغة الغطرسة. اتسمت شخصية هتلر بالعقلانية في بواكير 1930م، وظلت كذلك في ممارسته للسلطة حتى صيف 1940م، ولولا طغيان الغطرسة على أسلوبه في القيادة لأخذ العبرة الكاملة من أخطائه العسكرية في موسكو، وحافظ على ضرورة مواصلة سياسته السابقة لتجنب استفزاز الولايات المتحدة عسكريًا. وفي أواخر عام 1941م تجاهل هتلر الواقع السياسي والعسكري لمعرفته العميقة برغبة الرأي العام لأميركي بتجنب الحرب. كان بإمكانه العودة إلى رغبته السابقة لتقديم صفقة سياسية لبريطانيا وتجنب دخول الولايات المتحدة في الحرب القادمة. لو كان توقف من جانب واحد عن القصف، وعرض على تشرشل إجراء محادثات، وطلب من روزفلت استخدام مساعيه الحميدة من أجل التوصل إلى تسوية، ونأى بنفسه عن الطبيعة المشينة والمفاجئة لهجوم اليابان، لما أعلن

(1) Kershaw, **Fateful Choices**, p. 423.

روزفلت أصلًا الحرب على ألمانيا. وحتى لو كان هتلر محقًّا بحتمية الحرب مع الولايات المتحدة، كان بإمكانه استغلال بضعة أشهر بتركيزه على أولويات برلين لتلك المرحلة ممثلة في مهمة دحر الهزيمة العسكرية على مشارف موسكو.

ومن العلامات المميزة لمتلازمة الغطرسة، أنها لا تقبل البتة أي نوع من عمق التفكير والتكيف مع فرضيات سابقة، أو إجراء تقييم جذري لاستراتيجية جديدة. فالزعيم في قبضة قوى اليقين والثقة العمياء بالنفس، مما يؤدِّي حتمًا إلى لعنة العدوانية والعقاب كما سبق.

كانت حالة هتلر العقلية موضع نقاش طويل. طلبت وكالة الاستخبارات المركزية السابقة، وتحديدًا مكتب الدراسات الاستراتيجية، دراستين نفسيتين لشخصيته عام 1943م. كتب الدراسة الأولى خبير هارفارد في مجال دراسة الشخصيات الدكتور هنري موراي، لكنها لم تُنشر حتى عام 2005م[1]، وكتب الثانية المحلل النفسي الشهير الدكتور والتر لانغر التي لم ترفع عنها السرية إلا بعد أن تحوّلت إلى قسم المحفوظات الوطنية في أواخر 1960م، وشكلت أساسًا لكتاب نشر فيما بعد عام 1972م[2].

كانت نتائج تشخيص دراسة موراي هي الهستيريا، جنون الاضطهاد وانفصام الشخصية، والميول لعقدة أوديب، والتقليل من أهمية الذات، و«الرهبة من الزهري» والتي عُرّفت بأنها: الخوف من العدوى الدموية خلال مباشرة النساء. وصف المؤرخ روبرت وايت دراسة لانغر بأنها: «تحليل نفسي إيحائي عميق لا يمكن لأي دارس جاد لشخصية هتلر بأن يتجاهله». كان هناك اتفاق عام في استخدام المفردات النفسية بين لانغر ومتعاونيه في الوقت الذي ربما كانت فيه حالة هتلر المرضية نفسية وعصابية، وشبه مطابقة لانفصام الشخصية، إلا أن «العصابية» لا تعدُّ كلمة يستخدمها الأطباء اليوم كثيرًا، والاضطراب العصابي ليس مرضًا. إن تشخيص حالة الانفصام في تلك الأيام لم يكن مفهومًا كثيرًا وكان يتمّ خلطه بمفهوم حالة الهوس والاكتئاب التي تعرف الآن بالاضطراب ثنائي القطب. هناك جدل بين المؤلفين حول مفهوم جنون هتلر، إذ لا يعتبر جنونًا بالمعنى العام للكلمة، ولكنه بمثابة «حالة عصابية يفتقر صاحبها إلى الموانع العادية في حياته»[3].

---

(1) Dr Henry A. Murray, **Analysis of the Personality of Adolph Hitler** (1943), available from the Cornell University Law Library website (http://library.lawschool.cornell.edu).

(2) Walter C. Langer, The Mind of Adolf Hitler: **The Secret Wartime Re port (New York: Basic,** 1972).

(3) المصدر نفسه، ص 126.

ركز لانغر على دراسة حادثة في حياة هتلر بناءً على ردة فعله السابقة، لمَّا تعرض تعرضًا طفيفًا لغاز الخردل في الحرب العالمية الأولى، فظهر أعمى وأخرس لفترة معينة. وعن طريق الاستدلال استخلص آراؤه من حالات أخرى. خمَّن لانغر أن هذا قد يكون ناجمًا عن صدمة في طفولة هتلر، لما اكتشف والديه في خضم الجماع الجنسي، لكنه لم يتمكن من تسجيل أي حادث معين، أو معلومات واقعية لإثبات ما حدث في حالة هتلر. وعلى أية حال، كتب في الآونة الأخيرة الطبيب النفسي في جامعة كولومبيا، الدكتور مايكل ستون: «بأن إيعاز ما شاهده هتلر في إطار ممارسة الجنس على مستوى أسرته، أعطاه زخمًا كبيرًا في تلك الأيام كمصدر نفسي للاضطراب»، قضية لا تحمل أهمية طبية خاصة مع تراجع نظرية العلاقة السببية وعلاقتها بالاضطرابات النفسية[1]. ويضيف واصفًا فيضانات المقالات التي كتبت حول الصحة العقلية لهتلر على مدى الخمسين سنة الماضية: إنها لا تعدو أن تكون مجرد «هذيان نفسي».

صنف لانغر شذوذ هتلر اعتمادًا على رواية غير موثقة لجيلي راوبال ابنة أخته غير الشقيقة، أنجيلا، التي وصفت تجاربها الجنسية مع هتلر قبل أن تنتحر[2]. ونجهل مدى الشذوذ في العلاقة الجنسية بين هتلر وإيفا براون التي تزوجها في المخبأ قبل أن ينتحرا سوية. وعلى أية حال لا يعتبر الشذوذ في حدِّ ذاته مرضًا، ففي استنتاج لإريك فروم يقول فيها: إن هتلر ضرب مثلًا في أفضل توازن ممكن «ما يمكن تخمينه في اعتقادي حول رغباته الجنسية بأنها تعتمد على المشاهدة الجنسية بشكل كبير، والممارسة السادية عن طريق الدبر (اللواط) مع سيدات من الطبقة السفلى للمجتمع، وإهانته لذاته أمام سيدات الطبقة العليا»[3].

مصدر آخر من التكهنات لتفسير شخصية هتلر وقراراته، هو أن له «خصية» واحدة. وتلك قصة معروفة على نطاق واسع، إضافة إلى كونها موضوع أغنية ساخرة أثناء الحرب لا زال البعض يتغنى بها حتى اليوم. تأكدت هذه الرواية نتيجة لفحص ما بعد الوفاة الذي أجراه السوفيات على البقايا التي احترقت من جسده. يختلف اختفاء الخصية من عدم نزولها فهتلر لم يكن يعاني بشكل واضح من أي نقص في إفرازات هرمون تستوستيرون. وفي وقت لاحق من حياته وصف له طبيبه الشخصي الدكتور ثيودور موريل حقنة من خصيتي

(1) New York Times, 31 May 2005.

(2) Langer, Mind of Adolf Hitler, p. 168.

(3) Erich Fromm, The Anatomy of Human Destructiveness (New York: Owl, 1992), p. 546.

الثور في جرعة من سكر العنب، ولكنها لم تكن علاجًا بديلًا. وصف الطبيب موريل خلطة غريبة من الأدوية: جرعات كبيرة من ديكسيدرين وPervitin (شكل من أشكال المنشطات)، والكافيين والكوكايين وكمية كبيرة من حبوب الدكتور كوستر المضادة للغاز والتي احتوت على جرعات صغيرة من سم الأستريشينين والأتروبين[1]. ربما أدَّت التركيبة إلى زيادة التوتر لدى هتلر أكثر مما كان في حالته الاعتيادية، ولكن تناوله لتلك الأدوية كان بعد خسارته للحرب.

ضعفت قدرة هتلر على اتخاذ القرارات فقط بعد أن أصبحت هزيمته قضية حتمية. حيث أظهرت نتائج تخطيط القلب في آب/ أغسطس 1941م، أن هتلر يعاني من بداية الشيخوخة وانسداد في الشرايين، ولكن بقيت صحته في حالة جيدة بالرغم من حالتي الوسواس والأرق اللتين كان يعاني منهما. وببطء أصيب هتلر بمرض الشلل الرعاشي (باركنسون)[2] ما أدَّى إلى ارتعاش في يده اليسرى، وتردد في كلامه وقد لوحظ ذلك في شباط/ فبراير 1943م، وارتعاش على رجله اليسرى عام 1944م. كما أظهرت نتائج رسم القلب تدهور في حالة قلبه الصحية. لم يكن هناك علاج فعَّال لمرض الشلل الرعاشي (باركنسون) عام 1940م، لكن من المحتمل ألا يكون قد أثَّر ذلك على قدرته في صناعة القرارات الأساسية التي حددت سلفًا في إطار أهداف أسلوبه الاستراتيجي الطموح. توقفت حالة رعاش هتلر بغرابة بعد مؤامرة شتاوفنبرج (التي سميت باسم زعيمها، الضابط في الجيش الألماني) في 20 تموز/ يوليو 1944م عندما انفجرت قنبلة في صندوق الوثائق قرب مخبئه. مزق الانفجار طبلة أذن هتلر وأفقده توازنه. ساءت الحالة النفسية لهتلر فأصيب بحالة من الذعر والارتياب النفسي كواحدة من الآثار الخطيرة المترتبة عن الانفجار. لكنه بقي قادرًا على ممارسة سلطته، وبحلول نهاية تشرين الأول/ أكتوبر تورط بشدة في تحضيرات هجوم آردن، بينما كان لا زال يحكم قبضته على الجيش.

---

(1) Ian Kershaw, **Hitler 1936 -1945**: Nemesis (London: Allen Lane, 2000), pp. 726 _ 728.

(2) يُعد مرض الشلل الرعاشي (باركنسون) اضطرابًا تنكّسيًا مقترنًا بالشيخوخة، حيث يظهر غالبًا في النصف الثاني من العمر. ويصحبه تغيرات تنكسية واضحة في خلايا العُقد القاعدية القريبة من نصفي الكرة المخيين في الدماغ، واللتين تتحكمان بحركة الجسم. عادةً لا يكون هناك علامات أخرى لإصابة دماغية. ويشيع بين الرجال أكثر من النساء، حيث يرتبط بنقص المرسل العصبي دوبامين، ولكنه مبدئيًا يستجيب جيدًا لمضادات الكولينيَّات مثل الليفودوبا. ويتَّسم المصاب به بارتعاش وتصلب. ويكون الارتعاش ملحوظًا عندما تكون اليد أو الرجل ساكنة ومرتاحة، بينما يسبب التصلب مشيًا بطيئًا، وتعابير وجه باردة، وصوتًا ذا نسق واحد.

بدأ هتلر بتعاطي الكوكايين عقب انفجار القنبلة في تموز/ يوليو 1944م باستخدامه لكمية 10 في المائة من التركيز بشكل متكرر بواسطة خياشيمه، بمعدل مرتين من استنشاق المخدر يوميًّا، هذا بالإضافة إلى جرعات الدكتور موريل الأخرى، مما فاقم لديه عنصري التهيج والتسرع في اتخاذ القرارات وفق أنماط سلوكه السابقة والمفاجئة. وتراجعت قدراته على اتخاذ القرارات بحلول عام 1945م ولم تعد تقارن بفعاليته السابقة، لكن لا نستطيع أن نصف هذا بأنه مرحلة إعاقة عقلية. كان نمط هذه القرارات في وقت لاحق منسجمًا مع مجموعة أنماط تفكيره قبل تدهور حالته الصحية، وما زال مسؤولًا عن تلك القرارات.

ليس هناك أي أدلة مقنعة على أن حالة هتلر يمكن تصنيفها على أنها اختلال عقلي، لكن ينبغي أن نتصوَّر دائمًا كما هي الحقيقة في الغالب، على أنها تجسيد للشر السياسي. وعلى الرغم من حجم الكتابات المتعلقة بصحته، فمن الصعب أن نرى أن خيطًا له علاقة بتأثر قدرته على اتخاذ القرارات أو تفسير نزعته المضادة للسامية، التي ربما تعود إلى سكنه في فيينا عندما كان شابًا فقيرًا، حيث كانت معاداة السامية متفشية هناك. وفي وقت لاحق بينما كان يعيش في ميونيخ ويقاتل في الحرب العالمية الأولى، أصبح كارهًا للاتحاد السوفياتي الشيوعي، ومتطلعًا إلى رؤيته لألمانيا كقوة عالمية. وعلى أية حال فإن محاولة نسب الجرائم التي ارتكبها النظام النازي فقط لشخصية زعيمه، هو في حدِّ ذاته خطأ كبيرًا. اتهم هتلر بالجرائم خلال اثني عشر عامًا من نظامه الاستبدادي، ولم يقتصر على قاعدة ضيقة ولا على أنصار النازية فقط، بل إن قوة الكاريزما الهتلرية واستخدامه مهارات الدعاية التي لم تسمح له بفرض إرادته على كتلة معادية ومترددة فحسب، وإنما ضاعف من وتيرة الحماسة لديهم واستغلال مساندتهم فيما أراده. حظي هتلر بمساندة الشعب ككل - ملايين الأفراد - والتزموا له ودعموا قضيته. وغالبًا ما تمّ تجاهل هذا الجانب في التحليلات التي تركز أساسًا على خصائصه الشخصية. ومن المثير جدًّا تتبع «الحل النهائي لليهود» الذي اعتمده هتلر وهملر. «لم يكن هناك مخطط للجريمة المفروضة من أعلى سلم في الحكم، ولم ينشقَّ أحد من القاعدة أو يعترف بخطأ القيادة. ولم تُجبر جماعات النازيين بفعل تهديدات تذكر تدفعها لارتكاب جرائم القتل»[1]. كانت مشاريع جماعية لعدة آلاف من العموم وجدت دافعًا قويًا في قرار فتح الجبهة الروسية. ولحسن الحظ كانت مجموعة من الرجال والنساء الألمان الشجعان يقاومون النازية من داخل الرايخ الثالث، دون ذكر لأسمائهم أو أفعالهم.

(1) Laurence Rees, Auschwitz: **The Nazis and the Final Solution (London: BBC, 2005)**, p. 21.

ولولا انتحار هتلر في مخبئه، لكان قد قبض عليه لمحاكمته في محكمة نورمبرغ العسكرية الدولية، وأدين بارتكاب جرائم ضد الإنسانية، ولحُكم عليه بالإعدام شنقًا حتى وإن قدم فريق الدفاع في مرافعته حجة أنه مختل عقليًّا، فإن الخبرة الطبية للمحكمة لن تقبل بمصداقية تلك المطالبات. الحقيقة التي لم تعد تقبل الجدل هي أن هتلر شخصية متطرفة وابن عائلة مفككة. وسواء كان عصابيًّا أو منحرفًا جنسيًّا أو صاحب ميول نفسية قد تكون صحيحة أو لا تكون، فإن ذلك كله لا يكفي لتشخيص أنه مريض من منظار طبي.

لن يتوقف الاهتمام بدراسات حالة هتلر النفسية طالما هناك اهتمام بدراسة التاريخ نفسه. لكن من غير المرجَّح أن مثل هذه الدراسات ستجد له براءة من ذنبه وجرائمه الشريرة. يرى كاتب سيرة هتلر، إيان كيرشاو، أن إعادة احتلال منطقة الراين عام 1936م تركت الألمانيين في نشوة من الرضى عن أنفسهم وقدَّمت لهتلر مكانة هامة. ورأى المقربون منه تغييرًا «أكبر من مجرد عصمته الشخصية أو رمزيته الدينية التضليلية لبث خطابه... رأى في مزاجه التبشيري مصيرًا باطنيًّا يوحده بالشعب الألماني». فقال لهم: «إنها معجزة زمننا... لقد اكتشفتموني من بين الملايين... واكتشافي لكم هو ثروة ألمانيا العظيمة»[1]. أصبح هتلر «أكثر إيمانًا بتسميته الدينية FUHRER الفوهرر الخاصة، مغرورًا ومتكبرًا ومستبدًا لحدٍّ مرحلة الكوارث، وكانت مرحلة العقاب الفاصلة بحلول عام 1936م»[2].

كان هتلر المهندس الرئيس للحرب العالمية الثانية. وكان مصدر إلهام الإبادة الجماعية لليهود. «كانت ألمانيا التي أنتجت أدولف هتلر قد شاهدت مستقبلها في رؤيته السياسية ولهذا خدمته بيسر وشاركته غطرسته وعقابه أيضًا»[3].

ونستون تشرشل

أصبح ونستون تشرشل رئيسًا للوزراء في 10 أيار/ مايو1940م، بعد أن بلغ من العمر الخامسة والستين. وأخيرًا واجه هتلر رئيس حكومة عازم على مقاومته، فلقد حفظت حكمة تشرشل وتقديره العالم من بطش هتلر في حين كان يجري جلاء القوات من دونكيرك وسط موجة من المفارقات حول نجاح عملية الإنقاذ، التي تمّت بنجاح في خمسة أيام قبل نهاية الشهر الأول من رئاسة تشرشل. لم يفهم واقع تلك الأيام الخمسة فقط إلا حفنة قليلة لكن

(1) Kershaw, **Hitler 1889 - 1936**: Hubris (London: Allen Lane, 1998), p. 607.

(2) المصدر نفسه، ص 590 - 591.

(3) المصدر نفسه، ص 841.

جون لوكاكس استعادها لنا ببراعة[1]. استخدام تشرشل كل مهارة سياسية في ذخيرته لمنع وزير الخارجية اللورد هاليفاكس - المعروف بقوة ارتباطه بسياسة التهدئة - من الاستجابة لمبادرة السلام التي حملها إليه السفير الإيطالي يوم السبت 25 أيار/ مايو. ولرغبة هاليفاكس بالتفاوض، حظي بدعم رئيس الوزراء الفرنسي بول رينو الذي كان موجودًا وقتها في لندن. وأدى هذا إلى تسمية المبادرة في وايتهول، بمكر إلى حدٍّ ما، باسم: «خطة مونسنيور رينول». فشل الرجال في مدى تقييم التزام بنيتو موسوليني بإعلان الحرب، وقال لوزير خارجيته غالياتسو تشانو يوم 13 أيار/ مايو بأنه: «سيعلن الحرب في غضون شهر. وأنه سيهاجم فرنسا وبريطانيا جوًّا وبحرًا» وفي 29 أيار/ مايو أبلغ قادته العسكريين أن إيطاليا قد تدخل الحرب في أي وقت بعد الخامس من حزيران/ يونيو[2].

عارض هالفاكس بشدة - بعد 16 يومًا من تنحيه لصالح تشرشل ليصبح رئيسًا للوزراء - بداية المناقشات في مجلس الوزراء. وكان لديه حدٌّ أدنى لسقف المفاوضات التي يجب ألا تكون لها أضرار «تدميرية على الاستقلال البريطاني». لم يكن هاليفاكس مستعدًا للتخلي عن الأسطول أو سلاح الجو الملكي البريطاني لإنجاح المفاوضات، ولكنه كان على استعداد للتضحية بجزء من الإمبراطورية، مثل مالطا وجبل طارق أو بعض المستعمرات الأفريقية «لإنقاذ البلاد من كارثة يمكن تفاديها»[3]. ولأن واجبه كوزير للخارجية البحث عن فرص للسلام، فإن جذوة مهاراته الدبلوماسية لم تلين في واقع سياسي مسدود لا تلوح في أفقه أية فرصة للسلام، فقد كان تشرشل محقًّا عندما عرف غريزيًّا حقيقة موقف المفاوضات من زاوية أن هتلر هو عدو بريطانيا، وأما موسوليني فمجرد واجهة. فما إن بدأت المفاوضات عند هذه النقطة إبَّان الحرب، حتى أصبح وقف إطلاق النار فورًا هو المطلب الوحيد الذي لا رجعة عنه إطلاقًا. وبعد الإذعان لمطلب وقف إطلاق النار، لن يكون تشرشل قادرًا على العودة إلى الحرب إذا ما قُوبل بشروط هتلر المُذلة لإنهائها، وذلك ما كان يخشاه.

قبل مجلس وزراء الحرب[4] موقف تشرشل بعد تسع جلسات صعبة أيام 26 و27 و28

---

(1) John Lukacs, **Five Days in London** (New Haven, CT: Yale University Press, 1999).

(2) Kershaw, **Fateful Choices**, pp. 153 -155.

(3) David Reynolds, **In Command of History: Churchill Fighting and Writing the Second World War** (London: Penguin, 2005), pp. 169 - 174.

(4) **The war cabinet**, 38.

أيار/ مايو. ويعود الفضل الكبير لنيفيل تشامبرلين في دعمه لتشرشل ضد هاليفاكس بعد أن كان محايدًا، وبعد موقفه الحاسم والخروج ضد صديقه الوفي. قدم تشامبرلين تبريرًا لقبوله لقرار تشرشل برغبته في الإبقاء على عضويته في مجلس الحرب. أقر تشامبرلين بأن تشرشل كان متناقضًا، ونادرًا ما كان يعاديه بشكل مباشر في مواقفه عندما كان رئيسًا للوزراء. جاء انضمام هاليفاكس لرأي أغلبية مجلس وزراء الحرب بعد جولة للنزهة في حديقة مبنى الحكومة رقم 10، لاحظ فيها تحسن أداء تشرشل الذي نال أيضًا تأييد 25 من زملائه الوزراء خارج مجلس الحرب، بعد استماعهم لخطابه الملهم في جلسة خاصة. واتفق مجلس الحرب على ألا تتمّ إثارة أي سؤال عن شروط السلام، قبل أن تفوز بريطانيا في المعركة. ولكن تشرشل لا يعني بالفوز في المعركة الجوية منها فقط، ولكن في المعركة البحرية أيضًا في المحيط الأطلسي.

من المثير للاهتمام، أن تشرشل لم يذكر في جميع كتاباته وخطبه لما بعد الحرب أنه صاحب الفضل في قيادته لدفع مجلس الحرب لرفض المفاوضات مع الإيطاليين. كتب في المجلد الثاني من مذكراته الحربية: «أروع ساعاتهم»(Their finest Hour): «قد تعتبر الأجيال القادمة أنه من الجدير بالذكر أن الإشكالية الكبرى حول ما إذا كان علينا القتال لوحدنا لم تجد مكانًا على جدول أعمال مجلس الحرب»[1]. ومع ذلك كانت نقاشات مجلس الوزراء مثالًا رائعًا للحكومة الديمقراطية في أوقات المخاطر الوطنية. وتدل أيضًا على الطابع الحقيقي لشخصية تشرشل.

وإلى هذا الوقت لا وجود لأي أثر من الاكتئاب أو سلوكيات الهوس أو الغطرسة. ما يتمّ تقديره عند قراءة التفاصيل الكاملة، هو أنه استخدم سياسيًّا حجة منطقية ومارس مهارة سياسية في ترسانة لكسب معركة سياسية بالغة الأهمية عبر نقاش مفتوح مع زملائه. وبعد وقت قصير من الهجوم الياباني على بيرل هاربور، غادر تشرشل لندن متوجهًا إلى الولايات المتحدة أولًا عن طريق قطار اسكتلندا الليلي عشية 12 كانون الأول/ ديسمبر1940م. وأبحر من Gourock صباح اليوم التالي على السفينة الحربية دوق يورك، ووصل خليج تشيسابيك يوم 22 كانون الأول/ ديسمبر، وطار إلى واشنطن لتناول العشاء مع الرئيس روزفلت. وليس

(1) Winston S. Churchill, **The Second World War, vol. 2: Their Finest Hour** (London: Reprint Society, 1951), p. 156.

من المستغرب وصوله منهكًا، إذ اتصل بطبيبه الخاص السير تشارلز ويلسون، قبل أن يصبح طبيبه الخاص اللورد موران، لمعرفة ما إذا كان بإمكانه أخذ حبوب للنوم. كان تشرشل سعيدًا جدًّا بخلوده للنوم عندما قدَّم له ويلسون قرصين من الباربيتورات الأحمر المنوم[1].

وفي ليلة 26 كانون الأول/ ديسمبر، أصابت تشرشل نوبة قلبية خفيفة في غرفة نومه في البيت الأبيض. عبَّر ويلسون لاحقًا في كتابه بمزحة عن افتخاره بتأديته لواجبه تجاه الدولة «حينما دخلت أميركا للحرب في وقت لا يوجد فيه من هو أفضل من تشرشل للأخذ بيدها، أشعر بأن إعلان إصابة رئيس الوزراء بنوبة قلبية سيكون أمرًا كارثيًا»[2]. قال تشرشل لويلسون صبيحة يوم 27 كانون الأول/ ديسمبر: إنه يعتقد بأنه أجهد إحدى عضلات صدره عند فتحه إحدى النوافذ. ومن حكمة ويلسون أنه لم يخبر تشرشل أبدًا بأن وصفه لألم ذراعه وأسفل صدره وهو عادة الوصف الكلاسيكي للذبحة الصدرية أو قصور الشريان، بل جعل تشرشل يصدِّق فعلًا بأن فتحه للنافذة هو السبب، وفضَّل أن تأخذ الأمور مجراها الطبيعي. عمد ويلسون للهدوء في محاولة منه لعدم تخويف تشرشل فلم يطلب له جهاز تخطيط القلب. دخل تشرشل صباحًا مشادة شرسة مع الجنرال جورج مارشال بشأن مسألة حيوية وحدة القيادة، في وقت لا زال يدخن السيجار في سريره. وظل رائعًا في أدائه طيلة الأيام القليلة المقبلة. فقد ذهب إلى كندا بالقطار يوم 28 كانون الأول/ ديسمبر، ثم عاد إلى واشنطن. طار إلى ولاية فلوريدا لقضاء عطلة يوم 5 كانون الثاني/ يناير حيث كان يسبح في البحر يوميًا وعاد إلى واشنطن بالقطار في 11 كانون الثاني/ يناير. ثم أصرَّ على أخذ قارب الطيران للعودة إلى إنكلترا عن طريق برمودا يوم 16 كانون الثاني/ يناير والهبوط في بليموث. كان رئيس الوزراء بعيدًا لأكثر من شهر، قضى منها أربعة عشر يومًا تحت سقف البيت الأبيض وحضر خلالها ثلاث عشرة حفلة من حفلات العشاء مع الرئيس، وثمانية اجتماعات رئيسية مع كبار الموظفين. كان إنجازًا كبيرًا للجميع، خاصة بالنسبة لشخص يعاني من الذبحة الصدرية.

كانت صحة تشرشل جيدة إلى حدٍّ ما طوال فترة الحرب. ظل يأكل وجبات كبيرة ويدخن

---

(1) David Bercuson and Holger H. Herwig, **One Christmas in Washington: The Secret Meeting between Roosevelt and Churchill That Changed the World, pb ed.** (Woodstock, NY: Overlook Press, 2006), p. 129.

(2) Lord Moran, **Winston Churchill: The Struggle for Survival 1940 - 1965** (London: Constable, 1966), pp. 16 - 17, 644.

عددًا لا يحصى من السجائر ويشرب كميات كبيرة من الكحول. لم تتأذ صحة تشرشل كثيرًا من شربه الكحول، وإن كان تركيزه يتراجع خاصة عندما يبقى نشطًا حتى ساعات مبكرة من الصبح، وذلك عند تناوله لوجبة العشاء متأخرًا. بدأت ذاكرته بالتراجع وتوترت أعصابه وضاق صدره بقادة الحرب العسكريين، كما هو واضح جدًّا من ملاحظة غير ودية في مذكرات رئيس هيئة أركان الدفاع فيل مارشل (سُمي اللورد آلان بروك لاحقًا) مستعيدًا لواحدة من تعليقاته عن أجواء الحرب: «أنا متضايق حتى الموت: من هذه الاجتماعات الليلة.. والرائحة الكريهة لآخر اجتماع لا تزال في خياشمي!». (تشرين الثاني/ نوفمبر 1943م).

أصيب تشرشل بالالتهاب الرئوي في كانون الأول/ ديسمبر 1943م لما كان في زيارة لشمال أفريقيا. وفي آذار/ مارس 1944م كتب بروك عن تشرشل: «وجدناه بمزاج يائس، وأخشى أن تكون بداية تقهقره»[1]. وكما تقوم به اليوميات الحقيقية فإن بروك كشف عن خيبة أمله الخفية وأطلق أحكامًا فورية. وقد انتُقد بروك ظلمًا على تعبيره، فأهمية اليوميات إن كتبت بصدق أنها تقدم فهمًا عميقًا وهامًّا. عبَّر بروك وغيره من كُتَّاب اليوميات الحربية عن خطورة عامل التعب وتأثيره الحاسم على اتخاذ القرارات الهامة، وكيفية صعوبة التعامل مع تشرشل في تلك الأوقات بالنسبة لأولئك الذين عملوا معه. كشف بروك أيضًا بطرق أخرى، مثالًا رائعًا عندما وصف كيف تصرف تشرشل بنكتة صبيانية ليتبول على أول خط للحرب العالمية الأولى «خط سيغفريد» عند زيارته القوات البريطانية في آذار/ مارس 1945م.

عانى تشرشل طوال حياته من نوبات اكتئاب حادة، كما ذُكر في المقدمة[2]. وكان لعائلة والده تاريخ مع هذا المرض. وصف ويلسون مناقشة تشرشل لحالات الاكتئاب الأسود الذي تعرض له عندما كان شابًا، وعند زواجه وفي مجلس العموم، وكيف أنه تحدث عن المشاعر الانتحارية الماضية. قال له تشرشل: إنه لم يرغب يومًا بالوقوف على حافة منصة القطار السريع، إذ كان يفضل دائمًا أن يفصل بينه وبينها بعمود، لأن أبسط فكرة شيطانية قد تنهي كل شيء. وصف تلك المشاعر بأنها نوبات من اليأس.

---

(1) Field Marshal Lord Alanbrooke, **War Diaries 1939 - 1945** (London: Weidenfeld & Nicolson, 2001).

(2) Anthony Storr, **Churchill's Black Dog, Kafka's Mice, and Other Phenomena of the Human Mind** (New York: Grove Press, 1965), p. 15.

وعندما أصبح تشرشل رئيسًا للوزراء، تمامًا مثل الرئيس تيودور روزفلت، بدأت تظهر عليه نوبات عنيفة من تقلب المزاج الذي صاحبه في شبابه. وفي كتابات ابنته، عن فترة اكتئابه وإحباطاته العميقة، شعرت بأن الاكتئاب قد: «كان رفيقًا له في الغالب في سنوات مبكرة، لذا فهو لا يعرف مدى قوة هذه المشاعر. ولكن بالنسبة له الرفقة الآمنة والمحبة الزوجية قد أبعدت الكلب الأسود إلى مأواه». وأضافت بأن كتاباته ولوحاته كانت: «تطغى عليها فكرة الأجسام المضادة لعنصر الاكتئاب في طبيعته»[1]. وسواء أكان ذلك الكلب الأسود قد عاد إلى مأواه أم لا، فإن تشرشل لازال يعاني من الاكتئاب. وكما وصف سكرتيره الخاص جون كولفيل، مزاجه في شباط/ فبراير 1944م: «بدا رئيس الوزراء عجوزًا ومتعبًا ومكتئبًا جدًّا»[2].

القضية الطبية المحيطة بتشرشل هي ما إذا كان يعاني ليس من الاكتئاب فحسب، ولكن من الهوس الاكتئابي أو ما يسمى الآن باضطراب القطب الثنائي. بالنسبة لمعارضي هذا الطرح فإنهم يقولون إنه لا وجود لحالات من هذا النوع في حياته. إنهم يتشككون أيضًا في صدقية أمثلة من هوسه وسلوكه الغريب. فعلى سبيل المثال فقد استخدم البعض ميله إلى الإملاء على سكرتيره وهو داخل حمامه ـ والتأكيد على عدم وعيه لكونه عاريًا ـ تشخيص آخر لحالة الهوس ولكن هذا أمر شائع جدًّا في طبقته الاجتماعية والحادثة ليست قطعية.

ومع ذلك تنطوي شهادة أولئك الذين عملوا بالقرب من تشرشل على وجود حالتي الهوس والاكتئاب لديه. أشار السكرتير الخاص أوليفر هارفي لوزير الخارجية أنتوني إيدن في مذكراته أنه في 13 آب/ أغسطس 1943م: «كان رئيس الوزراء [تشرشل] في حالة من الاغتباط الجنوني، لقد ذهبت المعركة بعيدًا برأس العجوز، إنه يستهلك كميات كبيرة من الخمور ـ الشمبانيا، والبراندي، الويسكي ـ»[3]. ومن المثير للاهتمام هنا قول هارفي: «إنها المعركة وليس الكحول هو الذي ذهب بتفكير تشرشل». ومن المثير للاهتمام أيضًا أنه استخدم العبارة: «حالة من الاغتباط الجنوني»، أحد الأعراض الذي سيأخذه الأطباء النفسانيون بالتأكيد بعين الاعتبار في تشخيص الاضطراب الثنائي القطب.

(1) Mary Soames, **Clementine Churchill by Her Daughter** (London: Cassell, 1979), p. 253.

(2) John Colville, **Fringes of Power: Downing Street Diaries 1939-1955**, rev. ed. (London: Weidenfeld & Nicolson, 2004), p. 454.

(3) Oliver Harvey, **The War Diaries of Oliver Harvey** (London: Collins, 1978).

تكشف الصورة التي رسمها رئيس الأركان العسكرية في عهده، الجنرال هاستينغز إسماي، الطابع الاستثنائي لشخصية تشرشل في رسالته الخطية الموجهة لقائد العمليات في صحراء شمال أفريقيا، الجنرال كلود أوكينليك في 3 نيسان/ أبريل 1942م. بلغ طائر الأوك ـ الصغير كما كان يسميه ـ في الآونة الأخيرة قمة مزاجه المتقلب:

لا يمكنك الحكم على رئيس الوزراء وفقًا للمعايير العادية؛ إنه لا يشبه أي شخص عرفناه على الإطلاق. إنه كتلة من المتناقضات. فهو إما على قمة الموجة أو في قاعها، إما مدَّاح شديد أو يدين بشكل لاذع، إما في مزاج ملائكي، أو في غضب ناري. عندما لا يخلد للنوم بسرعة فإنه يتحول إلى بركان. لا وجود عنده لأنصاف الحلول أو إمكانية التعويض. إنه طفل في طبيعته المزاجية المتغيرة أبدًا، كأيام شهر نيسان/ أبريل حيث لا يرى على ما يبدو فرقًا بين كلمات قاسية يتحدث بها إلى صديق، وتنسى في ساعة تحت تأثير حجة ودية، والكلمات القاسية نفسها يبرقها إلى صديق على بعد آلاف الأميال ـ مع عدم وجود أي فرصة للتعويض...

أعتقد أنه يمكنني الادِّعاء بأنني لقبت بكل اسم مُذل ومُهين خلال الستة الأشهر الماضية، ربما باستثناء جبان، ولكني على يقين أنها لا تعني شيئًا وسط هذه العواصف، وأنه سيتمّ استدعائي إلى نقاش حميمي وودي للتعويض عن كل شيء قبل غروب الشمس[1].

وصف روي جنكينز تشرشل في أواخر ربيع عام 1944م بأنه يظهر السلوك التالي:

تذبذب كبير في المزاج ورشقات نارية من الطاقة، وتألق في الأداء ناتج عن نمط عام من الملل والكآبة، ومصدرها إلى حدٍّ كبير الوعي بأن أيًا من محاوريه ـ ستالين وروزفلت، ديغول ـ يمكن أن يحقق بالضبط ما يتمناه هو لنفسه، هذا بالإضافة إلى شعور متزايد بعجزه عن فرض إرادته. إن مقاربته للنصر أقل ابتهاجًا بكثير مما كانت عليه حالته لمواجهة خطر الهزيمة قبل أربع سنوات من الآن[2].

ومهما تكن حالته الحقيقية «اغتباط جنوني» أو «في قمة الموجة أو في قاعها»، أو كونه

(1) John Connell, **Auchinleck** (London, Cassell, 1959).

(2) Roy Jenkins, Churchill: **A Biography** (New York: Farrar, Straus & Giroux, 2001), P. 737.

في حالة «أنصاف التدابير للتعويض» أو «قمة الطاقة والتألق في الأداء أو التعايش» مع «الملل والكآبة» فإنها توفر أدلة كافية لتشخيص حالة من اضطراب القطب الثنائي قد يختلف عليها الأطباء النفسانيون. وإذا كان تشرشل قد عانى بالفعل من الاضطراب الثنائي القطب، فليست هناك أدلة على أن المرض قد تسبّب في اتخاذ قرار غير عقلاني على مستوى مجلس الحرب. ويمكن قول العكس تمامًا حيث ثبت أن نموذجه في قيادة البلاد عام 1940م ملهمًا وحيويًّا كذلك.

وعلى أية حال فإن قرارات تشرشل لم تكن حيوية خلال المراحل الأخيرة من الحرب كما أوضحته رواية جنكينز. أعطى تشرشل الانطباع في بعض الأحيان بأن الحلفاء قد يسيطرون على برلين قبل الاتحاد السوفياتي، ولكن خسائر كتلك ستكون فادحة بحيث أتوقع أنها ستجعل الواحد يصاب بالانكماش، حتى من مجرد التفكير بمثل هذا الاحتمال. وعلى أية حال فإنه كان على علم بأن الولايات المتحدة التي تتحمل العبء الأكبر، لم ترى حاجة استراتيجية في ذلك التوجه.

تفسر لنا أوصاف شخصية تشرشل الكثير عندما كان رئيسًا أثناء الحرب العالمية الثانية. وتؤكد ما سيصبح موضوعًا ثابتًا في هذا الكتاب: أن معظم رؤساء الحكومات شخصيات غير اعتيادية وحتى غير طبيعية أيضًا. إنها شخصيات تتعامل مع ضغط هائل تلقي بثقل منه على من هم في دائرتها الداخلية من الزملاء أو المستشارين. وأيضًا نقاط القوة عندها هي غالبًا ما تكون نتاج التعامل مع مرضها.

فرانكلين ديلانو روزفلت

يمكن القول بأن الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت كان الزعيم السياسي الأكثر نفوذًا في الحرب العالمية الثانية، وفي القرن العشرين بأكمله. تأخذ قصة حياته السياسية أهمية خاصة في هذا الكتاب لأنه قضى كل سنواته في مناصب حكومية عليا، أربع سنوات قضاها حاكمًا لنيويورك، واثنتي عشرة سنة رئيسًا للولايات المتحدة على كرسي متحرك بعد أن أصابه شلل الأطفال في التاسعة والثلاثين من عمره. فاز على هربرت هوفر الذي كان يعاني من اكتئاب شديد في انتخابات 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1932م على الرغم من الشلل في ساقيه وأسفل الوركين، وأصبح يخفي حالته عن الجمهور. أعطى الانطباع كرئيس في مناسبات هامة أنه يمكنه الوقوف، وقام بتصميم طريقة معينة ليتسنى له القيام بخطوات توحي بأنه قادر على

السير، لكنه يحتاج إلى القليل من الدعم، وعادة ما يقدم ذلك الدعم أحد أبنائه أو حرسه. كان سلوكًا معقولًا من روزفلت لأنه لم يشعر بالإعاقة، ولا يقبل بأن يظهر كالمعاقين. وعمليًّا لم يتم تصوير روزفلت على كرسي متحرك إلا مرتين من أصل 35 ألف صورة في مكتبته الرئاسية.

كانت حالته الصحية ممتازة في السنوات الأولى من رئاسته. لم يكن سياسيًّا بيروقراطيًّا حيث كان يوقِّع على اتفاقيات في غرفة يملأها الدخان. قدم خطابًا نموذجيًّا في الثقة والدقة والإتقان بنبرة حزبية ساخرة من الجمهوريين في حديقة ماديسون سكوير في نيويورك احتفالًا بالمراحل الأخيرة من الحملة الانتخابية لعام 1936م فقال:

«لمدة اثنتي عشرة سنة بليت هذه الحكومة بحالة من فقدان سمعها وبصرها وقدرتها على فعل أي شيء فأصبحت حكومة اللاشيء... إنهم مجمعون على كراهيتهم لي وأنا أرحب بكراهيتهم... بودي لو يقال بأن حكومتي الأولى في قواها الأنانية ورغبتها للسلطة كانت ندًّا لهم. بودي لو يقال عن حكومتي الثانية أنها بتلك القوى، باتت سيدتهم» .

كانت أوروبا قد دخلت الحرب بحلول موعد الانتخابات الرئاسية الثالثة في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1940م. وفي حالة يائسة أعرب ونستون تشرشل عن أمله في أن يلزم روزفلت أميركا بإعلان الحرب ضد ألمانيا. وعلى الرغم من الفرضية القائلة بأن الولايات المتحدة ستحارب ألمانيا حتمًا، فثمة تخوف عميق من عزوف أميركا عن القتال في حرب أوروبية جديدة. وخلال الحملة الانتخابية رأى روزفلت أنه من الضروري أن يعلن عن تعهده يوم 30 تشرين الأول/ أكتوبر قائلًا لهم: «لن يُرسل أولادكم إلى أية حروب خارجية». وعوضًا عن الرجال، قدم روزفلت المال لمساعدة تشرشل من خلال خطة تأجير القرض التي أعلنت بمؤتمر 17 كانون الأول/ ديسمبر 1940م وذلك باستخدام مقارنة مضللة وبسيطة تفيد بضرورة إعارة خرطوم مياه الحديقة للجار لإخماد ناره. هاجمت ألمانيا روسيا يوم 22 حزيران/ يونيو، فاجتمع تشرشل بروزفلت بين أيام 9 و12 آب/ أغسطس بنيو فاوندلاند في خليج بلاسينتيا على متن سفينة صاحب الجلالة أمير ويلز وسفينة أووستا الأميركية للتوقيع على ميثاق الأطلسي. كان على تشرشل انتظار روزفلت لإظهار أية علامة توحي باستعداده لدخول الحرب. وبعد ذلك أطلع روزفلت الصحافة الأميركية بأن الأمر كان مجرد «تبادل لوجهات النظر» وهي إشارة غير مباشرة إلى أنه «لم يقترب بعد من الحرب».

وقبل ذلك بثلاثة أشهر في أيار/ مايو شُخِّص مرض روزفلت بارتفاع ضغط الدم ونقصان حاد في مادة الحديد لدرجة، أنه احتاج مرتين إلى نقل للدم، وقضى النصف الأول من الشهر في غرفة نومه. ولكنها سياسة أميركا وليست صحة رئيسها هي ما منعها من البقاء خارج دائرة الحرب. وكان هتلر على اطِّلاع كامل بتحفظ السياسة الأميركية في الشؤون الخارجية.

غيَّر الهجوم الياباني على قاعدة الولايات المتحدة في بيرل هاربر في 7 كانون الأول/ ديسمبر 1941م مجرى الأحداث. ووصف روزفلت الهجوم بأنه: «تاريخ سيعيش في خزي» وأعلن الحرب على اليابان، كما أعلن هتلر الحرب على الولايات المتحدة في 11 كانون الأول/ ديسمبر. وكانت النتيجة الأولية إغاثة هائلة بالنسبة لتشرشل على الأقل. لأنه كان على يقين من هزيمة الأميركيين والسوفيات لهتلر في نهاية المطاف، وبالتالي لم تعد مساهمته الشخصية الحجر الأساس في صناعة الانتصار.

تدهورت صحة روزفلت خلال الأعوام(1942 ـ 1944م) على الرغم من عدم اعتراف طبيبه الشخصي الأدميرال روس ماكنتاير. وفي 28 آذار/ مارس 1944م قام أخصائي القلب الشاب وطبيب البحرية ذو 39 عامًا الدكتور هوارد برون في مستشفى بيثيسدا بتوصيف نتائج أول فحص طبي كامل كان قد أجراه لروزفلت منذ توليه الرئاسة قبل إحدى عشرة سنة. و ذلك تحت إصرار ابنة روزفلت، «آنا»، ولكن ضد رغبة ماكنتاير. ما كان ينبغي لماكنتاير أن يكون الطبيب الشخصي للرئيس. ولم تكن لديه الخبرة الطبية، وأظهر بعناد أنه ضابط بحرية لا زال في الخدمة، ويعامل مريضه وقائده الأعلى أيضًا معاملة خاصة. وجد الدكتور برون أن ضغط دم روزفلت كان مرتفعًا بمعدل 186/ 108 وأظهرت الأشعة السينية تضخمًا في القلب، ولم يتردد برون في تشخيص حالة روزفلت بارتفاع ضغط الدم وفشل الشريان البطيني، والتهاب حادٍّ في القصبات الصدرية. وكان تشخيص التهاب القصبات النتيجة الصحيحة الوحيدة في التشخيص السابق لطبيبه الخاص الدكتور ماكنتاير. وقال الدكتور برون لاحقًا إن: «صحة الرئيس فظيعة للغاية».

عمومًا لم يكن الدكتور ماكنتاير مستعدًا لقبول حكم الدكتور برون على مريضه روزفلت وإعطائه وصفة من دواء الديجيتاليس لتقوية عضلات القلب. غير أنه وافق على مضض لاحقًا على أخذ العلاج أعلاه بعد اجتماعه بثلاث لجان من المستشارين الطبيين يومي 30 و31 آذار/ مارس، وأول نيسان/ أبريل 1944م لتدارس حالة روزفلت، وتقييم العلاج تبعًا

لوصفة الدكتور برون الذي هدَّد برفض الحالة، إلا إذا تمّت إعادة فحص روزفلت رقميًّا، وهو عمل شجاع لشاب من ضباط البحرية[1].

تابع الدكتور برون علاج الرئيس روزفلت الذي بدأه باعتماد حمية غذائية قليلة الملح وبرنامج لتخفيض الوزن وإعطائه دواء phenobarbitol إلا أنه لم يطلب منه رأيه الطبي حول إمكانية ترشح الرئيس لإعادة انتخابه في تشرين الثاني/ نوفمبر. لكنه صرَّح لاحقًا أنه لو طلب رأيه لرد بالتأكيد أن «ترشح الرئيس مستحيل طبيًّا». يقترح البعض بأنه كان ينبغي ألا يسمح لروزفلت بالترشح لكن من يرخص للرئيس؟ لقد صمّم على ترشحه. وفي 11 تموز/ يوليو 1944م قرأ روزفلت في مؤتمر صحفي رسالته إلى بوب هانيغان رئيس اللجنة الوطنية الديمقراطية لإبلاغه بنيته في إعادة ترشحه قائلًا:

«يصرخ كل ما في داخل أحشائي بالعودة إلى بيتي على نهر هدسون لتجنب المسؤوليات العامة... ذلك هو خياري». لكنه ادَّعى أن ثمة حربًا يريد تحقيق الانتصار فيها، وسلامًا يريد تثبيته، واقتصادًا يحتاج مزيدًا من التطور «وبناءً عليه وكجندي جيد أكرّر على مضض أنني أقبل العودة إلى الخدمة، إذا أُمرت من طرف قائدنا الأعلى جميعًا، سيادة شعب الولايات المتحدة».

وعند الظهر دعا روزفلت نائبه هنري والاس لتناول طعام الغداء ولتسوية البيان الذي كانا يناقشان محتواه بالأمس، وأسفر النقاش عن دعم روزفلت لوالاس. كان الرئيس مراوغًا هذه المرة مشيرًا إلى أن الكثير من الناس ينظرون إليه «كما لوكان شيوعيًّا أو أسوأ»[2]. ربما أدرك روزفلت ـ بسبب حالته الصحية الخاصة ـ أن اختياره لنائب الرئيس أكثر أهمية هذه المرة من الحالات الاعتيادية. وفي ذلك المساء اجتمع روزفلت لتناول العشاء بمعية بعض الزعماء الديمقراطيين الذين عارضوا ترشح والاس مرة أخرى. ونوقش اختيار اسمين إضافيين هما رئيس محكمة العدل العليا وليام أ. دوغلاس كمقترح لروزفلت، وعضو مجلس الشيوخ هاري ترومان الذي اقترحه هانيغان. كتب روزفلت على مغلف أنه سيكون سعيدًا بالترشح مع أي منهما. لكنه لم يستطع في قرارة نفسه أن ينسى والاس كنائب رسمي له، لكن هانيغان

---

(1) Robert H. Ferrell, **The Dying President: Franklin D. Roosevelt 1944 - 1945** (Columbia University of Missouri Press, 1998), pp. 35-42.

(2) John C. Culver and John Hyde, **American Dreamer: The Life and Times of Hen y A. Wallace** (New York: W. W. Norton, 2000), pp. 346 - 349.

وبعض زعماء الحزب وجهوا التصويت لصالح ترومان في مؤتمر شيكاغو في 21 تموز/ يوليو، ونجحوا في تأجيل تلك الليلة الانتخابية ليحسم اختيارهم ممثلًا في شخص ترومان بعد تهديد لجهات قاعدية فعّالة بانتخاب والاس. ولحسن الحظ أصبح ترومان رئيسًا استثنائيًا وواقعيًا بينما كان والاس حالمًا.

ونظرًا لحالة روزفلت الصحية فلم يكن محقًّا على الإطلاق في إعادة ترشحه مرة أخرى عام 1944م، ومن الصعب الاستنتاج بأن الرئيس الأميركي الجديد سيكون قادرًا على صناعة فرق كبير في السلوك الفعلي للحرب في الآونة القصيرة الفاصلة ما بين تنصيب روزفلت يوم 20 كانون الثاني/ يناير عام 1945م، ووفاته في يوم 12 نيسان/ أبريل عن سن الثلاث والستين. ففي وقت مبكر من عام 1944م كان هناك قرارات عسكرية هامة في أوروبا اتخذها الجنرال أيزنهاور وبمساعدة الجنرال مارشال وغيرهما من قيادة الأركان العسكرية الأميركية. عيّن الجنرال جورج مارشال الجنرال إدوايت أيزنهاور قائدًا أعلى لقوات التحالف. وفي الواقع استطاع مارشال بموافقة روزفلت السيطرة على زمام المبادرة حتى يوم الحسم والانتصار ومتابعة الميدان. وفي وقت مبكر من عام 1945م تردّد مارشال والجيش الأميركي في سباق الاتحاد السوفياتي إلى مهاجمة برلين وفقًا لبرقية أرسلها أيزنهاور إلى ستالين في آذار/ مارس بوصفه المارشال المباشر للقوات السوفياتية. وجاء في البرقية أن جيوش الحلفاء تحت قيادة أيزنهاور لن تقوم باحتلال برلين. كشف فيلد مارشل السير آلان بروك في مذكراته أنه أبلغ قيادة الأركان العسكرية البريطانية بأن أيزنهاور: «ما كان عليه أن يقيم اتصالًا مباشرًا مع ستالين من خلال رسائله، بل كان من الأجدر أن يتمّ ذلك التواصل بواسطة رؤساء الأركان الميدانيين». و«يُستنبط منها غياب في الأهداف المنشودة ومساس بالاتفاقيات السابقة»[1]. وجزئيًا يمكن القول: الأميركيين استحقوا الثناء لرغبتهم في إنقاذ أرواح جنود الحلفاء استنادًا على اصرار هتلر على القتال حتى آخر جندي لديه، واستعداد ستالين للهجوم على برلين مهما كلفه الأمر. ومع ذلك فمن المستغرب أن يكتب إيزنهاور على وجه التحديد دون استشارة الجيش والسلطات السياسية في لندن، ربما لم يتشاور معهم لأنه كان يعرف مسبقًا أن روزفلت وتشرشل لهما وجهات نظر مغايرة. أصرَّ روزفلت على حضور مؤتمر هونولولو في يوم 27 تموز/ يوليو 1944م لمدة ساعتين ونصف فقط، بعد أسابيع من السفر المضني،

Alanbrooke, **War Diaries 1939 - 1945**, p. 679. (1)

على الرغم من أن القرارات الكبرى التي أقرَّها المؤتمر كانت قد صودق عليها مسبقًا بينه وبين مارشال في اجتماعات بواشنطن.

سافر روزفلت بعدها إلى يالطا في شباط/ فبراير 1945م ليلتقي بستالين وتشرشل. لا تزال قضية صحة روزفلت مثيرة للجدل، ويتساءل الجمهور ما إذا كانت عاملًا مهمًّا في نتائج المؤتمر؟. ومن هنا بدأ يتشكل مستقبل أوروبا الشرقية بما ينطوي على مناقشات شاقة بخصوص السياسة الواجب اتباعها تجاه الجمهورية البولندية.

كان العارفون بالشأن في الدائرة المقربة من روزفلت على يقين من أن حالته الصحية كرئيس لن تسمح له طويلًا بمقاومة أعباء المنصب، وهوما تأكد بالفعل لاحقًا. فقبل نهاية المؤتمر في 8 شباط/ فبراير تطورت الحالة المرضية لروزفلت إلى نوبات مختلفة من تناوب نبضات القلب، تتأرجح بين القوة والضعف، في إشارة إلى مرض القلب الذي اتضح فيه بأنه يبدو فشلًا في البطين الأيسر، عاد نبضه فيه إلى طبيعته بعد بضعة أيام لحسن الحظ. كانت ابنة الرئيس في يالطا أيضًا قبل هذا الحادث وأبلغها الدكتور الشاب برون ـ أخصائي أمراض القلب في القوات البحرية ـ بالأمر للمرة الأولى بدلًا من الأميرال ماكتاير طبيب الرئيس الخاص المتكتم على صحته لأسباب مهنية وعسكرية، فأرسلت برقية إلى زوجها في 5 شباط/ فبراير:

> **إن هذه الحالة الحرجة تبدو أصعب مما اعتقدت، وأهم صعوباتها إذا ما كان باستطاعتنا إخفاءها عن الآخرين أم لا؟ الأمر مقلق فعلًا، ولا يمكننا فعل الكثير لإيجاد حل لذلك. (يفضل أن تمزق هذا الرسالة وتتخلص منها)**[1].

كان طبيب تشرشل السير تشارلز ويلسون قد عاين الرئيس، واعتمادًا على تجربته رأى بأنه على الأرجح سيعجز الرئيس عن متابعة وقائع المؤتمر. حيث سجل الطبيب السير تشارلز ويلسون بمذكراته في شباط/ فبراير: «يبدو من منظار طبي أن الرئيس مريض جدًّا ولديه أعراض من تصلُّب شرايين الدماغ في مرحلة متقدمة، وأُقدِّر أنه قد لا يعيش لأكثر من بضعة أشهر»[2].

(1) John and Anna Boettiger, November 1943-February 1945 **papers, Presidential Archive**, Hyde Park, New York.

(2) Moran, **Winston Churchill**, p. 226.

ليس هناك شك في أن صحة روزفلت كانت في وضعية أقرب ما تكون إلى مرحلة الوفاة بشكل جدي أثناء تواجده في يالطا عام 1945م. لقد لمَّح آلن سالرين - استشاري الطب النفسي لمكتب التحقيقات الفيدرالي - أن الرئيس روزفلت كان يعاني من الاكتئاب، ولكن ليس من السهل إثبات ذلك التشخيص في السجلات الطبية. كما نشرت دراسة شملت تقييمًا عصبيًا لسرعة تدهور صحته عام 2005م استنادًا على أثر رجعي عبر دراسة خطابه الأخير لمجلس الشيوخ في أول آذار/ مارس 1945م، حيث قدم روزفلت خطابه وهو جالس، ونادرًا ما كان يفعل ذلك. كما فقد تركيزه في عديد المناسبات وهو يتتبع فقرات نص الخطاب المحضر له سلفًا، أخطأ في نطقه «ليالطا» حيث نطقها «مالطا»، كما لوحظ في خطابه بعض من عيوب التعبير اللفظي، وضعف في المفردات خاصة عندما صرف نظره عن النص[1].

وفقًا لشهادات أولئك الذين حضروا وقائع مؤتمر يالطا، فإن قدرات ومهارات روزفلت التفاوضية لم تتأثر في قوتها على الرغم من سوء حالته الصحية. بل إن بعض كبار الديبلوماسيين والسياسيين المشاركين في الجلسة السابعة من الجلسات العامة للمؤتمر في شباط/ فبراير 1945م قاموا بالدفاع المستميت عن جدارة روزفلت وتميُّز قدراته العقلية والأدائية. كان ضابط الاتصال بوزارة الخارجية في البيت الأبيض ومترجم الرئيس تشارلز إي بولن قد كتب عام 1969م حول أداء روزفلت في يالطا، والذي لم يكن بالتأكيد متملقًا في تصنيفه: «أنا لا أعرف أي حالة من حالات الرئيس تنازل فيها عن أي شيء للسوفيات بسبب اعتلال صحته». وأضاف: «لقد بدا مسترشدًا بشكل كبير جدًّا بمستشاريه ولم يتخذ خطوة باستقلال عنهم»[2]. ومن المعروف عن دور المترجم أنه ينسق ويساعد في كثير من الأحيان، ويتابع أداء المستشارين بإعطائهم المعلومات اللازمة، فضلًا عن حصوله على نسخ مسبقة من الخطابات التي يحضرها الرسميون ويلقيها الرؤساء. كتب المؤرخ الأميركي آرثر شليسنجر إلى مترجم ستالين فالنتين بريزكوف يستفسره عن التصورالسوفياتي لصحة روزفلت في يالطا، وخاصة بالمقارنة مع الاجتماع السابق في طهران، تشرين الثاني/ نوفمبر

(1) Alen J. Salerian and Gregory H. Salerian, «A Review of FDR's Mental Capacity During His Fourth Term and Its Impact on History», **Forensic Examiner**, Spring 2005, pp. 31-38.

(2) Charles E. Bohlen, **The Transformation of American Foreign Policy** (New York: W. W. Norton, 1969), p. 44.

عام 1943، أجاب بريزكوف: «إنه من المؤكد أن حالته الصحية كانت أسوأ من حالته السابقة في طهران، ولكن جميع من شاهدوا ضعفه الظاهري يجمعون على أن قواه العقلية كانت عالية. كان يقظًا قبل أن يغلبه التعب، فردود أفعاله كانت سريعة كما كانت حججه قوية»[1]. وأشار أيضًا إلى أن ستالين كان «يتعامل مع روزفلت بتقدير كبير».

صحيح أن من هو أقوى من روزفلت كان بإمكانه اتخاذ مزيدًا من المبادرات والمشاركة بنشاط أكبر في المناقشات. لكن في الحقيقة حصل روزفلت والولايات المتحدة على أمنيتهما، فقبل كل شيء، تعهد ستالين بدخول الحرب ضد اليابان في غضون شهرين أو ثلاثة أشهر من انتهاء المعركة في أوروبا. في حينها كان يعتقد أن هذه قضية بالغة الأهمية إذ تناسى البعض بسهولة التكلفة الباهظة للحرب في منطقة المحيط الهادئ، والخسائر البشرية في صفوف الأميركيين. ومن الواضح أن يركز تشرشل في سياساته على أوروبا بينما يهتم روزفلت بستالين لخطورة الجبهة اليابانية، حيث كان للاتحاد السوفياتي أسطولًا بحريًّا في فلاديفوستوك وحدودًا مع الصين، وكما تبين لاحقًا فإن ستالين كان قد قرر بالفعل الهجوم على اليابان قبل أيام قليلة من استسلامها في آب/ أغسطس.

طور روزفلت علاقة مثيرة للاهتمام مع ستالين من خلال الرسائل التي سجلت في سجل تاريخي بعنوان: «عزيزي السيد ستالين»[2] وصفها السفير الأميركي السابق أفيريل هاريمان لدى الاتحاد السوفياتي في السنوات الأخيرة من الحرب، بأنها خطة معتمدة من روزفلت من أجل التأثير على ستالين. تُركت القرارات المتعلقة ببولندا لقمة يالطا لأن روزفلت وتشرشل كانا يعرفان مدى استحالة الحل في اجتماع طهران، في وقت تمّ فيه عملية ترسيم الحدود البولندية، فلقد بدأت الخلافات حول مستقبل بولندا في الظهور اعتبارًا من كانون الأول/ ديسمبر 1941م عندما التقى أنتوني إيدن بستالين في موسكو. وفضلًا عن ذلك فإنه من المؤكد أن روزفلت وتشرشل علما بدقة الحقيقة القائلة: إن أي اتفاق يوقِّعه ستالين في يالطا على إجراء انتخابات حرة ونزيهة في بولندا، وخاصة بعد تغيير حدودها، سيكون من الصعب جدًّا المصادقة عليه إن لم يكن من المستحيلات. عرف روزفلت أيضًا أن تشرشل

(1) Arthur M. Schlesinger Jr, Foreword, in Susan Butler (ed.), **My Dear Mr Stalin: The Complete Correspondence between Franklin D. Roosevelt and Joseph V. Stalin** (New Haven, CT: Yale University Press, 2005).

(2) المصدر نفسه، xi.

كان قد وقَّع على اتفاق ثنائي مع ستالين في موسكو في 9 تشرين الأول/ أكتوبر 1944م، مما مهّد الطريق لاتِّباع أول «سياسة واقعية» بشأن تقاسم مناطق النفوذ في أوروبا ما بعد الحرب واستثناء الاتحاد السوفياتي من حصة منطقة البحر الأبيض المتوسط. ولكي ندرك مدى قوة السلطة الشخصية الحقيقية بين القادة، فعلينا أن نعود بالذاكرة إلى نصف ورقة موجودة في الكرملين اليوم كتبها تشرشل بتعجل، ووقَّعها ستالين بتمهل لأنها تعطي معظم جمهورية رومانيا للاتحاد السوفياتي بمعدل 90 في المائة، والنسبة المتبقية للآخرين. ولا غرابة فيما نسب إلى تشرشل وحديثة لستالين قائلًا: «أوليس في الأمر سخرية حين يظهر ميلنا لمثل هذه القضايا على نحو مرتجل قد يعتبره الملايين من الناس مجرد فاجعة لا غير؟ دعنا نحرق الورقة». فرد ستالين: «كلا، احتفظ بها»[1].

كان هناك ميل في انتقادات لاحقة لاتفاق يالطا لنسيان أن الاتحاد السوفياتي خاض غمار حرب ضد الألمان في أوروبا الشرقية المحتلة ودفع ثمنًا باهظًا ـ وخصوصًا خسائر بشرية ـ ولهذا أراد الحصول على مكافأة طاولة المفاوضات. كما قُدِّرت خسائر اليابانيين بمعدل سبعة أشخاص مقابل مقتل أي بريطاني أو أميركي وخسارة الألمان عشرين شخصًا بينما كانت الخسائر السوفياتية بالمقابل تصل إلى خمسة وثمانين شخصًا. تختلف الإحصائيات كثيرًا، ولكن ذُكر آخر تقدير رسمي للدول بأن ضحايا السوفيات حوالي سبعة وعشرين مليونًا في الحرب العالمية الثانية مقارنة مع 405,000 من الأميركيين. ما زال الروس يعتقدون، والحق لهم، بأنهم قاموا بالتضحية الأكبر للإطاحة بالنازية.

لم يكن روزفلت بحال من الأحوال تحت مستوى نقاط القوة والضعف لدى نظرائه المفاوضين. وكما قال روزفلت للأميرال وليام ليهي إنه على يقين بأن ما قام به:«هو أفضل ما يمكنه القيام به لبولندا في الوقت الراهن»[2]. وأوضحت محادثاته مع ستالين بعد أسبوعين من عودته من يالطا في 13 آذار/ مارس أن وضعه الصحي لم يحوله إلى رئيس ساذج يحتويه ستالين بسرعة ودهاء. لقد دعا روزفلت اقتصادي الصفقة الجديدة ليون هندرسون إلى مكتبه لنقاش دوره في المستقبل كرئيس الاقتصاد الأميركي في ألمانيا. وحذَّره من مغبة عدم التحضير المسبق والمبكر لمهمته، في وقت يرى فيه أن فرنسا وبريطانيا وأميركا تلتزم

(1) Jeremy Isaacs and Taylor Downing, **Cold War: For 45 Years the World Held Its Breath** (London: Bantam Press, 198), p. 12.

(2) Butler, **My Dear Mr Stalin**, pp. xv, 29.

بتطبيق الاتفاقات، بينما يخشى من أن يدَّعيها السوفيات لأنفسهم. وعليه يجب الالتزام بالبروتوكولات المتفق عليها، وعدم التوقف عند الحريات إن ظهرت، إذ يمكنهم الهروب من التدقيق والمضي قدمًا على طريقتهم وفقًا لمصالحهم.

تشير الرواية التي قدَّمها بولن في محادثة له مع المؤرخ ريتشارد فاينر إلى أن الرئيس كان لا يزال يتمتع بتركيزه حتى آذار/ مارس 1945م[1]. فلقد كان واعيًا تمامًا أن يالطا بمثابة اختبار لنوايا السوفيات للحفاظ على «لجنة الكبار الثلاثة» بعد الحرب. ورأى في تقييمه للوضعية أن موسكو قد فشلت في الاختبار. يعتقد بولن كذلك أن روزفلت لو عاد إلى واشنطن في نيسان / أبريل لكان بإمكانه الانضمام إلى تشرشل في رفض الحلفاء الانسحاب من إلبي إلى المناطق المتفق على احتلالها سلفًا. ورأى بولن أيضًا من عزم روزفلت السفر إلى لندن في أيار/ مايو، وبعد استسلام ألمانيا، بأنه كان على الاجتماع الثلاثي الطارئ أن يُعقد للتعويض عن اجتماع بوتسدام المقرر في وقت لاحق. وبتعيين إدوارد استينس في وزارة الخارجية، المعروف بليونته مقارنة بسلفه، كورديل هال، أصبح من الواضح أن روزفلت يتوخى لعب دور أكبر بتعيينه بولن إضافة لفريقه الشخصي للمساعدة في تأكيد سلطته، إنها فكرة ذكية تحسب لمن يتوقع أن يموت في غضون أسابيع قليلة من الآن. كان روزفلت يقاوم طيلة حياته مرض شلل الأطفال منذ طفولته، ولم يوفق خوفًا من اعتلال صحته، زعم الأطباء أن أيامه جدّ محدودة، لكنه اختار الاستمرارية والسير قدمًا إلى الأمام متجاهلًا وضعه الصحي. هناك أسباب وجيهة للقول بأنه كان ينبغي عليه الابتعاد عن الترشح لإعادة انتخابه في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1944م، ولكن يالطا كانت خارجة عن دائرة تلك الاتهامات.

لقد كانت صحة روزفلت مصدرًا لشائعات كثيرة طوال حياته. وتسببت حتى وفاته في جدل عريض ادَّعى البعض أنه قد مات بسرطان المعدة، وأشار آخرون إلى أن سرطان الجلد الخبيث هو سبب وفاته[2]. ومع ذلك ينبغي أن يكون هناك شكوكًا طفيفة حول سبب وفاته (السكتة الدماغية أو الحادث الدماغي الناجم عن قصور القلب) منذ أن نشرت مذكرات ابنة عمه غير المتزوجة ديزي ساكلي في عام 1995م التي أوضحت كل الأمراض التي عاناها فترة

(1) Roy Jenkins, **Franklin Delano Roosevelt** (London: Pan, 2005), pp. 165 - 166.

(2) **Daisy Suckly**/p 50.

الحرب[1]. كانت ديزي موضع ثقة الرئيس لتكتمها، فأطلعها على أوراقه الخاصة في مكتبته. وحاولت بمساعدة مستشاره المقرب منه منذ فترة طويلة هاري هوبكنز سد الفجوة في حياة روزفلت التي تركتها أفضل سكرتيرة عنده «ميسي» حين تدهورت صحتها. وكانت «ميسي» بمثابة الضوء والمرح في حياته، حيث حققت له من السعادة ما عجزت عن تحقيقه زوجته المحترمة إلينور[2].

وكانت ديزي آخر شخص تحدَّث إليه روزفلت قبل وفاته في ورم سبرينغ في 12 نيسان/ أبريل 1945م. وكانت معها عشيقته السابقة روثرفورد التي انتهت غرامياتها مع روزفلت عندما اكتشفت زوجته إلينور قصتهما في أيلول/ سبتمبر 1918م. كما كان الدكتور هوارد برون قريبًا حيث عاين الرئيس بعد وقت قصير من وفاته، وتصرف بمهنية طوال فترة عمله كطبيب لروزفلت، لينتظر حتى عام 1970م لنشر روايته حول مرض روزفلت التي اختارها كي تكون موضوعًا لدورية طبية متخصصة «حوليات الطب الباطني» بدلًا من نشرها في محاولة لكسب المال من تاريخ مريضه. وبعد وفاة الدكتور برون عام 1995م وضعت أرملته أوراقه ومذكراته الطبية في مكتبة الرئيس روزفلت في هايد بارك بنيويورك.

جوزيف ستالين

غالبًا ما تتم مقارنات بين أدولف هتلر وجوزيف ستالين في محاولة لتحديد أيهما أكثر شرًا، فإذا كان المقياس هو عدد الوفيات من الأبرياء، فإن ستالين هو الرقم الأكثر سوادًا. وعلى عكس جرائم هتلر فإن فظائع ستالين أخفيت لعدة عقود. ففي 13 نيسان/ أبريل 1990م اعترف الرئيس ميخائيل غورباتشيف للوكالة الإخبارية السوفياتية تاس، بمسؤولية بلاده عن مذبحة الضباط البولنديين في كاتين فوريست. وكشف بوريس يلتسين قرار المكتب السياسي في تشرين الأول/ أكتوبر 1992م الذي وقَّعه ستالين وبيريا لافرنتي في 5 آذار/ مارس 1940م بالإذن في إطلاق النار على14,700من الضباط البولنديين و11000 سجين من البولنديين. ونسبت المذبحة زورًا في ذلك الوقت إلى هتلر ولفترة طويلة جدًا من خلال الأخبار التضليلية السوفياتية.

(1) Geoffrey C. Ward (ed.), **Closest Companion: The Unknown Story of the Intimate Friendship between Franklin Roosevelt and Margaret Suckley** (Boston: Houghton Mifflin, 1995).

(2) Doris Kearns Goodwin, **No Ordinary Time: Franklin and Eleanor Roosevelt -The Home Front in World War** II (New York: Touchstone, 1995), pp. 115 - 121.

واعتبارًا للنوعية بدلًا من الناحية الكمية، فإن هتلر هو الأكثر شرًّا، وكما قيل ففساد هتلر «يكمن في أهدافه» أما ستالين «ففي وسائله»[1]. فقد استغل هتلر وستالين كل وسائل القمع والتنكيل بما فيها القتل الجماعي والترحيل والعمل في المعسكرات والحرمان والترهيب. وفي مسعى منه للحفاظ على سلطته، استخدم ستالين كل قواه ضد الجماعات العرقية الكبيرة في الاتحاد السوفياتي بما فيها حادثة غروزني عام 1944م. ومع ذلك لم يكن ستالين عنصريًّا بالمعنى الذي كان عليه هتلر في تصميمه للقضاء على اليهود. كانت معسكرات الاعتقال السوفياتية بالتأكيد اعتداء وحشيًّا على حقوق الإنسان، ولكنها لم تكن تعادل معسكرات الاعتقال النازية حيث كان الموت هو الهدف الوحيد.

ولا يمكن تبرئة أيّ من الرجلين بحجج اعتلال الصحة أو عدم الأهلية العقلية. كانت صحة ستالين جيدة بصورة عامة، صحيح أنه كان يشرب الخمر كثيرًا مع الأصدقاء طوال الليل، لكنه كان يعمل أيضًا لساعات طوال. وظلت صحته البدنية قوية خلال فترة الحرب العالمية الثانية، وقد كان ممسكًا بزمام المبادرة ويمثل بلاده بنفسه إبّان اجتماعات الحرب الحاسمة مع حلفائه في طهران ويالطا وبوتسدام. ولكن في صيف 1941م حين راقب تقدم الألمان في قلب الأراضي السوفياتية، اعترف بتجاهله لأولئك الذين حذّروه من هجوم وشيك، فظهر محبطًا وعلى وشك الانهيار العقلي، إلا أنه استرد أعصابه وبقي في موسكو متحدّيًا بينما كان الألمان يخترقون محيط مدينته ودفاعاتها العسكرية.

ما يبرز من تركيبة ستالين العقلية هي الريبة المفرطة، حيث توجد جحافل من القصص الأسطورية حول هذا الموضوع، مما يجعله يبدو للعين الناظرة إليه مخلوع العقل. لقد تضاعفت نوبة الريبة لديه بعد اغتيال كيروف سيرغي في كانون الأول/ ديسمبر 1934م. فبينما كان ستالين يتمشى في أحد الأيام مع ضابط للبحرية في أروقة حراس الأمن بالكرملين، بدأ يتساءل ويوجّه حديثه إلى الضابط قائلًا: «هل لاحظت وأنت تسير في الممر مستغرقًا في تفكيرك أيهما سيطلق عليك النار؟ إن كان هذا، فسيطلق النار على ظهرك بعد أن تلتفت، وإن كان الآخر فسيطلق النار على وجهك»[2] وفي قصة غريبة ورهيبة أن ستالين أطلق النار على

(1) Alan Bullock, **Hitler and Stalin: Parallel Lives, rev. ed.** (London: Fontana, 1993), p. 446.

(2) Simon Sebag Montefiore, Stalin: **The Court of the Red Tsar** (London: Weidenfeld & Nicolson, 2003), p. 139.

حارس شخصي له بعد أن أصلح صريرًا كان يُسمع من حذائه عادة، مما أفزع ستالين حين اقترب الحارس منه دون أن يُسمع الصرير إياه.

وفي 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1950م وافق ستالين على اعتقال الطبيب اليهودي الأستاذ ياكوف أتينجر. وكانت هذه أول عملية اعتقال فيما بات يعرف بـ «مؤامرة الأطباء». رُوقب هاتف الطبيب أتينجر سرًّا وسُجل انتقاده لستالين، وتوفي في السجن تحت التعذيب. وفي شباط/ فبراير 1951م أمر ستالين باعتقال مزيد من الأطباء، وعندها ارتفع ضغط دمه وتصلبت شرايينه مما أسفر عن بعض الجلطات الطفيفة. أصبح طبيبه القديم فلاديمير فينوغرادوف عدوًا واستخدمت المؤامرة «نفسها ضد وبيريا ومولوتوف فياتشيسلاف». «والعبثية كما قد تبدو من التفاصيل هي أن أسلوب «مؤامرة الأطباء» تبدو ظاهريًا في جمالها ورونقها كالعلاج السحري، أحد روائع ستالين الخيالية»[1]. من آثار ذلك عدم استدعاء أي طبيب لرؤية ستالين لمدة اثنتي عشرة ساعة بعد أصابته بجلطة قاتلة، بناء على أوامر من كبار الشخصيات السياسية من حوله.

لدينا في جعبتنا جميعًا في تركيبتنا سمات شخصية متنوعة، سواء كانت وساوس، تسرع، اكتئاب، هيستريا أو ريبة. لكن عندما تهيمن إحدى تلك الصفات وتتكرر كميزة سائدة في السلوك كما في حالة ستالين، تصبح الشخصية منحرفة وغير طبيعية. إلا أن سلوك الريبة في حدِّ ذاته لا يشكل مرضًا، ويصبح حالة سريرية فقط عندما يرتبط بمرض عقلي كالفصام أو الهوس، أو عندما يصبح بالغ الشدة مصحوبًا بالشك وفقدان الثقة، مما قد يقلص قدرة المريض العقلية بشكل جدي. وفي حال تجاوزت المألوف يمكنها أن تتحول إلى حالة نفسية قائمة بحدِّ ذاتها. أما الريبة العادية كمجرد سمة شخصية فلا ينتج عنها تعطيل للقدرة العقلية. وفي حالة ستالين لم يكن للريبة تأثير على تفكيره وحياته العقلية أو اتخاذ القرارات. وكان تفشي نزعتي عدم الشك وانعدام الثقة من الخصائص الرئيسية التي تميزت بها شخصية ستالين طوال حياته. كان بإمكانه أن يكون زعيمًا أفضل لو أمكنه التغلب عليها، لكن هناك من يجادل أن الريبة سمحت لستالين بالبقاء على قيد الحياة.

يظهر السياسيون أشكالًا متفاوتة من الريبة في معظم الأحيان. تتميز الريبة السياسية عن المفهوم السريري «إذ تبدأ كتشوه لاستجابة سياسية ملائمة إلا أنها تتعدى الهدف...

(1) المصدر السابق، ص 541 ـ 543، 550 ـ 552.

يرى الشخص نفسه فيها كبش الفداء والضحية دومًا»[1] لكن الريبة السياسية تسمية وليست تشخيص لحالة مرضية. إن الزعيم المرتاب، سواء كان شخصية استبدادية أو ديمقراطية فإنه المركز وصلب الأشياء التي يجب أن يدور حولها كل شيء، إضافة إلى حساسيته المفرطة بحيث غالبًا ما يكون مستغرقًا في ذاته وغيور بشدة.

ربما تعود أصول نزعة الريبة الستالينية إلى جذوره العرقية في جورجيا. فكثير من ملامحه وصفاته القاسية أو الوحشية تجد تفسيرًا أفضل في مثل العشائر القوقازية أكثر من كونها صفات مستمدة من الماركسية العقائدية. فلو عاش ستالين في أي مجتمع ديمقراطي عادي لانتهى المطاف به في أحسن الأحوال بالسجن. «تمتع ستالين طوال حياته بمغناطيسية تجذب اللاأخلاقي، والغير ملتزم، والمضطرب نفسيًا»[2]. لقد كان العقل المدبر لسرقة بنك في تبليسي في وقت مبكر من صباه في 13حزيران/ يونيو 1907م، وهو لا يزال في التاسعة والعشرين من عمره. لقد ترعرع في بيئة ازدهرت فيها قيم السرية والاستبداد الكامنة في الشيوعية السوفياتية، وتفاقمت حالة الريبة لديه عندما دخل في نضال مستميت من أجل الوصول إلى السلطة بعد وفاة لينين عام 1924م. فعُجِّلت في عهده عمليات القتل المنظم التي حصلت في فترة حكم لينين. وفي عام 1937م انتشر الرعب بعد إصدار المكتب السياسي أوامره باعتقال وإعدام كل من يفترض أنه من العناصر المعادية للسوفيات وذلك من خلال نظام الحصص. وبالمقابل شجع ستالين الناشطين المساندين له في المناطق النائية وحفَّزهم لمضاعفة حصصهم العملية. توالت عمليات الإعدام العشوائية أثناء وبعد ما يسميه الروس الحرب الوطنية العظمى من عام (1941 وحتى 1945م)، فقتل خلال تلك الحرب الوحشية الهائلة ما لا يقل عن 200,000 من جنود الجيش الأحمر من قبل أبناء جلدتهم. كان التعامل مع أي إحجام في المعركة يواجه بإدانة سريعة، وغالبًا ما يتم إطلاق النار على السجناء والناجين من الحرب.

أصيب ستالين بأزمة قلبية سمتها ابنته بالجلطة الطفيفة في وقت سابق للاستعراضات المحتفلة بالنصر على الألمان في الساحة الحمراء في 24 حزيران/ يونيو1945م. شُخِّصت حالته بتصلب الشرايين وعولجت بالفعل. كره ستالين مهنة الطب بعد ما بات يعرف «بمؤامرة الأطباء». بحيث سمح للممرض السابق ألكسندر بوسكريبشف أن يكون طبيبه

(1) Robert S. Robins and Jerrold M. Post, **Political Paranoia: The Psychopolitics of Hatred** (New Haven, CT: Yale University Press, 1997), pp. 5, 291.

(2) Simon Sebag Montefiore, **Young Stalin** (London: Weidenfeld & Nicolson, 2007), p. 4.

الشخصي بصفة غير رسمية، ليشرف على علاجه وإدارة جرعاته، وأصبح مزاجه أسوأ بكثير من ذي قبل، حيث تفاقمت درجة الريبة في سلوكه.

كانت بداية ريبته في ثورة من الشك الناري، لأن من كان حوله يبعث على الكثير من الشك أيضًا. لكن ليس على الريبة أن تمنع قائدًا من الاستمرارية في منصبه وعمله واتخاذ قرارات عقلانية، أو الاعتناء بنفسه على نحو فعال.فقد فاز ستالين على الكثير من الأعداء من خلال مزيج غريب من غياب للضمير، يضاف إليه قوة فائقة في المكر بخبث. في الواقع، بدأ ستالين يتحسن في أدائه أثناء الحرب باتخاذ القرارات الصائبة على النقيض من هتلر، ويعود نجاحه إلى إعطاء جنرالاته هامشًا كبيرًا من الحرية في تسيير الميدان القتالي، بعد أن كبحها في بداية الحرب. حاول ستالين السيطرة على تسيير كل ما يحدث على خط المواجهة بمساعدة المفوضين في الحزب الشيوعي الحاكم. وكانت النتائج كارثية حيث اقتربت القوات الألمانية من السيطرة على مشارف موسكو. ولحسن الحظ كان ستالين على صواب عندما غيّر رأيه وأجاز للقادة الميدانيين أخذ زمام المبادرة. ومن هنا وفي حالات أخرى من سلوكه تظاهر بأنه لم يعان من متلازمة الغطرسة[1].

عرضت تفاصيل شخصيته المعقدة في كتاب رائع تحت عنوان: «ستالين: بلاط القيصر الأحمر» ويظهر الكتاب نظرة ثاقبة عن شخصية ستالين، مبينًا كيف كان مثار إعجاب ومصدر خوف في آن واحد من خلال سلسلة الرسائل والمذكرات المعروضة. وحتى يومنا هذا لا يزال العديد من الروس ينظرون إليه بصفته أحد أعظم القادة التاريخيين.

بنيتو موسوليني

طفح الكيل بجرائم الطغاة الأوروبيين في منتصف القرن العشرين، حتى أن العدد الأعظم من الناس لم يجد غضاضة في وصف مرتكبي تلك الجرائم التي يندى لها الجبين «بقمة الجنون». ومن المفارقات الغريبة أن يكون الديكتاتوري الإيطالي، الدوتشي، بنيتو موسوليني هو الأقل إجرامًا والأخطر مرضًا في تلك الحقبة السوداء. انهارت صحته في عام 1925م إثر حالة من سعال دموي أظهرت الأشعة السينية أنه من تداعيات قرحة حادة في معدته والاثني عشر. وبعدها لازمه ألم القرحة، وتوالت عليه حالات من المعاناة وانعدام

(1) (اطّلع على الفصل السابع).

الأمن النفسي، وأخيرًا انفصل كليًا عن الواقع المعاش، ومن المرجح أنه كان يعاني أيضًا من الاضطراب الثنائي القطب.

لم يمنع الاكتئاب موسوليني من توليه مقاليد السلطة في بلاده عام 1922م عندما كان شابًا في التاسعة والثلاثين من عمره، حيث أمضى في الحكم أكثر من عقدين من الزمن تخللتهما فترات من التوتر المزمن. وصل موسوليني للحكم بموجب اتفاق بين الفاشيين والكنيسة، ورجال الأعمال والمؤسسة العسكرية والنخبة البيروقراطية. لقد أقام تدريجيًا نظامًا لعبادته الشخصية، وبعد تحقيق الانتصار في الحرب الحبشية (1935 ـ 1936م)، أصبح في مركز المهيمن المهيب. لم ينتصر أبدًا على الملك فيكتور إمانويل الثالث في حرب عام 1940م التي اعتبرتها الطبقة القوية مجرد مغامرة شخصية متهورة، إلا إنه استطاع أن يتولى حكم إيطاليا بحلول عام 1940م. كانت الغطرسة جليّة في كل تصرفاته حيث قلّص صلاحيات كل المؤسسات الدستورية بما فيها المجلس الفاشي الأعلى، ومجلس الشيوخ، والغرفة المالية والتجارية، ومجلس الوزراء التي أصبحت مجرد مظاهر مخادعة، أسماء دون صفات ومناصب دون صلاحيات.

ضربت موسوليني لعنة العقوبة بعد أن قرر غزو اليونان. وقال لهتلر في اجتماع فلورنسا إن القوات الإيطالية عبرت من خلال ألبانيا يوم 28 تشرين الأول/ أكتوبر. إنه نوع من المعاملة بالمثل تمامًا كما فعل طاغية ألمانيا حينما أخفى هجوم بلاده، ولم يذكره حتى لحليفه قبل حدوثه مسبقًا. «اعتمدت الديكتاتوريات قرارات ظنتها حاسمة، فيما تبين لاحقًا إنها لا تعدو كونها مجموعة من الافتراضات غير الناضجة، والملاحظات السطحية أو تقييمًا هزيلًا في أحسن الأحوال»[1]. ولهذه الأسباب كانت الحرب اليونانية بمثابة الطامة الكبرى على إيطاليا، مما استدعى تدخل الألمان لإنقاذ حلفائهم الإيطاليين.

بحلول أواخر عام 1942م تعقّدت حالة موسوليني العقلية. وخسر ربع وزنه في بضعة أشهر، ولا يرجع ذلك إلى معاناته القديمة جراء حالات قرحة المعدة فحسب، وإنما أيضًا جرّاء اكتئابه العميق. انتهت مرحلة الكلام المنمق، ولم يعد لديه احتياطات من القوة أو الشجاعة. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1942م ضربته نوبة شديدة من الاكتئاب لدرجة أنه

(1) Kershaw, **Fateful Choices**, p. 173.

أوفد زوج ابنته كاليازو أشيانو لينوب عنه في اجتماع كان من المقرر أن يعقده مع هتلر، كما أمضى معظم أوقات رأس السنة الجديدة في سريره. وفي نيسان/ أبريل عام 1943م وخلال زيارة قام بها إلى ألمانيا، تفاقمت أزمته الصحية مرة أخرى جرّاء آلام في المعدة وحالات من الأرق، ولم يعد هناك شك أن إيطاليا بدأت تتهاوى باتجاه الهزيمة في الحرب. أدّت الهزيمة إلى عصبية زائدة لديه، إذ بدأ يظهر توتره ويتحدث بسرعة، وسرعان ما بدأت سلطته في التلاشي والخمود. وفي تموز/ يوليو من عام 1943م سجنه زملائه الإيطاليون في جزيرة بونزا ثم نُقل إلى قاعدة بحرية في سردينيا، وأخيرًا إلى منتجع للتزلج. وفي أيلول/ سبتمبر بعد استسلام إيطاليا، أنقذ فريق ألماني موسوليني بواسطة طائرة شراعية نقلته جوًّا إلى ميونيخ. وعاد به الألمان لينصِّبوه بوصفه مجرد دمية دكتاتورية لما تبقى من الجمهورية الإيطالية الاجتماعية. ثم ألقي القبض عليه وضرب بالرصاص من حزبيين إيطاليين بالقرب من كومو وقُذف بجسده في مؤخرة شاحنة لنقله إلى ميلانو في 29 نيسان/ أبريل 1945م حيث ربطت جثته إلى جانب جثة عشيقته في ساحة لوريتو، المكان نفسه الذي أطلق فيه النار على خمسة عشر حزبيًّا إيطاليًّا في آب/ أغسطس عام 1944م. كان موسوليني على ما يبدو يعاني من كوابيس حادة حول طريقة وفاته التي تخيلها في سيناريوهات وهمية. طوقت باله فكرة مخيفة مفادها خشية رهيبة من أن يقبض عليه الأميركيون ويذهبون به إلى ساحة ماديسون سكوير بنيويورك في الولايات المتحدة لمحاكمته، كما لوكان مجرد «وحش مطوّق في قفص صيد»[1] وهكذا اكتملت صورة فراره الدائم من واقعه.

***

خرجت بريطانيا منهكة بفعل تراكمات الديون وتداعيات مخلفات حربين عالميتين عام 1945م، وكان الناخبون يشكّون قليلًا في صحة ونستون تشرشل، وراودتهم شكوك أكبر حول قدرته على تقديم حلول فعالة لقضايا استعجالية مثل توفير السكن وخلق الوظائف. فاجأت بريطانيا العالم قبل نهاية الحرب ضد اليابان بتصويتها لاختيار حكومة حزب العمل بقيادة كليمنت أتلي، وهو زعيم لا يتمتع بشخصية كارزمية، ولكنه حاسم في مواقفه. تابع الناخبون البريطانيون الأداء الممتاز للزعيم أتلي عندما كان نائبًا لرئيس الوزراء في حكومة

(1) Romano Mussolini, **My Father, Il Duce: A Memoir by Mussolini's Son** (Carlsbad, CA: Kales Press, 2006), p. 8.

الائتلاف إبّان الحرب، ولهذا صوتوا لصالح مستقبلهم، فوجدوا أن حزب العمل أقدر على معالجة إشكاليات السلام من حزب المحافظين. استبدل تشرشل بأتلي في منتصف الطريق وفي مرحلة حاسمة قبل حلول موعد مؤتمر بوتسدام، وأكد هذا رؤية ستالين «الخطورة الانتخابات ونتائجها غير المضمونة، ومقدرتها على تغيير الحكومات في منعرجات صعبة، فإنه من الأفضل الابتعاد عن الانتخابات إلا إذا كانت النتيجة جد مضمونة»[1] وهو ما فعله بالضبط في بلاده بتزويره نتائج الانتخابات ليفوز بأغلبية جد ساحقة.

اعتبر أتلي على نطاق واسع بأنه من أفضل رؤساء الحكومات البريطانية في زمن السلم. وبقي شخصيًّا بصحة جيدة. وفي 21 آذار/ مارس1951م ألمّت به وعكة صحية جراء ألم قرحة في الاثنى عشر، والتي دفعته بصفة مؤقتة إلى إمضاء بعض الوقت في مستشفى سانت ماري غرب لندن. وبالتالي غاب أتلي عن اجتماعات مجلس الوزراء الحاسم حيث وقعت مشادات بين وزير الصحة أنيورين بيفان والمستشار هيو غيتسكيل. هدد الوزير بيفان وآخرون بالاستقالة عندما زاروا رئيس الحكومة أتلي في المستشفى، مما شكل ضغطًا إضافيًّا عليه، كان له بالغ الأثر على تأخير شفاء قرحته. وفي 23 نيسان/ أبريل استقال بيفان مما ساهم في الهزيمة الانتخابية لحزب العمال في تشرين الأول/ أكتوبر من ذلك العام، وبالتالي عودة تشرشل من جديد إلى منصب رئيس الوزراء.

تقهقر تشرشل

يقول الطبيب الشخصي لتشرشل اللورد موران (المُسمى السير تشارلز ويلسون سابقًا) بأن الحفاظ على صحة ونستون تشرشل ليتابع عمله كرئيس للوزراء هي المسؤولية الملقاة على كاهله منذ عام 1951م. هذا وكان تشرشل قد تعرض لجلطتين دماغيتين في عام 1949م ثم في 23 حزيران/ يونيو1953م وكانت الأشد خطورة، حيث أبلغ السكرتير الخاص لتشرشل جون كولفيل أن تشرشل قد يموت على الأرجح نهاية الأسبوع[2]. كان تشرشل حينها لايزال قادرًا على التحدث دون صعوبة حيث أعطى تعليمات صارمة لسكرتيره كولفيل بعدم تسريب أي معلومات عن عجزه عن أداء مهامه. نشر مورن وأخصائي الأعصاب السير راسيل برين

(1) Bullock, **Hitler and Stalin**, p. 996.

(2) Sir John Colville, **speaking on Case History: Anthony Eden, BBC Radio 4**, 1998.

نشرة طبية تشير إلى «اضطراب الدورة الدموية الدماغية» ولكن أُنهي الموضوع وأوقف من قبل كبار السياسيين المحافظين، أمثال السير راب وبتلر ومركيز ساليسبري بعد عدة نقاشات حادة. تشاور كولفيل أيضًا مع ثلاثة من أصدقاء تشرشل في المجال الإعلامي، وهما جون بيري (الذي حصل لاحقًا على لقب فيزكونت كاروز) واللورد بيفر بروك المشار إليه بكنية ماكس، والفيكونت إبراكن الذي انضم إلى مؤامرة الصمت، والذين أقنعوا زملاءهم في «فليت ستريت» بعدم نشر أي خبر عن تدهور الحالة الصحية لتشرشل في الصحف[1]. في الواقع نجا تشرشل وإن كان غير قادر على مباشرة الحكم لعدة أسابيع، حيث انتحل زوج ابنته النائب المحافظ كريستوفر سومز شخصيته لدرجة وصلت إلى حدِّ تزوير توقيعه للنيابة عنه في تسيير الأمور اليومية[2]. صرَّح تشرشل في مجلس العموم بعد سنة من تاريخ إصابته أنه عاني من جلطة دماغية.

كان الطبيب موران دائمًا ما يضع مصلحة مريضه في المقام الأول خلال أمراض تشرشل كلها، حتى أن تقييمه في عام 1941م للأزمة القلبية التي ضربت تشرشل كان متماشيًا بشكل واضح مع المصالح العليا للبلاد. وفي عام 1953م لم يكن الحكم على صحة تشرشل واضحًا بما فيه الكفاية، فالطبيب موران اختار أن يختبر ذاكرة تشرشل في 6 تموز/ يوليو، أي: بعد مضي أربعة عشر يومًا فقط على إصابته بالجلطة الدماغية. وللتحقق من استعادته لذاكرته طلب من تشرشل قراءة قصيدة من كتاب لونغ ونجفيلو «ملك صقلية روبرت» وكانت النتيجة نطقه الخاطئ لعدد محدود من الكلمات من أصل ثلاثمائة وخمسين. إلا إنه ليس اختبارًا جيدًا لقدرة الدماغ على معالجة المعلومات الجديدة. استشهد موران بالمحادثة التالية التي أجراها مع تشرشل في 4 نيسان/ أبريل 1955م، أي: قبل يومين من مغادرة رئيس الوزراء لمبنى داونينغ ستريت:

تشرشل: بما أنك طبيبي الشخصي، هل تعتقد بأنه كان يجب على أن ذهب من قبل؟.

(1) Jenkins, **Churchill**, p. 863.

(2) كما وُضح في وثائقي **The Downing Street Patient** لقناة بي بي سي في 28 شباط/ فبراير 2004.

موران: أتساءل أحيانًا كيف سأظهر بعد خمسين سنة من حدوث هذا.

تشرشل: أنت لم تجب على سؤالي.

موران: حسنًا، في العام الماضي عندما سألني كل من ماكس وكامروز عن الجلطة الدماغية التي أصبت بها وماذا سيحدث، قلت لهم: إنه التخمين.

تشرشل: ماذا تقصد التخمين؟.

موران: يعني كم من الوقت قبل أن تصيبك جلطة أخرى، قالوا: إنك لن تعود بعدها إلى مجلس العموم. فأجبت: إني شاهدت حالات أكثر خطورة تعرض أصحابها لشلل كامل، ثم استعادوا قواهم، ويجب علينا أن ننتظر لنرى ماذا سيحصل.

تشرشل: هل استطاع الكثير من الناس التعافي بعد جلطتين دماغيتين؟.

موران : لقد سلَّموا بأنه قضي عليك كسياسي، شعرت منذ أول جلطة بأنه كان من الممكن لك أن تتقي الأمر لو أنك تقاعدت[1].

وفي وقت لاحق، فقد الطبيب موران احترام أسرة تشرشل، لا سيما زوجته، كليمنتين التي كتبت له خطابًا ساخطًا في تموز/ يوليو 1964م، عندما سمعت أنه كان يكتب كتابًا عن الأمراض الطبية لزوجها: «كنت أعتقد أنه من المفترض دائمًا أن تكون العلاقة بين الطبيب ومريضه كاملة الثقة... وأنا لا أرى كيف يمكنك تبرير مسارك الحالي»[2].

توضِّح أمراض تشرشل مشكلة الحكم على صحة الحاكم ومدى الانفتاح المسموح به على العموم لمعرفة حقيقية صحة رؤساء الحكومة أو درجة احتمالية عجزهم عن مباشرة السلطة، لا سيما عندما تكون هناك حاجة خاصة فيما يتعلق بالحفاظ على معنويات العموم. فلو عرف مجلس الوزراء البريطاني بحقيقة الأزمة القلبية التي تعرض لها تشرشل في أواخر كانون الأول/ ديسمبر1941م لكانوا جد قلقين من تأثيرها على الروح المعنوية العامة، إذ أصبح من المعروف على نطاق واسع إنه إذا ما شاع خبر تدهور صحة الرئيس فإن ذلك

---

(1) Lord Moran, **Churchill: The Struggle for Survival 1945 - 1960, rev. ed.** (London: Robinson, 2006), pp. 366 - 367.

(2) Soames, **Clementine Churchill by Her Daughter**, p. 508.

سيضطره إلى التنحي عن السلطة. كان من المحتمل أنهم سيكتمون الخبر ويحثّون تشرشل بهدوء للذهاب بعيدًا للراحة، ويطلبون من النائب كليمنت أتلي تسييرًا مؤقتًا لتقليص الفجوة في سدة الحكم. في الحقيقة حصلت هذه السردية تمامًا عندما أصيب تشرشل بالتهاب رئوي ومرض «ذات الجنب» في كانون الأول/ ديسمبر 1943م في مدينة قرطاج. فشجعه مجلس الوزراء على قضاء فترة نقاهة في مراكش، وبعدم التعجل للعودة لممارسة الحياة السياسية النشطة. وفي الحقيقة، ساهم دخول الولايات المتحدة للحرب في ذلك الحين بقوة في نزع فتيل أي أزمة سياسية، وعدم تدني المعنويات العامة. لو توفي تشرشل في 1943م لكانت ضربة في الصميم، ولو كانت وفاته في كانون الأول/ ديسمبر 1941م لكانت خسارة كبيرة، ولو تمّت قبل ذلك لكانت كارثية بكل المقاييس.

عندما غادر تشرشل الحكم في سن الثمانين أشارت ابنته ماري سواميس إلى تداعيات الحدث، واصفة إياه بكونه «الوفاة الأولى» وأنه تضايق كثيرًا. كانت استقالته منتظرة منذ أمد بعيد، وكان خليفته السير أنتوني إيدن قد بدأ يفقد صبره ليصبح رئيسًا للوزراء. كشف تشرشل لسكرتيره الخاص في ليلته الأخيرة في المبنى الحكومي «داونينغ ستريت» بلهجة حازمة معلقًا على إمكانية قدرات خلفه: «لا أعتقد أن أنتوني يستطيع تولي الأمور»[1] كلمات تحمل نبوءة[2].

(1) Colville, Fringes of Power, p. 662.

(2) (انظر: الفصل الثالث).

الفصل الثاني

1953 ـ 2007م

ترهبني قوتنا الذاتية وطموحنا الخاص. يرهبني وجودنا المفزع للغاية... يمكننا القول علينا ألا نسيء استغلال قوتنا الآنية التي لم يُسمع بمثلها من قبل. لكن تظن كل الأمم الأخرى أننا سنقوم باستغلال تلك القوى. ولذا من المستحيل، إما عاجلًا أو آجلًا، ألا تنتج الحالة الراهنة مزيجًا ضدنا ينتهي بخرابنا.

إدموند بيرك (1729 ـ 1797م)

دوايت أيزنهاور

كانت الولايات المتحدة الأميركية واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية في عام 1953م القوتين الوحيدتين الحائزتين على أقوى ترسانة من الأسلحة النووية في العالم. وأصبحت الولايات المتحدة تدريجيًّا وعلى مدى العقود الأربعة القادمة القوة العظمى، ولكن يرى بعض المعلِّقين من ذوي البصيرة الثاقبة داخل أميركا بضرورة الرهبة من قوتها وطموحها المتزايدين. لقد أصبحت رئاسة دوايت أيزنهاور من(1953 إلى 1963م) رمزًا لتزايد الرخاء والتحفظ النسبي في الولايات المتحدة الأميركية. وفي ضوء حرب فيتنام وما يحدث في العراق وأفغانستان الآن، فإن أيزنهاور كان قد حذَّر الولايات المتحدة في إحدى خطبه من مخاطر القوة العسكرية والصناعية التي بحوزتها.

جلبت رئاسة أيزنهاور إلى دائرة الضوء القضايا المركزية المتعلقة بمرض رؤساء الحكومات. كمسألة الانفتاح مقابل السرية، والأخرى كيفية التعامل مع وضعية مرض خطير لرئيس حكومة يفقده القدرة على تسيير مقاليد السلطة. ففي المثال الأول قدمت حالة أيزنهاور نموذجًا رائعًا من الابتعاد عن السرية، وتبني مزيد من الانفتاح حول الظروف الصحية، مما ساعد على كسب ثقة العموم.

إلا إن أيزنهاور لم يكن منفتحًا دائمًا بخصوص حالته الصحية. تمتع طويلًا بصحة مثالية، وفي عام 1943م عندما كان القائد الأعلى لقوات التحالف في أوروبا، وجد الأطباء العسكريون أنه كان يعاني من ارتفاع ضغط الدم طوال حياته، كما أن لديه أعراضًا في الجهاز الهضمي على شكل تقلصات في المعدة الدورية، وحالات مفاجئة من الإسهال[1]. وهي ما سجلها أيزنهاور بنفسه في يومياته المؤرخة 4 حزيران/ يونيو 1949م ما نصه:

> **كانت عندي أزمة حادة في الجهاز الهضمي في ربيع هذا العام ألزمتني أخيرًا بالبقاء في الفراش في 21 آذار/ مارس. وبحلول نهاية الأسبوع كنت قادرًا على السفر، ودعاني الرئيس ترومان لاستخدام تسهيلات إقامته في كي وست. ذهبت إلى هناك برفقة الجنرال سنايدر وبقيت في الإقامة حتى 12 نيسان/ أبريل حيث أخذني إلى نادي أوغوستا الوطني للغولف ومكثت فيه حتى 12 أيار/ مايو.**

ادَّعي طبيبه الشخصي هوارد سنايدر أن تلك الحالة لم تكن سوى نزلة معدية ـ معوية ولم تكن قلبية، إلا أنه شُخص لاحقًا بمصاب بالالتهاب اللفائفي أو مرض كرون[2]. كما أعرب الدكتور العسكري توماس ماتينجلي أخصائي أمراض القلب عن اعتقاده أن أيزنهاور أصيب بنوبة قلبية خفيفة في عام 1949م وتستر عليها الطبيب سنايدر. أصبح توماس مستشارًا لأيزنهاور في البيت الأبيض، ولكنه لم يكن يعالجه في هذه الفترة من حياته. أحبَّ توماس ماتينجلي أيزنهاور واحترمه، لكنه ادَّعى أنه كان يعاقب سنايدر ويتعاون معه في خدعته. مهما تكن حقيقة نتائج التشخيص، فقد آمن الناخبون في الولايات المتحدة بقدرة أيزنهاور وصحته عندما تغلب على منافسه أدلاي ستيفنسون ليصبح رئيسًا في تشرين الثاني/ نوفمبر 1952.

(1) Robert P. Watson and Dale Berger, **Reconsidering Ike's Health and Legacy: A surprising Lesson in Duty at the Little White House Residential Retreat** (Gettysburg, PA: Eisenhower Institute, 2006).

(2) يُعد مرض كرون التهابًا مزمنًا للأمعاء الدقيقة و/ أو الأمعاء الغليظة، وعادة ما يصيب المعي اللفائفي. ويؤثر على المناعة الذاتية لعدة سنوات، حيث تبدأ بالتراجع والانتكاس. ويصعب أحيانًا التمييز بينه وبين التهاب القولون التقرحي الذي يصيب القولون، إلا أن مرض كورون قد يؤثر على أي جزء من السَّبيل الهضمي. يتأثر جدار الأمعاء ويصبح متقرحًا وغليظًا، ولكن تبقى بعض أجزاءه سليمة. وتزداد نسبة انتشار المرض حتى يصل عدد المصابين ما يقارب 7 أشخاص من أصل 100,000 شخص. ومن أهم أعراضه آلام البطن، والإسهال الدموي، وفقدان الوزن. وأبدى مؤخرًا العلاج بكابتات المناعة تقدمًا ملحوظًا. بينما قد يحتاج المرضى ذوي الحالات المتقدمة لعملية جراحية لإزالة الجزء المصاب من الأمعاء. ومن المضاعفات الخطيرة حدوث قرحة في الأمعاء، وحدوث الانسداد والتي تعتبر أشد خطورة، ويلزم الحالتين تدخل جراحي طارئ.

في 24 أيلول/ سبتمبر 1955م، أُصيب أيزنهاور بما اعتقد أنه عسر في الهضم عندما كان يلعب الغولف في دنفر، فلقد كان مدخنًا شرهًا. كان معه سنايدر طبيبه الذي بلغ من العمر عتيًّا، حيث تجاوز الأربعة والسبعين عامًا، ويعتبر صديق الأسرة منذ أمد بعيد، إذ أنه كان يعالج زوجة أيزنهاور لسنوات طويلة لما تعرضت لمرض في صمام القلب. ولهذا السبب عالج آيزنهاور كطبيب للأسرة ووفقًا للممارسة الريفية. وعندما دعي في حوالي الساعة 02:45 صباحًا في 25 أيلول/ سبتمبر بسبب تعرض أيزنهاور لمزيد الألم في صدره، جزم سنايدر أن الرئيس يعاني من أزمة قلبية، ولكنه لم يسرع بأخذه إلى المستشفى. وبدلًا من ذلك أعطاه دواء «أميل نترات»[1] لتسهيل التنفس، وتمدد الشرايين التاجية، وحقنة لمكافحة تجلط الدم لمنع تخثر الدم، إضافة إلى مخدر المورفين لتخفيف أي ألم. وفي الساعة 7:00 صباحًا قال لسكرتير الرئيس الصحفي: إن أيزنهاور يمرُّ بحالة من عسر الهضم من أجل طمأنته وتهدئة العموم. لم يستيقظ أيزنهاور قبل الساعة 11:00 صباحًا، وبعد منتصف الليل طلب سنايدر من المستشفى العسكري توفير آلة تخطيط القلب التي أظهرت أن الرئيس قد أصيب بنوبة قلبية وتجلط الدم في الشريان التاجي[2]. وفي الساعة 2:00 ظهرًا أُخذ أيزنهاور إلى المستشفى[3]. قد يقول البعض إن هذا النهج من رباطة الجأش والهدوء شبيه بسلوك متهور، وقد يرى البعض فيه أفضل صفات ممكنة لطبيب العائلة. وفي تفسير آخر يمكنه أن يدعم الادعاء بتستر سابق. لم يشك سنايدر في صحة التشخيص بعد معالجته لأيزنهاور خلال الأزمة القلبية التي ألمّت به في عام 1945م، آملًا في عدم تنويمه بالمستشفى وعدم طلب تخطيط للقلب، وأن يُبقي أمر هذه الأزمة طي الكتمان كذلك.

وفي صباح يوم 26 أيلول/ سبتمبر، حين انتشر خبر مرض أيزنهاور، انخفض مؤشر داوجونز المالي بنسبة 6 في المائة، أي: خسارة ورقية بقيمة 14 مليار دولار، وهو أكبر انخفاض مالي منذ انهيار البورصة الشهير في عام 1929م. كانت ردة الفعل عنيفة وقاسية

---

(1) كان أميل النترات يُستخدم سابقًا لعلاج الذبحة أو آلام القلب التي يسببها نقص في كمية الدم الواصلة إلى القلب، والذي ينتج عنه نقص تروية لعضلة القلب. يعتبر أميل النترات سائلًا متطايرًا ينتج عن تفاعل النترات وأكسيد النترات في الكحول الأميلية. ويستخدمه متعاطو المخدرات ليضفي شعورًا بالنشوة، حيث يسمونه «بوبرز». ويعتبر الآن ثلاثي نترات الغليسيريل أفضل علاج للذبحة، ويؤخذ عن طريق أقراص توضع تحت اللسان.

(2) Clarence G. Lasby, Eisenhower's Heart Attack: **How Ike Beat Heart Disease and Held On to the Presidency** (Lawrence: University Press of Kansas, 1996), pp.97-102.

(3) Jerrold M.Post and Robert S. Robins, **When Illness Strikes the Leader: The Dilemma of the Captive King** (New Haven, CT: Yale University Press, 1993), p.15.

وتجاوزت حتى ردود الفعل على حادثتي اغتيال الرئيس كينيدي، وإطلاق النار على الرئيس ريغان.[1] استمرت حالة الذعر لفترة قصيرة فقط، وساعد سلوك أيزنهاور العام إلى حدٍّ كبير. وبعد أسابيع قليلة صور أيزنهاور على سطح المستشفى على كرسي متحرك وطُرِّز قميصه بالكلمات التالية: «**أفضل بكثير شكرًا**».

كان أيزنهاور أول رئيس حكومة يضع حدًّا لدورة السرية والتخفي على صحته. واستبعد بشدة أية عودة إلى واشنطن إلا إذا كان قادرًا على المشي والعمل الطبيعي في مكتب البيت الأبيض، قائلًا: بأن لا أحد يريد رئيسًا معوقًا. وبصراحة تامة، استطاع رئيس فريقه شيرمان أدامز متابعة الأمور اليومية للسلطة التنفيذية، ولم يظهر نائبه ريتشارد نيكسون أي اهتمام بالاستيلاء على مقاليد السلطة[2]. عاد أيزنهاور إلى واشنطن في يوم عيد قدامى المحاربين 11 تشرين الثاني/ نوفمبر. وقال للحشد الذي في انتظاره: «أعطاني الأطباء إطلاق سراح مشروط إن لم يكن عفوًا». أحبَّه العموم لأمانته وصراحته. ذهب إلى مزرعته في جيتيسبيرغ ثم توجه إلى «كي وست» لمدة اثنتي عشر يومًا من 28 كانون الأول/ ديسمبر وحتى 8 كانون الثاني/ يناير. وتظهر السجلات المفصلة لإقامته أنه جمع بين العمل الحكومي والاستجمام.

قرر أيزنهاور ترشيح نفسه لفترة ولاية ثانية كرئيس للبلاد في 29 شباط/ فبراير 1956م بعد أن أخبره الأطباء أنه قد استعاد صحته كاملة. وفي يوم 6 حزيران/ يونيو أُصيب أيزنهاور بالالتهاب اللفائفي، تأثرت منه الأمعاء الدقيقة، إضافة إلى حصول تشنجات مؤلمة. أخذ إلى مستشفى «ولت ريد» وبعد تردد بعض الجراحين أجريت له عملية ناجحة إثر عرقلة في الأمعاء الدقيقة نتيجة لمضاعفات «مرض كرون». وفي 21 آب/ أغسطس استعاد أيزنهاور لياقته الطبية بدرجة كافية ليطير لقضاء عطلة في سان فرانسيسكو، ظهر بصحة جيدة مرة أخرى على الرغم من بلوغه الخامسة والستين من عمره. بدأ الآن يستفيد من صدقه مع العموم باطلاعه الدائم على حقيقة صحته. وأظهر صدقية الأطباء في استعادته لحيويته وكانت نتيجة ذلك حصوله على ثقة الرأي العام الأميركي، الذي لم يشعر قط أنه كان يضلله وبالتالي سمح له بإعادة ترشحه.

---

(1) Franz H. Messerli, Adrian W. Messerli and Thomas F. Luscher, «Eisenhower's Billion-Dollar Heart Attack- 50 Years Later», **New England Journal of Medicine** (2005), vol. 353, pp. 1205-1207.

(2) Geoffrey Perret, **«Lifesaver», in Eisenhower** (New York: Random House, 1999).

خلال فترة ولايته الثانية في 25 تشرين الثاني/ نوفمبر 1957م ، وبينما كان يعمل في مكتبه، أُصيب أيزنهاور بالمرض الرئيس الثالث في عهدته الرئاسية. بدأ مرضه بدوخة وضعف مؤقت بذراعه ويده اليمنى ثم صعوبة في الكلام، واختيار الكلمات الصحيحة. كان يعتقد أنها إصابة دماغية عابرة خاصة بالنصف الأيسر من دماغه، لكن وجود عيب طفيف في النطق يفيد بأن الأمر قد يكون له علاقة بجلطة دماغية[1]. سُرّبت هذه المرة معلومات شحيحة للصحافة حول الحادث، وهمس أيزنهاور عند نقطة معينة في أذن أحد مساعديه المقربين أنه يفكر في الاستقالة[2]. إلا أنه في النهاية ورغم ذلك استطاع أن ينهي فترة ولايته حتى كانون الثاني/ يناير 1961م وعاش تقريبًا عقدًا من الزمن بعد نهاية عهدته الرئاسية. وفي صيف عام 1965م أصيب بنوبة قلبية سيئة وأصبح مكتئبًا أيضًا، ثم أصابته أزمة قلبية أخرى وتوفي إثر فشل القلب في آذار/ مارس 1969م عن عمر يناهز 78 عامًا، أي: عاش ما يقارب أربع عشرة سنة بعد أزمته القلبية الخطيرة التي أصابته في دنفر.

كان أيزنهاور قلقًا لبعض الوقت حول ماذا سيحدث إن أعجزته الأمراض كرئيس عن اتخاذ القرارات الصائبة. وفي شباط/ فبراير 1957م اقترح في اجتماع لحكومته تشكيل لجنة خاصة للبتِّ في إجراءات نقل السلطة، وفي نيسان/ أبريل من ذلك العام اقترح المدعي العام على مجلس الشيوخ تعديلًا دستوريًا، يلزم نائب الرئيس بالحصول على الأغلبية في الكونغرس قبل أن يتمكن من تولي السلطة التنفيذية. كان ذلك بداية الإذن بإنشاء التعديل الدستوري الخامس والعشرين. وفي 3 آذار/ مارس 1958م قبل أن يتم تمرير هذا التعديل، وُقِّعت مذكرة اتفاق بين أيزنهاور ونيكسون تسمح للرئيس أن يعلن في وقت لاحق بداية ونهاية فترة انتقال السلطة إلى نائب الرئيس. كما تسمح المذكرة لنائب الرئيس، بعد التشاور وعند الاقتضاء، ليعلن إعاقة الرئيس وعجزه عن مزاولة مهامه الرئاسية. لم تكن المذكرة إلزامية في القانون، ولكنها أثارت في أذهان أعضاء الكونغرس أهمية التفكير بما ينبغي القيام

---

(1) تُحدِث السكتة، أو ما يسمى بالحادثة الوعائية الدماغية، ضررًا مفاجئًا يصيب الدماغ، وقد يكون إما نتيجة لانقطاع إمداد الدماغ بالدم والذي تسببه الجلطة الدموية، أو نتيجة لنزيف دماغي تسببه الأوعية الدموية الممزقة. وعادة ما يصاحبها التصلب العَصيدي، حيث تكون فيه الشرايين ضيقة.

(2) Post and Robins, **When Illness Strikes the Leader**, p.17.

به إن اقتضى الأمر ذلك[1]. لم تكن إدارة كينيدي متحمسة للمشروع، ولم تعتبر المسألة ذات أولوية قصوى، ولم ترد تحديد الإجراءات الدستورية، مفضلة اقتراحًا من مجلس الشيوخ، وتركت القضية برمتها في يد المجلس لأخذ ما يراه مناسبًا من الإجراءات القانونية اللازمة. ربما أراد جون كينيدي أن يحدَّ من وتيرة النقاش العام لقضية صحة الرئيس نظرًا لتستره على حالته المرضية الخاصة.

قام أيزنهاور بأداء جيد على مدى عهدتين رئاسيتين. لم يقدِّره الأميركيون حقَّ قدره إلى أن غادر السلطة، فحظي باعتراف واحترام متزايدين، كما سجل له التاريخ إبقاء الولايات المتحدة خارج دائرة الاشتباكات العسكرية العلنية خارج حدودها، وقورن بصفة إيجابية مع خلفائه في الحكم. أما فيما يتعلق بصحته، أدرك أن العادة الماضية المتعلقة بالتستر على مرض الرؤساء يجب أن تتوقف، وأن ممارسة السرية على أمراض القادة ليست لازمة لكسب تأييد ناخبيهم.

ليندون جونسون

ستُعرض أمراض جون كينيدي، خليف أيزنهاور، بالتفاصيل في الفصل الرابع. وعندما أُغتيل في عام 1963م أصبح خليفه نائب الرئيس التكساسي المثير للجدل، ليندون جونسون، رئيسًا للبلاد بين الأعوام (1963 ـ 1969م). طرحت أسئلة عديدة حول صحة جونسون حتى قبل أن يصبح نائبًا للرئيس، واستمر الجدل بشأن صحته طوال فترة رئاسته. ففي يوم السبت 2 تموز/ يوليو 1955م أصابته أزمة قلبية حادة بينما كان يقود سيارته متوجهًا إلى شركة «براون وروث» للبناء في ولاية فرجينيا، والتي كانت لديه علاقة مميزة بها[2] قبل تعيينه زعيمًا للأغلبية في مجلس الشيوخ. كان يعمل بوتيرة محمومة وتجاهل العلامات التحذيرية للمخاطر الصحية وربما كان ذلك بسبب خوفه من نوبة قلبية، ذلك الخوف الذي لازمه طيلة حياته. نُقل مخدرًا إلى مستشفى بيثيسدا للقوات البحرية لمدة 48 ساعة، وقدرت فرصة بقائه على قيد الحياة بنسبة 50 في المئة مقابل 50 في المئة من توقعات وفاته. نُصح طبيًّا براحة كاملة وهو في السادسة والأربعين من عمره، وأصبح من شبه المجزوم به أنه لن يتمكن

(1) Herbert L. Abrams, **The President Has Been Shot: Confusion, Disability, and the 25th Amendment in the Aftermath of the Attempted Association of Ronald Reagan** (New York: W. W. Norton, 1992), p.173.

(2) Robert A. Caro, **The Path to Power** (New York: Alfred A. Knopf, 1982), pp. 743 ـ 753.

إطلاقًا من خوض غمار الانتخابات الرئاسية، بل كان هناك بعض الشك حول ما إذا كان قادرًا على البقاء كرئيس لمجلس الشيوخ. سقط جونسون في فخ الاكتئاب العميق، والذي يُعدُّ من الآثار الجانبية الشائعة للنوبات القلبية، إضافة إلى موجات من تقلبات مزاجية عنيفة شكلت دائمًا جزءًا من طباعه. غادر المستشفى يوم 7 آب/ أغسطس، وبناء على أوامر طبية اضطر إلى التوقف عن التدخين وشرب القهوة. كما طلب منه إنقاص وزنه، ولم تعد لديه فرصة للتمتع بأية متعة في الحياة بعد فقدانه لمتعه المعهودة: النيكوتين والكافيين، والجنس، ومجلس الشيوخ والسعرات الحرارية. وفي محاولة لإرضاء نفسه، بدأ فجأة بقراءة الكتب والحديث إلى الناس بطريقة غير مقنعة «إنه من الرائع أن يكون لدينا وقت لمجرد الجلوس والتفكير». وفقًا لكاتب سيرته، روبرت أ. كارو، فإن جونسون عندما رجع إلى مزرعته في تكساس «سقط في نوبة أعمق من اليأس، وأخطر من أي وقت مضى مقارنة بنوبته السابقة في المستشفى، حيث يجلس لساعات طويلة يحدق في اللاشيء ولا يقول شيئًا»[1]. وفي نهاية المطاف قد نعرف المزيد حول ما إذا كان قد أعطي عقاقير لعلاج الاكتئاب خلال فترة رئاسته.

كان جونسون عديم الضمير وذو طموح فريد، وصفه كلارك كليفورد، الذي تعرَّف جيدًا على كل من الرؤساء الديمقراطيين منذ عهد ترومان إلى كارتر، بأنه «أكثر الرجال الذين قابلتهم تعقيدًا وكان الأصعب أيضًا».... ويمكن أن يكون «ماكرًا بشكل مذهل» و«متنمر فظيع»[2]. لكنه يفهم السلطة السياسية جيدًا. وكتب عنه وزير الخارجية في عهد ترومان دين أتشيسون في رسالة وجهها إلى كليفورد: «إن جونسون يقدم مزيجًا لا يصدق من الحساسية والخشونة، ومن الفهم والبلادة». ومع ذلك يعتقد كليفورد أنه لولا حرب فيتنام لكان جونسون «واحدًا من ألمع الرؤساء الأميركيين».

حاول جونسون وقف الزخم الانتخابي لترويج السناتور كينيدي في تموز/ يوليو إبان اجتماع الحزب الديمقراطي في عام 1960م وصرّح لصحيفة «شيكاغو ديلي نيوز» بتصريح ينتقد فيه الصفات الجسدية لكينيدي حيث وصفه: «إنه زميل هزيل ويعاني من الكساح».

(1) Robert A. Caro, **The Years of Lyndon Johnson, vol. 3: Master of the Senate:** (London: Vintage, 2003), pp. 620 - 636.

(2) Clark Clifford and Richard Holbrooke, **Counsel to the President: A Memoir** (New York: Random House, 1991), pp. 385 - 386.

وادعت أنديا إدواردز المقربة سياسيًّا من جونسون في مؤتمر صحفي أثناء الاجتماع بأن كينيدي يعاني من مرض أديسون. يبدو أنها عرفت مرضه من مصدر «موثوق» كان حاضرًا في قصر أحد الحكام خلال توقف انتخابي لحملة كينيدي، ونتيجة لنسيانه الكورتيزون سقط كينيدي مغشيًّا عليه ولم يفق من غيبوبته تلك الليلة، إلى أن أحضر له أحد الجنود كمية من دوائه وتركها إلى جانب سريره.[1] وكان يُنظر على نطاق واسع لهذا الادعاء بأنه خدعة قذرة من أنصار جونسون، ولكن وفقًا لإدواردز، فإن جونسون أنّبها بحدة لتوريطها إياه في تلك المزاعم. وبينما لم يبدِ كينيدي أي لوم لجونسون على تهجمه على صحته، إلا أن شقيقه روبرت بالغ في لومه لجونسون، ولم يسامحه أبدًا على تهجمه. ومنذ البداية وروبرت مستاء جراء تعيين شقيقه لجونسون كنائب له، ومن الصعب عليه قبول رئاسة جونسون بعد اغتيال شقيقه كينيدي.[2]

كُتب مجلدان عن حياة جونسون «Lone Star Rising وGiant Flawed»، احتوت على العديد من القصص المثيرة، لكني أجد في إحداها إثراء أكثر، ودلالة أعمق لتوضيح طبيعته المراوغة المتسمة باللف والدوران، لدرجة أنها شملت والد كينيدي، جو، قائلًا له: إنه إذا عيّن جونسون ابنه جاك على لجنة العلاقات الخارجية، فإن جو لن ينسى أبدًا تلك الإكرامية ما تبقّى من حياته». ويتذكر جونسون هنا ردة فعله بقوله:

> **عرفت الآن أن كفوفر (إستس كفوفر) سيناتور ولاية تينيسي كان بحاجة ماسّة للمقعد، وكنت أعرف أن لديه أقدمية أربع سنوات على كينيدي الأب، وكان بودي تفضيل تينيسي على ولاية ماساشوستس. لكنني تخليت دائمًا العجوز جو يجلس هناك مع كل ما يجلبه ذلك من شعور بالسلطة وتحقيق للثروة، كما أحسست بمدى امتنانه لي بقية حياته فأحببت تلك الصورة بكل تأكيد**[3].

ومهما تكن دوافع جونسون لتذكر هذا الوعد من أجل أن يصبح مرشحًا لنائب كينيدي في الرئاسيات، فإننا قد لا نعرف أبدًا حافزه الحقيقي. لقد كان لجو كينيدي تأثير قوي على

(1) Jeff Shesol, **Mutual Contempt: Lyndon Johnson, Robert Kennedy, and the Feud that Defined** a Decade (New York: W. W. Norton, 1997), p.35.

(2) المصدر نفسه، ص 361.

(3) Robert Dallek, **Lone Star Rising: Lyndon Johnson and his Times** 1908-1960 (Oxford: Oxford University Press, 1991), p. 556.

جاك، وأكثر بكثير مما له على روبرت. اقتنع جو كينيدي بفكرة إضافة جونسون إلى اللائحة الانتخابية حيث يعتبر أن ولاية تكساس مهمة، وبالتالي يجب أن يفوز بها الديمقراطيون. لهذا لن يكون قلقًا من توحيد صفوف مناصري حزبه، حتى وإن كانوا من الكارهين لجونسون.

أثار اغتيال الرئيس كينيدي اهتمامًا خاصًا بالتعديل الدستوري لتغطية الفراغ الدستوري في حال مرض الرئيس، وتأكيد عجزه عن الاستمرارية في حكمه. لقد كان هناك اعتقاد أن كينيدي لم يمت بعد، ولكنه كان عاجزًا كليًا. كما أن هناك مخاوف بشأن صحة جونسون نفسه نتيجة للأزمة القلبية التي أصابته منذ ثمانية أعوام. واتفق على التعديل الخامس والعشرين كما في اتفاق تموز/ يوليو 1965م وصودق عليه رسميًا من طرف النصاب القانوني المتمثل في تصويت 38 ولاية يوم 10 شباط/ فبراير 1967م[1].

ومن المثير للاهتمام أنه في عام 1965م، أصيب جونسون بأزمة حادة من التهاب المرارة، الذي أثر على عمله، تشاور مع دوايت أيزنهاور حول مرضه، وأوصاه أيزنهاور بضرورة الانفتاح، وبيَّن له مزايا الصراحة. ومن الغريب أن جونسون الذي كان مهووسًا بالسرية أخذ بنصيحته بالفعل وتحدث إلى نائبه وحكومته، ومن ثم ذهب إلى مستشفى البحرية «بثسدا» لإجراء عملية إزالة خصى في المرارة، والمرارة نفسها، كما أُزيلت حصوة من حالبه. وبعد مضي اثني عشر يومًا على عمليته الجراحية، استدعيت الصحافة لأخذ الصورة الشهيرة لما تبقى من آثار العملية على بطنه في 20 تشرين الأول/ أكتوبر1956م.

تعرض بعد ذلك لنوبة حادة من اكتئاب ما بعد العملية، لدرجة أنه همّ بإخراج أوراق استقالة ليوقعها رسميًا للتنحي عن الرئاسة[2]. لم تحظ هذه القصة بما يكفي من الدعاية كثيرًا لكن مصدرها كان قريبًا جدًا من أسرة جونسون. إلا إن ثلة قليلة من المقربين منه نجحت في إقناعه بالتراجع عن مشروع الاستقالة، ودخلت تلك الفترة الدرامية من حياته في نفق مظلم وهالة من الغموض حتى بعد مضي أربعين سنة على الحادثة. كما مرّ بفترات متعددة من عدم الاستقرار والريبة وحتى اللاعقلانية، ولكن لم يوجد توثيق دقيق لرغبته في التنحي قبل أن يقرر الاستقالة رسميًا عام 1968م. لقد عرف عن عائلة جونسون أن لها أيضًا تاريخًا من المشاكل، كالديون وإدمان الكحول والإفراط في النشاط الجنسي، مما يعزِّز الحجج

(1) (انظر: الفصل الثامن).

(2) Liz Carpenter, **Ruffles and Flourishes: The Warm and Tender Story of a Simple Girl Who Found Adventures in the White House** (New York: Pocket, 1971), p. 261.

القائلة بتشخيص حالة الاضطراب الثنائي القطب لديه، لا سيما إذا عرفنا أن هذا الأخير مرض وراثي. وبالنظر إلى تاريخ الرئيس جونسون فمن الصعب أن ننكر أنه كان من الأفضل له للتعامل مع فيتنام بأن يستقيل في خريف 1965م ويسلم المشعل لنائبه هيوبرت همفري.

ففي أواخر ربيع عام 1965م، صُدم كاتب خطاباته ريتشارد كودون وانتابته حالة من القلق بسبب ما شاهد من «سلوك غير عقلاني»[1] للرئيس متزايد، والذي ميَّزه نتيجة قربه واتصاله المباشر بالرئيس لمدة ثلاث سنوات. فما كان منه إلا أن بدأ يبحث في الكتب الطبية ويجري النقاشات السرية مع الأطباء النفسيين المهنيين، علَّه يجد تفسيرًا لظاهرة خارجة عن المألوف. ودون علم غودوين، أخذ صديقه بيل مويرز زمام المبادرة، ربما لثقة الرئيس فيه كواحد من أقرب الشباب إليه، وتحدث بيل بالفعل وبشكل مستقل إلى اثنين من الأطباء النفسانيين. وكان ردُّهم كالتالي:

«في جميع الحالات كان التشخيص نفسه: كنا نصف حالة نموذجية من الشكوك المتحللة، أي: اندلاع لا عقلانيات مكبوتة لمدة طويلة. أما بالنسبة للمستقبل، فالأمر لا زال قاتمًا وغير مؤكد. يمكن أن يستمر التحلل أو تظل حالته ثابتة أو تنحسر. وهذا يعتمد على قوة مقاومة جونسون وإلى حدٍّ كبير على اتجاه الأحداث الخارجية، مثل الحرب وانهيار تأييد الرأي العام اللذين يؤثر ضغطهما على ثقة جونسون في مقدرته على التحكم في الأحداث. إن تلك الثقة هي صمام الأمان لحمايته من مرجل مدفون يتدفق شكًّا وسخطًا غير منطقي، سيما في حالة من يرى نفسه وحيدًا وعاجزًا في عالم معاد له، في نظره على الأقل»[2].

في عام 2006م، استعرضت مصادر السير الذاتية لرؤساء الولايات المتحدة وأُكِّد تشخيص تيودور روزفلت بأنه كان يعاني فعلًا من اضطراب ثنائي القطب، وصُنِّفت حالته بأنها شبيهة بما كان يحدث لجونسون خلال فترة رئاسته. هذا بالإضافة إلى وجود احتمال كبير بصحة التشخيص بالنسبة للحالة المرضية عند جونسون. ولم يستغرب أصلًا استحالة الوصول إلى معلومات عن حالته النفسية بالنظر إلى طابع شخصية جونسون المسكونة

(1) Richard N. Goodwin, **Remembering America: A Voice from the Sixties** (Boston: Little, Brown, 1988), p.398.

(2) المصدر نفسه، ص 403.

بالوساوس والشكوك. من غير المستبعد أن يكون قد أصدر تعليمات إلى الأطباء بعدم ترك أي أثر مادي قد يؤدي إلى اكتشاف حقيقة أو خطورة حالته الصحية، وثورة شكه في كل ما يحيط به. لا شك إن جونسون كان قد تعرض سريريًّا إلى أزمات من الاكتئاب طوال حياته. وقد أدَّى استعراض الكتابات الأدبية والمعلومات المتاحة إلى تفسير الأطباء النفسيين لحالة جونسون وسلوكه الخشن ومزاجه المتقلب كما تعكسه مشاكل الهوس و«القطب العكسي» إضافة إلى اكتئابه، كان جونسون عادة ما يتحدث عما يسميه «قوتي الجوية» وكان له اعتقاد لا يتزعزع بأن للرئيس الحق في أن يكذب.

كان الرئيس جونسون في وقت مبكر من أدائه في البيت الأبيض رائعًا في إنجازاته بالمجالات الاجتماعية والإصلاحات التشريعية ولا سيما الجانب المتعلق بالحقوق المدنية. شحذ مهاراته الهائلة في إطار الكونغرس لتوحيد الأغلبية الساحقة ووقوفها إلى جانبه، ويعدُّ إنجاز ما تقاعس عن تحقيقه كل الرؤساء الذين سبقوه إلى الحكم. ومع استمرارية رئاسته، أصبح يسيطر على أغلبية ناخبيه هاجس من التردد والانكسار جرّاء الحرب على فيتنام، بصفة لم يسبق لها مثيل كما يوضِّحه لنا جودوين:

«كانت نتائج هذا التركيز الضيق مُدمِّرة. توقفت داخل الحكومة الحجج المقنعة وتبادل وجهات النظر المتباينة والتقييم النقدي للسياسة الأساسية... القوة وحدها يمكن أن تحقق السلطة، وإذا ما فُككت القيود لا سيما المؤسساتية لا البشرية، فإن التجربة الديمقراطية بكاملها ستنحصر في لحظة خطر مميتة.. لقد عملت مع العديد من القادة الأقوياء الذين كانوا مقتنعين أن أهدافهم قويمة، وأن غاياتهم الوحيدة تحقيق المصلحة العامة مما جعلهم كلهم مستائين من العقبات التي تحول دون إرادتهم»(1).

عانى جونسون الكثير من الضغوطات والأزمات نتيجة لحرب فيتنام، وصاحبته فترة طويلة من التوتر خلال الفترة ما بين(1965و1967م) مما غيَّر طبعه بوضوح. كتب أحد أبرز كُتّاب سيرته الذاتية روبرت داليك: «تثير ريبة جونسون تساؤلات عدة حول تقييمه وقدرته على اتخاذ قرارات رشيدة تؤدي إلى الحياة أو الموت». كما اعترف بأن: «تحديد العجز النفسي قد يكون مستحيلًا». ثم طرح السؤال: «من يجرؤ على القول بأن: الرئيس اجتاز حدود الحس السليم الرشيد؟». ومع ذلك يخلص داليك إلى قوله: «من المؤكد في حالة

(1) المصدر السابق، ص 390.

جونسون ورغم اعتناقه لمزاج غريب الأطوار، يكاد يزاوج بين نفسه وأعدائه، إلا أنه لازال قادرًا على السيطرة على قدراته العقلية، وأقدر من ذلك على أداء مهمته الرئاسية»[1]. صحيح أن حرب فيتنام كانت تحديًا خطيرًا لاختبار قدرات أي رئيس. كان الهدف المطلوب في تلك الآونة هو القدرة على النظر بعقلانية وبهدوء لانسحاب القوات الأميركية من الحرب، وهو ما عجز عنه جونسون بسبب عدم ثقته بنفسه وريبته. فبدلًا من حل القوات اختار جونسون زيادات إضافية في مستويات القوات والعتاد والتفجيرات بدرجة أقل من رغبة الجنرالات، وأكثر من تحمل المنتقدين لسياسته.

خضع جونسون في عام 1967م لعملية جراحية سرية للغاية لإزالة سرطان الجلد في كاحله الأيسر. لكن الأدميرال جورج بركلي أحد أبرز أطباء البيت الأبيض الذي كان يعالج كينيدي، والطبيب الشخصي الحالي لجونسون، نفى بشدة كل التكهنات المتعلقة بتلك العملية. والتي أُكدت فقط في عام 1977م بعد وفاة جونسون من انسداد شرايين القلب (أو نوبة قلبية) في عام 1973م. وفي تشرين الأول/ اكتوبر 1967م حذَّر الدكتور ويليس هيرست زوجة جونسون، ليدي بيرد، إزاء الحالة الصحية لزوجها والتي على الرغم من رغبتها في مصارحته باتخاذ قرار بعدم إعادة ترشحه، أحجمت في النهاية عن إبلاغه.[2] وهذا يعني أنها أدركت نية زوجها وتصميمه على تقديم استقالته قبل عام 1968م. لقد نسب إلى عضو الكونغرس هنري غونزاليس من ولاية تكساس وصديق جونسون الحميم قوله: «لقد قال لي وجهًا لوجه إن سبب تخليه عن إعادة ترشحه يعود إلى نصيحة طبية مفادها: إنه لن يكون قادرًا على استكمال عهدة رئاسية جديدة».

في الفترة السابقة للانتخابات الرئاسية لعام 1968م، أبلى السيناتور الديمقراطي جين مكارثي بلاء حسنًا في الانتخابات التمهيدية في نيوهامبشير، مما قلَّص فرصة إعادة انتخاب جونسون. وبعد أربعة أيام أعلن روبرت كينيدي ترشيحه، مما شكل تحديًا أكبر لجونسون. وفي غضون أسابيع قليلة أعلن الرئيس جونسون على شاشة التلفزيون نيته في عدم خوض غمار الانتخابات الرئاسية مرة أخرى.

(1) Robbert Dallek, **Lyndon B. Johnson: Portrait of a President** (London: Penguin, 2005), pp. 376-377.

(2) Vaughn Davis Bornet, **The Presidency of Lyndon B. Johnson** (Lawrence: University Press of Kansas, 1984), p. 249.

كان هناك عدد لا يحصى من وجهات النظر المختلفة حول فيتنام وحول شخصية جونسون كذلك. كانت لسمات شخصية الرئيس الاجتماعية والجذابة تأثيرات كبيرة على توسيع دائرة انقسام الرأي داخل الولايات المتحدة، فهناك إعجاب لا مثيل له في أوساط بعض السياسيين بقدرته على ترتيب صفقات سياسية، وبالمقابل كانت هناك موجة من كراهية واضحة المعالم. تمكن البعض حتى من الجمع بين المتناقضتين: ثنائية من الإعجاب والكراهية في آن واحد. ولحسن الحظ أدرك جونسون في نهاية المطاف حساسية الموقف وأهمية المغادرة، تاركًا المشهد السياسي كمناورة للتقليل من حالة الانقسامات والتجاذبات التي كان قد ساهم في تعميق شرخها.

لقد ساهم العديد من السياسيين ـ أمثال دالاس وكينيدي وراسك وجونسون وماكنمارا ونيكسون وكيسينجر وفورد ـ كل بطريقة مختلفة فيما خسرته أميركا في فيتنام، وما وصفته باربرا تشمان بكلمة واحدة، «الفضيلة». كانت الحماقة الأولى هي المبالغة في ردة الفعل بشكل مستمر: اختراع فكرة تعريض «الأمن القومي» للخطر، واختراع «المصلحة الحيوية»، واختراع «الالتزام» التي توالت بسرعة إلى اهتمامات خاصة وقائمة بذاتها، فانقلبت الاختراعات على المخترع كما ينقلب السحر على الساحر. أما الحماقة الثانية فهي: «وهم القدرة المطلقة» لتكون الثالثة: «البلاهة والعناد» ليأتي من بعدهم مفهوم تحت بند جديد وعادة تسمى: «لا تشوش علي بالوقائع». كان خطأ حكومة الولايات المتحدة الفادح «التقليل من أهمية وتقدير التزام فيتنام الشمالية بتحقيق أهدافها... مقابل حالة من المطابقة والمبالغة في تقدير فيتنام الجنوبية... والحماقة الأخيرة غياب القدرة التأملية»[1]. كانت كل واحدة من تلك الحماقات حاضرة بشدة في غزو العراق. كان إمعانه النظر والتفكر ـ على الملأ في أغلب الأحيان ـ بالخيارات التي تتعلق بفيتنام سمة من سمات حكمه، إلا أنه افتقر إلى الثقة العليا في قدرته التقييمية، وتلك سمة أخرى من سمات القيادة المتغطرسة.

هارولد ماكميلان

في الوقت الذي أصبح فيه ليندون جونسون رئيسًا لأميركا في عام 1963م، كان رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان يحزم أمتعته ويغادر منصبه لسوء حالته الصحية. كان

(1) Barbra W. Tuchman, **March of Folly: From Troy to Vietnam** (New York: Ballantine, 1985), pp.374 _ 376.

ماكميلان قد تولّى خلافة أنتوني إيدن في منصب رئيس الوزراء عندما استقال الأخير عام 1957م، نتيجة اعتلال في صحته ظاهريًا وباطنيًا بسبب مسؤوليته عن الفشل الذريع في السويس. كان ماكميلان قد ترأس فترة الازدهار الاقتصادي في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1953م، والذي خلال اجتماع لمجلس الوزراء، أصيب بأزمة احتباس البول، وهي حالة مؤلمة للغاية بسبب انسداد البروستات، فنُصح طبيًا بإجراء عملية فورية.

يبدو بأن ماكميلان فهم أنه من المرجح أن يُصاب بسرطان البروستات، وهكذا بدأ بالتفكير جديًا بالاستقالة. وكان دائم الميل للخوف من تعرضه لأسوأ حالة صحية. فله تاريخ طويل من الوسواس الذي يعود سببه ربما إلى مضاعفات الجروح الخطيرة التي ألمّت به إبّان خدمته في الحرب العالمية الأولى. لكن كان طبيبه الخاصة، السير جون، ولاحقًا، اللورد ريتشاردسون (الذي درّسني الطب في مستشفى سانت توماس، وكان طبيبًا مطمئنًا وذا ضمير حي) يعتقد دائمًا أنه لو لم يكن بعيدًا في ذلك الوقت، لكان قادرًا على رؤية رئيس الوزراء قبل إحالته للجراحين، ليعطيه تشخيصًا أكثر تفاؤلًا. ربما حينها لم يكن ليشعر ماكميلان بالحاجة الماسة إلى تقديم استقالته. ففي الواقع لم يكن لديه مرض السرطان، بل مجرد تضخم في البروستات. واستعاد حالته الصحية بعد أشهر قليلة من إجراء العملية الجراحية. وفي أقل من سنة أجرى الرئيس الفرنسي شارل ديغول العملية نفسها وظل في منصبه.

في البداية ادعى ماكميلان أنه شعر بالأسف على تقديم استقالته، ولكنه اعترف في مذكراته لاحقًا بأنه قد حان وقت الرحيل. في الحقيقة، لقد خسر ماكميلان اتصاله السياسي مبكرًا عندما هزت حكومته فضيحة «بروفومو الجنسية» إضافة إلى أدائه الضعيف في مجلس العموم. وعلى الرغم من قدراته الفكرية، كان مثالًا كلاسيكيًا للممثل السياسي، ليس فقط من أجل ما كان يطلق عليه أحيانًا من ألقاب مثل «العجوز المتكلف». ففي عزّ الرخاء عندما كانت الأمور تسير على ما يرام، كانت صحيفة «نيو ستيتسمان» اليسارية تنشر رسومه الهزلية تحت عنوان «Supermac» «ماك الخارق» وهو نعت التصق به طوال حياته.

رفض ماكميلان الذي توفي عام 1986م من اتخاذ لقب «الندية أو الفارس» من الملكة البريطانية. ولكنه وافق في عيد ميلاده التسعين على قبول اللقب الموروث «إيرل ستوكتون» وفي خطابه الغريب الطريف، اتهم رئيسة الوزراء آنذاك مارغريت تاتشر ببيع فضة الأسرة في فترة برنامج الخصخصة التي كانت تبشر بها وتدافع عنها.

شارل ديغول

يمكن القول إن الجنرال ديغول أصبح الرئيس الفعلي لحكومة الجمهورية الفرنسية في عام 1940م من خلال خطابه الذي أذيع من لندن موجهًا إلى الشعب الفرنسي، والمعروف باسم «Appel du 18 Juin» بنداء 18حزيران/ يونيو. وبثَّ في اليوم التالي خطابًا آخر ادَّعى فيه أنه يتحدث هذه المرة باسم فرنسا. كان ديغول يعاني من الاكتئاب الحاد خلال السنوات القليلة الأولى للحرب، وبخاصة في الأوقات الحرجة. حيث أصيب بأسوأ اكتئاب بعد أسبوعين فقط من بثِّ خطاب لندن الشهير في أعقاب غرق السفن الملكية التابعة للبحرية الفرنسية في «مرس الكبير» الذي أسفر عن وفاة 1297م فرنسيًّا. أصيب ديغول باكتئاب آخر بعد صدمة كارثة داكار عندما فشل في إقناع القوات الفرنسية الموالية لحكومة فيشي بالاستسلام، والانضمام لفرنسا الحرة. كتب ديغول لاحقًا أنه كان يفكر فعلًا بالانتحار، كما ضربه اكتئاب آخر بعدما تحدى سلطته الأميرال أميل موسيليه ورفض البريطانيون وضعه تحت الإقامة الجبرية.

أصبح ديغول أيضًا مريضًا جدًّا بالملاريا الخبيثة وأخفى مرضه حتى عن القادة السياسيين لفرنسا الحرة، وكذلك البريطانيين. حيث قامت زوجته بتمريضه بسرية في ضواحي لندن.[1] وما إن بدأت بوادر الانتصار تلوح في الأفق، حتى استعاد ديغول ثقته النفسية تدريجيًّا، ولكنه كان دائمًا عرضة للفتات درامية. كانت استقالته الأولى من منصبه في 19 كانون الثاني/ يناير 1946م بعد انعقاد الجمعية التأسيسية التي اختارته رئيسًا لها في تشرين الثاني/ نوفمبر عندما أحس أنها حرمته من السلطة الشخصية اللازمة في نظره لإحياء فرنسا. عاد ديغول إلى السلطة في سن السابعة والستين بعد منفاه الذي فرضه على نفسه في كولومبي (Les Deux Eglises) بداية حزيران/ يونيو1958م ونجح بتصويت 320 من أعضاء الجمعية. وفي عز صحته حاول جادًّا تحقيق إنجازات معتبرة نوردها تباعًا. فقد فاوض ديغول من أجل السلام في الجزائر، وأقام الجمهورية الخامسة، وسحب فرنسا من القيادة المندمجة في بنية حلف شمال الأطلسي NATO واعترض على منهجية بريطانيا للانضمام إلى الجمعية الأوروبية. وفي كل ذاك الوقت كانت صحته تعد بالجيدة.

(1) **Charles Williams, The Last Great Frenchman: A Life of Charles de Gaulle** (London: Little, Brown, 1993), pp. 133, 180 - 181.

بدأ ديغول يعاني من تضخم البروستات في مطلع عام 1964م، ولكنه حاول تأجيل العملية الجراحية. وبمساعدة صديقه وجراحه استطاع الحفاظ على سرية القسطرة في المثانة حتى خلال جولة قام بها للمكسيك في آذار/ مارس. وفي 15 نيسان/ أبريل، وبعلم ثلة جدّ قليلة، ذهب إلى مستشفى كوشين في باريس وأجريت له العملية في اليوم التالي، لاستئصال ورم حميد في البروستاتة. راجت شائعات عن مرضه وتمريضه في المستشفى، مما جعله يوزع بيان بخط يده على الصحافة كان قد وقّعه قبل يوم من ذهابه إلى المستشفى، كما أرسلت نسخة منه في ظرف مختوم إلى أحد كبار المسؤولين في قصر «إليزي» وعلى الظرف عبارة تقول: «لا يمكن فتحه إلا بعد وفاتي» ولكن ثمة استدراكًا في الخطاب لا يخلو من طرافة «تستطيع أن تعيد لي هذه المذكرة بعد غد إذا تمّ كل شيء على ما يرام كما أتوقع»[1].

وفي الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1964م تعافى ديغول بشكل جيد وأعلن أنه سيترشح مرة أخرى لمنصب الرئيس. وفي 5 كانون الأول/ ديسمبر أجبره منافسه فرانسوا ميتران على خوض غمار مرارة الجولة الثانية من الانتخابات. وبعد تردد فاز بنَصَب وسخط على ميتران في 19 كانون الأول/ ديسمبر بنسبة 54.6 في المائة مقابل 45.4 في المائة.

سُئل ديغول عن صحته في مؤتمر صحفي يوم 4 شباط/ فبراير 1965م، أي: بعد عشرة أشهر من العملية الجراحية، فأجاب بأنها: «جيدة جدًّا» وأضاف: «ولكن لا تقلق سأذوق الموت يومًا ما». شرع ديغول في عهدة رئاسية ثانية مدتها سبع سنوات بعد أن بلغ من العمر 75 عامًا وهو قرار غير حكيم بتاتًا. ظهرت علامة تحذرمن المتاعب السياسية قبل آذار/ مارس 1967م في انتخابات الجمعية الوطنية، لما فاز رئيس وزرائه جورج بومبيدو فقط بأغلبية هزيلة. وفي أيار/ مايو 1968م كانت فرنسا قد شهدت أزمة سياسية عميقة فجرتها ثورة الطلاب والتي عسرت شيخوخة ديغول عليه فهم القوى الطلابية وهي تطلق العنان لنفسها. وفي 25 أيار/ مايو، أحسَّ الرئيس ديغول بأنه لم يعد رجل المرحلة، وأنه عاجز عن السيطرة على الوضع، وسرب لوزير الشباب والرياضة في حكومته «إنها النهاية». حيث كان في حالة من «الكآبة العميقة» وفي رئاسته لاجتماع مجلس الوزراء في 27 أيار/ مايو كان «قلبه وعقله يحلقان في واد آخر»[2]. أصبحت اللامبالاة هي سيدة الموقف، فلم يعد مهتمًا بما حوله ولا يستمع لما يقال له، وعادت بالفعل حليمة لعادتها القديمة: مسحة حزن واكتئاب رهيب.

(1) Jean Lacouture, De Gaulle: **The Ruler 1945 - 1970** (London: Harvill Press, 1991), pp. 502 - 503.

(2) Williams, **Last Great Frenchman**, p. 465.

في 29 أيار/ مايو، قرر ديغول الشروع في مغامرة غريبة، طار في ذلك المساء بصحبة زوجته وابنهما فيليب وزوجته وأطفال فيليب الثلاثة إلى مقر القوات المسلحة الفرنسية في «بادن بادن» بألمانيا. وانقسم الرأي العام حول ما إذا كان سلوك ديغول الغريب عائد إلى فوضى نفسية أو مناورة تكتيكية ذكية. أفضل من يمكنهما الحكم على تصرفاته ـ بومبيدو والجنرال جاك ماسو، قائد القوات الفرنسية في ألمانيا ـ اللذين يعتقدان أنه كان في حالة من الفوضى النفسية. كان الرئيس لا ينام إلا قليلًا خلال الأزمة، وحسب كاتب سيرته الذاتية جان لاكتور كان يمر بحالة «الفشل العصبي» لرجل مُسن[1]. عاد ديغول إلى باريس بعد نهاية الأزمة وأوضح لبعض قوات دعم الجيش الفرنسي: «أنه فكَّر في كل الاحتمالات على مدى أربعة وعشرين ساعة». وفي بداية حزيران/ يونيو اعترف حصريًا لوزيره الأول بومبيدو: «للمرة الأولى في حياتي تخذلني أعصابي، ولست فخورًا بنفسي»[2].

ومثل نيفيل تشامبرلين، اشتدت خطورة مرض ديغول لما غادر السلطة كرهًا. ولكن من المعقول أن نتساءل ما إذا كانت قرارته قد تراجعت بفعل تقدمه في شيخوخته؟. وعندما تفاعلت وتضاعفت وتيرة الإضرابات وأعمال الشغب الطلابية، تصرف بومبيدو بشكل حاسم واشترى ذمم المضربين وقدم الرشاوى للمحتجين. وما إن أخمد جذوة الأزمة وفاز في الانتخابات البرلمانية التي جرت في 30 حزيران/ يونيو حتى كان ديغول سعيدًا بإقالة بومبيدو وتعيين موريس كوف دي مرفيل رئيسًا للوزراء. كان من الواضح من تداعيات هذه القطيعة السياسية أن رئيس الوزراء السابق بومبيدو سيتحين الفرصة السانحة لإعلان ترشحه لأول انتخابات رئاسية قادمة. واتضح لأول وهلة أن ديغول أصبح له خليفة في حالة انتظار. ومن سوء تقديره للوضع أيضًا أنه دعا إلى استفتاء يوم الأحد 27 نيسان/ أبريل 1969م بشأن الإصلاح الإقليمي وتكوين مجلس الشيوخ. وخسر الاستفتاء قليلًا تحت نسبة 47 في المئة مقابل أكثر من 53 في المئة، وعند منتصف النهار من يوم 28 نيسان/ أبريل أعلن في بيان رسمي قصير نيابة عن ديغول: «أتوقف عن ممارسة مهامي بصفتي رئيسًا للجمهورية، ويسري مفعول هذا القرار ابتداء من ظهر اليوم».

ليس ديغول ممن يبقى في السلطة لشعب لم يعد يتبعه بعد يومين من مناورته لحثِّهم في خطاب تلفزيوني على تحمل الواجب للدفاع والانتصار لمصير فرنسا. تقاعد في منزله

(1) Lacouture, **De Gaulle**, p. 553.

(2) George Pompidou, **Pour rétablir une vérité (Paris: Flammarion,** 1982), p. 201.

في كولومبي «دوا كسلز» في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1970م وفي تلك الأثناء لعب على وتيرة الصبر ولم يطل انتظاره، إذ انهار بسبب ألم مباغت في ظهره، وكانت زوجته بجانبه على الطاولة. تعرض لتمزق شريان الأورطي في البطن، والذي كان من المحتمل أنه مرتبط بتصلب الشرايين[1]. استكملت إجراءات جنازته العادية في كنيسة محلية استجابة لرغبته في غياب كامل للمراسيم البروتوكولية ودون حضور لرئيس الحكومة أو وفود رسمية أجنبية. كما لم تعزف عليه الموسيقى العسكرية، ولم تقدم في تأبينه الخطابات العزائية. قال عنها أندريه مالرو: «كانت جنازة فارس» لكن ديغول، مثل عديد الفرسان الذين سبقوه، استهلك المعركة التي خاضها كثيرًا. كان من الحكمة أن يعلن أنه سيتخلى عن منصبه في أواخر عام 1964م ويتجنب عهدة رئاسية ثانية، حيث لم يعد سنه يسمح بهذا، وكي لا يهدد مكانته التاريخية باعتباره أعظم زعيم فرنسي.

جورج بومبيدو

انتُخب بومبيدو لخلافة شارل ديغول في 15 حزيران/ يونيو عام 1969م. واستطاع أن يكون نموذجًا لرئيس فعال جدًا في بداية حكمه. يُعدُّ رفعه لفيتو ديغول على عضوية بريطانيا في الجمعية الاقتصادية الأوروبية من أهم إنجازاته وعمله مع الهولنديين ورئيس الوزراء البريطاني إدوارد هيث لتحقيق ذلك في عام 1973م. بحلول آب/ أغسطس 1972م، أحسَّ بومبيدو بشعور من الضعف وفقدان للطاقة، فأمره طبيبه بإجراء سلسلة من الاختبارات الطبية بما في ذلك فحص نخاع العظام والأشعة السينية. أكدت فحوصاته أن لديه حالة متقدمة من سرطان النخاع العظمي. لم يتم الكشف عن طبيعة مرضه قبل وفاته على الرغم من امتلاء وجهه الواضح، لا سيما عندما يأخذ جرعات عالية من المنشطات في أوائل عام 1974م. توفي في 2 نيسان/ أبريل من ذلك العام من جراء الورم النقوي[2] وهو نوع من سرطان النخاع

---

(1) يستخدم مصطلح «تصلب الشرايين» للحالات التي تصيب الشرايين، وتكون غالبًا تبادلية مع التصلب العصيدي، حيث تنمو اللويحات الدهنية على الجدران الداخلية. ومع تقدم السن تبدأ جدران الشرايين والعضلات التي تكوِّن الجدار بالنمو أيضًا. وقد يتأثر الجدار فيصبح أضعف وينتج عن ذلك انقسامه أو انفجاره. وتهدد تلك الإصابة حياة المُصاب إلا أن احتمالية علاجها ممكنة أحيانًا بتدخل جراحي طارئ.

(2) ورم البلازماويات هو ورم أحادي في نخاع العظام. إذا وجد أكثر من ورم يسمي: الورم النقوي المتعدد. العلاج الإشعاعي والعلاج الكيميائي يستخدما في العلاج، ويختلف التشخيص اختلافًا كبيرًا، حيث يعتمد على النوع الدقيق للخلايا المعنية.

العظمي، حيث كان يشكو منذ أشهر من آلام حادة خاصة عند المشي. وفي باريس وعلى الرغم من التكهنات فلم يعرف شيئًا يذكر عن حالته الصحية، إلا من طرف ثلة جد قليلة من المسؤولين في قصر الإليزي، حتى إن زوجته لم تعرف مرضه إلا بعد رحلة إلى الصين في عام 1973م. اتخذ قرار بترشح فرانسوا ميتران للانتخابات الرئاسية على شرط أن يتم التقيد بأقصى قدر من الشفافية حول حالته الصحية، تفاديًا لتكرار تجربة بومبيدو وإخفائه لمرضه إلى أن توفي في منصبه. لكن انقلب ميتران كرئيس على الأمر حين بات هو نفسه مريضًا كما سنرى في الفصل الخامس.

ويلي براندت

تزامنت مدة بقاء جورج بومبيدو في السلطة تمامًا مع ويلي براندت كمستشار للجمهورية الاتحادية بألمانيا، (ألمانيا الغربية). قضى براندت سنة الحرب في النرويج ولم يكن له أدنى درجة من الارتباط والتعاون مع النازيين. اتَّسم بشخصية هائلة، وذات وجاهة كرئيس بلدية التحدي لبرلين أثناء أزمة 1961م، عندما حدثت توترات الحرب الباردة بالفعل في تلك المدينة. شكل حزبًا مع الديمقراطيين المسيحيين، كرت كيزينجر، في أواخر عام 1960م، كقائد للاتحاديين الديمقراطيين وكوزير للخارجية لمدة ثلاث سنوات في الائتلاف الكبير. أدرك براندت بأن على ألمانيا الغربية أن تغيّر سياسة المستشار كونرد أدينور الذي قضى فترات طويلة في مرحلة ما بعد الحرب، في سبيل الرفض الحازم بأي صورة أو شكل لاعتراف الشيوعية بجمهورية ألمانيا الديمقراطية، والتي يُشار إليها عمومًا بأنها ألمانيا الشرقية.

كانت ترى العيون في أوروبا الغربية أي نداء من الشيوعيين في أواخر عام 1960م مشوَّهًا جدًا بسبب الغزو السوفياتي لهنغاريا في عام 1956م ثم في تشيكوسولفيكيا في عام 1968م وأيضًا بالاتصال المتزايد بين شرق وغرب أوروبا، خاصة شرق وغرب ألمانيا. ما أدركه ومن ثم دافع عنه براندت كمستشار من (1969 إلى 1974م)، بأن غرب ألمانيا لم تستطع الاعتماد على المبادرات فقط من الولايات المتحدة، المملكة المتحدة وفرنسا لإنهاء انقسام أوروبا، لذا كان عليها تطوير استراتيجية بنفسها. الاستراتيجية التي كان براندت مهندسها، والتي عرفت بعلاقات التقارب، بلغت ببراندت إلى ما سماه مستشاره إيجون باهر: «تغير عبر التقارب» والتي تعني بطء وثبات تطبيع العلاقات. ففي عام 1969م على سبيل المثال، تمّت

نصف مليون مكالمة تليفونية ما بين شرق وغرب ألمانيا فقط، لتصبح في العشرين سنة التالية حوالي أربعين مليون. الاتصال التليفوني بين نصفي برلين يكاد لا يذكر في 1970م لكنه وصل إلى 10 ملايين إلى عام 1988م[1]. كما تحسَّنت بثبات علاقة ألمانيا الغربية بالاتحاد السوفياتي ودول شرق أوروبا الأخرى أيضًا في إطار تقارب العلاقات.

ربما لم يعط الاعتراف الكامل خارج ألمانيا بأن مشاعر براندت الشخصية هي التي أثارت مشروع تقارب العلاقات هذا، واتضح ذلك عندما زار براندت وارسو كمستشار. فبعد أن وضع رسميًا إكليلًا من الزهور على قبر جندي بولندي مجهول، ذهب براندت إلى النصب التذكاري لحي الغيتو اليهودي وموتاه بالمدينة. في هذه السيرة الذاتية كتب عن مشاعره المعذبة:

لقد فعلت ما يفعله البشر عندما يخذلهم الحديث. حتى بعد مضي عشرين عامًا، لا أستطيع قول أكثر مما قاله المراسل: «ثم هذا من لا يحتاج للركوع، ركع نيابة عن جميع من يحتاجون الركوع، ولكن لم يفعلوا لأنهم لا يستطيعون أو لا يجرؤون أو لا يستطيعون التجرئ بفعل ذلك»[2].

هناك شك بأن مثل هذه المناسبات التي لها مثل ذلك الطابع العاطفي تركت براندت جريحًا أو محبطًا. كان إحباطه دوريًا ـ مرتين بالعام ـ معظمها على الأغلب في الخريف. عندما يصبح اليوم أقصر، كان يود البقاء في الفراش ليومين أو ثلاثة، بمعزل عن الجميع، بما فيهم زوجته. عماله الشخصيون يطلقون على تلك الحادثة «الأنفلونزا». عندما يعود إلى العمل، لم يكن يبرر غيابه بل كان يبدو له بأنه طبيعي جدًا. لا يوجد دليل على أن هذا الغياب المحبط كان ينعكس بشكل كبير على عمله في أي من مكاتبه العامة. قال لي كاتب سيرته الذاتية المميز بيتر ميرسيبرجر،[3] في مراسلة شخصية: بأنه يشك إن كان براندت يتناول علاجًا طبيًا لتلك الحالة.

في 24 نيسان/ أبريل 1974م، عاد جوًا من القاهرة بعد اجتماعه مع الرئيس أنور السادات، اجتمع براندت بالمطار بقائد الحزب الليبرالي ووزير الداخلية، هانزديترش جينشر، الذي

---

(1) Tony Judt, Postwar: **A History of Europe since 1945** (London: Heinemann, 2005), p. 541.

(2) Willy Brandt, **My Life in Politics** (London: Hamish Hamilton, 1992), p. 200.

(3) Peter Merseburger, **Willy Brandt 1913 - 1992: Visionär und Realist** (Munich: DVA, 2002).

أخبره أن جونسر جولام، أحد مستشاري براندت في المستشارية، قد قُبض عليه واعترف بأنه كان جاسوسًا لألمانيا الشرقية. بدا ضعف سياسة براندت كان واضحًا. قريبًا من ذلك بدأت تظهر قصص معاشرته للنساء، بالرغم من أنه لم يكن سرًّا لأولئك الذين يعرفونه في كل من برلين ومدينة بون. أبدى تقرير من مكتب التحقيقات الجنائية الفيدرالي تخوفًا من أن في محاكمة جولام المقبلة، قد يذكر ما يطلق عليه مجازًا: «تفاصيل مؤلمة». هذا ما أثار معضلة أن تلك التفاصيل إذا ذُكرت قد تجعل الحكومة الفيدرالية تبدو مضحكة، وإن لم تذكر هذا يعني أن حكومة «جي دي آر» قد تهدف لاحقًا لإهانة حكومة براندت «وأس بي واي»[1].

قرر رانت أن يستقيل في أيار/ مايو، والذي نقّلا عن سيرته الذاتية، كتب عن خبوٍّ حماسته «تقصيره» الذاتي، كتب في سيرته الذاتية:

هل يجب عليّ أن أستقيل؟ لا هذا ليس حتميًّا، حتى ولو بدا لي أنها خطوة لا مفرّ منها في الوقت الحالي. أخذت المسؤولية السياسية على محمل الجد، وربما حرفيًّا جدًّا... إن المكيدة أثّرت بي، وسيكون غريبًا لو أن حوادث الأسى بعائلتي لم تؤثّر بي.

لقد ذكر أنه بعد أن كان عليه الذهاب إلى الفراش بسبب اضطراب في المعدة، أصابه في مصر، وبعد ألم الضرسين اللذين خلعهما طبيبه بعد أسبوع من استقالته مما أشعره بترنّح. كتب براندت أيضًا في سيرته الذاتية: «هناك أيضًا حديث بأنني استحسنت فكرة الانتحار؛ تضخيم لشعوري العميق بالاكتئاب». أنهى براندت حديثه عما يسميه «بقضية الجاسوس» واختتمه: «في حالتي العقلية والصحية بالسنوات الأخيرة، لم أكن أنوي الاستقالة، بل كنت أنوي إنهاء جميع القضايا بأسرع وقت ممكن».

يصور مايكل فراين في مسرحيته الفذة «الديمقراطية» آخر أسابيع في حياة براندت كمستشار متردد، إلا أن ميرسيبرجر يعتقد بأنه كان حاسمًا في المسائل السياسية الهامة. من المحتمل أن براندت اعترف بإسهام اكتئابه في استقالته. ولكن في هذا الوقت كانت التحديات الأكبر في حياته السياسية خلفه، كما يصعب القول بأن الاستقالة أفسدت التطور السياسي بألمانيا. ورغم اعتراض خليفته، هالمت سكميلت، على استقالة براندت إلا أنه

(1) Brandt, **My Life in Politics**, pp. 286 - 297.

كان أهلًا للتعامل مع الصعوبات الاقتصادية التي نتجت من ارتفاع سعر النفط العالمي من عام 1973م واتَّبع معظم سياسة براندت الخارجية، باستثناء سياسة الدفاع. صنع براندت في تقاعده مساهمة بارزة للألمان ولسياسة العالم الثالث، ويعتبر نموذجًا آخر بأنه ليس من الضروري بأن يكون تاريخ إصابة الرئيس بالاكتئاب سببًا لإقصائه من السلطة.

ريتشارد نيكسون

في العام الذي أتى فيه كل من بومبيدو وبراندي إلى السلطة، كان ريتشارد نيكسون يؤدي القَسَمَ كرئيس للولايات المتحدة. وقد كان، كما وصفه أحدهم ذات مرة: «شخصًا منعزلًا باثولوجيًّا». وإنه لمن غير الممكن أن نحدّد وبالتأكيد ما إذا كان نيكسون قد كان مصابًا بالذُهان[1] أثناء فترة حكمه التي قضاها بالبيت الأبيض، ولكنه من الواضح أنه قد اقترب كثيرًا من ذلك[2]. لقد كان هنالك أمثلة واضحة لسلوكه غير السوي خلال فترة غزو كمبوديا، فقد كان يواجه تهديدًا بالتجريح به حتى قبل تفجر فضيحة الووترغيت، فها هو الصحافي البارز جيمس ريستون ينقل لنا قائلًا أنه:

> **ما بين التاسعة واثنين وعشرين دقيقة بعد ظهر الثامن من أيار/ مايو والرابعة واثنين وعشرين دقيقة من الصباح التالي، التاسع من أيار/ مايو لسنة 1970م، أجرى الرئيس نيكسون 51 مكالمة هاتفية لأعضاء من وزارته وطاقمه، ورؤساء تحرير مجلات وضباط من الخدمة الخارجية، ومراسلي جرائد مكررًا الاتصال بأحدهم أو بالآخر، متحدثًا معهم عن عائلته وأجداده والحرب الأهلية ـ لقد كان نوعًا ما حديثًا أرقيًّا وكابوسًا يقضُّ مضجعه ـ والذي استقل بعده سيارته فجرًا متجهًا إلى نصب لينكولن التذكاري، ليتناقش مع شباب كانوا قد أتوا إلى واشنطن للتظاهر ضد غزوه لكمبوديا[3].**

(1) يُعد مصطلح الذُهان مصطلحًا عامًا لمجموعة من الأمراض التي يكون فيها المصاب فاقدًا اتصاله بالواقع، وقد يكون أيضًا مضطربًا لدرجة أنه لا يعي بأنه مريض. كل الأمراض التي عانى منها نيكسون، الاكتئاب، جنون الاضطهاد، وإدمان الكحول، لا تعتبر حالات من الذُهان، إلا أنها يمكن أن تتطور وتصل إلى أعراض ذُهانية.

(2) John Gambill, «Political Problems of Detecting and Treating Psychosis in the White House», **International Journal of Social Psychiatry** (1980), vol. 26, pp. 255 - 262.

(3) James Reston, «Let the voters beware», International Herald Tribune, 8 May 1975, quoted in William Safire, **Before the Fall: An Inside View of the Pre- Watergate White House** (Garden City, NY: Doubleday, 1975).

أجريت دراسة هامة على نيكسون من قبل الدكتور أرنولد هاتشنيكر، والذي كان يعالجه منذ عام 1951م، بدخوله إلى نيويورك عندما كان طبيبًا عامًّا. واستمر يعالجه بعد ذلك عندما أصبح نائبًا للرئيس عام 1952م، ولكن اقتصر تخصصه في 1955م بشكل متزايد على التركيز على العلاج النفسي، كان نيكسون يقلق من حدوث ردّ فعل عكسي من العامة. كان هناك عدد من اللقاءات الخصوصية فيما بين الرجلين، ولكن نيكسون لم يره في البيت الأبيض إلا مرتين، أتت إحدى هاتين الزيارتين بعد أن كان نيكسون قد قرّر أن يعلن غزو كمبوديا. ورغم كونه قد اقتيد إلى الداخل دون توقيع قسم الزائرين على البوابة، فإن هاتشنيكر لم يلق أي من حفاوة نيكسون السابقة في الترحيب به. وكان يعتقد هنري كيسينجر بعدها بيومين بأن نيكسون كان في الحقيقة «على شفا انهيار عصبي»[1].

تقابل نيكسون وهاتشنيكر للمرة الأخيرة في عام 1993م عندما طلب منه نيكسون أن يمكث مع أسرته في جنازة زوجته. أصبح هاتشنيكر دليلًا واضحًا على الفحوصات النفسية بالنسبة للمرشحين السياسيين، مع أنه لم يعاين نيكسون إلا بصفته طبيبًا عامًا، لا كطبيب نفسي. فقد كتب مقالة عن أنواع القيادة في مجلة: «Look» في 15 تموز/ يوليو 1969م، ستمنحنا استبصارًا ناجعًا بمدى تعقيد شخصية نيكسون. يناقش هاتشنيكر قائلًا: بأن السيد نيكسون الذي قال مقولته المشهورة بعد خسارته لجولة انتخابات 1962م لصالح حاكم كاليفورنيا: «لن تجدوا نيكسون حولكم ثانية لترفسوه»، ينبغي أن يُصنف على أنه شخصية قيادية شديدة الحماسة. ولكن لعل السيد نيكسون الذي ادَّعى بأنه كان يعامل مسألة حادث الطائرة الكورية الشمالية بهدوء وذلك في نيسان/ أبريل من 1969م قد أصبح: «شخصية منضبطة متكيفة، تتحرك بقوة عبر المفاوضات نحو السلام». ورغم ذلك فهناك نظرة مختلفة لما كان عليه ردُّ فعل نيكسون إزاء هذا الحادث، والذي أُطلق فيه النار على طائرة تجسس أميركية مسقطًا إياها في 14 نيسان/ أبريل، متسببًا في فقد طاقم من 31 فردًا. تدَّعي مذكرات كبير مساعدي نيكسون،« هـ. ر. هالدمان»، أنه كان في البداية يريد «رد فعل قوي» ولم يتراجع إلا عندما نصحه مساعدوه بالروية ـ «قامعًا غريزته المتعطشة لردة فعل قوية»، وذلك طبقًا لما رواه كيسينجر: ويتحدث إلينا مساعد كيسينجر، لورنس إيجلبرجر، عن نيكسون

(1) **Anthony Summers, The Arrogance of Power: The Secret World of Richard Nixon** (London: Victor Gollancz, 2000), pp. 363-364.

باعتباره «يتبجح ويهذي وأنه ثمل في قلب الأزمات». وينقل عن نيكسون الثمل بأنه قال في موقف آخر لكيسينجر: «يا هنري، علينا أن نهاجمهم بالنووي»[1].

كان يؤمن هاتشنيكر بأن القادة يمكنهم أن يتغيروا، وأشار إلى أبراهام لينكولن كمثال لشخص قد تغير. وعلى النقيض فإننا نرى البروفيسور جيمس ديفيد باربر من جامعة ييل يناقش أثناء اجتماع جمعية العلوم السياسية الأميركية الخامسة والستين، وذلك في 3 أيلول/ سبتمبر 1969م، أنه بعد سن الخمسين لا يتغير الرؤساء الأميركيون. إلا إنني لست مقتنعًا بهذا، حيث تغير جيمس كالاجان عند وصوله لرئاسة الوزراء في عام 1976م بأن تخلى عن بساطته وصار شخصية أعظم وقائدًا أحكم. ولا زالت هيئة المحكَّمين مستعدة للنظر فيما إذا كان جولدن براون سيتغير حين يصبح رئيسًا للوزراء. إلا أن باربر كان مدركًا لنيكسون وملمًّا بشأنه حين ذكر بـ «أنها العزلة، والانفصال الفردي هي التي تمّ تبنيها بشكل واع كطريقة اتخاذ القرارات التي تتمثل بارزة في أسلوب علاقات نيكسون الشخصية»، وصنفه كـ «نوع سلبي نشط» من الرؤساء، بينما ترومان قد كان «نوعًا إيجابيًا نشطًا» وأيزنهاور «نوعًا إيجابيًا متخاذلًا». لقد ظلت أميركا لعدة سنوات تدرس شخصيات القادة السياسيين، مستخدمة فنيات تحليل محتوى الخطب التي يلقونها، واللقاءات معهم ونصوصهم؛ كالمقال الشيق للقاء أجراه ديفيد ونتر، أحد القادة في هذا المجال، الذي يختم إلى أنه في مثل هذا الشأن «من الضروري والوارد وجود نوع معين من التواضع أو الخضوع»[2].

يمكن تلخيص حقائق فضيحة ووترغيت التي أثَّرت على نيكسون سلبًا باختصار، وذلك لأنها معروفة جيدًا. ففي السابع عشر من حزيران/ يونيو لعام 1972م قُبض على خمسة رجال أُكتشف فما بعد بأنهم كانوا متهمين بمحاولة السطو على انتخابات دوائر الحزب الديمقراطي في محيط قسم ووترغيت. والآن فإننا نعرف أنه في العشرين من حزيران/ يونيو قد حاول نيكسون في البداية أن يبدأ بمناقشة عملية القبض عليهم - رغم أنه كان هنالك فاصلًا زمنيًا من ثماني عشرة دقيقة في تسجيل شريط مكتب الرئيس، الذي حوى تلك المناقشة الأولى. وكان نيكسون قد بدأ ينغمس بشكل محتوم كشريك في عملية التستر التآمرية تلك وعن قرب. توصلت هيئة المحلفين الفيدرالية العظمى بواشنطن في الأول من آذار/ مارس

(1) المصدر السابق، ص 333 - 372.

(2) David G. Winter, «Things I've Learned about Personality from Studying Political Leaders at a Distance», **Journal of Personality** (2005), vol. 73, pp. 557 - 584.

1974م إلى سبعة أشخاص، أربع منهم من المقربين للرئيس، واثنان منهم هم هالدمان وجون إيرليكمان، واللذان ما كان يمكن لهما أن يكونا أقرب كمساعدين سياسيين؛ وجون ميتشيل الصديق القديم، بالإضافة إلى كونه المحامي الأعلى لنيكسون؛ وتشارلز كولسون الذي كان مساعدًا وشخصية هامة في البيت الأبيض. أخيرًا وفي 15 حزيران/ يونيو 1974م أُفصح على الملأ عن اكتشاف بأن «هناك سببًا محتملًا للاعتقاد بأن ريتشارد م. نيكسون (وآخرين معه) كان عضوًا في المؤامرة لتزوير وخيانة الولايات المتحدة وتضليل العدالة». وبدأت مقدمات الاتهام في تموز/ يوليو ليستقيل نيكسون في آب/ أغسطس. وقد أذن نيكسون فيما مضى باقتحام معهد الـ Brookings ومكتب دانييل إيلبرج النفسي، للكشف عما يتعلق بتسريب أوراق البنتاغون، حيث كان يعتقد بأن دانييل إيلبرج هو المسؤول عن عملية التسريب تلك.

يبقى ما إذا كانت اللجنة الجمهورية لإعادة انتخاب الرئيس مخولة من قبل الرئيس نيكسون لمضايقة الحزب الديمقراطي أمرًا غامضًا. ولا بدَّ بأنهم جميعًا كانوا يعرفون أنه كان موشكًا على الانتصار (فقد فاز في تسع وأربعين من واقع خمسين ولاية) في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر لعام 1972م. لا ليس من الواضح لماذا كان ينبغي على نيكسون أن يورط نفسه في هذه العملية التسترية. ولم يأت تعليق نيكسون الشافي حتى الثالث عشر من نيسان/ أبريل 1973م حين استخلص منه المحاور التلفزيوني ديفيد فروست: «لقد خذلت الشعب الأميركي، وعلي أن أحمل هذا العبء على كاهلي لما تبقى من عمري».

يقول الكاتب المسرحي بيتر مورجان، في مسرحيته التي دعاها فروست/ نيكسون، والتي بناها على تلك الحوارات التليفزيونية بينهما، على لسان المفكر التحرري جيمس ريستون:

> **لقد كان أسخيلوس ومعاصروه من اليونانيين يؤمنون بأن الآلهة استكثرت نجاح البشر، وكانت لتصب لعنة من الغطرسة على الشخص وهو في أوجِّ قوته، وفقده للعقلانية التي تؤدي إلى انهياره. والآن إننا لنمنح للآلهة ثقة أقل، ولذا نفضل أن ندعوه تدمير الذات**[1].

هل كان فقدان الصحة العقلية، أو الشرب أو الغطرسة ما دمر نيكسون؟ لا شك بأنه بعد الفوز بإعادة انتخابه قد اتَّسم بملامح غطرسة كثيرة. وبالتأكيد كان هناك الكثيرون ممن شكُّوا بصحته العقلية في آخر ثمانية عشر شهرًا في منصبه، حيث أصبحت سلطة القانون

(1) Peter Morgan, **Frost/Nixon** (London: Faber & Faber, 2006), p. 4.

قريبة وحتمية، وحيث تقلَّص عدد أقرانه وأصبح أكثر وحدة. لقد كتب المتحدث باسم البيت الأبيض «تيب أو نيل» ـ والذي رآه أثناء حرب يوم الغفران تشرين الأول/ أكتوبر ـ 1973م أن: «الرئيس يتصرف بغرابة شديدة». وفي كانون الأول/ ديسمبر كتب السيناتور باري جولدووتر: «إن لدي سبب لأشك بأن الحالة العقلية في البيت الأبيض ليست على ما يرام. وهذه هي النسخة الوحيدة التي ستتكلم عن هذا؛ وستكون مقفلة في خزانتي». لقد أُخبر رؤساء هيئة الأركان المشتركة عن طريق وزير الدفاع جيمس شليسنجر ـ وهو سياسي يتصف بالحصافة والدهاء ـ بألا ينفِّذوا أي قرار للرئيس يتعلق بأمور عسكرية، إلا إذا وافق عليه خمستهم جميعًا. وعليهم أيضًا أن يراجعوا ذلك معه أولًا. لقد كان اهتمام شليسنجر باستقرار نيكسون العقلي عظيمًا جدًّا، لدرجة أنه أيضًا امتثالًا لقانون الأمن الوطني، طالب بأن تُمرر كل الأوامر العسكرية الصادرة من الرئيس من خلاله هو كوزير للدفاع.

لقد كانت هناك تقارير عن قرب نيكسون من انهيار عصبي وعن كونه دائم السكر. ولم يكن شربه في المناسبات الاجتماعية بسيطًا، حتى أن أطباءه صنَّفوا ذلك في وقت لاحق بإدمان الكحول[1]. فقد قام الأدميرال إلمو زوموالت قائد العمليات البحرية بمقابلة الرئيس نيكسون في 22 كانون الأول/ ديسمبر 1973م في البيت الأبيض، وعبَّر عنه قائلًا:

> **بينما لم يكن «حطامًا من السكر» فإنه أظهر مشهدًا مقلقًا لرجل ضخ في نفسه كمية من الأدرينالين لدرجة عالية من الضغط، بحيث أصبح على مستوى عاطفي صاخب. لقد بدا لي بأنه غير قادر على إجراء محادثة عقلانية، ناهيك عن قيادة عقلانية تُمارس على أمة محاطة بالظروف المعقدة، شرَّعت في إيجاد العديد من المنشآت العشوائية[2].**

إن ريبة نيكسون وكراهيته لليهود ولغته العنيفة أمور موثقة كلها على أشرطة سُجلت في المكتب الرئاسي. كما استعداده لاستخدام المال ليرشي الناس ويفسد العملية الانتخابية. في عام 1973م كان نيكسون قد أُخبر في مقابلة محرري وكالة الأنباء Associated Press في فلوريدا في إطار تحقيق دائرة الإيرادات الداخلية لعوائد ضريبة دخله من (1969 إلى 1972م)

(1) Jonathan R. T. Davidson, Kathryn M. Connor and Marvin Swartz, «Mental Illness in US Presidents between 1776 and 1974: A Review of Biographical Sources», **Journal of Nervous and Mental Disease** (2006), vol. 194, pp. 47-51.

(2) Quoted in Robert Dallek, **Nixon and Kissinger: Partners in Power** (New York: HarperCollins, 2007), p. 546.

أنه: «يجب أن يعلم الناس ما إذا كان رئيسهم محتالًا». كما كان هو محتالًا. لقد كانت رئاسته مزيجًا غريبًا من المرتشين والرائعين. وربما بدا على الرغم من المزاج المصاب بالريبة والقلق الاكتئابي وإدمانه للكحول، بأنه نجح في الإبقاء على صحته العقلية بالرغم من تلك الصراعات العميقة. كان الدكتور والتر تكاش طبيب نيكسون الشخصي، الذي ابنه الدكتور جون تكاش إلى روبرت دالك في كانون الأول/ ديسمبر عام 2005م أن سجلات والده الطبية ظلت مغلقة لمدة خمسة وسبعين عامًا في مكتبة نيكسون، واستمر في قوله: «إن هناك بعض الأشياء غاية السرية عن نيكسون، ولا ينبغي لي كشفها»[1].

لقد نجح نيكسون في شهوره القليلة الأخيرة كرئيس، على الرغم من أنه لم يكن متورطًا بشكل تام ـ ربما لأنه كان سكيرًا ـ باللحظة الحاسمة مع الاتحاد السوفياتي على الحرب في الشرق الأوسط. ففي هذه الحادثة وفي مساء الرابع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 1973م تحديدًا، قام ليونيد بريجينيف بإرسال قوات جوية إلى منطقة الحرب، ووضعت قوات الولايات المتحدة في تحفز زائد. كان عدم التورط هذا ممكنًا فقط لأن نيكسون كان مدعومًا من الجنرال ألكسندر هيج، بعودته للبيت الأبيض، وهنري كيسينجر كوزير للخارجية، مسقطًا صورة العمل الدولي كالعادة. سمى هيج نهاية رئاسة نيكسون: «واحدة من أخطر الفترات في التاريخ الأميركي». وقال إن التغيير القانوني للقيادة: «لم يكن نتيجة مؤكدة في ذاك الوقت»[2]. وقد خشي من تصرف غير مناسب من الكونغرس وليس من العسكريين.

لا توجد حادثة عن تضرر المصالح القومية للولايات المتحدة بسبب ظروف نيكسون الطبية. ولكن المتضرر كان ثقة وإيمان الشعب في السياسيين والسياسة، ليس في الولايات المتحدة فحسب، ولكن في الديمقراطيات حول العالم. فلولا آلية اتهام تأخذ الرئيس في الحسبان، لم يكن نيكسون ليستقيل، ولن يُفضح اغتصابه للمنصب أبدًا. إن الخطر بأن الكثير من هذا قد نُسي ورُد اعتبار نيكسون عوضًا عنه، وصُدق من قبل مبادرات السياسة الخارجية للرؤساء المتعاقبين. خاصة بالنظر لإعادة فتح العلاقات الأميركية مع الصين بعد الفجوة ما

(1) المصدر السابق.

(2) Summers, **Arrogance of Power**, p. 537.

بين عامي(1949 و1971م) وبالسفر لبكين لمقابلة الرئيس ماو. ورغم ذلك، يجب ألا يُنسى استغلال نيكسون للسلطة. وإدمانه الكحول أيضًا فهي حالة طبية خطيرة لأي قائد سياسي يصاب بها. والتي ستُناقش قدمًا في الفصل السابع، مع جورج بوش.

ماو زيدونج

أدّت شدة ديكتاتورية القائد الشيوعي الصيني ماو زيدونج إلى جعل الناس يتساءلون نفس التساؤل الذي يثار حول هتلر: هل كان مجنونًا؟ فقد كان عدم اكتراثه وعدم إدراكه للحياة البشرية لا خلاف عليهما. وقد أدت حركة «القفزة الأمامية الكبرى» التي أسسها في عام 1958م، فيما يتعلق بتجميع الزراعة وإعادة هيكلة مهنة الفلاحة الصينية في بلديات الشعب، إلى موت ما يقارب سبعة وعشرين مليون شخص أثناء التهجير والعنف والمجاعات التي تلت ذلك[1]، والتي كانت واحدة من أشنع الممارسات السياسية في القرن العشرين. بعيدًا عن الخسائر البشرية، كانت الآثار الاقتصادية مدمرة، فيما بين(1958 و1962م) حيث تدنى الناتج الزراعي بنسبة 28% وإنتاج الصناعات الخفيفة والثقيلة بنسبة 21 بالمائة و23 بالمائة على التوالي. وتبع ذلك «الثورة الثقافية» التي انطلقت في عام 1966م، حيث احتضنت عمليات تصفية وقتل جماعي، ودُمّر الكثير من الأسس الثقافية والفكرية الثرية للصين.

لقد كان ماو قاسيًّا في تصفية أي معارضة، واستهتاره بحياة الناس لا شك فيه، فلقد كان العنف هو طريقته لسحق النظام الاجتماعي. كتب ماو بحلول شهر آذار/ مارس 1927م في تقرير حول زيارته لـ «هونان» والذي تمّ نشره في مجلة: «الكومنترن» ـ عن سعادته السادية بأن رأى بنفسه بعض المشاهد القاسية، مدَّعيًا أنه شعر: «بنوع من النشوة لم ير مثلها من قبل... لقد كانت رائعة... لقد ضُرب شخص أو اثنين حتى الموت... الأمر ليس مهمًا لهذه الدرجة»[2].

من الممكن لشخص ما بالطبع أن يكون ساديًّا وقاسيًا وغير مبال إطلاقًا بحياة البشر، وذلك دون أن يكون مريضًا عقليًّا. ولكن في حالة «ماو» فإن هناك ثمة دليل حول مرض عقلي رغم

(1) Zbigniew Brzezinski, **The Grand Failure: The Birth and Death of Communism in the Twentieth Century** (New York: Collier, 1990), pp. 154 - 155.

(2) Jung Chang and Jon Halliday, **Mao: The Unknown Story** (London: Jonathan Cape, 2005), p. 42.

أننا لا نعرف إلا القليل حول تشخيص حالته، لعله فضلًا عن كونه مصابًا بالارتياب بشكل خطير، ومحتملًا للأحقاد لدرجة أنه يتصوّر بأنه قد يُسمم وأن زملائه يتجسسون عليه، كان يعاني من الاكتئاب خلال حياته. كان يقضي شهورًا في السرير مريضًا بالقلق وبشكل دوري كما قال طبيبه[1]. ورغم ذلك، ربما يكون الاكتئاب مجرد جزء من القصة، وأن مرضه الخفي كان الاضطراب ثنائي القطب. والسبب وراء هذا الشك هو أنه كان قادرًا على التشافي من نوبات الاكتئاب غير المشكوك فيها، مما قد يشكل دليلًا على مرحلة الهوس والاضطراب ثنائي القطب. فعلى سبيل المثال ـ بعد انفجار نشاط «القفزة الأمامية الكبرى» ـ بدا أنه انغمس في مرحلة سكون متقاربة، سامحًا لنفسه بحلول عام 1960م، بأن يُهمِّشه أعضاء آخرون من النظام الشيوعي، بما فيهم دينج زياوبينج. ورغم ذلك، كان قادرًا على العودة معافى لإطلاق الثورة الثقافية بعد ستة أعوام. إن الدفعات الدورية من النشاط التي تحولت لسوء الفكر، كانت المرافق الدائم للاضطراب ثنائي القطب.

أما فيما يتعلق بصحته البدنية، فقد أصيب في أيلول/ سبتمبر1934م بالملاريا الدماغية والتي استجابت لجرعات هائلة من الكينين (مادة شبه قلوية) والكافيين.[2] وفي كانون الثاني/ يناير 1946م أرسل جوزيف ستالين طبيب من «كي جي بي» (المخابرات الروسية) يدعى ميلينكوف، وذلك استجابة لرغبة ماو، ليقوم بفحصه. ولم يجد ميلنيكوف شيئًا أكثر من إرهاق عقلي وضغط عصبي، وهي مصطلحات كانت تطلق غالبًا على الاكتئاب في تلك الأيام. أصبح ماو في سبعينيات ذلك القرن مصابًا بفشل القلب الاحتقاني، بالإضافة إلى وجود المياه في رئتيه ورجليه. وفي تشرين الأول/ أكتوبر عام 1971م، عندما قام هنري كيسينجر برحلته الثانية لبكين للتحضير لزيارة الرئيس نيكسون التاريخية، كان ماو آنذاك طريح الفراش ويعاني مجددًا من الاكتئاب[3]. وبالرغم من ذلك، وبفضل زيارة نيكسون في الحادي والعشرين من شباط/ فبراير 1972م، تحسنت صحة ماو بشكل هائل، وظل معافى نتيجة لبهجته لما رآه في الصين على أنه انتصار للسياسة الأجنبية. لقد قدم الأميركيون أيضًا

(1) Zhisui Li, **The Private Life of Chairman Mao: The Memoirs of Mao's Personal Physician**, **tr.** Tai Hung-chao (London: Chatto & Windus, 1994).

(2) Philip Short, **Mao: A Life**, pb ed. (London: John Murray, 2004), p. 315.

(3) المصدر نفسه، ص 615 ـ 603.

(مساهمة غير مقصودة) لشفاء ماو: (فعبوات الأوكسجين وجهاز التنفس الصناعي التي أُرسلت لاستخدامها في حالة سقوط نيكسون مريضًا، قد نُقلت لغرفة نوم ماو)[1].

إلا أن التحسن لم يدم طويلًا، وبدأت صحة ماو في التدهور مرة أخرى. وبحلول عام 1973م كان لديه صعوبة في الكلام واحتاج الأوكسجين لأوقات كثيرة. ورغم ذلك، ظل ذهنه صافيًا في بعض المراحل، وفي تشرين الأول/ أكتوبر 1974م حدد موعدًا لدينج النائب الأول لرئيس الوزراء والخلف الأساسي لـ «زيبو إينالي». ومع اقتراب نهاية حياة ماو، كان لزامًا عليه أن يترك هواية السباحة المفضلة لديه: نتيجة لما أشار إليه البعض أنه كان بسبب علامات أولية لمرض الخلايا العصبية الحركية. لقد توفي بسبب أزمة قلبية في التاسع من أيلول/ سبتمبر عام 1976م بعد سنتين من العلاج، إثر معاناته من مرض «لو جهريج»، وهو مرض عصبي نادر ومتطور، يشل الحنجرة والجهاز التنفسي.

هارولد ويلسون

كان هارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا عندما تولى نيكسون السلطة، وكان قد استعاد المنصب بمجرد رحيل نيكسون. وويلسون هو أحد قائدين سياسيين حديثين ـ الآخر هو رونالد ريغان ـ اللذين شُخصا ـ بعد مغادرتهما المنصب ـ بإصابتهما بمرض ألزهايمر[2]. ونتناول دراسة الحالة لهذين القائدين ـ ولما تحمله من أهمية لموضوع هذا الكتاب، وهو القدرة العقلية لرؤساء الحكومات.

امتدت الفترة الأولى لهارولد ويلسون كرئيس للوزراء من (1964 حتى 1970م)، وانتُخب مجددًا في عام 1974م، ليتنحى في السادس عشر من آذار/ مارس عام 1976م. لقد كان قراره بمغادرة المنصب فاجعًا لمعظم أعضاء مجلس الوزراء البريطاني وللدولة بشكل كامل. إلا أنه في الواقع قد أطلع اثنين من خلفائه المقربين، جيمس كالاهان وروي جنكينز على نيته بالتقاعد في أواخر كانون الأول/ ديسمبر 1975م. وبينما كان ويلسون في المعارضة في عام 1973م، إثر حادثة صغيرة أثرت على قلبه، كان قد قرر ووعد زوجته إنه إذا أصبح رئيسًا للوزراء مجددًا، فإنه سيمكث في الوظيفة لفترة قصيرة فقط. لقد كان هدفه من السيطرة هو

---

(1) Margaret MacMillan, **Nixon and Mao: The Week That Changed the World** (New York: Random House, 2007), p. 65.

(2) يعتبر مرض ألزهامير أشهر صور الخرف، حيث يتّسم بفقد الوظائف العقلية والاجتماعية بشكل تدريجي. سُمي بهذا =

أن يدعو لاستفتاء أن تظل بريطانيا في شراكة اقتصادية أوروبية ـ الاتحاد الأوروبي فيما بعد ـ وللتأكد بشكل شخصي من أصوات الموافقة. لقد كانت طريقته هي إعادة التفاوض حول بنود الدخول للشراكة الاقتصادية الأوروبية، زعمًا بأن البنود الجديدة أحدثت فارقًا في تحديد ما إذا كان من الأفضل لبريطانيا أن تبقى في الشراكة أو تنسحب. وعلى الرغم من أن ذلك الادِّعاء ظل شائكًا وطال نقاشه، إلا أن البنود الجديدة كانت في الواقع أفضل من القديمة، وقد عملت الخدعة السياسية بشكل رائع ونجح ويلسون وكالاهان ـ الذي أصبح وزيرًا للخارجية فيما بعد ـ في تغيير توجهات مصوتين حزب العمل. وكانت نتيجة استفتاء عام 1957م بفارق واحد إلى اثنين. حيث وضعت هذه النتيجة إنجاز إدوارد المتمثل في مفاوضات المملكة المتحدة في الحسبان، ولكن سيكون هيث المُقدّر تاريخيًا بشكل ملحوظ.

وباسترجاع الأمر، فإن قرار ويلسون بالتقاعد قرار مستنير. حيث سئم من ضرورة التعامل مع مشاكل بريطانيا السياسية والاقتصادية بدت غير منتهية، وقد عكست حكومته هذا السأم. فلم تكن لديه الرغبة في التعامل مع الكارثة المالية الوشيكة، وبتنحيه تجنب المفاوضات التي لم يكن منها مفر مع صندوق النقد الدولي في عام 1976م. ورغم ذلك، فإنه في ذلك الوقت كانت هناك تخمينات سياسية لا نهائية عن أسباب استقالة ويلسون، كانت بعضًا منها خيالية بشكل سخيف. حيث لُمح إلى كونه متورطًا في فضيحة مالية، بل إنه عميل سوفياتي. وفي الحقيقة ربما كان السبب وراء استقالته أكثر بساطة: بأن كان قلقًا جدًا على صحته. فبالحديث معه بشكل غير رسمي داخل وحول مجلس العموم حول التسعة أعوام السابقة،

= الاسم وفقًا للطبيب الألماني ألويس ألزهايمر (1846 ـ 1915م) الذي كتب ورقة عن المرض عام 1906م. ويتَّسم في مراحله المتقدمة بفقد الذاكرة على المدى القصير، ويتبعه تنكسًا في خلايا الدماغ، تحديدًا تلك التي تكون في الفصين الصدغِي والجبهي للدماغ. ويصحبه انقطاع في إدراك الوقت والمكان، وتدهور ذهني وسلوكي خلال فترات مختلفة. يبدأ أيضًا بالتأثير على مشي المريض، حيث يتوقف عن المشي، ثم يموت بعد فترة من تلقيه للعناية في السرير. تُجرى العديد من الأبحاث ويطمح أطباء علم الأعصاب إلى إحداث تقدم ملحوظ. وأُثبت بأن للمرض أسس جينية تشمل ثلاثة جينات في عدة حالات. وأظهرت فحوصات النسيج الدماغي بأن اللويحات تحتوي على البروتين النشواني خارج خلايا القشرة الدماغية، وهي الطبقة الخارجية للدماغ. وتحدث التغيرات أيضًا داخل العصبونات أو خلايا الأعصاب حيث تلتف اللُيفات العصبية وتتعقد مسببة بذلك تشابك ليفي عصبي. ويصيب مرض ألزهايمر المُسنّين، وتندر الإصابة به قبل سن الستين، بينما تظهر علامات الإصابة به بنسبة 30% لأولئك الذين تزيد أعمارهم عن 84 سنة. تُصرف الأدوية لعلاجه، ولكنها تقلل من آثار المرض فحسب ولا تتسبب بالشفاء التام. وقُدّر لـ 465 مليون أميركي الإصابة بالمرض في عام 2005م، ولو لم يُتخذ إجراء حاسم لإيجاد علاج، فسيتضاعف العدد ثلاث مرات بحلول عام 2050م.

أصبحت مدركًا بشكل جيد كيف كانت ذاكرته الفوتوغرافية مهمة بالنسبة له، والتي بدأت تهجره في ذلك الوقت. لقد وصف فيليب زيجلر كاتب سيرته الذاتية أثر تدهور ذاكرته عليه، قائلًا: فبالنسبة لويلسون: «لم يكن التباطؤ أو الشرود والحيرة في استخدام الكلمات أو تلمس أرقام الإحصائيات مثيرًا للحنق فقط، ولكنه كان ضربة لثقته في نفسه»[1]. ومع ذلك، كان ويلسون وما زال رئيس الوزراء الوحيد الذي تنحى طواعية دون أي ضغط عليه من حزبه، لقد كان الضغط الوحيد قادمًا من زوجته وطبيبه.

بحلول عام 1980م، أي: بعد أربعة أعوام من الاستقالة، لم تكن صحة ويلسون جيدة. لقد تطور الأمر ليصاب بسرطان الأمعاء في ذلك الصيف، وأجريت له ثلاث عمليات جراحية، والتي قام أحد الأطباء بتسجيل التفاصيل السريرية لها. وعلى الرغم من أن ذاكرته ظلت ممتازة في أعوام مضت، إلا أنه لم يعد يستطيع تذكر ماذا تناول في إفطاره بذاك اليوم[2]. وهذه علامة كلاسيكية لمرض ألزهايمر. وبالرغم من أن كتاب ويلسون الأخير ذكريات: «أعمال رئيس وزراء من 1916 ـ 1964م» (Memoirs: The Makings of a Prime Minister 1916 ـ 1964) قد نُشر عام 1968م، فإن وظائفه العقلية بدأت تتدهور قبل ذلك ببضعة أعوام، بانهيار متواصل وخطير.

توفي ويلسون في الرابع والعشرين من أيار/ مايو 1995م ويبقى الدرس من تجربته هو أنه مع سوء الذاكرة حتى وإن كان ضعيفًا ـ إذ كان متدرجًا ـ فإن رئيس الحكومة ومستشاريه الطبيين يجب أن يعتبروها علامة للتفكير بوقت التقاعد.

إدوارد هيث

انتخب في حزيران/ يونيو 1970م إثر فوزه بسباق سيدني ـ هوبارت للزوارق منذ أقل من ستة أشهر. كان إدوارد هيث قويًا وجيدًا خلال فترة تواجده في البيت الرئاسي في الداونينغ ستريت. ومن المثير للدهشة قراره الشخصي بالمناداة بانتخابات شباط/ فبراير 1974م العامة للقضية الغريبة «من يحكم بريطانيا؟». كان ذلك أثناء إضراب عمال المناجم عقب تقليل الإمدادات الكهربائية. قاد هذا القرار بعض الأطباء للتساؤل في وقت لاحق عما إذا

(1) Philip Ziegler, Wilson: **The Authorised Life of Lord Wilson of Rievaulx** (London: Weidenfeld & Nicolson, 1993), p. 487.

(2) المصدر نفسه، ص 511.

كان من المحتمل أنه يعاني من آثار أولية لقصور الغدة الدرقية في العام الأخير لوجوده بالمكتب؟ على الرغم من أن الحالة لم تُشخَّص حتى ستة أعوام لاحقة. وليس من الغريب بالنسبة لقصور الدرقية[1] أو ما يطلق عليه أيضًا «ميكسويديما» myxedema، أن تأخذ عدة سنوات لتثبت الإصابة بها. حيث تظهر علامات وأعراض التباطؤ العام بشكل بطيء جدًّا لدرجة أن الناس المحيطين بالشخص المصاب يتأقلمون مع قصور الأداء، دون أن يدركوا ذلك، ويمكن لهذا التأقلم أن يشمل أطباء المريض نفسه.

في عام 1981م، شُخص هيث ـ الذي أصبح بعد ذلك عضوًا برلمانيًّا مميزًا ـ بالإصابة بقصور الدرقية. وأُعطي حينذاك هرمون الغدة الدرقية (الثيروكسين) وربما كان الثيروكسين سببًا في الرجفان الأُذيني للقلب ومعاناته، مما أطلق عليه طبيبه «قصور القلب ذو الأزيز» ولقد استجاب بشكل جيد للعلاج. لقد كانت هناك بعض التعليقات في الصحافة عن نعاسه عند الحضور لمجلس العموم بعد سنوات عقب تركه منصب رئيس الوزراء في 1974م. وبحلول عام 1981م لم يكن لدى أطبائه شك أن درجة الأداء المتدني للغدة الدرقية قد أضعفت فطنته السياسية. إلا أنه من غير المعقول بأن يُفترض أن قصور درقية شديدة قد أصابت هيث للحدِّ الذي أضر بإدراكه قبل ستة سنوات من اكتشافه. يدعم ذلك دراسة أجريت للتعرف على عوامل الخطر للقلب والأوعية الدموية لدى سكان مدينة ماساشوستس ـ مع تحليل لاحق لعينات دم وجدت مصابة بقصور الدرقية. إن الدرس الأساس من مثل هذا المرض الصامت هو التأكيد على قيمة التقييم الطبي لمن هم في مناصب صنع القرار، لأن المرض يغيب لفترات طويلة عن أطبائهم الشخصيين.

---

(1) ينتج قصور الغدة الدرقية من كسل الغدة الدرقية. تفرز الغدة هرمونين، هما الثيروكسين وثُلاثَيٌّ يودوثيرونين، اللذين بدورها يتحكمان بنشاط الجسم الأيضي، بحسب قياسات معدل الاستقلاب الأساسي (BMR). وفي حالة قصور الدرقية، يقل ذلك المعدل. تبدأ الإصابة به من عمر ثلاثين وحتى ستين عامًا، وقد يتطور ببطء مسببًا خمولًا، وتراجعًا للوظائف الذهنية، وانخفاضًا في معدل طاقة الجسم، وزيادة في الوزن. ويعتبر السبب الشائع هو التدمير الذاتي للجهاز المناعي، ويعرف بالتهاب الدرقية المزمن، وأحيانًا يسمى مرض هاشيموتو. وينتشر بين النساء أكثر منه عند الرجال، حيث أن نسبته عند النساء 14 مصابة من 1000، بينما في الرجال فمصاب واحد لكل 1000 شخص. ويعتمد التشخيص المبكر على إيجاد انخفاض معدل هرمون الدرقية في الدم، وزيادة نسبة نشاط هرمونات النخامية الدرقية التي تزداد بفعل الغدة النخامية محاولة زيادة نشاط الخلايا المعطلة في الدرقية، لإنتاج هرمون الثيروكسين. ويكون العلاج من خلال الثيروكسين، إما منفصلًا عن الغدة، أو يُنتج بشكل صناعي. وفي حالة هيث كان معدل الثيروكسين T4 منخفضًا 32، حيث أن المعدل الطبيعي يتراوح بين 60 ـ 170. ومستوى زيادة نشاط هرمونات النخامية الدرقية ارتفع إلى أكثر من 50، حيث أن الطبيعي تحت 5، مما يوضح انخفاضًا هائلًا في نشاط الدرقية.

رونالد ريغان

بدا رونالد ريغان عندما دخل للبيت الأبيض لأول مرة في كانون الثاني/ يناير 1981م، عن عمر يقارب السبعين، معافى جدًا. وغادر المنصب، كأكبر رئيس للولايات المتحدة بعد ثمانية أعوام، بشعبية ظلت جيدة جدًا.لقد كان الرئيس ريغان رائعًا جدًا، وكثيرًا ما غطت صفاته أوجه القصور لديه والعكس، وللحقيقة أدهشت صراحته عن مرضه الكثيرين حقًا. ففي أثناء الحملة الرئاسية لعام 1980م، تحدث على متن طائرة مع الكاتب الصحفي بجريدة «نيويورك تايمز» New York Times «لورانس ك. ألتمان»، عن والدته نيلي التي ظلت تعاني من الخرف «لسنوات قليلة قبل موتها» إثر جلطة دماغية في سن الثمانين. قال ريجان: إنه توقع بشكل كامل أن يفحص أطباؤه بالبيت الأبيض حالته العقلية، وتعهد بالاستقالة إذا أصيب هو نفسه بالخرف أثناء وجوده بمنصبه. وقد سأل ريغان عن الخرف، وقام ألتمان بشرح إيداع الأنيلويد في المخ وعن مرض ألزهايمر الذي لم يكن معروفًا بكثرة في ذاك الوقت[1].

كان من الواضح أن ما شغل ريجان هو وعيه التام بأنه مع مشكلات تاريخ أمه، وذاكرة أخيه، هناك إمكانية لتأثره هو بنفس العلة. يمكن أن نقدر خطر نمو ألزهايمر في المعتاد فيما بين 1 إلى 5 و1 إلى 6 إذا كان القريب المتأثر من الدرجة الأولى. أما في حالة عدم كون القريب من الدرجة الأولى فإن الإصابة تقدر بـ 1 إلى 15 و1 إلى 20. ربما أن إدراك الخطورة يزيد عن الخطورة الفعلية عند معظم الناس. ويتواجد ألزهايمر في طائفة ما فوق الثمانين من العمر من الناس بنسبة تتراوح بين الـ 20 ـ 30 بالمائة منهم. وما هو غير مألوف في الأمر هو أن ريغان كان مستعدًا لأن يتحدث عن قلقه صراحة قبل أن يتمّ انتخابه عام 1980م.

كان العديد من الناس يشكُّون في قدرات ريجان العقلية منذ بداية توليه الرئاسة. وقد تحدثت إليه في بداية الأمر بشكل فردي عام 1978م في مكتب الخارجية، فور قدوم فترة منصبه كحاكم لكاليفورنيا إلى نهايتها، ثم فعلت ذلك مرة أخرى في البيت الأبيض في 3 حزيران/ يونيو من 1985م. لقد كان من الصعب جدًا تقدير قدرته العقلية في أفضل الأحوال بسبب لا مبالاته النابعة من ثقته بنفسه وموهبته اللامعة المتمثلة في إنكار الذات لديه. لقد

(1) Lawrence K. Altman MD, Reagan and Alzheimer's: a doctor notes', **New York Times**, 17 June 2004.

كان ريغان قائدًا قوي الإرادة ذو مدى ضيق من التركيز والانتباه، ولكن موهبته العظيمة كانت تتمثل في استعداده للتركيز على العرض البسيط، والتركيز على بضع مسائل تخطيطية كبيرة محدودة فقط، مفوضًا المسائل الكبرى للآخرين.

ولم يتوقع الشخص الأميركي العادي أن ريغان سيكون منغمسًا بالتفاصيل، وقد أنقذه ذلك عندما تعلق الأمر بفضيحة أسلحة إيران المضادة وما نجم عنها. حول ريجان شهادته أمام اللجنة الرئاسية بشأن شحنات الأسلحة وكتب بعد ذلك في20 شباط/ فبراير 1987م إلى جون تاور، السيناتور السابق الذي كان يترأس اللجنة: (إن الإجابة الوحيدة الصادقة تتمثل في الإشارة إلى تلك المحاولة إن استطعت، فإنني لا أستطيع أن أتذكر أي شيء أيًا كان بشأن ما إذا كنت قبلت بعملية إعادة تزويد لمخازن إسرائيل فيما حول آب/ أغسطس من عام 1985م. وأتت إجابتي آنذاك بالحقيقة المبسطة: «إنني لا أتذكر» انتهى)[1]. لقد كان الجمهور بالأساس متسامحًا، فقد تركوا الأمر يمر بالرغم من اعتراف ريغان بالمسؤولية، لكن بلا تعقيد. وقد ساعد سنه في الأمر؛ فقد كان الجمهور يدرك أن نسيانه وفقدان ذاكرته هذين، مصحوبين بصعوبة في تذكر الأسماء، كلها تجارب يتعرض لها معظم الناس في مثل تلك السن المتقدمة. حيث لا يمكنهم أن يحددوا أي شيء على أنه جدي، ولكن يمكنها أن تكون، ولعلها في حالة ريغان، بداية ظواهر ألزهايمر. إلا أننا حتى الآن لا زلنا نجهل القدر الكافي عن المراحل المبكرة لهذا المرض على وجه التأكيد. إن العلامات الأولية المتمثلة في التأخر العقلي المرتبط بألزهايمر لصعبة التحديد.

إن السيرة الرسمية، «دوتش»، والتي على رغم الاعتراف بأنها شديدة الحساسية، والتي كتبها إدموند موريس، توضح أن حكمه لم يفسده أي تدهور كان قد حدث في قدراته العقلية من خلال ما ترسمه لنا على أوراق مجلداتها الأربع لمذكرات حياة ريغان الرئاسية[2]. يصف لنا موريس هذه المذكرات على أنها «مُتسقة في أسلوبها ومحتواها من بدايتها إلى نهايتها، ولم يكن هناك تلميح إلى التأخر العقلي فيما وراء التكرارات من آن إلى آخر، ولو أنها كانت توحي ببدايات الإصابة بالخرف، لكان العديد من كُتَّاب المذكرات، وأنا شخصيًا من بينهم،

---

(1) Richard Reeves, **President Reagan: The Triumph of Imagination**, pb ed. (New York Simon & Schuster, 2006), p. 381.

(2) حُررت اليوميات ونُشرت في جزء واحد، Ronald Reagan, **The Reagan Diaries**, ed. Douglas Brinkley) (New York: Harper Collins 2007).

لديهم أسباب تبرر قلقهم»[1]. لقد كانت المذكرة المتعلقة بمقابلتي لريجان في 3 حزيران/ يونيو1985م دقيقة ما عدا فيما يتعلق بإضافة حرف إلى اسمي.

ورغم ذلك فإن دراسة استرجاعية في 1987م قارنت مناظرة متلفزة لريغان مع الرئيس كارتر خلال الحملة الانتخابية بأدائه كرئيس في المناظرات مع منافسه الديمقراطي، النائب السابق ولتر منديل، في1980م، أظهرت بأن ردود ريجان كانت واضحة، وجمله جيدة التركيب ومفهومة، إلا أنه وقبل مجيء 1984م كانت ردوده تحتوي على العديد من الأخطاء الجسيمة والمرتبكة أحيانًا بحيث لا يمكن فهمها. وعلاوة على ذلك، لم يكن هناك أخطاء نحوية ـ أعني تلك المتعلقة بالاستخدامات غير الصحيحة للتعريف، وحروف الجر والضمائر ونحو ذلك ـ في مناظرته لكارتر. ولكن فيما بعد ذلك بأربع سنوات كان المعدل يقدر بكلمة من كل 220 كلمة في مناظرة مونديل الأولى، وبكلمة من كل 290 كلمة في المناظرة الثانية، كما توقف أثناء حديثه خمس مرات أكثر في (1984 عنها في 1980م) وكان معدل بطئه في الخطبة الثانية عنها في الأولى يقدر بـ 9%. لقد ختم عالم النفس برايان بتروير استرجاعيًا، الذي كان يدير الدراسة، بأن ريغان كان يعاني من خرف شيخوخي مبكر[2].

من الممكن أنه لو سمح لريغان قبل ذلك أن يمر بتقييم طبي مستقل قبيل إجراء جولة ثانية، فلربما أن مخاطر ظهور تقرير عكسي كانت لتقنعه وزوجته نانسي أن يختارا التقاعد الأكرم لهما بدلًا من الخوض في ذلك. وقد كانا كلاهما يظهران نفسيهما على أنها واقعيان بشكل مدهش، وكذلك منفتحان بشأن الحالة الصحية. فعلى سبيل المثال، في عام 1985م في15 تموز/ يوليو نرى بأن ريغان سمح أن يُعرف عن إصابته بسرطان في القولون. وكان الناس آنذاك يشعرون أنه ربما كان لديه ولو حتى فرصة في أن الخلايا السرطانية تلك ما كانت ستنتشر إلى ما وراء أو أبعد من ورم الغشاء المخاطي، الحالة التي في مثلها هذه الأيام كان ليكون لديه فرصة تقدر بحوالي 70% ليحيا لخمس سنوات أخر. وفي 1987م أعلن أيضًا أنه سيجري على الأقل جراحة توسعية لنمو ورم في البروستاتا لديه ـ ورم حميد ـ وهي عملية جراحية مشهورة لدى الرجال في مثل سنه هذا، الأمر الذي مر به الرئيس ميتيراند كذلك بورمه السرطاني الخبيث.

---

(1) Edmund Morris, Dutch: **A Memoir of Ronald Reagan** (New York: Random House, 1999), p. 622.

(2) Hugh L'Etang, **Ailing Leaders in Power 1914-1994** (London: Royal Society of Medicine press, 1995) pp. 55 _ 56.

تقدم لنا سجلات طبية مفصلة في عيادة أيار/ مايو صورة عن حالة ريغان العقلية خلال صيف عام 1990م، أي: بعد أن غادر منصبه بعام. لقد قُدِّر القدر الكامل من الاختبارات العقلية والنفسية الرسمية التي يتعين إجراؤها بعد وقوعه في حادث ركوب خيل وإجراء جراحة على مخه لإزالة «ورم دموي تحت الجافية»[1]. يقال: إن هذه الفحوصات لم تقدم توضيحًا لشكوك حدوث ألزهايمر، ولكن الأخرى التي أجريت عام 1993م فعلت[2]. فقد قال طبيبه أثناء فترة رئاسته، جون هاتون، بأن: «كل القياسات التي أجريت لسنه كانت وبشكل مطلق في نطاق المعدل الطبيعي»[3]. ويعضد هذا الحكم تأييد أطباء آخرين من البيت الأبيض، رغم أنهم قد أجروا فحوصات أو اختبارات عقلية بسيطة فقط، طالبين منه أن يطرح 7 من 100 باستمرار، وأسئلة أخرى قياسية بشكل معتدل ـ والتي وإن كانت الأسئلة المعيارية إلا أنها عامة.

في أيلول/ سبتمبر من عام 1992م، كان ريغان، والذي كان خارج منصبه، ما زال قادرًا على إلقاء كلمة تنافسية للرئيس جورج بوش، ولكن في تلك الليلة ذاتها لم يستطع ريغان التعرف على سكرتيره السابق جورج شولتز[4]، بالرغم من أنه كان قد رآه قبلها في اليوم نفسه. يصف أحد أطباء ريغان بالبيت الأبيض، والذي كان يراه للمرة الأولى منذ ستة أشهر: بأنه كان: «منعزلًا»، الأمر الذي لم يكن معتادًا، حيث إن كان من طبعه الاندماج بشكل طبيعي عندما كان يتحدث إلى شخص ما. وفي نهاية محادثتهما، سأله ريغان: «ما المفترض بي أن أفعله بعد ذلك؟» ثم كانت هناك نظرة خالية من المعنى على وجهه. وبإعادة النظر رأى الطبيب ذلك على أنه العلامة الأولى الأكيدة على زهايمر ريغان.

وبمجرد أن اتضح أن ريغان كان يعاني حقًّا من ألزهايمر، تعامل وزوجته مع الموقف بسمو وكرامة. ففي الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر 1994م كتب ريغان خطابًا مؤثرًا

(1) يحدث التجمع الدموي تحت الجافية عندما يتجمع الدم بسبب تمزق في الشرايين، التي تكون تحت الأُمّ الجافِيَة، والتي بدورها تكوِّن خطوطًا داخل عظمة الجمجمة أو القِحْف، والسحايا التي تغلف الدماغ. ينضح الدم ببطء ولا يمكن الشعور به أو رؤيته لكونه مغلف بغلاف عظمي صلب. وبازدياد الضغط تحت القِحْف ينضغط الدماغ وتبدأ أعراض مثل الصداع أو النعاس بالظهور بعد ساعات من الدوار. يمكن تشخيص التجمع الدموي عن طريق التصوير المقطعي. وتتضمن الإجراءات الجراحية حفر ثقب من خلال القِحْف واستئصال الدم، محدثًا شعورًا مباشرًا بالاسترخاء، ولو شُخِّص في الوقت المناسب، فلن يكون هناك ضرر دماغي مؤبد.

(2) Altman, **«Reagan and Alzheimer's»**.

(3) Morris, **Dutch**, pp. 656 - 664.

(4) Lawrence K. Altman MD, «Reagan's twilight», **New York Times**, 5 October 1997.

بخط يده إلى «إخواني الأميركيين» مخبرًا إياهم أنه واحد من مليون أميركي مصاب بمرض ألزهايمر. واستطرد قائلًا: «كانت نانسي تعاني في الماضي من سرطان في الثدي، وأجريت أنا جراحات سرطانية. ووجدنا من خلال مصارحاتنا العلنية أننا كنا قادرين على أن ننمي وعيًا جماهيريًّا». وانتهى إلى القول: «إنني الآن أبدأ رحلة ستقودني إلى أفول شمس حياتي». مات في 5 من حزيران/ يونيو 2004م كرئيس سابق محترم جدًا، قالت عنه زوجته: بأنه لم يفتح عينيه لأربع سنوات(1).

ويمكن أن ينشأ جدل قائم على أسس صحية عامة تتمثل في أن نسيان الرئيس ريغان ينبغي أن يقوده قرار ألا يمثل لفترة ثانية، تمامًا كما كان ينبغي ألا يمثل هارولد ولسون، والذي أصيب فيما بعد بألزهايمر في الدورتين الانتخابيتين العامتين في 1974م. إلا أنه وعلى الأسس السياسية كان هناك حالتان لرجلين مستمرين في منصبيهما ولكل منهما إنجازاته الخاصة باسمه، أثناء أو آخر فترة عمله في منصبه. فبعد إعادة انتخاب ريغان قابل رئيس الاتحاد السوفياتي ميخائيل غورباتشيف، في جنيف في تشرين الثاني/ نوفمبر 1985م مما أدى تقليص القنبلة النووية والدمار فيما بعد. وفي برلين في حزيران/ يونيو من عام 1987م طلب ريغان، وعلى العكس من نصيحة قسم الولاية: «سيد غورباتشيف، دمر هذا الجدار». لقد كانت فلسفته تلك المعادية للشيوعية مباشرة وراسخة، مما أسهم على مدار فترة بقائه في منصبه في سقوط جدار برلين وانهيار الإمبراطورية السوفياتية.

تنحى كل من ريغان وولسون عن الشارع السياسي قبل ظهور علامات واضحة من ألزهايمر. يتعارض هذا مع حالة رئيس آخر للحكومة، وهو رئيس فنلندا أوثو كيكونين، والذي كان وهو في منصبه قد بدأ يعاني من مرض متفش بدا وأنه يؤثر على وظائفه الدماغية. انتخب في المرة الأولى سنة 1965م، ورغم عدم تشخيصه على أنه ألزهايمر، استقال عام 1981م، بعد أن طوى اضطرابًا خطرًا في الذاكرة بدأ بالظهور منذ وقت مبكر يرجع إلى عام 1978م، وهو العام الذي انتخب فيه للمرة الأخيرة(2).

لم يكن عمر ريغان ولا مرضه هما المسؤولان عن إحدى أكثر الأزمات الصحية الرئاسية مأساوية في التاريخ الحديث. في الثانية وخمسة وعشرين دقيقة بعد ظهر الثلاثين من آذار/

---

(1) Reeves, **President Reagan**, p. 490.

(2) Jorma Palo, «The cover up of President Urho Kekkonen's dementia and its impact on the political life of Finland», **European Journal of Neurology** (1999), vol. 6, pp, 137 - 140.

مارس لعام 1981م، أطلقت الرصاصة السادسة على ريغان من مسدس على يد جون هينكلي بعد أن ارتدت القذائف من الليموزين الخاصة به. أصابت الرصاصة الأولى رأس السكرتير الصحافي للبيت الأبيض، جيمس برادي، مما أسفر عن إعاقته الدائمة. وأصابت الرصاصة الرئيس تحت إبطه الأيسر وانحرفت لدى ضلعه السابع ثلاث بوصات اتجاه أسفل رئته اليسرى، حيث استقرت على بعد بوصة من قلبه والأورطي.

ولقد قبلت بشكل واسع فكرة أن حياة ريغان قد أنقذها العميل الخاص المكلف، «جري بار»، والذي ألقى به إلى داخل السيارة متجهًا به إلى البيت الأبيض، ولكن وفور رؤيته للرئيس يبصق دمًا من فمه أخبر السائق أن يتجه إلى مستشفى جورج واشنطن المجاور. لقد باءت هذه المحاولة للنيل من حياة ريغان بالفشل، والتي شارفت على قتله وقللت بلا شك من قدرته على معالجة موضوع دفع ضريبة عمله كرئيس، ولكنها سهلت سلطته وزودت من قوته.

ما يدهش في الأمر هو كيف يتصدى مسؤولون إداريون غير مجهزين لمثل هذه الكارثة. فهم على سبيل المثال، لم يكونوا واعين للقانون الخامس والعشرين في الدستور الأميركي إلا بشكل مشوش وباهت، والتي تخوِّل الرئيس، إذا ما استطاع، أن يحرر خطابًا عرضيًا طارئًا ينقل بموجبه سلطاته التنفيذية مؤقتًا إلى نائبه. وقد كان الدكتور دانيال روج، طبيب البيت الأبيض الخاص بريغان، معه على مدار مساء يوم 30 آذار/ مارس، وكان يعتقد بأن الرئيس يستطيع أن يوقِّع مثل ذلك الخطاب، إذا ما عُرض عليه هذا، رغم فقده للدم بغزارة (أكثر من نصف مقدار دمه) وذلك قبل أن يدخل تحت التخدير في الثالثة وأربعين دقيقة بعد الظهر لإزالة الرصاصة من جسمه[1]. فلو أن ريغان كان قد حرر خطابه ذاك، لكان جورج بوش قد أصبح رئيسًا بشكل مؤقت. وبدلًا من ذلك لم يُخبر بوش إلا أن الرئيس كان في حالة حرجة، أولًا بالتليفون في الثانية وأربعين دقيقة بعد الظهر، بينما كان في طريقه إلى تكساس على متن طائرة القوات الجوية الثانية، ثم بعد ذلك مرة أخرى بفاكس بعث به إليه ألكسندر هيج، سكرتير الحكومة. ثم كان أن جعل هيج الأمور تزداد سوءًا، بأن رسم منظرًا سيئًا مؤججًا الموقف ومصورًا إياه بالمصيري في غرفة صحافة البيت الأبيض، ومدَّعيًا زورًا بأنه وزير مجلس الوزراء.

(1) Abrams, The President Has Been Shot, p. 179.

وأثناء إجراء العملية، استعان مستشارا ريغان الرئيسيان، جيمس بيكر وإدوين ميس، بأحد الجراحين، وهو جوزيف جيوردانو لاستشارته في الموقف. أرادا أن يعرفا منه كيف سيكون أداء الرئيس لوظائفه فيما بعد التخدير. شرح لهما أن الرئيس لن يكون قادرًا على أن يتخذ قرارات حاسمة، حيث إن جميع العقاقير المخدرة لها تأثير ما على العقل والدماغ وأنه كذلك بصدد الخضوع لعلاج الآلام ذي النوع القوي التأثير. وعندما سُئل إلى أي مدى سيستمر ذلك العلاج، ذكر أنه يحتاج أيامًا معدودة[1]. وقيل: إن في التاسع من نيسان/ أبريل، أي: بعد الهجمة بعشرة أيام، كان ريغان يعمل لمدة ساعتين يوميًّا بالمستشفى، ولكن ذلك أمر مبالغ فيه، وفي الحادي عشر من نيسان/ أبريل، غادر المستشفى. يعلم أولئك المقربون منه بأنه كان «متعبًا بشكل مرعب». ولم يكن ريغان في الأيام التالية قادرًا على أن يعمل أو يظل يقظًا منتبهًا إلا لساعة في اليوم. ولم يعمل ليوم كامل إلا في الثالث من حزيران/ يونيو وذلك للمرة الأولى، أي: بعد إطلاق الرصاصة عليه بشهرين.

إلا أنه في الصباح التالي لإطلاق الرصاصة عليه، قال ميس: «إنه أدَّى حقًا عمله كما كان يؤديه كالمعتاد». بينما ادَّعى بيكر أن: «الرئيس قادر تمامًا على القيام بمهامه». وقال سكرتيره للشؤون الصحافية الجديد، لاري سبيكس إن: «الرئيس سيتخذ كافة القرارات، كما كان معتادًا أن يفعل دائمًا»[2]. كانت تلك كلها روايات غير دقيقة في مجملها عن حالة الرئيس الصحية، وتم تلفيقها للتضليل. فقد قال السيناتور بيرش بيه، والذي كان شخصية محورية في هيكل القانون الخامس والعشرين، فيما بعد:

> **إنها خاصية ملازمة لأفراد طاقم البيت الأبيض أن يعتبروا طبقتهم الخاصة أهم من رفاهية الشعب. فلو أن لديك رئيسًا لا يستطيع أن يقوم بوظائفه ـ وقد كان الرئيس ريغان يوشك على الموت ـ ولا تحيل مهامه إلى بوش، فإن ذلك يعد عملًا غير مسؤول بالكلية. وأعتقد أن ذلك كان خرقًا للدستور. ومن حسن الحظ، أن ريغان قد تعافى ولم تنهر البلاد جراء ذلك[3].**

كان لريغان نفسه أن يمتلك توجهًا أكثر استقامة بالنسبة لما ينبغي أن يحدث ليس بعد عجزه بسبب رصاصة أطلقت عليه، ولكن نتيجة تدهور في قواه العقلية. ففي عام 1987م،

(1) المصدر السابق، ص 181 ـ 182.

(2) المصدر السابق، 162-163.

(3) المصدر السابق، ص 257.

عندما سأله طبيبه بالبيت الأبيض[1] جون هاتون، عما كان يريد فعله في الموقف النظري الذي ربما يحتاجه للانقياد للقانون الخامس والعشرين بسبب تدهور حالته العقلية، قال ريغان ببساطة: «ما عليك إلا أن تذهب وتتحدث إلى جورج ونانسي في هذا الشأن». يعني بذلك نائبه كرئيس، بوش، ونانسي، زوجة ريغان. لقد كان هذا تلخيصًا جيدًا لكلٍ من الموقف التشريعي والواقع العملي، فهذان هما الشخصان اللذان يمكن لنا أن نتوقع أن يكونا، وفي معظم الأحوال، داعمين للرئيس أميركي، ومن يقنعاه بشكل غير رسمي بالتنحي.

مارغريت تاتشر

لو استثنينا انفصال شبكية العين، ومرض انكماش دُوبْويِتْران الذي يؤثر على الأصبعين الخنصر والبنصر اللذين خضعا لعملية جراحية، فإننا نجزم بأن مارغريت تاتشر كانت بصحة جيدة طوال فترة الأحد عشر عامًا التي كانت فيها رئيسة للوزراء. إلا أن منصبها يعد بيئة خصبة لقائد سياسي ليرضخ لمتلازمة الغطرسة. ففي فترتها الأولى في العمل الرسمي لم تتصف بهذه الأعراض، على الرغم من وجود بعض الإشارات إلى إنها ربما كانت حساسة في الطريقة التي قسَّمت بها رفاقها وأتباعها إلى «هم ونحن» أي: إلى فريق موال وآخر مناوئ، وكانت مبددة للإجماع. لقد كانت في السنتين الأوليين حريصة على أن تستعين بعدد هائل من الأصوات المعارضة من الجناح الآخر في حزبها ليشغلوا مناصب في مجلس الوزراء، وعندما تواجهت مع عمّال التعدين في النزاع الصناعي بدا بأنها ستخسر، وفي عام 1981م، تراجعت فورًا بشكل مؤقت ثم عادت إلى مجابهتهم في عام 1984م.

كان الحدث الخادع والذي كان له أثر في تغيير أفضليتها هو غزو الأرجنتين لجزر الفولكلاند البريطانية عام 1982م. على الرغم من أن عددًا قليلًا من رؤساء الوزراء البريطانيين كانوا سيفعلون مثلما فعلت هي بإرسال قوة من البحرية إلى جنوب المحيط الأطلنطي حيث وإن كان استعادة هذا الجزء من الأرخبيل الصغير ذي الأهمية الاستراتيجية، فالقرار نفسه لم يكن ذو طابع متغطرس. فأنا أعلم من خلال حواراتي الخاصة معها في أثناء فترة الحرب أنه عندما تصدر القرار وتكون عازمة عليه فإنها تكون حذرة بشكل مثير، وعندما تكون بمعزل عن الناس فإنها تكون قلقة أكثر من كونها مولعة بالقتال. فعبارتها الشهيرة «البهجة، البهجة»

(1) Lawrence K. Altman MD, «Reagan and Alzheimer's: **Following path his mother traveled**», **New York Times**, 8 November 1994.

التي تلت نزول الفرق الحربية البريطانية في جنوب جورجيا: غالبًا ما تقتبس على أنها مثال على الغطرسة، والتلذذ بإيذاء الآخرين، ولكنها كانت منعشة ومبهجة بنفس المقدار. فما يدعى أنه نوع من الغطرسة، كان تنظيم عرض الجنود لأولئك الذين خدموا في حملة الفولكلاند، والذي أعده عمدة مدينة لندن. هذا الدور الذي كانت تاتشر تعلم جيدًا بأنه كان بالتحديد دور الملكة.

إن نجاحها في استرداد الفولكلاند، وانتصارها الحتمي في الانتخابات العامة في عام 1983م، عزّز من ثقتها بنفسها بلا شك، حيث بدأت في الاستغناء عن رفاقها الذين اختلفوا معها، وأحاطت نفسها بأولئك الذين أيّدوا أفكارها ووجهات نظرها وشاركوها الرؤى نفسها. ففي أثناء الفترة الطويلة لرئاستها للوزارة، كانت شديدة الثقة، ولكنها لم تكن متغطرسة أو مغرورة. فقد تعاملت مع عملية الإضراب بعناية فائقة، فأصدرت أوامرها بإنشاء مناجم للفحم، ثم تحاورت مع قائد عمال تلك المناجم «آرثر سكارجيل». لا يوجد أي رئيس وزراء بريطاني آخر في القرن الحادي والعشرين استطاع أن يسيطر على أعصابه ويدفع هؤلاء العاملين بالمناجم إلى الهزيمة الكاملة، مثلما فعلت هي، ولوجدوا عذرًا في إجراء التسوية مبكرًا جدًا. ولكنها شعرت بشكل صحيح، بأن ذلك الانتصار التام لم يكن فقط ممكنًا ولكن ضروريًا. فتحدي عمال المناجم كان من خلال تشريع الاتحاد التجاري الموجود آنذاك، وليس التشريع الجديد الذي قدمته. وقد كانت هذه لحظة حاسمة في رئاستها للوزارة، مشيرة إلى نهاية القوة الصناعية والسياسية بعد الحرب في حركة الاتحاد التجاري. فالانحدار النسبي في اقتصاد المملكة المتحدة احتاج لقيادة حاسمة في الثمانينات لعكسه، وسعي تاتشر وراء الضوابط، وإصلاحات الاتحاد التجاري وسياسات الخصخصة التي حولت الاقتصاد البريطاني، ضمن إرثًا معتبرًا.

ولكن الواقع أنها نجحت في قضيتي جزر الفولكلاند وعمال المناجم، بحكمة تثير الجدل، حيث كان يمكن لها أن تؤدي إلى تسوية في القضيتين، يعني أنها أصبحت واثقة بحكمها الذاتي بشكل خطير، ومحتقرةً للآخرين، خاصة بعد فوزها الثالث في الانتخابات في عام 1987م، حيث يوضح إصرارها على تقديم ضريبة الرأس تمامًا كيف كانت تتجه نحو متلازمة الغطرسة. لقد اعتبرت هذه الضريبة عالميًا بأنها مجحفة، ولكنها كانت مقتنعة بأنها ليست كذلك، وأنها لا تمثل انشقاقًا في سياستها، حتى بالنسبة لزعيم ذي ثقة عالية بالنفس مثل ونستون تشرشل، فإنه قد تراجع عن غطرسة كهذه. ففي إعداده للبيان الرسمي لحزب المحافظين من أجل الانتخابات في عام 1958م استبعد شكوى ريجلاند مودلينج،

أحد الأعضاء الصغار في القسم البحثي التابع للحزب، بأن الاقتراح برمته غير عادل، ولكن عندما كان مودلينج لديه روح المغامرة من أجل الرجوع مع ملاحظة أن «الشعب البريطاني» قد اعتبر ذلك أمرًا غير عادل. توقف تشرشل وأشار: «هذا أمر مختلف تمامًا الآن!» وألغى الاقتراح. ولكن ما يمكن أن يعد على أنه عبء الرأي العام، لم يكن شيئًا قد يوقف أو يحد طموحات تاتشر. وعلى الرغم من ذلك فإنها لم تُبدِ لا مبالاة وإهمالًا للتفاصيل كما تفترض أعراض المتلازمة. فالمستشار الخاص بها نايجل لاوسون، والذي عارض الضريبة أوضح في كثير من مذكراته بأن العديد من الدراسات المستفيضة أقيمت للبحث عن العلل والأسباب حول هذه الضريبة قبل أن تقدمها، وأن جميع زملائها كانوا على قدر الاستشارة بشكل كامل. ولكن الزخم وراء هذه الضريبة كان مما لا شك فيه اقتناع تاتشر التام بأنها «على صواب». وعلى مستوى أكثر سخرية، فإنه أصبح من الواضح أنها تعاني من أعراض وآثار الغطرسة عندما رحبت بولادة حفيدها الأول معلقة: «أصبحنا جدة!».

وبحلول عام 1989م بدا إدراك تاتشر للحقائق التي كانت تديرها متلاشيًا. فبعد انهيار سور برلين في تشرين الثاني/ نوفمبر، رفضت الاعتراف بإعادة الاتحاد بين ألمانيا الشرقية والغربية، والذي برز فجأة على أجندة الساحة السياسية، حيث تطور خطر ألمانيا الكبرى الكامن لديها خاصة عندما كانت توجه حديثها العاطفي عن الرايخ الرابع، حيث حذرت الرئيس الأميركي جورج بوش من أنه: «لو أننا لم نكن حذرين، فإن الألمان سيحققون بالسلام ما لم يحققه هتلر بالحرب»[1]، فكانت تُعدُّ ملاحظة غير عادية. فالحقيقة أن إساءتها لتقدير مدى سرعة التأثير السياسي الذي كان يحمل الألمان على الاتحاد، كانت إحدى علامات حكمها السياسي الذي بدا فاسدًا وغير سوي، بسبب تأثير تحاملها السياسي وثقتها بنفسها التي كانت تتغلب على حرصها. بالإضافة إلى أن احتقارها لوزارة الخارجية جعلها غير آبهة بالنصائح الدبلوماسية، مما أفسدت العلاقة الإنكليزية الألمانية. إلا أنه ولحسن الحظ غيّرت من تفكيرها عندما فشلت بالتماشي مع زملائها في مجلس الوزراء التابع لها، خاصة وزير خارجيتها «دوغلاس هورد». وبشكل أكثر جدية، فقد عزلت لاوسون برفضها التمسك بمستشار اقتصادي خاص بها سمح لمعارضته السياسات الاقتصادية للمستشار البريطاني، أن تصبح مشاعًا عامًا، لقد جعلت من منصب لاوسون أمرًا مستحيلًا. وبذلك

(1) George Bush and Brent Scowcroft, **A World Transformed** (New York: Alfred A. Knopf, 1998), p. 249.

منحت تصديقًا للوعي المتنامي بأنها الآن تفقد لمستها بالإصرار على أن لاوسون كان «فاخرًا» و«غير عدواني» في حين لم تتخذ الخطوات لثنيه عن التقاعد والاستقالة، بل أقرت جهلها بمعرفة سبب استقالته. وحين وصلت إلى نهاية فترة رئاستها للوزارة، قال أحد تاركي وزارتها بأنها الآن: «بعيدة عن مكانتها المرموقة» مشيرًا إلى أنها الآن قد نحيت جانبًا على أيدي أولئك الرجال المرتدين للزي الأبيض لمستشفى الأمراض العقلية. وقد أخبر أحد وزرائها الصحفيين بأنها قد أصبحت «مختلة عقليًا بالكامل»[1].

أصبحت مظاهر هذه الغطرسة واضحة بشكل كامل في الثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر 1990م، حين عادت إلى مجلس العموم البريطاني بعد مؤتمر رؤساء حكومات الاتحاد الأوروبي في روما، حيث ألقت سلسلة من الخطب في هذا المؤتمر الصحفي الذي لم تكن متقبلة له بشكل كامل. وصف مشهد مجلس العموم بشكل دقيق المعلق السياسي في صحيفة الغارديان: «حتى حين عادت للوطن لم تخف حدَّة الغطرسة، بل في الواقع، وكما يحدث غالبًا في فترة تاتشر، فإن المسؤولين في الحكومة البريطانية قاموا بإطفاء حدة الخطاب حتى بدا النص تحت السيطرة، ولكن في إجابتها على الأسئلة:

> **ظهرت بشكلها الوحشي أحادي النغمة، كأحد اللحظات التي اشتهرت بها في جلساتها البرلمانية، ألا وهي الوثب بثورة من الغضب، الدوران حول الحجرة، مروعة حتى أولئك الذين كانوا خبراء بتعبيرات تاتشر طوال الأحد عشر عامًا عن أوروبا «لا... لا...لا». كانت تصيح، وعيناها كانت تبدو متجهة إلى الحقول والبحار والتلال والأراضي المترامية، حيث لن يستسلم سكان الجزيرة أبدًا [2].**

وهنا من خلال الأداء الفائق، فإن جلسة ذلك اليوم في البرلمان لم تكن تنسى ولا تتلاءم مع الحزب الحاكم؛ حزب رئيسة الوزراء. ففي سيرتي الذاتية وصفتها على أنها: «لديها روح عالية من التعاطف، وأن مادة الأدرينالين تنتشر بين أعضائها أثناء لكمها بحقيبة اليد (handbagged)[*] مقترحًا فيدراليًا»[3]. يجلب إلى الذهن تأكيدها المطلق على وجهة نظرها

(1) Quoted in Philip Stephens, «Blairism will outlive the departure of a battered Blair», **Financial Times**, 9 February 2007.

(2) :Hugo Young, **This Blessed Plot: Britain and Europe from Churchill to Blair** (London Macmillan, 1998), p. 368.

(*) في إشارة إلى حقيبة يد مارغريت تاتشر التي مثلت رمزًا لعصر مارس سلاحه ضد المعارضين أو الوزراء وإخضاعهم، وهي التي اشتهرت بالضرب على الطاولة بحقيبة يدها.

(3) David Owen, **Time to Declare** (London: Michael Joseph, 1991), p 777.

ورفضها للحلول الوسطية التي عبَّرت عنها كلماتها بالعنوان الفج في جريدة: «الصن» البريطانية عن رئيس المفوضية الأوروبية آنذاك جاك ديلور: «ضعه في مؤخرتك ديلور»(*).

كان هناك شخص واحد بعينه منزعج من أدائها وهو مندوبها؛ السيد جيفري هوي، وهو أحد الأوروبيين الممتلئين بالحماسة. كان مستشارها الوفي الأول لخزانة بيت المال وفي كثير من الاعتبارات يعد المصمم الهندسي للسياسات الاقتصادية لحكومة تاتشر. ثم أصبح فيما بعد وزيرًا للخارجية، ومن ثم عين رئيسًا لمجلس العموم البريطاني. أصبحت تاتشر أكثر ازدراء لطريقته الخنوعة، وكانت على استعداد لاحتقاره وإذلاله على الملأ في مجلس الوزراء، محرجة إياه حتى أمام الزملاء الأقل اهتمامًا بمشاعر الناس. هذه هي الغطرسة في أكثر صورها الفطرية. واستعد هوي من خلال الاتحاد الأوروبي للتحرك. ليتبع فنيميسس (إله الانتقام عند الإغريق) خطاب استقالته في مجلس العموم، والذي كان مدمرًا بشكل كامل، وذلك بسبب طريقة إلقائه المتواضعة. لقد أجبرت بعد شهر واحد للتخلي عن السلطة الرسمية.

نشأت المأساة السياسية لتاتشر بأنها وضعت نفسها في مواجهة مصدرها الذاتي من السلطة في البرلمان، وهو حزب المحافظين (الحزب الحاكم). لقد وصلت إلى مرحلة لم تعد ترفض أن تستمع إلى رفاقها في البرلمان فحسب، بل تبدو مستمتعة بالسخرية من وجهات نظرهم. مما أدَّى إلى تراجع رئاسة مجلس الوزراء في القيمة والكفاءة، وباتت غالبية الآراء لدى حزب المحافظين داخل البرلمان تهان دائمًا أو عرضة للتلاعب. فالشعب الثري الذي كان يعلم أن مجلس الوزراء حصن دستوري، سمح له أن يتطور خلال السنوات إلى أن يصبح المحدد للنظام الديمقراطي البريطاني. يصبح مجلس الوزراء كسولًا لمجرد كون تاتشر امرأة وحسب، بل كان العامل المادي له دور أيضًا. ولوهن مجلس الوزراء الشديد عن أداء دوره، كان على حزب المحافظين إظهار قوته. فالزعيمة التي فازت ثلاث مرات متتالية في الانتخابات العامة قد انزوت من المشهد ليس على أيدي الناخبين، ولكن من خلال القواعد والأسس الديمقراطية التي وضعها وزراء برلمانها. بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بالديمقراطية النيابية والقيادة الحاسمة الرشيدة، فقد كان ذلك نموذجًا مثاليًا لآليات

(*) تلك ترجمة حرفية لـ(Up Yours) وهي عبارة عامية بذيئة تستخدم كشتيمة من قبل البريطانيين كناية عن الامتعاض من أمر ما.

التحكم الديمقراطي على غطرسة القائد التي تعمل حقًا. كانت عقوبتها من آلهة الانتقام حتمية كزعيمة ديمقراطية متجهة نحو متلازمة الغطرسة. فلقد فضلت هي وأصدقاؤها أن يصنفوا ذلك على أنه نوع من الخيانة العظمى، وأشاروا إليه أنه اغتيال سياسي.

تعاقب استبدال تاتشر سريعًا نتيجة لحرب الخليج الوشيكة الحدوث. وانتعشت فرص حزب المحافظين سريعًا في عهد خليفتها جون مايجور، الذي أثبت نفسه جيدًا أثناء تلك الحرب، والذي مضى في فوز الانتخابات العامة عام 1992م.

القيادة السوفياتية الهرمة في الحرب الباردة

إنه من السهل الآن أن ننسى إلى أي مدى كان العالم لا يزال خطرًا في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات. ففي عام 1978م على سبيل المثال كتب الجنرال جون هاكت، الذي تقلّد منصبًا أكاديميًّا، متماشيًا مع عدد كبير من المفكرين الاستراتيجيين كتابًا تحت عنوان: «الحرب العالمية الثالثة»[1]. الذي لم يكن بدوره مثيرًا للمخاوف ولكن جديرًا بالثقة. حيث عرض كيف من السهولة أن تبدأ حرب بين البلدان المتعاهدة في كل من حلف وارسو وحلف الناتو (حلف شمال الأطلسي) من تصعيدات صغيرة في التوتر بمراحل منطقية في أوروبا.

منذ فترة حكم الاتحاد السوفياتي، بدت السرية الفكرة المهيمنة على صناعة القرار داخل الكرملين. ولذا ليس من المستهجن أن الديمقراطيات الغربية تطور لديها اهتمام شغوف لدراسة أبسط علامات التغيير، بما فيها صحة أعضاء المكتب السياسي. أفرزت تلك العملية افتراضيًّا علمًا جديدًا، وهو دراسة صناعة القرار في قصر الكرملين (الكرملينولوجيا). فحين كنت وزيرًا للخارجية سنة 1977م، كُلفت بزيارة موسكو، وطلب مني موريس أولدفيليد رئيس المخابرات السرية (M16) الملاحظة والتعليق على صحة رئيس الديوان الرئاسي السوفياتي؛ ليونيد بريجنيف. فقد كان هناك شائعات أن بريجنيف كان يخضع للعلاج من سرطان الحنجرة، إلا أنني حين قابلته في الكرملين وتحدثت إليه لبعض من الوقت فلم أستطع أن أستنتج أي من علامات الإعياء والغرابة عليه، مع أن المترجم وجد أن نبرته قد تغيرت. ما قد كان واضحًا لي هو أن بريجنيف قد كبر في السن سريعًا. ففي أحد المؤتمرات في فينا في عام 1979م حُمل على أكتاف اثنين من أعضاء المخابرات الروسية، ولم يستطع

---

(1) General Sir John Hackett et al., **The Third World War: A Future History** (London: Sidgwick & Jackson, 1978).

حضور الاجتماع التالي في كانون الأول/ ديسمبر من ذاك العام حين قام كل من يوري أندروبوف، وأندري جورميكو، وبوريث بونمارف، ومارشال ديمتري يوستينوف بالتخطيط للخطأ الفادح بغزو أفغانستان: والذي وقَّع عليه بريجينيف في مكتبه[1]. كان رمزية تهاوي الإمبراطورية السوفياتية من خلال جملة قرارات اتخذت على أيدي القيادة العاجزة لبلاد هزمت القوات البريطانية في قمة مجد الإمبراطورية البريطانية في السابق.

توفي بريجينيف في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1982م، وتلاه في إدارة المخابرات أندروبوف الذي كان يبلغ من العمر اثنين وثمانين عامًا، لكي يصبح الرئيس الرسمي للمخابرات، وبعد مرور ثلاثة شهور على قيادته لذلك المكتب احتاج إلى غسيل كلوي بشكل مستمر. وبعد ما يقل عن عامين توفي أيضًا وذلك بعد استئصال إحدى كليتيه في تشرين الأول/ أكتوبر 1983م. وفي شباط/ فبراير 1984م، وفي أثناء حضور جنازة أندروبوف وذلك بعد أن سلمت على الرئيس الجديد كونستانتين شيرنيكو في أثناء استقباله في الكرملين، ذكرت لصحفي أنه من الواضح لي أن تشيرنيكو والذي يبلغ من العمر ثلاثة وسبعين عامًا يعاني من انتفاخ في الرئة. انتشر الحديث الجانبي كالنار في الهشيم، مما سبب لي إحراجًا قاطعًا كطبيب أكثر من سياسي ـ فقد قضيت أيامًا محاولًا التنصل من طبيعة التشخيص الحتمية. وقد تأكد مؤخرًا بأنه يعاني في الواقع من انتفاخ في الرئة، ولكني بنيت في ذلك الوقت على أكثر من مجرد سماع لصفير صدره. توفي شيرنوك في عام 1985م ليصبح الزعيم السوفياتي الثالث الذي يموت في غضون ثلاث سنوات.

على عكس المؤسسات الضخمة، لا توجد خطة استخلاف في السياسة. مما يجعل الزعماء السياسيين الذين يتشبثون بالمنصب لمدة طويلة يصبحون في ريبة من الخلفاء السياسيين الصغار. لقد وصل الاتحاد السوفياتي إلى نقطة حيث باتت الزعامة المسنة متشبثة في مكانها، ونضب ينبوع حكمتها، وباتت مقاومة للتغيير. لحسن الحظ حين وصل ميخائيل غورباتشيف إلى الحكم بعد تشيرنيكو، كان الاتحاد السوفياتي قد اختار قائدًا لائقًا صغيرًا في السن، وحتى وإن كان مازال منتميًا إلى فكر لينين، ليكون رئيسه الأول، في حين ظلت ألمانيا الشرقية والمتحدة مع ألبانيا لفترة طويلة الحصن الأخير للشيوعية الغير محصَّنة.

---

(1) Christopher Andrew and Vasili Mitrokhin, **The Mitrokhin Archive, vol. 2:. The KGB and the World** (London: Allen Lane, 2005), p. 269.

كان أيريك هورنيك بحلول عام 1989م، مسنًا وعليلًا ومتزمتًا. كانت هذه خطوة عظيمة إلى الأمام بأن رفض غورباتشيف استدعاء القوات السوفياتية لكي تعسكر في ألمانيا الشرقية، كما سمح في عام 1989م بانهيار جدار برلين[1]. ولكن صحة غورباتشيف الصحية لم تتمكن من منع انهيار الاتحاد السوفياتي وتفككها السريع، وجدت روسيا نفسها محكومة من خلال شخص جريء، وذي كاريزما عالية حيث كانت صحته العليلة مشكلة جدية.

بوريس يلتسن

سيذكر التاريخ بوريس يلتسن على أنه أول زعيم يحكم روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وأنه الرجل الذي حكم الشيشان من خلال الانتقال السلمي من الشيوعية السوفياتية. ولكن في سنواته الأخيرة في الحكم قد أصبح ينظر إليه من خلال معاصريه على أنه زعيم تعوقه الآلام الصحية: والشرب الذي كان في أمسِّ الحاجة إلى التخلي عنه. وإن درجة الانفتاح حول الظروف الطبية ليلتسن، التي أصبحت معقَّدة بشكل كبير في علاجها كانت استثنائية، بنسبة إلى أسلوب السرية التاريخي لقصر الكرملين.

ترك حادث الهبوط في إسبانيا أيار/ مايو1990م، قبل وصول يلتسن إلى السلطة، يعاني من ألم في إحدى رجليه والذي جعله يسير ببطء بعد ذلك، كما عانى من ألم في أسفل الظهر ونقص التروية[2] واختناق صدري، مما أدَّى إلى أزمة قلبية. على الرغم من أن صحة يلتسن قد أصبحت مهددة بالفعل في حكم روسيا الاتحادية في عام 1994م وذلك عندما وجد أن النتروغلسرين، الذي تعامل معه كنوع من العلاج الأولي لتخفيف الألم الكامن في قلبه، لم يعد فعالًا. فبدأ بالاعتماد أكثر وأكثر على الكحوليات ومثبطات الآلام. وبدا أيضًا بأنه يحدُّ من دائرته الداخلية سياسيًا، ويفقد انفتاحه الجذاب في السنوات الأولى.

كان من الواضح أن يلتسن كان ثملًا جدًا في برلين في 31 آب/ أغسطس عام 1994م أثناء الاحتفال بالعيد الأول لرحيل آخر القوات الروسية، حيث انتزع العصا من يد قائد الأوركسترا وقاد موسيقيي الشرطة الألمانية بنفسه قبل غناء أغنية روسية شعبية. وبعد مرور شهر وفي مطار شانون، عجز عن النزول من الطائرة، على الرغم من أن مجلس الوزراء

(1) John Lewis Gaddis, **The Cold War** (London: Allen Lane, 2006), pp. 243 - 246.

(2) يمكن اعتبار نقص التروية اسمًا آخرًا للذبحة، التي تنتج عن تغيرات في عضلات القلب بسبب نقص إمداد الدم، قد يشعر المريض بالألم، لكنه ليس حادًا كما في الذبحة.

الأيرلندي بأكمله كان يقف على أعتاب السلالم في استقباله. كما ذاع بشكل واسع أنه غرق في سبات عميق من السكر بعد الإفراط في الشرب عند رحلة العودة من اجتماع القمة مع الرئيس الأميركي بيل كلينتون، قال يلتسن: إن مساعديه لم يرغبوا في إيقاظه، إلا أنه قيل أيضًا بأنه تعرض لأزمة قلبية حادة أثناء رحلة العودة تلك إلى موسكو. وعمومًا فإنه من الأفضل الإبقاء على شائعات السكر، على أن ينتشر خبر إصابته بأزمة قلبية. ففي الواقع فإن يلتسن عانى من خمس أزمات قلبية في مكتبه، وهذا ما كُشف عنه عام 2004م، حيث كانت اثنتين منهما في تموز/ يوليو وتشرين الأول/ أكتوبر1995م وقد كانتا حادَّتين جدًا. اتضح بحلول كانون الثاني/ يناير عام 1996م في الاستفتاء الجمهوري أن ما يقرب من 10% فقط من الشعب الروسي سوف يصوتون لصالح يلتسن في الانتخابات الرئاسية، والتي ستقام في السادس عشر من حزيران/ يونيو.

ولذا كان فوز يلتسن في انتخابات عام 1996 مفاجئًا، إلا أنه تمكن من ذلك عبر رفعه قيمة المبالغ المالية المستحقة لمستقبل حكم القلة عن طريق «قروض المساهمين». مما جعل الديمقراطيات الغربية تغض الطرف عن الفساد الاقتصادي للعملية الديمقراطية، مما شجع يلتسن أن يستغل بشكل واضح الحملة الإعلامية الباذخة. أقرّ يلتسن لائحة تسمح للأصول التجارية المملوكة من الدولة أن تباع ليس للمواطنين من خلال نظام السندات، والتي قدمها كل من رئيس الوزراء يوغور غايدار ووكلائه، وأنطوني كوبياس من أجل سياسة الخصخصة السريعة، ولكن من خلال الصفقات، والتي نظمت لصالح البنوك الكبرى التي قدمت قروضًا هائلة للحكومة، ونتيجة لذلك حصلت مجموعات التعاملات الصناعية النقدية على بعض من أكبر شركات الطاقة والتعدين في العالم بأسعار التصفية»[1].

استطاع يلتسن أن يقنع الشعب الروسي على التصويت لصالحه عن طريق التلميح إلى أن الرئيس البديل سيكون الشيوعي جيندي زيجنوف. ففي أحد خطابات حملته المضادة في الخامس عشر من شباط/ فبراير في يكترنبرج حذر يلتسن الشعب الروسي من العودة إلى الماضي. كان صوته أجشًا ويعاني من السعال عندما اقتبس كلمات سلوزينستن الشهيرة عن «الدمار تحت وطأة العجلة الحمراء» في موسكو، تستحضر كل هذه الحيل المثل القديم:

---

(1) Strobe Talbott, **The Russia Hand: A Memoir of Presidential Diplomacy** (New York: Random House, 2002), p. 206.

«إنك لا تستطيع أن تفقد الموهبة بشكل كامل مهما أكثرت الشراب»[1]. خفض يلتسن من الشرب أثناء الحملة، وحاول أيضًا تلقي العلاج الطبي، فقد كانت تلك هي أداته التي استخدمها كسياسي من أجل أن يستعيد إرادته في الفوز والتي صنعت الفرق الحاسم. لعل بعضًا من تلك الممارسات غير الطبيعية ساعدت الأطباء على أن يكتشفوا أن يلتسن يعاني من اختناق تنفسي، ونوم اعتراضي، فأعطوه جرعات من الأوكسجين في الليل، مما أدَّى إلى نوم طبيعي، وإزالة حالة الاكتئاب والطاقة المتزايدة بشكل كبير في اليوم. فالجميع على يقين بأنه كان ينام بشكل سيئ ثم تحسَّن بعد ذلك.

فاز يلتسن في الجولة الأولى أمام ريوجناف ولكنه لم يحصل على 50%، وأما الجنرال ألكسندر ليبيد الذي حصل على المركز الثالث، فقد قبل أن يكون متعاونًا مع يلتسن وفريقه وذلك قبل الانسحاب. ومع أن هناك أزمة قلبية أخرى قد تعرض لها على شكل آلام في الصدر، تبعتها حالة من الهبوط أصابت يلتسن للمرة الثانية، إلا أنه وفي الثالث من تموز/ يوليو استطاع أن يهزم زيجنوف بصعوبة بهامش 15%. ورغم ذلك فإنه في ظهوره الأول في التاسع من آب/ أغسطس لم يستطع يلستن المشي إلا بصعوبة، وكان يتلعثم في الخطاب ومريضًا بشكل جلي.

وفي أيلول/ سبتمبر1996م أُعلن أن يلتسن سوف يخضع لعملية القلب المفتوح وأن الرئيس كلينتون قد رتَّب أن تجرى له العملية على أيدي الطبيب مايكل ديباكري في هيوستن. اتضح أنه يعاني من قصور في الغدة الدرقية، والتي كان من المحتمل أنها ساهمت في مرض الشريان التاجي، وسبب انتفاخ وجهه، وكذلك وراء عجز جسمه عن أن يقوم بعملية الأيض للكحول المفرطة. أوصى ديباكري بتأجيل العملية ورفع درجة الاستعداد ولذا لم تُجرى إلا في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر ـ ولمدة سبع ساعات بفتح مجرى جانبي للشريان التاجي. قال المستشار الألماني هيلموت كول للأميركيين: بأن هناك اثنين من الأطباء الألمان الذي شاركوا بإجراء هذه العملية، يعتقدون بأن يلتسن لن يستطيع الاستمرار حتى الانتخابات الرئاسية في عام 2000م.

تخلى عن الحكم في 31 كانون الأول/ ديسمبر 1999م ليتولى فلاديمير بوتين ويفوز في انتخابات ربيع العام التالي. لم يبقَ يلتسن على قيد الحياة فحسب، بل أنه انزوى من

(1) Leon Aron, Yeltsin: **A Revolutionary** Life (New York: St Martin's Press, 2000), p. 590.

أجل أن يستمتع بالاستقالة الهادئة، مراقبًا كيف فاز بوتين في الانتخابات للمرة الثانية بفارق هائل في عام 2004م من خلال التأييد الشعبي الكبير. كان يلتسن أول رئيس روسي يدفن طبقًا لطقوس المذهب الأرثوذكسي منذ مئة عام، حيث توفي جرّاء أزمة قلبية في الثالث والعشرين من نيسان/ أبريل عام 2007م عن عمر يناهز السادسة والسبعين.

سجل ناقدو يلتسن إشارات عن حروبه في الشيشان، والدماء التي لطّخت يديه والتي تبعتها أوامره بقذف واكتساح البيت الأبيض في موسكو في عام 1993م، وذلك عندما حاول عدد من الأعضاء البرلمانيين المناهضين للإصلاح أن يقيموا انقلابًا. حمّله هؤلاء النُّقّاد مسؤولية تسليمه أموال الدولة للقلة الحاكمة. ولكن دفاعًا عن يلتسن، كان الوحيد على رأس القائمة في آب/ أغسطس 1991م، الذي توقف عن أي إشارة إلى تقدير وتبجيل الشيوعية والعودة إليها. حيث قدم المزيد من الحرية، والخيارات والإصلاحات السوقية والتي حسّنت من مستوى معيشة الكثير من الروس بحلول عام 2008م. كما جازى الرئيس كلينتون بسخاء لدوره الثابت والصبور عبر دوره المهم في المحادثات الدبلوماسية الروسية الأميركية في عام 1999م والتي أنهت الحرب في كوسوفو بنهاية دبلوماسية، دون أن يلعب الأميركيون أو حلف الناتو دورًا في إنزال فرق عسكرية. وفي المجمل توجد احتمالية أنه بعد نهاية الربع الأول من القرن الواحد والعشرين، بأن تنشئ روسيا ديمقراطية مستقرة بعد الثورة السلمية على الشيوعية السوفياتية، والتي أدارها يلتسن. والتي اتجهت إلى مرحلة حتمية في عهد فلاديمير بوتين من الضوابط المركزية والديمقراطية الناجحة. وبأمل أكبر، رغم أن لا أحد يمكنه البت في ذلك، ستظل روسيا ملتزمة بالديمقراطية. ولو أنه كذلك، فسواء كان يلتسن سليمًا أم مريضًا، يقظًا أم ثملًا؛ يستحق التقدير العظيم من المؤرخين.

جورج بوش الأب

تولى جورج بوش الأب (السيناتور جورج بوش) رئاسة الولايات المتحدة في عام 1988م وذلك بعد ثماني سنوات من كونه نائبًا للرئيس رونالد ريغان. في أيار/ مايو 1991م، أصيب باختناق أثناء التنفس، وبدت تظهر عليه علامات الإعياء بشكل غير مألوف أثناء سيره، مما جعله يدخل المستشفى ويعلن على الملأ أنه قد خضع لفحص تشخيصي، وأنه

يعاني من انقباض عضلي، مما تأكد لاحقًا بأنه من نشاط مفرط في الغدة الدرقية[1]. لقد استطاع الاستمرار كرئيس للولايات المتحدة، رغم أنه بدا أن هناك تراجعًا في قدراته.

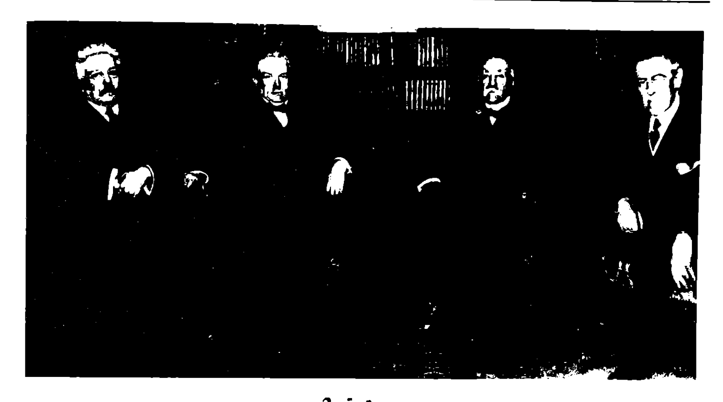
وبدأ التأييد الكبير الذي لقيه بعد حرب الخليج بالخفوت، في الوقت ذاته الذي بدأت فيه الحروب في يوغسلافيا السابقة تشتعل في صيف 1991م، والتي امتازت بتطهير عرقي بشع متوحش. كما بدا الناس يتساءلون عما إذا كان يجب أن يطاح بصدام حسين أم لا؟ خصوصًا وقد كشفت هجوماته على الأكراد استهتاره بشروط وقف إطلاق النار الصادرة عن الأمم المتحدة. وفي إحدى المناظرات التلفزيونية الباهتة للانتخابات في تشرين الثاني/ نوفمبر 1992م انهزم الرئيس بوش أمام بيل كلينتون، وبدا في لحظات ينظر الى ساعته كمن يشعر بالضيق، وبالتالي فبدا بمظهر من خانه النشاط والانتباه إلى التفاصيل مثلما كان عليه الحال أيام حرب الخليج، مما جعل البعض يرى في ذلك أثرًا لإصابته بالتسمم الدرقِيّ.

في المقابل لم يكن الرئيس كلينتون يعاني من أمراض كبيرة، وبالرغم من أن البيت الأبيض بدا متقبلًا في بداية القرن الواحد والعشرين - إثر مرحلة الانفتاح التي دشنها بوش - مسألة الإقرار بالحقيقة لحالة الرؤساء الصحية، فإنه لم يفعل ذلك حين كان الأمر يخصه، وسنرى في الفصل السابع كيف أنه لا طوني بلير ولا جورج بوش الأب كانا مستعدين لأن يكونا نزيهين مع ناخبيهما في مسألة حالتهما الصحية.

(1) يظهر فرط الغدة الدرقية أو التسمم الدرقي عن طريق تحاليل الدم التي تظهر كميات بالغة من هرمون الدرقية، الذي يعتبر مادة تحتوي على اليود تُركّب وتُفرز عن طريق الغدة الدرقية. يتحكم هرمون الدرقية بمعدل الاستقلاب الأساسي (BMR) للجسم، وعندما يفرز بكميات بالغة كما في حالة فرط الدرقية، فإن معدل الاستقلاب يزداد. تعتبر أعراض فرط الدرقية عديدة ومختلفة: تسارع في ضربات القلب، نقصان الوزن، انفعال الأعصاب، التعرق، الارتعاش، القلق، الشهية المفتوحة، الشعور بالضيق من الحرارة بسبب العوامل الخارجية، وذلك لأن الجسم ينتج حرارة داخلية. ومن الأعراض الأخرى والتي تعتبر أشد خطورة، ضربات القلب تكون غير طبيعية، ورجفان أذيني في بعض الحالات. ويشعر المريض بالوهن بشكل تدريجي ويلاحظ تطورات ملحوظة في صحته عندما يعالج. وفي حالة بوش، أعطي اليود المشع للعلاج بما يتناسب مع عمره، حيث يصرف هذا العلاج عندما يكون سن المريض فوق الخامسة والثلاثين. الهدف من العلاج هو القضاء على جزء من الغدة الدرقية، وترك جزء منها ليبقى سليمًا لينتج هرمون الدرقي بشكل متزن وبكميات أقل. لو عولج المريض بالطريقة الصحيحة فهذا يعني أنه لن يكون بحاجة إلى علاج بديل. ولو احتاج إلى العلاج، فإنه يعطى على شكل أقراص ثيروكسين لما يتبقى من حياته.



صورة رقم 1
ثيودر روزفلت في محاولة غير ناجحة لولاية ثالثة كمرشح ثالث عام 1912م



صورة رقم 2
الرئيس وودرو ويلسون في آذار/ مارس 1919م في باريس خلال مفاوضات السلام بعد الحرب
من اليسار إلى اليمين: رئيس الوزراء الإيطالي فيتوريو إيمانويل أورلاندو، رئيس الوزراء البريطاني
ديفيد لويد جورج، رئيس الوزراء الفرنسي جورج كليمنصو



صورة رقم 3
ونستون تشرشل لحظة وصوله إلى البيت الأبيض في 22 كانون الأول/ ديسمبر 1941م،
بعد أن أمضى أيامًا
في عرض البحر على سفينة HMS ـ دوق يورق،
تليها رحلة ليلية من هامبتون طريق بوابة فرجينيا، إلى المحطة
الجوية البحرية أناكوستيا، بعد مرور أربعة أيام أصيب تشرشل بنوبة قلبية خفيفة



صورة رقم 4
تشرشل في يوم عيد الميلاد 1943م في تونس
وكان قد تعافي بما يكفي من الالتهاب الرئوي له، ليتناول الغداء مع دوايت أيزنهاور



صورة رقم 5
الرئيس فرانكلين رورفلت في صورة نادرة له في كرسي متحرك شباط/ فبراير 1941م
الطفلة هي ابنة سائق السيارة الشخصي لروزفلت في الريف



صورة رقم 6
يالطا، شباط/ فبراير إلى جانب تشرشل روزفلت وستالين،
وخلفهم وزراء خارجيتهم أنطوني إيدن، إدوارد ستيتينوس، وفياتشيسلاف مولوتوف



صورة رقم 7
أدولف هتلر في بوتسدام 21 آذار/ مارس 1933م يصافح رئيس الرايخ باول فون هيندبورغ



صورة رقم 8
هتلر: الصورة في بيرغوف في عام 1944م



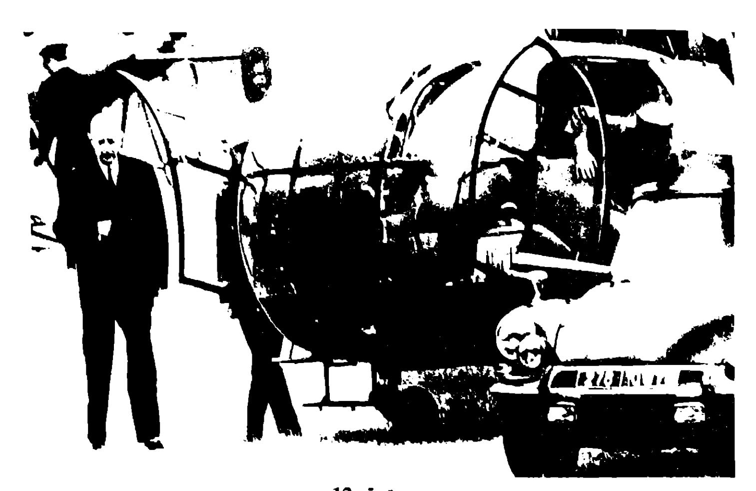
صورة رقم 9
جثة بينيتو موسوليني وعشيقته كلارا بيتاشي معقلتان رأسًا على عقب في لوريتو ساحة ميلان



صورة رقم 10
الرئيس دوايت أيزنهاور مع علامة
المزيد من الشكر على قميصه



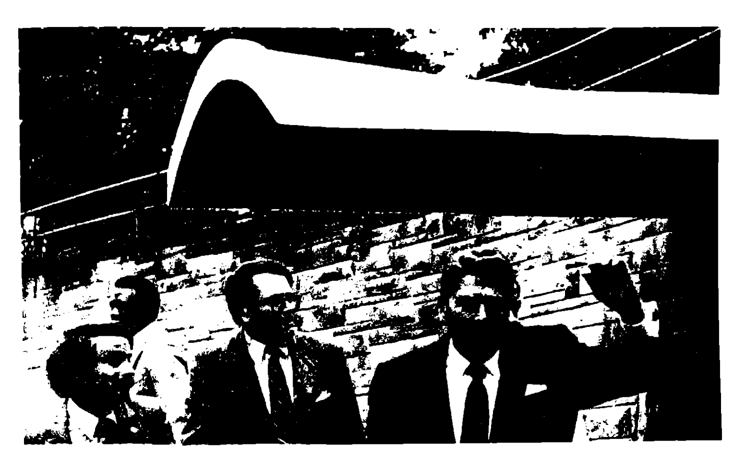
صورة رقم 11
الرئيس ليندون جونسون رافعًا قميصه للجنة
العليا للانتخابات. وذلك بعد فترة وجيزة من
عملية، كان يعاني من اكتئاب حادٍّ وأراد أن
يستقيل



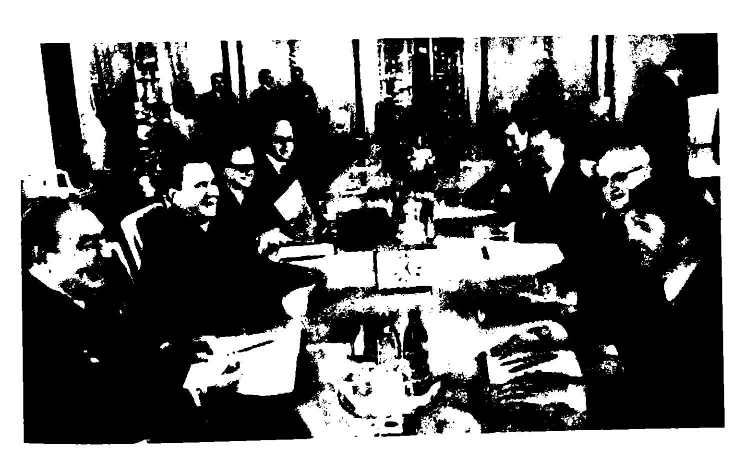
صورة رقم 12
الرئيس شارل ديغول عائدًا مكتئبًا
وقد ضل طريقه من بادن ـ بادن في 29 أيار/ مايو 1962م بعد أن زار الجنرال جاك ماسو



صورة رقم 13
ماو تسي تونغ مرحبًا بالرئيس ريتشار نيكسون. شباط/ فبراير بكين 1972م
وكان ماو مصابًا بمرض خطير قبل أسابيع قليلة من اللقاء

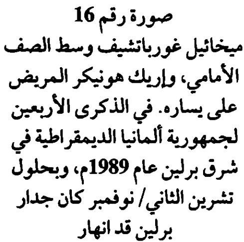


صورة رقم 14
الرئيس رونالد ريغان يرفع يده بعد محاولة اغتيال في 30 آذار/ مارس 1981م



صورة رقم 15
المؤلف في الجانب الأيمن من الطاولة، القريب من الصورة،
مع ليونيد بريجنيف وأندريه غروميكو في تشرين الأول/ أكتوبر 1977م





صورة رقم 16
ميخائيل غورباتشيف وسط الصف الأمامي، وإريك هونيكر المريض على يساره. في الذكرى الأربعين لجمهورية ألمانيا الديمقراطية في شرق برلين عام 1989م، وبحلول تشرين الثاني/ نوفمبر كان جدار برلين قد انهار



صورة رقم 17
الرئيس بوريس يلتسن في روستوف، 10 حزيران/ يونيو
وحركة ملحوظة من النشاط والطاقة من رجل يعالج من توقف التنفس أثناء النوم
وقبل خمسة أشهر من عملية جراحية ناجحة في القلب



صورة رقم 18
أنطوني إيدن في لقاء وحيد مع جمال عبد الناصر،
القاهرة عام 1955م، وخلف الكياسة يكمن هناك قلق عميق

جاك شيراك

أما في فرنسا فبالرغم من مغادرة فرانسوا مكتبه منذ عشر سنوات، فإن الدروس من التورية الطبية لم تستوعب، ففي يوم الجمعة 2 أيلول/ سبتمبر 2005م، وبعد يوم شاق من الاجتماعات شعر الرئيس جاك شيراك بصداع شديد وبمشاكل في الرؤية، مما استوجب من الإليزيه استدعاء طبيبه الخاص، ثم إدخاله مستشفى فال دو غراس العسكري في تلك الليلة، غير أنه لم يتم كشف أمر هذه الحادثة إلا صبيحة اليوم التالي للعموم، عندما أصدر أحد الأطباء بيانًا بذلك يشير فيه إلى حَادِث وِعائي تسبب في اضطراب في الرؤية، غير إنه لم يوضِّح ما إذا كان المشكل يتصل في الأساس بالدماغ أو بالعين، وهو ما سمح بظهور شائعات إصابة جاك شيراك بجلطة دماغية. لم تصدر أية معلومات إضافية سوى ما صرَّح به الوزير الأول دومينيك دو فيلبان من أن الرئيس بصحة جيدة، وقد مارس رياضة المشي صبيحة يوم السبت. غير أن ذلك لم يمنع تواصل الأخذ والرد، بل إن بعض السياسيين المنتمين إلى حزب شيراك نفسه قد انتقدوا قلة الشفافية وغياب بيان طبي رسمي للعموم، وما لبثت الصحافة أن عبَّرت عن الاستنكار بدورها حينما بلغ إلى علمها أن رئيس الوزراء نفسه لم يكن على علم بدخول الرئيس إلى المستشفى ليلة الجمعة. كان هذا السلوك منافيًا لما وعد به شيراك سنة 1995م من الشفافية بصدد أي حادث طبي قد يصيبه إذا ما تولى الرئاسة، وذلك بعيد التعتيم الذي مارسه ميتران. وقد تحدثت جريدة: «لوموند الفرنسية» بسخط عن الحادثة وكتبت ما نصه: «نحن نمارس في فرنسا طقوس السرية، كما كان يفعل الكرملين زمن الاتحاد السوفياتي السابق المعتدِّ بنفسه».

وفي التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير/ 2007م ناقض الرئيس شيراك في إحدى الحوارات التي أدلى بها إلى مجلة: «ويكلي مغازين» و«نوفال أوبسرفاتور» و«النيويورك تايمز» و«الانترناشيونال هيرالد تريبيون» كل السياسة الفرنسية السابقة من خلال الإيحاء بأن إيران النووية لا تمثل خطرًا كبيرًا. وفي اليوم التالي اُستدعي الصحفيون نفسهم إلى الإليزيه ليعتذر لهم شيراك عن خطأ ارتكبه في اليوم السابق قائلًا: «إنني المخطئ ولا أريد الإقرار عليه» كما سحب ما قاله من أن القدس ستمحى إذا ما أطلقت إيران سلاحًا نوويًا، زاعمًا أنه يمكن لعدد من دول العالم الثالث اعتراض صاروخ إيراني من الوصول إلى إسرائيل. إن الجديد في الأمر هو أن تقليد الصحافة الفرنسي القديم والذي يسمح للإليزيه أن يعدَّ نسخة مكتوبة رسمية لحوار الرئيس تحذف منها كل الأجوبة غير المناسبة، قد تعرَّض

لتحدٍّ كبير، وقام الصحفيون بالإشارة صراحة إلى حالة الرئيس الصحية في عدد يوم الخميس غرة شباط/ فبراير من جريدة: «الإنترناشيونال هيرالد تريبون» فقالوا:

«بدا الرئيس في الحوار الأول غير قادر على التركيز ويخلط بين الأسماء والتواريخ معتمدًا على مستشاريه لنجدته، وكانت يداه ترتعشان قليلًا، وعندما تكلم عن التغييرات المناخية كان يقرأ من نص وضعت فيه نقاط الحديث مكتوبة بالخط العريض، وبعضها وقع تسطيره باللون الأصفر أو الوردي. وعلى النقيض من ذلك كان في الحوار الثاني الذي بدأ بعد الغداء واثقًا من نفسه، ومرتاحًا جدًّا فيما يتعلق بموضوع الحوار».

غير أن هذا لم يمنع إدارة الرئيس من إبداء امتعاضها من نشر تعليقاته وآرائه، معتبرة ذلك «حملة معيبة» بمشاركة الإعلام الأميركي «مستخدمة ذلك ذريعة من أجل النيل من فرنسا».

صار من الواضح أن الغموض الذي رافق هذه الحادثة هو ما جعل الرئيس البالغ من العمر 74 عامًا يدرك أنه لا يمتلك شرط الترشح لمدة رئاسية ثالثة في أيار/ مايو 2007م، وأن المحاولة اليائسة لإبقاء هذا الخيار مفتوحًا ألغيت نهائيًّا في 11 آذار/ مارس عندما خاطب الشعب الفرنسي عبر التلفاز قائلًا: «إنه لا يسعى إلى ولاية جديدة»، والحقيقة أنه مرة أخرى سعى رئيس حكومة إلى التمسك بالسلطة وقد بلغ سنًّا متقدمة، ورفض أن يواجه حقيقة الشيخوخة، خصوصًا بعدما خسر الاستفتاء الذي دعا إليه حول الدستور الجديد للاتحاد الأوروبي سنة 2005م. ومن جهة المصداقية، فقد كان شيراك أول رئيس فرنسي يقر بمسؤولية فرنسا في ترحيل اليهود أيام الاحتلال الألماني خلال الحرب العالمية الثانية، كما يحسب له أنه أبقى فرنسا بمنأى عن الفشل الذريع في المستنقع العراقي منذ سنة 2003م.

أرييل شارون

يعتبر رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون آخر رؤساء الحكومات ممن أصيب بمرض خطير في الفترة الممتدة بين سنوات (1901 ـ 2007م)، حيث أصيب بجلطة دماغية في مكتبه مما تسبب له في ارتباك بسيط، دون أن يؤدي إلى غياب كلي عن الوعي حين كان في السابعة والسبعين من العمر في 18 كانون الأول/ ديسمبر 2005م. لقد حدث ذلك في فترة عصيبة من الناحية السياسية، إذ ترك شارون الليكود ليؤسس حزبًا جديدًا هو حزب كاديما، قرر أن يخوض به غمار الانتخابات العامة المقرزة في فترة متقدمة من سنة 2006م. كان من الجلي ومنذ أول جلطة عُلم بها أن المبالغة في حجب الأسرار سيزيد قلق الجمهور

الإسرائيلي، وبالتالي كُشف عن بعض المعلومات الطبية أثناء إجرائه للفحوصات. ويشار إلى أنه قبل يومين فقط ذكر اثنان من أطبائه الخاصين في إحدى المجلات الأكثر ذيوعًا يديعوت أحرونوت أن :«شارون بخير وبصحة جيدة» وأن الفحوص الطبية الدورية لم تظهر أي شيء غير طبيعي، ما عدا بعض زيادة في الوزن.

وبالرغم من هذا التقرير المتفائل، فإن كل المقربين من شارون كانوا يعلمون أنه منذ سنة على الأقل ظهرت عليه علامات من الإجهاد والتدهور الجسدي، فقد كان يمشي بصعوبة وكان يلهث ويتنفس بصعوبة، وكان مستشاروه ينصحونه بعدم صعود الدرج، ويحسبون عدد الخطوات التي يجب أن يخطوها بين قاعات المحاضرات. كان شارون معتادًا على استعمال المصعد الصغير في مقر عمله، حيث أن مجرد المشي إلى مكتبه لمواجهة كاميرات التلفزة كان يعتبر بمثابة الجهد الكبير، صار يتجنب الخوض في التفاصيل، ويتشبث بنقاط كلمته المكتوبة، بالرغم من أن قدرته الذهنية سليمة بحسب مساعديه[1].

وفي أثناء حوار أجراه صحفيان من جريدة هآرتس في شهر نيسان/ أبريل 2005م مع شارون سألاه عن حالته الصحية، أجاب على الفور: «إنني أدعوكما إلى النظر في التقرير الطبي الذي يخصني، وهو ما قد يتسبب في تأثير سيئ على صحة الآخرين» غير أنه فوجئ بالصحفيين يطلبان منه الاطّلاع على التقرير، مما دفعه إلى الإجابة بقوله: إن هذا الطلب مناسب لي جدًا قائلًا: «إنني لا أعرف حقيقة كيف يمكن تحقيق ذلك». غير أن الصحفيين ظلّا على إصرارهما، مما دفع شارون إلى التحرك في كرسيه ملتفتًا إلى الناطق الرسمي لحكومته سائلًا اياه: «كيف يمكننا فعل ذلك؟ هل هناك إجراءات معينة لفعل هذا» فأجابه: «سنتثبت من ذلك بكل تأكيد».

وفي محاولة منه لتجنب أي إحراج، أشار شارون بالقول: «إنني أرغب في ذلك، لكن هذا ليس أمرًا معتادًا تحقيقه في مثل هذا المكان، ويمكننا تقديم طلب في ذلك ربما» وبذلك وضع حدًّا للحوار. وأضاف الصحفيان بعد ذلك: «انتهى الأمر عند هذا الحد ولم توجد أية إجراءات تتعلق بما سبق، غير أن الملف الطبي قد كُشف عنه جزئيًا بعد جلطة شارون الأولى عندما حاول المقربون منه إظهار صحته الجيدة، وقدرته على تسيير الأمور وإمكان إعادة انتخابه من جديد» إن هذه الإجابة الدفاعية هي ما اعتاد السياسيون حول العالم اعتمادها منذ سنوات، والاكتفاء بها.

---

(1) Aluf Benn, **Haaretz**, 5 January 2007.

تبين الكشف الأول الذي تم في كانون الأول/ ديسمبر 2005م أن شارون مصاب بثقب صغير شاذ في جدار القلب، وهو عبارة عن عيب في الحَاجِزِ الأُذَيْنِي بحسب الاصطلاح الطبي، وهو تشوه خُلُقي حاصل منذ الولادة. وقد أرجع أمر هذه الجلطة إلى وجود جلْطة دموية داخل هذا الثقب أو حوله تداخلت مع الدم المتدفق إلى المخ، كان القرار الطبي في مثل حالته هو تركه يتعافى، ثم القيام لاحقًا بعملية جراحية لسدِّ هذا الثقب من خلال استعمال جهاز يتمّ إدخاله عبر المريء، تحت تخدير موضعي.

لكن وفقًا لجريدة: «نيويورك تايمز» لشهر كانون الثاني/ يناير 2006م فإنه أثناء إقامته القصيرة في المستشفى، شخّص الأطباء أنه يعاني أيضًا من اعْتِلال وِعَائِيّ نشَوانِي دمَاغِي وما يعرف أيضًا بالاحتشاء الدماغي، وهو حالة شائعة نسبيًّا عند المتقدمين في السن، تتعلق بضعف في الشعيرات الدموية داخل الدماغ، وكانت المعضلة الطبية تتمثل في الاختيار بين إعطاء أدوية مسيلة للدم لمنع تخثر الدم من جديد، وبالتالي القبول بمخاطرة نزف الشرايين الضعيفة في الدماغ. كما قيل للجنرال المتقاعد الذي كان طوله مترًا وسبعين سنتمتر ووزنه 118 كيلوغرامًا بأن عليه خسران حوالي خمسة وأربعين كيلوغرامًا قبل خضوعه لعملية في القلب.

بيد أن شارون عانى قبل وقوع هذه العملية من مضاعفات معروفة ومتوقعة للعلاج الذي خضع له، فقد أصيب بنزيف حاد في الدماغ، مما أدّى إلى خضوعه لعمليتين جراحيتين من أجل إزالة الدم المتجلط، والتخفيف من الضغط الواقع على الدماغ، ومن ثم أدخل طبيًّا في غيبوبة اصطناعية، وقد كان لا يزال على قيد الحياة في نهاية 2007م. ومن المحتمل أنه لو لم يعالج بمضادات التخثر في البداية، لتحسنت حالته وتعافى. ومن المعلوم بالضرورة أن المرض العلاجي المنشأ الذي يتسبب فيه الأطباء هو أحد الأصناف الواسعة من الأمراض. تولى نائب شارون إيهود أولمرت رئاسة الحكومة وقيادة البلاد بالنيابة، وتمكن هو وحزبه الجديد كاديما من الفوز بقسط واسع من الأصوات في الانتخابات العامة التي تمت في 29 آذار/ مارس 2006م، ليكوِّن بعيدها حكومة تحالف تولى هو رئاستها. ويحسب لأولمرت أنه أعلن يوم 29 تشرين الأول/ أكتوبر 2007م، بأنه أُخبر قبل عدة أيام بإصابته بسرطان البروستاتا في مراحله الجنينية، وهو ما يتطلب جراحة صغيرة لمعالجة هذا النمو الميكروسكوبي الذي ينتشر، لقد زاول عمله بعدها دون الحاجة لعلاج كيمائي أو إشعاعي.

في الحقيقة، لم يكن شارون أول رئيس حكومة مرض أثناء توليه رئاسة الحكومة، فقد سبقه ليفي أشكول وغولدا مائير ومناحيم بيغين، الذي بعد توقيعه اتفاقيات كامب ديفيد سنة 1979م أصيب بالاكتئاب الشديد، عجَّل من حدوثه في جزء منه تلك الاتهامات التي ألقيت جزافًا ودون حق بموافقته إرجاع كل هكتار من أرض سيناء إلى المصريين، ثم غرق أكثر في الانهيار العصبي بعيد وفاة زوجته سنة 1982م. وفي 1983م شمله تقرير حاد الانتقاد له ولشارون، الذي كان آنذاك وزيرًا للدفاع، لأنه لم يقم بما يجب ليمنع مجزرة مخيمات صبرا وشاتيلا في لبنان. ويبدو أن بيغين استقال في آب/ أغسطس من تلك السنة حين أصبح انهياره العصبي مرضًا يمنعه من مواصلة مهامه، وظل بقية عمره متوحدًا يعيش حياة حزينة حتى وفاته.

إن إسرائيل بحكوماتها الائتلافية ووجودها دومًا تحت التهديد العسكري، تحتاج من بين كل الدول إلى رئيس حكومة قادر على العمل بأقصى قدراته. فرئيس الحكومة الإسرائيلي يواجه يوميًّا قرارات يومية تؤثر على أمن الشعب الإسرائيلي، وهي قرارات غالبًا ما تتخذ بالرجوع إلى مجلس الوزراء، إلا أنها في كثير من الأحيان تحتاج إلى أن تتخذ في دقائق، وهو وحده من يتحمل وزر نتائجها السياسية أو انعدامها. وبالتالي فليس من المفاجئ أن يكون أي تساؤل حول الحالة الصحية لرئيس الوزراء ينتشر بسرعة بين الجمهور الواسع، فمما يراد في إسرائيل وفي غيرها من البلدان هو وجود قواعد ملزمة لتقييمات طبية مستقلة، وأحكام صارمة تسمح بإقالة رئيس الوزراء عندما يصبح من المتعذر عليه أداء مهامه وواجباته[1].

(1) (انظر: الفصل الثامن).

الجزء الثاني

السجلات الطبية للحالة المرضية



الفصل الثالث

مرض رئيس الوزراء إيدن وأزمة السويس

لن أفعل ذلك أبدًا إذا كان يتعارض مع الأميركيين،
وإذا ما بدأت فلن يتجرأ أحد على إيقافي

ونستون تشرشل 1956م [1]

كانت حياة أنطوني إيدن السياسية لامعة. انتخب عضوًا في مجلس العموم البريطاني في السادسة والعشرين من عمره، ثم أصبح في عام 1935م، عندما بلغ الثامنة والثلاثين، أصغر وزير خارجية في القرن العشرين[*]، واستقال في 20 فبراير 1938م بسبب رفض نيفيل شيمبرلين رئيس وزرائه مبادرة الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت حول أوروبا إلا أنه سرعان ما عاد لتولي منصب وزير مكلف بالدفاع في حكومة وينستون تشرشل في عام 1940م، قبل أن يتولى منصب وزير الخارجية مرة أخرى في عام 1941م عندما عُيِّن لورد هاليفاكس، الذي لم يكن يحظى بثقة تشرشل، سفيرًا لدى واشنطن. ولما خسر تشرشل الانتخابات العامة في عام 1945م، أصبح إيدن نائبًا لزعيم حزب المحافظين المعارض، وعاد لإدارة وزارة الخارجية عندما فاز المحافظون على حزب العمال في الانتخابات العامة في عام 1951م. معنى هذا أن الرجل قضى أكثر من عشر سنوات كوزير للخارجية.

وكان إيدن أنيقًا ووسيمًا، حتى أنه دائمًا ما كان يثير إعجاب الكثير من النساء في حزب المحافظين. وكان يحظى بشعبية في أوساط الحزب. ومن باب أولى وأحرى ووفقًا لمعايير الإنصاف، كان على تشرشل، الذي كان يعاني من مخلفات تعرضه مرتين لجلطة قلبية، في

(1) Quoted in Anthony Montague Browne, **Long Sunset: Memoirs of Winston Churchill's Last Private Secretary** (London: Cassel, 1995), p.213.

(*) تولى سعود الفيصل وزارة الخارجية وعمره 35 سنة، كما أن عبد الله بن زايد تولى وزارة الخارجية وعمره 33 سنة.

عام 1949م، كان عليه التقاعد ومنح الفرصة لأنطوني إيدن لقيادة الحملة الانتخابية كزعيم للحزب، لكنه صمد واستمر في عمله في الحزب. فشعر إيدن بالإحباط جراء الانتظار المتواصل لمغادرة الزعيم المسن للساحة التي قد تأتي بين الفينة والأخرى، وقد أرَّقه ذلك كثيرًا وساهم في توتره ونوبات غضبه التي كثيرًا ما كانت تظهر عليه في حياته الخاصة وحول سفاسف الأمور أكثر منها حول المسائل الجدية. وقد أثر ذلك على شخصيته الجذابة والودودة في مناسبات عديدة.

ومن سوء حظ ليس أنطوني إيدن فقط، بل الدبلوماسية الدولية في الأعوام اللاحقة، أن عملية جراحية روتينية عادية أجريت لوزير الخارجية في مصحة لندن لاستئصال المرارة لم تنجح[1]. وقد أجريت تلك العملية الجراحية بتوصية من السير هوراس إيفانز Horace Evans طبيب إيدن بسبب معاناته في مرات سابقة من بعض الآلام في البطن بسبب اليرقان والحصوات. واقترح إيفانز على إيدن ثلاثة جراحين مشهود لهم بالخبرة في جراحة السبيل الصفراوي. غير أن إيدن رفضهم جميعًا، واختار بدلًا منهم جون هيوم الجراح العام البالغ من العمر 60 عامًا. لأن هذا الأخير حسب إيدن «استأصل له الزائدة الدودية في شبابه»[2].

لقد كان هيوم مضطربًا جدًا، حتى أن العملية الجراحية الأولى تأجلت لما يقرب من الساعة عسى أن تهدأ أعصابه، وعلى إثر تلك العملية الجراحية وملابساتها، شعر هيوم أنه لن يستطيع قيادة طاقمه الطبي في العملية الجراحية الثانية. فتولى الإشراف على الطاقم بدلًا منه غاي بلاكبيرن مساعده في العملية الأولى. وقد كانت هذه العملية الجراحية «أكثر توترًا من الأولى، حتى أن إيدن كاد أن يلفظ أنفاسه أثناء العملية الجراحية التي طالت مدتها في أكثر من مرة»[3]. والغالب للظن أن القناة الصفراوية قطعت عن طريق الخطأ في العملية الجراحية الأولى نتيجة «انزلاق المشرط»[4]، وهو ما أيَّده مؤلف سيرته. وصنف مصدر آخر

(1) Lord Owen, Lord Henry Cohen History of Medicine Lecture, February 2005 subsequently published as «The Effect of Prime Minister Anthony Eden's Illness on His Decision-Making during the Suez Crisis», **QJM** (2005), vol. 98,pp. 387 - 402.

(2) Gabriel Kune, «Anthony Eden's Bile Duct: Portrait of an Ailing Leader» ,**ANZ Journal** pp. **of Surgery** (2003), vol 341 _ 345.

(3) D. R. Thorpe, Eden: **The Life and Times Anthony Eden, First Earl of Avon 1897-1977** (London: Chatto & Windus, 2003), pp. 384 _ 386.

(4) Robert Rhods James, **Anthony Eden** (London: Weidenfeld & Nicolson, 1986), pp. 362-364.

أن ما حدث في إحدى العمليتين على أنه «خطأ طالب صغير» في الجراحة حيث «ربطوا عن غير قصد القناة الصفراوية كما لو كانت تخرج من الكبد»[1] مما ترتب عنه مشكل انسداد في السبيلِ الصفراوي[2].

ورغم حرص وينستون تشرشل بصفته رئيس الوزراء على متابعة سير علاج إيدن منذ البداية متابعة تامة، إلا أن تلك المتابعة لم تكن ناجعة. فقد ظل يذكّر هيوم بأهمية مريضه وبأنه شخصية بارزة ومهمة، ولكن تشرشل تدخل مرة أخرى بعد العمليتين اللتين أجريتا في لندن من اقتراح إجراء عملية جراحية ثالثة، تكون هذه المرة في الولايات المتحدة. وطلب إيفانز من ريتشارد كاتيل الخبير ذائع الصيت دوليًا في مجال الجراحة، الذي التقاه صدفة لما جاء لزيارة لندن لإلقاء محاضرة، بأن يفحص إيدن. وأصر كاتيل على نقل إيدن الى بوسطن لإجراء العملية الجراحية الثالثة، ووافق إيفانز على ذلك، غير أن لورد موران، وقد كان طبيبًا لإيدن، رأى أنه يمكن إجراء العملية الجراحية في لندن. وقد اعتبر تشرشل في بادئ الأمر، أن نقل وزيره إلى العلاج في الخارج قد يسيء الى سمعة بريطانيا، ودون شك، كان موران وراء تغيِّر موقفه. وأصر على رأيه حتى أن إيفانز وكاتيل ذهبا إليه في مقره في 10 داوننغ ستريت. وفي قاعة اجتماعات مجلس الوزراء تحدث تشرشل عن خضوعه لعملية جراحية لاستئصال الزائدة الدودية فوق طاولة مطبخ. ولإقناعه بوجوب سفر إيدن إلى أميركا شرح الطبيبان الوضع بأناة وتؤدة، مبيِّنان أن عملية استئصال الزائدة الدودية عملية جراحية بسيطة نسبيًا، بينما عملية رتق القناة الصفراوية مختلفة تمامًا ومعقدة، وتحتاج الى مهارة عالية[3].

وفي 23 حزيران/ يونيو 1953م أجرى كاتيل عملية جراحية معقدة لإيدن في بوسطن، وفي اليوم ذاته تعرض تشرشل في لندن لجلطة دماغية خطيرة أثناء حفل عشاء رسمي أقيم على شرف رئيس الوزراء الايطالي دي غاسبيري حيث اختل توازنه بشكل مفاجئ وأصبح

(1) Sir Christopher Booth, speaking on Case History: **Anthony Eden, BBC Radio 4**, 1998.

(2) يعتقد الأستاذ غابريال كون Gabriel Kune، المختص في جراحة القنوات الصفراوية، أنه في مرحلة ما من عمليتي لندن أصيب الجزء الأيمن من الشريان الكبدي. ويستند في فرضيته تلك إلى ما لاحظه من إصابة بليغة في القناة الكبدية أثناء العمليتين اللتين أجريتا على إيدن من جديد ببوسطن. وكذلك لما أجريت عليه عملية مجددًا في العام 1970م، تبيّن أن فص الكبد الأيمن صغير بشكل غير طبيعي، حتى أن كون افتراض أنه لما أصيبت القناة الصفراوية رُبط الشريان الكبدي الأيمن عن غير قصد، وحدث احتباس محدود في الدم. ولما كان للكبد إمداد ثان للدم عن طريق الوريد البابي، فقد أدى إلى نشوء تضيُّق وضمور في فص الكبد. وليس ثمة ما يدل، رغم ذلك، على أن أيض الكبد قد أصيب.

(3) Thorpe, **Eden**, p. 385.

حديثه متقطعًا. وفي صبيحة اليوم التالي شلت ذراعه اليسرى ولم يعد يقوى على المشي من دون مساعدة. ولكنه، رغم ذلك، ترأس اجتماع مجلس الوزراء في صباح ذلك اليوم. وبعد الاجتماع استدعى موران السير راسل براين الذي شخَّص حالة تشرشل بأنها جلطة. ولكنها كانت خفيفة، وكان تشرشل يشكو من «انعدام توازن بسيط» في مشيته. وبعد الفحص قدم تشرشل لبراين خطابًا حول السياسة الخارجية.

«ناقش تشرشل مشكلة إيدن قائلًا: إذا تخلى إيدن عن مسؤولية وزارة الخارجية وعيّن لها شخصًا آخر، فلن يجد إيدن منصبًا يتولاه عند عودته، وكان واضحًا أنه إذا اضطر تشرشل للاستقالة لأسباب صحية، فإن باتلر سيتولى رئاسة الوزراء»[1].

وبعد ذلك التقى براين تشرشل في 26 حزيران/ يونيو، وقد كانت حالته الصحية آنذاك منهارة. وكان يعاني من عسر التلفظ بشكل كبير. وكانت يده اليسرى واهنة، كما كان يشكو من انعدام التوازن في مشيته. لم يكن يقوى على المشي في الفترة الممتدة بين فحوصات براين في 28 حزيران/ يونيو و3 تموز/ يوليو، لكن بدأ يتحسن. ولما لقيه براين في 28 آب/ أغسطس في مقره في 10 داوننغ ستريت، لاحظ أن رئيس الوزراء أعياه التعب كثيرًا غداة اجتماع مجلس الوزراء منذ أسبوع. ومن الجدير بالملاحظة أن تشرشل، بعد أن تقاعد في يونيو 1955م، تعرض لجلطة ثانية، وهذا ما أكده براين الذي لقيه في شاتروال في 22 حزيران/ يونيو، قبل أن يلقاه مرة أخرى في 20 تشرين الأول/ أكتوبر 1956م.

واستعاد إيدن عافيته بعد العملية الجراحية، ومن ثمة عاد إلى بريطانيا لتولي مسؤولياته من جديد كوزير للخارجية. وقد كان حينها يتمتع بصحة جيدة «وذلك حتى عام 1954م عندما ألمَّت به الحمى في عام 1955م في ثلاث مناسبات. إلا أنها لم تكن حادة ولم تدم طويلًا في أيّ من تلك المناسبات»[2]. وقد أيقن إيدن أن صحته بعد العملية الجراحية تسمح له بخلافة تشرشل في منصب رئاسة الوزراء. ووفقًا لزوجته وطبيبه السير هوراس إيفانز

(1) W. Russull Brain, Clarssa Eden: «A Memoir-From Churchill», **Medical History** (2000), vol. 44, pp. 12-13.

(2) نشرت مراجعة في مقال مميز لجراح أميركي، الدكتور جون براش Jhon W. Braasch في تشرين الثاني/ نوفمبر 2003م تحت عنوان: «قصة أنطوني إيدن الطويلة مع مرض القنوات الصفراوية».
Anthony Eden's (Lord Avon) Biliary Tract Saga (Annals Surgery, Vol. 238, pp 272 _ 275).
أجرى بارش عملية جراحية على إيدن في عام 1970م، وقد تواصل مع كاتيل الذي اطَّلع بمهمة العملية الثالثة =

الذي التقاه في 14 شباط/ فبراير 1955: «لم يسمع عن أنطوني أنه ليس في صحة جيدة بحيث يستحيل عليه تولي منصب رئاسة الوزراء، وهذا طبيعي»[1]. وأخيرًا تخلى تشرشل عن منصب رئاسة الوزراء في 6 نيسان/ أبريل 1955م فدعا إيدن لإجراء انتخابات مبكرة، وفاز في أيار/ مايو بأغلبية مقاعد مجلس العموم من 70 إلى 89 مقعدًا أي: بنسبة 49،7 بالمائة من مجموع الأصوات، وهي نسبة عالية لم يفز بها أي حزب في فترة ما بعد الحرب. رغم أن فوزه جاء مغايرًا جزئيًا لما كانت تشير إليه استطلاعات الرأي دائمًا من أن إيدن من بين أكثر السياسيين شعبية في عصره.

لقد أعقبت الانتخابات العامة قمة الأربع للقوى العظمى في جينيف في تموز/ يوليو، وقد أعلن فيها الرئيس الأميركي أيزنهاور أنه كان أبدى دعمه السياسي لإيدن قبل الانتخابات. وإذ أصرَّ تشرشل على عقد قمة في 1953م، فإن كلًا من إيدن وأيزنهاور امتنعا عن دعم هذه الفكرة، اعتقادًا منهما أن الزعيم السوفياتي الجديد لم يبد استعداده لمفاوضات جدية بعيد وفاة ستالين بقليل. لقد أصبح إيدن قادرًا على تقييم موقف الوفد السوفياتي المفاوض الذي قاده كل من نيكولاي بلغانين ونيكيتا خروتشيف حول ما إذا كان يمكن إحراز تقدم في المسائل المتعلقة بالأسلحة النووية. وفي كانون الأول/ ديسمبر، أجرى تعديلًا على حكومته شمل الممانع هارولد ماكميلان الذي نقله من وزارة الخارجية إلى وزارة الخزينة وعيَّن مكانه سلوين لويد، وبذلك استعاد إيدن سيطرته على وزارة الخارجية. وفي عام 1957م، كتبت كلاريسا إيدن في مذكراتها: «كان أنطوني إيدن يشعر بالإعياء وانخفاض في

= عام 1957م. أما بشأن تدخل جراحي من أجل رتق القناة الصفراوية عبر مفاغرة القناة الكبدية بالصائم Hepaticojeunostomy فقد تم استخدام أنبوب مطاطي في حزيران/ يونيو 1953م. وقد أجرى كاتيل عملية رابعة على إيدن في أميركا في نيسان/ أبريل 1957م. وقد كان الرجلان منتسبان إلى مصحة لاهاي في ماساشوستس، وما جاء في تشخيصهما الجراحي هو الأقرب لما حدث من كل التشخيصات السابقة. حاول براش بكل ما أوتي من جهد أن يكون منصفًا في تعامله مع جميع الأطراف المعنية فلم يتجاهل أيّ رأي بما ذلك رأي أقلية، دوَّنه جراح لندني متقاعد، زعم أنه من القلائل الذين يعلمون الحقائق، ولا حتى رأي جراح آخر من الولايات المتحدة ادَّعى أنه أثناء رتق القناة المرارية التي انتفخت بعد العملية الجراحية الأولى، فقد تم تنفيسها من الهواء أثناء عملية إعادة الاستكشاف الثانية في 29 نيسان/ أبريل. فقد تبيَّن أن قناة إيدن المشتركة لم تصب إطلاقًا، وأنه عندما غادر إلى أميركا كان الناسور الصفراوي قد جف، ولم يصب إيدن باليرقان بل كان في صحة جيدة. ولا بد أن يكون كاتيل قد فهم الرسالة، فلم يكن فقط أحد كبار جراحي البطن في القرن العشرين، بل كان أيضًا رجلًا نبيلًا، حتى لم يكن يهتم لعدة تصريحات مهينة ضده.

(1) Clarissa Eden, **Clarissa Eden: A Memoir-From Churchill to Eden**, ed. Cate Haste (London: Weidenfeld & Nicolson, 2007), p. 183.

الأداء طوال الوقت، كما كان يشعر بالإحباط من الصحافة ومن روسيا ومن الأردن»[1].

لقد كان عام 1956م، هو العام الذي توَّلى إيدن فيه رئاسة مجلس الوزراء، عصيبًا، فقد بدأ بحملة انتقادات واسعة في الصحافة لا سيما في مقال جارح، نشر في صحيفة: «ديلي تلغراف» المؤيدة للمحافظين في الثالث من يناير جاء فيه: «كان على رئيس الوزراء التركيز على ما ينبغي مواجهته أولًا، ألا وهو كسر اليد المفتوحة للطرف الآخر، ولكن نادرًا ما سُمع صوت هذا الكسر» وتابع يقول: «إن الناس كانوا ينتظرون عبثًا من الحكومة أن تبدي قوة وحزمًا»، وقد حزَّ ذلك في نفس إيدن، وقد تجلى ذلك في إصراره على التصرف بقوة وحزم في وقت لاحق من ذلك العام في مواجهة أزمة قناة السويس لما نشبت. كما أثار ذلك المقال حفيظة راب باتلر، الذي كان حينها رئيسًا لمجلس العموم، حيث صرح بعد نشره بأيام: «أدعم رئيس الوزراء في مواجهة ما يتعرض له من صعوبات»، ثم أجاب بغير تردد ودون تحفظ على سؤال مراسل جمعية الصحافيين المشحونْ: «عما إذا كان إيدين أفضل رئيس وزراء»، بأنه كذلك. لقد كان في جواب باتلر شيئًا من المواربة، ولكن يستحيل على إيدين أن ينسى ما خلَّفه عنوان المقال في نفسه من أذى أبدًا.

وكتب إيدن لزوجته كلاريسا في 6 شباط/ فبراير من مقر الحكومة في أوتاوا يقول: «أنا الآن في صحة جيدة، ولكني بالأمس كنت مرهقا جدًا، حتى إني لم أغادر الفراش كامل اليوم». ولا يستقيم هذا مع وضع الرجل المناسب. وكثيرًا ما يقلل من شأن قلة النوم وما يترتب عليه من إعياء عند محاولة تقييم أثر صحة الناس على صانعي القرار. وفي الشهر التالي، وفي أعقاب نقاش حاد دار في مجلس العموم حول الوضع في الأردن، فقد إيدن، على غير عادته، أعصابه، فانطلقت صيحات الاستهجان من المعارضة تدعوه إلى الاستقالة!. ووفقًا لمؤلف سيرته روبرت رودس جيمس، كتبت زوجته كلارسيا في مذكراتها في 7 آذار/ مارس: «لقد هزّت الأحداث الجارية في الأردن أنطوني حتى أصبح يعاني من الإرهاق الذي استنزف قدرته على التفكير، لقد خلَّفت ليلة اختتام النقاش فوضى عارمة»[2]. بيد أنها في كتابها الذي يعتمد على يومياتها جاء فيه فقط ما يلي: «لقد كانت أحداث الأردن مرهقة للأعصاب»[3] دون الإشارة إلى المعاناة من الإعياء. وكان الجنرال جون باغوث غلوب

---

(1) Ibid, p. 225.

(2) James, **Anthony Eden**, p. 432.

(3) Eden, **Clarissa Eden**, p. 228.

القائد العسكري البريطاني للجيش الأردني قد عُزل من منصبه من قبل الملك حسين، وقد استنكر إيدن ذلك نائحًا باللوم على الرئيس جمال عبد الناصر الذي أثَّر على الملك حسين.

وتحدث أنطوني ناتينغ الذي كان حينها مساعدًا لوزير الخارجية عن نوبة أخرى من نوبات غضب إيدن وهو يصيح في الهاتف: «ما هذا الكلام الفارغ حول فرض عزلة على عبد الناصر أو «تحييده» الذي تتحدث عنه؟ إني أريد تحطيمه، ألا تفهم ذلك؟ أريد تنحيته وإذا كنت ووزارة الخارجية لا توافقان على ذلك، فعليك الحضور إلى مجلس الوزراء لتبرير ذلك»[1] [2].

عبد الناصر

لقد حكمت بريطانيا مصر منذ عام (1882 وحتى عام 1922م)، واستمرت في التأثير على الحكم الملكي فيها تأثيرًا قويًا، إلى أن قام جمال عبد الناصر بالانقلاب على الملك فاروق في عام 1952م، وكان إيدن وجيله يعتبرون حرية الملاحة عبر قناة السويس مسألة

(1) Anthony Nutting. **No End of a lesson: The Story of Suez** (London: Constable, 1967), pp. 34-35.

(2) هناك العديد من الروايات حول تهيج إيدن المفرط، منها ما هو صحيح ومنها ما هو خاطئ، ويذكر أنه لما قدَّم له أحد محامي وزارة الخارجية تقريرًا حول تأميم عبد الناصر لقناة السويس يفيد بأن ما أقدم عليه هذا الأخير عملًا مشروعًا تمامًا طالما أنه لم يغلقها، «احتجَّ بشدة ومزق التقرير ورماه في وجهه».
Donald Neff, Warriors and Suez: **Eisenhower Takes Amaricans into the Middle East** (New) York: Linden Press/Simon & Schuster 1981).
وعلاوة على أن أمين سره الذي كان حاضرًا في تلك المناسبة تقريبًا قد نفى هذا الأمر، فإنه لا يمكن أن نتخيل بأن إيدن قد تصرف تمامًا كما جاء في هذه الرواية. ومن ثمة علينا أن نتحرى جيّدًا بشأن مدى صحة مثل هذه الروايات.
ويمكن أن نضرب على ذلك مثلًا ما جاء في لقاء أجرته صحيفة: «التايمز» في عددها الصادر بتاريخ 29 تشرين الثاني/ نوفمبر2003م ديفيد كورنويل Cornwell المعروف أكثر باسم جون لوكاريه Le Carré، الذي كان أستاذًا في إيتون Eton خلال أزمة السويس. وقد جاء في مجمل حديث كورنويل أنه خلال أزمة السويس كان إيدن يستقل سيارة رئاسة الحكومة في عديد الليالي، متوجهًا إلى إيتون ليلتقي أستاذه الخاص القديم للتزود بنصحه ومشورته حول ما ينبغي عمله. وقد كان هناك شخصان على علم بتحركات إيدن وقد تحدّيا في ذلك كاتب سيرته ريتشارد ثورب الذي أكّد أن هذا الأستاذ الخاص القديم توفي في شباط/ فبراير 1956م. ورغم أن لوكاريه اعتذر للجميع ووعد بالتراجع، فإن هذه الرواية تبدو ضمن مستوى معين وكأنها غير مجانبة للصواب. وهناك مثال آخر يتعلق بحادثة وردت في كتاب ليونارد موسلي حول جون فوستر دالاس، مفادها أن إيدن رمى محبرة في وجه القائد التاريخي والخبير العسكري المحترم ليدل هارت أثناء لقاء جمع بينهما في مقر الحكومة في 10 داوننغ ستريت.
Leonard Mosley, Dulles: **A Biography of Eleanor, Allen and Jhon Foster Dulles and Their Family Network** (London: Hodder & Stoughton 1978, p 409).
بيد أن هذه الرواية هي أيضًا تبدو محض خيال، وهذا ما أكَّده كلّ من زوجة ليدل هارت وابنه، لا سيما وأن الرجلين لم يلتقيا أصلًا أثناء أزمة السويس.

حيوية بالنسبة لبريطانيا. وبدأ يتنامى لدى إيدن شعور بالعداء الشخصي لعبد ناصر. وكان قد التقاه مرة واحدة في القاهرة عندما كان وزيرًا للخارجية. وفي 20 شباط/ فبراير 1955م وصفت كلاريسا إيدن الجنرال عبد الناصر في مذكراتها بعد لقائه في حفل عشاء أقيم في السفارة البريطانية في القاهرة قائلة: «كان الجنرال ناصر في الخامسة والثلاثين من عمره، ولم يغادر مصر البتة وهو غامض ومهذب جدًا مع الإنكليز المعتدلين». كما كتبت لاحقًا أن عبد الناصر استاء كثيرًا في تلك الليلة، لأنه كان يعتقد أن على إيدن أن يحضر إلى لقاءه بصفته رئيسًا، مرتديًا بذة رسمية لا أن يكتف بربطة عنق سوداء. و«أخيرًا فقد استاء لمخاطبة أنطوني له بالعربية»[1]. رغم أن إيدن واجه في وقت سابق الواقع بشجاعة وتفاوض حول اتفاقية قاعدة قناة السويس، وانسحاب القوات البريطانية في عام 1954م، إلا أن هذا الأمر لم يستسغه تشرشل ولقي انتقادًا حادًا في أوساط حزب المحافظين، وهي الاتفاقية التي غادر بموجبها آخر جندي بريطاني مدينة بور سعيد في 13 حزيران/ يونيو 1956م.

وبصفته رئيسًا للوزراء شارك إيدن في المفاوضات الأميركية-البريطانية حول تمويل السد العالي في أسوان، وهو أحد أهم المشاريع المصرية. وفي حين كان الرئيس أيزنهاور منشغلًا بالتعافي من الالتهاب، كان وزير خارجيته جون فوستر دالاس منشغلًا بالنفوذ السوفياتي المتزايد في مصر، ولا يحبِّذ دعم مشروع السد. وفي 17 تموز/ يوليو أبلغ السفير البريطاني لدى أميركا واشنطن بأن المملكة المتحدة لا تؤيد الانسحاب من ذلك المشروع، غير أن دالاس استنتج، وهو محق في ذلك، أن البريطانيين يتحدثون من أجل تسجيل موقف، ويعنون ذلك تمامًا، وأعلن دالاس الذي واجه ضغوطًا من الكونغرس، انسحاب الولايات المتحدة في 19 تموز/ يوليو. وفي لندن، ذهب رئيس مجلس التجارة بيتر ثورنيكروفت للقاء إيدن لإقناعه بمشروع السد العالي، ولكنه واجه إحدى نوبات غضب إيدن الشهيرة، الذي استاء من تدخل ثورنيكروفت، حيث قال: إنه بعد قرار الأميركيين، يعتبر المشروع ملغيًا، وأن الدعوة إلى إحيائه غير لائقة، وهذا مؤشر على تقلب مزاج إيدن. كتب لورد موران في مذكراته في 21 حزيران/ يونيو: «لقد كان عالم السياسة في مقر الحكومة في 10 دوانغ ستريت يخضع بشكل تام لمزاج إيدن». وقبل يوم وافقت الحكومة على أن تسحب المملكة المتحدة أن تمويل السد.

Eden, **Clarissa Eden**, pp.186. (1)

وبعد مضي ستة أيام من ذلك، تحرَّك عبد الناصر، ففي يوم 26 تموز/ يوليو ذكرى تخلي الملك فاروق عن العرش، وفي خطاب حماسي ألقاه في ميدان المنشية في الإسكندرية أعلن عبد الناصر عن تأميم شركة قناة السويس. وجاءت تلك الخطوة في جزء منها كرد فعل على القرار الخاص بمشروع السد العالي، وعندما وردت أنباء خطبة عبد الناصر، كان إيدن صدفة في حفل عشاء في مقره في 10 داوننغ ستريت على شرف الملك فيصل، ملك العراق، ورئيس وزرائه نوري السعيد. وقد نصح العراق بضرب عبد الناصر ضربة موجعة وسريعة، وبعد العشاء استدعى إيدن القائم بالأعمال الأميركي ساعيًا ـ ويا للمفارقة، إذا ما وضعنا في الاعتبار الأحداث اللاحقة ـ لإشراك الأميركيين منذ البداية، كما استدعى أيضًا السفير الفرنسي للمشاركة في النقاش حول خطوة عبد الناصر، بالإضافة إلى أربعة وزراء هم صديقه المقرب وزير الخارجية سلوين لويد، وماركيز سالزبوري، وفيسكونت كيلموير، وإيرل دي هاوم، الذي سيكون لاحقًا رئيسًا للوزراء، وكذلك السير إليك دوغلاس ـ هاوم، كما استدعى أيضًا اثنين من رؤساء الأركان، هما فيلد مارشال والسير جيرالد تمبلر والأدميرال إيرل مونتباتن، واستمر الاجتماع حتى الساعة الرابعة فجرًا.

اعتبر رئيس الوزراء البريطاني تأميم قناة السويس تهديدًا مباشرًا للمصالح البريطانية، وقد بدأ يعتبر عبد الناصر عام 1956م، بمثابة موسوليني الثلاثينات، وتعهد إيدن علنًا بألا يسمح لعبد الناصر «أن يخنقهم»، كما صرح بوضوح أنه على استعداد تام لاستخدام القوات البريطانية المسلحة للقضاء على التهديد الذي قد يمثِّله التدخل المصري في شأن تدفق السفن عبر قناة السويس.

وفي واقع الأمر، كان عبد الناصر حريصًا على إظهار أن مصر ليست لديها أي نية للتدخل في حركة السفن التابعة لأي دولة، فقليلة هي الدول، خلافًا لإسرائيل كانت تخشى ذلك، وفضلًا عن ذلك حاول عبد الناصر من خلال الطريقة التي أعلن بها تأميم شركة قناة السويس بذكاء، إثبات أنه لم يتصرف بطريقة غير قانونية، فقد تم شراء حصة الأسهم حسب سعر الإقفال في بورصة باريس، في الوقت الذي أعلن فيه عبد الناصر قراره، كما أن الرأي العام العالمي لم يكن يعطي أهمية كبرى للعلاقات المتنامية لمصر مع الاتحاد السوفياتي، والأهم من ذلك هو أن الرئيس أيزنهاور لم يكن على استعداد لربط الاستيلاء على القناة بالخطر الذي يشكِّله الاتحاد السوفياتي، وقد أدرك العالم أنه الشخص الوحيد الأكثر أهمية الذي فهم أزمة قناة السويس وتوقع مآلاتها.

والقرار الذي اتخذه إيدن مباشرة بعد خطاب عبد الناصر في 26 تموز/ يوليو هو الاستعداد، ولكن تأجيل تسديد ضربة عسكرية فورية أمر مفهوم، إذا ما أخذنا في الاعتبار رأي رؤساء هيئة الأركان الذين لم يبدوا حماسًا تجاه العمل العسكري، إلا إنه يمكن القول أن قرارات إيدن جاءت حذرة للغاية هذه المرة، ويتناقض هذا الأمر بصورة كبيرة مع التهور في قراراته منذ 14 تشرين الثاني/ أكتوبر، عندما شكلت صحته عاملًا مهمًا. ففي اليوم التالي لخطبة ناصر لم يتبن إيدن مباشرة الرأي القانوني الذي قدمه كيلموير، بأن بريطانيا تستطيع تبرير التدخل العسكري بسبب قناة السويس، على أساس الادِّعاء أن عبد الناصر تصرف بطريقة غير قانونية، كما لم يأخذ إيدن أيضًا برأي أحد أصدقائه القدامى المقربين، فيسكونت سيلسينين، الذي كان حينها لورد الأدميرالية، والذي أشار عليه بأنه إن كان لا بد من استخدام القوة، فيجب أن يتم ذلك في أقرب وقت خلال فصل الصيف، وقد ثبت أن نتائج التأجيل كانت سلبية. فما إن حلَّ الخريف حتى استطاع عبد الناصر، حسب سيلسينين، أن «يؤمن الكثير من مساراته»[1]. ومع ذلك فقد أقرت اللجنة الفرعية لمجلس الوزراء لمعالجة قضية السويس في 30 تموز/ يوليو أن الهدف المباشر هو «الإطاحة برئيس الحكومة المصرية»، وبالتالي فإن مسألة تغيير النظام كانت حاضرة منذ البداية، وقد كان سيلسينين يرى أيضًا أن إيدن الذي لم يعمل البتة في الولايات المتحدة، لا يفهم تأثير الانتخابات الرئاسية الوشيكة المقرر إجراؤها في تشرين الثاني/ نوفمبر على استجابة الأميركيين تجاه أيّ خطوة بريطانية تتخذ ضد مصر.

وليس هناك ما يدل على أن إيدن استبعد مشاركة القوات البريطانية المتمركزة في ليبيا خشية ردة الفعل العربية، وكان استخدام تلك القوات مسألة تناقش بشأنها مع تشرتشل أثناء زيارته السرية له في 6 آب/ أغسطس. وترك تشرشل مذكرة كان قد أملاها في السيارة وطبعها عندما كان ينتظر أثناء توقف السيارة على حافة الطريق في طريقه إلى منزل رئيس الوزراء في الريف، حذَّر فيها رئيس الوزراء إيدن من الاكتفاء بالاستيلاء على القناة، والحال أن مركز سلطة عبد الناصر الفعلية في القاهرة. وكان من الواضح أنه يعتقد أن تهديد القاهرة وغيرها من المدن الكبرى يتطلب استخدام كتيبة مدرعة بريطانية متمركزة في ليبيا، وجاء في مذكرة تشرشل قوله:

---

(1) Thrope, Eden, pp. 475 - 481.

«بقدر ما أفكر في الاستيلاء على القناة، بقدر ما أكره ذلك. هناك هوة كبيرة ينبغي جسرها تتهددها سلسلة من الألغام. وإننا لملومين كثيرًا لتوقفنا عن هذا الأمر، إذا دقت ساعة الهجوم ولم نكن حاسمين. القاهرة هي مركز سلطة عبد الناصر. سُررت كثيرًا لما سمعت أنه لا مجال للقلق بشأن ليبيا حسب رأي [...][1]. رئيس الوزراء...، إلخ، ولكن ينبغي استخدام الفِرَق المدرعة، مدعومة بصفة خاصة بالقوات الجوية، دون حاجة إلى قوات إضافية. ومن ناحية أخرى، إن أي تغير مفاجئ في الموقف، يجب أن يعيد النظر في ضرورة موقفنا من إسرائيل. علينا أن نجرهم لتهديد المصريين، وأن يحكموا قبضتهم عليهم لا إلى مواجهة الأردن»[2].

لقد كان تشرشل يعتقد أن إسقاط عبد الناصر يجب أن يتضمن الهجوم على القاهرة، غير أن مجلس الوزراء كان يرى أن وجود ثلاث كتائب بريطانية في منطقة القناة، سيجعل عبد الناصر يخشى المواجهة. وكانت خطتهم تقوم على قصف المواقع العسكرية فقط على طول القناة، ولا يمتد القصف إلى القاهرة، فالهدف السياسي هو إسقاط عبد الناصر، بيد أن هذا الأمر قلل من شأن المشاعر الوطنية التي أطلقها عبد الناصر، فهو يستطيع السيطرة على البلاد من القاهرة، كما سيتمكن من شن هجمات على القوات الغازية، ولذلك فإن تلك الخطة لا تخلو من نقص أساسي.

وفي 7 آب/ أغسطس وزع هارولد ماكملان الذي كان يشغل منصب وزير المالية «مذكرة موجزة» على «لجنة مصر» تعبِّر عن آرائه حول الغزو، عكست آراء تشرشل التي أبلغها إلى إيدن قبل يوم من ذلك، وقال إيدن لماكملان: إنه لا يحق له توزيع مذكرات من دون استشارته بصفته رئيسًا للوزراء، وكان ذلك مؤشرًا على التوتر الذي احتدمت وتيرته بين الرجلين[3]. لم يتصرف القادة البريطانيون بحكمة في مواجهة أزمة السويس برمتها، فلم يكونوا منسجمين ولا حاسمين، وكانوا يتوجسون خيفة من طول أمد احتلال مصر.

وفي 17 آب/ أغسطس كتب إيدن إلى تشرشل يقول: «أنا آسف على غيابي يوم الاثنين،

(1) كلمة مكتوبة بخط اليد غير مقروءة في النص الأصلي (أضيفت أثناء سير السيارة).

(2) Memorandum from Sir W. Churchill, 6 August 1956. Avon Papres, PM Personal Special Collections, University of Birmingham. Also ,24/33/Correspondence, ref. AP20 quoted in Martin Gilbert, Winston S. **Churchill S. Churchill, vol. 8: «Never Despair»** 1945-1965 (Oxford: Heinemann, 1988), pp.1203 _ 1204.

(3) Eden, **Clarissa Eden**, p. 237.

فقد كنت بحاجة إلى بعض ساعات من الراحة» وأضاف: «إن ما هو أهم من كل ذلك هو أن الأميركيين أبدوا تأييدهم لنا بقوة حيال مسألة تأميم قناة السويس». غير أن أيزنهاور لم يخف معارضته لاستخدام القوة عن إيدن أبدًا، وفي 3 أيلول/ سبتمبر كتب إلى إيدن: «لا بد أن أقول لك بصراحة، إن الشعب الأميركي يعارض بشدة استخدام القوة، وحقيقة لا أرى أي جدوى من استخدامها».

وقد كان هنالك اختلاف واضح في المصالح بين بريطانيا والولايات المتحدة خلال تلك الأزمة، فبريطانيا لم تكن فقط مهتمة بسلامة السفن العابرة لقناة السويس، بل إن الحكومة البريطانية كانت ترغب في السيطرة على القناة، كما أن اعتبارات الوضع الخاص لبريطانيا وهيبتها كانت أمرًا مهمًا بالنسبة لها، ولم تفصِّل الحكومة بشكل صريح، وبات بين مسألة القناة ونظام جمال عبد الناصر. وقد كتب غاي ميلارد سكرتير إيدن الخاص في عام 1957م إحدى أكثر الروايات التاريخية الخاصة تفصيلًا حول وزارة الخارجية في تلك الفترة[1]، وقد توصل إلى نتيجة مفادها: أن بريطانيا أخطأت لما حاولت حلَّ المشكلتين في وقت واحد، وهذا الانتقاد للسياسة البريطانية صدر عن الأميركيين خلال الأزمة، إذ أن بريطانيا لم تكن مهتمة فقط في التوصل إلى ترتيب لحماية السفن التي تستخدم قناة السويس، كما تصور جون فوستر دالاس في مبادرة هيئة مستخدمي قناة السويس، بل إنها كانت ترغب في اختيار حكومة جديدة في مصر، ولكن وكما حدث في غزو العراق في عام 2003م، لم تبدِ بريطانيا استعدادها لتأييد فكرة تغيير النظام علنًا، بل استخدمت تهديد الملاحة كذريعة، كما استخدمت بريطانيا والولايات المتحدة قضية أسلحة الدمار الشامل كذريعة بعد مضي 46 عامًا من ذلك.

منشط «القلوب الأرجوانية»

لقد كُتب وقيل الكثير حول صحة إيدن وسلوكه خلال الاشهر الثلاثة التالية، البعض

---

(1) Guy Millard, «**Memorandum on Relations between the United Kingdom, the United States and France in the Months Following Egyptian Nationalisation of the Suez Canal Company in 1956**». (Paper written in August 1957 and published by the Cabinet This .3314 /Office for UK Eyes Only on 21 October 1957). National Archives CAB 21 document does not spell out the detail of the collusion between France Israel and the UK but is not exactly as originally written by Millard; that original version has disappeared.

منه يدخل في باب النميمة والبعض الآخر تكهنات، وهنالك بعض الحقائق. وفيما يتعلق بصحته خلال الأزمة، تكشف مذكرات مقابلاته أنه استشار السيد هوراس إيفانز وأطباء آخرين في عشر مناسبات على الأقل بين تأميم قناة السويس ونهاية تشرين الأول/ أكتوبر[1]. كما أنه أمضى نهاية أسبوع 5 ـ 8 تشرين الأول/ أكتوبر في المستشفى، وتكاد تكون مذكرات إيدن الخاصة أثناء أزمة السويس معدومة. ونقرأ في إحداها ما يلي:

شعرت بتعاسة شديد بعد ليلة مشؤومة. أستيقظ منذ الساعة الثالثة فجرًا بسبب الألم حتى اضطر في النهاية إلى تناول الميثادون. غير أن الأطباء تدخلوا في الوقت المناسب. وكان كلينغ أكثر تفاءلًا من هوراس. علينا أن نحاول اتباع نظام مختلف قليلًا. كان هناك إجماع على ألا يُتخذ أي قرار، بات عسى أن تمنحني العطلة فرصة اتخاذ القرار وأنا في صحة جيدة.

وقد كان «القرار النهائي» إمكانية إجراء عملية جراحية أخرى، وقد وصف له عقار بيثيدين، وهو عقار مستخلص من المورفين للتخفيف من حدة الآلام، وبالرغم من تعاطي الدواء المذكور، فقد ترأس إيدن اجتماعات مجلس الوزراء في ساعات النهار، كما في المساء قبل أن يعرض نفسه لاحقًا على أطباءه مرة أخرى في ذلك اليوم. وفي 7 أيلول/ سبتمبر علَّق يقول: «بعد ليلة هادئة، نمت على الأقل دون انقطاع وإن لمدة لم تتجاوز الخمس ساعات». وخلال أسبوع لاحقًا كما جاء في مذكرات إيدن: «لقد مررت بيومين عصيبين في مقر الحكومة، لقد شعرت بإعياء شديد مع نهاية النقاش».

وفي عام 2004م صرح الصحافي البارز لورد ديدس الذي شغل منصبًا وزاريًا في حكومة إيدن، في التلفزيون، أنه أثناء أزمة السويس كان إيدن يتعاطى أدوية: (كالتي يتعاطاها الناس في الخمسينات عادة مثل الباربتيريت Barbiturates لمساعدته على النوم والراحة، والأمفيتامين Amphetamines من أجل استعادة النشاط والحيوية وهي تتوافق مع ما نسميه: «المنشطات والمهدئات»)[2]. إن ما رواه صحيحًا لا سيما وأنه يتناقض مع رأي أرملة إيدن الخاطئ حيث اعتبرت أنه لم يتعاط «المنشطات والمهدئات». أما المؤرخ هيوج توماس فقد

(1) David Dutton, **Anthony Eden: A Life and Reqtation,** pb ed. (London: Arnold, 1997), p. 423.

(2) Lord Deedes, **speaking on The Downing Street Patient, BBC2**, 29 February 2004.

زعم أن إيدن قال لأحد مستشاريه: بأنه عمليًا يعيش على البنزدرين Benzedrine[1] رغم أن ليدي آفون تقول بأنه لم يتناوله قط في الأسبوعين الأخيرين قبل استقالته[2].

وفي يناير 2005م، سمحت لي كلاريسا، التي قالت بأنها شعرت في ذلك الوقت وكأن: «قناة السويس تدفقت عبر غرفة الجلوس في منزلها»، بكل رحابة صدر سمحت لي بأن أطلع على ما لم يُفصح عنه من سجلات زوجها الطبية في أرشيفات جامعة بيرمنغهام الخصوصية حيث عثرت على رسالة هامة لم يقع التفطن إليها حتى ذلك الحين. كتبها إيفانز في 15 كانون الثاني/ يناير 1957م، وهي رسالة مفتوحة أمام أي طبيب يريد الاطِّلاع على حالة إيدن عندما زار نيوزيلندا مباشرة بعد استقالته من رئاسة الوزراء، جاء فيها:

> **عانى إيدن طيلة الستة أشهر الماضية من نوبات حُمَّى عصية عن التفسير، قد تكون جراء تعفنات فيروسية، غير أن أكثرها إثارة للريبة، نوبة حادة جدًا أصابته فجأة لم تصاحبها أيّ أعراض أخرى. وكان يُعتقد في وقت سابق أن جميع نوبات الحمى هذه عرضية، رغم أن بعضها كان حادًّا جدًا، بيد أنها تؤشر على التهاب حجمه في تزايد في القنوات الكبدية. وقد تبيّن بعد الفحوصات الأخيرة أن هناك تدفق دم ارتجاعي داخل القناة الصفراوية المشتركة، ولا يوجد صمام في منفذها. ومن ناحية أخرى أثبت آخر فحص بالأشعة السينية، أنه لا دليل على اتساع في السبيل الصفراوي.**

ثم واصل إيفانز يقول متحدثًا عن العلاج:

> **كانت صحته على امتداد العام الماضي بصفة عامة على ما يرام بفضل تناول مفرط لفيتامين العلاجي صوديوم أميتال 3 غرام وثاني أنزيل 1.5 غرام، كل ليلة، وأقراص الدريناميل كل صباح يوميًا. لقد كانت العلاجات جوهرية حقًّا طيلة الستة أشهر الماضية. وقبل فترة النقاهة في جامايكا كانت حالته بشكل عام تتسم بالتوتر الشديد مع إجهاد بدني عصبي، ويبدو أنه استفاد في ذلك الوقت من فترة النقاهة، إضافة إلى الترفيع في مستوى التخدير نسبيًا وفيتامين B12 العلاجي[3].**

---

(1) دواء يحتوي على عذق مختلط من عائلة الأمفيتامين، صنع في الثلاثينات واستخدم موسعا للقصبات الهوائية وأوقف هذا الإستخدام وثم منبها منذ الأربعينيات.

(2) Countess of Avon speaking on **Case History: Anthony Eden**, BBc Radio 4, 1998.

(3) Avon Papers, ref. AP39/4/2.

كان تلك المرة الأولى التي كشف فيها التحليل الطبي عن تعاطي إيدن للدكسترو-أمفيتامين[1]، الذي يكون منشطًا إذا دمج مع الأميلوبربتون، ويكون مسكنًا إذا دمج مع الدريماتيل. وتسمى هذه التركيبة أيضًا «الديكساميل» في بعض البلدان، وتستخدم كبديل عن «القلوب الأرجوانية». وقد تطورت لدى إيدن كل صباح بعض الآثار الجانبية غير الخطيرة من استخدامه للدرياميل بداية من تموز/ يوليو عام 1956م. ويبدو أنه اضطر إلى مضاعفة جرعة الدواء بعد فترة العلاج في 21 آب/ أغسطس وربما مرة أخرى في تشرين الأول/ أكتوبر، وأثناء انهياره التام في تشرين الثاني/ نوفمبر. فلا يمكن أن نتصور بالضبط كم من أقراص الدواء التي يتناولها إيدن في اليوم، وخاصة في الفترة الممتدة بين 5 تشرين الأول/ أكتوبر و19 تشرين الثاني/ نوفمبر، حتى أن اطباؤه انزعجوا بشأن حالته الصحية، فاقترحوا عليه أن يخرج في عطلة يقضيها في جامايكا، فقد كان للأدوية التي يتعاطاها أثارًا جانبية مثل الأرق، وانعدام الصبر والتوتر والتهيج المفرط، والنشاط المفرط والثقة المفرطة.

وفي الذكرى الخمسين لأزمة السويس قال مالكولم ليدر أستاذ الصيدلة الإكلينيكية في جامعة لندن، في لقاء صحفي: إن الأشخاص الذين يتعاطون الدرياميل «يكون سلوكهم

(1) الأمفيتامين وتركيبته من الدكسترو، الدكسترو-أمفيتامين، مع الميتيل أمفيتامين (ميتادرين) تكون مجموعة من المنشطات التي تعمل عن طريق إفراز أحاديات الأمين monoamines في محطات الدماغ العصبية، النورأدرينالين noradrenaline والدوبامين dopamine الذي يعتبر أهم الوسائط في هذا الترابط.

H. P. Rang, M. M. Dale and R. M. Ritter, Pharmacology (Edinburgh : Churchill Livingstone,) (1955, p. 637).

تلك منشطات تفرز الإحساس بالحيوية والثقة المفرطة والنشاط والخفة. وقد تم تركيبها لأول مرة عام 1887م ولم تعتمد إكلينيكيًا إلا في عام 1932م وسميت البنزدرين Benzedrine. وقد استخدمت في شكل أقراص إبَّان الحرب العالمية الثانية، لفائدة عناصر الجيش الذي يشعرون بالإعياء، ثم انتشر استخدام الأمفيتامين بعد ذلك على نطاق واسع في خمسينات وستينات القرن العشرين. وفي عام 1964م، اضطر الأطباء إلى التقليل من استخدام الأمفيتامين تحت ضغط الصحافة في المملكة المتحدة، التي أطلقت صيحة فزع تجاه سوء استخدامها ولا قانونيتها. ولا يؤثر الأمفيتامين على الدماغ فقط، بل أيضًا على الرئتين وعلى القلب وعلى أعضاء أخرى من الجسم جراء إفراز النورأدرينالين من مواقع الربط، خاصة عند الاستخدام المفرط لهذا المنشط. أما إذا استخدم بمقادير معتدلة فينتج عنه الأرق، وانعدام الصبر والتوتر والتهيج المفرط والنشاط المفرط والثقة المفرطة. لا يخلق الأمفيتامين الحيوية حتى في حال استخدامه بكثرة، وأما إذا استخدم لفترة طويلة، وإن بمقدار معتدل، فدائمًا ما يعقبه الإعياء. وعادة ما يصاحب هذا «الإعياء» أيضًا مشكلة في النوم. وقد يعقب استخدام الأمفيتامين ما يسمى بـ «الانهيار المفاجئ»

Martin A. Plant, Drugs in Prespective (Sevenoaks: Hodder & Stoughton, 1981), pp. 37- 40

إن مخلفات تلك الآثار ناتجة عن استنزاف القصص العادية للإلنورأدرينالين والدوبامين في الدماغ. ولا تعطى هذه المنشطات في المملكة المتحدة الآن إلا في حدود ما تسمح به اللائحة الثانية، حول سوء استخدام المنشطات Schedule 2 of Misuse of Drugs. وسنرى في الفصل القادم أهمية الدور الذي لعبه الأمفيتامين فيما يتعلق بصحة جون كينيدي.

فاضح» ولا ينسجم مع طباعهم. وكثير منهم، كما يقول: يصيبهم جنون العظمة و«تصبح قراراتهم واهية ـ وفي حالات قصوى يفتقدون الاتصال بالواقع»[1] ولأجل ذلك أصبح استخدام الدريناميل نادرًا جدًا باعتبار أن الطب يدرك جيدًا تأثيره السلبي على القرار والحيوية والمزاج. ولأجل ذلك أيضًا سعى الطب جديًا لتحري الأثر العميق لأي صنف من أصناف الأمفيتامين على مستويات النورأدرينالين والدوبامين في الدماغ وعلى مستويات تركُّز هذه المواد الدماغية أثناء فترة الزعامة الطويلة شديدة التوتر. سأتطرق إلى ما قد يكون تفسيرًا علميًا عصبيًا لمتلازمة الغطرسة في الفصل التاسع.

أنكرت كلاريسا إيدن في مذكراتها أن يكون زوجها تعاطى الدريناميل حتى بعد الاجتياح:

لم يبدو لي البتة أن صحة أنطوني أثرت على قراراته، وهذا رأي أولئك الذين عملوا معه. لا أتذكر أبدًا إن كان يعتمد يوميًا على المنشطات، لم أكن أفارقه ليلًا ونهارًا، قد يكون هوراس إيفانز وصفها له، لكن أنطوني لم يكن يتمنى المجازفة بقراره[2].

وكتبت أيضًا: «لاحقًا، قبل وبعد عودتنا من جامايكا، تناول جرعة موصوفة من الدريناميل».

لم أعثر على أي دليل من أي من أطبّاءه يؤكِّد أنه استخدم الأمفيتامين بإفراط، ولا أي سجل طبي يؤكد استخدامه له سريًا، ولا أيّ اعتمادية أو أي إدمان عليه. وبالفعل ففي رسالة إلى طبيب في مصحة لاهاي بتاريخ آذار/ مارس 1971م، عبَّر عن حذره الخاص إزاء المنشطات وتفاعلها فيما بينها[3]. وأمام هذا التعارض بين المؤيدات يمكن للمرء أن يقنع

(1) Interview with Professor Malcolm Lader, **The Sunday Programme**, GMTV, 5 November 2006.

(2) Eden, **Clarissa Eden**, p. 260.

(3) جاء في رسالة إيدن إلى طبيب في مصحة لاهاي ما يلي: "لدي مشكلة أيضًا مع الحبوب المنومة. كما تعلم أني أتناول الأسبرين. أليس في الأمر ضررًا أن أتناول ما يعادل أربع حبيبات صفراء أو اثنين من الحبيبات الحمراء من حين لآخر أثناء الليل؟ لقد تبيّن لي أحيانًا أنه من الأفضل أن أتناول حبيبة صفراء قبل الذهاب إلى النوم بساعة أو أكثر، وحبيبة صفراء أخرى عندما أطفئ النور، وحبيبة حمراء كلما استيقظت عند الساعة الثانية فجرًا مثلًا. بدلًا من ذلك، يمكن لي أن أتناول حبيبة حمراء عند الذهاب إلى النوم، وحبيبة صفراء حوالي الساعة الثالثة فجرًا وأظل مستيقظًا حتى الساعة الخامسة صباحًا، فأتناول حبيبة أخرى إذا ما لم أذهب إلى النوم. وهاتان الطريقتان لم أتعود عليهما، إذ من عادتي الاكتفاء بحبيبة حمراء وأخرى صفراء في الليلة، وإن كنت أستخدمهما أحيانًا. ويعتقد طبيبي الشخصي أنه لا ضرر في ذلك، ولكن كان عليّ التثبت من الأمر منك». (مقتطف من رسالة كتبها إيدن إلى جون نوركروس في مؤسسة مصحة لاهاي بتاريخ 24 آذار/ مارس 1971م).

بأن الحقيقة تكمن في أن الأطباء على بيّنة أن أفضل عناية بالمرضى أثناء فترات التوتر حتى يشعروا ببعض الراحة الأولية، هو زيادة جرعة الأمفيتامينات لإعطائهم حيوية ظرفية، دون أن يخبروا أحدًا بذلك، بما في ذلك الأطباء أو الأقارب. ونعلم أيضًا أن إيدن تناول أقراص البيتيدين لتخفيف الألم وهناك تقارير عن «تداويه بنفسه بما في ذلك حقنه من قبل مخبره الشخصي»[1].

جاء في ملاحظات في بيان استقالته الذي أعدَّه إيدن ليبلغ به مجلس الوزراء في 9 كانون الثاني/ يناير 1957م إنه لم يحاول إخفاء اعتماده على المنشطات. لقد أشار بصراحة إلى زيادة معتبرة في استخدامه الأمفيتامينات التي يسميها منشطات، منذ تموز/ يوليو. ورد النص الكامل حول هذا في بيوغرافيا روبرت رودس جيمس، وجاء فيه:

أثناء الأشهر الخمسة الأخيرة، منذ أن استولى عبد الناصر على قناة السويس في تموز/ يوليو، اضطررت إلى الزيادة في جرعات المنشطات. وقد أثر ذلك سلبًا على وضعي النفسي الهش. وبطبيعة الحال، أول شيء قمت به هو استشارة الأطباء عما إن كان بإمكاني أن أستمر في ذلك حتى الصيف أو عطلة عيد الفصح على أقصى تقدير. فأبدوا تحفظهم ونصحوني بأنه ليس علي الاستمرار في ذلك أكثر من ستة أسابيع[2].

ويبدو توصيف السير هوراس إيفانز لنوبات الحُمَّى التي كان يعاني منها إيدن، في رسالته بتاريخ 15 كانون الثاني/ يناير 1957م أقرب إلى أعراض التهاب الأقنية الصفراوية[3]. ويقينًا أن تلك الأكثر حدَّة أو التي تسبب ارتجاف الجسم، تؤشر على التهاب عابر في القنوات الكبدية التي عالجها إيفانز عن طريق منشطات كبريتية خفيفة[4]. وكانت أكثرها خطورة تلك التي أصابته في مساء الجمعة 5 تشرين الأول/ أكتوبر عندما كان في زيارة زوجته التي كانت تحت الرقابة الطبية في المستشفى الجامعي، حيث شعر فجأة ببرودة شديدة، وبدأ يرتجف حتى فقد التحكم في نفسه بسبب الحمى. ولزم الفراش في غرفة قريبة من غرفة زوجته بناء

(1) Hugh L'Etang, **Ailing Leaders in Power 1914 - 1994** (London: Royal Society of Medicine Press, 1995), p. 10.

(2) James, **Anthony Eden**, p. 597

(3) التهاب الأقنية الصفراوية هو عبارة عن تجرثم (البكتريميا) أو تسمم في الدم حيث الجراثيم تشبه تلك التي نجدها في التهاب القناة الصفراوية، ويمكن علاجها عبر زراعة الدم. إنه مرض خطير وموهن، ويؤثر على الدماغ كما يتضح من التغيرات في مركز تنظيم الحرارة بالدماغ وأيضًا الشعور بالضبابية، وصعوبة في القرار، وهذا ما ذكره أولئك الذين يعانون من هذه الحالة، ويفترض أنه ناتج عن الجراثيم والسموم التي تبلل الدماغ.

(4) **Ibid**.m p. 366.

على نصيحة من الأطباء، وبلغت درجة حرارته 160 درجة على مقياس فهرنهايت، وهي درجة مرتفعة جدًا بالنسبة لسنه. وسُمح له بالمغادرة يوم الاثنين 8 تشرين الأول/ أكتوبر، أكثر انتعاشًا، كما قيل. إلا أن ذلك الإحساس كان ظرفيًا فقط: فلقد خضع الجسم لضغط كبير خلال نوبة الحُمَّى الحادة تلك، واحتاج إلى وقت لكي يستعيد عافيته. واستمر إيدن في ممارسة واجباته الرسمية، بينما كان معظم الناس بمن في ذلك زملاؤه لا يعلمون عن ذلك شيئًا، كما لاحظ ذلك كاتب سيرته الرسمي، «بدأ ناقوس الخطر يدق».

استنتاج

لقد أصيب إيدن بالحمى في 5 تشرين الأول/ أكتوبر قبل أن تنشب المواجهة بقليل، فقبل يومين من ذلك أبلغ إيدن مجلس الوزراء أن: «هناك خطرًا من إمكانية إبرام الاتحاد السوفياتي اتفاق تعاون مشترك مع مصر، وأنه إذا ما تم ذلك فستكون هنالك حظوظًا أوفر لمحاولة تسوية هذا النزاع باستخدام القوة»، وكان على اطِّلاع بأن القوات البريطانية مستمرة في الحشد في قبرص وفي أماكن أخرى، وأنه في أيِّ لحظة قد تدخل في الحرب، وفي 5 تشرين الأول/ أكتوبر قدمت مصر شكوى إلى مجلس الأمن في الأمم المتحدة حول تحركات القوات البريطانية والفرنسية.

وفي يوم الاثنين 8 تشرين الأول/ أكتوبر، يوم خروج إيدن من المستشفى، كان على راب باتلر ترؤس لجنة مصر في غياب رئيس الوزراء. ولكن بحلول السبت في ذلك الأسبوع كان إيدن في صحة جيدة بحيث يستطيع إلقاء خطاب في مؤتمر حزب المحافظين الذي أقيم في ويلز، ورحَّب أنصار الحزب بالفقرة التي قال فيها: «إننا نقول دائمًا إن القوة آخر خيار قد نلجأ إليه، ولكن لا يمكن استبعاده. إننا نرفض القول إننا لن نستخدم القوة البتة أيًا كانت الظروف، لا يمكن لحكومة مسؤولة أن تتعهد بذلك أبدًا».

وفي ذلك اليوم الذي ألقى فيه إيدن خطابه ذاك، أبلغه أنطوني ناتينغ أن رئيس الوزراء الفرنسي غي موليه طلب من إيدن أن يلتقي بشكل عاجل مبعوثين من باريس. وفي مساء 13 تشرين الأول/ أكتوبر، بعد أن عاد رئيس الوزراء إلى تشيكرز (منزل رئيس الوزراء في الريف) من المحاضرة، أبلغه ناتينغ بالهاتف زيارة السير غولدوين جيب السفير البريطاني في باريس إلى لندن، وكشف جيب أن الفرنسيين سلموا 75 طائرة مقاتلة «مستير» من آخر طراز إلى إسرائيل، دون التشاور مع البريطانيين والأميركيين، كما تتطلب ذلك إجراءات

الاتفاق الثلاثي. وسأل إيدن ناتينغ إن كان الفرنسيون يعدّون الاسرائيليين لضرب الأردن؟ وهو أمر كان يقلق البريطانيين كثيرًا في ذلك الوقت.

وتناول إيدن الغداء مع ناتينغ يوم الأحد 14 تشرين الأول/ أكتوبر وبعث رسالة تهنئة الى سلوين لويد في نيويورك، الذي بدا وكأنه قد أحرز تقدمًا في المفاوضات مع الدكتور محمود فوزي وزير الخارجية المصري، ولكنه في المساء عقد اجتماعًا ثبتت خطورته مع مبعوثي غي موليه وهما الجنرال موريس شاليه نائب رئيس هيئة الأركان للسلاح الجوي الفرنسي، وألبير غزييه القائم بأعمال وزير الخارجية الفرنسي، كما حضر الاجتماع أنطوني ناتينغ[1] وتقوم خطة شاليه على التآمر مع إسرائيل، والتي تحولت إلى أداة سياسية مركزية في تعامل إيدن مع أزمة السويس.

حتى موعد ذلك الاجتماع، لم تكن لدى إيدن أدنى فكرة بأن الفرنسيين كانوا متواطئين إلى أبعد حدٍّ مع الإسرائيليين ضد مصر، فقبل أسبوعين، في 30 أيلول/ سبتمبر، اقترح وفد إسرائيلي سرًا على الفرنسيين فكرة خلق ذريعة لفرض الحرب. وتقوم الخطة على غزو إسرائيل لمنطقة قناة السويس، بتفاهم مع القوات البريطانية والفرنسية التي ستتدخل عندها لفض النزاع بين القوات الإسرائيلية والقوات المصرية، مقدمة نفسها إلى العالم كقوات حفظ سلام بين قوتين متقاتلين. وستواجه قوة الطيران البريطاني الطائرات المصرية التي قد تهدد الأراضي الإسرائيلية.

ولقد كان الفرنسيون على اتصال وثيق مع إسرائيل حول اتفاقية قاعدة قناة السويس. فقد شعرت إسرائيل أن انسحاب القوات البريطانية من مصر جعلها في ورطة، بينما كان يخشى الفرنسيون تدخل المصريين في التحدي العسكري والسياسي الذي يواجهونه في الجزائر. وكان لدى الفرنسيين 400 ألف جندي في الجزائر، وكان عبد الناصر يؤيد الثورة

(1) يعتبر البعض أن ذلك مؤشرًا على أن إيدن يعاني من جنون العظمة، ذلك أنه لما كان غي ميلارد يعدُّ تقريرًا حول هذا اللقاء، قال له إيدن: «لا حاجة لأن تدون شيئًا، غي». ولكن حتى ننصف إيدن، كلما دون شيئًا، إلا عُمم على نطاق واسع في وزارة الخارجية، وكان ذلك سلوكًا عاديًا في تلك الأيام. وكان من المستحيل تقريبًا عدم تعميمه، على الأقل على السكرتير الدائم لوزير الخارجية بصفة خاصة، ومن الصعب جدًا منع تعميمه على الأقل على كبار الديبلوماسيين الآخرين، وقد يعمم برقيًا على وزير الخارجية في نيويورك. فدائرة من ينبغي أن يكونوا على علم موسعة لا محالة. من المشروع جدًا أن يقر ر إيدن في تلك المرحلة المبكرة بنفسه من ينبغي له أن يكون على علم، ولكن ذلك كان مؤشرًا مبكرًا هامًا على قناعته بأن العمل مع فرنسا قد يكون وسيلة لحل مشكلته. وقد شدد ميلارد في لقائه معي بأن إيدن لم يُخطر مسبقًا بشأن مشاركة إسرائيل. (ورد في شريط وثائقي بثته القناة التلفزيونية GMTV حول حالة إيدن الصحية إبان أزمة السويس في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 2006م).

الجزائرية، وبالتالي ثمة ما يحفز الفرنسيين على التخلص منه. وقد غيَّرت مبيعات الأسلحة الفرنسية لإسرائيل من توازن توفير الأسلحة في الاتفاقية الثلاثية التي وقَّعتها فرنسا مع كل من الولايات المتحدة وبريطانيا.

وبالنسبة لأي رئيس وزراء، ناهيك عن إيدن ذي الخبرة الواسعة في مجال السياسات الخارجية، حيث تولى منصب وزير الخارجية، فإن اقتراح شاليه بالتواطؤ مع إسرائيل يبدو خطة محفوفة بالمخاطر السياسية داخليًا وخارجيًا. ومنذ اللحظة التي يُعلن فيها عن مشاركة إسرائيل، سيستبعدها إيدن. فهو يعلم أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي تمنع مصر سفنها من استخدام قناة السويس، وبالتالي لديها مصلحة مباشرة في السيطرة عليها. وكان إيدن يعلم بأنه إذا كان على بريطانيا أن تغزو، فمن الأفضل لها أن تفعل ذلك مع فرنسا فقط وقبل انتخابات الولايات المتحدة الأميركية. وقد واجه قراره ذلك انتقادات دولية واسعة، لكن مزيَّته تكمن في زعمه أن غرضه احترام روح اتفاقية قاعدة قناة السويس، التي كان إيدن قد قاد مفاوضاتها وكان عبد الناصر طرفًا فيها.

كان إيدن الحذر بطبعه والمؤيد للعرب، يتوقع، حسب سجله السابق، استبعاد إشراك إسرائيل منذ أن علم بذلك. وبالرغم من أن إيدن لم يلزم نفسه رسميًا بذلك، فإن عدم رفض حضور إسرائيل الاجتماع يعُد في حدِّ ذاته قبولًا بمشاركتها، كما أن أسئلته لم تترك لدى الفرنسيين أدنى شكل حول قبوله للفكرة. فقد فهم شاليه أن إيدن كان متحمسًا بينما شعر ميلارد بأن الأمر إنما «أثار فضوله» لا غير. وقد تساءل ناتينغ الذي كان في السابق مقربًا جدًا من إيدن في كتابه: «كيف ولماذا تم التوصل إلى هذا القرار القاتل؟ وكيف ولماذا لشخص تميز طيلة حياته السياسية بعبقريته التفاوضية، أن يتصرف بشكل يتناقض تمامًا مع طبعه؟»[1]. والحرب التي بدأت بالخداع انتهت بكارثة، وليس في الأمر مفاجأة البتة، والشخص المسؤول عنها، أي: إيدن، لم يكن في أفضل حالاته لما اتخذ مثل ذلك القرار.

وما هي إلا أيام قليلة حتى قرر إيدن كذلك أنه يتعيّن عليه المضي قدمًا على أساس عدم اطلاع الأميركيين على نواياه، واعتقد بحماقة أن تظل علاقة إسرائيل بالخطة سرية عن الأميركيين، وكان ذلك خطأ في التقدير من جميع النواحي. وكان ذلك نتيجة مشؤومة للتآمر مع إسرائيل وفرنسا، وأعتقد أنه لو كان إيدن في أفضل حالاته، لأدرك أن مثل ذلك العمل

(1) Nutting, No End of a Lesson.

يحمل في طياته بذور الدمار. وربما كان وكيل وزارة الخارجية السير أيفون كيركباتريك الدبلوماسي الرفيع الوحيد الذي انحاز إلى التدخل العسكري، يعتقد أن الأميركيين كانوا يفضِّلون عدم الاطِّلاع على الخطط البريطانية الخاصة باستخدام القوة.

كان إيدن يأمل أن استعداد بريطانيا في المضي قدمًا مع الولايات المتحدة في مبادرة هيئة مستخدمي قناة السويس الداعية إلى وضع القناة تحت الإشراف الدولي ـ «فكرة كما يقول عنها ملتوية، ولكن إذا انخرطت فيها أميركا فلا ضير في ذلك» ـ قد يقود إلى فرض عقوبات اقتصادية ثم قد يفرض على جون فوستر دالاس في نهاية المطاف على مضض دعم العمل العسكري[1]. بيد أن هذا الأمر بدا كأنه صعب المنال بحلول تشرين الأول/ أكتوبر.

قرر إيدن إبلاغ سلوين لويد شخصيًا بمقترحات شاليه. وكلّف إيدن ناتينغ بإبلاغ اثنين فقط من كبار المسؤولين في وزارة الخارجية، وعزل بصفة خاصة المستشار القانوني لوزارة الخارجية الذي يعلم يقينًا أنه سيعرقل اقتراح إيدن بدعوى تعارضه مع القانون الدولي. واضطر إيدن بدلًا من ذلك إلى توسل نصيحة رئيس القضاء اللورد كيلموير الذي أكّد أنه يمكن تبرير التدخل العسكري قانونيًا[2]، غير أن رئيس القضاء لا يعد، من الناحية الدستورية، المستشار القانوني لمجلس الوزراء، فتلك مهمة النائب العام. وقد أجرى ناتينغ ـ الذي عارض تمامًا الخطة واستقال حال وضعها موضع التنفيذ ـ محادثة خاطفة مع لويد قبل اجتماع مجلس الوزراء حول ما يخطط له إيدن، وزعم أن لويد ردَّ عليه بتلقائية: «أنت على حق، وليس لنا ما نفعله مع خطة فرنسا». وتحدث إليه ناتينغ ثانية بالهاتف بعد تناوله الغداء مع إيدن لكنه تبيّن له أن صفوه المعكَّر منعه من الإصغاء إلى حججه، ثم سافر مع إيدن إلى فرنسا. ولم يذعن وزير الخارجية ذو الخبرة المحدودة، إلى خطة شاليه فقط، بل قال: بأن اتفاقه في نيويورك مع وزير الخارجية المصري في ستة بنود للتعامل مع الأزمة لم يزكيه عبد الناصر.

كان ذلك أيضًا مؤشرًا على تهور إيدن، حتى إنه صار على استعداد على أن يأخذ في عين

(1) William Roger Louis, **End of British Imperialism: The Scramble for Empier, Suez and Decolonisation** (London: I. B. Tauris, 2006). Pp. 653 - 656.

(2) Geoffrey Marston, «**Armed Intervention in the 1956 Suez Canal Crisis: The Legal Advice Tendered to the British Government**», International and Comparative Law Quarterly (1988), vol. 37, pp. 773-817.

الاعتبار الطريقة التي سيتوخاها الفرنسيون لهزم عبد الناصر. وكان قد استغنى عن وزير خارجيته في باريس خلال ساعات من وصوله إلى نيويورك، دون أن يحضر معه أي ممثل رسمي عن وزارة الخارجية لمساعدته، رغم أن إيدن استفاد من دعم كيركباتريك. وليس هذا الفشل في التشاور من طباع إيدن في شيء. ولكنه واحد من أمثلة عديدة عن الطابع الشخصي وغير المؤسس الذي آلت إليه قرارات إيدن في 10 داونينغ ستريت. ففي فترة حكم تشرشل كانت لجنة الحرب في مجلس الوزراء أثناء الحرب العالمية الثانية تعمل على أتمِّ وجه، وساهمت مختلف مؤسسات الدولة في ذلك. وقد كان ذلك دأب إيدن نفسه كإجراء مناسب.

في مذكرة حملت توقيع لويد في 18 تشرين الأول/ أكتوبر، توثق ما جاء في لقاء باريس في 16 تشرين الأول/ أكتوبر الذي جمع إيدن شخصيًا وموليه وكريستيان بينو، وزير الخارجية الفرنسي، ودون حضور مسؤولين رسميين، كان واضحًا أن اللقاء تركَّز حول مناقشة وتقييم ما قد يكون ردُّ الولايات المتحدة الأميركية إذا هاجمت إسرائيل مصر:

> **يعتقد رئيس الوزراء (إيدن) أن حكومة الولايات المتحدة لن يزعجها أي عمل في إطار الإعلان الثلاثي، أكثر مما يزعج حكومتي فرنسا أو إنكلترا. وقال رئيس الوزراء: إنه سيطلب خلال زيارته إلى واشنطن في الفترة الأولى من العام من الولايات المتحدة أن عليها، لا جدال في ذلك، أن تحظى بموافقة الكونغرس، قبل أن تشارك القوات الأميركية في أيّ عمل عسكري. تم الاتفاق على أنه إذا تدخلت إسرائيل قبل انتهاء حملة الانتخابات الأميركية قد يخول الكونغرس، للولايات المتحدة الأميركية التدخل. ولم يكن مرجحًا أن يتوصل مجلس الأمن إلى اتفاق بشأن الإجراء الذي يتعيَّن اتخاذه. وعلى أيِّ حال إذا كان لا يمكن لمجلس الأمن أن يتخذ قرارات حازمة، فإن الحكومة الفرنسية، بحسب موليه، بوصفها معنية مستعدة لإدانة إسرائيل باعتبارها دولة معتدية إذا هاجمت مصر اعتبارًا للطريقة التي انتهجها المصريون. وتتمثل الفكرة التي تقدم بها بعد ذلك موليه في أنه يمكن للقوات الغربية أن تتدخل لوقف القتال في منطقة القناة. وليس راجحًا أن الولايات المتحدة تريد الالتحاق بتلك العملية لا سيما وأنها تعيش على وقع الحملة الانتخابية[1].**

(1) Selwyn Lloyd personal papers, **National Archives**, ref. FO800/728 - 52 - 53.

ودوَّن لويد في 24 تشرين الأول/ أكتوبر أنه في اليوم السابق، خلال لقاء جمعه في لندن ببينو، التحق به إيدن،

لقد أثيرت مسألة المناقشات مع الأميركيين. لا نية لإقحام الأميركيين في المفاوضات بيننا وبين الفرنسيين اعتبارًا لانشغالهم بالحملة الانتخابية، ولعدم رضاهم على طبيعة تبادلاتنا مع دالاس حول ردة الفعل الأميركية بشأن أي إجراء[1].

يبدو تفسير لويد ذا أهمية بالنسبة لما يُقال حول الأميركيين. وجاء في مذكرات كلاريسا إيدن بتاريخ 24 تشرين الأول/ أكتوبر: «حل بيننا بينو في ذلك المساء. وبعد العشاء تحول أنطوني إلى حدائق كارلتون. وأكد بينو أن الفرنسيين أبلغوا بن غوريون بأننا على استعداد لدعم إسرائيل إذا ما عزمت على مهاجمة مصر منفردة، في حين أن أنطوني رفض دعمها منذ البداية»[2].

إننا على بينة ساعتها أن إيدن اعتمد حصرًا على حدسنا السياسي، وكان في أسوء حالته بدنيًا. فقد أصابته منذ أسبوع فقط حُمَّى حادة مما اضطره إلى تناول خليط من المهدئات من أجل النوم، والمنشطات لتجنب الآثار الجانبية للأدوية، وكان يعاني من توتر امتد منذ نهاية شهر تموز/ يوليو. ولكن ماذا عن حدسه السياسي وقدرته على اتخاذ القرار بالنسبة لمعاصريه الذين لا يعرفون الكثير عن حالته الصحية؟.

وكان اللورد هوم كثيرًا ما يبدي تأييده لسياسات إيدن، ويعمل بكل ما في وسعه لتبريرها وقد عمل في إطار لجنة مصر في رئاسة الوزراء، ولا يفتأ يشيد بأعضاء إدارة إيدن في كل اجتماع[3]. «فكانوا لا يهدئون إلا قليلًا»، و«يقينًا لم يكن رئيس الوزراء في صحة جيدة. ولا أعتقد أن قراره قد تأثر بذلك خلافًا لما ذهب إليه المؤخرون لاحقًا» ويضيف هوم قائلًا: «لم تكن اجتماعات إيدن في ذلك الوقت من الناحية المنهجية مرتبكة». وأما سكرتير وزارة الدفاع الدائم السير ريتشارد باول، الذي كثيرًا ما بوَّأه إيدن منزلة عليَّة، فقد وصف إيدن: «بأنه متقلب وعصبي جدًا»، ويعتبره كشخص «تطور لديه ما يمكن أن نسميه فوبيا عبد الناصر ويعيش حالة هي بمثابة ضرب من التسامي...فلم يكن قادرًا أبدًا على التحكم في نفسه بنسبة

(1) (المصدر السابق، ص 58).

(2) Eden, **Clarissa Eden**, p. 248.

(3) **Canal Too Far, BBC Radio** 3, 31 January 1987.

مائة بالمئة وهذا غريب عن طبعه»[1]. وفي حديثه لجون كولفيل في نيسان/ أبريل 1957م، استعمل قائد القوات الجوية المارشال السير وليام ديكسون، شرمان رؤساء لجنة هيئة الأركان، العبارة ذاتها: «التسامي»، قائلًا إن: «إيدن في أيامه الأخيرة كان بمثابة نبي يوحى إليه، فقد استغنى عن وزرائه وقادة أركانه، وكان يستخف بأي حجة تناهض موقفه ويتحامل على الجميع من منطلق تساميه». إن التسامي يُحدَّد «كحالة نفسية حادة مبالغ فيها أو مميزة أو كحالة من الانتشاء الوهمي»، ويضيف ديكسون: أنه «لم يسبق أن تحدث إليه في حياته بالطريقة التي تحدث بها إليه رئيس الوزراء خلال تلك الأيام العصيبة»[2]. ولم يكن قادة الأركان متحمسون جدًا للتحالف مع الإسرائيليين[3].

ومن بين الأمثلة الغريبة عن حالة إيدن النفسية، أنه طلب من سكرتير تشرشل الخاص آنذاك، أنطوني مونتاغ براون، أن يقترح على تشرشل الانضمام إلى حكومته كوزير بدون حقيبة، وكان تشرشل عندها في الثانية والثمانين من عمره. فرد عليه مونتاغ: «لا أعتقد أنه سيرضى باختصاص العاهرة»، في إشارة إلى التهكم الشهير لستانلي بالدوين - وهو صاحب صحيفة -: «أن تكون في السلطة دون مسؤولية، فذلك اختصاص العاهرة على مر العصور». ولاحقًا تحدث تشرشل مع سكرتيره مازحًا بشأن التراجع دون أن يطلب منه رأيه. ولكن في الحقيقة كان إيدن هو المهرج في اتخاذ مثل هذا الاقتراح[4].

لم يكن غي ميلارد يحضر كل لقاءات إيدن الهامة فيما يتعلق بالشؤون الخارجية فقط، وهو كبير مساعديه الخاص في وزارة الخارجية خلال الحرب العالمية الثانية في 10 داونينغ، ولكن كان يحضر إليه في آخر الليل وفي ساعات الصباح الأولى يقرأ ملاحظاته حول مختلف الملفات، ويستمع إلى مكالماته التليفونية العديدة. وجاء في مذكرات وزارة الخارجية الديبلوماسية بتاريخ 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1956حول حالة إيدن النفسية في

(1) Transcript of interview with Sir Richard Poweell, **papers of the Suez Oral History Project** 1989-91, Liddell Hart Centre for Military Archives, King's College, London, ref. SUEZOHP 16.

(2) John Colville, **Fringes of Power: Downing Street Diaries 1939 - 1955**, rev. Ed. (London: Weidenefeld & Nicolson, 2004), pp. 671 - 672.

(3) Eden, **Clarissa Eden**, p. 250.

(4) **Thorpe, Eden**, p. 519.

أكتوبر: «يقول غي ميلارد لم يكن مخبولًا بل كان مرهقًا جدًا»[1]. يقينًا لم يكن إيدن مخبولًا ولا مخدرًا بحيث لا يقوى على أداء مهامه اليومية كرئيس وزراء. لقد كان يتمتع بقوة على التحمل رهيبة ضمن بعض الوجوه، لا سيما بعد الحُمَّى التي أصابته في أكتوبر. لكن تؤكد عديد الملاحظات الصادرة عن أشخاص بمن فيهم معاصريه على تقلب سلوك إيدن خلال أزمة السويس، وهذا يتوافق مع ما يبديه بعض أولئك الذين يتعاطون منشط الدريناميل.

لقد أكدوا أيضًا على أن إيدن كان يعمل بشكل مختلف تمامًا كلما تعلق الأمر بالسياسات الخارجية خلال العقدين الماضيين، وحتى خلال بضعة شهور سابقة، من ذلك مثلًا أنه كان يفاوض بحكمة ويفحص القضايا بعناية خلال فترة خيبة أمله من نيفيل تشمبرلاين التي أدت إلى استقالته في عام 1938م. وتشير بعض المصادر الموثوقة أن إيدن ساعد تشرشل على تخطي عقبة ضلال قراراته في مناسبات عديدة خلال الحرب العالمية الثانية. وعُدَّت قرارات إيدن فيما يتعلق بالسياسات الخارجية بعد 1951م مبررة في ذلك العصر، رغم أنها وضعت شعبية حزبه على المحك، وهي قرارات اتخذت بصفة موضوعية على غرار اتفاقية قاعدة قناة السويس. وعلى ضوء تحليل ما جرى في شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1956م، تبيّن أن إيدن رجل شريف وشجاع تحمل المرض والإعياء، أرهقته عديد المسائل العويصة، ولكنه اتخذ آنذاك قرارات كثيرة متقلبة لا تتوافق مع ماضيه الرصين. وخلص المحلل التاريخي البروفيسور ديفيد داتون في كتابه: «أنطوني إيدن: حياة وسمعة»، Anthony Eden: A Life and Reputation إلى أنه: «من الصعب أن نفهم لماذا اعتقد إيدن أن عليه أن يتملص من الخطة الفرنسية الإسرائيلية وأخفى ذلك عن الولايات المتحدة، إلا إذا اعتقدت أن قراره لم يكن قد اتخذه وهو في أحسن حالاته الصحية». ولم يتوقف عند هذا الحد بل قال أيضًا: «إن ذلك دليل قاطع على أن إيدن كان في أسوأ حالاته الصحية في تلك الفترة...ففي بداية شهر تشرين الأول/ أكتوبر كان مريضًا ومنهكًا وفي أمسِّ الحاجة للراحة، وربما كان على وشك الانهيار العصبي»[2].

---

(1) Diary of Sir Evelyn Shuckburgh, Shuckburgh papers, ref. MS 191, Special Collections, University of Birmingham. Also published in edited form as Evelyn Shuckburgh, **Descent to Suez: Diaries 1951-56, ed. John Charmley** (London: Weidenfeld & Nicolson, 1986).

(2) Professor David Dutton speaking on Case History: **Anthony Eden, BBC Radio 4**, 1998.

لقد كان إيدن شديد التوتر. ويعتبر وزير دفاعه، والتر مونكتون السنيور الوحيد من بين شخصيات حكومته الذي حافظ على منصبه ممن عارضوا استخدام القوة حتى 18تشرين الأول/ أكتوبر، قبل أن يتنحى. ويفسر انعدام الانشقاق أن لجنة مصر اجتمعت خمسة وثلاثين مرة بين 27 تموز/ يوليو و17 تشرين الأول/ أكتوبر، ولكن لم تنعقد في اجتماعها المقبل حتى 1 تشرين الثاني/ نوفمبر، بعد يوم من قصف سلاح الجو الملكي البريطاني المطارات المصرية[1]. وقد عارض الأدميرال لورد مونتباتن، قائد أركان البحرية، بصعوبة هذه المناورة[2]. لقد قدم استقالته للورد هايلشام، الذي كان آنذاك اللورد الأول في الأدميرالية. ويذكر هايلشام في مذكراته، A Sparrow's Flight «طيران عصفور» أنه اقتدى بتشرشل في الحرب العالمية الأولى مع لورد البحر الأول، الأدميرال جاكي فيشر. وقد أخبر مونتباتن في مذكرة مكتوبة أنه يحقُّ له أن يحمي نفسه بأمر مباشر، وأخبره أن يبقى في منصبه حتى أوامر أخرى. وقد أُعلم إيدن بما أتاه هايلشام وأكّده.

لم يكن مونتباتن زميلًا لين العريكة. فلقد كان سابقًا قائدًا أعلى في آسيا، ثم نائب ملك الهند وعضوًا في العائلة الملكية، وكان جذابًا بكل معنى الكلمة، ولكن بصيرته كانت تثير الشكوك، فذات مرة، بعد عشاء على شرف الجنرال ألفريد غرونثير في 10 داوننغ، جادل مونتباتن مسألة الغزو، و«ظل يجادل ويجادل، وفق كلاريسا، حتى قال له أنطوني: إن السياسة ليست من مشمولاتك»[3]. ولم يكن لدى المشير جيرالد تمبلر الوقت للاهتمام بمونتباتن ويعتقد أنه لم يكن على صواب، في حين لم يعره إيدن اهتمامًا إلا قليلًا. وبعد انطلاق العملية العسكرية، اتصل مونتباتن هاتفيًا بإيدن، مستفيدًا من وضعه المميز، يحثُّه على وقف الغزو الذي شارف على تخوم القناة على إثر قصف المطارات المصرية عن طريق سلاح الجو الملكي البريطاني، إلا أن إيدن رفض هذه النصيحة رفضًا قطعيًا. ومع ذلك، رغم أن مونتباتن كان زميلًا صعب المراس، فقد كان جديًا، واستطاع أن يفحص التفاصيل السياسية، وكان على صواب سياسيًا، وعسكريًا بشأن موقفه من غزو السويس.

(1) Peter Hennessy, **The Prime Minister: The Office and Its Holders since 1945** (London: Allen Lane, 200), p. 235.

(2) (انظر: الهامش في الفصل الثامن).

(3) Eden, **Clarissa Eden**, p. 250.

الغزو

في 29 تشرين الأول/ أكتوبر جرى إنزال قوات مظلات إسرائيلية في سيناء بقيادة قائد عسكري مغمور حينها هو أرييل شارون. وفي اليوم التالي، وحسب الاتفاق مع الإسرائيليين، أصدر البريطانيون والفرنسيون إنذارًا يطالب بوقف إطلاق النار والتهديد بالتدخل إذا لم يتم الاتفاق حول ذلك، إلا أن جمال عبد الناصر رفض الإنذار وفي 31 تشرين الأول/ أكتوبر وبدأ الغزو العسكري الأنجلو ـ فرنسي.

بدا إيدن حينها هادئًا. رغم الضغط والقلق حول 30 تشرين الأول/ أكتوبر، فقد كان في غاية البرود عندما بعث ببرقية إلى الرئيس أيزنهاور بعد الغزو. ففي 31 تشرين الأول/ أكتوبر عندما شنت القاذفات البريطانية ضربات ضد القواعد المصرية، كتبت إليزابيث زوجة لورد هيوم أنها: «أعجبت بالطريقة الجيدة التي بدأ بها رئيس الوزراء وكل من أعضاء الحكومة»[1]. ولكن يبدو أن ذلك كان وضعًا مؤقتًا. فقبل ساعات من بيان إذاعي وجهه إيدن للمواطنين مساء يوم 3 تشرين الثاني/ نوفمبر، رأى مندوب هيئة الإذاعة البريطانية الذي استُدعي الى مقر رئيس الوزراء، حيث كان إيدن مسترخيًا على سريره، وبجانبه عدد من زجاجات الدواء، وكان يبدو مرهقًا حتى أنه اقترح أن يأخذ رئيس الوزراء قسطًا من الراحة قبل إذاعة البيان. بيان جاء فيه قول إيدن: «أنا رجل سلام ورجل عصبة الأمم، ورجل الأمم، المتحدة، وما زلت كذلك».

وقد اعترض سكرتير إيدن الخاص فريدي بيشوب «عن تمويل الغزو أو أن يتخلى عنه». من السهل أن تتخذ موقفًا أخلاقيًا بشأن الانتصار في الحرب، بيد أن التواطؤ قد حصل فعلًا. هذا وإنه لم يكن ممكنًا تجنب التواطؤ في ذلك العصر، ناهيك أن غالبية وزراء حكومة إيدن ولويد كانوا متواطئين. وقد كشفت وثائق مكتب رئيس الوزراء منذ كانون الثاني/ يناير 1987م، أي: بعد 30 سنة من نهاية حكم إيدن للعموم عن تواطؤ فرنسا وإسرائيل في 23 تشرين الأول/ أكتوبر. وكان على الحكومة آنذاك أن تتحدى بالإجماع ذلك التواطؤ وقرار إيدن. لكن ما الذي حال دون ذلك؟ وما الذي جعلهم يوافقون قراره رغم معارضتهم المبدئية.

(1) **Thorpe, Eden,** p. 520 - 521.

إنها سياسة الأمر الواقع باختصار، فعلى أي رئيس وزراء أن يدعم وزير خارجيته الذي له تأثير قوي على قرار الحكومة فيما يتعلق بالشؤون الخارجية، حتى أنه قد يكون في منزلة رئيس الوزراء أو يفوقه كلما كان مدعومًا من قبل وزير المالية فيما يتعلق بالشؤون المحلية. وقد كان لطموحه الشخصي ومشاركته في الحكم دورًا في ذلك أيضًا، لا سيما بالنسبة لهارولد ماكميلان وزير المالية. وقد اعتبر هارولد ويلسون لاحقًا: «أن موقف ماكميلان هو الأول والأخير».

وكان وزير المالية هارولد ماكميلان ملتزمًا التزاما تامًا بسياسات إيدن[1]. وقد نبَّه إيدن بعد لقائه أيزنهاور على انفراد في البيت الأبيض في 25 كانون الأول/ ديسمبر أن: «أيزنهاور مصرٌّ بطريقة أو بأخرى على إسقاط عبد الناصر. وقد شرحت له صعوباتنا الاقتصادية فيما يتعلق باستخدام نفوذنا، وقد أبدى تفهمًا». ولم يطلع السفير البريطاني المرافق لماكميلان على مذكرته آنذاك، ولاحقًا علَّق أنه لا أساس لتفاؤل هارولد بشأن دعم أيزنهاور. ولكن ماكميلان أرسل أيضًا تقريرًا إلى إيدن حول لقائه مع جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأميركية آنذاك. وأبلغ إيدن أن دالس قال: على الرغم من أنه لن يكون لقضية السويس تأثيرًا كبيرًا على الانتخابات في ذلك الوقت: «فإنه إذا وقع أي شيء قد يكون له تأثير كارثي». وذكرني بما قدَّمه لنا من مساعدة هو والرئيس أيزنهاور في أيار/ مايو 1955م بالموافقة على الاجتماع بالقوى الأربعة لكبار على أعلى مستوى، والتي بلا شك كانت ذات فائدة عظيمة في حملتنا الانتخابية. ورأى أن أفضل رد للجميل لقاء ذلك، أن نعمل على إيقاف كل شيء إلى ما بعد 6 تشرين الثاني/ نوفمبر.

كان ذلك التصريح الصادر عن دالاس يحمل أكثر من تلميح بتأجيل أية خطوة إلى ما بعد الانتخابات الأميركية. كما أن إيدن أبلغ بأسلوب واضح بحساسية الانتخابات الأميركية في مراسلات متبادلة مع أيزنهاور[2]، ولكن مع مرور شهر تشرين الأول/ أكتوبر لم يبدو أن

---

(1) Alistair Home, Macmillan 1894 - 1956: **Volume I of the Official Biography** (London: Macmillan, 1998), pp. 420 - 423.

(2) تلقى أيزنهاور رسالة «صديقه العزيز إيدن» يوم 5 تشرين الأول/ أكتوبر الذي يطلب منه فيها أن «يعلن التبريرات العامة لأهمية الدعم التقني للقوات الجوية الأميركية لسلاح الجو البريطاني، حتى يتسنى لها استخدام الأسلحة النووية الأميركية». فرد عليه يوم 12 تشرين الأول/ أكتوبر بأنه لن يفعل ذلك اعتبارًا «لعديد من المسائل الحساسة سواء تعلق الأمر بسياساتنا الداخلية أو بعلاقاتنا بحلفائنا الآخرين»، أما وضعيتنا الداخلية فعلاقتها بانتخابات 6 تشرين الثاني/ نوفمبر لا غبار عليها. وقد قبل إيدن رسميًا بعد صمت بتاريخ 28 تشرين الأول/ أكتوبر. وفي 30 تشرين الأول/ أكتوبر اعتبر أيزنهاور في رسالة إلى «عزيزه إيدن» بأن إيدن «صديقه منذ فترة طويلة» لكنه رغم ذلك حذّره بشأن العملية العسكرية الإنكليزية - الفرنسية - الإسرائيلية وختم «يبدو لي أن الأكثر أهمية أن تحدد المملكة: والولايات المتحدة =

إيدن أو ماكميلان قادران على تقدير تأثير عملية غزو مصر عشية الانتخابات الرئاسية على أيزنهاور. وهذا غريب أن يخاف جُلّ القادة السياسيون تقريبًا خسارة الانتخابات مهما كانوا ديمقراطيين حتى أنهم يتحكمون في استطلاعات الرأي، ويكرهون أي تشكيك قبل أيام قليلة من الاستطلاع. وكان من الحماقة ألا يأخذ إيدن وماكميلان هذا الأمر في الاعتبار. إنه لتقدير خاطئ إذن. وهو ما اعترف به ماكميلان مؤخرًا في مذكراته: «ربما أعرت يوم الانتخابات الرئاسية وزنًا كبيرًا».

كان ماكميلان، بصفته وزيرًا للمالية، وعند استلامه رسائل من واشنطن في ليلة 5 ـ 6 تشرين الثاني/ نوفمبر أول من أدرك خطأ تقديره لردة فعل أيزنهاور ـ فقد كان للأزمة تأثير كبير على الجنيه الإسترليني، وأثّرت على احتياطيات بريطانيا من النقد الأجنبي. وكان ماكميلان في حاجة إلى الحصول على قرض احتياطي من صندوق النقد الدولي، ولكن ذلك سيستدعي الحصول على دعم الولايات المتحدة، غير أنه أبلغ أن مساندة أميركا للإسترليني تعتمد على وقف إطلاق النار بحلول منتصف الليل.هذا إلى جانب الأنباء حول مضايقة الأسطول السادس الأميركي لسفن البحرية البريطانية قبالة شاطئ بور سعيد، التي نقلت إلى ماكميلان الذي غيّر موقفه فيما يختص بدعم العمل العسكري فورًا [1].

ولم تواجه سلطة إيدن هزّة أكثر من تلك التي واجهتها في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر، وكان ماكميلان الشخص الوحيد الذي يمكنه تحدي تلك السلطة علنًا، ويستطيع تحريض مجلس الوزراء الذي فقد تماسكه وقدرته على تنحية إيدن. غير أن إيدن بادر أولًا، حيث استدعى مجلس الوزراء لاجتماع يعقد في مكتبه في مجلس العموم في الساعة العاشرة إلا ربعًا صباحًا وهو يدرك أنه لا يستطيع الحصول على الأغلبية في المجلس للاستمرار في تلك السياسات، وقال: إن الأميركيين قد يدعمون فرض عقوبات اقتصادية عبر مجلس الأمن في وقت لاحق من ذلك اليوم، ولا يوجد بديل سوى الإعلان عن وقف لإطلاق النار، ووفقًا

مواقفهما قبل بقية الدول بشكل سريع وصريح، ومهما حدث سنجد طريقة لتركيز أفكارنا وخططنا بحيث لا يجوز لنا، مهما اشتدت الأزمة، ألا تكون لنا القدرة على القيام بما يجب بسبب سوء فهم الآخرين» وفي اليوم ذاته كتب إيدن رسالة أخرى يعد فيها أيزنهاور بقبول خطته، إلا أن الإنذار الأخير الإنكليزي ـ الفرنسي قد أعلن في وسائل الإعلام قبل أن يصل إلى أيزنهاور. فكتب إليه بصفته الرسمية: «السيد رئيس الوزراء» يوم 30 تشرين الأول/ أكتوبر، وبنفس الصيغة خاطب الوزير الأول الفرنسي غي موليه.

(Peter G .Boyle (ed)); The **Eden-Eisenhower Correspondance** 1955-1956 (Chapel Hill: University of North Carolina Press ; 2005).

(1) Dutton, **Anthony** Eden, p. 442.

لعضو في مجلس الوزراء فقد كان ماكميلان: «شديدًا للغاية في تحذيره بما يمكن أن يقدم عليه الأميركيون»، وأوضح للمجلس خطورة الوضع المالي بصفته وزيرًا للمالية[1].

لقد كانت تلك ورطة دبلوماسية، فقد قال أيزنهاور: «لم أر البتة قوى عظمى تحدث مثل هذه الفوضى وتربك الأوضاع»، وحدث تراجع مخزي لفرنسا وبريطانيا بعد أن فقدتا أصدقاءهما، وكان ذلك أكثر أهمية من الضغوط الأميركية على الجنيه الإسترليني وخطاب التهديد الذي بعثه نيكولاي بولغانين بخصوص قضية السويس، (وكان بولغانين حرّك في فجر يوم 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 200 ألف جندي سوفياتي و4 آلاف دبابة نحو بودابست) وقد تجلّت تلك العزلة بشكل تام في مجلس الأمن.

كان من الأفضل من وجهة نظر إيدن الشخصية، وبالنسبة لسمعة البريطانيين والفرنسيين في الشرق الأوسط، تأجيل الدعوة إلى اجتماع مجلس الوزراء حتى 7 تشرين الثاني/ نوفمبر لكسب الوقت واحتلال القناة بالكامل، وفي الوقت ذاته استخدام حق النقض مع الفرنسيين ضد أي قرار يدعو لفرض حظر صادر عن مجلس الأمن، وقد كان هذا ما يفضله رئيس وزراء فرنسا غي موليه ورئيس الوزراء الإسرائيلي ديفيد بن غوريون، إلا أن إيدن الذي اضطر إلى استباق ماكميلان وحكومته، لم يكن على استعداد للانتظار وتحدي مجلس الأمن.

وقال موليه لاحقًا في لقاء جمعه يوم 6 تشرين الثاني/ نوفمبر بالمستشار الألماني كونار إديناور: «لا يمكن مقارنة القوتين الفرنسية والإنكليزية بالولايات المتحدة الأميركية... ولا بألمانيا. إنهما يحتفظان بطرقهما الخاصة للعب دور حاسم في العالم: إنه توحيد أوروبا... لا وقت لنا للسخافات، لا عزاء لكم إلا أوروبا». وتعتبر معاهدة روما اللبنة الأولى لبناء صرح الاتحاد الأوروبي. وقد وقّعت عليها الدول الأوروبية القارية الست باستثناء بريطانيا سنة 1957م.

التستر

لا شيء يشي بوجود تواطؤ مع إسرائيل بالنسبة لمجلس العموم خلال شن العملية العسكرية وهذا مبرر. ولكن الأمر الغريب وما يشير إلى أن إيدن كان يعتقد أن التستر يمكن أن يستمر لفترة أطول، هو قراره ببعث دبلوماسيين اثنين إلى باريس في محاولة لجمع كل

(1) Horne, **Macmillan** 1894-1956, p. 447.

نسخ ما عرف في وقت لاحق بـ «بروتوكول سيفر»[1] الذي سمي باسم الضاحية الباريسية التي عقدت فيها الاجتماعات والتخلص منها كافة. وكان لويد قد حضر أولى اجتماعات سيفر، في حين حضر الاجتماع الثاني باتريك دين الدبلوماسي الرفيع والسكرتير الخاص للويد، دونالد لوغان. ووافق غي موليه وديفيد بن غوريون، اللذان حضرا الاجتماعين، على التزام السرية التامة[2]، ولكن كان يتعيَّن على إيدن أن يدرك أنه لا يمكن التزام السرية إلى الأبد في البلدان الديمقراطية. فالقادة الفرنسيون والإسرائيليون الذين أغضبهم قرار مجلس الوزراء البريطاني بوقف تقدم القوات في منطقة القناة، ولم يكن لديهم شعور بالذنب جراء تلك العملية العسكرية، وما كانوا سيحفظون السر.

كما كانت نظرة إيدن القائلة: إن التستر سينجح في إبعاد أنظار الاستخبارات الأميركية لفترة أكثر من بضعة أسابيع في أفضل الأحوال، والأرجح بضع ساعات، نظرة غير واقعية تمامًا. بل في واقع الأمر، زعمت الاستخبارات الأميركية أنها على علم بالعملية خلال جميع مراحلها، غير أن هنالك أدلة تشكك في ذلك. ففي 29 تشرين الأول/ أكتوبر عندما ادّعى جون فوستر دالاس أن أول مرة سمع فيها بالاعتداء الإسرائيلي، ظن أن الفرنسيين وليس البريطانيين متورطون فيه. وأنه فقط بعد الإنذار الأخير الذي أعلنه الفرنسيون والبريطانيون، أدرك دالاس وجود نوايا خفية[3]، وطلب من جون كولسون المكلف بالشؤون الإنكليزية في اليوم التالي عما إذا كان المصريون، المعتدى عليهم، يمكن أن يتخلوا عن أراضيهم والخضوع للاحتلال من جديد. وأبرق كولسون إلى لويد يقول: «ما يقض مضجع هذه الجماعات أكثر، هو ما يعتقدون أنه الإخفاء المتعمد من جانبنا، إن لم يكن مؤامرة فعلية مع الفرنسيين والإسرائيليين»[4]. وقد أبلغ كريستيان بينو، الذي كان أكثر واقعية من إيدن، الولايات المتحدة عن حقيقة تواطؤهم، بينما كان إيدن لا يزال يتظاهر أمام الأميركيين بأنه لا وجود لأي تواطؤ، مما زاد من غضبهم.

وإذا ما أخذنا في عين الاعتبار أن إيدن كان يعرف أيزنهاور منذ فترة تزيد على عشر سنوات، فمن سوء التقدير بالنسبة لشخصه الاعتقاد أنه لن يرد على تضليله في مثل تلك

(1) James, **Anthony Eden**, p. 331.

(2) Thorpe, **Eden**, pp. 515 _ 519.

(3) Louis, **Ends of British Imperialism**, p. 658.

(4) **Coulson to Lloyd**, 30 October 1956, FO 800/741.

القضية الحيوية على يد شخص كان يثق به. وقد شعر أيزنهاور بخيانة إيدن له من خلال سلوكه وهذا أمر معقول. وفي الواقع، ووفق ما ذكره لاحقًا السفير البريطاني لدى أميركا آنذاك[1]، فإن أيزنهاور وليس وزير خارجيته دالاس من كان يقرر الخيارات الكبرى في السياسة الخارجية الأميركية. وقد انتقد اللورد هوم عدائية أيزنهاور عندما أمر بإبحار الأسطول السادس الأميركي جنبًا إلى جنب مع القوة البريطانية الغازية[2]، ولكن على غرار الكثيرين استخف بشدة بشخصيته الودودة[3]. وصبَّ إيدن جام حقده على دالاس معتبرًا إياه «ملتو كثعبان جريح، دون وجل»[4]. لكن دالاس كان كبش فداء، ذلك أن وجهة نظر الولايات المتحدة الأميركية كانت واضحة دائمًا.

وقد أضر استمرار إيدن في التستر بموقفه، وعندما قال في مجلس العموم في 20 كانون الأول/ ديسمبر أنه لم «يكن على علم مسبق بأن إسرائيل سوف تهاجم مصر»[5] كانت تلك كذبة. والكذب أمام مجلس العموم أمر لم يلجأ إليه إيدن البتة طوال أكثر من اثنين وثلاثين عامًا، كان فيها عضوًا في البرلمان. وكان ذلك أمرًا مخالفًا لسلوكه وشخصيته، وقد عجَّل بتركه منصبه. ففي الأول من كانون الثاني/ يناير عام 1957م أكد هوراس إيفانز أن على رئيس الوزراء الاستقالة، وإلا فإنه سيضطر للانتحار في نهاية المطاف. وأشار أحد الأطباء إلى

(1) Lord Sherfield, **speaking on A Canal Too Far, BBC Radio** 3, 31 January 1987.

(2) Lord Home, **speaking on A Canal Too Far**.

(3) استنتج أيزنهاور من قراءته لرسالة إيدن: «مما لا شك فيه أنه لما أدرك معارضتنا الشديدة لاستخدام القوة، قرر اعتماد الخطة التي مضى فيها في صمت تمامًا».

(Dwight D. Eisenhower, Ike's letters to a Friend 1941-1965, ed. Robert Griffith (Lawrence: Kansas University Press, 1984), p. 176.

لقد خرج أيزنهاور من عامين من المراسلات مع إيدن بشكل جيد للغاية، وأما ما ميز صورته الشعبية بشكل كبير هو اعتباره رئيسًا شبه منفصل ومنشغل بالخليج. إيدن، الذي كان يعلم كل الأسباب من اتصاله الشخصي، أنه تهور في تجاهله لرأي أيزنهاور، وبحسب لهجة الرسالات السابقة لن يفعل ذلك قبل تشرين الأول/ أكتوبر 1956م، وهو الوقت الذي ابتلي فيه إيدن بالخيار الإسرائيلي. اعتبر أيزنهاور أن إيدن ليس في حاجة لأن يخادع نفسه بالاعتقاد بأنه ـ أيزنهاور ـ يمكن أن يتحمل عشية الانتخابات الرئاسية أن يرى الأميركيون سلطته الدولية تُداس علنًا من قبل البريطانيين. وأما بعد انتخابه لولاية ثانية، فقد كان أيزنهاور أكثر سخاء لإيدن من دالاس. طلب أيزنهاور مقابلة إيدن وكان في ذلك الحين دالاس، عندما كان في المستشفى، أقنعه بعدم مقابلة إيدن ومولييت وذلك بعد وقت قصير من وقف إطلاق النار. وعلى ضوء هذا التفاعل، كان غزو قناة السويس قد انطلق خلال بضعة أسابيع لاحقًا، أما رد فعل أيزنهاور فقد كان أكثر تحفظًا.

(4) James, **Anthony Eden**, p. 617.

(5) Hansard, HC Deb, 20 December 1956, vol. col. 1518.

إصابته بأضرار في الكبد[1]. وفي الواقع فقد استقال إيدن لأسباب سياسية لا صحية. وأعلم إيدن وينستون تشرشل مسبقًا بقراره. ومن بين آخر ما قام به من مهام كرئيس للوزراء إملاء مذكرة حول آخر لقاء له مع الملكة في 9 كانون الثاني/ يناير قبل تقديم استقالته في اليوم التالي: «لقد أبلغتها أن تقرير الأطباء الذي اطَّلعت عليه الملكة لم يترك أي خيار سوى التخلي عن واجباتي كرئيس لوزرائها»[2].

استنتاج

ما مدى أهمية مرض إيدن في كارثة السويس؟ يقول المؤرخ والنائب البرلماني السابق عن حزب المحافظين روبرت رودس أنه ليس من الهين عليه: «تحديد العوامل التي دفعت إيدن للالتزام بموقف شرعي تمامًا إلى آخر يكاد يكون غير شرعي»[3]. وهنالك من تشكك في أن يكون مرضه قد شكل عاملًا مهمًا. وقد كتب هيغ توماس أن أحد الأطباء ممن أشرفوا على وضعه الصحي، قد يكون الدكتور تي هانت، اعتقد أن إيدن ما كان سيتصرف بطريقة مختلفة للغاية في شأن أزمة السويس لو كان يتمتع بصحة جيدة. غير أنني لا أعتقد أن تلك الملاحظة يمكن تبريرها عند الأخذ بعين الاعتبار التحليل المفصَّل الذي قدمته حول توقيت قرارات إيدن الخطيرة، والحالة الصحية التي كان يمر بها. إن كعب أخيل في أزمة السويس ليس الخطوة العسكرية، بل قرار التواطؤ مع إسرائيل من دون دعم أميركي. وإذا كان إيدن في حالة صحية جيدة حينها، فإن الإدلة تشير، بالنسبة لي، إلى إنه كان سيرفض السير في مثل ذلك المسار.

ويقينًا، يعزى اعتقاد إيدن في الحاجة إلى اتخاذ موقف قوي إلى نظرته إلى أزمة السويس بوصفها جزءًا من مشكلة أشمل، يمثلها في رأيه التهديد السوفياتي. ولا علاقة لنظرته تلك بحالته الصحية. وقد اعتبر إدين الاتحاد السوفياتي ونواياه القريبة والبعيدة المدى في الشرق الاوسط تهديدًا خطيرًا. وقد عبَّر عن مواقفه تلك في رسالة كتبها إلى عضو مجلس العموم، المحافظة إيرين وارد، في تشرين الأول/ أكتوبر 1956[4]. ولاحقًا في مذكراته: «الدائرة

(1) Eden, **Clarissa Eden**, p. 261.

(2) **Avon Papers**, ref. AP20/33/12A.

(3) James, **Anthony Eden**, p. 532

(4) كتب إيدن: «من الغريب أن يقارن البعض، كما اتفق، هذه الأحداث عام 1938م، وإن كانت شبيهة بها. بطبيعة الحال مصر ليست ألمانيا، لكن مصر لا تعدو أن تكون سوى بيدقًا لروسيا. لدي شك أن في ذلك الوقت، أو إلى ذلك الحين، =

الكاملة» Full Circle. قدم إيدن تفسيرًا خاصًا ومقتضبًا لتبريراته للتدخل العسكري الأولي، ثم انسحابه إلى سكرتيره الخاص السابق بوب بيرسون ديكسون والذي لا زال يثق به جدًا، عندما غادر هذا الأخير الأمم المتحدة في نيويورك. وكان إيدن يخشى قيام عبد الناصر المتهور المسنود بدعم سوفياتي بتحرك ضد إسرائيل في ربيع عام 1957.

لقد كان التدخل في محله يقينًا. إلا أن المشكل يتمثل في ألا أحد بإمكانه أن يثبت قط أن الوضع كان يمكن أن يكون أسوأ إذا لم تُتخذ التدابير اللازمة. إنه يعتقد أن عبد الناصر لا يختلف في شيء عن موسوليني، ومن ثمة لا بد من القيام بشيء ما ضده لوقف ديكتاتوريته. وحتى نأخذ مثالًا آخر، عندما تحركنا ضد هتلر أكثر من راينلاند، واجهنا العديد من الانتقادات، ولكن ذلك ما كان يتعين فعله من أجل إنقاذ الملايين من الأرواح. وفي تقديره إن ناصر والروس سيتحركون في الشرق الأوسط (من المحتمل ضد إسرائيل) في آذار/ مارس أو نيسان/ أبريل من العام التالي تقريبًا. ولأنه لا يمكن للقوات أن تبقى معلقة إلى أجل غير مسمى في قبرص، اعتقد أنه لزامًا عليه أن يتخذ القرار في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر حتى يغير قبل المصريين.

وفي صبيحة اليوم الذي أُعلن فيه وقف إطلاق النار، هاتفه الرئيس وقال له: إنه سعيد بذلك. وأضاف: كلما كنا واقعيين، كلما حصلنا على كل ما نحتاجه. لم يكن السير أنطوني قادرًا على مواصلة المكالمة، إذ كان خارج مجلس العموم للإعلان عن وقف إطلاق النار، وأبلغ الرئيس أنه سيخاطبه من جديد. وتحدث مع الرئيس بعد الغداء واقترح عليه «أن يلتقيا». فوافق الرئيس وسأله: متى يكون ذلك؟ فقال له السير أنطوني: كلما كان أقرب كان ذلك أفضل. ثم اقترح عليه الرئيس أن يحضر اللقاء موليه، فوافق السير أنطوني على ذلك دون تردد[1].

وقد أكد برسي كرادوك ـ وهو ديبلوماسي متمرس جدًا ورئيس لجنة الاستخبارات المشتركة سابق ـ في تقييم مثير للاهتمام بطريقة توظيف إيدن للمعلومات الاستخباراتية

= تركنا الأحداث تسير حتى الربيع، روسيا ومصر يمكن أن تكونا جاهزتين للانقضاض، مع اعتبار إسرائيل والمصالح الغربية بمثابة هدف واضح موحد وحقيقي. لا يمكن أن يتخلص الروس من كل تلك المعدات من أجل المتعة، ومع ذلك يبدو أن الكثيرين فشلوا في تقدير ذلك، ووثقوا في ناصر كما وثق آخرون في هتلر قبل سنوات تقريبًا.
(Letter To Dame Irene Ward, Avon Papers, ref. AP20/ 33/ 8A).

(1) Bob Pierson Dixon's report of discussion with Sir Anthony Eden at Government House, Ottawa, 25-26 May 1957, **Collection of Steve Forbes**, New York.

في ذلك الوقت، وقد كان يعي جيدًا حقيقة ما يقوم به رئيس الوزراء في مقر الحكومة في 10 داوننغ. وعن ذلك كتب يقول:

> **مع حلول ربيع 1956م، لم يكن لتقييمات لجنة الاستخبارات المشتركة تأثير كبير على إيدن. فناصر بالنسبة إليه غير قابل للإصلاح، إنه يعتبر نفسه الأكثر نفوذًا في المنطقة. وكان يقع بالفعل في ممارسة خطيرة إذ ينتقي المعلومات الاستخباراتية التي تتناسب مع أفكاره المسبقة، وإذ لا يعير اهتمامًا لرأي الأغلبية الأكثر توازنًا في اللجنة[1].**

لو فُتح تحقيق جدي في شأن أزمة السويس، لاتعظ توني بلير من ذلك وتجنب عديد الأخطاء التي ارتكبت في العراق. إن تعامل رئاسة الحكومة مع أزمة دولية مركبة في الحالتين كارثي. ورغم النجاح العسكري في القضيتين إلا أن عواقبهما السياسية كانت كارثية. ومع ذلك هناك فوارق جوهرية بين السويس عام 1956م والعراق عام 2003م. ففي حين حظي بلير بدعم رئيس الولايات المتحدة الأميركية، لم يكن إيدن يأخذ في عين الاعتبار نصائح الرئيس الأميركي. وإذا كان بلير يعتمد على رئيس عديم الخبرة وغير ناضج، فإن إيدن كان يتجاهل رئيس وقائد عسكري متمرس على أعلى مستوى. ومنذ عام 2008م أصبح جليًا أن العراق كان أكثر ضررًا على المصالح البريطانية على المدى الطويل من السويس، ومن ثمة يتعيَّن فتح تحقيق بشأن حرب العراق(*).

لم يكن مرض إيدن سوى أحد العوامل التي أثرت على سياسته تجاه تأميم قناة السويس إلا أنه كان أشد وطأة فيما يتعلق بالطريقة التي نُفِّذت بها تلك السياسة. وكان روبرت كار الوزير البارز في حزب المحافظين في أوائل السبعينات عندما كنت عضوًا في البرلمان. صديقًا مقربًا من إيدن ومن المعجبين به، وتولى منصب سكرتيره الخاص. ولذلك فإني أعتبر تقييمه للحالة الصحية والذهنية لإيدن في ذلك الوقت تقييمًا مهمًا. وكما جاء على لسانه:

---

(1) Percy Cradock, Know Your Enemy: **How the Joint Intelligence Committee Saw the World** (London: John Murray, 2002).

(*) اعتذر رئيس الوزراء البريطاني توني بلير وأعرب عن حزنه العميق لما حدث في العراق، بعد نشر لجنة التحقيق البريطانية شلكوت تقريرًا اتهم فيه بلير باجتياح العراق دعمًا لبوش، وبناء على معلومات مغلوطة في تموز/ يوليو 2016م.

«إنني أجد صعوبة في قبول ما يقال من أن صحة إيدن لم يكن لها تأثير حاسم على الأقل فيما يتعلق بسياساته...وقد كان سيتبع السياسة الأساسية ذاتها لو كان في صحة جيدة، ولكني أجد صعوبة كبيرة في الاعتقاد بأنه كان سيرتكب مثل تلك الأخطاء الفادحة في تنفيذها في المجالين السياسي والعسكري»[1].

ويتفق اثنان من الجراحين المطَّلعين على أن تسلسل الأحداث يشير بقوة إلى أن مرض إيدن كان عاملًا جوهريًا في اتخاذ القرار في الأشهر الحاسمة، تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر 1956م، واستنتج أحدهما أن كارثة قناة السويس ساهمت بشكل مهم في العواقب الوخيمة والمأساوية لإصابة قناته الصفراوية[2].

على ضوء ما قاساه إيدن من آلام شديدة وحُمَّى حتى بلغت درجة حرارة جسمه 106 درجة على مقياس فهرنهايت في 5 تشرين الأول/ أكتوبر، وذلك قبل تسعة أيام قبل أحد أهم القرارات الحاسمة في أزمة السويس، أي: التواطؤ مع إسرائيل، لا أعتقد البتة أن أيًا من قراراته قد تأثر بمرضه. قد لا نعلم قط على وجه الدقة مقدار الأمفيتامينات التي يتناولها إيدن آنذاك، لكن يمكن استخلاص بعض المؤشر ات بشأن مقدارها من خلال تصريحات السير هوراس إيفانز الذي كان، خلافًا لموران، رجلًا متحفظًا وينتمي إلى التقليد الطبي الذي يؤمن بأن أسرار المريض تذهب معه إلى القبر. وكتب راي باتلر، الذي ترأس الحكومة في غياب إيدن في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر، أنه ربما رأى إيفانز (الذي كان طبيبه الشخصي أيضًا) في قاعة الاستقبال في مقر الحكومة في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر. وقد شعر إيفانز حقًا أن عليه أن يصارح باتلر بالحقيقة، وقد تذكر باتلر أن إيفانز قال له: «أنه باستطاعة أنطوني أن يعيش دون منشطات بعد الآن، وربما منذ أن أوصي بقضاء فترة نقاهة في مصحة في جامايكا لبضعة أسابيع حتى يسترجع عافيته»[3]. وعلى ضوء عبارة: «أن يعيش على المنشطات»، من المرجَّح جدًا إن إيدن كان يتعاطى أكثر من قرص من الدريناميل يوميًا بداية من تشرين الأول/ أكتوبر. وبحسب مجلة طبية مختصة في هذا الشأن، فقد أثَّر ذلك بشكل جلي على

(1) Dutton, **Anthony Eden**, p. 424.

(2) John W. Braasch. «Anthony Eden's (Lord Avon) Biliary Tract Saga», **Annals of Surgery** (2003), vol. 238, pp. 772 - 775; Professor Gabriel Kune, speaking on GMTV, 5 November 2006.

(3) Lord Butler, **The Art of the Possible: The Memirs of Lord Butler, KG, CH** (London: Hamish Hamilton, 1971), p. 194.

قراراته وتقديره إذ كان متغيرًا ومتقلبًا من يوم إلى آخر، وذلك سواء أكان تحت التأثير الكبير للمنشطات أو للمهدئات.

ومن أجل مصلحة البلاد كان على أطبائه اقناعه بالتوقف عن اتخاذ القرارات لفترة على الأقل بعد تعرضه للحُمَّى الشديدة. ولما عاد إلى مقر الحكومة من المستشفى في نهاية الأسبوع اعترف للويد بأنه مازال «واهنًا جدًا» وقد أصبح الغزو آنذاك لا مفر منه.

ولو أن إيدن قرر الاستقالة بسبب حالته الصحية أو إنه كان قد أبلغ مؤتمر الحزب بأنه مريض وأنه سيسافر استجابة لنصيحة أطبائه إلى جامايكا في تلك الليلة 13 تشرين الأول/ أكتوبر، وليس كما فعل في تشرين الثاني/ نوفمبر، لكان تاريخ أزمة السويس مختلفًا تمامًا. ولكانت مفاوضات سلوين لويد في نيويورك مع وزير الخارجية المصري التي اعتبرها إيدن وأنطوني ناتينغ تدعو للتفاؤل قبل لقاء شاليه، استمرت لبضعة أسابيع إضافية. ولما كان رئيس الوزراء بالوكالة، باتلر مثلًا أو وزير الخارجية في وضع يمكنه اتخاذ سياسة جديدة تمامًا مثل تلك التي اقترحها الفرنسيون والإسرائيليون، وعلى الأقل حتى بعد انتهاء الانتخابات الرئاسية الأميركية في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر.

كما أن الوضع في هنغاريا كان سينتهي الى نتيجة مختلفة في حال عدم غزو قناة السويس في تشرين الأول/ أكتوبر. ففي الوقت الذي اعتدت فيه إسرائيل على مصر في 29 تشرين الأول/ أكتوبر كانت الثورة الهنغارية التي بدأت في 23 تشرين الأول/ أكتوبر في حالة وقف لإطلاق النار، والقوات السوفياتية التي أُرغمت على التراجع كانت في حالة انسحاب. إلا إنه في 2 من تشرين الثاني/ نوفمبر سافر نيكيتا خروتشيف للقاء الزعيم اليوغسلافي المارشال جوزيف بروز تيتو، وقد وافق تيتو في الساعات الأولى من 3 تشرين الثاني/ نوفمبر على أن هناك سببًا يدعو السوفيات لغزو هنغاريا. وقال خروتشيف لتيتو: إن أزمة السويس:

«فرصة مناسبة...إذ ستساعدنا وسيكون هنالك ارتباك وصخب في الغرب وفي الأمم المتحدة، ولكنه كان سيكون أقل بكثير مما لو شنت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل حربًا ضد مصر، فهم متورطون هناك ونحن متورطون في هنغاريا»[1].

وبعد وقت قصير من منتصف ليلة الأحد 4 تشرين الثاني/ نوفمبر اخترقت الدبابات

(1) Victor Sebestyen, Twelve Days: **Revolution 1956- How the Hungarians Tried to Topple Their Soviet Masters** (London: Weidenfeld & Nicolson, 2006), p. 251.

السوفياتية الدفاعات المحيطة ببودابيست، وفي 5 تشرين الثاني/ نوفمبر بعث بوب بيرسون ديكسون برقية إلى وزير الخارجية في الأمم المتحدة يقول فيها: «قد أصبح وضعنا دون شك متدنيًا شأننا شأن روسيا لقصفها بودابست، ولا أرى أنه سيكون في مقدورنا أن نكون مقنعين في احتجاجنا على القصف الروسي لبودابست، في الوقت الذي نقصف نحن فيه القاهرة» (في علاقة بأول قنبلة انفجرت على مقربة من محطة القطار).

لقد كان لأزمة السويس أثر بالغ طويل المدى على السياسة الخارجية البريطانية والفرنسية، وقد تحدَّى الفرنسيون في غضب الهيمنة الأميركية. في حين عمل البريطانيون، بعد إذلالهم، على إعادة بناء علاقتهم المخصوصة مع الولايات المتحدة والاعتماد عليها. وجاء في عبارة النعي الذي نشرته صحيفة التايمز في عام 1977م: «لقد كان إيدن آخر رئيس وزراء يعتقد أن بريطانيا قوة عظمى، والأول الذي واجه أزمة أثبتت أنها ليست كذلك».

كان إيدن في عام 1956م أكثر السياسيين الدوليين خبرة في البلاد. لقد استقال من منصبه بشجاعة بسبب المهادنة، كما لعب دورًا مهمًا في حكومة الحرب العالمية الثانية. وقد تراجع تأثيره الدولي لأن التأثير البريطاني تراجع بتراجع إمبراطوريته. وقد صرَّح غي ميلارد لأول مرة، بعد ثلاثين سنة من أزمة السويس مقيِّمًا قرارات إيدن داخليًا: «لقد كان خطأه بطبيعة الحال، وهو خطأ كارثي ومأساوي بالنسبة إليه. أعتقد أنه بالغ في تقدير أهمية ناصر ومصر والقناة وحتى الشرق الأوسط ذاته»[1].

لقد كان على إيدن أن يقيِّم نفسه ساعة بساعة في تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر 1956م، حين كان يكافح بشجاعة مرضه الخطير. لقد كانت بعض قراراته سديدة وكانت سببًا في ذيوع صيته. وفي علاقته بالقرارات الثلاثة الحاسمة ـ التواطؤ مع إسرائيل، خداع الرئيس الأميركي، والكذب على مجلس العموم، ـ حتى بعد الغزو ـ كان تقديره ضعيفًا بشكل خطير، وقد ساهم مرضه وعلاجه بشكل كبير جدًا في هذا الضعف.

(1) Guy Millard, **A Canal Too Far, BBC Radio** 3, 31 January 1987.

الفصل الرابع

صحة الرئيس كينيدي

«كيف حال وجع ظهرك؟».

أجاب الرئيس مبتسمًا: «بحسب حال الطقس: السياسي وأشياء أخر».

مؤتمر صحفي[1]

انتُخب جون فيتزجيرالد كينيدي رئيسًا للولايات المتحدة الأميركية في تشرين الثاني/ نوفمبر 1960م بـــ 303 أصوات من المجمع الانتخابي مقابل 219 لريتشارد نيكسون، ولكن بأغلبية ضعيفة أثناء التصويت الشعبي 118.574 من مجموع 68.837.000 صوتًا. غير إنه أثناء سبر للآراء تم بعد الخطاب الافتتاحي الذي ألقاه كينيدي يوم 20 كانون الثاني/ يناير عام 1961م فإن حوالي ثلاثة أرباع الشعب الأميركي دعمت رئيسها الجديد، وفي كل أرجاء العالم تردد صوت شاب وواثق من نفسه قائلًا:

> **إن صوت البوق ينادي الولايات المتحدة الآن، ولكنه ليس نداء لحمل السلاح بالرغم من الحاجة إليه، وليس نداء حرب بالرغم من انخراطنا فيها، بل نداء دعوة إلى تحمل العبء، عبء كفاح طويل آيل لا محالة سنة بعد سنة... وهو كفاح ضد الأعداء المشتركين للإنسان من الفقر والمرض والحرب ذاتها.**

وفي الثالثة والأربعين بدا الرئيس مفعمًا «بالفيغا» بحسب عبارته الأثيرة، وبالحيوية وروح الدعابة. لقد كان أول رئيس كاثوليكي تابع للكنيسة الرومانية، وأول من وسم بميدالية «القلب الأرجواني» Purple Heart وأصغر رئيس تنتخبه الولايات المتحدة، ولكنه ويا للمأساة أصغر رئيس يتوفى أيضًا، ورابع رئيس أميركي يُغتال. غير أن البعض لم يكن مقتنعًا

(1) Gretchen Rubin, **Forty Ways to Look at JFK** (New York: Ballantine, 2005), p. 125.

بجاذبية كينيدي، ولم يكن الكل مأخوذًا بصورته التي بدا عليها منذ البداية. قالت الصحفية دوروثي تومبسون لأحد أصدقائها حينما استمعت إلى خطاب كينيدي الافتتاحي: «هناك شيء ما ضعيف وعصابي عند هذا الشاب». كانت هذه ملاحظة غير مستحبَّة، ولكنها على قدر كبير من الفطنة لا تزال إلى اليوم تشوش تلك التقييمات العقلانية حول رئاسة كينيدي.

كان زعماء كبار في السن يحتلون مواقع السلطة ما وراء الأطلسي، فسكرتير الاتحاد السوفياتي نيكيتا خروتشيف كان في السادسة والستين تمامًا مثل رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان، والرئيس الفرنسي شارل ديغول في الستين، ورئيس الوزراء الهندي جواهر لال نهرو في الواحدة والسبعين، ورئيس الحكومة الإسرائيلية دافيد بن غوريون في الرابعة والسبعين، والبابا يوحنا الثالث عشر في التاسعة والسبعين، في حين كان المستشار الألماني كونراد أدناور في الرابعة والثمانين، غير أن كل هؤلاء الرجال كانوا في حالة صحية أفضل من حال كينيدي. والحقيقية أن القليل من الناس يصل إلى مواقع السلطة دون بعض الأسرار. إلا أن كينيدي كان يعيش مع سر خطير حينما أدَّى القسم الرئاسي، لقد ضلل الشعب الأميركي متعمدًا فيما يخص صحته، فقد كانت أسوأ مما يمكن لعامة الناس أن يتصوروا، إنه كان يعاني من مرض أديسون[1] مما جعله تحت رحمة العلاج الهرموني ليبقى على قيد الحياة، وكان على يقين بأنه يعتمد اعتمادًا كليًّا على الحفاظ على السر من أجل الفوز والظفر بالرئاسة. خلال انتخابه ضاعت حقيبة تحوي بعضًا من أسراره الطبية، وكان كينيدي يعلم علم اليقين أنه لو قُدِّر لهذه المعلومات أن تتسرب في تلك الفترة العصيبة، لكانت صدمة تورية الأمر وحقيقة مرضه يعنيان خسارة الانتخابات أمام خصمه الجمهوري نائب الرئيس ريتشارد نيكسون.

بيد أن الأخطر هو أنه لم تكن هناك أية علامات تدل على أن كينيدي والذي نذر نفسه

---

(1) مرض أديسون (يسمى أيضًا: قصور الغدة الكظرية المزمن) يسبب فشلًا جزئيًا أو كليًا في الغدة الكظرية. كان توماس أديسون هو أول من اكتشفه في العام 1855م. ويعتبر معظم الأطباء سببه في الوقت الحاضر قصورًا في المناعة الذاتية لقشرة الغدة الكظرية. وقد تتطور الأعراض ببطء منذ الطفولة مسببة بذلك ضعفًا ووهنًا، وتحتد مع التقدم في العمر كما حصل لكينيدي. أو من المحتمل أن يصل المرض إلى حالة خطرة وطارئة مما يسبب انهيارًا في الوظائف الجسدية الطبيعية، ناتجة عن نقص في هرمونات الأدرينوكورتيكوسترويد، وتحديدًا الكورتزيول والأندروجين. وهو يصيب شخصًا واحدًا من بين كل 25000 شخص من السكان. وكان سابقًا مرتبطًا جدًا بمرض السل، حيث أن أقل من 20% من الحالات المصابة به كانت بسبب السل، بينما 70% بسبب التدمير الذاتي للجهاز المناعي. ويمكن أن يكون نتيجة النمو الثانوي أو نقيلة من سرطانة سيلالنية مثل سرطان الشعب الهوائية، أو بسبب تلف أو إزالة الغدة النخامية، التي تتصل بالدماغ. ويصرف للمرض علاج بديل للكمية الضئيلة من هرمون الهيدروكورتيزون.

لخدمة البلاد، قد سعى إلى أن يغيِّر نمط حياته، بل بالعكس فهو لم يسع إلى تعيين أحد من كبار أطباء البلاد طبيبًا خاصًا له، ولم يبد أنه حاول وقف تعاطي المخدرات المنشطة التي تمنحه شعورًا بالانشراح، لعله حاول ولم ينجح، وعوضًا عن ذلك ركَّز اهتمامه على كيفية استثمار ما توفره قوة منصب الرئاسة من أجل إبقاء وضعه الصحي أمرًا سريًا، محاولًا إعطاء صورة عن نفسه باعتباره رجلًا سويًّا طبيعيًّا ذا صحة جيدة، ورجل عائلة سعيد، وهي صورة كانت بعيدة كل البعد عن الواقع.

كنت في بداية رئاسة كينيدي لا أزال طالب طب في لندن، وكنت مثل الكثير من الشباب حول العالم أعلِّق عليه آمالًا عريضة، من المستحيل ألا يكون المرء يقظًا ومتخوفًا من حقيقة أننا كنا نعيش أوقاتًا صعبة وخطيرة، فقد كانت الحرب الباردة في أوجِّها، وكل التركيز آنذاك منصب على الخطر الشيوعي الذي يريد فصل برلين، والتسابق النووي بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، وكانت أزمة الصواريخ الكوبية مظهرًا من مظاهر هذا الصراع الذي ينبغي تذكر رئاسة كينيدي بسببه.

في يوم الاثنين 22 تشرين الأول/ أكتوبر 1962م قطع كينيدي بشكل عاجل الأخبار ليتكلم أمام الشعب قائلًا: بأن صواريخًا قادرة على ضرب الولايات المتحدة عُثر عليها في كوبا، وتابع حوالي مئة مليون أميركي الخطاب مشدودين إلى أجهزة التلفاز، إضافة إلى ملايين آخرين تابعوه عبر العالم. وفي الوقت ذاته قام الاتحاد السوفياتي بتخزين 162 رأسًا نوويًّا في كوبا خفية عن أعين إدارة كينيدي، إضافة إلى أربع غواصات نووية تتابع البوارج البحرية الأميركية قرب الجزيرة، وتحمل كل غواصة من هذه الغواصات طوربيدات حاملة لرؤوس نووية، ولها صلاحية إطلاقها دون الرجوع إلى قاعدتها السوفياتية بما أنها خارج مدى اتصالها بها[1]. كانت الحرب الباردة على وشك أن تتحول إلى حرب نووية، وبحسب عبارة خروتشيف فقد كان ذلك: «زمنًا علقت فيه رائحة الحرق في الهواء».

كان خروتشيف يترقب خطاب كينيدي في الكرملين، مستعدًا لاستخدام الرؤوس النووية في كوبا إذا ما أعلن كينيدي غزو الجزيرة، متحديًا بذلك سلطة كينيدي علنًا وقريبًا من السواحل الأميركية، وفي منطقة اعتبرتها حكومة الولايات المتحدة بشكل واضح منطقة نفوذ أميركي منذ إعلان مبدأ مونرو سنة 1823م.

(1) Robert McNamara, «Apocalypse Soon», Foreign Policy, May/June 2005.

وبينما توجه كينيدي بخطابه إلى الأمة، كان السوفيات قد أعطوا تعليمات خطية إلى قائدهم العسكري في كوبا الجنرال إيسا بلييف Issa Pliev بأن: «يضع كل قواته في أقصى حالات الاستنفار»[1]. والتي بلغ تعدادها 41000 فرد، وبالتالي أقل عددًا في حالة أي هجوم أميركي. وكان الخلاص الوحيد بالنسبة إلى القوات السوفياتية هو وجود صواريخ «لونا» قصيرة المدى حاملة للرؤوس النووية. تبلورت بشكل مؤقت مجموعة من التعليمات حول كيفية استعمال هذه الصواريخ الحاملة، إلا أنه لحسن الحظ أقنع وزير الدفاع السوفياتي الماريشال رودين مالينوفسكي زملاءه بتأخير موعد إعطاء التعليمات بنشر صواريخ «لونا»، وإعطاء أوامر للقوات السوفياتية في كوبا تمنع استعمال هذه الأسلحة النووية. لقد كان مالينوفسكي على درجة من الحكمة ليخشى ما كان سيحدث لو إن واشنطن تمكنت من التقاط رسالة مشفَّرة تعطي صلاحية استعمال الأسلحة النووية التكتيكية، قبل أن يحدث أي غزو بعد. كما أعطت موسكو أيضًا تعليمات واضحة فيما يبدو بعدم إطلاق الصواريخ العابرة المحملة برؤوس نووية المعروفة بـ R12 والتي يبلغ مداها 1100 ميل دون إذن مباشر.

ليس من المبالغة في شيء القول إن مصير جزء كبير من العالم كان بيد كينيدي وخروتشيف في تلك الأيام العصيبة من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1962م. وبصرف النظر عن الاستفزاز الأصلي الذي قام به الاتحاد السوفياتي، فإنه تمكن من إدارة الأزمة بصعوبة ومسؤولية كبيرة. كما أن الرئيس كينيدي يستحق أيضًا احترامًا كبيرًا لكيفية معالجته لأزمة الصواريخ الكوبية، فقد كان متزنًا عاقلًا، بل وفي أحايين كثيرة مدركًا للدقائق ولكن في غير ضعف، فقد كان صارمًا ومصممًا وبصرف النظر عما يمكن أن يقال من ترديده لـ «لو.... ولو....» فإن استراتيجية المواجهة المفتوحة التي توخاها كينيدي قد أثمرت في الأخير. غير أني كنت دومًا أجد صعوبة في ضوء أدائه خلال هذه الأزمة في فهم سلسلة الأخطاء التي ارتكبها الرئيس كينيدي فيما يتعلق بالقرارات ذات الصلة بكوبا قبل عام من ذلك، أي: أثناء الفشل الذريع في «خليج الخنازير». لماذا خطط ودعم الهجوم على كوبا بـ 1500 مقاتل كوبي معادين لكاسترو في 17 نيسان/ أبريل 1961م؟ بل الأهم من ذلك لماذا كان لقاء فيينا بينه وبين خروتشيف في حزيران/ يونيو 1960م من قبل فاشلًا بشكل ذريع كهذا؟.

لقد كان خليج الخنازير بحسب عبارة المؤرخ تيودور درابر: «إحدى الأحداث القليلة

(1) Aleksandr Fursenko and Timothy Naftali, **«One Hell of a Gamble»: The Secret History of the Cuban Missile Crisis** (London: John Murray, 1997), pp. 240 - 243.

في التاريخ التي تعد فشلًا تامًا»، كما قمة فيينا التي تلتها مع خروتشيف فشلًا أكبر وأخطر دون شك، والتي كان كينيدي المسؤول عن ذلك وحده. إن التفسير البسيط والأشد وضوحًا لهذه السلسلة من الفشل هو قلة تجربة كينيدي وفريقه. غير أن هذا في اعتقادي لا يفسر وحده الأمر بشكل كاف، فالحكم على سنته الأولى في منصب الرئيس لا يتعلق فقط بانعدام الخبرة، بل إنني أعتقد أن سلسلة الفشل هذه تجد جذورها بالأساس في حالته الصحية العامة. ففي حين كانت تقارير الأطباء السابقة التي تتقصى حالته الصحية وأمراضه تواجه بصد قوي وإنكار من قبل الذين عملوا تحت إمرته، فإننا نعلم اليوم بفضل ما كتبه ريتشارد ريفس، كاتب سيرته، أن أغلب هذه المعلومات والتسريبات كانت صحيحة.

آمل في هذه الصفحات أن أقدم رؤية جديدة حول ذلك التباين في قدرات كينيدي على اتخاذ القرار الصائب منذ خليج الخنازير، إلى أزمة الصواريخ الكوبية. إنني أعتقد أن المفتاح الذي أُهمل وكان العامل الأساس في فهم هذه الأحجية هو الاختلاف الجلي في طريقة تداوي كينيدي، وحالته الصحية العامة، فيما بين أغلب فترات عام 1961م حينما كان في حالة صحية سيئة وبين أوائل ربيع 1962م حينما تحسنت هذه الحال كثيرًا.

نكسة عملية خليج الخنازير

قام كينيدي باتخاذ عدد من المواقف حول كوبا وكاسترو قبل انتخابه، ففي تشرين الأول/ أكتوبر 1959م، قال وبشكل لا يصدق: «إنه لو قامت إدارة أيزنهاور باستقبال المتمرد الشاب والجموح استقبالًا دافئًا في لحظة انتصاره، وخصوصًا أثناء رحلته إلى الولايات المتحدة، لما توجه إلى الشيوعيين». غير أنه وبحلول تشرين الأول/ أكتوبر عام 1960م، حينما كانت الانتخابات قائمة على قدم وساق، دخل كينيدي في مزايدات انتخابية خطيرة مع ريتشارد نيكسون، معتبرًا أن بعض القوى المعادية لكاسترو في داخل كوبا وخارجها تستحق الدعم والمعونة الأميركية، وهو ما أثار غضب دين أتشيسون، عميد السياسة الخارجية بين الديمقراطيين، فذهب إلى تحذير كينيدي من أن بلاغته هذه أثناء الحملة سوف تسجنه في موقف لا يحسد عليه في المستقبل[1].

يقوم النظام الانتخابي الأميركي على تمكين الرئيس المنتخب من موجز لفترة شهرين

(1) Trumbull Higgins, **The Perfect Failure: Kennedy, Eisenhower, and the CIA at the Bay of Pigs** (New York: W. W. Norton, 1987), pp. 58 - 60.

عن الملفات الكبرى من قبل الإدارة السابقة، قبل أن يتولى مهامه بشكل رسمي، وهو نظام معقول يعطي للرئيس الجديد الوقت الكافي ليلبس لبوس رجل الدولة أكثر، ويتخلى بلطف وهدوء عن بعض بلاغته الانتخابية السياسية. ولم تكن رئاسة كينيدي أمرًا مختلفًا البتة، ففي 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1960م أُجري لكينيدي لقاء استخباري هام مع مدير وكالة المخابرات الأميركية ألان دالاس، وعندما أتى موضوع إمكانية غزو كوبا (التي تولى كاسترو الحكم فيها في السنة السابقة) قال كينيدي: إنه يحتاج إلى أن ينظر في هذه الأمور والخيارات، غير أن دالاس حذَّره من أنه لم يعد هناك متسع من الوقت. وفي 19 كانون الثاني/ يناير 1961م وقبيل تسلمه الرئاسة بشكل رسمي وأدائه اليمين، اجتمع كينيدي ثانية بالرئيس السابق دوايت أيزنهاور، ومن بين المواضيع ذات الأهمية الحيوية، أشار أيزنهاور بأن الشيوعية انتشرت في أميركا اللاتينية بسبب خطط كاسترو، ولذا فإن الولايات المتحدة تساعد القوات المتمردة من ثوار حرب العصابات ضد سلطة كاسترو، كما تقوم بتدريب جماعة منهم في غواتيمالا.

بدا كينيدي مباشرة بعد الانتخابات عند الخاصة منفتح الذهن بخصوص موضوع كوبا، حتى لم يستبعد إمكانية التقارب مع كاسترو. وقبل أسبوع من أدائه اليمين رئيسًا للولايات المتحدة أرسل إدلاي ستيفنسون المندوب الدائم للولايات المتحدة في الأمم المتحدة رسالة إلى كينيدي بعث بها أحد زعماء النقابات في شيكاغو، كان قد عاد لتوِّه من كوبا، وفيها تأكيد منه أنه بالرغم من غياب الحريات في كوبا، إلا أن الشعب يساند كاسترو بقوة، وأن التقارير الصحفية الواردة من كوبا التي تتحدث عن عكس ذلك غير جديرة بالثقة. وفي الوقت نفسه تقريبًا كان دالاس يشرح لكينيدي بتبسط خطة السي آي أي للتسلل إلى كوبا والإطاحة بكاسترو، وقد طلب منه كينيدي دون حكم مسبق أو أية خلفية أن يواصل التخطيط.

وفي 22 كانون الثاني/ يناير التقى كيندي بصفته رئيسًا جديدًا كلًّا من وزير الخارجية دين راسك، ووزير الدفاع روبرت ماكنمارا، ووزير العدل، وأخاه روبرت كيندي، ورئيس هيئة الأركان الجنرال ليمان لمنيتزر ودالاس مدير السي آي أي. حيث قدر هذا الأخير أنه لم يتبق سوى شهرين قبل أن يتوجب فعل شيء ما بصدد الكوبيين الذين يتدربون تحت إشراف الولايات المتحدة في غواتيمالا. في حين حذر راسك أن أي تدخل مباشر ستكون له انعكاسات خطيرة جدًّا.

وإلى حدود شهر شباط/ فبراير كانت آراء مستشاري كينيدي منقسمة بشأن كوبا، ففي حين كان رأي السي آي أي، ورأي ريتشارد بيسل الشخصية النافذة ومدير التخطيط في الوكالة يدعو إلى غزو تندلع على إثره حرب أهلية، تمكن الولايات المتحدة من إدخال القوات المناهضة لكاسترو إلى كوبا، غير أن وزارة الخارجية كانت تتوقع نتائج وخيمة في أميركا اللاتينية والأمم المتحدة. قاسم بيسال الرئيس الأميركي شغفه بقصص جيمس بوند للكاتب إيان فليمنغ، كان طويل القامة، وسيمًا، يصف نفسه: «بالرجل آكل القرش» شبيهًا برجال النخبة المتخرجين من أفضل الجامعات الأميركية الذين يطلق عليهم إيفي ليغر Ivy Leaguer ولذا كان الرئيس الأميركي وأخوه ممن يرغبان في اتباع نصيحته[1]. غير أن المؤرخ والمثقف الشهير والمحترم آرثر شليسنغر والذي استدعاه كينيدي إلى البيت الأبيض كان ضد الغزو، فكتب إلى كينيدي مذكرة جاء فيها: «إنه مهما كانت درجة التمويه في العمل الذي يمكن أن يتمّ، فإنه سينسب حتمًا إلى الولايات المتحدة، والنتيجة هي قيام موجة عاتية من الاحتجاج». كما حذَّر الرئيس من أن العملية يمكن أن تتسبب في العديد من الارتدادات والاضطرابات[2]. وفي 11 من شباط/ فبراير ترأس كينيدي اجتماعًا في البيت الأبيض لمناقشة موضوع الاتحاد السوفياتي بحضور كل من أبريل هاريمان وجورج كينان وتشارلز بوهلن ليولين «تومي» تومسون السفير الأميركي في موسكو، الذي جاء خصيصًا لحضور هذا الاجتماع. كان الشعور السائد في الاجتماع هو ضرورة التوقف عن فعل أي شيء مع اقتراب قمة خروتشيف ـ كينيدي، غير أن كينيدي كان على عجلة من أمره لحصول هذا اللقاء. وفي 22 شباط/ فبراير كتب مشيرًا إلى رغبته في الالتقاء قبل هذا التاريخ بكثير من أجل تبادل الآراء بشكل غير رسمي.

لقد كان مستغربًا كيف باستطاعة الرئيس وهو الخبير بالعلاقات في مجال الإعلام أن يعتقد طوال الأشهر اللاحقة أن الغزو أمر يمكن تكذيبه، لقد كان ذلك نموذجًا على الثقة المفرطة والأماني الساذجة في الوقت ذاته. بيد أنه بدا على كينيدي وبعض مستشاريه الخوف من أنه لو ألغى العملية، سيعود الكوبيون الذين دُرِّبوا في غواتيمالا محبطين إلى

(1) Robert Dallek, **An Unfinished Life: John F. Kennedy 1917-1963** (Boston: Little, Brown/ London: Allen Lane, 2003), p. 362.

(2) Arthur M. Schlesinger Jr, **A Thousand Days: John F. Kennedy in the White House** (Boston: Houghton Mifflin, 1965), p. 253.

الولايات المتحدة ليكشفوا علنًا عن قراره ويصورونه كشخص فقد أعصابه[1]. بالنسبة إلى كيني أودونيل، أحد مستشاري كينيدي وأحد الشخصيات المقربة إليه، فقد كان قلقًا ـ مثلما ذكر ذلك في أحد الحوارات المسجلة اللاحقة ـ بأن التراجع عن الغزو سيجعل من كينيدي يبدو وكأنه «مهدئًا لكاسترو» وبعبارة أخرى كأن «أيزنهاور قرر الإطاحة بكاسترو وأحبطها [كينيدي]» كان لهذه الحجة المتعلقة بالرجولة والذكورية والشجاعة وقعها الشديد على كينيدي، كما توقعت وكالة المخابرات المركزية، والتي درست مواقفه السياسية وشخصيته باعتباره رئيسًا مقبلًا بشكل جدي. شعرت وكالة المخابرات المركزية، أنه يحجم عن تقديم التزام واضح حول كوبا، وقدرت الوكالة أنه من الأفضل الدفع من أجل صدور قرار سابق لأوانه وتوظيف قوة الإعلام في إبراز التباين بين أيزنهاور صاحب القرارات الصارمة، وكينيدي الضعيف والعاجز.

كانت الخطط التي رآها أيزنهاور مختلفة في جوانب مهمة عن تلك التي يبدو أن كينيدي وافق عليها. اقتضى مخطط وكالة المخابرات المركزية الأول الذي عرض على كينيدي إنزالًا بحريًا في مدينة ترينيداد الساحلية، مع الأمل في أن ينضم سكانها إلى القوات الكوبية التي دربتها الولايات المتحدة. غير أن كينيدي رأى أن هذه الخطة «استعراضية جدًا» وشبيهة بالإنزال الذي حدث في الحرب العالمية الثانية، وكان رأيه أن يتم الإنزال في موضع آخر، على أن يتسلل رجال حرب العصابات لدعم ثورة داخلية كانت قد بدأت لإثارتها. إن رفض الإنزال على سواحل ترينيداد المدينة المكتظة بالسكان وتفضيل خليج الخنازير عوضًا عنها، من شأنه أن يجعل مسألة الانتفاضة الشعبية أمرًا بعيد الاحتمال. كان رأي رئاسة الأركان المشتركة التي اعتبرت أن عدم حصول انتفاضة من قبل الكوبيين أنفسهم من شأنه أن يجعل نجاح عملية الغزو أمرًا مستبعدًا، وهو أمر يبدو أن كينيدي أحسَّ فيما بعد بأنه كان يجب أن يوضح ويجلى له. وربما بشكل غير حكيم أيضًا استبعد فرضية حرب العصابات في الجبال والذين يبعدون الآن حوالي 80 ميلًا تتخللها الغابات الكثيفة والمستنقعات.

قبلت وكالة المخابرات المركزية استبعاد كينيدي لخيار ترينيداد دون أن تحتج على ذلك (ولكن دون أن تقره وتنتصر له أيضًا) بما أن أولويتها الأولى كانت الحصول على الموافقة الرئاسية، معتقدة أن بمجرد بدء العملية فإن لا أحد من الرؤساء باستطاعته حينها أن يسمح

(1) المرجع السابق.

بفشلها. غير أن كينيدي أعطى مبكرًا مؤشرًا على الكيفية المختلفة التي يرى بها الأمور، حينما اقترح عليه أحدهم في الثاني عشر من أبريل أثناء عملية التخطيط، أنه يمكن إرسال القوات الأميركية بغية مساندة المهاجرين وحمايتهم إذ استشاط قائلًا:

لن يحدث هذا تحت أي ظرف! في اللحظة التي أوافق فيها على إنزال واحد من المارينز، سنكون منغمسين بالأمر حتى أعناقنا. إنني لا أستطيع إقحام الولايات المتحدة في حرب ستخسرها لاحقًا، ومهما كان الأمر فإنني لن أخاطر بحدوث مجزرة أميركية، لأن ما سيحدث عندها هو عبارة عن مذبحة شنيعة، فهل هذا مفهوم أيها السيد؟[1].

وبالرغم مما يبدو من وضوح وجلاء في موقف كينيدي من معارضة استعمال أية قوات أميركية، فإن بعض ذوي الخبرة من وكالة المخابرات المركزية والجيش شعروا بأن في هذا الموقف ما يكفي من الغموض، الذي يدل على أنه سيستخدم القوات الأميركية عوضًا عن الاستسلام للهزيمة. وعن هذا كتب من بعد آرثر شليسنجر باعتباره مؤرخًا لا مشاركًا آنذاك في صنع الأحداث، مستشهدًا بما قاله دالاس من أنه أدرك خطأ كينيدي قائلًا: «كان علي أن أدرك أن كينيدي لم يكن متحمسًا للفكرة منذ البداية، وأنه كان يريد أن يتخلى عنها في أول فرصة تسنح له، عوض أن يقوم بفعل أشياء كان من المؤكد أنها ستجعله ينجح»[2].

والحقيقة أن الزعم بأن نزعته الذكورية أو حتى مجرد عاطفته هي من كان وراء عدم اختياره مواصلة العمل العسكري حينما كان يواجه الفشل، لا يمكن أن تكون تفسيرًا يعتد به، ذلك أن موقفه طوال أزمة خليج الخنازير قد تراوحت بين الإحجام والإقدام، فمثلًا حين أمضى عطلة نهاية أسبوع عيد القيامة أو الفصح المسيحي في بالم بيتش، حيث التقى لبعض الوقت والده جوزف كينيدي، كان على وشك الإقدام على الغزو، وفي أحيان أخرى كان يريد ضمانات أنه يستطيع إيقاف الغزو في أية لحظة.

كان ممزقًا لبعض الوقت بين لهفته لخوض المعركة، وبين منطقه العقلي الذي كان يدعوه إلى الكبح، إلا أنه من خلال تفكيكه للمسألة، ومواصلته معالجة الشؤون الأخرى

(1) Michael R. Beschloss, **Kennedy v. Khrushchev: The Crisis Years 1960-1963** (London: Faber & Faber, 1991), p. 114.

(2) Arthur M. Schlesinger Jr, **Robert Kennedy and His Times** (London: Andre Deutsch, 1978), p. 454.

تجاوز هذا النزاع لحد ما. وفي 28 آذار/ مارس، سأل شليسنجر كينيدي: ما رأيك في هذا الغزو اللعين؟. فأجابه ممتعضًا: ـ أفكر فيه بأقل قدر ممكن[1]. كان ذلك إثر أسبوعين من توقيعه فعليًّا على الخطة مع إيراد فقرة شرطية تنص من ناحية، بأنه على كل السفن الأميركية إخلاء المراسي فجرًا، وتتعهد له من ناحية أخرى بإمكانية التراجع عن العملية حتى قبل 24 ساعة من رسو السفن.

وفي منتصف شهر آذار/ مارس، حذر مستشار الأمن القومي ماك جورج باندي:

«هناك إجماع بأنه على قوات كاسترو الجوية الانسحاب في مرحلة ما، أما أنا فأعتقد أن هذه المعركة الجوية يجب أن تندلع آجلًا أم عاجلًا، فكلما أُجِّلت أمست أكثر صعوبة». لكن خلال 28 و 29 آذار/ مارس، أمر كينيدي وكالة المخابرات المركزية أن يخبروا الفرق الكوبية بأنه: «لن يتم السماح لقوات الغارات الجوية الأميركية بأن تشارك أو تدعم عملية الغزو بأي طريقة من الطرق»، ضامنًا بالتالي أن هذه العملية لن يتسنى لها النجاح إلا من خلال انتفاضات تندلع من داخل كوبا. ومع ذلك ظلت وكالة المخابرات المركزية وكذلك الجيش على تقديرهما الخاطئ لإصرار الرئيس على عدم استعمال قوات الولايات المتحدة. عارض شيستر بولز، الديبلوماسي الكبير في مقاطعة الدولة، الغزو، خشية من هذا السيناريو بعينه، كما أخبر روسك بأنه يجب التخلي عن العملية، باعتبار أن الرئيس يجهل هويته. وفي نهاية شهر آذار/ مارس، تشاور كينيدي مع وزير الدولة السابق دين أشيسون حول المخطط، ولم يكن هذا الأخير ليكن الاحترام لكينيدي، فسأله: «أأنت جاد؟» وعندما اعترف كينيدي بأنه يدعم 1500 غازٍ مقابل 25000 مدافع من المحتمل أن يجعلهم كاسترو منتشرين، ردَّ عليه أشيستون: «لا يتطلب الأمر برايس واتر هاوس لمعرفة أن ألفًا وخمسمائة ليسوا ندًّا لـ 25 ألفًا»[2]. هذا وقد أطلع السيناتور ج ويليام فيلبرايت وهو رئيس لجنة العلاقات الخارجية، على الأمر فانتقد الفكرة برمتها نقدًا لاذعًا.

وفي الرابع من نيسان/ أبريل التقى مجلس الأمن القومي بحضور فيلبرايت فنددوا بالعملية برمتها باعتبارها «غير متكافئة ولا أخلاقية» في آن. ولكن كان الأمر صعبًا بالتأكيد على الحضور أن يوالوا فيلبرايت وهو الدخيل عليهم. ولذلك فليس من المفاجئ إذن أن

(1) Schlesinger, **A Thousand Days**, pp. 246 - 247.

(2) Richard Reeves, **President Kennedy: Profile of Power** (New York: Simon & Schuster, 1993), p. 77.

يوافق الجمع على الغزو. فقد عدَّل أعلى قائد عسكري استشاري للرئيس الأميركي مرة أخرى موقفهم بشكل بارز قائلًا: إنه لو صحَّت افتراضات وكالة المخابرات المركزية، وتضحو الخطة العسكرية قابلة للتنفيذ عسكريًّا على ضوئها. وكانت افتراضات وكالة المخابرات المركزية حينها خاطئة طبعًا، ورغم أن الجيش استشعر ذلك، إلا أنه لم يكن على استعداد لتحدي القوة الدافعة للعمل آنذاك.

وبالرغم من هذا كله، مضى كينيدي قدمًا. والسبب من وراء ذلك أنه كان مدفوعًا من ناحية من قبل الاعتبارات السياسية الداخلية، مصرًّا على إظهار صلابته وعدم الظهور في حال الضعيف أمام أيزنهاور، ومن ناحية أخرى كان مستحثًا من قبل شقيقه روبرت للتصرف بشكل حاسم ووحشي وهمجي تجاه كوبا، وقد كان هذا الأخير باعتباره نائبًا عامًّا، مسكونًا بحقد عميق لكاسترو، ومتورطًا في التآمر على اغتياله فيما بعد. وصف ريتشارد غودوين، وهو أحد أصغر مستشاري كينيدي في أميركا اللاتينية، الجو في الاجتماعات المعقودة للبحث حول إمكانية غزو كوبا، قائلًا: «ينطوي الإذعان الغير معلن على الغرور أيضًا، والاعتقاد غير المعترف ولا المنطوق به بأنه يمكننا أن نفهم وأن نتنبأ بتغير المجرى التاريخي المفاجئ أحيانا والتخميني غالبًا»[1]. ومن ناحية أخرى، وفي بواكير الأشهر الأولى من سنة 1961م، كانت الحملة الانتخابية لا تزال يافعة في ذاكرة كل من الرئيس وأخيه، وبدا كل شيء متبعًا خطاهما. وتجلى أسلوب الرئيس ومزاجه بشهامة كانت أكثر تجليًا خلال سنة 1961م مما ستغدو عليه خلال الأشهر الثماني عشر التالية.

وفي صبيحة يوم الأحد 15 نيسان/ أبريل، قصفت ثماني طائرات محلِّقة من نيغاراغوا إلى ميامي ثلاثة مطارات كوبية، ولكنها لم تدمر سوى خمس طائرات من أصل ست وثلاثين طائرة حربية كوبية. كذلك حلَّقت طائرة تحمل علامات كوبية، من نيغاراغوا إلى ميامي، حتى تموه بالفرار، ثم حطت في ميامي، وقد تخلل الرصاص هيكلها، فكان الادِّعاء بأنها كانت قد حلَّقت من كوبا. وفي الأمم المتحدة، في اليوم ذاته، هزأ أدلاي ستيفنسن بالادعاءات الزاعمة أن الولايات المتحدة متورطة بكونها «بدون أساس» وذكر بأن الطائرات التي قصفت المطار تابعة لكاسترو. وقد كتب الرجل المتورط في الكمين برمته في وكالة المخابرات المركزية، فيما بعد، عن مشاهدته لستيفنسن وهو يدافع عن المكيدة المضللة،

(1) Richard N Goodwin, **Remembering America: A Voice from the Sixties** (Boston: Little, Brown, 1988), p. 173.

وذكر أنه قد شعر بالقشعريرة تسري في كامل جسده، وتساءل عما إذا كلف أحد ما نفسه بتبليغ سفير الولايات المتحدة في الأمم المتحدة عن التضليل المفتعل في الغارة الجوية. كان يجب إطلاع ستيفنسن إطلاعًا تامًّا على المسألة، وألا يقال له أنه لن تكون للولايات المتحدة أي مشاركة. يمكن تفهم احتدام ستيفنسن عندما اكتشف أنه قد تمّ تعمد عدم اطلاعه على حقيقة الوضع، فلو كان على علم بحقيقة الوضع لكان قد تخير كلماته بعناية أكبر. وتوجب على كينيدي أن يهدّئ شخصيًّا ستيفنسن، وأن يثنيه عن الاستقالة إثر قلة الاحترام المماثلة التي عامله بها.

وخُطط لغارة جوية ثانية من نوع B ـ 26s صبيحة يوم 17 نيسان/ أبريل، اليوم الذي اقتحم فيه المنفيون الكوبيون المدربون في أميركا، الشواطئ. ولم تقع هذه الغارة حيث ثبت كينيدي الطائرات على الأرض، بالرغم من تحذير وكالة المخابرات المركزية له بأن أي اخفاق في إصابة رأس الجسر الساحلي من الجو سيكون كارثيًّا. وفيما بعد، في 3 أيار/ مايو، أثناء الإدلاء بالشهادات بخصوص الخطة التنفيذية أمام لجنة الجنرال ماكسوال، تلك الخطة التي أقرها كينيدي، بغية البحث عن مواطن الخلل فيها، ذكر روبرت ماكنامارا: «هناك تعديل هام، لم يعرفه القادة أبدًا، وشعروا جميعًا بالقوة تجاهه. وكان ذلك القرار الذي ألغى بعض التفاصيل من يوم الغارة الموعود، واتُخذ خلال الاجتماع الوحيد الذي لم أشارك فيه كما لم يشارك فيه أي من القادة»[1]. لقد مثّلت شهادته طعنًا لعينًا للطريقة التي يتم من خلالها اتخاذ القرارات في البيت الأبيض. مضت لجنة تايلور، بما فيها روبرت كينيدي، قدمًا لتستنتج التالي: ليس هناك أي عملية شبه عسكرية بحجم مماثل في وسعها أن تجرى بطريقة تجعل دعم الولايات المتحدة لها يرفض بشكل معقول.

وبحلول يوم الثلاثاء 18 نيسان/ أبريل، لم تكن هناك أي إشارة على اندلاع ثورة داخلية في كوبا، كما أغرق السلاح الجوي الكوبي سفينة الإمداد الرئيسية المزودة للمنفيين، مما أربك البيت الأبيض تمامًا، كما ذكر الأميرال أرلاي بارك: «إنهم في حفرة كبيرة حقًّا، اقتطعت لهم من الجحيم». لم يكن كينيدي واثقًا مما عليه فعله، أما كل من وكالة المخابرات المركزية وبورك وباندي، فقد أرادوا جميعًا أن تُسقط حاملات الطائرات الأميركية طائرات كاسترو. وغضب بورك وذكر أن سلاح الدولة البحري «لم يتم تزويده إلّا بالحقائق الجزئية». إن

(1) **Operation Zapata: The (Ultrasensitive) Report and Testimony of the Board of Inquiry on the Bay of Pigs)** Washington, DC: Aletheia, 1981, p. 202.

سوء الفهم الشائع عن كون كينيدي قد استبعد القوات الأميركية المقاتلة عن جميع الأطوار، لأمر خاطئ. لقد سمح كينيدي لبورك بأن يرسل رسالة للأميرال روبرت دينيسون، حتى يجهز طائرات بحرية غير موسومة بأي إشارة للاستعمال في حالة صراع ولأجل الاستعداد لإخلاء الوحدات المناهضة لكاسترو. ولكن عذابات كينيدي تواصلت إلى حدود اجتماع امتد من منتصف ليلة 19 نيسان/ أبريل إلى حدود الثالثة صباحًا، وقد سمح خلاله برسالة أخرى لدينسون، مقتضاها أنه ينبغي على ست طائرات أميركية لا علامة عليها أن تحلِّق فوق الشواطئ لتدافع عن قوات التدخل السريعة الكوبية من الهجمات الجوية. ولكن هذه الطائرات لم تكن لتصيب أي أهداف كوبية أرضية، ولا أن تثير أي معركة. كان على كينيدي أن يعلم أن هذا التدخل كان يمكن أن يكون عقيمًا ومحدودًا. وقد عقدوا العزم على أن تطابق العملية موعد هبوط طائرة للاجئين الكوبيين، ولكن العملية لم تحصل أبدًا، بسبب خطأ في التوقيت. وبحلول الساعة الواحدة صباحًا يوم 19 نيسان/ أبريل رأى أعلى قائد عسكري استشاري للرئيس الأميركي، إنه لم يبق لهم أي عمل سوى إخلاء المنطقة. ولم يتم انقاذ إلّا أربعين كتيبة من مناهضي كاسترو إلى جانب 1189 شخصًا مستسلمًا.

مثَّلت واقعة خليج الخنازير باختصاركارثة كلية. وإثر ذلك، هدَّأ تقبل كينيدي المسؤولية كاملة، باعتباره الرئيس، الرأي العام الأميركي شيئًا ما. فقد انتصر التلاعب المناور لفريق كينيدي، بوسائل الإعلام وبردود فعلها ذات المدى القصير، كما تناغمت فطنته مع تأثير انتقاصه لذاته، لتنعكس في تصريح أدلى به للصحفيين: «هناك قول مأثور بأن للنصر ألف أب أما الهزيمة فيتيمة». يقصد أن الناس يدَّعون الفضل بالانتصار، ويرفضون تحمل المسؤولية أثناء الهزيمة.

وبعيدًا عن وسائل الإعلام، حاول كينيدي أن يلقي اللوم على الآخرين، مرتكزًا على نقطة أن لو فولبارت، الشخص الذي تنبأ بكل هذه الفوضى، حضر كل الاجتماعات الأخرى المعني بها لتغيِّر مجرى الأحداث. ولكن كينيدي كان يخدع نفسه، فبالنسبة إليه، لم تكمن الأهمية في النصائح المقدمة أثناء الاجتماعات، وإنما في الطريقة التي يعقدها ويقودها والتي من خلالها تحدد النتائج. كتب غودوين أثناء الغزو: «باسترجاع الأمر، يمكن أن يُنظر إليها الآن كما كانت، ليس باعتبارها مجرد خطأ بسيط في التعبير، وإنما باعتبارها أمرًا غير معقول».

كان كينيدي غير حكيم مطلقًا في تخليصه البيت الأبيض من البنى العسكرية التي شعر

بأن أيزنهاور هو الذي أرساها بكل سهولة، دون أن يعوضها بأي بديل[1]. فقد ذكرت لجنة تايلر: «كانت تُعقد أعلى مستوى اجتماعات للقيادة بارتجال، جامعة المسؤولين الكبار، ودون اعتبار للخطط العملية أثناء التدوين، ودون ترتيب لتسجيل النتائج والقرارات التي يتم التوصل إليها»[2]. بدا أيزنهاور في اجتماع له مع كينيدي، بعد عملية الغزو الفاشلة، مرتابًا حقًا من أن كينيدي لم يسيطر، ولم يعترض على تفاصيل المخطط قبل أن يوافق عليه. من الأدلة التي تشير إلى كيفية تدبره الأمور في الإدارة، أن أيزنهاور لا يمضي قدمًا في أي مخطط بصورة تلقائية، ولكنه إذا ما وافق عليه فهو لا يسمح بفشله باستخفاف.

هناك دراسة ممتازة حول الاعتبارات المتشظية، والمنحازة نوعًا ما لأخطاء التقدير تلك الحاصلة داخل البيت الأبيض الخاص بكينيدي وحوله، بأن القرارات أظهرت أعراض التفكير الجماعي كميل للبحث عن المنافسة على حساب البحث عن المعلومة، وكعملية نقد ذاتية ونقاش.

إن الميل إلى التوافق في مثل هذه الحال، بدا وكأنه قد كشف عن نفسه من خلال «أوهام مشتركة ومتقاسمة.... تضامن جماعي... وتساهل في مسألة الثقة»[3]. وقد ذكر الرئيس كينيدي لاحقًا: «أن كل الأشياء الغامضة حول خليج الخنازير قد تمّ حلها الآن إلّا واحدة، وهو كيف اعتقد كل من شارك فيها أن مثل هذا المخطط سيعرف النجاح. إنني لا أعلم الجواب، ولا أظن أحدًا يعلم ذلك»[4].

ولكن هناك جوابان في الحقيقة، أولهما: أنه لم يكن الكل ممن شارك في الخطة يعتقد أنها ستنجح بما في ذلك وكالة المخابرات الأميركية، وثانيهما: أن كينيدي كان عليه أن يعلم من خلال وزير الخارجية وحتى سلسلة القيادة، أن هناك شيئًا من الاحترام والمجاملة للرئيس الأميركي باعتباره القائد الأعلى، بصرف النظر عن مستوى خبرته وتجربته. وكان مستشاروه

(1) ألغى كينيدي بشكل قاطع مجلس التخطيط، ومجلس تنسيق العمليات، ومجلس الأمن القومي بعد توليه للرئاسة، كانت تلك مؤسسات مُنجية بالنسبة لأيزنهاور وساءه إلغاءها. وانتقد وزير الدفاع لأيزنهاور تصرف كينيدي حيال أزمة خليج الخنازير على تخبطه في اتخاذ قرارات اعتيادية. ومما زاد الأمر سوءًا قول عضو مجلس الوزراء الجمهوري ووزير الاقتصاد، دوغلاس دولين: بأن الافتقار لنظام متزن وحصيف كان سببًا رئيسًا لحدوث أزمة الخنازير.

(2) المصدر السابق، ص 39.

(3) Irving L. Janis, Victims of Groupthink: **A Psychological Study of Foreign-Policy Decisions and Fiascoes** (Boston: Houghton Mifflin, 1972), p. 48.

(4) Hugh Sidey, John F. Kennedy, **President, new ed.** (New York: Athenaeum, 1964), p. 126.

على غاية من الحساسية تجاه حقيقة أن كينيدي لم يكن يحب أن يُنتقد بعد تنفيذ خططه. لقد حدث أن رأى ريتشار غودوين روبرت كينيدي جالسًا بهدوء، يوبِّخ منتقدًا آخر من منتقدي الغزو، وهو شيستر بوولز، وكان الانطباع الحاصل لدى غودوين أن «جدال بوبي (أي: روبرت) القاسي عكست مشاعر الرئيس الشخصية التي يحرص على إخفائها، والتي عبَّر عنها في بعض الحوارات الحميمية السابقة. لقد كنت أعلم من قبل بوجود قسوة داخلية، بل وأحيانًا شيئًا من سرعة الغضب يتخفى وراء سحنة خارجية تتميز باللطف والدماثة والاتزان وسلوك يتحكم فيه جون كينيدي جيدًا»[1]. غير أنه وإن كان كينيدي يتميز ببعض المواقف التي يمكن وصفها بالسلوكيات المتغطرسة، إلا أنه لم يعاني من متلازمة الغطرسة. فقد كان سلوكه من بعض الوجوه مزيجًا من شدة السخرية وشدة الدعابة، بطريقة تمنحه حصانة من أن يثمل بالسلطة بتلك الكيفية المحددة. لقد كانت ثقته بنفسه أمرًا مشهودًا به من خلال ما عرف عنه من فضول حقيقي، وحاجة فكرية وذهنية لتقدير البدائل والتعامل معها، باختصار فإنه لم يكن صارمًا حاسمًا، ولا ذكوريًا مثلما يصور غالبًا، وكثيرًا ما كان مزاجه انعكاسًا لمزيج الأدوية التي يأخذها.

ويمكن القول إن طبيعة كينيدي في مساءلة مستشاريه وتحديهم المتسمة بالتقطع وافتقاد الوحدة، والطريقة التي قام من خلالها شخصيًا بتغيير الخطط العملياتية التي أعدتها وكالة المخابرات المركزية دون استشارة العسكريين، وحقيقة، أنه بدا غير مدرك ولا واع بأنه كان جديًا يحدُّ من الدعم الأميركي من خلال إيقافه الضربة الجوية الثانية، كانت كلها أسبابًا أدَّت إلى فشل عملية خليج الخنازير، ولا مجال للتهرب من حقيقة أن صناعة القرار عند كينيدي حول كوبا، كانت معيبة منذ الأشهر الثلاث الأولى من رئاسته.

إن إحدى أخطر النتائج التي ترتبت عن خليج الخنازير، هو ذلك الفشل الذي جعل نيكيتا خروتشيف يهزأ من كينيدي ويزدريه، قائلًا لمعاونيه: إن الرئيس الشاب يفتقر إلى ركيزة صلبة، وإنه غير قادر على الوقوف في وجه تحدٍّ جدي في منطقة الكاريبي أو غيرها من المواضع. غير أنه عندما حصل التحدي الجديد بعد ثمانية أشهر، كان كينيدي الرجل غير الرجل وغير الرئيس الذي عرف من قبل، فقد تحمل عبء النقد الكثير الذي وجه إلى

(1) Dallek, **Unfinished Life**, pp. 369 - 370.

طريقته في العمل وتحمل عبء مسائل مختلفة. وكانت مميزات اللجنة التنفيذية التي شكلها لمساعدته «مناقضة بالكلية لأعراض التفكير الجماعي»[1].

بيد أن التغيير لم يكن إداريًا فحسب، ولا مجرد نتيجة لما تعلمه الرئيس من تجربة الصدمة التي عرفها في خليج الخنازير. إن التغيير الأعمق يكمن في حالته الصحية، وفي الطريقة التي تمّت معالجته بها. إن الفرق الكبير بين كينيدي غير الكفء في معالجة أزمة خليج الخنازير والطريقة الماهرة التي عالج بها أزمة الصواريخ الكوبية، يمكن أن تفهم بشكل كامل فقط من خلال الأخذ بعين الاعتبار مختلف الحالات الصحية طوال فترة هذين الحدثين الجليلين.

التاريخ الطبي

لا تتوفر اليوم كل السجلات الطبية المتعلقة بكينيدي، ولكني درست تلك الموجودة في مكتبة كينيدي خصوصًا تلك التي تتحدث عن الفترة بين (1961 ـ 1962م)[2] بيد أن السرية التي ضربت حول وضعه الصحي لم تساعد كينيدي نفسه، لأنها أخفت السمة الأساسية لملفه الصحي، وهي شجاعته في تجاوز عدد من الأمراض التي يعجز أغلب الناس عن تحملها، وتبدو منهكة تمامًا لهم.

تكشف الحقائق أن صحة كينيدي لم تكن على أحسن ما يرام منذ الصغر، فقد كان طفلًا عليلًا كثير المرض[3] حيث قضى شهرين في المستشفى سنة 1920م بسبب إصابته بالحمى القرمزية قبيل بلوغه الثالثة، وفي سنة 1930م حينما بلغ الثالثة عشرة فقد كمية كبيرة من وزنه وعرف ضعفًا في النمو، وخضع في سنة 1931م لعملية جراحية لإزالة الزائدة الدودية بعد آلام في البطن لم تختف أعراضها. وفي سنة 1934م وفي سن السابعة عشرة خضع للعلاج في مصحة مايو الشهيرة لمدة شهر كامل، حيث كان التشخيص أنه يعاني من التهاب القولون، حتى وإن كان بعض الأخصائيين قد اعتبروا أنه يعاني من مرض الأبطن. لقد كانت تقود هذه المصحة وعاملها، صاحب جائزة نوبل الدكتور إدوارد كندال، وزملاؤه، مجال البحث العلمي في مجال الكورتيزول أو الهيدروكورتيزون (الصيغة المصنعة منه)، وبالتالي فقد كان كينيدي عبارة عن ذلك الخنزير الغيني لمادة التجارب الأولى لعلاج التهاب القولون بواسطة الكورتيزون في سنة 1937م، بغية الحد من الالتهاب، ويبدو أنه قد ظهرت عليه حتى

(1) Janis, **Victims of Groupthink**, p. 165.

(2) Medical records, **John F. Kennedy Library**, boxes 45,48.

(3) Robert Dallek, «The Medical Ordeals of JFK», **Atlantic Monthly**, December 2002.

في ذلك التاريخ علامات ما يعرف بالقصور الكظري[1]. وعلى كل اشترى والده المتشدد والمستبد هذا العلاج الذي يعد محصورًا لعدد قليل من المرضى، هذه اليد الأبوية الصارمة والقوية هي نفسها التي رتبّت لحصول عملية بضع الفص أو بضع مقدم الفص الجبهي، وهي عملية قطع الألياف العصبية في المخ عند روزماري أخت كينيدي، دون أن يكلف نفسه استشارة زوجته، وهو ما ترك روزماري تحت الرعاية طوال بقية حياتها.

أما عن مشاكل الظهر التي كان يعاني منها كينيدي ولازمته حتى كهولته، فترجع فيما يبدو إلى حادث مرور في هارفارد سنة 1938م، في حين يزعم البعض أن ألم الظهر هذا قد يكون بسبب ما أخذه من جرعات ستيرويد لمدة طويلة، مما تسبب له في أعراض جانبية معروفة جدًّا تتمثل في تخلخل العظام أو هشاشتها، ومن المحتمل أن يكون الأمران قد اجتمعا ليؤديا لاحقًا إلى ما عاناه من تخلخل العظام هذا، في مرحلة لاحقة من عمره.

في آب/ أغسطس 1943م اصطدم طراد قاذف للطوربيد صغير الحجم معروف باسم PT-109 يقوده كينيدي في المحيط الهادي مدمّرة يابانية في الظلمة في مضيق بين جزيرتين من جزر سليمان، وأدّى الاصطدام إلى انشطار الطّراد إلى نصفين، وقتل اثنان من طاقمها ونجى أحد عشر آخرون بمن فيهم القائد، واضطروا إلى السباحة لخمس ساعات للوصول إلى جزيرة صغيرة، وعندما حدث الاصطدام دُفع كينيدي بقوة باتجاه ظهر الطراد PT. وترجع الكثير من الأمراض التالية إلى هذا الحادث، وخصوصًا المتصلة بآلام الظهر. وهو أمر شجعه كينيدي بما أنه لم يشأ أن يركز أي كان على حقيقة أنه أخفى سجل اعتلال صحته السابق. وبهذه الكيفية كان إخفاء كينيدي للمعلومات الطبية التي تخصه أمرًا في صالحه، بما أنه قد مكّنه من خدمة وطنه في الحرب العالمية الثانية، غير أنه وللأسف تحول التستر على الحالة الصحية إلى عادة لازمته طوال حياته.

(1) يمكن أن يكون قصور الغدة الكظرية ناتجًا عن الاستخدام طويل الأمد للستيرويدز، وينشأ قصور الغدة الكظرية عن تحكم الستيرويدز المنتشر في الدم (بمستوى عالٍ) يعيق إنتاج هرمون الغدة الكظرية (ACTH) الذي تكون مسؤولة عنه الغدة النخامية. ويعني فقدان ذلك الهرمون أن خلايا الغدة النخامية دُمّرت، ومن الأسباب المدمرة للغدة النخامية أيضًا إصابة المريض بالسل، ذاك المرض الذي سبب وفاة الروائية الشهيرة جين أوستن. ومن أعراضه البارزة: تصبُّغ لون البشرة أو اسمرارها، ويعتبر هذا العرض مصاحبًا لجميع أشكال الإصابة بقصور الغدة الكظرية، غير أنه يختفي بشكل كبير عند صرف دواء بديل للهرمون. وتصبح البشرة شاحبة وتظهر عليها بقع في أغلب الأحيان وتسمى بالبهاق، وذلك عندما يفشل نظام المناعة الذاتية للغدة الكظرية. من المحتمل أن كينيدي كان مصابًا بقصور الغدة الكظرية عام 1947م نتيجة لتناوله الستيرويدز لمدة عشر سنوات، حيث أن ما أصابه يعتبر عرضًا جانبيًا ثانويًا. ولكن بالنسبة لإصابته بمرض أديسون كنتيجة لمرض التدمير الذاتي للجهاز المناعي، هو في الحقيقة إصابته بقصور الغدة الكظرية، الذي عولج بصرف التيستيترون، وهو مؤثر على عدد من الغدد الصماء. بالإضافة إلى إصابة أخته إيونك بمرض أديسون، مما يرجح أن للمرض جذورًا جينية.

في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1943م أصيب كينيدي بقرحة في الاثني عشري تبدو أيضًا كنتيجة للآثار الجانبية للعلاج بواسطة مضادات الالتهاب الستيرويدية. واستمرت آلام الظهر، وبعد مزيد من الفحوصات في عدد من المستشفيات، أجريت لكينيدي عملية جراحية في مستشفى نيو إنغلند المعمداني في 23 حزيران/ يونيو 1944م بإشراف جراح من مصحة لاهي، غير أنه لم يجد تمزقًا في الفقرات كما كان متوقعًا، وأدّى الفحص المجهري إلى وجود شيء من الرخاوة غير الطبيعية في الليف الغضروفي مع حالة من التحلل. من المستبعد أن يكون هذا نتيجة إصابة جسدية سابقة، بل لعله من الآثار الجانبية لما تناوله من قبل من مضادات الالتهاب الستيرويدية. كما أشير إلى أنه كان يعاني من التهاب منتشر في الاثني عشري ومن التهاب القولون التشنجي، وهو التهاب يصيب الأمعاء. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 1944م حُقن كينيدي بمادة البروكايين في العصب الوركي، وهو ما أراحه بشدة، وأُعطي إشارة للبدء في مرحلة من الحقن بمادة البروكايين لتهدئة آلام الظهر.

بالرغم من اعتقاد أحد أطباء البحرية صوابًا أن العديد من الأعراض التي يشتكي منها كينيدي ترجع إلى مرض لازمه طويلًا، إلا أنه في 27 كانون الأول/ ديسمبر 1944م، قرر مجلس الإحالة على التقاعد في البحرية الأميركية (متأثرًا ربما بمنزلته كبطل من أبطال الحرب) أن كينيدي يشكو من «أعراض مرضية في البطن» بعد أن بقي حوالي 50 ساعة في الماء ودون أن يشرب الماء أسبوعًا. «وأُضيف اسمه إلى قائمة الذين أحالتهم البحرية على التقاعد في غرة آذار/ مارس 1945م باعتباره يعاني من سقوط بدني مستمر، هو «نتيجة حادث حصل أثناء الخدمة... وفي الجبهة أثناء تأدية الواجب».

قد ظل كينيدي منذ (1945 وإلى حدود 1947م) في معاناة من آلام في المعدة والظهر، بل بدا في مرة من المرات وكأنه يعاني من اليرقان وهو أمر أُرجع إلى انتكاسة إصابته من الملاريا، التي كان قد تعرض لها لأول مرة سنة 1944م.

شُخِّصت إصابة كينيدي لأول مرة بمرض أديسون في لندن سنة 1947م من قبل الطبيب السير دانيال دايفس، وقد كان وقتها عضوًا في الكونغرس عن الدائرة الحادية عشرة عن ولاية ماساشوستس، ويبدو أنه قد أصيب بصنف حميد وخفيف من المرض منذ عشر سنوات خلت، قبل أن يُقبل في المصحة اللندنية. وقد بدأ في تناول حبوب الكورتيزول لأول مرة منذ 1937م، حيث انتابته كل الأعراض الاعتيادية للمرض في سنة 1947م مثل

الغثيان والقيء والحمى والتعب والهزال مع ميل الجلد إلى مزيج من اللون الأصفر والبني، ولسبب ما توقف فيما يبدو عن تناول حبوب الكورتيزول[1].

وبعد تشخيص إصابته بمرض أديسون في لندن، توقَّع الأطباء وفاته في غضون سنة واحدة. كان في غاية المرض أثناء رحلة العودة البحرية من إنكلترا في تشرين الأول/ أكتوبر 1947م حتى إنه تلقى صلوات الوداع الأخيرة أو ما يعرف بصلوات الاحتضار، وظلت تنتابه أوجاع في الرأس والتهابات في الصدر، وآلام في المعدة مع التهابات المسالك البولية. وفي عام 1951م، أثناء زيارته اليابان، تعرض لوعكة صحية أخرى جرّاء مرض أديسون. وعلى الرغم من وقائع المرض هذه، فقد تمكن كينيدي عام 1952م من التغلب على عضو مجلس الشيوخ الجمهوري السيناتور هنري كابوت لودج الابن في ولاية ماساشوستس. وفي تموز/ يوليو 1953م عاودته آلام ظهره، وكانت على درجة من الحدة، دفعته إلى التوجه إلى مستشفى جامعة جورج واشنطن.

في 12 أيلول/ سبتمبر 1953م تزوج جون كينيدي جاكلين بوفييه وفي نيسان/ أبريل 1954م أظهرت صور بالأشعة أجريت في مصحة لاهي أن الفقرة القطنية الخامسة قد انهارت مما جعله يعتمد على عكازين. وفي شهر أيار/ مايو، وفي 22 تشرين الأول/ أكتوبر أجريت له عملية جراحية لمدة ثلاث ساعات بعد القيام بعمليات تشخيص استقلابية شاملة بمساعدة فريق من أطباء الغدد، وذلك من أجل وضع صفيحة معدنية لضمان توازن واستقامة عموده الفقري، وقد جرى كل شيء على ما يرام في البدء، غير أنه في اليوم الثالث أصيب بعدوى شديدة لم تفلح المضادات الحيوية في إيقافها، ودخل إثرها في غيبوبة أخضع على إثرها إلى عملية جراحية جديدة في نيويورك في شباط/ فبراير 1955م من أجل نزع تلك الصفيحة المعدنية ومثبتاتها من عموده الفقري، بسبب العدوى التي تلت العملية. أما الجمهور وخصوصًا الناخبين منهم في ماساشوستس، فقد كانوا على علم بأنه خضع إلى هذه العمليات في ظهره، إلا إنهم لم يكونوا على علم البتة بإصابته بمرض أديسون.

وفي سنة 1955م ظهر مقال بعنوان: «كيفية التعامل مع قصور قشرة الكظر أثناء عملية جراحية» في إحدى المجلات الجراحية[2]. كان المعني في الحالة 3 كما نعلم الآن هو

---

(1) Dallek, **Unfinished Life, Preface** & p. 105.

(2) **James A. Nichols MD et al., «Management of Adrenocortical Insufficiency During Surgery»**, Archives of Surgery (1955), vol. 71, pp. 737 - 742.

كينيدي[1]، وقد أدّى هذا المقال لظهور عدة تساؤلات عما إذا كان المقصود هو كينيدي بالذات، وهو أمر لمَّحت إليه إحدى التقارير الصحفية، غير أن نفيًا قويًّا صدر إثر ذلك ولكنه لم يكن شديدًا إلى درجة البرهنة على أن المقصود هو عملية مختلفة عن تلك التي أجريت لكينيدي. لقد كان غريبًا من بعض الوجوه أن يكون كينيدي هو من أعطى الإذن بنشر الدراسة، بالرغم من صنوف الخوف التي كانت تعتريه من نشر أي شيء عن مرض أديسون. ولا شك أنه قد أُعطي ضمانات بأنه لن يقع الربط بينه وبين هذه الدراسة، غير أنه ورد فيها هذه الجملة التالية وهو: «أن المريض يعاني من قصور قشرة الكظر» وهذا يبرهن كم أنه كان من غير المناسب الإشارة إلى مرضه على أنه مرض حميد وبسيط أثناء الحملة الانتخابية سنة 1960م. فقد تلقّى صلوات الوداع الأخيرة أو ما يعرف بصلوات الاحتضار مرة أخرى سنة 1954م بعد إصابته بالعدوى بعد العملية، وخلال العمليتين الجراحتين التي أجريتا عليه تلقى رعاية صحية خاصة للتأكد من عدم تطور أزمة أديسون التي يعاني منها.

كانت العمليتان في سنة (1954 و1955م) اختبارًا لشجاعة كينيدي وصبره، وقد استغل تجربته هذه لتأليف كتاب حول شخصيات تاريخية اشتهرت بشجاعتها الخارقة[2]، وكلما عرف المرء المزيد حول مشاكل كينيدي الصحية، كلما زاد تقديرًا لصلابته الجسدية.

التستر الطبي

كان أغلب الأميركيين لا يعلمون شيئًا حين انتخاب كينيدي أنه لم يكن في الواقع كما يبدو في الظاهر بأنه شاب وفي صحة جيدة ومرشح للرئاسة، بدا في مناظراته مع ريتشارد نيكسون في كامل لياقته، مسترخيًا تميل بشرته إلى السمرة بفعل تعرضه للشمس، ويفيض

(1) وُصف كينيدي في ذلك التقرير على أنه مريض مجهول الهوية يبلغ من العمر 37 عامًا بحاجة إلى جراحة لإصابة في ظهره، وأُعدَّ له برنامج علاجي يتضمن 150 ميلغرامًا من حبيبات دِيوكسِي كُورتِيكُوسِتيرون يُحقن بها كل ثلاثة أشهر، و25 ميلغرام من الكورتزون تؤخذ عن طريق الفم يوميًا. مع العلم بأن كينيدي كان يتناول جرعات كبيرة من السترويدز، مما أثار تساؤل أطبائه في التقرير التالي عام 1960م، وقبيل يوم التصويت عام 1958م أظهرت الفحوصات بأن هرمون الكظرية (ACTH) في حالة مستقرة. اضطر أطباؤه إيقاف جرعات الستيرويدز قبل الفحوصات بوقت كاف، وذلك في سبيل تحسين النتائج. وتعتبر خطوة إيقافها من أجل تشخيص بسيط خطوة جسورة، إذ أن كينيدي بات يتناول جرعات الستيرويدز لعشرين عامًا. وبعد وفاة كينيدي، أُجريت فحوصات للوسائد الدهنية المحيطة بالكلية، ولم تظهر دليلًا واضحًا على إصابة قشرة الغدة الكظرية أو لبِّها، باستثناء بعض الخلايا الكظرية المتأثرة بمرض أديسون، ويبدو السبب مجهولًا إلا أنه من المؤكد ليس بسبب إصابته بالسلّ. وكان من الواجب إجراء فحص للغدد الصماء عند التشريح.

(2) John F. Kennedy, **Profiles in Courage** (New York: Harper, 1956).

حيوية على عكس نظيره نيكسون، إذ يبدو بصورة المتعب والمنهك والشاحب الذي تفوح منه رائحة العرق، وذي الوجه غير الحليق كما ينبغي.

ونفى أنصار كينيدي طوال الجولات التمهيدية للحزب الديمقراطي وسباق الرئاسة سنة 1960م نفيًا قطعيًّا أن يكون كينيدي مصابًا بمرض أديسون، وذلك لسبب بسيط، وهو أن كينيدي نفسه كان في حالة إنكار مثلما هو جلي في المحادثة بينه وبين طبيبته جانيت ترافل التي ذكرتها في كتابها:

ترافل: حضرة السيناتور أعتقد أن عددًا من المراجعات في المجلات الطبية والأخرى الشعبية يجب أن تكتب دون تأخير، فالناس لا يدركون كم تغيرت النظرة إلى مرض أديسون.

كينيدي: ولكني لا أعاني منه أيتها الطبيبة.

ترافل: هذا صحيح فأنت لا تعاني من مرض أديسون في صورته الكلاسيكية، غير أن لغة التعبير تغيرت أيضًا، ويختلف الأطباء ربما لأنهم لا يتكلمون عن الشيء نفسه.

كينيدي: أيتها الطبيبة، إنك لن تستطيعي أبدًا تعليم كل هؤلاء الجمهوريين[1].

وفي أحد الحوارات من التاريخ الشفوي مع كاتب السيرة تيودور وايت، أشار بيار سالينجر مستشار كينيدي الصحفي، إلى أن إنكار السيناتور كينيدي للمرض لازال قائمًا، وهو إنكار يشمل حتى مجرد تناول الأدوية، وكان ذلك في المؤتمر القومي للحزب الديمقراطي في تموز/ يوليو 1960:

سالينجر: لقد عقد جون كوناللي وأنديا إدواردز ندوة صحفية مشتركة قالا فيها بإصابة جون كينيدي بمرض أديسون، وقد تقرر أن السيناتور نفسه لن يتنازل إلى حد المشاركة في هذه الندوة لإعطاء جواب. ولقد سلمت الدكتورة ترافل بيانًا ينفي بشدة إصابة الرئيس بمرض أديسون. وبطبيعة الحال فإن هذه الإصابة هي من باب الإشاعات الجارية على الألسن هذه الأيام، وأنا أعلم ذلك، فقد استمرت طوال فترة رئاسته، وحقيقة الأمر أنه يعاني من بعض العوز الصحي شخّصه بعض الأطباء على أنه مرض أديسون، غير أن أطباء آخرين من أطبائه خالفوا ذلك. بعبارة أخرى، إن ما

(1) Janet Travell, **Office Hours: Day and Night The Autobiography of Janet Travel**, M.D. New York: World, 1968), p. 330.

يعانيه يشبه من بعض الوجوه مرض أديسون ولكنه ليس هو.

وايت: نعم.

سالينجر: ولكنه ليس مرض أديسون، وهذا الأمر ليس قدرًا محتومًا ولن يصير كذلك، والأمر كله تحت السيطرة كما كان الحال دومًا وسيبقى.

وايت: لقد حدَّثته في الأمر بنفسك؟.

سالينجر: نعم فعلت ذلك.

وايت: ماذا كان قوله؟ ما الذي قلته له؟.

سالينجر: لا أستطيع أن أحدِّثك عن الحوار بالتفصيل، ولكنني أتذكر أنني قلت له: إن البعض يدَّعي أنك مصاب بمرض أديسون وأجاب: «أنا لا أعاني من مرض أديسون» وأردفت قائلًا: «إنك أيضًا متهم بتناول الكورتيزون» فرد بالنفي: «لا أتناول الكورتيزون، لقد تناولته فيما مضى أما الآن فلا»[1].

لقد كان هذا لعبًا بالكلمات، فالكورتيزول مصنع والكورتيزون طبيعي، وكلاهما يحمل نفس المفعول. إلا أنه وللأسف عُزز نفي كينيدي لتناول الكورتيزون من الدكتورة ترافل أثناء مكالمة هاتفية مع العقيد شريفر صهر كينيدي حيث قالت: «بطبيعة الحال هو تناول بعض مشتقات الكورتيزون، ولكن الطريقة التي يتناول بها بعض الجرعات الفيزيولوجية لا يمكن أن تعتبر دواء». وهكذا يخدع مرة أخرى زعيم سياسي وطبيبه الشخصي الناخبين ويتلاعب بالحقيقة إلى حدِّ الكذب، والحقيقة أن الأمر لم يتغير منذ ذلك التاريخ، وأثناء الحملة الانتخابية ضد نيكسون. وقبل يومين فقط من يوم التصويت، أصدرت ترافل تقريرًا طبيًّا بموافقة جون كينيدي جاء فيه:

«لم يكن جون كينيدي يعاني قط ولا الآن من أعراض توصف كلاسيكيًّا بأنها مرض أديسون، وهي الأعراض التي تتمثل في التدمير السلي للغدة الكظرية. وأي بيان مخالف لذلك هو بيان ماكر وكاذب... لقد عانى في فترة ما بعد الحرب من بعض القصور في الغدة الكظرية، وهذا أمر لا يشكل البتة حالة يمكن وصفها بالخطيرة. ومن الممكن

(1) Extract from oral interview of Pierre Salinger by Theodore White, John F. Kennedy Library, boxes 70 _ 73.

أن يكون قد شفي منه بمرور الوقت بما أن اختبارات التحفيز لوظيفة الغدة الكظرية المعروفة بـ ACTH قد أظهرت أنها تعمل بصفة طبيعية عام 1958م. وأشار الأطباء إلى أن هذه الحالة قد نشأت نتيجة زمن الحرب، وما عاشه من تجارب ومن الصدمات وانتشار الملاريا».

ومن خلال استخدام تحديد ضيق جدًّا لمرض أديسون يقوم على اعتباره شكلًا من أشكال القصور في الغدد الكظرية بسبب مرض السل، فإن حملة التصحيح بالحالة الطبية والصحية للرئيس قد خلقت تكتيكًا محسوبًا بدقة ومضللًا عن قصد، الغاية منه تشتيت الانتباه. لقد كان ذلك كما صرح به أحد الكتاب، عبارة عن مواراة للحقائق استخدم بمهارة حول شخص الرئيس من أجل إخفاء الحقيقة وذلك للقول: إن ما كان يعانيه كينيدي ليس إلّا قصورًا «خفيفًا» في الغدة الكظرية نتج بعد الحرب، خصوصًا عندما كان مريضًا جدًّا سنة 1947م بكيفية جعلته يحس باقتراب الأجل، ويخضع لطقوس الاحتضار بحسب التقاليد المسيحية.

يعتبر الكورتيزول منتجًا صناعيًّا منذ عام 1935م وقد كان قبل ذلك الحين عام 1930م يموت حوالي 90 بالمائة من الذين يعانون من مرض أديسون، إلّا أنه ومنذ عام 1950م صار أغلب الذين يصابون بهذا المرض يعيشون حياة عادية، ويصبح الأمل في الحياة عندهم طبيعيًّا، ومن المهم أن نتذكر أنه عندما لا تتمّ معالجة المرض.

فإنه تظهر على المصابين به علامات على اضطرابات عصبية دون تمييز، وبشكل كلي تقريبًا، وأكثر هذه الاضطرابات شيوعًا هي تلك التي يمكن أن تصيب الأشخاص الذين يعانون من الإرهاق البدني المزمن والاكتئاب، والانطواء العاطفي، واللامبالاة وفقدان الدافع والمبادرة. وقد يحدث أحيانًا بعض التقلبات المفاجئة في المزاج، مع حالات من القلق الواضح وعدم الاستقرار والتوازن[1].

كان يجب انتظار انتخابات شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة 1960م حتى يوافق روبرت كينيدي على إعطاء مزيد من المعلومات حول صحة الرئيس المنتخب، في مقابلة حوارية ولكن بطريقة مقيَّدة جيدًا. وفي مقال صدر في شباط/ فبراير 1961م في مجلة: «الصحة اليوم»

---

(1) William Alwyn Lishman, **Organic Psychiatry: The Psychological Consequences of Cerebral Disorder, 3rd ed.** (Oxford: Blackwell Science, 1998), p. 519.

التي تنشرها الجمعية الطبية الأميركية وتناقلته عديد الصحف بما فيها «النيويورك تايمز»[1]، أُشير إلى أن الدكتورة ترافل والدكتور أوجين كوهين وهو وطبيب متخصص في الغدد من نيويورك كتبا بيانًا في 21 حزيران/ يونيو 1960م قدما فيه بعض المعلومات الحساسة حول مرض أديسون، مشيران إلى أن هذا اللغط يعبِّر عن مستويات مختلفة من القصور في الغدة الكظرية، وأن العلاج البديل عن الجراحة كان ناجحًا بكيفية جعلت الجراحين يترددون في اللجوء إلى إزالة الغدتين الكظريتين كعلاج بالنسبة إلى العديد من الحالات، وأضاف المقال أن النساء المصابات بمرض أديسون بإمكانهن الحمل والإنجاب دون مخاطر تذكر. والحقيقة أنه لو تواصلت هذه المقاربة المباشرة زمن ولاية كينيدي، لكان من الممكن تربية الجمهور تدريجيًّا والقضاء على أغلب الأفكار المسبقة والخوف المحيط بتشخيص هذا المرض، وكان سيسمح هذا الانفتاح والشفافية حول مرض كينيدي للحقيقة بأن تظهر وللغموض بأن يتوقف.

كان على الأميركيين أن ينتظروا حوالي أربعة عقود لتظهر الحقيقة تدريجيًّا. إن الشرف والمسؤولية داخل الحكومة تتطلب إطلاع الجمهور عندما تكون الشروط الطبية أو العلاجات التي يتلقاها رئيس الدولة أو الحكومة لها القدرة على تقليص الحكم على الأشياء، ولهذا نحن نحتاج على الأقل إلى نشر خبر الأمراض التي تصيبه، وهو أمر يبدو أنه لم يكن حاصلًا أيام كينيدي.

في الحقيقة لم يكن الشعب الأميركي هو الوحيد الذي أُستبعد وتُرك جاهلًا بموضوع صحة رئيسه. فبسبب السرية الكبيرة التي تحيط بالحالة الصحية للرئيس كينيدي، لم يعلم أحد من مقربيه، ولا حتى أشدهم قربًا منه بحقيقة حالته الصحية، وإنه كان مريضًا حقًّا، بل حتى حقيقة الإجراءات المتبعة لعلاجه، وأي أدوية كانت تصرف له. ولو كان هؤلاء على علم، فربما استطاعوا أن يراجعوا معه تقييم أحكامه في بداية توليه الرئاسة. لم يكن في الواقع إلا قلة قليلة من المحيطين به مثل زوجته وأخيه روبرت ووالده يعلمون بالغالب ما كان يعرفه الأطباء. فقد كتبت ترافل في مذكراتها، وهي التي رافقت كينيدي بعد انتصاره في الانتخابات قبل أن تصير طبيبه الخاص في البيت الأبيض: إن الرئيس أشار عليها بأنه في

(1) Ernest Barcella, «Health Profile of Our New President», **Today's Health, February** 1961. Also featured in the New York Times, 17 January 1961.

حالة تعذر عليها الاتصال به للحديث في أمر من أموره الصحية فإن «عليها أن تتحادث مع تاد سورنسن، وهي مستشارة مقربة من كينيدي وكاتبة خطبه، قائلًا: إنها الشخص الوحيد في البيت الأبيض الذي يعلم كل شيء بالتفصيل عن حالتي الصحية، ولا تتحدثي مع أحد غيرها». وقد أكدت ترافل لاحقًا أن مسار تقييد المعلومات وجعلها حكرًا على عدد قليل قد استمر حتى بعد وفاة كينيدي.

على كل حال فقد كان اختيار ترافل طبيبًا شخصيًّا للرئيس كينيدي خيارًا مستغربًا جدًّا، ومما لا شك فيه أنها كانت خبيرة في مسائل الألم الليفي العضلي، وهو مصطلح يستخدم لوصف الألم المزمن والاضطراب الذي يصيب عضلات الهيكل العظمي. لم تكن ترافل طبيبة عامة متميزة، ولم تتعامل مع إصابة الرئيس بمرض أديسون، والحقيقة وقعت مسؤولية هذا بالأساس على الدكتور كوهين، فمن السمات المميزة لحالة كينيدي هو التجاؤه إلى أطباء متخصصين محصورين قصدًا في تخصصاتهم الضيقة، دون الالتجاء إلى أطباء لهم القدرة على الحكم على مجمل حالته الصحية، ومتابعه كل العلاجات التي يخضع لها، ولهذا السبب بالذات كانت الدكتورة ترافل تحتاج إلى أن تهاتف في كثير من الأحيان الدكتور كوهين، وتتصل به شخصيًّا أحيانًا أخرى لتسأل حول متى وكيف تزيد جرعات الستيرويد عندما يصاب كينيدي ببعض العدوى؟ أما هي فقد كانت لها خبرة في علاج ظهر كينيدي وكانت تقنيتها الخاصة في علاجه تتمثل في إغراق عضلات أسفل الظهر بمادتي البروكايين أو النوفوكائين من خلال حقنة تستخدمها لهذا الغرض، والبروكائين هو البديل الاصطناعي للكوكايين، وبعضه إذا كان ضعيف التركيز من الممكن أن يتشربه النظام العصبي المركزي، وقد يحدث نتيجة لذلك ضعف في التركيز والشرود والتعب وتغيير المزاج مع خليط من القلق والتردد والاندفاع والأرق، وهي كلها مما لوحظ أحيانًا على الرئيس كينيدي في بداية توليه الرئاسة.

ولتخفيف الآلام التي كانت تنتابه في الظهر، كان كينيدي يأخذ حوالي خمسة حمامات ساخنة يوميًّا في البيت الأبيض، ويسبح في حمام سباحة دافئ، ويستخدم كرسيًّا هزازًا، واستمر لسنوات يستعمل حقن البروكائين أسفل الظهر، وكان هذا أمرًا مثيرًا للخلاف بين الأطباء، فقد كانت ترافل تحقنه حوالي ثلاث مرات في اليوم، وقد تصل إلى خمس أو ست بحسب ما ورد في بعض التقارير. ولكن صار بعض الأطباء يشعرون بقلق متزايد حيال تواصل استعمال البروكائين بهذه المعدلات، وذلك بحلول صيف 1961م، فقد أشارت

تقارير ترافل السريرية إلى استخدام جرعات أكبر تدريجيًا في الفترة بين تموز/ يوليو، وتشرين الأول/ أكتوبر.

وكما يتضح من تاريخ ترافل الشفهي الذي تحدثت عنه في مقابلة مع ثيودور سورنسن في 20 كانون الثاني/ يناير 1996م، بأنها كانت مُكلفة بأن تكون طبيبة الرئيس وأسرته. وأفصحت أثناء تلك المقابلة عن تفاصيل طبية مهمة[1]. غير أنها لم تُعطَ في البيت الأبيض الثقة ولا الصلاحية الكاملة لتكون مسؤولة عن جميع الأدوية التي صرفها أطباء آخرون للرئيس (بما في ذلك تلك التي يأخذها الرئيس بشكل ذاتي)، إلا أنها أفشت حقيقة أن الرئيس كان يتناول بعض المخدرات في أول ستة أشهر من رئاسته عام 1961م. وأوضحت تقاريرها في ذلك الحين معاناته من «آلام في البطن والقولون، ومشاكل البروستات، وارتفاع درجة الحرارة، وجفاف يعتريه من حين لآخر، والصدفية، والأرق، وارتفاع نسبة الكوليسترول، بالإضافة إلى اعتلالات ظهره والغدة الكظرية» صُرفت له جرعات عديدة من أدوية مختلفة، حيث استمر صرفها كما يظهر في السجل:

«حُقن، كورتيكوستيرويد عن طريق الفم لقصور الغدة الكظرية، جرعات من بروكين لتسكين الآلام، ومعالجات إشعاعية، وكمادات دافئة لظهره، ولوميترالين، وميتاموسل، وصبغة الأفيون الكافورية، وفينوباربيتال، وهرمون تستوستيرون، وترانزسنتاين للتحكم بالإسهال وآلام البطن وفقدان الوزن، وبنسلين ومضادات حيوية للعدوى البولية والصدفية، وتوينال لتساعده على النوم»[2].

وفي 19 آذار/ مارس أشارت إلى أنه أُعطي مستحضرًا من مشتقات الديميرول كعلاج، إذ يظهر بأنه صُرف له بكميات قليلة من أجل تهيّج القولون.

والسؤال بعد هذا كله: ما هو تأثير كل هذه الأدوية وكل صنوف العلاج على القرارات

(1) عملت ترافل على مدى سنوات مع اثنين من أخصائيي الغدد الصماء لعلاج الرئيس، وأوضحت بأن كينيدي مصاب بقصور الغدة الدرقية وانخفاض في معدل الاستقلاب الأساسي بنسبة ـ 20، وارتفاع نسبة الكوليسترول إذ تصل إلى 350، وتذبذب نسبة اليودُ المُرْتَبِطُ بالبروتين، مما يدل على أن إصابته بمرض أديسون تعتبر تبعًا للتدمير الذاتي للجهاز المناعي. وأُعطي لِيُوثَيرونين (دواء هرموني درقي) ويعتبر دواء جديد للدرقية، ـ 50 ميكروغرامًا يوميًا ـ وعلاوة على ذلك فقد أصيب كينيدي في سنة 1957م بخراج في الظهر بعيد عملية جراحية لعلة ما يعرف بخراج الغرزة، ناتج عن مخثرة موجبة عبر الجرثومة العنقودية الذهبية أو الستافيلوكوك. تمت معالجتها بنجاح من خلال عملية نزح واستجابت للعلاج بعقار الستربتومايسين.

(2) Dallek, **Unfinished Life**, p. 398.

التي اتخذت إبّان أزمة خليج الخنازير؟ ففي سياق الأدوية البديلة التي وصفت له لعلاج مرض أديسون، كان على كينيدي أن يتناول التستستيرون، ونحن نعرف أن أغلب المرضى ينتجون مستويات مختلفة من التستستيرون في الدم، ومع ارتفاع مستويات التستستيرون مضافًا إليها العلاج بالسترويد، فإنه من المحتمل أن يكون كينيدي عرضة للتصرف بشكل «عنيف» وأن يتصرف أحيانًا أخرى تحت تأثير مزاج متشائم خصوصًا عندما يختفي تأثير المهدئات.

فمع اقتراب موعد الغزو، كان كينيدي يشعر بمزيد من الضغط، وعندما يتمّ تجربة العلاج البديل لكل مريض من مرضى أديسون، فإن ذلك يعتبر ضغطًا إضافيًا، إذ ليس من السهل بالنسبة إلى أي طبيب أن يقدِّر الجرعة المناسبة التي يحتاجها المريض من مادتي الستيرويد والتستستيرون، وكان ذلك هو الحال عندما عولج كينيدي من التهابين منفصلين في الإحليل خلال الشهر السابق لعملية الغزو، بما أن الالتهابات تحتاج غالبًا إلى جرعات أقوى من السترويد الإضافي، كان الدكتور وليام هاربست، وهو طبيب متخصص في أمراض المسالك البولية، يعالج كينيدي منذ سنة 1953م من شعور بالـ «حروق» عندما يلامس الماء و«بألم في البروستات» كما عولج كينيدي من سلسلة من الأمراض التناسلية منذ سنة 1940م. وفي سنة 1961م شُخص بإصابته بالتهاب الإحليل اللاسيلاني بسبب عدوى بالجرثومة المتدثرية[1]. وقد استدعي الدكتور هربست لرؤية كينيدي يوم 14 نيسان/ أبريل 1961م وفحصه، وبعدها شرع في معالجته بمضاد للتشنج هو الترونسيتين.

وعن سؤال كيف كانت حال الرئيس كينيدي الصحية الحقيقية أيام غزو خليج الخنازير يومي 17 و18 نيسان/ أبريل؟ فإن الإجابة هي أنه كان يعاني من إسهال حاد، وتكررت العدوى والالتهابات في المسالك البولية، ولا شك في أن هذا هو جزء من الأسباب التي جعلته يبدو منهارًا تمامًا بعد الهزيمة. فقد تلقى الرئيس علاجًا بـ 600,000 وحدة من وحدات البروكائين بنيسيلين عن طريق الحقن في العضل لعلاج التهاب المسالك البولية يوم 17 نيسان/ أبريل حين حصل غزو خليج الخنازير. وقبلها بثلاثة أسابيع أُصيب بنوبة مشابهة من نوبات التهاب الإحليل المزمن عولج على أثرها. وبالنسبة إلى شخص سليم البنية فإن من شأن هذه العدوى والعلاج الذي يتلقاه أن يشعره بهبوط، ولكن بالنسبة إلى كينيدي الذي كان يعاني من مرض أديسون، فإن الأثر كان سيكون أكبر من ذلك بكثير بلا شك.

(1) Seymour M. Hersh, **The Dark Side of Camelot** (Boston: Little, Brown, 1997), pp. 231-232.

في مساء 18 نيسان/ أبريل كان كينيدي يعاني من الإجهاد والإعياء إلى درجة أنه توقف أثناء الكلام، وخرج ليلًا يتمشى لساعة من الزمن في حديقة الأزهار، وفي صبيحة اليوم التالي وجده بيار سالينجار يبكي في غرفة نومه. وقد ذكرت جاكي كينيدي لحماتها نفس الأمر حيث لم تره قط على تلك الحال إلا يوم أجريت له عملية الظهر. وقد اعتبر كينيث أودونيل أنه كان أقرب ما يكون إلى البكاء، وأنه لم يره قط في تلك الحال، وفي هذه الفترة بالذات كتب له روبرت كينيدي مذكرة عمل يمكن وصفها بالنبوئية قائلًا فيها: «إذا ما نحن لم نشأ أن يقيم الاتحاد السوفياتي قواعد للصواريخ في كوبا، فإنه علينا الآن أن نقرر ما نستطيع فعله لوقف ذلك»[1].

وصف شستر باولز كينيدي أثناء اجتماع مكتبه في 20 نيسان/ أبريل بأنه: «كان محطمًا كليًّا» يتحدث أحيانًا إلى نفسه ويقطع أحاديث الآخرين من الحاضرين ليقول كلامًا خارجًا عن السياق قائلًا: «كيف حدث أن كنتُ على هذه الدرجة من الغباء»[2]. كان يشكو من الأرق واصفًا ما يجري بأنه أسوأ تجربة في حياته، وكان دائم الاتصال بوالده على الهاتف. ولم يكن هذا سلوك رجل مؤهل لحكم البلد، ولا سلوك قائد صلب، هو قائد القوات المسلحة ولا حتى سلوك رجل يعاني من الاكتئاب، إنه بكل بساطة سلوك رجل عليل جسديًّا توقفه على رجليه مجموعة مختلفة من الأدوية، ولكن الفشل يقوده إلى هوة سحيقة. غير أن كينيدي لم يكن معتادًا على الفشل، فقد كان إلى تلك اللحظة رجلًا محمولًا على أجنحة الرياح منذ أن صار سيناتورًا.

ومن الجدير بالملاحظة أيضًا أن سجلات البنتاغون كشفت أنه في يوم 29 نيسان/ أبريل 1961م تمّ الاتفاق أثناء اجتماع لمجلس الأمن القومي، على أن تُباشر العمليات السرية في فيتنام، وفعلًا قامت القوات المسلحة بالتوجه بعد أسابيع قليلة إلى جنوب فيتنام. وقد ظن البعض أن تلك كانت اللحظة العصيبة في مسار تصعيد الحرب في فيتنام، كان قبلها بليلة يمارس الجنس مع عشيقة عضو مافيا في شيكاغو، بالتأكيد لم يكن كينيدي في وضع جسماني أو نفسي سليم يسمح له باتخاذ قرار في مثل تلك الخطورة.

(1) Beschloss, **Kennedy v. Khrushchev**, pp. 23 - 24.

(2) **Foreign Relations of the United States 1961-1963, vol. 10: Cuba 1961-1962** (Washington, DC: Department of State, 1997), p. 305.

ماكس جاكوبسون وفيينا وخروتشيف

بعد أسابيع من قضية خليج الخنازير، التقى الرئيس كينيدي في قمته الأولى الزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشيف في فيينا. وفي 16 أيار/ مايو، وقبل أسبوعين من الاجتماع أرسل مستشار الأمن القومي ماك جورج بوندي مذكرة كاشفة إلى كينيدي، إذ جاء فيها ما نصُّه: «أرجو أن تكون في مزاج جيد حين تقرأ هذه المذكرة» وفيها حديث عن الطريقة التي يجب أن يتوخاها لملاقاة خروتشيف والرد عليه:

«لا نستطيع أن نجعلك ثابتًا... إن مجلس الأمن القومي على سبيل المثال لا يستطيع أن يعمل لأجلك ما لم تأذن بوضع جدول زمني للعمل لا يُقاطع المرة تلو الأخرى، إن الدعوة إلى هذه الاجتماعات في خمسة أيام لا معنى لها مثلما إرجائها إلى ستة أسابيع على التوالي هو أمر سيء أيضًا... لقد كان ترومان وأيزنهاور يهتمان بعشرات المسائل من السياسة الخارجية في الصباح الباكر، باعتبارها من الأولويات، وقد طلبت مني قبل أسبوعين أن أشرع في مقابلتك على نفس المنوال، ولكنني لم أتمكن من الالتقاء بك سوى ثلاث مرات صباحًا لوقت قصير، يقدر مجموعه بحوالي ثماني دقائق فحسب، وقد استنتجت أن هذا هو ما لا تريد أن يبتدئ يومك بمناقشته ودراسته. وعلاوة على ذلك فإن ستًا من تلك الدقائق الثمانية لم تخصص لما أريد أن أقوله أنا لك، بل لما تريد قوله أنت لي: (عدد بوندي بعدها طلبات الصحفيين وآخرين). وفي هذه الفترة يبدو من الصعب أن نصل إليك في أمور غير طارئة، حتى أن نصف التقارير والمذكرات التي طلبتها شخصيًا لم تطَّلع عليها أبدًا، بسبب إنه في الوقت التي تتاح لك، يكون اهتمامك بها قد تلاشى تمامًا»[1].

لقد كان هذا مؤشر على الحالة التي وصل إليها كينيدي، فقد صار ضيق الصدر ومشوشًا مفرطًا في الحركة منشغلًا ببسائط الأمور. وفي هذه الفترة بالذات بدأ يتلقى علاجًا طبيًا على يد الدكتور جونسون الملقب: «بطبيب الشعور الجيد» من قبل مرضاه في نيويورك. كان كينيدي قد التقاه من قبل أثناء حملته الانتخابية الرئاسية. والواقع أن د. جونسون لم يكن طبيبًا عاديًا، ولكنه شخص صنع شهرته بين نمط معين من الناس الطموحين من ذوي الثراء غالبًا والناجحين، مثلما يوجد منهم الكثير في أغلب المدن الكبرى المزدهرة حول العالم،

(1) McGeorge Bundy, **memo to Kennedy**, 16 May 1961, National Security Files, John F. Kennedy Library, boxes 287-290.

ويريدون أن يحاطوا بأطباء يعطونهم الطاقة الإضافية. وبعض هؤلاء يطلبون تحسين قدراتهم الجنسية والعون العام من أجل مواصلة نمط من الحياة، يجبرهم أن يكونوا مدفوعين إلى الأعلى دومًا. وقد حصل جاكبسون على شهرته هذه من خلال وصف الأمفيتامين في شكل حبوب منشطة ومهيجة، أو في شكل حقن في العضل، ومن المعروف عنه أنه قد حقن بين 30 و50 مليغرامًا من الأمفيتامين عن طريق العضل لمرضاه، بل تجاوز ذلك بأن أعطى جرعات أكبر بكثير. وقد تعلم بعض المرضى كيف يحقنون أنفسهم بأنفسهم مادة الأمفيتامين السائل عبر الوريد، وكان هذا الأمفيتامين السائل يلقب يومها «بالسرعة» كما يعرف عنه أن يعطي بعض المترددين عليه قوارير الأمفيتامين للحقن الذاتي، يقومون باستعمالهما بمفردهم.

لقد سحبت رخصة جاكبسون لممارسة الطب في نيويورك في نيسان/ أبريل سنة 1975م ورُفض مطلب استعادتها في 1979م اعتمادًا على حجج ذات صلة به تعود إلى شباط/ فبراير 1966م ونحن نعلم أشياء كثيرة من خلال الطريقة التي عولج بها شخصان من مرضاه على الأقل بين السنوات (1961 و1968م) من خلال تقرير صدر سنة 1975م[1] كنت قد قرأته بالكامل حيث يظهر أن الصرف الذاتي لمواد محقونة يسلمها جاكبسون لمرضاه أمرًا عاديًّا، وكان الوصف الذي يُعطى لآثار هذه الحقن هو «الغبطة» و«النشوة». وفي أثناء حوار مع جاكبسون سنة 1969م لاحظ أعوان مكتب مكافحة المخدرات الخطيرة وجود «آثار للإبر في يديه، وقد اعترف بأنه يحقن نفسه بـ 25 غرامًا من مادة ميتامفيتامين المشهورة باسم (السرعة) كل يومين أو ثلاثة» ويبدو أن ما يقصده مكتب مكافحة المخدرات هو الحقن بقياس المليغرام وليس الغرام داخل الوريد[2]. وقد توفي جاكبسون سنة 1979م.

وقد ظهر التقرير الأول عن معالجة جاكبسون للرئيس كينيدي في صحيفة: «نيويورك

---

(1) **Report of the Committee on Discipline**, Regents of the University of the State of New York, 25 February 1975.

(2) أُعطي بعض المرضى جرعات تتراوح بين 400 ـ 500 ميلغرام من الأميفين عبر الوريد، وأسهم ذلك في إبقاءهم على قيد الحياة، وأعطي مريض آخر 15 غرامًا بنفس الطريقة على مدار 24 ساعة، إلا أن مريضًا آخر تناول 120 ميلغرام من نفس العلاج بطريقة الحقن المتسارع ولكن أدّى ذلك إلى وفاته.

(Edward M. Brecher, Licit and Illicit Drugs: **The Consumers Union Report on Narcotics, Stimulants, Depressants, Inhalants, Hallucinogens, and Marijuana** - Including Caffeine, Nicotine, and Alcohol (Boston: Little, Brown, 1972), p. 288.

وأوردت المنظمة بأن مسؤولي الجمعية الوطنية للتصلب المتعدد اعتبروا جاكبسون «مخادع ومحتال».

Information concerning Dr Max Jacobson, **FBI records**, 18 August 1972).

تايمز» سنة 1972م فقط[1]، وبالرغم من أن الصحفيين لم يكن باستطاعتهم الجزم بأن كينيدي كان يتلقى الأمفيتامين منه، وبالرغم من النفي المتأتي من أنصار كينيدي فإن مزيدًا من المعلومات بدأت في الظهور، وفي هذا الصدد يعتبر كتاب: «سيرة كينيدي الذاتية» الذي وضعه روبرت داليك سنة 2003م ذو أهمية بالغة، لأنه تمكن من الاطِّلاع بموافقة أمناء مكتبة كينيدي، وهم ثلاثة من كبار شركاء الأسرة منذ فترة طويلة، على المعلومات الطبية التي كانت قد حجبت سابقًا. وقد أكَّد داليك من خلال هذا الاطِّلاع، أن جاكبسون قد «حقن فعلًا كينيدي بحقن من مسكنات الألم والأمفيتامينات»[2].

تعرف كينيدي على جاكبسون قبيل المناظرة الانتخابية المتلفزة مع ريتشارد نيكسون سنة 1960م بإدارة تشارلز سبالدينغ، وهو من الأصدقاء المقربين منذ بداية الأربعينيات. وفي أحد الحوارات وصف سبالدينغ كيف «ذهب لرؤية ماكس» قائلًا: «توقَّعت أن الامر يتعلق بالمادة المعروفة بـ«السرعة» أو ما يشابهها قد قدمت إلينا» وبعدما أخذ سبالدينغ جرعة توجه للقاء عائلة كينيدي وعن هذا اللقاء قال: «كنت أقفز من حولي وكانوا يقولون يا إلهي؟ كيف حصلت على كل هذه الطاقة؟ وكنت أجيب إنك بعد أن تلتقي ماكس يمكنك أن تقفز من سياج». وقد أشارت زوجة سبالدينغ السابقة بيتي، إلى أنه أخذ حقنة فتورد وجهه وبدت من عينيه نظرة براقة، وكان بياض العين يبدو مليئًا بالماء وثابتًا لا يتحرك مع جفاف في الفم»[3].

هناك فصل خاص وذو دلالة عن حالة كينيدي الصحية ضمن مذكرات جاكبسون غير المنشورة، يمكن من خلاله تحليل مزاعمه الطبية، فقد كانت معالجة الإرهاق هي إحدى اختصاصاته. ويقول: إنه بعد الفحص الأول في أيلول/ سبتمبر 1960م ظهر له أن كينيدي قد تخلص من ضعفه العضلي نهائيًا، وأنه شعر به هادئًا ويقظًا. ولم يتحدث جاكبسون عن العلاج الذي وصفه له، ولكن يبدو أن الأمر يتعلق بحقن داخل العضل كثيرًا ما يلتجئ إليها جاكبسون لمعالجة مرضاه تعرف باسم: «XAM» وهو مستحضر يصنعه بنفسه عبارة عن مزيج من الأمفيتامين والستروييد. غير أن جاكبسون لم يشر البتة إلى أنه أعطى كينيدي أية قوارير أو قنينات لاستعمالها في التداوي الذاتي، بالرغم من إن ذلك كان أمرًا عاديًا بالنسبة إلى جاكبسون.

---

(1) **New York Times**, Monday 4 December 1972, based on reporting by Boyce Reusberger and the paper's medical correspondent, Lawrence K. Altman, amongst others.

(2) Dallek, **Unfinished Life**, p. 398.

(3) Hersh, **Dark Side of Camelot**, pp. 235 -236.

وبعد عدة أسابيع من التنصيب الرئاسي، تلقى جاكبسون مكالمة هاتفية من جانيت ترافل تسأل عن علاج للإجهاد، مؤكدة أن العلاج خاص بالرئيس، وأنه قدم لها معلومات تفصيلية عبر الهاتف، غير أنها رفضت بشدة عرضه أن يبعث لها نفس المعلومات والمعطيات بشكل مكتوب، ونموذجًا من مستحضره المعروف باسم:«XAM».

أما اللقاء الثاني الذي وصفه جاكبسون مع البيت الأبيض، فكان بعد ثلاثة أسابيع في 12 أيار/ مايو 1961م عندما تمّ الاتصال به هاتفيًا ليطلب منه الطيران إلى وست بالم لمقابلة الرئيس، وحين وصل وجد كينيدي فيما يزعم منشغلًا بأمر الوضع الصحي لجاكي زوجته بعد إنجابها لابنهما الأصغر، فقد كانت تعاني من اكتئاب مزمن وأوجاع في الرأس. ولما كان كينيدي يعلم بأن جاكبسون قد عالجها من قبل، سأله ما إذا كانت تستطيع تحمل مشقة السفر إلى كندا أو لا، ثم الرحلات الأهم إلى كل من باريس وفيينا ولندن. وقد زعم جاكبسون في علاجه زوجة كينيدي، أنه خلّصها من الصداع النصفي وتقلب المزاج. غير أنه لا إشارة إلى أن جاكبسون قد تولى علاج الرئيس بهذه المناسبة نفسها، أو إنه أعطاه أية عقاقير أو قوارير بغية استعمالها في التداوي الذاتي.

زار الرئيس كينيدي كندا من 16 إلى 18 أيار/ مايو وأصيب بجرح في الظهر حينما كان يحاول زراعة شجرة بلوط صغيرة، وشُرع في أخذ الصور له وهو يتكئ على عكّازين، ولكن الغريب هو أن ترافل لم تشر في تقاريرها الإكلينيكية ليوم 19 أيار/ مايو إلى آلام ظهر كينيدي، وإنما اكتفت بالقول: «إنه متعب». وفي 20 من الشهر ذاته أشارت إلى إنه في صحة جيدة، وفي تقريرها التالي ليوم 25 أيار/ مايو ذكرت أنها قامت بحقنه مرتين داخل العضل بمادة البروكائين في الثامنة والنصف صباحًا في ثلاثة مواضع مختلفة، ثم حقنته ثانية في الثامنة مساء في موضعين. وفي تقرير لاحق مؤرخ في 28 أيار/ مايو أشارت إلى أنها قامت بالعلاج نفسه في منزل كينيدي الصيفي في هيانيس بورت، ووُجد في وثائقها الطبية جدولًا يصف صدر رجل عريض وظهره، مع إشارة إلى المواضع العضلية الأربع التي حقنتها.

ويمكن القول، إن مجموع الملاحظات الطبية التي وضعتها ترافل، وأمكنني الاطّلاع عليها تكشف عن أمر صادم بما تحويه من نقص وعدم تلاؤم عند حديثها عن تفاصيل علاج الرئيس. وبصرف النظر عن الطبيعة الوضيعة لقصاصات الورق التي كتبت عليها دون وجود مداخل كتب رسمية أو بطاقات رسمية، لعلها وُجدت علاجات أخرى أعطيت لكينيدي ولكنها لم تسجل، أو أنها سجلت وضاعت أو أتلفت.

تحدث جاكوبسن عن كيف أخبرته موظفة الاستقبال عن تلقيه مكالمة هاتفية من السيدة دان في واشنطن في 23 أيار/ مايو، وقد ذكر أن «دان» هو الاسم «المشفر» للمكالمة التي يكون مصدرها مكتب الرئيس. وهذا معناه أن هناك اتفاقًا خاصًا، وكيفية معينة للتواصل بين مكتبه وبين سكرتيرة الرئيس في البيت الأبيض. وعلى أثرها طار جاكوبسون إلى واشنطن برفقة المصور مارك شو الذي يملك طائرتين من نوع سيسنا، وحُجزت غرفة له في فندق الشيراتون، وفي صبيحة اليوم التالي نُقل بواسطة حافلة تابعة للبيت الأبيض. زعم أنه قام بعلاج جاكلين كينيدي، ثم توجه للقاء الرئيس الذي لايزال مستلقيًا على الظهر في فراشه يتابع آثار ما قام بزراعته في كندا.

لم تكن غاية العلاج الذي قدمه جاكوبسون لكينيدي لمجرد وضع حدٍّ لما كان يحسُّ به من انزعاج وعدم ارتياح، بل أيضًا إعطاء كينيدي فيما يعتقد مزيدًا من القوة للتغلب على الإجهاد. وغالبًا ما كان ذلك خلال المزج بين الأمفيتامين والستيرويد، غير أنه «لوحظ أن مرضى أديسون كانوا حساسين بشكل غير طبيعي للآثار المترتبة عن الستيرويد والمتمثلة في انتعاش المزاج»[1]. غير أن جاكبسون غالبًا ما يضيف إلى الأمفيتامين الذي يصفه جرعات قوية من الستيرويد مع مجموعة من الفيتامينات، بل إنه يضيف أحيانًا أخرى شيئًا من نقي العظم أو النخاع العظمي والمشيمة والأنقليس الكهربائي، وهو نوع من ثعابين البحر وغير ذلك من الجسيمات التي يمكن خلط بعضها ببعض، ويرى أنها مما يفيد مرضاه[2]. يبدو أن الستيرويد الذي كان يصفه جاكبسون قد أُضيف إلى تلك الجرعات الأخرى التي وصفت للرئيس كينيدي بمقتضى العلاج البديل السابق، وقد زعم دون توفر دليل ملموس، أن مكتب المخابرات المركزية، جمع خمس قوارير خلفها جاكبسون وراءه عند مغادرة البيت الأبيض وأخضعها للتحليل ليتبين وجود مستوى عال من التركيز من مادة الأمفيتامين والستيرويد.

لقد كان الرئيس قادرًا على المشي والتجول حول مقرّه بعد علاجه في أيار/ مايو 1961م، وادَّعى جاكبسون أن كينيدي أعلمه بأنه يحس بتحسن، أفضل مما كان من قبل، وسأله إن كان يستطيع مرافقته إلى أوروبا الأسبوع التالي؟. وأشار كينيدي إلى أن سكرتيرته لم تدفع

(1) Lishman, **Organic Psychiatry**.

(2) **Reports of the Committee on Discipline**, Regents of the University of the State of New York, 22 March 1973-25 February 1975.

مقابلًا لزيارته إلى مكتب جاكبسون في نيويورك في أوائل شهر أيلول/ سبتمبر، وتوحي هذه الرواية أن آخر مرة تولى فيها جاكبسون علاج كينيدي كانت في هذا الشهر من سنة 1960م إلا إنها لا تستبعد إمكانية أن يكون كينيدي واصل استعمال الأدوية التي صرفها له جاكبسون من قبل دون الرجوع إليه. وعمومًا فإنني أعتقد إنه من الأفضل القول إن جاكبسون لم يعالج كينيدي بواسطة الأمفيتامين، ولم يعطه عقاقير للاستعمال الذاتي طوال أزمة خليج الخنازير، إلا إنه أثناء لقاء كينيدي بخروتشيف في فيينا، كان قريبًا دومًا من كينيدي، وأعطاه أحيانًا كثيرة حقنًا متكررة.

ولم تكن أي من العلاجات التي وصفها جاكبسون لكينيدي موضع تنسيق مع أي من أطباء الرئيس الآخرين، ولا توجد أية إشارة إلى جاكبسون ولا إلى علاجاته في التقارير التي كتبتها الدكتورة ترافل[1].

كان أحد كبار رجالات المخابرات نقلًا عن لاري نيومان، وهو أحد عملاء الوكالة ممن انضم إلى الفريق الرئاسي خريف 1961م، يعلم حسب قوله: «بما كان يفعله هذا الرجل (جاكبسون) وسعى إلى أن يبعده قدر الإمكان عن الرئيس وزوجته» قائلًا: «إننا لم نر استعمال هذه الحقن ولم نعلم بالمواعيد التي كان يقوم كينيدي فيها بحقن نفسه، ولكنني كنت أعلم أن ذلك كان يتمّ في ساعات الاستيقاظ...وكل ست ساعات»[2]، إلا أن استعمال الأمفيتامين في تلك الأيام أي: أواخر الستينيات لم يكن مراقبًا بشدة على النحو الذي هو

(1) على سبيل المثال، كان جيكبسون يصرف ٥ ستيمترًا مكعبًا من غامًا غلوبولين تُعطى لكينيدي عن طريق العضل لتزيد من مقاومته للعدوى، وكانت تكرر تلك العملية كل أربعة أو ستة أشهر بين شهري أيار/ مايو، وتشرين الأول/ أكتوبر من عام 1961م، حيث كان جيكبسون يرى كينيدي مرة كل شهر لهذا السبب، غير أننا نعلم من سجلات ترافل بأنها كانت أيضًا تصرف لكينيدي غامًا غلوبولين. إن الجرعات المضاعفة لم تكن أمرًا خطيرًا إلى ذلك الحدّ، ولكن الحقيقة المقلقة أن ترافل لم تكن تعلم بعلاج جيكبسون للرئيس. ولكن الجرعات المضاعفة من الأدوية الأخرى مثل الستيرويدز ستشكل خطرًا واضحًا بالتأكيد. واستمر جيكبسون بصرف أدويته وعقاقيره المكونة من الأمفيتامين والستيرويدز وحقنها عن طريق العضل. دفعت تلك الأدوية كينيدي للشعور بتحسن واضح، ولكن كما نعلم يقينًا بأن مشتقات الكوكايين والأمفيتامين لا تكوّن الطاقة، ولكنها مجرد منشطات مؤقتة يتبعها شعور بالخمول. محفز «السرعة» الذي ينتجه الأمفيتامين ويُؤخذ عن طريق العضل انتشر في أميركا في ذلك الوقت، حيث ازدادت بيع الحقن بدون وصفة طبية، أو استنادًا على وصفة طبية زائفة أو مكالمة هاتفية من شخص يمثل دور الطبيب. وبحلول عام 1962م كانت الدولة والمحكمة الفيدرالية ووكالة القانون المحلية مجتمعة تحاول إيقاف تلك الممارسات. وعندما تفشت فضيحة عقاقير الأمفيتامين، سحبت مختبرات أبوت حقن الديسوكسين من السوق عام 1962م، وفي تموز/ يوليو 1963م حذا بورخس ولكوم حذوهم وسحب حقن الميثادرين من الصيدليات، وأُبقي استخدام الأمفيتامين محتكرًا للمستشفيات، ولكن المصانع غير القانونية التي تسمّى «مختبرات السرعة» حلّت محل الصيدليات.

(2) Hersh, **Dark Side of Camelot**, pp. 234-235.

عليه اليوم. والحقيقة أنه لم يكن ليوجد أي طبيب يحترم نفسه ليعطي مثل تلك الكمية من الجرعات لشخص مريض له مثل التاريخ الطبي للرئيس كينيدي.

ونحن نعلم في الحقيقة أنه في صيف 1962م كان كينيدي منشغلًا جدًّا بالعلاقة التي نشأت بين أخيه وجاكبسون، وطلب من وكالة المخابرات المركزية أن تحلل المادة التي كان جاكبسون يحقنها، «وحينما ظهرت نتائج التحليل لتشير إلى عدم وجود خطر سمح لجاكبسون بمواصلة علاج كينيدي إلى نهاية 1962م»[1]، وإلى حدود 24 أيار/ مايو عالج جاكبسون كينيدي بشكل مكثف في البيت الأبيض، وفي باريس ثم في فيينا ولندن، وفي كل هذه الأماكن حقن كينيدي بمادتي الأمفيتامين والستيرويد. ومما لا شك فيه أن أطباء البيت الأبيض كانوا سيشعرون بالصدمة لإعطاء الرئيس كل هذه الحقن، بل وسيرفضون ذلك كليًّا، ناهيك وأن الامر في سياق استعداد كينيدي للقاء خروتشيف لقاء هامًّا لمدة يومين من المفروض أن يبدأ في 3 حزيران/ يونيو في فيينا. رفض كينيدي الانتقادات التي وُجِّهت إلى العلاج الذي تلقاه من جاكبسون قائلًا: «لا يهمني إن كان ما يحقنني به بول حصان، المهم أنه ناجح»[2].

ولكن هل كان ناجعًا حقًّا؟ إن الدلائل المتراكمة ذات الصلة بالحقن المتكرر لمادة الأمفيتامين منذ 24 أيار/ مايو تشير بأن لها آثارًا سيئة ومدمرة على صحة الرئيس وأدائه في فيينا. ونحن نعلم أن لا أحد من الأطباء «كان هو المسؤول»[3] والزعم بأن «كينيدي كان ضعيفًا أمام الأدوية والأطباء أكثر مما كان ضعيفًا أمام النساء»[4]، أمر صحيح إلى حدٍّ ما، وربما لا يدل البتة على سلوك معتدل.

زعم جاكبسون أنه حينما التقى جاكلين كينيدي في الصباح بعد زيارته السابقة في 24 أيار/ مايو، أرته عقار الـ «ديميرول» وهو مورفين اصطناعي شبيه بمسكن الآلام، حيث وجدته في غرفة حمام الرئيس موجهًا للحقن الذاتي فيما يبدو. وحسب رواية جاكبسون والعهدة عليه، فقد اعترض بشدة أمام الرئيس على استعمال الديميرول قائلًا: إن ذلك أمرًا بالغ الخطورة

(1) Dallek, **Unfinished Life**, p. 582.

(2) Reeves, **President Kennedy**, p. 147.

(3) Dallek, **Unfinished Life**, pp. 369 - 370.

(4) Michael Beschloss, **The Crisis Years: Kennedy and Khrushchev 1960-1963** (New York: Edward Burlingame, 1991), pp. 189-191.

ومسبب للإدمان، علاوة على تداخله مع الأدوية التي وصفها هو. والحقيقة أن جاكبسون كان يسعى إلى الفصل بين الأدوية التي تسبب أعراض ضعف جسدي، وبين الأدوية المسببة للإدمان بالتبعية، وبين الأمفيتامين الذي لا يتسبب في ذلك إلّا في«5 بالمائة» من الحالات التي يمكن أن يتطور الأمر عندها إلى إدمان واضح[1]. ولا يبدو إن أحدًا بخلاف الرئيس، كان يعلم المدة التي ظل فيها يتناول الديميرول، ما عدا استعماله عن طريق الفم لعلاج القولون المتهيج في شهر آذار/ مارس. ولا يبدو أمرًا غير معقول أن يعتقد المرء أنه خضع للحقن طوال أزمة خليج الخنازير. لقد سألت السيدة كينيدي جاكبسون إن كان يريد محاولة حمل الرئيس على إيقاف استعماله؟، فزعم أنه تحدث إلى الرئيس مباشرة في الموضوع منبهًا إياه أن ذلك من شأنه أن يضرّ بقدرات الرئيس الذهنية والفكرية[2]. وفي فترة متأخرة من اليوم ذكرت السيدة كينيدي لجاكبسون أن عونًا من المخابرات هو من أعطى كينيدي الدواء له، ثم وقعت تنحيته بعد ذلك. لقد كان ذلك كشف إضافي ودليل آخر على الكوكتيل الغريب من الأدوية التي كان يتناولها الرئيس، وهو كوكتيل لم يكن يعلم به أي من أطباء البيت الأبيض.

صار جاكبسون بمثابة الطبيب الفعلي الخاص للرئيس كينيدي عوضًا عن الدكتورة ترافل كل فترة الأسابيع اللاحقة. ولم تعلم ترافل بمرافقته للرئيس في رحلته إلى باريس. وبعد علاجه الرئيس لمدة أربعة أيام في واشنطن، عاد جاكبسون إلى نيويورك ليطير من جديد على متن الخطوط الفرنسية إلى باريس، برفقة زوجته بعد أن عالج مرة أخرى الرئيس على متن الطائرة الرئاسية، فيما كان يسمى آنذاك بمطار آيدلويلد في نيويورك، والذي صار يسمى لاحقًا بمطار جون كينيدي. وزعم جاكبسون أنه كان يلتقي الرئيس يوميًا في قصر أورساي المخصص لكبار الزوار بباريس، وكانت زيارة كينيدي إلى باريس مقدِّمة لزيارته إلى فيينا لمقابلة خروتشيف، وكان الرئيس ديغول قد اعتبر أنه من الحماقة التقاء كينيدي بخروتشيف ولكنه خاطبه قائلًا: «كن صلبًا متماسكًا وحازمًا» انتظر ففي يوم ما ستسقط الشيوعية من الداخل تحت ثقل العبء الذي تنوء به. كتب ديغول في مذكراته الخاصة موقفه من كينيدي قائلًا: «يتمتع بميزات الشباب، ولكنه ينوء بمساوئ المبتدئ»[3].

(1) H. P. Rang, M. M. Dale and R. M. Ritter, **Pharmacology,** 3rd ed. (Edinburgh: Churchill Livingstone, 1995), p. 639.

(2) Reeves, **President Kennedy**, p. 147.

(3) المرجع نفسه، ص 149 ـ 154.

خروتشيف

كان كينيدي حريصًا على معرفة المزيد عن نيكيتا خروتشيف، وكان قد قدم له شيء من «رسم الشخصية» لهذا الزعيم السوفياتي قبل وصوله إلى فيينا، أعدَّته وكالة المخابرات المركزية. وفي هذا الرسم وصف للإطار الذهني لخروتشيف، مستمد مما أثر عنه من المحادثات والقصص التي كان يرويها في حفلات الاستقبال الدبلوماسية، وغيرها من الأماكن التي كان فيها منفتحًا على الدبلوماسيين الغربيين. إحدى القصص التي استمدت منها الوكالة رسمها، هي قصة الكاتب الأوكراني، فولوديمير فينيشينكو المعروفة باسم الطلسم، وكان خروتشيف قد قرأها عندما كان شابًّا. تصف القصة يهوديًّا من أنصاف المتعلمين كان خروتشيف يرى نفسه فيه فيما يبدو، إذ نقل عنه أنه قال: «إن هذا الصغير المدعو بينيا هو أنا». وقد فهمت وكالة المخابرات المركزية من هذه الإشارة أنها «دليل وعي خروتشيف بأصوله المتواضعة، وشعوره بما حققه من إنجاز شخصي في حياته، وإنه كان واثقًا من أن حيويته ومبادرته واقتداره هي السبب فيما وصل إليه» ولكن كاتب سيرة خروتشيف الحصيف وليام توبمان تساءل عن مدى توفيق وكالة المخابرات المركزية في تفسير القصة قائلًا إنه: «إذا كان خروتشيف قد رأى نفسه حقًّا في منزلة الشاب بينيا (باعتباره صبيّ يهوديّ فقير في بلد تسودها بعمق معاداة السامية) فمعنى ذلك أن شكوكه في نفسه وقدراته هي في الحقيقة أعمق مما يعتقد، وأعمق مما كان مستعدًا أن يقبل به هو نفسه»[1].

لقد طلبت وكالة المخابرات المركزية من حوالي بضعة عشرين من علماء النفس والأطباء النفسيين وضع تقرير سنة 1960م حول شخص خروتشيف، فأشاروا إلى إنه يعاني من حالات اكتئاب وهشاشة ترجع إلى الإفراط في الكحول، إلا إنهم ركَّزوا بالخصوص على ما اعتبروه سلوكه المتميز «بهوس خفيف»[2]. واستشهد توبمان بأحد المحللين النفسيين الذي قدم قائمة الخصائص الهلوسية التي تنطبق بدقة على خروتشيف، فقد كان:

«يتيه بنفسه عجبًا، نشيطًا، مرتقيًا بنفسه، سريع الخاطر والبديهة مهووسًا بالعظمة.....

---

(1) William Taubman, Khrushchev: **The Man and His Era**, pb ed. (London: Simon and Schuster, 2005), pp. xviii - xx.

(2) Dr Bryant Wedge, **Khrushchev at a Distance: «A Study of Public Personality»**, Trans-Action, October 1968, pp. 24 - 28.

مرحًا بشكل علني واجتماعيًا بشكل كبير للغاية، مع ميل إلى رؤية الآخرين بشكل مثالي، ومدمنًا على العمل، ومياًلا إلى المغازلة من طرف خفي... يشعر بالذنب حيال تعرض الآخرين للتهديد والاعتداء ولا يصبر على الوحدة...... قابل للإفساد والارتشاء، ويفتقد إلى مقاربة نسقية ومنظمة في أسلوب معرفي..... مغرمًا بالخطط الكبرى والأفكار الشاردة ومتحررًا من الضوابط التي يفرضها الجسد من مثل الأكل بمقدار والنوم بمقدار.... وهو دومًا متيقظ متأهب إلى حدِّ الإجهاد والإنهاك أحيانًا»[1].

تحدثت عنه زوجته بقولها: «دومًا ما تعتريه حالتان، إما الصعود وإما الانحدار». ومن حسن حظ العالم أنه عرف شخصًا مثل خروتشيف، فقد كان من طينة جعلته لا يشعر بالحرج أو الانزعاج طوال الأزمة الكوبية، وإلى حين الاقتراب من نهاية الأزمة في 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1962م كان «ينتابه شعور بالرضى، ولقد استغرق الأمر وقتًا حتى تظهر الحقيقة حول الطريقة التي أهان بها كينيدي خروتشيف والاتحاد السوفياتي، ومساهمة ذلك في انهيار خروتشيف النهائي»[2]. وفي الفترة التي أزيح فيها خروتشيف في تشرين الأول/ أكتوبر 1964م تدهورت شخصيته بشكل لافت «وصار سلوكه سرياليًا تقريبًا، متشبثًا بشكل عنيد بالسياسيات العقيمة، ومتعاميًا فيما يبدو عن تفكك قاعدته السياسية، ولا مباليًا، لا يرد على ما كان يحاك ضده من مؤامرات»[3]. وقد اتهمه ليونيد بريجنيف بمعاملة رفاقه «بفظاظة وشدة» واتهمه بأنه «يتجاهل آراء الاخرين» وأنه كان «شاردًا» في حال من الاكتئاب، ويبدو أنه كان يعاني مما يعرف باضطراب ثنائي القطب، ولعله لا يزال يعاني من الهوس الخفيف ولكن في صورة متقدمة جدًا هذه المرة. والواقع أنني متردد في القول إنه كان يعاني من متلازمة الغطرسة أثناء وجوده في منصبه بسبب تاريخ من الاكتئاب. ففي يوم 14 تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1964م أُقيل من قبل القيادة الجماعية لمجلس السوفيات الأعلى، على الرغم من وصف ذلك بأنه إحالة على «التقاعد». وبعد سقوطه غير المتوقع من مركز القرار والقوة، عانى خروتشيف من اكتئاب خطير جدًّا ومزمن إلى حين وفاته في 11 أيلول/ سبتمبر 1971م.

---

(1) Nancy McWilliams, **Psychoanalytic Diagnosis: Understanding Personality Structure in the Clinical Process** (New York: Guilford Press, 1994), p. 248.

(2) Taubman, **Khrushchev**, p. 577.

(3) المرجع نفسه، ص xix.

لقاء فيينا

زعم ماكس جاكبسون أنه طار على متن الطائرة الرئاسية الأولى إلى فيينا، في حين طارت جانيت ترافل على متن الطائرة الرئاسية الثانية، وانتقل مباشرة إلى مقر السفير الأميركي الشخصي حيث كان من المقرر أن يتمّ لقاء القمة. ومن المحتمل من خلال وصف جاكبسون أن يكون الرئيس قد حقن بالأمفيتامين والستروييد في الوريد في ذلك المقر، بما أن المناخ العام كان متوترًا وباعثًا على الضغط، ولأنه استدعي على عجل لمقابلة كينيدي فورًا. فقد زعم أن كينيدي قال له إن: «خروتشيف سيصل خلال أي لحظة، وأن اللقاء قد يدوم لساعات، وأنا لست مستعدًا لتحمل أية مضاعفات في الظهر»، وبالتالي قام بحقن الرئيس بحقنة من الأمفيتامين، ولا نعرف إن كان قد أضاف إليها الستيروييد في العضل كما جرت العادة أم لا، أو أنه حقنه بمادة الميثيل أمفيتامين في العرق؟. كما استدعي جاكبسون لعلاج الرئيس من جديد في البيت الأبيض في تشرين الثاني/ نوفمبر 1961م عندما كان عازف الكمان بابلو كاسالس يحيي حفلته، وطلب كينيدي أن يتلقى من جديد «علاج فيينا» وهو ما يعني أن العلاج الذي تلقاه في فيينا كان مختلفًا، وربما كان حقنة وريدية.

غير أن كينيدي لم يكن على اطلاع دقيق بجدول نيكيتا خروتشيف، الذي لم يكن ليصل إلا بعد خمس وأربعين دقيقة من نزوله الدرج، مسرعًا للقاء خروتشيف، كما لو أنه يريد أن يظهر حيويته وشبابه وصحته، في مقابل الزعيم السوفياتي البدين ذي السبعة والستين عامًا. كان جاكبسون قد حقن الأمفيتامين عبر الوريد، وإذا كان ذلك هو الأمر، فهذا معناه ظهور مفعوله سريعًا ليختفي قبيل انتهاء لقائه بخروتشيف[1]. وبعبارة أخرى حسب روبرت داليك «فإن الحقنة التي صرفها له جاكبسون قبيل لقاء خروتشيف وبعيد منتصف النهار، بدأت تفقد

---

(1) وبصرف النظر قليلاً عن مزيج الأمفيتامين والستيرويدز، حقن الستيرويدز وحدها يمكن أن تؤثر على السلوك، حيث أن الجرعات المفرطة تنتج أعراض الهوس أو الذُهان، كما يمكن أن تبعث شعورًا بالنشاط والراحة والسرور، وتضاعف النشاط البدني والرغبة الجنسية. وبالرغم من كل تلك المحاسن إلا أن الأطباء الذين يعالجون مرض أديسون يواجهون صعوبة بتحديد الجرعة المناسبة من الستيرويدز. ففي تلك المرحلة لم يعلم طبيب الغدد الصماء الخاص بكينيدي والمدعو يوجين كوهن عن حضور جيكبسون وسيطرته على المشهد، وكان يجهل تمامًا جرعات الستيرويدز التي يصرفها جيكبسون للرئيس. ويعتقد معظم أطباء الغدد الصماء في بداية القرن الواحد والعشرين بأن المرضى تناولوا كميات مفرطة منه. وفي الوقت الحاضر تعتبر الكمية المقبولة 10 ميلغرام من الهيدروكيرتزون تؤخذ في الصباح، و5 ميلغرام وقت الغداء، و5 ميلغرام مساءً. وقد يفضل البعض صرف البريدنيزولون أو الكورتيزون. ويبدو جليًا بأن كينيدي كان يتناول جرعات أكبر بكثير عندما كانا جيكبسون وكوهن يعالجاه. حيث ظهر وجهه منتفخًا في صورة له أثناء فترة رئاسته، ويعتبر ذللك العرض مصاحبًا لمرض كوشينغ الذي ينتج عن فرط إنتاج الكورتيزول.

مفعولها مع تقدم الوقت، وبدا كينيدي يفقد ذلك الدفق العاطفي والبدني الذي أعطته إياه الحقنة».

لقد كان اللقاء الأول مع خروتشيف في 3 حزيران/ يونيو لقاءً سيئًا، وقد نحا كينيدي باللوم على نفسه لهذا الفشل، فقد تصرف بكيفية خارجة عن المتوقع والمنتظر، وقد ذكر ليلين «تومي» تومسون خبير الاتحاد السوفياتي المتمرس، والذي أصبح سفيرًا لموسكو فيما بعد، أنه مصدوم لأن كينيدي تلقى الصفعة تلو الصفعة من الروس[1]. وبعد ذلك اللقاء الأول شعر كينيدي بالحنق والغضب لأن خروتشيف عامله كطفل صغير، ووصف أحد المكلفين من حاشيته الذي يأخذ الملاحظات والتقييدات وهو تشارلوز بوهلن، وصف رئيسه كينيدي بقوله: «لقد كان شيئًا صغيرًا دون عمق أليس كذلك؟»[2]. أما جورج كينان وهو أحد كبار الديبلوماسيين في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد رأى في الرئيس شخصًا أُبتلع لسانه وغير واثق من نفسه البتة. والحقيقة أن مثل هذا النقد كان أمرًا غير اعتيادي، ولم يكن ليتلقاه كينيدي بهذه الكيفية، ومن شبه المؤكد أن السبب فيه هو تلك الأدوية التي كان يناوله إياها جاكبسون.

تحولت مناقشات اليوم التالي حول برلين الشرقية إلى أمر كريه ومزعج عندما قال خروتشيف: «إن الاتحاد السوفياتي سيمضي اتفاقية سلام مع جمهورية ألمانيا الديمقراطية»، وسأل كينيدي عما إذا كانت اتفاقية السلام هذه ستمنع الدخول إلى برلين؟، فأجاب خروتشيف بالإيجاب. وهكذا احتد النقاش بينهما على المعارضة، «فالقوة لا توقفها إلا القوة» كما قال خروتشيف، ثم أردف: «إذا كانت الولايات المتحدة تريد الحرب فتلك مشكلتها» وعندها أنهى كينيدي الاجتماع بقوله: «إذن أيها السيد الرئيس، ستكون حربًا وسيكون شتاء باردًا».

وكان كينيدي يعلم أنه لم يحسن إدارة اللقاء جيدًا. وكان هذا هو رأي ديفيد رينولدس في تقييم القمة، وقد اعتبر فشل كينيدي في «تغيير التكتيك والجدل الأديولوجي طوال فترة الظهيرة»[3]. وحينما سأل جايمس رستون مدير مكتب النيويورك تايمز في واشنطن -

(1) Reeves, President Kennedy, p. 162.

(2) المرجع نفسه، ص 166.

(3) David Reynolds, **Summits: Six Meetings That Shaped the Twentieth Century** (London: Allen Lane, 2007), p. 204.

وهو من الصحفيين المتمرسين ـ كينيدي بعد عشر دقائق من نهاية اللقاء في جلسة، خاصة كيف سارت الأمور؟ أجاب كينيدي: «لقد كانت أصعب الأشياء في حياتي»، ثم أردف: «لقد هاجمني بوحشية»، ثم استرسل: «أعتقد أنني أعرف السبب الذي دفعه لمعاملتي بتلك الطريقة. لقد كان ذلك بسبب خليج الخنازير، حيث اعتقد أنني عديم التجربة، أو ربما أنني غبي بليد الذهن، أو لعل الأمر أكبر من ذلك، حيث اعتقد أنني عديم الشجاعة» .وقد اعتقد رستون أن كينيدي كان مصدومًا على وجه الحقيقة، يكرر نفسه وتصدر عنه أشياء ما كانت لتصدر في ظروف أخرى[1]. والحقيقة أن ما ظهر على صفحات النيويورك تايمز كان القليل جدًّا حيث وصف رينولدس القمة بأنها «لقاء سريالي»[2]. ومن غير الممكن الهروب من استنتاج أن حقن جاكبسون لعبت دورًا جوهريًّا في ما حققه كينيدي من أداء، وكان لهذا أثر عميق حول خروتشيف وحول السياسة السوفياتية.

العاصفة القادمة

غادر الرئيس وحزبه فيينا إلى لندن للقاء رئيس الوزراء هارولد ماكميلان. وقد ادَّعى ماكس جاكبسون، أنه عالج كينيدي في ذلك المساء في منزل الأمير ستانيسلاف رادزيفيل زوج شقيقة جاكي كينيدي المسماة: «لي». كما زعم أنه التقاه هناك في اليوم التالي، ورجع إلى الولايات المتحدة برفقته على متن الطائرة الرئاسية، وقدم له العلاج على متن الطائرة نفسها.

وفي لقاء العمل الأول بينهما في 5 حزيران/ يونيو كان جليًا للعيان بالنسبة إلى ماكميلان أن كينيدي يشكو من ألم في الظهر، وكان متوترًا ومتعبًا، وعوضًا عن حصة العمل المجدولة رسميًّا، أخذه إلى غرفته الخاصة لدردشة غير رسمية مقتصرة عليهما من الساعة الحادية والنصف صباحًا إلى الثالثة مساء، تخللها وجبات من السندويتش والويسكي، ذكر فيها كينيدي كم تفاجأ بالصراحة الفجة للزعيم السوفياتي.

وقد صار ديفيد أورمبسي غور شخصًا لصيقًا وقريبًا جدًّا من كينيدي باعتباره شابًّا لندنيًا في الفترة السابقة على الحرب، كما تزوجت أخت كينيدي المسماة: «كيك» من أحد أقاربه وهو اللورد هارتنغتون. وقد سأل كينيدي ماكميلان في لقائهم الأول في مدينة كي وست

(1) Reeves, **President Kennedy**, p. 172.

(2) Reynolds, **Summits**, p. 202.

تعيين أورومبسي غور سفيرًا للمملكة المتحدة في واشنطن، وكان ذلك لاحقًا نجاحًا عظيمًا. أشار اللورد هارليش في تاريخه الشفوي عن اللقاء بكينيدي في لندن لاحقًا بأنه كان: «واضحًا أنه يشكو من ألم كبير في ذلك الوقت، فقد كان ظهره في حالة سيئة جدًا». وذكر هارليش أن لقاء كينيدي في فيينا كان: «أسوأ لقاء، فقد حاول خروتشيف بشكل واضح إرهابه وإخافته مستعرضًا قوة الاتحاد السوفياتي، وقد كان ذلك سيئًا جدًا، ولم يكن أبدًا ما توقع أو أمل أن يكون عليه أول لقاء بينهما».

وقد وصف ماكميلان رد فعل كينيدي تجاه خروتشيف، بأنه كان مصعوقًا أو لعله كان مرتبكًا بالأحرى، وكان «منبهرًا ومصدومًا»[1]. لقد رأى في خروتشيف شخصًا بربريًا، وذهب إلى حدِّ الشكوى من الطريقة التي عالجت بها الصحافة شخصه وزوجته في فيينا. وقال لماكميلان: «كيف كنت ستتصرف لو أن أحدًا قال: «إن الليدي دوروثي سكيرة» وقد ضحك كينيدي كثيرًا حينما أجابه ماكميلان، بأنه كان سيرد على ذلك بأنها تشبه أمها؟. لقد كان كينيدي سعيدًا بعلاقته بماكميلان، والعكس صحيح أيضًا، بالرغم من فارق العمر والمواقف تجاه الكثير من القضايا ومن بينها النساء. ففي مرة من المرات لم يجد ماكميلان جوابًا سريعًا لسؤال وجهه إليه كينيدي أثناء حديث عن المسائل النووية قائلًا: «كيف يكون حالك هارولد لو كنت مكاني؟ فأنا لا أستطيع الصبر عن المرأة لثلاثة أيام متتالية، وإلا فإنني أشعر بصداع قوي لا يحتمل».

وقد عبّر خروتشيف بطريقته الفظّة والصادمة قائلًا: إن برلين هي بمثابة «خصيتيّ الغرب، وفي كل مرة أريد فيها أن تصرخ أوروبا أضغط على برلين». ونحن نعلم اليوم من خلال الأرشيف، أن خروتشيف لم يكن يرغب في الحرب، بل فقط الاستقرار والاعتراف بألمانيا الشرقية، ألمانيا والتر البريشت. وقد عرف كينيدي بعد هذا اللقاء أن عليه أن يواجه تحديًا من خروتشيف.

ربما كانت فيينا نقطة التحول في شخصية كينيدي، فبعد أزمة خليج الخنازير، كان يلقي في مجالسه الخاصة باللوم على فشل الآخرين، ولكن بعد لقاء خروتشيف أدرك أن الفشل فشله هو وحده. وفي طريق عودته إلى واشنطن، يبدو إنه وجد عزاء في عبارة لإبراهام لينكولن جاء فيها:

---

(1) Alistair Home, **Macmillan 1957-1986: Volume II of the Official Biography** (London Macmillan, 1989), pp. 290,303 - 304.

«إنني أعـلـم أن هناك إلـهًا وراء عـاصفـة قـادمـة،

وإذا كان لديه مكان لي عنده، فأعتقد أنني جاهز».

غير أن كينيدي حين رجوعه إلى واشنطن يوم 6 حزيران/ يونيو، لم يكن بالقطع مستعدًا ذهنيًا وجسديًا لمواجهة مثل هذه العاصفة في ذلك الصيف من عام 1961م. حيث صار متكئًا على ما كان يحقنه به جاكبسون من الأمفيتامين، ورفض رغبة هذا الأخير في الابتعاد، مما دعا جاكبسون إلى الزعم بأنه شعر بأن الدكتورة ترافل صارت تتضايق من وجوده في البيت الأبيض، كواحد من أطباء الرئيس. وقد اعترف كينيدي للصحافة بمشاكل ظهره يوم 8 حزيران/ يونيو، وذكر أنه يعتمد على عكازين، وأنه سينتقل إلى بالم بيتش للراحة، حيث تلقي في ذلك اليوم أول علاج للتشنجات العضلية بالأمواج فوق الصوتية. غير أن الدكتورة ترافل في ملاحظاتها لم تشر إلى أي استعمال لحقن البروكائين في العضلات، ولم أر أية إشارة سابقة إلى ذلك في الأيام السابقة لرحلة الرئيس إلى باريس وفيينا ولندن. وفي الأيام الثلاثة التالية لم يقم كينيدي بأي نشاط تقريبًا، وفي 12 حزيران/ يونيو ظل في فراشه يدخن السيجار، غير إنه ترأس اجتماعًا حول السياسة المالية، وفي هذه الأثناء أصدر خروتشيف في العاشر من الشهر نفسه ملاحظاته التي قدمها للرئيس كينيدي، وفي 12 من الشهر نفسه توقفت المحادثات حول منع التجارب النووية في جينيف بسبب من الوفد السوفياتي. وحين عودته إلى واشنطن في 16 حزيران/ يونيو، كان الرئيس غير قادر على صعود الدرج، وحُمل لركوب الطائرة الرئاسية بواسطة آلة رافعة تستعمل عادة للقيام بأشغال على محركات الطائرات[1].

أصيب الرئيس في 20 حزيران/ يونيو بالتهاب في الحلق، وفي 22 من الشهر ذاته صرحت الدكتورة ترافل أنه عانى من أسوأ يوم في البيت الأبيض بسبب المرض، فقد وصلت درجة حرارته إلى 105 درجات فهرنهايت بسبب عدوى بجرثومة الستربتوكوك. وقد وجدت ملاحظات تفصيلية عن هذه الفترة، يبدو أن إحدى الممرضات قد وضعتها، ويظهر من خلالها بوضوح أن الرئيس لم يكن في صحة جيدة بتاتًا، فقد عولج «بجرعات كبيرة من البنسلين» وحمامات الإسفنج البارد. غير أن القسم الصحفي بالبيت الأبيض لم يتحدث إلا اعتمادًا على ما ذكرته الدكتورة ترافل في بيانها الصحي المطمئن عن دراجة حرارة لا

(1) Reeves, **President** Kennedy, p. 181.

تتجاوز 101 درجة فهرنهايت قائلة: إن وضع الرئيس الصحي لا يدعو إلى القلق البتة. وفي 28 حزيران/ يونيو تحسَّن حال كينيدي كثيرًا، فتحدث إلى الصحافة وهاجم السوفيات قائلًا: «إنهم يريدون إبقاء ألمانيا مقسَّمة إلى الأبد» مضيفًا أنه: «لا أحد يستطيع الفشل في تقدير خطورة هذا التهديد».

كانت الضغوط السياسية في مرحلة ما بعد فيينا لا تزال كبيرة، واستطاع كينيدي على وجه العموم أن يرفع التحدي، غير أن برلين لم تكن منطقة عادية، فقد كانت دومًا منطقة أزمة مخطط لها منذ زمن طويل، وكان بإمكان الرئيس الاعتماد على خطط الطوارئ الموسعة عند الحاجة. ففي الليلة الفاصلة بين 12 و13 آب/ أغسطس، قامت القوات المسلحة لألمانيا الشرقية بوضع حواجز من الأسلاك الشائكة، بغية منع الناس من الفرار إلى ألمانيا الغربية، وعاد السوفيات إلى التجارب النووية. وكان رأي كينيدي أن: «الجدار جحيم، ولكنه جحيم أفضل من جحيم الحرب». وتحدث علنًا وبقوة، ودعا جيش الاحتياط إلى الاستعداد، وهرعت للتو قوات إضافية إلى أوروبا، كاشفًا من خلال ذلك وبوضوح عن نيته الدفاع عن برلين الغربية، وأرسل نائبه ليندون جونسون إلى المدينة، كما طلب من الكونغرس مبلغًا إضافيًّا قدره 3,25 مليار دولار لميزانية الدفاع. وبالرغم من أن فتيل الأزمة سرعان ما توقف في ذلك الخريف، غير أن الأخطار ظلت كامنة في ألمانيا الشرقية، وفي دول حلف وارسو الأخرى خلف جدار برلين الذي بني حديثًا، ولم تنفرج الأمور إلا عام 1989م عندما سقط الجدار، وبدأت الشيوعية السوفياتية نفسها تتهاوى، وعندها فقط توقفت برلين أن تكون موضع قلق دائم بالنسبة إلى الأميركيين.

في آب/ أغسطس من عام 1961م، اشتكى كينيدي من شعوره «بالتعب» و«عدم التوازن» مع «ميل إلى النعاس»، وقد أشار الدكتور جيفري كيلمان وهو طبيب تمكن من مراجعة سجلاته الطبية من أن الرئيس كان متعبًا «بسبب من التخدير الذي تلقاه»[1] للحد من الألم، بالإضافة إلى أن ترافل كانت تحقنه بالبروكائين حوالي خمس أو ست مرات في اليوم بحسب بعض المزاعم[2]، علاوة على ما كان يحقنه به جاكبسون من الأمفيتامين. وقد ادَّعى جاكبسون أنه كان في ماساشوستس يوم 28 آب/ أغسطس حينما طلب منه أن يسير صوب مدينة هيبانيس لملاقاة الرئيس، وقد وصفه حين رؤيته بأنه كان متوترًا ومتضايقًا قبل أن

(1) Dallek, **Unfinished Life**, p. 471.

(2) Reeves, **President Kennedy**, pp. 242 _ 243.

يعالجه، كما أشار جاكبسون بعد ذلك إلى أنه كان في البيت الأبيض يومي 18 و19 أيلول/ سبتمبر، وأنه عالج كينيدي في نيويورك في 25 أيلول/ سبتمبر من بحة في الحلق قبل أن يتوجه بخطابه أمام الجمعية للأمم المتحدة.

وفي خريف 1961م كانت حال ظهره سيئة جدًّا، إلى الحدِّ الذي جعل طبيبه العسكري البحري في البيت الأبيض جورج بيركلي يشعر بأنه من غير المستبعد أن يعجز الرئيس في أية لحظة عن المشي، وينتهي به الأمر في كرسي متحرك[1]. فأُبعد عن أعين الصحافة، واستطاع أن ينزل من سلم الهليكوبتر لمرة واحدة، وكان ذلك وضعًا مهينًا لرجل يريد أن يعطي انطباعًا بالقوة والفحولة، ولكن مما يحسب للطبيب البحري بيركلي، أنه طالب وهو لا يزال ضابطًا صغيرًا في البحرية، وعلى خلاف المستشارين الطبيين للرئيسين ولسون وروزفلت، بالمشورة من خارج الإطار الطبي.

حيث قام بالتعاون مع الدكتور كوهين استشاري الغدد وطبيب كينيدي في نيويورك في مواجهة الدكتورة ترافل، ووجّها لها تحذيرًا زمنيًّا بأنها إن لم تستدع الدكتور هانس كراوس، وهو طبيب مشهود له بالكفاءة في آلام الظهر لعلاج الرئيس، فإنهما سيقومان بنفسيهما بالاتصال بالرئيس ليفعل ذلك. وقد كان من عادة كوهين أن يرجع إلى الدكتور كراوس لعلاج آلام العضلات عند المرضى الآخرين المصابين بمرض أديسون، وكذلك الذين يعانون من ضعف أداء الغدة الدرقية أو عوزها. وكان د. كوهين ود. بيركلي يثقان فيه كثيرًا، ويشعران بأن الظروف الصحية للرئيس كينيدي تتدهور باستمرار، حتى أنهما خافا أن يؤدي ذلك إلى حياة من قصور في الحركة، وإدمان على المخدرات.

حاولت ترافل الاعتراض على استدعاء الدكتور كراوس لمعرفتها بخوف كينيدي من استقدام طبيب آخر إلى البيت الأبيض، قد يسرب إلى الصحافة الحالة الحقيقية لصحة الرئيس، غير أن الأهم هو خوف ترافل من أنه إذا دخل كراوس إلى البيت الأبيض وهو مختص في مجالها نفسه، فإنها ستجد نفسها خارج البيت الأبيض، ولكنها فشلت في الأخير. وانتدب كراوس في 16 تشرين الأول/ أكتوبر، ومنذ تلك اللحظة بدأت الدكتورة ترافل تختفي تدريجيًّا، حيث أبعدها بيركلي عن صفة طبيب الرئيس منذ خريف 1961م ولم يعلن

(1) Dallek, **Unfinished** Life, p. 472.

عن ذلك إلا بعد سنة[1]، ورقِّي هو إلى رتبة أميرال، وانتقل بعدها لخدمة الرئيس جونسون، أما ترافل فظلت إحدى طبيبات البيت الأبيض اسميًّا وشكليًّا إلى حدود عام 1965م.

وما كان مطلوبًا في تشرين الأول/ أكتوبر 1961م بصدد معالجة الرئيس كينيدي، هو أن يصير أكثر عقلانية وانضباطًا، لقد كان جوهريًّا قبل كل شيء، وبعده تغيير ومراقبة المصادر المختلفة لعلاجه التي وقع الشروع فيها باستعمال حقن البروكائين التي كانت تصرفها له الدكتورة ترافل، وتحولت شيئًا فشيئًا إلى أمر متكرر. احتاج الأمر إلى أشهر عديدة لاستعادة الرئيس لثقته وقوته، قبل أن يصبح قادرًا على مواجهة «العاصفة»، وفي الأخير تمّ الشروع في نظام صارم من العلاج الطبي لعلاج الظهر في تشرين الأول/ أكتوبر 1961م أي: قبل سنة من أزمة الصواريخ الكوبية، وقد كان علاجًا ناجحًا جزئيًّا، لأن كينيدي احتاج إلى وقت طويل لمواجهة مشكلته الأخرى الأكبر، وهي حقن الأمفيتامين والستيرويد التي حقنه بها جاكبسون.

الدكتور كراوس

من المدهش والمثير أن يتتبع المرء المراحل التي بدأ بعض أطباء كينيدي في اتخاذها في النصف الأخير من 1961م، من أجل إخضاع علاجه إلى المراقبة وتحسين علاج الظهر حينما كان يواجه أزمة برلين. ففي 17 من تشرين الأول / أكتوبر وجد د. كراوس ـ وهو رجل قصير القامة ورياضي سابق وحادُّ الطباع، تولى فيما مضى تمرين الفريق النمساوي لرياضة التزلج وهو أسطورة من أساطير تسلق الصخور، وقد فحص الرئيس كينيدي أن عضلات الرئيس كانت على درجة من الضعف، حتى إنه لا يستطيع أن يقف بشكل مستقيم مرة واحدة، وكانت عضلات رجليه مشدودة، حتى كأنها عبارة عن «خيوط البيانو»[2].

وفي الملاحظات السريرية[3] التي وضعها وأمكنني الاطِّلاع عليها في مكتبة كينيدي، أشار كراوس إلى أنه عندما أراد كينيدي أن ينحني لملامسة الأرض، لم تتمكن أصابعه من بلوغ أكثر من 20 إنشًا، وفي 20 من تشرين الثاني/ نوفمبر، وبعد تمارين علاجية تمكن من

(1) Interview, 17 October 1967, Oral History, **John F. Kennedy Library**.

(2) Susan E. B. Schwartz, **Into the Unknown: The Remarkable Life of Hans Kraus** (Lincoln, NE: iUniverse [sic], 2005), pp. 178 - 179.

(3) Examination report by Hans Kraus MD written on 19 October 1961, in Dr George Burkley's medical notes for. Patient X, **John F. Kennedy Library**.

الوصول إلى 11 إنشًا وربع. قال كراوس للرئيس: «ستصير عما قريب معوقًا إن لم تتمرن بمعدل خمسة أيام أسبوعيًّا.... ويجب أن تشرع في ذلك منذ الآن». كما طلب أن يكون الإشراف والمتابعة كاملين قائلًا: «أريد أن أتابع هذا المريض ثلاث مرات أسبوعيًّا، فالتمرين بإمكانه أن يحقق له نتائج أفضل». وقد كان كينيدي مرعوبًا من إمكانية أن يشرع الصحفيون في الكتابة عن صحته مرة ثانية إن علموا بوجود طبيب جديد، وقد حصل الاتفاق على أن تفسر زيارات كراوس للعموم باعتبارها تحسينًا لصحة الرئيس من خلال تمارين منتظمة.

وكعلامة على محاولة الناس التقاط الأخبار المتعلقة بصحة الرئيس، ما حدث عندما تعرضت عيادة الدكتور كراوس للمداهمة بعد مدة قليلة من مباشرته لعلاج الرئيس، ولحسن الحظ لم يكن هناك الكثير من الورق في عيادته، وما كان موجودًا وضع ضمن ملفات غير معنونة ظلت مجهولة النسبة. وما إن بلغ الأمر مسامع البيت الأبيض، حتى سارع إلى اتخاذ إجراءات احترازية، من بينها إيقاف الخط الهاتفي الذي كان يستعمله كراوس، لم يكن المشتبه به الرئيس في هذه العملية الحزب الجمهوري كما من الممكن أن يُتوقع، بل وكالة التحقيقات الفيديرالية بإشراف إدغار هوفر. ومن قبل كان للدكتورة ترافل وأوجين كوهين غرف للفحص يدخلانها بشكل سري أثناء حملة 1960م الانتخابية.

قام كراوس بحوالي 33 زيارة في أربعة عشر أسبوعًا بين 17 تشرين الأول/ أكتوبر و24 كانون الثاني/ يناير 1962م، عالج خلالها التشنجات الأولى من خلال التمسيد لا الحقن التي كانت تحبِّذها الدكتورة ترافل. وعندما كان كراوس يستعمل الحقن، فإن اختياره لمواضع الحقن كانت بعيدة كل البعد عن المواضع التي تستعملها ترافل، فهو يحقن كامل العضل بمحلول ملحي، ولا يلجأ للبروكائين أو الليدوكائين، إلا إذا لم ير استجابة من الألم بالتوقف، من أجل إضفاء مزيد من الراحة على المريض. وتمّ الاتفاق ألا تصرف ترافل حقن البروكائين إلا بموافقة كراوس وتحت إشرافه، وأضيف إلى ذلك القيام ببروتوكول علاجي طبيعي لمدة ثلاثة أيام قبل أي تقنية للحقن إضافية يقوم بها كراوس.

وبدأت عملية التمسيد الساخن والتمارين تؤتي أكلها بالنسبة إلى الرئيس، غير أنه بحلول عيد الميلاد لسنة 1961م بدأ كينيدي يشكو من انتكاسة في بالم بيتش، وهنا سعت ترافل إلى تأكيد سلطتها، فدعت إلى اجتماع فريق طبي للتشاور، وذكرت للصحافة أسماء المدعوين، وحذفت اسم كراوس من القائمة برغم حضوره الفعلي، وهو ما جعله يشعر بأن الرئيس تراجع في الاتفاق الحاصل بينهما، في أن تكون له اليد العليا فيما يتعلق بالعلاج، ولذلك

توجه بالخطاب مباشرة إلى الرئيس في حضورها قائلًا: «لن أعالجك مرة أخرى إن هي وضعت يدها عليك مرة أخرى»[1]. وأومأ الرئيس برأسه علامة على الموافقة. وقد حدث في إحدى المرات أن حقنت ترافل كينيدي بحقنة من البروكائين دون علم وموافقة كراوس، فما كان من هذا الأخير عندما سمع بذلك إلا أن طار لمقابلة الرئيس، وطلب منه الاستقالة إذا ما استمر هذا الأمر، فوعده بأن لا يتكرر ذلك مستقبلًا.

بدأت صحة الرئيس كينيدي تعرف تحسنًا ملحوظًا، ففي كانون الثاني/ يناير 1962م رآه كراوس وجورج بيركلي يعيش أفضل شهر من كل السنة الماضية، وفي نهاية شباط/ فبراير وصفا الأسابيع الأربعة السابقة بأنها: «تنطق بنفسها من الناحية الطبية»، ووصفا الشهر بأنه «الأكثر هدوءًا منذ توليه الرئاسة، بل منذ حملته في 1960م فيما يتعلق بهذه المسألة». وفي شهر نيسان/ أبريل صرحا بأن حالته الصحية: «ممتازة»[2]. وفي آذار/ مارس 1962م فحص كل من جراح العظام د. وايد ود. كراوس الرئيس[3]، وقد كان علاج ظهر الرئيس موضوعًا في أيد ماهرة وقوية، مما أظهر نتائج أفضل في عين أطبائه، وفي رأي الرئيس أيضًا. وحينما يقرأ المرء بين السطور سيلاحظ كيف أن د. كوهين كان هو الشخصية الطبية الرئيسة التي تحظى باحترام بقية الأطباء، والشخص الذي كان يستطيع أن يتحدث مباشرة إلى الرئيس في خصوص ما الذي يجب فعله بصدد الدكتورة ترافل. وفي الحقيقة، كان كوهين من طينة أولئك الذين كان من المفروض أن يكون منهم طبيب الرئيس الشخصي والمسؤول الأول في البيت الأبيض، منذ بداية ولاية كينيدي إلى كانون الثاني/ يناير 1961م.

وفي شهر أيار/ مايو 1962م كان كل المطلوب فعله لتتمّ المراقبة الكلية لتداوي الرئيس هو التخلص من ماكس جاكبسون. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1961م كتب كوهين إلى الرئيس يحذره بالخصوص من الحقن التي كان يحقنه بها جاكبسون[4]، غير أن كينيدي

(1) Reeves, **President Kennedy**, p. 273.

(2) Dallek, **Unfinished Life**, p. 473.

(3) وجد وايد في آذار/ مارس نتائج الأشعة تظهر «استقرارًا في منطقة أسفل الظهر» ووجد الطبيب كراوس بأن كينيدي «يستطيع الاستقامة والانحناء دون أن يبذل مجهودًا كبيرًا». وفي آذار/ مارس أظهرت ملاحظات بروكلي السريرية مدى قلقه من إصرار ترافل على تسمية نفسها بطبيبة كينيدي الشخصية، وحقنها إياه بالبروكين، حيث إن «توفر الأبر بشكل دائم بدا مهددًا». وفي الثاني من نيسان/ أبريل 1962م قيل عن كراوس بأنه يعتقد بأن حقنة بروكين أخرى من حقن ترافل كان يمكن تجنبها، وصرّح بروكلي: «تشعر الدكتورة ترافل بأن الدكتور كراوس يتفق معها باستخدامها للحقن، وذلك لأنه لم يحدث ضجيجًا حول الأمر».

(4) Laurence Learner, ‹The Kennedy Men 1901-1963›, **Boston Globe**, 11 November 2002.

لم يلق بالًا إلى ذلك، وأشارت سجلات المخابرات السرية وسجل بوابة البيت الأبيض إلى أن جاكبسون دخل البيت الأبيض أربعًا وثلاثين مرة إلى حدود حزيران/ يونيو 1962م قبل أن يكفّ عن دخول البيت الأبيض من جديد. وبقي علاج جاكبسون متواصلًا خارج البيت الأبيض لأشهر بعد ذلك، فقد زعم جاكبسون أنه التقى كينيدي مرات كثيرة طوال أزمة الصواريخ الكوبية، وهو ما يعني أنه فعل ذلك عندما طار الرئيس من واشنطن إلى نيويورك وشيكاغو. ونحن نعلم أيضًا أن كراوس تحدث بشكل حاد وصارم مع الرئيس في كانون الأول/ ديسمبر 1962م فيما يتصل بمسألة الحقن التي كان يعطيها له جاكبسون قائلًا: «إذا بلغ إلى علمي أنه يأخذ حقنة أخرى من هذه الحقن، فسأتأكد بأن يُعرف الأمر، فلا أحد من الرؤساء الذين يضعون إصبعهم على الزر الأحمر (الزر النووي) له الحق في أن يأخذ شيئًا مثل هذا»[1].

وهكذا فإن كل الدلائل تشير إلى أن جاكبسون كان يلتقي الرئيس خلال فترة أزمة الصواريخ الكوبية، ولكن دون الوتيرة التي يزعمها، وظل السؤال الحقيقي المطروح هو: كم عدد حقن الأمفيتامين والستيرويد التي أعطيت لكينيدي وكم عدد الجرعات؟. والجواب فيما أظن أن اكثرها تمّ أيام شكوى الرئيس من آلام الظهر الحادة، وأقلها أيام زيارة الرئيس لفيينا للقاء الزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشيف، ويمكن القول إن شخصية كراوس الديناميكية ونوع العلاقة التي أرساها مع الرئيس، هي التي جعلت الرئيس فيما يبدو يأخذ بتحذيراته، فقد بيّن لكينيدي في إحدى المرات تقنيات تسلق الصخور على حائط قريب من مسبح البيت الأبيض، من خلال تخلل الأصابع في الشقوق والتشبث فيها، ثم اعتماد ذلك للتسلق عبر الحائط، ولعل في هذا دليلًا على طبيعة الرجل الذي احترمه كينيدي، وأنزله ما يستحق من منزلة.

بيد أن الرئيس واصل الالتقاء بجاكبسون في 1963م، حتى وإن قل عدد حقن الأمفيتامين، وقد أظهر ألبوم مارك شو مصور الرئيس كينيدي الرئيس برفقة تشارلز سبالدينغ والأمير رادزيفيل وجاكبسون في بالم بيتش في شباط/ فبراير1963م[2]، وقد زعم الأخير أنه التقى الرئيس في بورت هيانيس في تموز/ يوليو 1963م، وأنه طار إلى فلوريدا لرؤيته في 3 تشرين

(1) Quoted in Dallek, **Unfinished Life**, p. 581.

(2) Herbert S. Parmet, JFK: **The Presidency of John F. Kennedy** (New York: Penguin, 1983), p. 121.

الثاني/ نوفمبر في وست بالم بيتش، دون أن يشير إلى صرفه لأي علاج. ومن الممكن أن الحقن التي كان يعطيها له جاكبسون قد صارت نوعًا من الدواء الترفيهي، أكثر منها دواء يصرف على أسس منتظمة للتخفيف من الألم الحاد والإجهاد.

لا شك أن هناك أناسًا كثيرين يَزعمون أنهم ساهموا ولو بقسط في عبارته الشهيرة: «أنا رجل برليني» التي قالها عندما زار حائط برلين في 26 حزيران/ يونيو 1963م. وأحد هؤلاء هو جاكبسون الذي كان ضليعًا باللغة الألمانية، ولعله بالغ في تصوير علاقته بكينيدي عندما قام بوصفه أثناء تأبينه بعد مقتله بقوله: «لقد كان صديقًا عزيزًا ورجلًا عظيمًا» غير أن بعض الشك يحوم حول درجة قربه الحقيقي من الرئيس وزوجته على النحو الشائع غالبًا، والمقبول من قبل سدنة صورة كينيدي.

أزمة الصواريخ الكوبية

هبت «العاصفة» في وجه كينيدي بعد سنة من توقعه لها، وجاءته في شكل صواريخ سوفياتية صورت في كوبا في 16 من تشرين الأول/ أكتوبر1962م، ولحسن الحظ فإن حالة ظهره تحسنت جوهريًا وبشكل كبير في تلك الأيام بعد تلقيه لعلاج متكامل، وبالتالي كان مستعدًا لرد التحدي. كان كينيدي يعلم منذ بداية أزمة الصواريخ أن رؤساء أركان الجيوش يريدون هجومًا جويًا كاسحًا وشاملًا وغزو كوبا، غير أنه قرر أن يتريث، وألا يترك القادة العسكريين يتحولون إلى المصدر الأساس للمشورة. لقد صار الآن رجلًا آخر غير ذلك الرجل البكّاء والعاطفي الذي بدا بعد الفشل في خليج الخنازير في نيسان/ أبريل 1961م، أو ذلك الرجل المكسور الخاطر والمهزوز الذي طار راجعًا من فيينا في حزيران/ يونيو من تلك السنة. لقد صار الآن واثقًا من نفسه، وكذلك الشأن بالنسبة إلى طاقمه ورؤساء أركانه.

يشار إلى أن ثيودور سورنسن الذي لم يكن على علم بعملية خليج الخنازير ولم يشارك فيها حتى انتهى الأمر، ذكر في كتابه الموسوم: «كينيدي» نقدًا صريحًا وتبريرًا فكريًا من وجهة نظر الرئيس لما حصل من خطأ. وأشار إلى خمس ثغرات أساسية تتوزع بين ما وافق عليه، وما اعتقد أنه يوافق عليه. وقد دبج في الكتاب نفسه الثناء الجميل على طريقة التعامل مع أزمة الصواريخ الكوبية، كتب سورنسن عن كينيدي بعد سنتين من مقتله، رغم أنه كان أعرف الناس بحالته الصحية، إلا أنه لم يتساءل البتة عن أثر صحته أو علاجه على أي مظهر من مظاهر اتخاذ القرار، ناهيك عن التعليق عن حالته الصحية بين عامي(1961 و1962م).

والواقع أن سورنسن كان رجلًا ذكيًا للغاية وحساسًا، ونحن على أمل أنه كتب روايته الشخصية لتنشر في مستقبل ما، بسبب أنه ممن قضى الكثير من الوقت بقرب كينيدي. فمما كتبه على سبيل المثال، كيف أنه وكينيدي جابا البلاد طولًا وعرضًا عندما كان لا يزال كينيدي سيناتورًا أثناء الحملة الانتخابية بين سنتي(1957 و1958م) وكيف ناما في فنادق ونزلًا لا يحصى عددها، بعضها مشرق بهيج وبعضها رث رديء تتراوح أسعارها بين الـ 100 دولار والـ 5 دولارات، غير أنه يبدو أن كينيدي لم يكن ليسمح لشخص في مثل قرب سورينسون منه أن يعرف جوانب كثيرة من حياته الخاصة، أو أية تفاصيل عن الأدوية التي كان يتناولها، فقد أبقى كينيدي دومًا على الفصل بين مختلف جوانب حياته وشخصيته. ويمكن القول إن وصف ريتشارد نويشتادت لعلاقة كينيدي بسورنسون صحيح إلى حد ما إذ يقول: «لم أر مثلهما شخصين حميمين وبعيدين عن بعضهما البعض في الوقت ذاته» غير أن رؤى سورينسون الشخصية بدت ذات قيمة كبيرة، خصوصًا بعد أن مرت كل هذه السنين، فقد اعترف بأن أشياء كثيرة قد تغيرت بعد 18 نيسان/ أبريل 1961م بالنسبة إلى كينيدي، «فقد كان مدينًا للأشهر السابقة بأنه تعلم منها الكثير من الدروس المهمة ـ كان من أثرها تغييرات في المستويات الشخصية والسياسية والإجرائية ـ في وقت وجيز ودون ثمن مرتفع»[1]. إنني لا أعتقد أن ثمن خليج الخنازير كان أمرًا عابرًا، حيث ترك وراءه دروسًا عديدة للتعلم منها، وكان كينيدي رجلًا سريع التعلم، وقد ذهب ريتشارد غودوين إلى الحديث عن فترة لم يتطرق إليها سورنسن، إذ يرى:

«أنه من العبث الزعم بأن خليج الخنازير كانت عبارة عن هدية سماوية متخفية، ودرسًا قليل الثمن عن حدود التمكن من القوة بالنسبة لرئيس جديد. ولقد كانت المغامرة الأولى للحدود الجديدة فشلًا واضحًا، فشل لا ككل صنوف الفشل، بل فشلًا تفوح منه رائحة عدم الكفاءة والروح القتالية الساذجة والخطيرة، وهو ما كان لها تأثير كبير في إضعاف ادِّعاءات الرئيس وطموحاته، التي عبَّر عنها بلغة وروح خطابية قبيل أشهر لقيادة العالم الحر»[2].

لقد أدرك كينيدي بعد هذا الخطأ أنه لا يستطيع ترك أمر استخدام القوة للمحترفين فقط، وأن القوة وسيلة فظَّة لا يمكن الوثوق بها كما بدت له لأول وهلة. وفي تناقض ملحوظ مع

(1) Theodore C. Sorensen, **Kennedy**, pb ed. (London: Pan, 1966), p. 343.

(2) Goodwin, **Remembering America**, p. 184.

إدارته لأزمة خليج الخنازير، فرض الرئيس كينيدي تحذيرًا منضبطًا فيما يتصل بصدد أزمة الصواريخ الكوبية من خلال إنشاء اللجنة التنفيذية لمجلس الأمن القومي (EXCOMM). وكانت هذه الاجتماعات التي تضمّ ما بين أربعة عشر أو خمسة عشر شخصًا، والتي أنشئت فقط في تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1962م، ابتكارًا جديدًا. وكان كينيدي ـ الذي لم يكن يرجع من قبل إلى طاقمه لاتخاذ القرارات الكبرى إلى حين اندلاع أزمة الصواريخ الكوبية ـ قد رتّب لها، وغالبًا ما كان ليحضرها أو يحضر جزءًا منها فقط لبحث الخيارات المتاحة، وذلك في حوالي سبعة وعشرين جلسة على مدى ثلاثة عشر يومًا. وقد كان كل من روبرت كينيدي وسورنسن مشاركة كاملة منذ البداية، على عكس ما وقع إبّان خليج الخنازير. وفي تشرين الأول/ أكتوبر من سنة 1962م كان هناك أيضًا حضور لشخصية أكثر دراية وأكثر موثوقية ممثلة في شخص وزير الدفاع روبرت ماكنامارا. وهو وإن أيّد سنة 1961م رؤساء الأركان في موقفهم من خليج الخنازير، إلا إنه في عام 1962م صار أكثر وثوقًا في تقييمه للأمور، وبالتالي اعترض على رأي رئاسة الأركان المشتركة فيما يخصّ أزمة الصواريخ.

وحينما أقام كينيدي أول اجتماع له في صباح يوم 16 تشرين الأول/ أكتوبر، أوجز أربعة سيناريوهات عسكرية محتملة. الأول: يتمثل في القيام بضربة جوية للقضاء على جميع مواقع الصواريخ المعروفة. الثاني: وهو «ضربة جوية شاملة» لمهاجمة الطائرات المقاتلة من طراز ميج 21 السوفياتية وجميع مواقع صواريخ SA-2. والثالث: هو القيام بغزو كوبا، أما السيناريو الرابع: فيتمثل في القيام بضرب حصار على الجزيرة. وأشار كينيدي بوضوح إلى: «أننا نسير في اتجاه اتخاذ قرار من هذه القرارات» وأردف: «على الأقل نحن في طريقنا للقيام بتنفيذ السيناريو الأول، ولذلك يبدو أننا لن ننتظر طويلًا». غير أنه لحسن الحظ، راودته الشكوك بصدد نجاح السيناريو الأول، بسبب التقييم العام للضربة الجوية التي قام بها الجنرال تايلور، حيث قال الجنرال: «إنها لن تكون ناجعة مائة بالمائة يا سيادة الرئيس ونحن نعلم ذلك». وهكذا أبدى الرئيس مرونة منذ البداية، دون أن يحتاج إلى إشارات قوية لإثبات نفسه، أو استعراض صلابته، كما كان الحال إبّان خليج الخنازير.

وفي الأيام الأولى للأزمة، أعطيت الأولوية للعمل الديبلوماسي غير المعلن للاتصال بخروتشيف، وقد سعى سورنسن إلى كتابة مسودة رسالة سماها: «بالرسالة المحكمة» يحملها أحد كبار مبعوثي كينيدي إلى خروتشيف، وفيها أنه إذا قبل خروتشيف في مؤتمره

بتفكيك منصات الصواريخ، فإنه سيتم التراجع عن التحضيرات العسكرية الأميركية، وتقوم الطائرات الأميركية بالتحليق فوق كوبا من أجل التثبت من عملية تفكيك المنصات، وبالرغم من كل المحسِّنات التي وضعها سورنسن في الرسالة، فقد بدت وكأنها تحمل تبريرًا للقيام بضربات استباقية، وتهديدًا أخيرًا كان من شأنه أن يحكم برفض خروتشيف لها.

لقد كان هناك عيب آخر في التصورات التي طرحت، وهو أنه يمكن لخروتشيف أن يأمر بردة فعل عاجلة أثناء استقباله مبعوث كينيدي، ربما من خلال الإذن بإيقاف حركة السير في برلين، وهو ما كان من شأنه أن يوسِّع رقعة الصراع خارج كوبا، ويعطي خروتشيف مساحة جغرافية أكبر للمناورة، وتجعله في موقع أفضل لإدارة المفاوضات.

وابتداء من 18 تشرين الأول/ أكتوبر بدا وكأن كينيدي قد استنتج أن الطريق الوحيد للعب مع خروتشيف هو وضع التحدي على المستوى العالمي، وقد كان ذلك مغامرة ولكنها مغامرة محسوبة. لقد كان موقف خروتشيف عبارة عن تحدٍّ خطير لكينيدي في كوبا بالذات لقربها من الأراضي الأميركية. وفي كتاب عن كيفية اتخذ القرار معنون بـ«سياسات الدفاع»[1] نشر في 1972م اعتقدت فيه أن كينيدي لم يكن حكيمًا بالمرة في قيادة المفاوضات من خلال التلويح بالإنذار النهائي، ولكن بمرور الوقت أدركت خطئي بأن ما فعله عين الصواب، فقد ابتعد عن خيار الضربة الجوية، إلى الحصار البحري وهو خيار أكثر مرونة[2].

وهكذا ما إن وضع العمل الديبلوماسي كنمط للمفاوضات الأساس، حتى قام كينيدي بكل حكمة بإنشاء طريقة غير رسمية ومهمة للمفاوضات، ترأسها سريًّا أخوه روبرت كينيدي، وفي هذه المفاوضات السرية لُوِّح بإمكانية سحب الصواريخ الأميركية من تركيا.

لقد قرر خروتشيف أن يضع الصواريخ النووية في كوبا في 24 أيار/ مايو سنة 1962م بعدما تساءل في نيسان/ أبريل بكل بلاغة ومجاز: «لماذا لا نرمي بقنفذ في سروال العم سام». كانت دوافعه لا تسعى وراء الحرب، وإنما إلى دعم الماركسية اللينينية في كوبا وأميركا اللاتينية، أما جعل الأميركيين يشعرون بمعنى أن تصوب نحوهم صواريخ معادية، فقد كان دافعًا ثانويًّا. فصواريخ الاتحاد السوفياتي تواجه الصواريخ الأميركية في قواعد في بريطانيا وإيطاليا وتركيا، غير أن صواريخ جوبيتر الأميركية المنتصبة في تركيا، لم تكن هي

(1) David Owen, **The Politics of Defence** (London: Jonathan Cape, 1972).

(2) Sorensen, **Kennedy**, p. 757.

العامل المحدد بالنسبة إلى خروتشيف[1]، غير أنه من المفيد في إدارة العسكرية الروسية أن يعلم بشكل خاص وسري في 27 تشرين الأول/ أكتوبر بأنه ستُسحب هذه الصواريخ، وكان كينيدي يعلم أنه من الحكمة دومًا ألا يتم الدخول في مفاوضات ديبلوماسية دولية، دون أن يترك للخصم باب للخروج وحفظ ماء الوجه.

وقد توقّع السفير الأميركي السابق في الاتحاد السوفياتي تومي تومبسون أمام اللجنة التنفيذية لوكالة الأمن القومي EXCOMM، أن خروتشيف سيخرج الصواريخ الروسية منكوبًا إذا استطاع أن يقول: «لقد أنقذت كوبا وأوقفت الغزو»، وهذا أمر أقنع كينيدي وجعل ماكنامارا يعتقد إنه من المُمكن أن يكون القرار الوحيد الأهم في كل هذه الأزمة من الوجهة الأميركية، هو تمكين خروتشيف من حبل النجاة السياسية هذه من خلال موضوع الصواريخ المنصوبة في تركيا، واعتبارًا لخطورة تلك اللحظة التاريخية البالغة، فقد كان ذلك القرار أحد أهم القرارات التي اتخذت في سياق الحرب الباردة كلها[2].

لقد حقق قرار كينيدي باستعمال القوة البحرية مجسمة في الحصار البحري باعتبارها أقل استفزازًا، والطريقة الأكثر مرونة لإظهار القوة العسكرية الأميركية أمام الاتحاد السوفياتي مخرجًا ناجحًا للأزمة. وحينما اقتربت الباخرة السوفياتية «بوخارست» من نقطة الاعتراض العسكري على بعد 500 ميل من السواحل الكوبية حبس العالم أنفاسه. وتحدى ستيفنسن في الأمم المتحدة، الممثل الدائم للولايات المتحدة الأميركية، وفي الأمم المتحدة السفير السوفياتي بالإجابة عن سؤاله حول منصات الصواريخ قائلًا له: إنه مستعد لانتظار جوابه «إلى حين تجمد الجحيم» في كناية منه إلى أن هذه الإجابة لن تأتي.

وفي 25 من تشرين الأول/ أكتوبر اقتحمت «بوخارست» من قبل القوات الأميركية ونزلت فوقها وتفقدت حمولتها، ثم تلقت الإذن بالمرور. واقتُحمت سفينة أخرى تحمل العلم السوفياتي في 28 من الشهر نفسه، وهو اليوم الذي قبل فيه خروتشيف بتفكيك الصواريخ في كوبا، وإرجاع شحناتها إلى الاتحاد السوفياتي.

وهكذا فمن خلال الحصار البحري تمكن كينيدي من القيام بضغط متصاعد على

(1) John Lewis Gaddis, **The Cold War** (London: Allen Lane, 2006), pp. 75 - 78.

(2) Robert McNamara, **speech at the fortieth anniversary of the Cuban missile crisis**, Havana, 11-12 October 2002.

خروتشيف، وحتى في مساء يوم السبت 27 تشرين الأول/ أكتوبر حينما وقع إسقاط طائرة تجسس أميركية من طراز 2 ـ U فوق كوبا، فإن كينيدي واجه إمكانية اتخاذ قرار سريع باستخدام القوة العسكرية. وقد أذن لأخيه روبرت في السابعة والربع مساء، أن يهاتف السفير السوفياتي أناتولي دوبرينين، ويخطط معه لاجتماع سري تمّ بعد نصف ساعة في مكتب وزير العدل[1] وأُبلغ السفير السوفياتي بأن «الرئيس يتعرض في هذه اللحظات إلى ضغوطات كبيرة، للرد بواسطة نيران القوة العسكرية إذ ما استعملت النيران مجددًا»، وأضاف روبرت كينيدي: «إنه إذا ما تمّ الشروع في الرد بإطلاق النار، فإن سلسلة من ردود الفعل سوف تبدأ سريعًا، وسيكون من الصعب جدًّا إيقافها»، ووعد بأن الولايات المتحدة سوف «تعطي تأكيدًا بألا يكون هناك غزو لكوبا» وأردف بأنه: «يحتاج إلى أربعة أو خمسة أشهر» حتى يتمكن من إزالة الصواريخ المنصوبة في تركيا، وحُذِّر دوبرينين أنه «أهم الصعوبات التي تواجه الرئيس هي النقاش العمومي حول أزمة تركيا»، إذا تمّ إذاعة خبر سحب صواريخ جوبيتير الأميركية من تركيا، فإن التعهد سيكون لاغيًا، وتكون الولايات المتحدة في حلٍّ منه.

وما إن وصلت هذه الرسالة خروتشيف، حتى استدعى على عجل مجلس السوفيات «البريزيديوم» للسماح بإتمام «الانسحاب». وفي الوقت نفسه، قام بإملاء رسالة يقبل فيها بما صدر عن كينيدي. وأذيعت مباشرة عن قصد في الراديو حتى تصل إلى الولايات المتحدة دون تأخير. ورد كينيدي على ما أُذيع مباشرة متجاهلًا في خضم ذلك رسالة خروتشيف السابقة. لم يكن رؤساء الأركان المشتركين على علم باللقاء السري بين دوبرينين وروبرت كينيدي يوم 27 تشرين الأول/ أكتوبر، واتُفق سريًّا بين الرئيس ووزير خارجيته دين راسك إنه إذا فشلت مهمة روبرت كينيدي بحلول يوم الاثنين، فإنه سيوفد الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت ليعرض صفقة صواريخ تركيا، مقابل كوبا التي سيعلن كينيدي قبوله بها، وهي صفقة أيّدها ستيفنسن من قبل ودافع عنها[2].

وفي اليوم التالي كتب خروتشيف بشكل سري إلى كينيدي حول صواريخ جوبيتير مشيرًا إلى رسالته الأولى بالتاريخ ذاته قائلًا: «في رسالتي إليك بتاريخ 28 تشرين الأول/ أكتوبر التي كتبتها لتنشر وتذاع، لم أشر إلى هذا الموضوع احترامًا مني لرغبتك كما طلب روبرت كينيدي، غير أن كل العروض التي تجدها في هذه الرسالة قد قدمت بسبب من مواقفك على

(1) Fursenko and Naftali, **«One Hell of a Gamble»**, pp. 281 - 383.

(2) Beschloss, **Crisis Years**, p. 531.

المسألة التركية التي أشير إليها في رسالتي ليوم 27 تشرين الأول/ أكتوبر، وأعلنت من قبلكم في لقائه مع السفير السوفياتي في اليوم نفسه»[1].

لقد كانت هذه الاتفاقات غير الرسمية الديبلوماسية السرية فعّالة وناجحة، فنحن نعلم أيضًا أن روبرت كينيدي كان له اتصال منتظم مع أحد الأعوان السريين السوفيات من حين إلى آخر حول بعض المواضيع، وبالتالي فقد كان هناك مستوى عال من النجاح للديبلوماسية السرية، وهو ما كان حاصلًا ويحصل بين الزعيمين.

لقد انتهت الأزمة، وكان الرئيس يعتقد أنه لو كان سبعة من الثلاثة عشر رجلًا الموجودين في غرفة مكتبه رؤساء للولايات المتحدة، فإن العالم كان سينفجر، وبالتالي فإن السؤال المطروح هو ما إذا كان الرئيس الذي تصرف بذلك الشكل في عام 1962م يتمتع بالحالة الصحية نفسها في أغلب فترات العام 1961م.

إن إحدى جذور البغض الذي يكنّه روبرت كينيدي لليندون جونسون، تكمن في اعتقاده الذي عبَّر عنه شفهيًا في الحوار الذي تمّ في مكتب كينيدي، وقال فيه: إنه لو كان جونسون هو الرئيس في سنة 1962م لكان الأمر كارثيًّا بالنسبة إلى الولايات المتحدة. فبعد أن أنهى أعضاء اللجنة التنفيذية لمجلس الأمن القومي اجتماعهم الأخير، لم يكن أي منهم يعلم كيف كان سينتهي أمر الأزمة، وتنحى جونسون جانبًا بكل من كينيدي وكين أودونيل مبديًا اعتراضه على خطة الرئيس، بالرغم من أنه لم يبد أي اعتراض علني أمام بقية الأعضاء في كل الاجتماعات التي تمت، بل في الواقع تدخل أحيانًا للتعبير عن مواقف حذرة ومعقولة. وقد روى نائب الرئيس أنه تدخل مرة ليقول: «كل ما أعلمه هو إنني لما كنت طفلًا في تكساس وأمشي في الطريق وأصادف الأفعى المجلجلة تنتصب أمامي، فإن الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله هو أن آخذ عصا وأهشّم بها رأسها». والواقع أن روبرت كينيدي لم ينس قط ذلك الحديث القصير الذي أكّد له ضعف جونسون، وعدم قدرته في أن يكون زعيمًا يتخذ قرارات في اللحظة المناسبة[2].

وطوال الأزمة ظل كينيدي يعاني من مشاكل صحية، غير أن أوجاع ظهره تقلصت وتحسنت حاله بكيفية أفضل من صيف 1961م، فقد استمر في تلقي «جرعاته العادية من

(1) Fursenko and Naftali, **«One Hell of a Gamble»**, p. 284.

(2) Jeff Shesol, **Mutual Contempt: Lyndon Johnson, Robert Kennedy, and the Feud That Defined a Decade** (New York: W. W. Norton, 1997), p. 97.

مضادات التشنج للتحكم في التهاب القولون، والمضادات الحيوية لمعالجة المتاعب المفاجئة في جهازه البولي، ونوبات الجيوب الأنفية مع جرعات متزايدة من الهيدروكورتيزون والتستسترون وأقراص ملحية للتحكم بمرض أديسون وزيادة نشاطه وحيويته»[1].

وفي العاشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 1962م أضيف إلى علاجه 10 مليغرامات من الهيدروكورتيزون بعد نصيحة طبية، وهي جرعة حساسة في وقت التوتر والضغط العصبي، كما أعطي 10 غرامات من الملح قبل خطابه المتلفز حول قواعد الصواريخ السوفياتية في كوبا. وقام الدكتور راسل بولز أخصائي الجهاز الهضمي بإعطائه مليغرامًا واحدًا من مادة الستيلازين «لتحسين مزاجه» عوضًا عن مضادات الهستامين في شكل قطرات لمعالجة حساسيته لبعض الأغذية، كذلك طلبت زوجة كينيدي عندما شعرت بأنه يعاني من الاكتئاب ولكن أوقف هذا العلاج بعد يومين.

وعمومًا فمهما كان العلاج الذي تلقّاه أو لم يتلقه كينيدي من قبل جاكبسون في تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1962م فإن سلوكه وتصرفه وتركيزه الشخصي كان مختلفًا عما أبداه وأظهره في لقائه بخروتشيف في فيينا. كما أن اتخاذه للقرار عرف تحسنًا كبيرًا عما عرفه أثناء خليج الخنازير. ويمكن القول إن الحذر والحزم، دون التهور، كانت هي ملامح كينيدي خلال أزمة الصواريخ الكوبية.

التهور على الصعيد الشخصي

في حين أنه يمكن تبرئة كينيدي من أي ضعف فيما يتعلق بحياته السياسية، فإنه من غير اليسير تطبيق ذلك على حياته الشخصية، خصوصًا فيما يتعلق بما يمكن تسميته بالمخدرات الترفيهية والنساء. فحينما أُشير أول مرة إلى مزاعم استهلاكه لهذه المخدرات الترفيهية قوية المفعول، استُبعد الأمر من مساعدي الرئيس الأوائل، غير أن ذلك صار بديهيًّا خصوصًا بعدما أصدر أخيرًا فراك سيناترا كتابًا بيَّن فيه أن كينيدي كان ممن يستهلك أصنافًا من المخدرات التي تؤثر في المزاج قبل توليه الرئاسة وبعدها. وكانت هذه المزاعم تشير إلى: «استهلاكه للكوكايين أثناء زيارته للاس فيغاس في بداية 1960م، كما جرب استهلاك الماريغوانا ومخدر الـ LSD (مختصر ثنائي إيثيلاميد حمض الليسرجيك) مع إحدى عشيقاته في البيت الأبيض، ومع صهره زوج أخته باتريسيا بيتر لوفورد، وأعطى إحدى النساء مادة الأميتيل

---

(1) Dallek, Unfinished Life, p. 576.

نيترات لمعرفة تأثيره على تجربتها الجنسية»[1]. ويشكل كل هذا في الحقيقة درجة من انعدام المسؤولية لم يحدث مع أي رئيس آخر، ما عدا ريتشارد نيكسون المدمن على الكحول.

إن معاشرة النساء ليس أمرًا قادحًا في أهلية الشخص لتولي الرئاسة، وهو لا يكذب بهذا الصدد مثلما بيَّنه فشل إجراءات عزل الرئيس كلينتون، غير أن تهور كينيدي الجنسي في صلته بامرأتين على وجه الخصوص لا يمكن تجاهله. وإذا كان أغلب الأميركيين لم يتشددوا في نقده في قضية علاقته بمارلين مونرو التي بدأ بالتخلص منها في حياته، فإن علاقته بجوديت كامبل التي يعلم كينيدي جيدًا أنها كانت أيضًا عشيقة زعيم المافيا سيئ السمعة سام جيانكانا كان تهورًا سياسيًّا واضحًا. ذلك أن كينيدي كان على رأس إدارة تعهدت بالعمل على القضاء على الجريمة المنظمة. وفي أول عشاء له مع إدغار هوفر رئيس وكالة التحقيقات الفيديرالية في 22 آذار/ مارس 1962م حذره هوفر من مغبة مواصلة الالتقاء بكامبل، غير أن كينيدي لم يسمع نصيحته، وواصل مهاتفتها إلى نهاية آب/ أغسطس 1962م.

وفي 3 تموز/ يوليو 1963م حاول هوفر مجددًا منع الرئيس من الالتقاء بألين روميتش، كان المشكل بالنسبة إلى روميتش في إنها ترعرعت في ألمانيا الشرقية، وهناك شك بكونها جاسوسة، تدَّعي أنها اشتغلت سكرتيرة لرئيس الحكومة والتر أولبريشت، فقد زارت البيت الأبيض أكثر من مرة، وشاركت في حفلات قرب المسبح وهي عارية، ومارست الجنس مع الرئيس، وقد قدمها له بوبي بيكر ممثل الأغلبية في مجلس الشيوخ، وكان معروفًا بأنه يوفر فتيات حسب الطلب أو ما يعرف «ببغايا التلفون» لمن يطلب ذلك من السيناتورات.

أثارت قضيتا روميتش وكامبل أسئلة تتعلق لا بعلاقات كينيدي النسائية فحسب، بل بالخطر الكامن على أمن الدولة مدة رئاسته. وقد تحدث هوفر إلى روبرت كينيدي بصدد علاقة أخيه بروميتش، وتمكن روبرت من إبعادها إلى ألمانيا الغربية في21 آب/ أغسطس، كما تحدث إلى كبار السيناتورات وأعلمهم أن أبحاث وكالة التحقيقات الفيديرالية لم تجد دليلًا على أن روميتش كانت جاسوسة ألمانية أو زائرًا من زوار البيت الأبيض، وكان ذلك كذبًا صريحًا ونموذجًا من الطريقة التي كان هوفر يتقرب بها إلى الرئيس في البداية، ثم الرئيس جونسون لاحقًا، ليظل رئيسًا لوكالة التحقيقات الفيديرالية[2].

---

(1) Anthony Summers and Robbyn. Swann, Sinatra: **The Life** (New York: AlfredA. Knopf, 2005), p. 476.

(2) Dallek, **Unfinished Life**, pp. 636 - 638.

والسؤال الحقيقي هو: إلى أي مدى كانت حياة الرئيس الشخصية والجنسية تشكل خطرًا على الأمن القومي، هل هو بسبب النزوع إلى سلوك متهور مترسخ في طبعه؟ أم أن ذلك كان مدفوعًا إليه بسبب ما كان يتناوله من التستسترون والستيرويد باعتبارها جزءًا من العلاج البديل، أو من خلال العقاقير الترفيهية كالأمفيتامين أو الديميرول أو غيرها من الأدوية؟ يبدو أن الجواب يكمن في القول: إن الأمر يتعلق بمزيج من كلا الأمرين في أوقات مختلفة.

ومثلما شاهد كل العالم في قضية كلينتون، فإن المجازفة الجنسية كثيرًا ما توضع في خانة منفصلة، وغالبية الجمهور الفطن يدركون هذا ويتفهمونه، فهم يحكمون على كفاءة زعمائهم ويطلبون بقاءهم في مكاتبهم، ويقررون إلى من يصوتون في الوقت المناسب حيث الأمران منفصلان. فهم يقبلون إلى حدٍّ ما اعتبار الحياة الجنسية أمرًا شخصيًّا بحتًا، قد يصل إلى حد التسامح إزاء الأجوبة الكاذبة التي قدمها كلينتون في شهادته أمام المحكمة، التي كلفته قبول إيقاف صلاحية إجازته في القانون لمدة سنتين في ولاية أركنساس وغرامة بمبلغ 25000 ألف دولار[1].

لقد عالج كينيدي المسائل السياسية الداخلية، وليس فقط السياسة الخارجية بكثير من برودة الدم والبراعة خصوصًا بعد تحسنت حالته الصحية. ففي سنة 1963م، كان يتمرن بانتظام ويمارس رياضة الغولف بشكل متواتر، ولم يكن ظهره في حال أفضل مما كان عليه في تلك الفترة.

هناك منعطف مهم في علاقة كينيدي بأطبائه، حيث أصبح ضابط بحري شاب هو جيمس. م يونغ في حزيران/ يونيو 1963م طبيب البيت الأبيض، وبدأ في وصف حالة كينيدي الصحية في عبارات واثقة، فقد زعم أن الرئيس «في صحة جيدة ولا يشكو من أي مشاكل مزمنة في الظهر»، وقد علّق داليك بقوله:

«هل كان كينيدي يعيِّن يونغ في فترة من فترات الانتخابات الرئاسية عام 1964م عندما كان يريد وجود سلطة طبية أكثر تأثيرًا من بيركلي، لكي يشهد أن قدراته الجسدية تسمح له بأن يظل رئيسًا؟ إن اهتمام كينيدي بصورته ورغبته في الظهور باعتباره شخصًا بحالة جيدة، تجعل من هذا التلاعب أمرًا ممكنًا جدًّا»[2].

(1) **Sidney Blumenthal, The Clinton Wars** (New York: Farrar, Straus & Giroux, 2003), p. 786.

(2) Dallek, **Unfinished Life,** p. 582.

وعد كينيدي الدكتور كراوس الذي رآه آخر مرة في تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1963م بأنه سوف يرمي بمشد الظهر بعيدًا بحلول السنة الجديدة[1]، وكان ذلك وعدًا تراجيديًّا، وعدًا لم يستطع أن يفي به، ووضع اغتياله في دالاس في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر1963م حدًّا لرئاسة وعدت بالكثير، ولكنها لم تكشف بعد عن كل أسرارها.

الخاتمة

بعد نشر رواية روبرت داليك لصحة الرئيس كينيدي في سنة 2002م في مجلة أتلنتيك مونثلي (Atlantic Monthly) كتبت جريدة: «نيويورك تايمز» في افتتاحيتها: «من الصعب أن يقرأ المرء قائمة الأمراض والأدوية دون أن يتساءل عما إذا كان يجد الوقت الكافي لأداء المهمة التي انتخب من أجلها، وهو في تلك الحالات من الضعف»[2]. ولكن ذلك لم يكن رأي داليك فقد كتب: «إن الصعوبات الصحية لم تقلل بشكل جوهري من قدرة كينيدي على أداء مهمته الأساسية رئيسًا للولايات المتحدة في أي من المسائل أو القضايا»[3]، وهو رأي لا أشاطره به، ذلك أن تقديري يذهب إلى أنه حينما قابل كينيدي خروتشيف في فيينا في حزيران/ يونيو 1961م كانت قدراته الرئاسية ضعيفة ومنهكة بشكل جدي. ولقد كان للمزيج الذي يعانيه من آلام الظهر وحقن الأمفيتامين والستيرويد غير المنضبطة التي يعطيه إياها جاكبسون، وتداخلها مع العلاج البديل من التسسترون والستربيد لمواجهة مرض أديسون قد خلقت عنده حالة من الإنهاك والأرق وتقلب المزاج، حدَّت بشكل كبير من قدرته على القيام بمهامه الرئاسية.

وتمامًا مثلما كان عليه الحال أثناء أزمة خليج الخنازير، فقد كانت حالته الصحية أقل وضوحًا، ولا يمكن لأي استنتاجات حولها إلا أن تكون مجرد تخمينات. ومن المستبعد أن يكون كينيدي قد تناول حقن الأمفيتامين والسترويد التي كان يصرفها له جاكبسون دون تناول أدوية أخرى، وإنني اعتقد أن ميزان الاحتمال يميل إلى كفة القول، إن القرارات التي اتخذها بصدد خليج الخنازير كانت تحت تأثير حالته الصحية المتدهورة ، والعلاج الذي كان يتلقاه وتحت الإفراط في استعمال الأدوية.

فلو كان وضع كينيدي الصحي تحت السيطرة الطبية، لكان بمستطاعه وبكل ثقة أن

(1) Schwartz, **Into the Unknown**, p. 204.

(2) «The J.F.K. file», **New York Times**, 19 November 2002.

(3) Dallek, **Unfinished Life**, p. 705.

يرفض رأي وكالة المخابرات المركزية ونصيحة الجيش في 1961م بأن يقدم دعم الولايات المتحدة للمهجرين الكوبيين في غزوهم لكوبا، باعتباره أمرًا لا يليق بأمة عظيمة. وبتصرفه على ذلك النحو كان من الممكن أن يحظى بدعم شخصيتين كبيرتين هما السيناتور ويليام فولبرايت، والسيناتور ودين أشيسون، وغيرهما من الوجوه المهمة والخبيرة في مجال القضايا الخارجية. وعلاوة على ذلك كان من الممكن أن يكون كينيدي أفضل حالًا من الوجهة العاطفية، وأفضل تهيؤًا وفي موقف أفضل من أجل تصريف اجتماع فيينا بأكثر براعة مع خصمه خروتشيف في حزيران/ يونيو1961م، وكنتيجة لذلك ما كان لخروتشيف أن يغادر فيينا مقللًا من شأن صرامة كينيدي وسلطته، ولم يقرر نصب منصات الصواريخ في كوبا في 21 أيار/ مايو 1962م. ومن المثير للسخرية أن نتيجة مسار الأحداث ـ من قرارات كينيدي الخاطئة حول خليج الخنازير، وضعف أدائه في اجتماع فيينا مع خروتشيف وموقفه اللاحق المناهض لكاسترو والروس ـ قد خلقت الأزمة الحقيقية التي كان مستعدًا لحلها في تشرين الأول/ أكتوبر 1962م ومنحته الثقة ليرسم مسار الأحداث طوال الحرب الباردة، فيما يتصل رمزيًا ببرلين الذي سيؤدي إلى احتمال توحيد ألمانيا. ففي كتاب صدر أخيرًا بقلم تيم فاينر يتعلق بتاريخ وكالة المخابرات الأميركية بعنوان: «إرث من الرماد» رسم المؤلف صورة مختلفة وتحدٍّ للصورة القائلة: «بأنه ولسنوات طويلة كان هدوء الرئيس كينيدي والتزام أخيه الفولاذي بقرار سلمي، هو ما جنب الأمة ويلات حرب نووية».

وقد افترض طويلًا أنه لو أعطي الشعب الأميركي كل الحقائق الطبية حول صحة كينيدي منذ أن تولى الرئاسة، ما كان ليتمّ انتخابه أبدًا، ولعل ذلك صحيح في أميركا الستينيات، غير إننا لا نعلم بما أن مسار الانفتاح وإظهار المعلومات لم يتاح. إنني لا أشك اليوم في أن توفير السياسيين للمعلومات حول صحتهم للجمهور مدعومًا بالحقائق الطبية، يمكن أن يضع مثل هذه الأمراض في منظورها الصحيح. ولا شك أن مرض أديسون إذا ما عولج بحسب الأصول، ليس مرضًا مانعًا لأي شخص من الترشح لمنصب الرئاسة.

كان على الرئيس أن يمتلك الشجاعة حينما قرر الترشح إلى الرئاسة في أن يبدأ في إرساء علاقة أكثر شفافية ووضوحًا وديمقراطية مع الجمهور. وكان بإمكانه أن يزين رئاسته أكثر لو أنه اختار التحدث عن مرض أديسون، مستفيدًا بذلك من السابقة الناجحة التي تركها خلفه دوايت أيزنهاور بالرغم من مرضه. وقد يقول البعض: إن الانفتاح والمصارحة لا يمكن أن توجد أبدًا بسبب التاريخ السابق القائم على السرية، ولكن المطلوب من كينيدي لم يكن الاعتراف بأنه ترشح وانتخب باعتماد حجج مزورة أو بالكذب على الجمهور من الناس، بل كان المطلوب هو أن يتدرج في طريق المصارحة والانفتاح، ويضع حدًّا لحالة الإنكار

القائمة بصدد حالته هو بالذات. كان من الممكن الإفلات من هذا المأخذ بالقول إن فترة ولايته كانت قصيرة. إلا إنه من شأن ولاية أطول أن تكشف المستور، وتسبب ضررًا جسيمًا لمصداقيته في الرئاسة.

حتى لو أرجئ إلى حين انتخابه رئيسًا قادمًا للولايات المتحدة، فإن كينيدي كان له الوقت الكافي ليختار السير في طريق الانفتاح والمصارحة بشكل أكبر وتدريجي من أجل وضع حدٍّ للسرية والتكتم حول وضعه الصحي. ولو كان يتمتع بالقدر الكافي من الحكمة لاصطفى أفضل الأطباء الأميركيين ليكون طبيبه الخاص في البيت الأبيض، طبيبًا ذا كفاءة وهيبة ليشرف على صنوف العلاج التي يتلقاها كينيدي من قبل الأطباء المختلفين، لكان من الممكن أن تتحسن صحته بسرعة. لقد كان على الرئيس أيضًا أن يقع تحت ضغط كبير من أجل اعتماد مقاربة شخصية أكثر صرامة فيما يتصل بحالته الصحية، من أجل وضع حدٍّ لاستعمال حقن الأمفيتامين والسترويد التي كان يتلقاها من جاكبسون، والعدول عن استعمال ما يعرف بالأدوية الترفيهية. وكان من شأن وجود طبيب حكيم ومقتدر أن يقنع الرئيس باستخدام رئاسته من أجل بث الثقة بين الجمهور، ونزع الأفكار الخاطئة عن مرض أديسون وغيره من الأمراض، وجعل أكثرهم يدركون ما حدث من تطورات مهمة في طرق العلاج.

تلك هي مجموعة فرضيات «ماذا لو» التاريخية، والتي لو اتخذها جون ف. كينيدي لكان رئيسًا عظيمًا.

الفصل الخامس

مرض الشاه السري

حرر الإيرانيون أنفسهم من الشاه الذي كان شرطي أميركا الوحشي في الخليج، ليجدوا أنفسهم يعيشون في مقبرة ثيوقراطية. وغدر بانتخاباتهم الديمقراطية رجال يتغذون من كره أميركا الذي صار يغطي الشرق الأوسط تمامًا مثل الدثار[1].

روبرت فيسك

لقد تبين أن سقوط الشاه ووصول آية الله روح الله الخميني إلى السلطة في عام 1979م كما هو متوقع، كارثة جيوسياسية لا زلنا نعيش آثارها إلى اليوم. كنت في أيامها وزيرًا للخارجية، وكانت الصلات بين بريطانيا والدول الغربية الأخرى والشاه تسير في مسار معقد. فقد كان من ناحية حليفًا في منطقة تحوي مصالح اقتصادية واستراتيجية حيوية لنا، ومن ناحية أخرى ملكًا أوتوقراطيًا حاول أن يحدِّث بلده ويطوره في مواجهة معارضة تقودها أطراف قوية. لقد كان واضحًا منذ 1970م أنه بدون القيام بإصلاحات ديمقراطية بما فيها التوجه نحو الملكية الدستورية، فإن نظامه كان يتجه نحو المشاكل والقلاقل، غير أن ما جعل هذا الانتقال أمرًا يعسر التأثير فيه من الخارج، بالرغم من القبضة الأوتوقراطية هو كون الشاه رجلًا مترددًا، كما أن الولايات المتحدة وبريطانيا وقفتا في وجه رغبة الإيرانيين وارتباطهم بالديمقراطية من خلال إزاحة رئيس الوزراء محمد مصدق سنة 1953م.

وما كان قليل من الناس يعلمونه في سنة 1973م هو أن الشاه صار رجلًا مريضًا جدًا بعد أن أصيب بنوع من أنواع سرطان الدم اللمفاوي المزمن، أو ما يعرف باللوكيميا اللمفاوية

(1) Robert Fisk, **The Great War for Civilisation: The Conquest of the Middle East** (London: Fourth Estate, 2005), p. 1281.

المزمنة[1]. و احتفظ بهذا الأمر طي السرية المطلقة إلى حين ظهور أعراض أكثر سوءًا في تشرين الأول/ أكتوبر 1979م، ومنذ هذا التاريخ انتهت حياته السياسية والشخصية، ليتوفى في منفاه بمصر في 27 تموز/ يوليو1980م.

وكان الشاه محمد رضا بهلوي قد اعتلى العرش خلفًا لأبيه رضا شاه سنة1941م، وقد نصَّب رضا شاه نفسه ملكًا، وأرسى سلالة جديدة هي سلالة بهلوي سنة 1926م، غير أنه أجبر على التنازل عن العرش بعد الغزو البريطاني والسوفياتي لإيران أو (بلاد فارس كما هو شائع في التسمية المتداولة) أثناء الحرب العالمية الثانية. وحينما التقى روزفلت وتشرشل وستالين في طهران سنة 1943م لم يكن الشاه الشاب شخصية مهمة جدًّا، وكان أمرًا مدهشًا لو قيل لهم آنذاك إن هذه الشخصية ستصير الملك الأكثر هيمنة في منطقة الخليج في غضون أقل من ثلاثين عامًا.

لقد تجلى تردد الشاة في انقلاب 1953م الذي نُحي فيه وزيره الأول مصدق لاحقًا، وهو الذي أمم صناعة النفط في البلاد، مما أغضب الولايات المتحدة وبريطانيا، كما تسبب في معارضة قوية داخل إيران نفسها، مما سمح لوكالة المخابرات الأميركية وجهاز المخابرات البريطاني لإعداد خطة للانقلاب عليه. وبالرجوع إلى الماضي كان الأفضل بالنسبة للمملكة المتحدة وللولايات المتحدة أيضًا لو ركزا العمل على التأثير في دولة يقودها مصدق من خلال دفع الديمقراطية، مما كان من شأنه أن يقطع الطريق أمام تسلل الحزب الشيوعي الإيراني القريب من الاتحاد السوفياتي والحدِّ من انتشاره. وكان من الممكن لو كانت لبريطانيا قيادة أكثر حكمة واستنارة داخل شركة النفط الإنكلو ـ إيرانية أن تساهم في إيجاد حل أكثر اتزانًا واستقرارًا من خلال استباق ضرورة اقتسام عائدات البترول مع الشعب الإيراني.

وخلال فترة الانقلاب، لم يكن الشاه متوترًا جدًّا فحسب، بل كان مترددًا، وفي لحظة حاسمة خامرته فكرة أن الخطة ستفشل، فاستقل طائرة صغيرة إلى العراق بصحبة الملكة

---

(1) يعتبر مصطلح «اللوكيميا» (سرطان الدم) وصفًا شاملًا للاضطرابات التي تتكاثر فيها خلايا الدم البيضاء بطريقة خبيثة أو سرطانية، ويصنف حسب الخلايا المتأثرة، وعليه فإن المصطلح يكون: اللوكيميا اللِمْفاوِيّة، الأَرومِيَّةٌ اللِمْفاوِيَّة/ اللمِفِيَّة، أو النخاعية. وتحدد نسبة تكاثر الخلايا ما إذا كانت اللوكيميا مؤقتة أو مزمنة، ويعتبر لوكيميا الأَرُوْمَاتِ اللِّمْفَاوِيَّة مرضًا يصيب الأطفال، إلا أنه يستجيب استجابة ملحوظة للستيرويد الكيميائي، ولإشعاع السائل النخاعي. بينما من ناحية أخرى يظل سبب اللوكيميا اللمفاوية المزمنة مجهولًا، ويتضاعف انتشاره لدى الرجال أكثر من النساء، وعادةً ما يصيب أولئك الذين تزيد أعمارهم عن ستين سنة.

ثريا، وفي بغداد تحادث مع السفير الأميركي، وأبرق السفير البريطاني السير فرانسيس برغر إلى لندن كاشفًا ما قاله الشاه للأميركيين، مما أعطى صورة واضحة عن موقف الشاه حيال المستقبل، «فقد قرر باعتباره حاكما دستوريًا ألا يلجأ مستقبلًا إلى الشدة المؤدية إلى إراقة الدماء والفوضى والتدخل السوفياتي».

والحقيقة أنه لم يكن للشاه فكرة عن ملاذ يلجأ إليه، غير أنه استقل الطائرة لاحقًا إلى روما حيث نزل في أحد الفنادق دون مال، وقدرة طفيفة على التأثير في الأحداث. قام الأميركيون بحملة تشدِّد على حقوقه الدستورية، مندِّدين بما قام به مصدق من إجراءات باعتبارها أعمالًا غير قانونية. وكانت شوارع طهران تزدحم بمساندي مصدق وبالشيوعيين من حزب توده، فقامت وكالة المخابرات الأميركية بتعبئة مظاهرات مناوئة لمصدق، ودفعت الأموال لقاء ذلك، مما دفع بالجيش إلى أن يعلن وفاءه للشاه ويطيح بمصدق. وحينما ألقي في السجن أشار بإصبع الاتهام إلى البريطانيين باعتبارهم هم من تولى أمر ما عرف بعملية الإطاحة، وهكذا ألصقت ببريطانيا تهمة كونها المخطط الرئيس لما وقع، في حين أن الأميركيين هم من قاموا بالجزء الأكبر من العمل، دون أن يتثبت أحد من حقيقة دورهم فيما عرف بعملية أجاكس.

غير أن الشاه اعتبر أن عودته في 1953م كانت بفعل الشعب الإيراني مصرحًا: «إنني أعلم أن هذا الشعب يحبني»، وهي أسطورة ظل يواسي بها نفسه. وقد ظل الشاه لاحقًا مسكونًا بهاجس المنفى وشظفه، فقرر أن يبني ثروة في الخارج تحميه من غوائل المستقبل، كما اعتبر أنه من الضروري بناء جهاز استخبارات سري خاص به، فظهرت السافاك وهي اختصار للعبارة الفارسية «سازمان اطلاعات وامنيت كشور» واختار وكالة المخابرات الأميركية والموساد، دون جهاز المخابرات البريطاني بأن تكون مستشارة أساسية له، وصارت السافاك مركزًا رهيبًا للتعذيب والقمع.

يمكن القول إن النجاح المطَّرد الذي عرفه الشاه يرجع بالأساس إلى قراره في تموز/ يوليو 1962م بتعيين أسد الله علم[1] وزيرًا أول، والذي كلفه بتحقيق هدفين أساسيين وهما: خنق المعارضة المتصاعدة ضد الإصلاح الزراعي، ثم التقدم بما عرف بالثورة البيضاء. ففي

(1) Alinaghi Alikhani, «Introduction», in Assadollah Alam, The Shah and I: **The Confidential Diary of Iran's Royal Court 1969-1977** (London: I. B. Taurus, 1991), pp. 1-25.

كانون الثاني/ يناير 1963م وافق على برنامج من ست نقاط حول الإصلاح الاجتماعي. وفي ربيع 1963م قمع أسد الله علم معارضة رؤساء القبائل في بلاد فارس، وقام تبعًا لذلك بضرب ولاء القبائل من خلال تحطيم التقاليد القبلية القديمة. غير أن الاحتجاجات تواصلت في طهران وقم تحت تأثير شيخ من شيوخ المنطقة وهو روح الله الخميني، وقد شد علم بشكل حاسم من أزر الشاه المتردد حينما أصرّ على أن الحكومة يجب أن ترد، غير أن الشاه تساءل: «ولكن كيف ذلك؟»، فكان ردُّ أسد الله: علم بأن ذلك لا يكون إلّا «بالرصاص يا جلالة الملك»، مضيفًا أنه سيتحمل تبعات ذلك إن فشل الأمر. وفي 5 حزيران/ يونيو 1963م كانت الاضطرابات قد أخمدت في ساعات قليلة تحت الإشراف الفعلي والمباشر لأسد الله علم نفسه.

قرر الشاه في البدء أن يعدم الخميني، غير أنه قدر أن الأمر قد يجعل منه شهيدًا في أعين الناس، وعوضًا عن ذلك دفع رجال الدين المتحفظين تحت ضغوط سياسية ليرفعوه إلى درجة آية الله، ومن ثم دفعه لمغادرة البلاد، فغادر إلى تركيا أولًا، ثم إلى العراق لاحقًا. مما نتج عنه عقدًا كاملًا أو أكثر بقليل من النجاح للشاه على الأقل في المسائل الاقتصادية والمادية، غير أن تشديده على بناء دولة لائكية وحرصه على تحرير المرأة، كانا من الأمور التي لم يستسغها آية الله الخميني، واعتبرها من الكبائر هو وعدد كبير من رجال الدين. وكان والد الشاه مصلحًا مثله في ذلك مثل أتاتورك الذي دعا إلى نزع الحجاب في تركيا، حتى أن والدة الشاه نفسه الملكة تاج الملوك وابنتيها الأميرة شمس والأميرة أشرف، كانتا خرجتا إلى العموم سافرتي الوجه في كانون الثاني/ يناير 1963م.

وفي 1971م كان الشاه مسؤولًا مسؤولية كبرى عن اتفاق طهران الذي زاد من مداخيل النفط الإيرانية. ومنذ هذا التحول بدأت مظاهر النعم والبطر والإسراف تظهر على حاشيته وبلاطه، مثلما بدا جليًّا في الاحتفال الباذخ الذي تم في مدينة برسيبوليس في تشرين الأول/ أكتوبر 1971م بمناسبة الذكرى 2500 على الملكية الفارسية. وكان ذلك فيما يبدو المناسبة التي كشفت عن انقطاع الشاه عن واقع شعبه بغطرسة جلية وثقة بالنفس ظاهرة، لكن غير حقيقية. فقد أقيمت مدينة من الخيام لأجل العائلة الملكية والوفود الأجنبية الزائرة، قدمت لهم فيها أغلى ما يوجد في باريس، إذ تكفل مطعم ماكسيم بإعداد المأكولات، وشركة لانفان بالملابس الرسمية، وشركة بورت هالت بالأفرشة الفاخرة، واحتُفل بذكرى قورش الأكبر بمزيج من الأضواء والموسيقى، في حين تمّ تجاهل النبي محمد والإسلام.

وفي بداية 1974م كان الشاه يتمتع بتأثير كبير في الشرق الأوسط. حيث كانت مصالحه متوافقة مع مصالح الديمقراطيات الغربية بصفة عامة، وشجعت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا وآخرون الشاه على ممارسة تأثير على منطقة تتجاوز حدود الشرق الأوسط. فقد كانت إيران عضوًا في منظمة الدفاع المعروفة اختصارًا باسم CENTO أو حلف بغداد، وتضم العراق وباكستان وتركيا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة لاحقًا. كما كان الشاه حليفًا قويًّا لمبدأ حرية التجارة وتنقل السلع في الخليج، غير أنه لم يتناس قط أن له حدودًا طويلة مع الاتحاد السوفياتي، وحافظ دومًا على قناة اتصال خاصة مع موسكو.

بنيت القوة العسكرية الإيرانية في الأساس من أجل ضمان الهيمنة في المنطقة، ولم يكن الأمن الداخلي من مشمولاتها، فقد ترك ذلك للسافاك، وكانت الولايات المتحدة وبريطانيا راضيتين عن هذا الدور الإقليمي، لأن الشاه بدأ في سد فراغ تركه انسحاب البحرية الملكية البريطانية من الخليج. ففي 1941م بلغ عدد أفراد الجيش الإيراني 90 ألف جندي، وفي 1978م ارتفع العدد إلى 350 ألفًا. نزلت القوات الإيرانية في كانون الأول/ ديسمبر بجزيرة «أبو موسى» وجزيرتي «طنب» في الجزء السفلي من الخليج معلنة سيادتها على هذه الجزر. وفي 1973م تحدث الشاه بعبارة مفعمة بالتفخيم عن بداية «مرحلة الحضارة العظيمة» مشيدًا بمنزلة إيران وانضمامها إلى نادي الدول المصنعة. كما أرسل القوات الإيرانية لمساعدة سلطان عمان. كان هنري كيسينجر وزير خارجية الولايات المتحدة في ذلك الوقت قد قبل بهذا الصنيع الإيراني، بل شجع الشاه على أن ينصّب نفسه بدور إمبراطوري في حراسة الخليج، وأن يطوِّر صناعة الطائرات والصواريخ، ولكن دون أن يتجاوز ذلك إلى الصناعة النووية.

وفي الحقيقة لم يكن الشاه بيدقًا ولا ألعوبة في يد الولايات المتحدة. فقد استطاع أن يدفع قدمًا من وتيرة عمل منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبيك) من خلال الدعوة إلى رفع أسعار البترول في اجتماعات تشرين الأول/ أكتوبر، وكانون الأول/ ديسمبر 1973م. وفي حوار أجرته معه المجلة الأميركية News and World Report حذّر من أنه إذا تحدت الولايات المتحدة المصالح الاستراتيجية والطبيعية لإيران في الخليج الفارسي، فإن إيران يمكن «أن تحول هذه المنطقة إلى جحيم بالنسبة إلى الولايات المتحدة».

أعتقد أن وجود علاقة جيدة مع الشاه في السبعينيات كان عنصرًا أساسيًا في السياستين الخارجية الأميركية والبريطانية، كما قُدر بشكل صحيح، حتى وإن كان البعض في بريطانيا

يرى اليوم أنه كان من الأجدى التخلي عنه في بعض الوجوه. حيث كان ود الشاه مطلوبًا ومهمًّا جدًّا بالنسبة إلي الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى من الناحية الاقتصادية في ذلك الوقت، فالبريطانيون كانوا يبحثون عن تعويض خسارتهم بارتفاع أسعار النفط ببيع مزيد من منتوجاتهم الصناعية إلى إيران، في حين كان الشاه يأمل في الموافقة على بيعه دبابات التشفتاين البريطانية.

تمثل سنتي (1977 و1978م) المصلحة الأميركية والبريطانية في دفع الشاه إلى السير في اتجاه ملكية ديمقراطية يخلفه فيها نجله، في ملكية دستورية يمارس السلطة فيها سياسيون منتخبون ديمقراطيًّا. وفيما كانت الديمقراطيات الغربية تراقب، فإنها رأت في الشاه صورة للملك المصمم على القيام بذلك، ولكن ذلك كان وهمًا. حيث كان الحدث الأهم الذي لا يجب علينا تركه يسقط من ذاكرتنا في سنة 1953م حين أظهر الشاه تردده.

بدأت تظهر المتاعب على الاقتصاد الإيراني مع مستهل 1975م، حيث دفع الشاه بالتضخم والنشاط المحموم في مجالي الصناعة والبناء، بعد الفورة البترولية وارتفاع أسعار النفط والعقارات والإيجارات، وانهيار شبه تام لمستوى المعيشة. وكان الشاه على علم بهذه الأوضاع، لكنه لم يتخذ قرارًا بمحاربة التضخم المتصاعد، وعوضًا عن ذلك اتخذ مبادرة للحد من هامش الربح، وهو ما تسبب في غضب تجار البازار الذين اعتبروا ذلك موجهًا ضدهم، وكان ذلك أمرًا مزعجًا، إذ بدأت المصاعب الاقتصادية تدفع تجار البازار إلى أحضان رجال الدين. وفي 1976م وصل التضخم إلى 20 بالمائة، وبلغ الفساد والرشوة حدودًا كارثية. كان واضحًا أن قلقًا بدأ يتسرب في كل مفاصل المجتمع الإيراني.

وفي 26 آذار/ مارس 1976م احتفل الشاه والملكة فرح بالذكرى الخمسين لاعتلاء عائلة بهلوي الحكم. والتي كتبت عنه فرح لاحقًا بقولها: إنها كانت تحس بأن شيئًا ما تغير بين الشعب الإيراني والملكية: «كنت أستطيع أن أحس وكأن بردًا قارصًا يلفح عظامي، وكما لو أن ظلًّا خفيًّا يخيم على التناغم والثقة السائدة بيننا»[1]. ووصفت كيف أن الشاه شرع في الأشهر التالية يعلمها هي وابنها رضا كيفية تسيير شؤون البلاد، فاستقبلا رؤساء الدواوين وتحادثا مع الوزير الأول ووزراء آخرين، كما التقيا ممثلي المؤسسات والبرلمان. وكان الأمير رضا يقترب من عامه العشرين، وهو السن الذي يتيح له اعتلاء العرش. غير أن الشاه

(1) Farah Pahlavi, **An Enduring Love: My Life with the Shah** (New York: Miramax, 2004), p. 261.

ما زال يتراءى له بأن مقاليد البلاد ستكون بيد ابنه، ولم تكن هناك أي دلائل على تشجيعه إياه لإشراك أحد معه في السلطة.

مرض سري

كانت المعلومات الطبية الأولية المتعلقة بمرض شاه إيران معروفة لبعض الوقت، ولكن لم تكشف الحقائق الكاملة إلا في عام 2004م عندما نشرت فرح بهلوي مذكراتها المعنونة: «حب دائم»، وقد نشرت في هذا الكتاب مقاطع مطولة من ثلاث رسائل طويلة أرسلها الدكتور جورج فلاندرين إلى أستاذه الدكتور جون برنارد، حيث ساعد كلا الطبيبين في علاج الشاه، واستمر فلاندرين في ذلك حتى وفاة الشاه. كُتبت الرسائل في العام 1974م لتكون سجلًا لوقائع التاريخ الطبي للشاه، وقد اقتبست منها كثيرًا في هذا الفصل، واستعملت في أحيان عديدة العبارات ذاتها التي استعملها فلاندرين بعد أخذ موافقته.

في العام 1974م، اتصل طبيب إيراني، يدعى عباس سافافيان وكان يعالج الشاه، ببرنارد طالبًا منه المجيء إلى طهران وإحضار فلاندرين «رئيس مختبره» معه. وكان برنارد رئيس منشأة للبحث في ابيضاض الدم في مستشفى سانت لويس بباريس، واختصاصيًا بارزًا في أمراض الدم، وطبيب الرئيس جورج بامبيدو، ولذا علم سافافيان أنه يستطيع ائتمانه على الأسرار. أوضح سافافيان ليونارد أنه لن يكون ثمة أي اتصال بالأطباء المحليين، وإنه يتوجب عليهما جلب أي معدات يعتبرانها ضرورية معهما. فألغى كل من برنارد وفلاندرين معايناتهما بالعيادات الخارجية، وبعد يومين في أيار/ مايو1974م استقلا الطائرة المتجهة إلى طهران للمرة الأولى.

وانطلقت الطائرة التابعة للخطوط الفرنسية من مطار «أورلي» وقبيل صعودهما إلى الطائرة بقليل وبينما كانا يحاولان تخمين سبب هذا الاستدعاء الغامض، سأل فلاندرين برنارد في ارتباك: «ماذا لو كان الأمر مجرد مزحة سمجة؟». فأجاب برنارد ببرود: «حسب علمي لا تتضمن المزحة السمجة عادة تذاكر سفر في الدرجة الأولى». كانت تنتظرهما في نهاية مطار «بمهراباد» بطهران سيارتان بأضواء مشعة. أُخذا إلى ردهة الاستقبال الحكومي حيث رحب بهما سافافيان. كان سافافيان أستاذًا جامعيًا فذًا من فرنسا، وعميدًا لإحدى كليات الطب بطهران الذي أصبح بعدئذ رئيسًا لجامعتها. كما عمل كل من سافافيان وفلاندرين تحت إمرة البروفيسور جيلبرت درايفوس في مستشفى «لا بيتي».

أوضح سافافيان في نزل الهيلتون أنهم سيفحصون أسد الله علم وزير البلاط. وكان

برنارد على علم بمشكلة أسد الله الصحية، إذ استشاره فيها سابقًا طبيب فرنسي آخر يدعى بول ميلليز، ولكنه أسرّ لفلاندرين بأن كل هذا القدر من الغموض غير متناسب مع مرض «علم» الذي كان مرضًا بسيطًا ومن صنف معروف تمامًا. وبعد ذلك قابل الطبيبان «علم» الذي أعلمهما بأنهما في حقيقة الأمر سيقابلان الشاه نفسه.

كان الشاه يتكلم الفرنسية بطلاقة تامة حين التقى الطبيبين الفرنسيين أول مرة، وكان يقف إلى جانبه رجل ضئيل في بذلة عسكرية يدعى الجنرال «عيادي» وهو الطبيب العام للشاه. جلس الجميع حول طاولة وشرح الشاه مشكلته مخبرًا إياهم أنه قد لاحظ قبل شهور قليلة في أواخر سنة 1973م حينما كان في جزيرة «كيش» تقوسًا في جنبه الأيسر تحت القفص الصدري، وتحسسه فأرجعه إلى تضخم في الطحال. ولما فُحص الشاه وُجد أن الطحال متضخم بالفعل، ولكن كان هذا العارض الجسدي الظاهر الوحيد، إذ لم تكن ثمة غدد متضخمة، وكان الشاه في الخامسة والخمسين من العمر.

أخذ الأطباء عينات وعاينوا تحت المجهر شرائح دم لوّنوها بلطخة مميزة، فبدا واضحًا أن الشاه يعاني من مرض دم غددي مزمن من نوع غير معتاد نسبيًّا من ابيضاض الدم اللمفاوي المزمن نتيجة لتضخم الطحال. ولما علم عيادي بنتيجة التشخيص، أكّد أن لفظة: «ابيضاض الدم» لا يجب أن تستخدم إطلاقًا، ورأى أنه يجب إخبار الشاه بأن كل شيء على ما يرام. ولكن كان هذا بالنسبة للطبيبين الفرنسيين طلبًا مشطًّا، إذ عاينا للتو مرض دم لمفاوي مزمن سيصبح في نهاية الأمر خبيثًا. بالإضافة إلى ذلك كان يتوجب علاج المرض والذي يصعب وصف دواء له دون أن يشرحوا له الأمر. لم يتحصل الطبيبان خلال زيارتهما الأولى على نتائج مصل الإيمينوإكتروفوريسيس[1]، لكن لم تستدع حالته في هذه المرحلة المبكرة من المرض لكثير من القلق، ولذا قرر الطبيبان الفرنسيان المحافظة على التوصيات العملية إلى حين رجوعهما إلى باريس لإتمام جميع التحاليل وفحصها. ولما تحصلا على جميع النتائج اختارا استعمال عبارة: «مرض والدينستورم» للتعبير عن حالة الشاه، مدركين أنها لم تكن المرحلة المتقدمة المعتادة للمرض.

---

(1) يزداد عدد اللمفاويات عند الإصابة باللوكيميا اللمفاوية (سرطان الدم اللمفاوي)، وهي نوع من الخلايا البيضاء تسمى الكريات البيضاء. توجد اللمفاويات في العقد اللمفية، والطحال، وغدة التوتة (ثايمس)، والنخاع العظمي، وجدار الأمعاء. تسهم هذه الخلايا بحماية الجسم. وتعتبر الغلوبولينات المناعية بروتين يمكن لمصل الرحلان المناعي أن يفصله، وينتج ذلك المصل عند إزالة خلايا الدم. بالنسبة لحالة الشاه في هذه المرحلة، فإن الغلُوبولين المناعِي الأحادي النَّسيلَ يبلغ ذروته، وتلك إحدى سمات مرض والدنستروم (التنكس العظمي الغضروفي) التي لم يفصح عنها في حالته.

كانت انطباعات الطبيبين متضاربة عندما غادرا القصر بعد الزيارة الأولى، يذكر فلاندرين قول برنارد: «غدًا سيستشار الأطباء الأميركيون وسيكونون هنا في مكاننا هذا» ولكن تنبؤات برنارد كانت خاطئة، إذ كان جلب برنارد وفلاندرين إلى طهران خيارًا متعمدًا ومدروسًا من قبل الشاه، الذي علم أن تضخم طحاله يعود على أقل تقدير إلى مرض في الدم، ولما كان مدركًا للتبعات السياسية الممكنة، لم يكن ينوي البتة استشارة أي أطباء أميركيين لأنهم قد يخبرون الحكومة الأميركية بالأمر، مما يسري على الأطباء البريطانيين كذلك. اتضح للطبيبين الفرنسيين أن كل شيء رتب بين الشاه و«علم» بحيث لا تتسرب أية معلومة خارج مجموعة ضيقة جدًّا وجديرة بالثقة.

في البداية كان هناك خمسة أشخاص على علم بالمرض؛ الطبيبان الفرنسيان اللذان يملكان كل المعلومات، و«عيادي» الذي كان يعرف الحقائق الأولية ولكنه لم يكن متخصصًا، والشاه الذي كانت له معلومات قليلة يمحصها «عيادي» بعناية، وأخيرًا «علم» الذي كان لا يعرف سوى النزر اليسير عن الأمر. ولم يكن لسافافيان في البدء أي نية لمنافسة شخصية ذات نفوذ كبير مثل شخصية «عيادي» ولكن أكد الطبيبان الفرنسيان أنهما لن يعالجا الشاه إلّا بمشاركته (أي: سافافيان) في العملية. ولاحقًا في أيار/ مايو 1974م أعلماه بطبيعة مرض الشاه بالضبط. ولكنهما فضلا ألا يعلماه عبر الهاتف، فالتقياه في المستشفى الأميركي بباريس في«نويي» لإجراء محادثة خاصة، وهكذا صار عدد العارفين بالأمر ستة.

أجريت تحاليل الدم في باريس على عينات تحمل اسم أحد أقارب فلاندرين المسنين ورقم الضمان الاجتماعي الخاص به. وبعد أن أوصل الطبيبان الفرنسيان هذه الاستنتاجات إلى سافافيان، لم يتلقيا إجابة حتى أيلول/ سبتمبر 1974م، ولكنهما لم يكونا قلقين، إذ تعمدا عدم اقتراح أية أدوية والاكتفاء بالمراقبة عن كثب. إلا أنهما استدعيا بعدئذ إلى طهران في 18 أيلول/ سبتمبر. ومن المثير للاهتمام أنه في غضون ذلك وبين 24 و29 حزيران/ يونيو كان الشاه وزوجته في زيارة رسمية إلى فرنسا بدعوة من رئيس الجمهورية المنتخب حديثًا فاليري جيسكار ديستان، ولكن لم يجر الشاه شخصيًّا أي اتصال بأطبائه الفرنسيين.

عند زيارتهما الثانية إلى طهران في أيلول/ سبتمبر انضم «ميلليز» إلى المجموعة المختارة من المحيطين بالشاه الذين يعرفون سره الطبي، إذ رأى سافافيان أنه من المنطقي إشراك «ميلليز»، معلمه الفرنسي، في الأمر لأنه كان قد عالج شارل دي غول وملك العربية السعودية، فاعتبر أهلًا لكتمان السر. فصار الآن سبعة أشخاص يعلمون بالأمر، وكان ثمة

شخص ثامن يعرف سبب مجيء الطبيبين الفرنسيين إلى طهران دون أن يطلع على السر، وهو شخص مقرب من الشاه ومن «علم» يؤوي الطبيبين في إقامته الباذخة المنعزلة في كل من رحلاتهما العديدة.

وفي تلك الإقامة التقى كل من برنارد وفلاندرين ميلليز وسافافيان بعد المعاينة الثانية في القصر. يصفهم فلاندرين وهم يتمشون في الحديقة في صباح ذلك الأحد المشمس ويتناقشون بتفصيل تام من أجل الاتفاق على كيفية التعامل مع المريض. أصر سافافيان على أن كل شيء يجب أن يظل طي الكتمان، حتى عن الشاه نفسه قدر الإمكان. وخشي خاصة أن يصرح الشاه بشيء غير محسوب العواقب، إذ كان من المرجح أن يتحدث عن مشاكله الصحية، وقد يطلع عن غير قصد أحد ما على السر. وفي وقت كان المريض لا يزال في حالة جسدية ممتازة حسب رأي الأطباء، غير أن طحاله ازداد تضخمًا، فقرروا البدء حالًا في استعمال الدواء المعتاد المناسب لابيضاض الدم اللمفاوي المزمن، وهو ستة ميليغرامات من الكلورامبيسيل يوميًّا مع الفحص الشهري المعتاد لتحاليل الدم[1].

تلقى الشاه بعد مغادرة الأطباء الفرنسيين العلاج لأسبوع واحد، قبل إجراء تحليل دم أمر به «عيادي»، ولكن فترة أسبوع كانت فترة قصيرة جدًّا للانتظار قبل إجراء تحليل دم. أظهر التحليل انخفاضًا كبيرًا مثيرًا للشك في عدد الخلايا البيضاء. لذا استُدعي الأطباء الفرنسيون لمعاينة الشاه مرة ثالثة في كانون الثاني/ يناير 1975م. وكان ذلك في زوريخ حين كان الشاه يمارس التزلج في سويسرا. وعندها فقط علم الأطباء أن الشاه لم يكن يتلقى العلاج، وجرت هذه المعاينة في حضور كل من عيادي وسافافيان وميلليز وبرنارد وفلاندرين. وقد أحضر فلاندرين معه من باريس مجهرًا صغيرًا من طراز كارل زايس مفككًا في حقيبة الظهر الخاصة به، وهو نسخة من المجهر الذي استعمله في طهران. بدا الشاه على ما يرام وكانت صحته جيدة، فقد كان يحدث فلاندرين عن تزلجه على منحدر ديافولينا. فأعجب فلاندرين، وهو المولع بالتزلج، بهذا العمل البطولي، ولكنه أصيب بالهلع عندما تخيل ما قد تفعل سقطة كبيرة بشخص أصبح طحاله ضخمًا كحال الشاه، ولم يكن ثمة مفر من العلاج. فاعتمد الكلورامبيسيل مرة أخرى. أما على الجانب الإيراني فقد أوضح كل من عيادي وسافافيان

(1) يصنف الكلورامبُوسيل عاملا مؤلكلًا (alkylating) يستخدم في العلاج الكيميائي ويتناوله المريض عن طريق الفم، وضرره على النخاع العظمي يعتبر أهم أعراضه الجانبية، التي يجب الوقاية منها بأخذ عينات الدم بشكل دوري.

إنه ما من سبيل لإجراء تحاليل الدم بصفة منتظمة في طهران في طي الكتمان المطلق. فتقرر أن يرجع فلاندرين إلى زوريخ لبضع ساعات ليجري فحص الدم التالي، إذ كان الشاه سيقيم شهرًا آخر في سويسرا. وبعد هذه الخطوة في معاينة تطور حالة الشاه، ذهب فلاندرين إلى طهران في 19 شباط/ فبراير ثم صار بعد ذلك يسافر إليها بانتظام كل شهر، أحيانًا برفقة برنارد وأحيانًا بمفرده. وكانت زيارته الأخيرة إلى طهران في نهاية كانون الأول/ ديسمبر 1987م.

اعتمد المسار نفسه كل مرة: السفر من باريس يوم الجمعة على طائرة الخطوط الفرنسية ضمن رحلة باريس ـ مانيلا عبر طهران جالسين في الصف الأول من مقصورة الدرجة الأولى. ويصلون غالبًا في الليل فيغادرون الطائرة قبل الجميع، وتستقبلهم السيارات نفسها ذات الأضواء المشعة أسفل الدرج. ويتركون منزل مضيفهم فجر الأحد متجهين إلى القصر ويعودون إلى المنزل ليمضوا نهارًا طويلًا في القراءة والانتظار حتى يتجنبوا أن يراهم أحد في الخارج، ثم يرجعون إلى باريس في سفرة ليل الأحد، ليعاودوا العمل في مستشفى سانت لويس صبيحة يوم الاثنين.

بين كانون الثاني/ يناير وكانون الأول/ ديسمبر 1975م عاد طحال الشاه إلى حجمه الطبيعي، وعولجت التشوهات في دمه. ورغم هذا التحسن تواصل العلاج بالجرعات نفسها والوتيرة نفسها كما هو معتاد في هذه الحالات. وفي شباط/ فبراير 1976م تفاجأ فلاندرين مفاجأة غير سارة حين تحسس طحال الشاه المتضخم، وعاين خلايا شاذة في دمه، وحمله هذا على الاعتقاد بأن مرض الشاه قد تفاقم فجأة، وإنه قد يتطلب علاجًا أشد وطأة، ولكن اتضح أنه كان إنذارًا أبيض. تقرر في بدء الأمر عدم استعمال لفظ «كلورامبيسيل» تجنبًا لانكشاف السر إذا رأى أحدهم الرقعة على علبة الدواء، واستنتج أن الشاه يعاني من مرض خطير. ولتجنب هذا كتب على عبوة الدواء التي يستخدمها الشاه اسم «الكوينسيريل» وهو دواء بسيط مبتكر يباع على شكل حبات بيضاء شديدة الشبه بحبات الكلورامبيسيل. وكان فلاندرين قد اشترى هذه العبوات في باريس، وأحضر الكلورامبيسيل في عبوات الكوينسيريل إلى طهران، كما اتفقوا أيضًا على تغيير كلمة الكلورامبيسيل بالكوينسيريل في تقاريرهم. ولكن انقلب السحر على الساحر لأن خادم الشاه الخاص، ظنًا منه بأن الشاه قد يقوم برحلة طويلة إلى أنحاء قصية، خزن احتياطًا كميات من الكوينسيريل كان قد اشتراها في طهران، وظل الشاه يستعملها لأكثر من شهرين دون أن يتفطن أحد إلى أن الدواء الذي كان الشاه يتناوله لم يكن الكلورامبيسيل. وكان سافافيان، لما رأى فلاندرين متفاجئًا لهذا

التفاقم المفاجئ للمرض، وهو من أجرى تحقيقات دقيقة، اكتشف الخطأ الذي كان قد ارتكب بعد الحديث إلى الخادم الخاص. ثم بدأ العلاج الفعلي مرة أخرى في نيسان/ إبريل 1976م، وبحلول أيلول/ سبتمبر كان للشاه تخطيط دم طبيعي تمامًا.

في هذا الوقت صار كتمان السر عبئًا شديد الثقل على سافافيان الذي كان، باستثناء أسد الله علم وعيادي، الإيراني الوحيد الذي يعلم بمرض الشاه. وبدا واضحًا له أنه سيكون يومًا محل لوم من عائلة المريض أو من الشعب الإيراني كافة لإخفائه الحقيقة عنهم، كان يعرف أن لهذه السرية تداعيات سياسية ممكنة. ولذا ناقش هذا الأمر مطولًا مع الأطباء الفرنسيين وقرروا أنه من المهم إعلام زوجة المريض خشية تفاقم المرض، فقد أراد الأطباء للملكة أن تكون على علم حتى تصير على استعداد نفسي للتدهور المحتوم لزوجها. حاولوا مرات عديدة إقناع الشاه حتى يخبرها بنفسه قبل الحديث معها، ولكنه كان في كل مرة يتجاهل الموضوع، لذا اتفقوا أن ينبئوها سرًّا.

قرر سافافيان أن المكان الوحيد المناسب لمثل هذا اللقاء السري الذي سيكون الشاه على غير علم به هو باريس. فالتقى كل من برنارد وميلليز وسافافيان وفلاندرين بالملكة التي كانت تزال لا تعرف السبب الحقيقي لحرص الأطباء الشديد على لقائها بكل سرية. كان برنارد هو من أفضى إلى الملكة بالسر الذي كان بالطبع ثقيلًا على سمعها، فزوجها الذي بدا سليمًا تمامًا، يعاني من مرض مزمن في الدم قد يصبح مميتًا. وعلاوة على هذا، كان يعلم بمرضه ولم يشأ أن يخبرها بشيء عنه.

كان الأمر الأصعب بالنسبة للملكة كيفية إخبار زوجها بأنها صارت الآن تعرف كل شيء عن مرضه. فاتفق على أن السبيل الوحيد بأن تطلب زوجة الشاه إذنه في محادثة رسمية مع الأطباء الفرنسيين، دون أن تكشف أنها سبق والتقتهم سرًّا. فأعطاها الشاه الإذن بعدئذ وفي زيارتهم التالية إلى طهران استدعي الأطباء إلى زيارة الملكة بعلم الشاه. فصار هناك شخص آخر على علم بالسر. اعتقد سافافيان أن دائرة الأشخاص الذين كانوا على علم لم تتوسع حتى حدود تشرين الأول/ أكتوبر 1979م، حين وقعت انتكاسه صحية للشاه في جزر الباهاماس، وأخرى أشد في مكسيكو، قبيل رحيل الشاه إلى نيويورك.

يمارس سافافيان الطب في باريس الآن. وقد التقيته في 2005م وأجريت معه محادثتين مطولتين حول مرض الشاه، ومن الجدير بالملاحظة أن سافافيان وبرنارد وفلاندرين حافظوا

على ثقة الشاه وزوجته حتى النهاية، رغم الظروف الاستثنائية التي توجب عليهم التعامل معها، ولقد تصرف الأطباء الثلاثة في رأيي مع قضية الشاه ببراعة عالية.

لكن أصبح طبيب أميركي، يدعى بنجامين كين،[1] طرفًا في القضية بعد ذلك بكثير، الذي ادَّعى أن الأطباء الثلاثة توسلوا للشاه حتى يخضع لفحص شامل واستئصال جزئي في 1974م، الذي لم يكتف بالرفض فقط، بل هدد بطردهم وإيجاد أطباء آخرين. غير أن الأطباء الفرنسيين نفوا صحة هذه الأقوال، لأنه لم يكن من الممكن فحص الغدد في تلك المرحلة المبكرة، وثانيًا لأن الشاه لم تكن له معهم مثل تلك العلاقة الزجرية، إذ كانت العلاقة بين الطرفين ذات طابع رسمي وتتميز باللطف والاحترام، وكانوا يقولون إن الشاه لم يتكلم معهم من قبل بمثل هذه الطريقة.

هل كان الشاه يدرك حقيقة وضعه الصحي؟ أجابت زوجته عن ذلك من خلال ما سردته عن لقائه بجيسكار ديستان في شتاء 1975م حيث قالت على لسانه:

«مشكلتي أن الوقت يداهمني، وأنا لا أريد البقاء في السلطة لوقت أطول، وأنوي التنازل عنها خلال سبع أو ثماني سنوات، وسأكون عندها قد تجاوزت الستين، أود أن أتنحى قبل ذلك غير أن ابني لا يزال صغيرًا جدًا، ولذلك سأنتظر حتى يصير جاهزًا للحكم، وأريد أن يكون كل شيء جاهزًا حينما يستلمه، سيواجه مصاعب كثيرة في بداية حكمه، ولذلك تقع عليّ مسؤولية القيام بالتغييرات الضرورية في إيران، وأنا مصمم على القيام بذلك»[2].

ويبدو أن أطباءه لم يكونوا قادرين على إعطائه تقييمًا حقيقيًا في ذلك الوقت عن حالته الصحية، ينسجم مع تخطيطه للبقاء إلى حدود (1982 ـ 1983م) حتى يتمكن من تسليم الحكم لابنه، ولا يخرج الأمر عن إحدى اثنتين، فهو إما لم يُخبر وإما تجاهل ما أُخبر به، غير أن الملكة أشارت إلى أنها لم تكن تعلم البتة بدرجه معرفة الشاه بمرضه في ذلك الوقت.

حاول برنارد مرات كثيرة أن يستدرج الشاه إلى الحديث عن حالته الصحية ومرضه ومناقشة مساره المحتمل، غير أن الشاه بدا غير متحمس للنقاش، وغير راغب فيه أو غير

(1) B. H. Kean, M.D.: **One Doctor's Adventures among the Famous and Infamous from the Jungles of Panama to a Park Avenue Practice** (New York: Ballantine, 1990), p. 230.

(2) Quoted in Pahlavi, **Enduring Love**, pp. 266 - 267.

مدرك لذلك كله. وفي قصره الصيفي الذي نزله في 1978م، صرح الشاه بما اعتبره فلاندرين إقرارًا من الشاه نفسه بأنه صار مدركًا لحقيقة وضعه الصحي، ففي هذه الفترة كان ابنه الأكبر يتمرن في إحدى أكاديميات القوات الجوية الأميركية، حين قال الشاه لفلاندرين: «أسألك فقط أن تساعدني على البقاء في صحة جيدة لسنتين أخريين، وهما الوقت الكافي لينهي وريث العرش سنته في الولايات المتحدة ويقضي الأخرى في طهران».

الإصلاح: ضئيل جدًا ومتأخر جدًا

في عام 2005م كانت لي محادثة طويلة مع فرح بهلوي التي تتصرف بكرامة بالغة وتكشف عن نفس رحيمة عظيمة، وقد بدا لي أنها تعتقد أن زوجها ما إن علم بأن مرضه يسير به إلى التدهور الحتمي، حتى سعى لتحضير البلد كي يكون ابنه وريثًا له. وكتبت إن الشاه:

«كرر أكثر من مرة أن ولي عهده لن يحكم البلاد كما حكمها هو، فهو سيرث بلدًا خرج لتوه من التخلف، وعلى رضا بهلوي أن يعد البلاد للانفتاح الديمقراطي. وفي ربيع 1977م بدأت المطالبة بانفتاح النظام نحو مزيد من الليبرالية، تتسارع لتصير أكثر الحاحًا من قبل المعارضة السياسية والمثقفين، وخصوصًا من صحفي ساند لاحقًا الإمام الخميني ورجال الدين. وفي إحدى الرسائل المفتوحة التي توجه بها ذلك الصحفي إلى الشاه، طالبه بأن يحكم بالدستور وأن يسمح بمزيد من حرية التعبير مثلما هو الشأن في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية، كما تحدث كل من شاهبور بختيار ومهدي بازركان في الاتجاه ذاته، والموضوع نفسه»[1].

يمكن القول إن فتح البلاد في اتجاه الديمقراطية هي مهمة ثقيلة يعسر القيام بها بالنسبة لأي شاب، ولا شك أن الشاه بحكمته لم يكن غافلًا عن مخاطر ركوبه هو نفسه لهذا الانتقال. ومن الواضح بالنسبة إلي أنني لو كنت على علم بمرض الشاه بصفتي وزيرًا للخارجية البريطانية، وكذلك سيروس فانس وزير خارجية الولايات المتحدة ونحن في طهران بمناسبة عقد اجتماع «منظمة الحلف المركزي» أو حلف بغداد CENTO في 14 أيار/ مايو 1977م لكان ذلك فرصة لنا لدعوة الشاه للبدء بمسار من الإصلاحات الديمقراطية من أجل إرساء ملكية دستورية يرثها ابنه من بعده. ولو كنت أعلم أن الشاه مريض جدًا لكنت تحدثت معه

(1) المصدر السابق، ص 268.

حول الملكية في إسبانيا وهو بلد يعرفه جيدًا. ففي صيف تلك السنة تحديدًا زرت مدريد، وكانت لحظة تمكنت فيها إسبانيا من التحول بسلام من الفاشية إلى الديمقراطية. حيث كان من المنتظر أن يتولى الملك خوان كارلوس الذي عيَّنته الجنرال فرانكو لحكم البلاد باعتباره ملكًا دستوريًّا، وقد قبل الملك ذلك لتكون أمامه فرصة لإظهار تمسكه بالديمقراطية بشكل واضح لا لبس فيه أمام الجيش، عندما تمّت محاولة انقلاب عسكرية. كان من الممكن أن يحدث تحول نحو الملكية الدستورية في إيران أيضًا، وكان شاه إيران محتاجًا لمن يقنعه من الأميركيين أو البريطانيين بضرورة الإسراع في اتجاه الديمقراطية ووضع جدول زمني لذلك، بسبب من مرضه. كان انتقالًا ممكنًا وقابلًا للإنجاز في إيران، غير أن الأمر التراجيدي هو أن ذلك لم يحصل قط، وكان عليه في هذه الحال أن يقوم بنقل حقيقي للسلطة إلى الوزراء والبرلمان والشعب.

غير أنه منذ تشرين الثاني/ نوفمبر 1973م، تاريخ إدراكه الفعلي فيما يبدو لتضخم الطحال، فكر الشاه في تشكيل مجلس للعرش تكون كل الصلاحيات فيه بيد زوجته إلى أن يدرك ابنه السن التي تخوِّله الصعود على العرش. وفي(1977 ـ 1978م) حينما اتسعت رقعة الاضطرابات الداخلية، كان على الشاه إعلان بأنه في حاجة إلى السفر إلى الخارج لتلقي رعاية طبية متخصصة، ولو ضخم حالته الصحية بعض الشيء، كان عليه أن ينتهز هذه الفرصة ليعلن تكوين مجلس للعرش، مختلف عن ذلك الذي فكر فيه في البدء، مجلسًا يكون متمتعًا بصلاحيات حقيقية بأيدي الزعماء السياسيين المكلفين بالشروع في مسار الإصلاحات الديمقراطية، كان من شأن غيابه عن البلاد أن يخلق مناخًا سياسيًّا مغايرًا يسمح بقيام ملكية دستورية في مناخ من التطور السلمي.

لما كان مرض الشاه أمرًا سريًّا بشكل مطلق، فإن هذا الموضوع لم يطرح البتة عندما التقيته أنا وبقية الحلفاء الغربيين في اجتماعنا في طهران في أيار/ مايو 1977م. بل على النقيض، حضرنا استعراضًا على قدر كبير من الإسراف والبذخ الزائد لملكية واثقة في نفسها في مدينة برسيبوليس قبل ستة أشهر، حيث استدعى الشاه وزراء خارجية السنتو أو منظمة الحلف المركزي للغداء في قصر نيافاران، كان غداء باذخًا مسرفًا. ولا يحتاج المرء إلى استبصار كبير ليشعر بأن الملك أمسى بعيدًا عن شعبه.

إن إيران التي تعاملت معها بصفتي وزيرًا للخارجية كانت مختلفة عن تلك التي عرفتها بشكل جيد أول مرة وأنا طالب في 1959م في طريق الذهاب إلى أفغانستان وراجعًا منها،

ومرة ثانية وأنا برلماني بريطاني في 1966م. ففي 1977م صارت هذه البلد غير قابلة لأن أتعرف عليه لما عرفته من تصاعد في القوة والثروة والتطور، كما أن منزلة إيران الخارجية بدت أكثر قوة بما أنها تنتج حوالي 12 بالمئة من البترول العالمي، وتسد حوالي 16 بالمئة من حاجيات بريطانيا من هذه المادة، كانت شركة بريتيش بتروليوم تحصل على ما بين 40 و50 بالمئة من مخزونها من النفط من إيران. وبفضل هذا الدخل الكبير من الذهب الأسود صارت إيران أحد أكبر الموردين للمنتوجات البريطانية، كنا نبيع الإيرانيين بحوالي 200 مليون جنيه إسترليني سنويًا في 1977م من المنتجات الصناعية والسيارات والتجهيزات العسكرية، إضافة إلى 750 دبابة شيفتاين و250 دبابة سكوربيون.

ولما كان الشاه يسير في مسار تصاعدي من الأتوقراطية وعدم التسامح، بدا إنه من الواضح أن بريطانيا تعرِّض بكل سهولة علاقتها معه إلى الخطر، إذا ما واصل الاعتقاد بأنه يستطيع الاستمرار فيما يعتبره هو تاريخ طويل من التطفل. لقد اختارت المملكة المتحدة في أواخر الستينيات ألا تنشر جهازها الاستخباراتي الخاص في إيران، لشعورها بأنه لا خيار لديها غير التعويل على جهاز الاستخبارات الإيراني السافاك، وكان ذلك خطأً منًّا تبيناه لاحقًا، إذ كان علينا أن نشكل وحدة منفصلة لتحليل الوضع الاستخباراتي الإيراني داخل جهاز الاستخبارات البريطاني في لندن. كان من شأن وجود مثل هذه الوحدة أن تكون ذات فائدة كبيرة في أي وقت نحتاجه، وخصوصًا في الوقت العصيب من سنة (1977 ـ 1978م)، كما كان بإمكانها أن تساعد على وجود علاقات أوثق مع الموساد الإسرائيلي.

تبادلنا المحادثات المنفردة التي جمعتني بشاه إيران في أيار/ مايو 1977م أطراف الحديث حول مواضيع مختلفة إقليمية وعامة. وكنت متحمسًا جدًّا لإقناعه بضرورة استعمال قوته البترولية ضد جنوب أفريقيا من أجل استقلال ناميبيا، وحكم الأغلبية في روديسيا. كما تناقشت ونظرائي عما إذا كان من المفيد التعبير عن قلقنا بالوضع الداخلي في إيران. كنت شخصيًّا مهتمًا بانتهاك حقوق الإنسان، وسعيت إلى التعبير عن قلقي الشخصي فخاطبت شاه إيران قائلًا: «بالرغم من أنني لا أريد أن أفرض وجهات النظر البريطانية حول إيران، فإجراءاته نحو الليبيرالية قد قوبلت في بريطانيا بترحيب جيد، وبالتالي ستخف الانتقادات إذا ما تحسنت شروط اعتقال السجناء الإيرانيين، وفتحت السجون بانتظام للجمهور». وفي الحقيقة بالرغم من أني لن أتوقف حول هذه النقطة طويلًا، كنت متأكدًا من أنني لم أترك شكًا لديه حول قوة مشاعري تجاه هذه القضايا، ولم ألحظ أي رد فعل سلبي منه في ذلك الوقت ولا حتى بعده.

لقد عزَّز الاجتماع في ذهني صورة القائد القوي الذي لا يقرب حتى من بعيد للشاه المرتجف المتردد في 1953م. أنا أعترف بأن تلك الصورة الواثقة بالنفس والحازمة ظلت معي سنة 1978م عندما ناقشنا بما يجب القيام به لدعم نظام الشاه، لكن ذاك كان خطأ. فالناس الذين لديهم ميل للتذبذب نادرًا جدًّا ما يتغيرون، وعلاوة على ذلك كان لا يزال غير فعَّال وضعيف، وخطئي الكبير كان الخضوع لصورة الشاه التي رسمها لنفسه بعناية.

تعتقد فرح بهلوي أن الشاه خطّط لتسريع عملية التحرر في إيران. ففي منتصف صيف 1977م، وبهدف جعل الأمر واضحًا للوطن بأن وقت التغيير كان قد حلَّ، غيَّر الشاه رئيس الوزراء أمير عباس هويدا، الذي شغل هذا المنصب لفترة طويلة، بجمشيد أموزيغار أمين عام حزب النهضة الوطني. وتصف فرح أموزيغار بأنه: «رجل مثقف ولامع ويحظى بنزاهة كبيرة جدًّا». أما المشكل بالنسبة لأموزيغار وحزبه، فهو إنه عند ظهوره في البداية للعلن كان الشاه قد ألغى كل مظاهر التعددية السياسية. لقد جعل نفسه محور كل السلط، وأصبح موصل البرق لكافة مشاكل البلد. وهذا يعني أنه سنة 1977م لا الحزب ولا حديث الشاه عن عملية التحرر حُملا على محمل الجدِّ من قبل منتقديه.

لقد لاحظ الشاه أيضًا أن طرد هويدا لم يكن فقط غير مجد بل له نتائج جانبية أخرى. لقد أظهر أن أولئك الذين كانوا موالين للشاه لا يستطيعون التعويل على ولائه هو في المقابل. فالشاه لم يثق في أي شخص من خارج دائرته المباشرة، ومثل العديد من قادة الحكومات الذين وُصفوا في هذا الكتاب، كان الشاه نزَّاع إلى الشكِّ، يعاني الريبة قريبًا من نهاية الحكم ومكتئبًا بشكل كبير. فلم يحاول أبدًا إقناع الحداثيين بأنه كان مستعدًا للانتقال إلى مرحلة الملكية الدستورية، لأن في الحقيقة هو ذاته لم يكن مقتنعًا بذلك. فسياسة التحرر التي بدأها الشاه سنة 1977م جاءت كرد فعل على الاهتمام العالمي بحقوق الإنسان، والتي تزامنت مع الفترة التي كنت فيها وزيرًا للشؤون الخارجية. ففي حين أنها كانت بالتأكيد مشرفة لي ولإدارة كارتر القادمة، إلا أننا لم نفرضها عليه. فالمؤيدون للشاه لم يتوقفوا أبدًا عن لوم الرئيس كارتر على سقوط الشاه. لكن إحقاقًا للحق، كما كان تأكيد كارتر على حقوق الإنسان ردُّ فعل على اتجاهات في الرأي كانت واضحة في الأصل في العالم، فقد تصرف الشاه وفقًا لتلك الاتجاهات كذلك، حيث فتح سجون إيران للتفقد أمام الصليب الأحمر الدولي.

ثورة آية الله

في آب/ أغسطس من سنة 1977م كان الشاه بصدد تحمّل علاجه الطبي بطريقة جيدة، لكن وبحلول تشرين الأول/ أكتوبر كان استياء الرأي العام واضحًا. ففي معهد غوته في طهران كان الإقبال على الأدب الذي ينتقد النظام قد انجذبت إليه أعداد كبيرة وعلى نحو مذهل، أعقب ذلك تظاهر طلابي في تشرين الثاني/ نوفمبر علنًا في طهران ضدَّ الشاه قبل زيارته للرئيس جيمي كارتر. وفي واشنطن تطورت مظاهرة لطالب إيراني خارج البيت الأبيض إلى نحو عنيف جدًّا، لدرجة استعمل فيها الغاز المسيل للدموع، مما جعل الدخان المتصاعد يصل لحديقة البيت الأبيض، حيث كانت تقام حفلة الاستقبال، فسالت دموع المشاركين.

في 31 كانون الأول/ ديسمبر أغدق كارتر خلال زيارته لإيران على الشاه تحية مبالغًا فيها وتقييم عبثي متفائل بكل عبثية للسنة قدمًا. وفي كانون الثاني/ يناير من سنة 1978م، نُشر مقال في صحيفة إطلاعات اليومية يتعرض الى آية الله الخميني ويتهمه بكونه مغامرًا وغير مؤمن. أحست الحكومة البريطانية أن الشاه قد يكون هو من سمح بنشر هذا المقال في تصرّف شديد الغباء. فقد كانت هناك أعمال شغب في مدينة قم الدينية، حيث قتل بعض المتظاهرين ولعلها الشرارة التي أشعلت الثورة لحظة اجتماع القوات المناوئة للشاه بزخم مع حضور الإسلام الأصولي في المقدمة.

إن المعارضة الراسخة تمثلت في أولئك الذين اعتبروا الخميني ـ الذين نُفيوا فيما بعد إلى العراق ـ رمزًا لهم، في حين أن آخرين احتشدوا حول ساسة الجبهة الوطنية أمثال شابور بختيار، ومهدي بزرغان. كان تجار البازار مترددين في معارضتهم، لكن الأمور بدت أكثر جدية عندما بدأوا بتمويل المساجد، كان سكان المدينة هم أكبر عنصر من عناصر المعارضة والذين هم أقل تنظيمًا بعد أن أصبحوا قلقين بسبب نمو التضخم. أعطت كل مصادر معارضة الشاه هذه إحساسًا بأن مبادرة «الحضارة العظمى» قد طويت. لقد تجسّد ذلك يوميًّا من خلال سلسلة من الانقطاعات في الطاقة الكهربائية، مما يدل على مدى الفشل الذريع للمخططين لجعل توفير الكهرباء كافيًا.

تتابعت المظاهرات في مدينة قم بعد فترات منفصلة بأربعين يومًا، وهو تقليد شيعي في إحياء ذكرى الوفاة. وفي أواسط شهر شباط/ فبراير كانت هناك أعمال شغب في تبريز حيث

استعملت الدبابات. وفي أيار/ مايو تواصلت أعمال الشغب في طهران. أما في حزيران/ يونيو فقد طرد الشاه رئيس السافاك الجنرال نعمة الله نصيري. وفي أواخر تموز/ يوليو كانت هناك اضطرابات في مدينة مشهد، كما أعلنت الأحكام العرفية في أصفهان في شهر آب/ أغسطس، ووعد الشاه بمزيد من التحرر قائلًا: «إن الانتخابات من أجل برلمان جديد والمقررة في شهر حزيران/ يونيو من سنة 1979م ستكون حرة تمامًا، وإن القانون المتصل بذلك سيعرض على البرلمان للمناقشة». غير أن القليل جدًّا صدَّق وعود الشاه.

كان لا بدَّ لحكومات الولايات المتحدة والمملكة المتحدة أن تخلص ذاك الصيف إلى أن الشاه نفسه لا يمكن أن يكون وسيلة لاستعادة القانون والنظام، ويجب أن ينضم كلاهما للضغط عليه كي يرحل على الفور. لقد كان الشاه آنذاك مجرد سفينة فارغة. فلم يكن هناك توجيه فعَّال للسياسة في طهران من قِبَله أو من قبل رئيس الوزراء. فعلى سبيل المثال كان ينبغي أن يكون لدى الشاه فنّيين ضمن الجيش الإيراني، قد تدربوا منذ فترة طويلة قبل الأزمة كي يضمنوا تدفّق النفط إذا ما حدث اضطراب في حقوله، ولذلك كانت هناك حاجة إلى خطة طوارئ. كان التعويل على جلب خبراء أجانب إلى إيران في وقت كان فيه كره الأجانب الملوَّث بالدين يتنامى تصاعديًّا أمرًا غبيًا. ففي غضون هذا الحدث، جاء الإغلاق الفعلي لحقول النفط بمثابة صدمة داخل وخارج إيران. فبحلول نهاية شهر تشرين الأول/ أكتوبر من سنة 1978م انخفض إنتاج النفط من 6 ملايين إلى ما يزيد قليلًا على مليون برميل يوميًّا.

لو علمنا بمرضه كانت ضغوط الحكومات الغربية عليه ليرحل ستكون أقوى، حيث ما كان ليرحل أبدًا دون ذاك النفوذ. سبب بقائه في طهران هو نتيجة لواحدة من أصل أربع مشاكل رئيسة، وهي الفشل في تطوير جبهة غربية موحّدة. فحتّى وقت متأخر من شهر تشرين الأول/ أكتوبر كانت الإدارة الأميركية لا تزال منقسمة حول أسئلة رئيسية من قبيل ما إذا كان يجب إعطاء الحكومة الإيرانية أجهزة للتحكم بالحشود. فالشاه فاتح الحكومة البريطانية بالفعل للحصول على الغاز المسيل للدموع، والذي من الممكن أن يستعمل ضدَّ المتظاهرين، ووافقنا على تزويده بذلك شعورًا منّا بأن استخدامها سيكون أقل من استخدام الدبابات، والتي من الممكن أن تكون قد صنعت في المملكة المتحدة، إلا أن وليام ساليفان، السفير الأميركي في طهران ووزير الخارجية، عارض عملية التزويد، في حين أن زبيغنيو بريجنسكي، مستشار كارتر لشؤون الأمن القومي، أيّدها.

اتخذت إدارة كارتر في أواخر شهر تشرين الثاني/ نوفمبر قرارًا غريبًا جدًّا، وذلك بتعيين جورج بول كمستشار خارجي، ويعترف بريجنسكي بأن ذلك خطأه[1]. فبول كان رجلاً مميزًا وصاحب سجل ليبرالي طويل، حيث حظي في وقت سابق بتعيين سياسي في وزارة الخارجية، والذي أدَّت مشاركته إلى احتدام الخلاف الداخلي بين بريجنسكي وسيرس فانس حول ما إذا كان يجب على الولايات المتحدة دعم تدخل عسكري من قبل القوات المسلحة الإيرانية.

انتقد بريجنسكي بشدة تردد وزارة الخارجية في الضغط على الشاه لتأكيد سلطته الفعلية وتسويف ذلك أثناء ما تضعف سلطته. حتى أنه صرَّح بحلول شهر كانون الثاني/ يناير من سنة 1979م أن «الصفوف الدنيا من الدولة كانت في المكتب الإيراني تشجع وبوضوح مناوئي الشاه»[2]. ومن الواضح أنه ومن خلال استعادة شريط الماضي، فإن القطيعة بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية كانت أسوأ مما كنت أتصوره في ذاك الوقت. ففي 29 كانون الأول/ ديسمبر من سنة 1978م وأثناء حضوري مراسم تشييع الرئيس هوّاري بومدين في العاصمة الجزائرية، أبرق لي دبلوماسيون في وزارة الخارجية مسودة برقية لإرسالها الى فانس أعبِّر فيها عن معارضتي للصرامة العسكرية الإيرانية، وهو ما يحبذه بريجنسكي. لقد كنت غير مقتنع ورفضت إرسال البرقية المقترحة. لقد كنت استبعدت تأييد أي حلول لمحنة الشاه، فهذه الأزمة كان لا يمكن حلها من الآن فصاعدًا إلا في طهران. حيث على الشاه والجيش أن يقرِّرا ما إذا كان يجب التضييق. وفي الحقيقة فقد راوغ وقرر عدم فعل ذلك وكتب في وقت لاحق مبررًا لنفسه:

> **يمكن لملك ألا ينقذ عرشه من خلال إراقة دماء مواطنيه، غير أن دكتاتورًا يمكنه ذلك لأنه يتصرف وفقًا لأيديولوجية يعتقد فيها بأنه يجب أن تنتصر مهما كان الثمن، لكن الملك ليس بدكتاتور. فالدكتاتور ليس لديه أي شيء ليسلمه لأن السلطة تكمن لديه، ولديه فقط، أمّا الملك فيتسلم التاج وواجبه هو أن يمرره**[3].

ولذا ارتأيت أن من مصلحة لندن، بأنه بدا أن على إيران التي وصلت مرحلة من العلاقات

(1) Zbigniew Brzezinski, **Power and Principle: Memoirs of the National Security Adviser 1977-1981** (New York: Farrar, Straus & Giroux, 1983), p. 370.

(2) المصدر السابق، ص 396.

(3) Mohammed Reza Pahlavi, **The Shah's Story** (London: Michael Joseph, 1980), p. 182.

الدولية حيث بات على الدولة أن تحدد مصيرها بنفسها. ففي تلك الوضعية المربكة كنت ملتزمًا بالمقولة البحرية القديمة: «عندما يكون هناك ضباب، خفِّض سرعتك لكن لا تغيّر مسارك» ولكن بالرغم ذلك وحتى في اللحظة المتأخرة من سنة 1978م لو علمت بمرض الشاه لكنت قد أعلمت فانس على الفور. لقد كان على الحكومة الأميركية والبريطانية التحرك بشكل حاسم لإجبار الشاه على إعلان مرضه أمام العامة، ومغادرة طهران وتعيين وصاية.

بازدياد الأزمة الإيرانية سوءًا، ما هي مسؤولية أطباء الشاه سيما وأنهم الأشخاص الوحيدون الذين هم على بيِّنة من حالته الصحية تجاه الدول الصديقة، لتجعل من الخبر سرًا مكتومًا؟. لقد كانوا تقريبًا على جهل بصعوبة الوضع السياسي الذي وجد مريضهم نفسه فيه. لقد كانت لديهم، ولعدة أشهر، معرفة شخصية بالاضطرابات السياسية في طهران. فلقد واجهوا صعوبات في إحدى الحوادث بالعودة إلى القصر الملكي، حيث كانوا في الشارع بانتظار الدكتور سفافيان على أمل أن تأتي سيارة الجنرال أيادي لتساعدهم على المرور عبر الجنود. وحتى حدود سنة 1978م، أثناء رحلات متلاحقة، واجه الدكتور فلادرين المشكل نفسه إلى جانب مشاكل أخرى والتي أصبحت أكثر فأكثر تواترًا. كما تسبب أيضًا تنازل أيادي عن منصب طبيب الشاه في التراجع التدريجي للمنظمة التي كانت قد خدمت الأطباء الفرنسيين، وأيضًا رغبة الشاه في السرية. فزياراتهم أصبحت أكثر وأكثر صعوبة بما أن فلاندرين لم يعد بإمكانه استخدام المقر السري، حيث اعتاد الإقامة هناك. وعوضًا عن ذلك كان عليه الذهاب الى فندق وملازمة غرفته بسبب الاضطرابات، مشاكل الكهرباء، والمظاهرات السرية والتي تتحول أحيانًا إلى أعمال شغب.

أما فيما يتعلق بالشاه فقد ظل مهذبًا مثل أي وقت مضى، لكن فلادرين لاحظ أن أوقات الفحوصات أصبحت أقصر، وخاصة أثناء اجتماعاتهم الأخيرة، حيث يمكنه أن يتحسس الضغوطات المسلطة على الشاه. أما على الصعيد الطبي فقد انصبت النقاشات أساسًا على أنواع مهدئات الأعصاب التي يجب أو لا يجب أن توصف له. لقد كان سافافيان عادة وليس دائمًا قريبًا من فلادرين أثناء تلك الفحوصات التي تمت في إيران. كانت زيارة فلادرين الأخيرة في أواخر شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة 1978م. لقد زار الشاه تسع وثلاثين مرة من بينهم خمسة وثلاثين داخل إيران. وخلال هذه الفرصة، كان من الصعب تقريبًا التعرف على الشاه، فقد كان من الواضح أنه يعاني من توتر مروِّع. فهو لا يستطيع التوقف عن الاستماع الى أخبار الراديو عندما كان فلادرين بصدد علاجه.

هل كان على الأطباء في هذه المرحلة المتأخرة أن يقترحوا على الشاه أن يخبر الشعب الإيراني بحقيقة مرضه؟ هل كان على الأطباء الفرنسيين إعادة مراجعة قرارهم الهادف لإخفاء خبر مرض الشاه على جيسكار ديستان؟ فالرهانات السياسية لم يكن بالإمكان أن تكون أهمّ من ذلك. فمن غير المعتاد أن يتصرف الأطباء المزاولين للعمل على طريقة الساسة، لأن هدف الأطباء هو التركيز على شيء واحد، وهو ما هو جيد لمرضاهم. وهل هو تجاوز لحدود مهنة الطب أن يطلب منهم أن يصدروا أحكامًا سياسية في مسائل متفجرة ومعقدة؟ ولكن الأطباء هم مواطنون مثل أي شخص آخر، وبذلك لا يستطيعون الانسحاب تمامًا من المجتمع الذي يعيشون فيه. لذلك يجب على الأطباء أن يكونوا على استعداد للإقرار بأن لديهم مسؤولية تجاه وطنهم تتجاوز مسؤوليتهم تجاه مرضاهم. فَقَسم أبقراط ليس أمرًا مطلقًا، ففي حالات نادرة جدًّا يجب أن تكون هناك استثناءات.

لم يكن باستطاعة الأطباء الإيرانيين فعل أي شيء غير أن وضع الأطباء الفرنسيين كان مختلفًا. لقد أخبرني فلادرين بأنه لم يطلع حكومته بذلك. كما إني لا أعلم ما إذا كان البروفسور برنارد أو البروفسور ملياز قد استخدما موقعهما المميز في الحياة الفرنسية لإخبار جيسكار ديستان. وعلى أية حال من الأحوال فإن موقفهما تجاه الوضع السياسي في إيران لو عكس موقف الصحافة الفرنسية والرأي العام في باريس بوجه عام، لكان أكثر تعقيدًا وتناقضًا عن لو كانا يمتهنان مهنة الطب في واشنطن أو لندن.فلقد أعطت حكومة جيسكار ديستان انطباعًا بأنها تتهرب من المراهنة على الشاه، وكانت على اتصال وثيق بآية الله الخميني الذي كان يقيم في فرنسا حينها. من الممكن أن يكون هذا ما جعل الأمر أقل وضوحًا للأطباء الفرنسيين، بأنه يتحتَّم عليهم إخبار الرئيس بمرض الشاه، بالتالي خرق قسم أبقراط.

في كتاب وليام شوكروس الرائع «رحلة الشاه الأخيرة»[1] كتب هذا الأخير بأن أطباء الشاه كانوا مقتنعين بأن جهاز الاستخبارات الفرنسي لم يكن على علم بمرض الشاه. وكنت قد أكدت بأن ذلك لا يزال ادعاءهم. لقد ذكر رشارد هالمز وهو السفير الأميركي السابق لدى إيران ورئيس سابق لوكالة الاستخبارات الأميركية والذي يحظى بعلاقات واسعة داخل

(1) William Shawcross, **The Shah's Last Ride: The Story of the Exile, Misadventures and Death of the Emperor** (London: Chatto and Windus, 1989).

جهاز المخابرات الفرنسية، بأنه مقتنع من خلال تحقيقاته الخاصة بأن المخابرات الفرنسية لم تعلم بأن الشاه كان في حالة حرجة، وأكَّد قبل وفاته بأن وكالة المخابرات الأميركية أيضًا لم تكن تعلم، بالإضافة إلى ذلك وحسب شوكروس فلا الموساد ولا السافاك ولا جهاز المخابرات البريطاني، علموا بذلك أبدًا. ففي تلك الفترة كنت مسؤولًا عن جهاز المخابرات البريطاني، وأنا من جهتي مقتنع بأن الجهاز لم يعلم بالأمر.

لقد نبّه دبلوماسي سوفياتي نظيره الأميركي والذي اعتاد تناول الطعام معه بانتظام في أحد المطاعم بطهران سنة 1978م بأن الشاه مصاب بمرض السرطان، لكن يبدو أن السفارة الأميركية رفضت ذلك، وعلّقت على النحو التالي: «لقد انتشرت هذه الشائعة في عديد الدوائر، ويبدو أنها من وحي خيال السوفيات». فمن الممكن أن جهاز الاستخبارات السوفياتية لم يعلم بذلك، فبالرغم من ظهور العديد من التسجيلات لجهاز الكي.جي. بي خلال حقبة يلتسين، فإن هذه الإشاعة وإلى الآن لم يقع تأكيدها. أما وزير الخارجية السوفياتي آنذاك، أندري غروسيكو، الذي ناقشت معه موضوع الشاه فإنه ـ ومن الغريب ـ لم يقل لي أي شيء يعرفه عن مرض الشاه. ولا توجد سجلات عامة لدى مخابرات ألمانيا الشرقية تؤكد معرفتها لذلك، ولو كانت مخابرات ألمانيا الغربية قد علمت، فإني أعتقد أن وزير الخارجية الألماني هانز ديتريتش جانشر كان سيعلمني أنا وفانس خلال واحدة من لقاءاتنا الرباعية الكثيرة.

في لندن وفي أواخر سنة 1979م قال لي وزير الخارجية الفرنسي الأسبق لويس غيرانغو عندما كان كلانا خارج السلطة: بأنه كان قد أخبرني بمرض الشاه خلال السنة التي سبقت ذاك التاريخ، وقد جادلته في الحين حول تلك المسألة لعلمي بأنه كان مخطئًا، فلا يمكن لأي شخص تدرب على مهنة الطب أن ينسى خبرًا بهذه الأهمية. فلو كان غيرانغو قد أخبرني لحصلت أشياء كثيرة في ذهني، ولبدأت أنظر الى الشاه على أنه مريض وليس قائد حكومته فحسب. لكن لماذا، إن لم يكن لمجرد أسباب مختالة، كان على غيرانغو أن يدَّعي بأن الحكومة الفرنسية قد علمت بذلك خلال صيف 1978م على الأقل؟ لقد كان رجلًا صادقًا وقد تكوَّنت بيننا صداقة من خلال عملنا معًا لمدة سنتين.

لقد جاء التأكيد المثير للاهتمام بأن الفرنسيين كانوا على علم بمرض الشاه من لدن السفير البريطاني السابق لدى طهران السير دونيس رايت، الذي عمل في مجلس إدارة رويال

داتش شال بعد تقاعده من الخدمة الدبلوماسية. وقد كشف التقارب في برنامج إعادة بناء سيناريو سقوط الشاه الذي بثه راديو بي.بي. سي بأن كانت لعضو مجلس الإدارة الذي كان رجلًا فرنسيًّا، وسفيرًا سابقًا لدى موسكو، وحاكم بنك فرنسا اتصالات جيدة في باريس. وقد أخبر هذا الشخص رايت بأنه كان علم بأن الشاه كان في حالة صحية حرجة. كما ذكر رايت بأنه كان زار الشاه مباشرة بعد تلك المحادثة، لكنه لم يكن قد عثر على أي دليل خلال ذاك الاجتماع عن مرض الشاه، لذلك لم يستمر في بحثه.

وبعد اعتلاء جيسكار ديستان سدة الحكم في فرنسا بوقت طويل، سُئل ذات يوم أثناء حفل عشاء عما إذا كان على علم بمرض الشاه، فأجاب: بأنه كان يعلم بطريقة «غير مباشرة». ربما كان الرئيس ووزير خارجيته يعلمان فعلًا، واختارا عدم إعلام الاستخبارات ظنًّا منهما أن الأمر يتعلق بالمصالح الأميركية والبريطانية بالأساس. وعلى العموم أعتقد أن هذا هو ما حدث على الرغم من أنه ليس لدي أي فكرة عن الطريقة غير المباشرة التي علم الرئيس الفرنسي بها عن الشاه، وذلك ما يفسر سبب قرار جيسكار ديستان السماح ببقاء الخميني في فرنسا أثناء الأزمة في طهران. وقد كان رئيس جهاز الاستخبارات الفرنسي مستاء جدًّا من ذلك، وهو ما يدعم الرأي القائل: بأن ذلك كان قرارًا من الرئيس جيسكار ديستان، وبأن فرنسا قد تستفيد من إيوائها له. فالمصلحة البريطانية تكمن في إقناع أصدقائنا في المنطقة بأننا كنا حلفاء مخلصين ولم نتخلّ عن دعمنا للشاه بسبب الظروف الصعبة فحسب. وفي الأخير فإني أشك في أن فرنسا قد كسبت الكثير اقتصاديًّا أو سياسيًّا عندما عاد الخميني إلى إيران.

النهاية

غادر الشاه طهران في 16 كانون الثاني/ يناير 1979م في زيارة للقاء أنور السادات في مصر، ومن ثم التوجه إلى المغرب حيث تعكَّرت حالته الصحية بطريقة سيئة، وزاره الدكتور فلادرين هناك مرتين. لقد غادر إيران اعتقادًا منه بأنه يمكنه السيطرة على الأوضاع من الخارج، لكن الحقيقة هي أنه لم يكن باستطاعته استعادة العرش. ففي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين التفَّت ثلَّة من المثقفين، تجار البازار ورجال الدين أكثر من مرة وجنبًا إلى جنب لإجبار شاهات الحقبة القاجارية على تسليم سلطتهم أو التنحي، لكن الشاه لم يكن قد فهم الدرس من التاريخ، وفَقَد دعم كل تلك العناصر. الأهم من ذلك هو أنه

أساء تقدير نفوذ رجال الدين كما أساء البريطانيون والأميركيون باستمرار التقدير بأن آية الله الخميني كان بصدد بناء علاقة تواصل ووئام عندما كان في المنفى. بقي الشاه مصرًّا على التباكي على الملكية الوراثية دون الاعتراف على ما يبدو بأن عدد الملكيات التي احتفظت بسلطة تنفيذية عليا كان قليلًا جدًّا. فملكيات معظم الدول هو رهن تمسكها فقط بسلطة تنفيذية ضئيلة أو معدومة، وتمثل بدلًا من ذلك الاستمرارية الدستورية والاستقرار.

وصل الخميني إلى طهران في الحادي عشر من شباط/ فبراير قادمًا من باريس. فامتلأت الشوارع بجماهير الشعب والجيش الإيراني الذي كان مختالًا فيما مضى، وانهار بسهولة. ونيابة عن الحكومة البريطانية، أبرقت إلى سفيرنا في طهران من خلال اليخت الملكي في الخليج ليعترف رسميًّا بالنظام الجديد، بينما كنت مسافرًا مع الملكة أثناء زيارتها إلى المملكة العربية السعودية. لقد كان القادة السعوديين مترددين جدًّا، لكنهم سعداء بأن بريطانيا لم تكن تخلَّت عن رهانها على الشاه.

جرى إنشاء لجان ثورية في جميع أنحاء إيران، وزُج في السجن بأي شخص مرتبط بنظام الشاه. لقد كان رئيس الوزراء الجديد مهدي بزرقان غير قادر على التدخل. عقدَت محاكمات بإجراءات موجزة، وأُعدِم الناس أمام العامة. كما حُوكِم رئيس الوزراء السابق أمير عباس هويدا فصدر حكم بإعدامه، وفي غضون دقائق أُطلق عليه النار في زنزانته في السجن. لقد نشرت مجلة باريس ماتش صورة لجثته بصحبة ثلاث من الثوار، حيث يظهر أحدهم مبتسمًا ملء ثغره، وهو ممسك بندقية، وبالمقابل كانت هناك إحدى الصور لعائلة الشاه وهي بصدد السباحة في جزر البهاماس، حيث حطَّ الشاه رحاله هناك قادمًا من المغرب على متن طائرة البوينغ 747 الخاصة بالملك الحسن.

ما مدى الدور الذي لعبه المرض في سقوط الشاه؟ وما مدى مساهمة سياساته وشخصيته في ذلك؟ الدكتور سافافيان لم يتحدث أبدًا علنًا، لكنه سمح لي أن أنقل رأيه بأن المتابعة الطبّية لمرض الشاه خلال فترة علاجه في طهران وإلى غاية شهر كانون الثاني/ يناير من سنة 1979م كانت على درجة كبيرة من الجودة، وهو ما كان من الممكن ألا يؤدي إلى تردّد وتذبذب الشاه. كما يعتقد فلادرين أيضًا أن مرض الشاه لم يؤثر بشكل كبير على قراراته خلال السنوات الأخيرة الماضية لنظامه، وأنه لم يكن عاملًا في جعله يبطِّئ في الاعتراف بالاضطرابات المأساوية المتنامية في بلده.

وفيما يتعلق بحالة ضغط دمه والتي شُخصت انطلاقًا من شرائح الدم واختبارات أخرى، فهي بطبيعة الحال صحيحة. ولكن تطوّر الورم اللمفاوي لديه، وهو أمر من الممكن التفطن له، وإمكانية تحوله إلى سرطان خبيث للغاية، وهو ما أُطلق عليه اسم لمفوسركوما[1] لاحقًا، من الممكن أن له تأثيرًا على قدراته في اتخاذ القرارات. فقصة حياة الشاه هي حالة نموذجية ذات فرضيتين ـ التوتر والسرطان ـ حيث يفاقم إحداهما الآخر. هناك بعض الأدلة العلمية الموجودة التي تؤكد أن العوامل النفسية والاجتماعية، بما في ذلك التغيرات الحياتية المليئة بالتوتر، يمكن أن تكون مثيرات غير «محددة» تسمح لبؤرة الخلايا السرطانية الموجودة فعليًّا بأن تتكاثر وتنتشر بمعدل أسرع بكثير مما هو متوقع، وهو ما كان قد نوقش لعلاقته بموضوع نيفيل تشامبرلين في الفصل الأول. من المحتمل جدًّا أنه وفي حالة الشاه كان هناك تفاعل من هذا القبيل. فوصف فلادرين لحياة الشاه في شهورها القليلة الأخيرة في طهران لا تترك مجالًا للشك بأنه كان منهكًا وتحت تأثير ضغوط كبيرة. فالزوار يصفونه بأنه ذاهل ومكتئب، ويتساءل لماذا كان يحدث له كل هذا؟.

كان فلادرين مهتمًا بشخصية الشاه وما يقبع وراء الصورة الرسمية. لقد استضافه أسد الله علم في منزله في جبال شرق إيران، وهو رجل قادر أكثر من أي كان على تجاوز تردد الشاه في الماضي. لقد تكلم علم كثيرًا عن نفسه وعن الشاه. ففيما يتعلق بموضوع شخصية الشاه، وصف علم لفلاديرين بعض الصفات المتناقضة «من الغريب التفكير بأن هذا الرجل الذي اعتلى سلطة من هذا القبيل، يمكن أن يكون لا يزال ساذجًا بما فيه الكفاية في بعض الأحيان ليصدق ما أخبره به الناس». ومن ناحية أخرى فقد قال: إن الشاه كان: «متعوّدًا على لعب دور الملك منذ الطفولة (وهو ما يسمى بالشاه) وأن له قدرة عجيبة على إخفاء ما يفكر فيه، وما يعلمه كليًّا». وجاء دليل ذلك عندما كان على «علم» تقديم معلومات يعرفها، وكان الشاه سمعها من ذي قبل، لكن الشاه لم يبد أدنى إشارة تدل على معرفته لذلك. توقف علم عن أداء مهام وزير العدل في آب/ أغسطس سنة 1977م وتوفي في شهر نيسان/ أبريل سنة

(1) «المفوساركومة» هو المصطلح التقليدي للمفومة اللاهودجكينيّة (NHL). ويصعب تصنيفها حيث أن لها عدة تصنيفات، ويعتبر المسمى شائعًا أكثر من «مرض هودجكين». يُشخَّص المرض في سن السادسة والخمسين، والسبعين. ويظل سببه مجهولًا، على الرغم من ارتباطه بعدوى بكتيرية وفيروسية. وتحدد مدى حدة المرض اعتمادًا على نسبة تكاثر الخلايا اللمفية الشاذة. وتظهر أعراض على المصابين مثل تورم العقد اللمفية في الرقبة، والأُربية، والطحال أو الكبد. يعتبر العلاج الإشعاعي اختياريًا، لكن العلاج الكيميائي قد يكون ضروريًا. كما تستخدم «زراعة نخاع العظم» كعلاج لها.

1978م. إنه أمر مأساوي ألا يكون الرجل الذي كان قد جعل من الشاه يبدو حاسمًا سنة 1963م على قيد الحياة عندما احتاج إليه أكثر من أي وقت، وخاصة بداية من صيف سنة 1978م عندما كان مرض الشاه بصدد مفاقمة طبيعته المترددة أساسًا.

وبالعودة للنظر إلى تلك السنوات وبالاستماع من جديد لكثير من الناس الذين كانوا يحيطون بالشاه في ذاك الوقت، فأنا مقتنع بأن سقوط هذا الأخير كان بالإمكان تفاديه فقط لو أن الحكومات الغربية كانت قد علمت بمرضه. فما تمّ تناوله في السنوات القليلة الماضية من حكمه كانت خصائص وصفات مبالغ فيها، كانت موجودة لديه مسبقًا. لقد كانت السلطة جزءًا من حياته منذ سن مبكرة، وهو غير مستعد لتقاسم السلطة، ناهيك عن التخلي عنها، كما كان التردد جزءًا من حياته بالمثل. فالأعراض الطبية التي عانى منها فيما بين سنتي (1978 و1979م) التي تمثَّلت في أرق وتعب عام كانا جزءًا من اكتئاب ناجم عن رد فعل طبيعي لعملية رفضه من قبل عدد كبير من شعبه، وأيضًا بسبب مرضه أساسًا. ومن غير الممكن فصل أي من هذه العوامل عن بعضها، فكلها أسهمت في سقوطه. كان من المستحيل على الشاه التنحي عن السلطة طواعية. وقد كان لزامًا إجباره عليها من قبل الحكومات الغربية بسبب اعتلال صحته.

كان السفراء البريطانيون، مثلهم مثل سفراء الدول الأخرى، يراقبون علامات عدم الاستقرار في إيران منذ عقود. وذكرت السفارة البريطانية خلال الستينيات في طهران أن انهيار نظام الشاه من الممكن أو من غير الممكن أن يكون وشيكًا، وأبدت قلقها إزاء غزو أفكار جديدة لمجتمع ذي نمط عيش قديم، وفرض عملية تصنيع على نمط حياة تقليدي. لقد اكتوت الحكومات الغربية خلال السبعينيات باستمرار فرضية بقاء نظام الشاه من عدمها. «هل الإمبراطور بكامل ملابسه؟»، كان ذاك عنوان البرقية التي أرسلتها السفارة البريطانية في طهران في آب/ أغسطس سنة 1977م إلى مكتب الخارجية في لندن. إن النقد الحقيقي ليس لمهارات الحكومات الغربية في توقع ثورة وشيكة، بل لطريقة تعاملنا مع الشاه. لقد فشلنا في تذكر كم كان ضعيفًا قبل أن يكون مستبدًا، لقد كنا محترمين جدًا. لقد كان علينا أن نصرّ عليه ليجري إصلاحات ديمقراطية حقيقية، ويمهد الطريق لملكية دستورية بعد مشاركتنا في إسقاط محمد مصدَّق، وكما كان قد فعل فرانكو في إسبانيا، فهذه الإصلاحات كانت ضرورية ليس فقط له ولبقاء وريثه، ولكن أيضًا لبلده لكي ترفض تطرف الثورة الإسلامية.

المنفى

مع وجود الشاه في المنفى، قدم سايرس فانس في منتصف شهر آذار/ مارس من سنة 1979م ما أسماه: «واحدة من أكثر النصائح اشمئزازًا التي كان عليّ تقديمها إلى الرئيس في أية مرة» وهي أنه يجب على الشاه ألا يأتي إلى الولايات المتحدة، وبشعور مماثل بالحياء كنت أرسلت مذكرة إلى رئيس الوزراء، جيمس كالاهان بأن الشاه، الذي لم يطلب أبدًا القدوم إلى بريطانيا، يجب أن يُرفض قبوله بأدب إذا ما طلب ذلك. لم يكن هناك احترام في قراراتنا، مجرد حسابات مبيّتة لمصالح وطنية. فأخذًا بعين الاعتبار تاريخ بريطانيا الطويل في منح اللجوء السياسي، كان من المحبط أن كل أعضاء البرلمان انقلبوا الآن تمامًا على الشاه إلا القليل منهم. لقد قلت في عشرين شباط/ فبراير سنة 1979م أمام مجلس العموم بأني كنت مستعدًا لوضع سجلنا في دعم الشاه: «ليبرره التاريخ» وقد قوبل ذلك بالمرح والهزء المتقطع من أحد أعضاء البرلمان المحافظين، وهو السير بيتر تابسل قائلًا بأن: «التاريخ يمكن أن تكون لديه أمور أخرى في ذهنه». وفي مقال لإدوارد مورتيمر في مجلة: «المشاهد» قارن فيه في الواقع وبشكل إيجابي بين الثورة الفرنسية سنة 1789م وروسيا سنة 1917م ليستنتج بأنه من غير المرجَّح أن يفرض آية الله الخميني التزمت الديني على بقية الشعب الإيراني[1]. فبعد سنوات قليلة فقط، كان أولئك الذين منًا في السلطة في كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة عرضة للنقد لا بسبب الدفاع عن الشاه، بل من خلال التأكيد على حقوق الإنسان ومشاركتنا في انهياره.

وفي نهاية شهر نيسان/ أبريل من سنة 1979م وبينما كان لا يزال في جزر الباهاماس تكوَّنت لدى الشاه غدة متورمة على مستوى الرقبة. فطار الدكتور فلادرين لرؤيته وقام بتشخيص لسرطان الغدد اللمفاوية، وسحب واحدة منها وأخذ عينة أخرى من النخاع العظمي والتي أظهرت تدهور حالته[2]. لقد أصبح الشاه الآن على علم بأن حالته المرضية حرجة للغاية، لذلك أوصى فلادرين بأن يكون العلاج أكثر شدة مع دور أمثل في المستشفى لتشخيص المرحلة التي وصل إليها المرض على نحو دقيق، ورغم ذلك فالشاه كان لا يزال غير راغب في أن تكشف الحقيقة قائلًا لفلادرين: « في الوقت الذي كانوا فيه يقتلون المسؤولين الموالين لي، لا يمكنني خفض عددهم باليأس الشامل من خلال الكشف عن

(1) Edward Mortimer, «Iran: the greatest revolution since 1917», **Spectator**, 17 February 1979.

(2) تُظهر العقدة اللمفية خلايا لمفانية شاذة (أرومة مناعية)، مما يعني أنها تتصدى للعلاج، غير أن حالة الدم والنخاع العظمي كانت مستقرة ولم تتأثر.

حالتي الصحية». ولهذا أُخضِع الشاه لدفعات مكثفة من خردل النيتروجين فينكريستين بروكاربازين وبريدنيزولون، ولعبت زوجته دور الممرضة.

في غضون ذلك كانت رئيسة الوزراء الحالية مارغريت تاتشر منشغلة مرة أخرى بمتابعة الموقف الذي اتخذته في معارضة تأييد قدوم الشاه إلى بريطانيا، ففي مؤتمر صحفي تجاوز الرقم القياسي، هاجمت حكومة حزب العمال السابقة قائلة: بأنه يجب علينا أن نشعر بالخجل لرفضنا قبول الشاه. كما قدمت أيضًا وعدًا خاصًا للشاه بأنها ستقلب الأمور عندما تصبح في الحكم. ولكن بدلًا من الإعلان علنًا عن تغييرها لموقفها، وبالتالي الحفاظ على بعض ماء الوجه، فإنها قامت بذلك خفية. حيث أرسلت السير دونيس رايت إلى جزر الباهاماس متخفيًا باسم وجواز سفر مختلفين. ولذا بحسب وليام شوكروس، فإن رايت قدم في 20 أيار/ مايو بصفته إدوارد ولسون إلى نادي المحيط في جزر الباهاماس، وبصفته السيد ولسون رُحب به وسمح له بلقاء الشاه وتناول الشاي معه في منزله على الشاطئ. لا بد أن الشاه كان ممتلئًا بالامتعاض. لقد ازدادت الرداءة أكثر لأن الحكومة البريطانية رغبت في أن تكون قادرة على أن تقول، إذا طلب منها ذلك، أن الشاه قبل وفهم القرار بأنه لن يمنح اللجوء. لقد كانت تلك إهانة إضافية أغدق الشاه بها، لكنه يبدو أنه قبل بالقرار البريطاني بشرط أن نعترف بأنه لم يكن أبدًا قد تقدم بطلب رسمي للسماح له بدخول بريطانيا، لقد كتب في سيرته الذاتية: «لدي شك منذ زمن طويل في نية بريطانيا وفي السياسة البريطانية، التي لم يسبق لي أن وجدت سببًا للحيد عنه»[1]، وفي كل الأحوال فإن ذلك لم يكن حكمًا قاسيًا.

سافر فلادرين في شهر آب/ أغسطس 1979م إلى المكسيك لعلاج الشاه حيث يوجد هو وزوجته بعد أن انتهت صلاحية تأشيرتهما في جزر الباهاماس ولم تُجدد. وجد بأن كريات الدم البيضاء للشاه بدأت بالتناقص، ولذلك خُفِّض من العلاج الكيميائي. غير أنه وبحلول شهر أيلول/ سبتمبر أصبح الشاه مصابًا بمرض اليرقان، فاستدعي الدكتور بنجامين كين وهو خبير طفيليات من نيويورك بما أنه كان يشتبه في إصابته بالملاريا. وصل كين إلى المكسيك في 29 أيلول/ سبتمبر وقام بتشخيص اليرقان الانسدادي. كما سافر فلادرين من باريس وألقى نظرة على الشاه بصحبة كين، ليبدأ أثناء ذلك وحسب فلادرين صراع حول مسألة

(1) Pahlavi, Shah's Story, p. 215.

أيهما كان سيتولى رعاية المريض، عالم الطفيليات الأميركي أو خبير الأورام الفرنسي. وحسب كين فقد حسم الأمر في 18 تشرين الأول/ أكتوبر عندما تخلى فلادرين عن مهمة الطبيب الرسمي للشاه. من غير الواضح لماذا لم يقبع الشاه في المكسيك. فكين كان يضغط على الشاه ليذهب إلى نيويورك واتصل بالدكتور أبن داستن وهو طبيب وزير الخارجية، كما في 19 تشرين الأول/ أكتوبر1979م، ناقش سايرس فانس والرئيس كارتر خلال اجتماع أسبوعي تناولا خلاله فطور الصباح، مسألة السماح للشاه بالقدوم الى الولايات المتحدة. لقد غيَّر فانس الآن رأيه، وناقش ضرورة أن يسمح الرئيس بمجيء الشاه. إلا أن كارتر كان لا يزال مترددًا جدًّا، لكن زبيغنيو بريجينسكي أيّد فانس لأسباب إنسانية.

استشارت السفارة الأميركية في طهران مهدي بزركان ووزير خارجيته اللذين لم تعجبهما فكرة ذهاب الشاه إلى الولايات المتحدة، غير أنهما كانا مستعدين لتعزيز الوجود الأمني حول السفارة في وقت لم يكن أحد في طهران يعلم بإصابة الشاه بمرض السرطان. وفي 20 تشرين الأول/ أكتوبر قدّمت وزارة الخارجية إلى الرئيس الأدلة لسماح الشاه بدخول الولايات المتحدة، فرضخ كارتر لذلك. وتبين في وقت لاحق أن غرائز كارتر السياسية والتي كانت مناوئة للشاه أكثر دقة من تلك لدى مستشاريه. حيث سافر الشاه في 22 تشرين الأول/ أكتوبر إلى مركز كورنال الطبي في مستشفى نيويورك، حيث أزيلت له مثانة المرارة ولكن ليس طحاله. لقد أصبح فلادرين (الذي كان دائمًا يرغب في إزالة الطحال) وعائلة الشاه مستاءين جدًّا من الأطباء الأميركيين، فقد أظهر استئصال ورم من عنق الشاه بأنه لم يعد يعاني من سرطان الغدد اللمفاوية، لكن من الغرن اللمفاوي، وهو نوع قاتل أكثر بكثير من السرطان. وقد زعم مقال صدر في مجلة علوم سنة 1980:

> **أخطأ بنجامين كين، الطبيب الأميركي الذي عاين الشاه في المكسيك، طبيعة مرض الشاه وقدرة الأطباء المكسيكيين في التعامل معه. كما لم يكن الذي قام به الأطباء في مستشفى نيويورك أو في مركز ميموريال سلون كترينج للسرطان أكثر براعة مما قام به الأطباء بصفة منتظمة في المكسيك. فمن الممكن أن تكون هناك أسباب وجيهة في السماح بقدوم الشاه إلى الولايات المتحدة، غير أنه لم تكن هناك أسباب قاهرة[1].**

(1) M. Bloom, «The Pahlavi Problem: A Superficial Diagnosis Brought the Shah into the United States», **Science** (1980), vol. 207, pp. 282- 284.

وفي 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1979م احتلت السفارة الأميركية في طهران من قبل المتظاهرين مع وجود ستة وستين أميركيًا في الداخل، والذين أصبحوا رهائن لمدة 444 يومًا. فقد أعلن الخميني سابقًا عن وجود مخطط أميركي يشارك فيه الشاه، وكما تنبأ بذلك الكثير منا، ومنذ وقت طويل، لقد شجع الطلبة الإيرانيين على التحرك «لإجبار الولايات المتحدة على إعادة الشاه المخلوع والمجرم».

وفي 12 كانون الأول/ ديسمبر رفض السماح بعودة الشاه إلى المكسيك، ووصل هميلتون جوردان، كبير موظفي البيت الأبيض، إلى قاعدة جوية أميركية في تكساس لإخبار هذا الأخير بإمكانية ذهابه إلى بنما. غادر الشاه الولايات المتحدة في الخامس عشر في وقت بدأ فيه الإيرانيون في إجراءات التسليم. وفي غضون ذلك ناقش الأطباء فيما بينهم مسألة علاج الشاه، لكن لم يكن هناك أدنى شك بأن حالته تتدهور. وتفسير كين لما حدث في بنما صريح إلى حدٍّ كبير. لقد قرر البانميون إجراء عملية للشاه في مستشفى بيتيلا في وسط مدينة بنما بدلًا من إجرائها في مستشفى جورج في منطقة القناة الأميركية، وبالإضافة إلى ذلك فقد رغبوا في أن يجري العملية جراحون بانميون، وقد كان كين رافضًا تمامًا لاستخدام بيتيلا.

وفي 23 آذار/ مارس 1980م سافر الشاه إلى مصر قادمًا من بنما، حيث ولحسن الحظ لم يكن لدى المصريين شيء من هذه التحفظات البسيطة حول من يجب أن يقوم بالعملية راغبين فقط في أن يتلقى أفضل علاج. التقى كل من كين والدكتور مايكل ديباكي، وهو جرّاح أميركي، فلادرين في القاهرة مع الأطباء المصريين، واتفقوا على أنه يجب استئصال الطحال في أقرب وقت ممكن. وأثناء العملية أُخذت عينة من الكبد أظهرت إصابته بالغرن اللمفاوي. لم يرغب كين في علاج كيميائي كامل حتى لا يتسبب في خسارة الشاه لأيامه الأخيرة، لكن فلادرين والأطباء المصريين وعائلة الشاه شعروا بأنه يجب أن يخضع للعلاج ولذلك عاد كين في 31 آذار/ مارس إلى الولايات المتحدة، فيما بدأ فلادريين في الاهتمام بالشاه من جديد.

لقد كان قرارًا شجاعًا وسخيًّا من الرئيس السادات في دعوة الشاه الى مصر، وهو ما ألهب المشاعر الأصولية التي بدأت تتنامى بالفعل، وقد كان ذلك من شبه المؤكد سببًا في اغتيال السادات أثناء عرض عسكري في 6 تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1981م.

انتهت في شهر نيسان/ أبريل 1980م محاولة فاشلة من القوات الأميركية لتحرير الرهائن المحتجزين في طهران، والتي انتهت بطائرات الهيلوكوبتر في الصحراء بفشل ذريع. مما

أعقب استقالة فانس المبدئية[1] فقد نصح كارتر بالعدول عن المهمة لأسباب عسكرية وكذلك أيضًا سياسية. ولم يطلق سراح الرهائن في نهاية المطاف إلّا في شهر كانون الثاني/ يناير من سنة 1981م فقط، أي: في اللحظة نفسها التي خلف فيها رونالد ريغن كارتر كرئيس، مما ألحق ضررًا كبيرًا بسمعة كارتر.

توفي الشاه في 27 تموز/ يوليو سنة 1980م في القاهرة، ويقع قبره في مسجد الرفاعي، حضر مراسيم جنازته الرسمية الرئيس الأميركي الأسبق ريتشارد نيكسون، والسفيرين الفرنسي والأميركي، فيما أرسلت بريطانيا القائم بأعمالها. وقد لخّص وليام شوكروس المأساة كما يلي:

لقد كان هنري كيسينجر، صديق الشاه، على حق حين أطلق عليه اسم المركب الهولندي الطائر. لقد كانت رحلته الأخيرة حول حافة العالم الغربيْ المهملة عقابًا لغطرسته. لقد تصرَّف بشجاعة وكرامة خلال تلك الرحلة البائسة والحقيرة. لكن كان يُنظر لظهوره عند أصدقائه وحلفائه السابقين على أنه لعنة[2].

تذييل

لو أن تحولًا ديمقراطيًّا حدث في منطقة الشاه عام (1978ـ1979م)، لأضحى سببًا رئيسًا لتفادي سلسلة من الحوادث الخطيرة التي أخلّت بأمن المنطقة، فخلال أشهر ضئيلة من الثورة، ضاعت وتهاوت سلطة إيران على المنطقة. ولو أن إيران بقيت مسيطرة على المنطقة لمَا غزا الاتحاد السوفياتي أفغانستان أواخر عام 1979م، وبالتأكيد لمَا قامت الحرب الإيرانية مع العراق من عام (1980 وحتى 1988م)، ولمَا غزت العراق الكويت، ولمَا قامت جرب العراق عام 1991م لإخراج صدام حسين من الكويت، وبالتالي لمَا أرست أميركا جيوشها في السعودية منذ عام 1990م. إن احتمالية تواجد الجيوش الأميركية في المنطقة هي ما أثار غضب أسامة بن لادن، حيث حاول لقاء الملك لمعارضة القرار، إلا أنه لم يلتقِ إلا وزير الدفاع السعودي الأمير سلطان. كان ابن لادن يكره صدام ويرى بأنه كافر، على الرغم من أن الاثنين مسلمين سُنيين. أمضى ابن لادن معظم ثمانينيّات القرن في أفغانستان، مقاتلًا

(1) Cyrus Vance, **Hard Choices, Critical Years in America's Foreign Policy** (New York: Simon and Schuster, 1983), pp. 389 - 391.

(2) Shawcross, **Shah's Last Ride**, p. 416.

الاتحاد السوفياتي، وعليه أصبح رمزًا يحتفى به في وطنه. وعرض على الحكومة السعودية تجنيد جيش من المجاهدين للدفاع عن السعودية، وادَّعى بأن ملايين المسلمين سينضمون إليه طمعًا في الجهاد. استمع إليه الأمير سلطان ما يقارب الساعة، قبل أن يرفض عرضه بأدب، وعندما علم ابن لادن بخبر قدوم الأميركيين إلى السعودية، أدان الملك واستنكر عليه. وفي آذار/ مارس 1991م نادى للإطاحة بالحكم، وفي آب/ أبريل ترك السعودية خوفًا من الاعتقال، واتجه إلى الحدود الباكستانية الأفغانية. لم تحدث هجمات 11/ 9 على برج التجارة العالمي والبنتاغون دون تحذير مسبق. إن وفيَّات المسلمين التي تجاوزت المليون في معارك مختلفة منذ 1980م، كانت سببًا للعداوة الجليّة بين السُنة والشيعة، بالإضافة إلى ازدياد التوجه إلى الأصولية الإسلامية.

كانت إيران محط أنظار العالم نتيجة لتقهقرها وهزيمتها بعد غزو العراق عام 2003م، وأصبح من الجليِّ جدًا مدى أهميتها في المنطقة. وفي أواخر عام 2007م كانت لا تزال إيران مصرة على رفض عقوبات الأمم المتحدة، فبعد غزو العراق لها سنة 1988م، واصلت العمل في برنامج تخصيب اليورانيوم. كان من المتوقع بأي شكل من الأشكال أن تقوم الحكومة في طهران بالاستمرار في برنامجها النووي، وذلك لعلمها بتطوير العراق للأسلحة النووية. إصرار إيران على الاستمرار، بعد إخراج صدام قسرًا من الكويت عام 1990م، كان نتيجة لعلمها بتصنيف جارتها السُنّيّة باكستان كدولة نووية، وتجاهل الأخرى لمحاولات الدول الديمقراطية لمنعها. كذلك علم الإيرانيون بأن السعودية هي من دعم باكستان ماديًا لتطوير أسلحتها النووية، وباستطاعتها هي الأخرى الحصول على تلك الأسلحة لو أرادت ذلك.

ستكون المفاوضات صعبة والتنبؤ أصعب ما إذا كانت روسيا والصين ستقبلان بأي عقوبات مادية تضعها أميركا، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا وترى بأنها ضرورية. وذلك استنادًا على تقدير الاستخبارات الأميركية في كانون الأول/ ديسمبر 2007م. بأنها «لا تعلم ما إذا كانت إيران تنوي تطوير أي أسلحة نووية». وللتوصل إلى مفاوضات ناجحة، كان يجب إيجاد عرضٍ مغرٍ لرفع جميع العقوبات التي فُرضت بعد ثورة عام 1979م، حينها ستقبل إيران بالتخلي عن تخصيب اليورانيوم.

أظهرت استطلاعات الرأي بأن معظم الإيرانيين يرغبون بإعادة بناء العلاقات الحسنة بين إيران وأميركا، كما كانت عليه الدولتين في مؤتمر طهران عام 1943م. إن المعضلة الحقيقية بالنسبة لأولئك الذين يطمحون لأنْ تقصف أميركا المواقع النووية الإيرانية، هي

هل سيكون ذلك سببًا ناجعًا لأنْ توقف إيران برنامج أسلحتها النووية، أم ستتوقف لبرهة ثم تعاود تطويرها بجهود مضاعفة؟ يؤيّد القلة الآن القصف الجوي على إيران عام (2008 أو 2009م). حيث سيسهم ذلك في تغيير موازين القتال على الأرض، غير أنه في حال غياب القوات البريّة يمكن لذلك أن يعزز الدبلوماسية. فعندما واجهت إيران هجومًا عسكريًا، شُلّ تفكير الأصوليين بدلًا عن إعادة النظر والتفكير. لو كان قد سُيطر على عواقب غزو العراق عام 2003م بنجاح، لكان من السهل إقناع إيران للتخلص من برنامج تخصيب اليورانيوم. ففي أيار/ مايو 2003م كانت إيران مستعدة لبدء المفاوضات، إلا أن وضعها بدأ يتعقد بحلول عام 2005م. فالدبلوماسيّة تشبه الحياة؛ للفشل فيها ثمنه، ففي عامي (2008 ـ 2009م) كان اتحاد الصبّر والاستعداد لامتطاء الركب الدبلوماسي ـ مدعومًا إذا ما احتيج الأمر إلى عقوبات صارمة وموجهة ـ فاعلًا وموشكًا على النجاح أكثر من إطلاق القوات العسكرية.

الفصل السادس

الرئيس ميتران وسرطان البروستات

«من المرجَّح إنه كانت ثمّة أمور أخفاها الرّئيس ميتران حتى عن نفسه»
ألمح جورج كييترمان وهو معاون لميتران منذ زمن طويل[1].
رونالد تيرسكي

لا زال فرنسوا ميتران يأسرني كرجل سياسة، لم أعرفه حقّ المعرفة، ولكن قلائل كانوا يعرفونه. وكان أول عهد لي به في أواسط الستينيات عندما كان يترأس لقاءات برلمانيين أوروبيين ضمن الحزب اليساري الأوروبي في باريس، وراقبت تحوُّله من مثقّف رثّ المظهر إلى قائد انعزالي حازم يرفع راية عهد جديد من الاشتراكية الأوروبية. وتحادثنا في مؤتمر حزب العمال سنة 1978م وفي قصر الإيليزيه حول التعاون النووي الإنكليزي - الفرنسي سنة 1986م لمّا كنت رئيس الحزب الديمقراطي الاشتراكي، والتقيته مرّة أخرى في الإيليزيه في أوائل شهر أيلول/ سبتمبر سنة 1992م عقب تعييني مفاوضًا عن الاتحاد الأوروبي في قضية يوغوسلافيا السابقة، وتحادثنا مرات أخرى عديدة بعد ذلك.

في الجولة الأولى من الانتخابات الرئاسية الفرنسية يوم 26 نيسان/ أبريل لسنة 1981م، حلَ ميتران - وكان المرشح الاشتراكي - ثانيًا خلف الرئيس المنتهية ولايته الأولى فاليري جيسكار ديستان، وتفوّق على خليفته في الرئاسة جاك شيراك وعلى المرشح الشيوعي جورج مارشي. لم يحصل الشيوعيون سوى على 15.5% من جملة الأصوات رغم أنهم كانوا يحصلون عادة على حوالي 20%، في حين حصد ميتران أكثر من 25% من جملتها. وفي الجولة الثانية من الانتخابات لم يواجه ميتران سوى الرئيس جيسكار ديستان الذي كان

(1) Ronald Tiersky, **Francois Mitterrand: The Last French President** (New York: St Martin's Press, 2000), p. 321.

تحت وطأة ضغوطات سياسية ناجمة عن التبعات المحلِّية لأزمة ارتفاع أسعار النفط الثانية في سنة 1979، كما تضاءلت شعبية ديستان أيضًا بفعل غموض موقفه تجاه إقامة الاتحاد السوفياتي لقواعد صواريخ (س ـ س 20) النووية في شرق أوروبا، وبسبب مزاعم حول تورُّطه في فضيحة هدايا من الألماس من طرف إمبراطور إفريقيا الوسطى بوكاسا.

في يوم 10 أيار/ مايو فاز ميتران بالجولة الثانية من الانتخابات بنسبة 52 %، ولمّا تسلَّم ميتران منصبه في 21 أيار/ مايو، بدا كل شيء ممكنًا في حياته السياسية، وبدا هو في أوج عنفوانه: مستعدًّا وفي صحة ممتازة. وما لبث أن دعا إلى حلِّ البرلمان وفاز من ثمّة بالأغلبية المطلقة من مقاعد الجمعية الفرنسية لفائدة حزبه الاشتراكي بنسبة 38 % من جملة الأصوات.

سرُّ دولة

كانت الصراحة حيال حالته الصحية إحدى أهم تعهدات ميتران خلال حملته الانتخابية فقد وعد أنه ـ في حال تمّ انتخابه رئيسًا ـ سيصدر أطبّاؤه تقريرًا حول حالته الصحية كل ستة أشهر. وكان ميتران صدم، إلى جانب كثير من الفرنسيين، بالسرية التي أحاطت بالرئيس جورج بامبيدو وبالظروف المؤسفة التي مات فيها جرَّاء سرطان الدم دون أن يعلم أحد في الدولة بما كان يحدث لرئيسها. وكان فاليري جيسكار لمّا ترشح لانتخابات سنة 1974م وعد أيضًا بإصدار تقارير طبية منتظمة حول حالته الطبية، لكنه تخلى عنها دون سبب واضح لمّا وصل إلى السلطة. أصدر التقرير الطبي الأول للرئيس ميتران صيف1981م من قبل الدكتور غوبلير الذي كان طبيبًا شخصيًّا له ولعائلته منذ سنة 1969م مفيدًا في ثقة تامّة بأن الرئيس على أحسن ما يرام.

وفجأة ، بعد ستة أشهر من تولِّيه الرئاسة ، وبعد عودته من قمة كانكون بالمكسيك أواخر شهر تشرين الأول/ أكتوبر، بدأ ميتران يشتكي من ألم في ظهره وفي ذراعه وصار يعرُج وذلك أمر أشدُّ خطورة، ففحص غوبلير ميتران، ووجد أنه يشكو من بروستات متضخم ومتصلِّب[1]. وفي 7 تشرين الثاني/ نوفمبر رافق غوبلير الرَّئيسَ على متن سيارته العتيقة، دون حراسة الشُّرطة ، إلى المستشفى العسكريّ بـ «فال دي غراس» حيث سُجِّل لإجراء عدد من

(1) تحيط غدة البروستاتا بمجرى البول «الإحليل»؛ ذلك المجرى في الذكور، الممتد من المثانة وحتى رأس القضيب. ويفرز البول من الكليتين، نازلًا عبر الحالبين «مفردها حالب» إلى المثانة البولية، وهناك يجتمع ليمر عبر الإحليل إلى خارج الجسم. وتفرز البروستاتا السائل المنوي الذي يعبر من خلال الأحليل، كنتيجة للعملية الجنسية. وتنمو الخلية، البروستاتا، في مرحلة المراهقة، وتزداد حجمًا مع الوقت. وتبلغ نسبة الرجال (الذين تبلغ أعمارهم بين =

الفحوصات تحت اسم منتحل: ألبير بلوت ، وقد جعل فحص العظام الذي أُجري ضمن الاختبارات التّشخيصَ ذات أهمية كبيرة.

وفي مساء يوم 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1981م رافق الطّبيبَ غوبلير إلى قصر الإيليزيه البروفيسور أدولف ستيغ، وهو جراح بارز متخصص في جراحة غدة البروستات، وأكّد ستيغ لغوبلير أن الرُّضوض التي أظهرتها فحوصات الأشعة السّينيّة المُجراة آنفًا هي تطوُّرات ثانوية من سرطان البروستات، وكان مُعدَّل النّجاة لمريض بمثل هذه الحالة المتقدمة من السرطان ثلاث سنوات، كان ثمة بطبيعة الحال استثناءات، غير أن الأمور لم تكن تُبشِّر بخير.

وحسب رواية غوبلير[1] لم يوارب ستيغ في إفشاء الحقيقة، وقبل ذلك في يوم 13 تشرين الثاني/ نوفمبر، أعلم غوبلير الرئيس ميتران أن نتائج الفحص غير مطمئنة، لكنه لم يشأ استعمال لفظة السرطان، ولم يشر حتى إلى مدى انتشار المرض في جسم الرئيس، في حين كان ستيغ صريحًا مع الرئيس فقال له: «ليس عملي أن أخفي عنك شيئًا، أنت تشكو من سرطان البروستات الذي ينتشر في عظامك انتشارًا ذا بال».

«قُضي عليَّ إذن» غمغم الرئيس.

فأجاب ستيغ: «لا يمكنك أن تقول هذا، فلا يُمكن لأيّ كان أن يقول ألا أمل البتة، وسأقوم والدكتورَ غوبلير بما يلزم».

فقاطعه الرئيس قائلًا: «كف عن ممازحتي فقد قُضي عليَّ».

فأجاب ستيغ: «صحيح أن الوضع خطير، ولكننا سنباشر العلاج ويجب عليك أن تدعنا نقوم بذلك، وأن تلتزم تمام الالتزام بما نقول وإلا...».

فقاطعه ميتران قائلًا: «... وإلا فقد انتهى أمري، أنتم لا تدعون لي أي خيار».

كان ستيغ أكثر صراحة مع غوبلير فقال: «قد بدأت الأمور على نحو سيئ للغاية خاصّة

= الأربعين والخامسة والخمسين) الذي يعانون مما يعرف بتضخم البروستات الحميد BPH؛ تبلغ نسبتهم 50%. وتزداد هذه النسبة إلى 90% بين الرجال الذين تجاوزوا السبعين من العمر. هذا هو تضخم البروستات الحميد، الذي يزيد من نسبة تسرب البول اللاإرادي، وجريان البول الضعيف. أما سرطان البروستاتا فهو رابع أكثر الأورام الخبيثة انتشارًا، ويعالج بالأدوية المضادة للأندروجين، والأستروجين، والعلاج الإشعاعي، وبدرجة أقل بالجراحة الاستئصالية.

(1) Claude Gubler, **Le Grand Secret**. Available in an English translation as The Big Secret at www.kantor.com. All subsequent references to Gubler refer to this text.

عندما أخذ سرطان البروستات في الانتشار والتورم»، ومضى إلى القول في خصوص أمل الحالة في البقاء «إذا لم نوقف تورُّم السرطان، فإن المدّة المتبقية لا تعدو أن تكون أشهرًا معدودة»[1].

وفي أثناء ذلك، كانت المزاعم حول مرض الرّئيس الخطير تُتكرُ من قبل بيير بيريغوفوي كبير مساعدي ميتران في قصر الإيليزيه، حتى في ذات اليوم الذي أخذ فيه ستيغ النتائج الكاملة للفحوص، سُرِّبت هذه الشائعات عبر تحقيق في أربع صفحات حول زيارة ميتران للمستشفى في الأسبوع الذي سبقه مع صور شمسيّة في مجلة: «باريس ماتش».

صار ميتران الآن يواجه أزمة سياسية لا مجرد تكهُّنات طبية، وكان وحده من يستطيع حلَّها، ونظرًا لوعده السابق، كان يُعتقد أنه سيُفضِّل انتهاج الصراحة بتصريح مقتضب بأن الرئيس يعاني من سرطان البروستات، وأنه سيخضع لعلاج لا يستوجب إقامة بالمستشفى. كان يمكن أن يكون هذا التصريح كافيًا بألا يُضطر ميتران إلى ذكر حقيقة أن المرض تسرَّب إلى عظامه، مع العلم أنه كان صرَّح بحزم أنه ينوي تمامًا مواصلة أداء واجباته الرئاسية، وكان يمكن أن يُحدث هذا القرار بعض الجدل في مقالات تتكهن بأنّه سيُجبر على الاستقالة، ولكن كانت أغلبية الفرنسيين مستعدة لمنح هذا الرئيس فرصة. ربما لم يكن حزبه ليوافق على هذا، ولكن الرئيس الفرنسي بعد أن يُنتخب يستطيع مواصلة حياته السياسية دون مساعدة زملائه في الحزب.

اختار الرئيس السرية عوضًا عنه، ووفقًا لغوبلير قال الرئيس مباشرة: «مهما سيحدُث، يجب عليك ألا تكشف شيئًا»، وأضاف حتى يكون غوبلير على بيِّنة من أمره: «أنت ملزم بكتمان هذا السر». حاجج البعض بأنه كان يتوجَّب على غوبلير أن يعارض أمر الرئيس

---

(1) لم يكن فحص مستضد البروستاتا (PSA) قد اكتشف بعد عام 1981 م. يعتمد أطباء الوقت الحاضر على ذلك الفحص ويلجؤون إليه كثيرًا، وخصوصًا حين لا يكون الطبيب متأكدًا من تشخيص سرطان البروستاتا. يحسب فحص مستضد البروستات (PSA) كمية إنزيم ينتج نسيج غدي في غدة البروستاتا، وتتضاعف كمية إفرازه عندما يتضخم حجم الغدة بسبب الإصابة بالسرطان. وفي بداية رئاسة ميتران، تلقى عناية طبية ملائمة، إلا أنه كان من الضروري أن تشمل فحصًا للمستقيم حتى يتبيّن ما إذا كانت غدة البروستاتا متضخمة. غير أنه في عام 1981م لم تكن تظهر أعراض مختلفة على البول لتدفع إلى إجراء فحص مماثل. وفي تلك المرحلة أيضًا لم يكن هناك أعراض تشير إلى نقال العظام (تأثر العظام)، وبطبيعة الحال فإن أشعة العظام تعتمد على علامات مشتبه بها. لو أن سرطان البرروستاتا اكتُشف في مستهل عام 1981م. لأتيحت الفرصة لميتران لإقناع حزبه بتولي الرئاسة، موضحًا للشعب الفرنسي بأن علاج السرطان أبدى تقدمًا، ولذلك فهو قادر على تولي أمرهم. إلا أن معرفة العامة بإصابته بالسرطان كانت ستقلل من فرص تفوقه على فاليري جيسكار ديستان.

بالحفاظ على السرِّية مهما كان الثمن. ولكن، لما كان غوبلير طبيب الرئيس لأكثر من 12 سنة، كان هذا الرفض يعني الاستقالة والتخلِّي عن رعاية مريض في أمسِّ الحاجة إلى ذلك. فأحس غوبلير وستيغ بأنهما ملزمان بقبول طلب مريضهما التزام السرِّية، وأنهما بهذا كانا يخدمانه، ومُنع غوبلير حتى من أن يُخبر دانييل ميتران زوجة الرئيس بالأمر، ولم يُخبر حتى زوجته وأبناؤه هو. كما لم يُخبر الرئيسُ زوجته بالأمر سوى سنة 1991م ففسرت ذلك قائلة في دِعَةٍ: « لم يرد سوى المحافظة على سكينتنا»[1] يقرر بعض المرضى إخفاء كل المعلومات عن مرضهم حتى عن عوائلهم، ولكن رئيسًا مُنتخبًا بطريقة ديمقراطية ليس مريضًا عاديًا، إذ كان ثمة استحقاق واضح وعى به ميتران تمامًا، ولكنه قرر أن يتجاهله.

في البدء، تململ عزم ميتران نفسه في الحفاظ على سرية مرضه، إذ يزعُم غوبلير أن الرئيس صارح بالتأكيد أحد أقرب معاونيه وهو جاك أتالي بالأمر، وحسب رواية غوبلير كتب أتالي في مذكراته في كانون الأول/ ديسمبر 1981م: «أخبرني الرئيس بأنه مصاب بالسرطان وبأن وضعه ميؤوس منه» ولكن كتب بعد أيام قليلة: «يقول لي الرئيس إن الأطباء أغبياء، أنهم مُخطئون فأنا لست مُصابًا بالسرطان» مشيرًا إلى أن ميتران ـ وبعد تردد في بداية الأمر ـ قرر أنه يتوجّب الالتزام التام بطلبه العاجل للسرية المُطلقة. ولكن لم ترد أي من هاته الاقتباسات المزعومة في مذكرات أتالي المنشورة الموسومة بـ «شهادات حرفية»[2].

كانت المعضلة الأخلاقية والأدبية التي سببها قرار ميتران جسيمة بالنسبة لغوبلير، لأن اسمه هو الذي سيظهر على التقارير كل ستة أشهر حول صحة الرئيس. وحسب قول غوبلير نفسه:

> **«لقد وقعتُ في الفخّ، وأُلقيَ بي وسطَ كذبة لم أتحرر منها سوى بعد خمس عشرة سنة. شملت الكذبة كل شيء، وكان الأطباء يكذبون منذ انتهينا إلى إعلام مريضنا أن الفترة الباقية له هي خمس سنوات، في حين تراوحت التوقعات الدقيقة بين ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، إذا ما رفض جسده الاستجابة للعلاج.**

قرر المريض الكذب ـ أولًا على نفسه، وذلك أمر طبيعي ـ وبعد ذلك على الآخرين

(1) Jonathan Fenby, **On the Brink: The Trouble with France** (London: Little, Brown, 1998), p. 381.

(2) Jacques Attali, **Verbatim, tome 1: Chronique des années 1981-1986** (Paris: Fayard, 1993).

عندما أخبرني في كانون الأول/ ديسمبر عندما كان يُفترض أن أعِدَّ التقرير الدوريَّ الثاني حول صحَّتِه: «مهما سيحدُث، يجب عليك ألا تكشف شيئًا».

كانت نقطة إصدار هذا التقرير مِفصليَّة بالنسبة لغوبلير: فمن المُحال الحفاظ على الحقيقة إذا ما كان الطبيب الشخصي ضالعًا في الأمر، والمريضُ رافضًا لإعلان الحقيقة. كان يُمكن لغوبلير إما أن يحاول إقناع ميتران بالعدول عن وعده بالإدلاء بتقارير دورية عن حالته الصحية كما فعل جيسكار ديستان، وإما أن يُصَّر على أن تصدُر هذه التقارير عن المتحدث باسم القصر الرئاسي دون أنِ تُنسب إلى غوبلير نفسه. ولكن كان هذا الطلب عسير على اعتبار أنه أصدر بالفعل بِنيَّة حسنة تقريرًا سابقًا يحمل اسمه شأن كثير من الأطباء الخاصّين لرؤساء الحكومات، الذين كانوا في السابق يُصدرون تقارير طبية بأسمائهم.

تواصلت التقارير الطبية وبات غوبلير في حالة لا تُطاق أكثر فأكثر، فقد كان يُفضِّل ألا يُصدر أيَّةَ تقارير، ولكنَّ الرئيس كان يريدها، وفي النهاية لم تكن الصياغة التي اختارها ـ حسب زعمه ـ لا كاذبة ولا مُخفية للحقيقة، وإنما غير كاملة فَحسبُ. وكان الهدف وراء هذه التقارير الصحية الدورية إقناع الفرنسيين بعدم إمكانية تكرر التغطية على مرض خطير شأن تلك التي قام بها الرئيس بامبيدو. ويتذكر غوبلير كم أصبحت وضعيته عسيرة. وقد سأل طبيب وصديق طفولة غوبلير سنة 1981م: «علمًا بأن الرئيس كان وعد بألا يُخفي شيئًا يتعلق بوضعه الصحي، هل كنت لتعلن إصابة الرئيس بمرض خطير؟» فأجاب: «بالطبع سأفعل ذلك» عالمًا علم اليقين بأنه كان يفعل العكس تمامًا. وحسب كلام غوبلير صارت درجة الخداع الذي تورط فيه مرهقة للغاية.

في تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة 1981م بدأ ميتران بالتداوي عبر هرمون الإستروجين[1] الذي توجَّب مزجه مع مضادات التجلط، إذ كان للأستروجين عارض جانبي خطير وهو التسبب بجلطات الدم مما يسبب وفاة حوالي 30% من المرضى في السنتين الأوليين من العلاج. في البداية حُقنت نسب عالية من الهرمون في عروق المريض مرة في اليوم لمدة أسبوعين، ثم مرة في اليومين حتى نهاية شهر شباط/ فبراير لسنة 1982م. كانت الفحوص المخبرية تُجرى في « فال دي غراس» وتحلَّل في مختبر خاص تحت اسم المريض «غزافيي

(1) يمكن أن يكون هرمون الإستروجين هرمونًا طبيعيًا أو صناعيًا وظيفته إحداث تغيرات في جدار الرحم قبل الإباضة، بالإضافة إلى التغيرات التي تنتج عن البلوغ عند النساء، مثل نمو الصدر، وشعر العانة، وشعر الإبطين وتغير شكل جسم المرأة. يستخدم الإستروجين لعلاج سرطان البروستاتة، إذ إن الأستروجين الطبيعي الذي ينتجه الجسم يفسد سريعًا، لذا يستخدم الأستروجين الصناعي لأسباب علاجية.

كاربانتيي». وكان الهرمون قويًا جدًا بحيث لم يكن بالإمكان مواصلة تناوله حسب تلك الجرعات لأكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر.

لازم غوبلير الرئيس في كل أسفاره، وأشرف بنفسه على إجراء العلاج للمريض. وكان يحمل معه كل المعدَّات، ويعلِّق قارورة المصل في مقبض لوحة أو حمَّالة ثياب حتى لا يضطر إلى إقحام مسمار في جدار سفارة أو دار ضيافةِ تخصُّ حكومة أجنبية، وكان بعد ذلك يجمع المعدات المستعملة ويتخلص منها بعد عودته إلى باريس. كان السببُ وراء هذه التدابيرِ الخوف من التجسس الأجنبي حول صحة الرئيس. حيث يعتقد الفرنسيون بأنه قد أُخذ عينات من شعر ليونيد بريجينيف، عندما كان رئيسًا للاتحاد السوفياتي، من على مشط وتحليلها قصد التعرف على طبيعة العلاج الذي يخضع له. وقد دفعت بهم هذه المخاوف إلى حيل تبلغ أحيانًا حدَّ السخافة. كانت ثمة شكوك أن بعض البلدان تصل في البحث عن دلائل حول الحال الصحية للقادة الزائرين إلى جمع مياه الصرف الصحي من المراحيض. وقد ظن الفرنسيون أن حالة الرئيس بامبيدو قد شُخِّصت في دولة أجنبية عقب جمع عينات بول خِلسة، لذا كان غوبلير يحرص أشدَّ الحرص على فحص حمّام الرئيس وعلى تنظيف المرحاض بالماء بعناية بعد كل استعمال.

كانت تلك الفترة كلُّها ـ حسبما كتب غوبلير ـ لعبة غمّيضة مع الموت، استمرت إحدى عشرة سنةً. ولا شكَّ أن التزام السرية فاقم المخاطر الطبية للحالة قليلًا، ولكن كان المريض على استعداد لدفع هذا الثمن للحفاظ على غطائه. تجلَّت هذه المخاطر حين تعرَّض ميتران لإحدى المضاعفات الخطيرة للعلاج، وهي التجلط الرئوي أواخر سنة 1982م وعُولجت باستعمال الهيبارين، وهو مضاد للتجلُّط.

أبو الهول

كانت الرواية المضللة للرئيس ميتران أنه لا يعلم بالضبط طبيعة أدويته قائلًا: بأنها ما وصفه له الدكتور غوبلار لعلاج الروماتيزم. وكان مثل هذا الخداع طبعًا متمكنًا في ميتران. ويكمُن السر في شخصيته ـ التي كانت موضوع كتابات عديدة وستظل كذلك ـ في فهم قراره انتهاج السرية، إذ كان المكر والكتمان رفيقه طوال مسيرته السياسية. فلم تكن تسميته بـ «أبي الهول» اعتباطية.

نشأت هذه السّمعة من كيفية تعامله مع سجِلِّ نشاطاته خلال الحرب العالمية الثانية،

فقد انضم في نهاية الحرب إلى المقاومة الفرنسية، ليزوِّر العديد من الوثائق ويخطط لطرق هروب سجناء الحرب. خلال سنة 1943م وتحت الاسم المستعار «الكابتن مورلان» شرع ميتران مع موريس بينو رئيس الشرطة في تأسيس شبكة مقاومة: الحركة الوطنية لسجناء الحرب والمبعدين بسببها. وتلقَّى في تشرين الثاني/ نوفمبر 1943م جائزة وسام الفرانسيسك من الماريشال فيليب بيتان قائد حكومة فيشي المتعاونة مع الاحتلال الألماني لفرنسا. وكان هذا الوسام يُسند لموظفي الدولة الجديرين بالمديح، ومنحه إياه أثار جدلًا وسيظل يطارد ميتران خلال مسيرته السياسية حول إذا ما كان متعاونًا مع الاحتلال النازي لفرنسا. كان ميتران يترفَّع عن الإجابة كلما سئل بهذا الصدد لتجنب أي مسٍّ بكرامته. ولكن بعد أن تولَّى الرئاسة، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1992م أسدى ميتران خدمة مجانية لنقاده وأعطى بعض المصداقية لتهمة التعاون عندما وضع إكليلًا من الورود على ضريح بيتان. ولكن لم تكن هذه الحركة سابقة، إذ حرص كل من الرئيسين ديغول وجيسكار ديستان على التوالي على وضع الأكاليل على ضريح بيتان لإحياء الذكرى الخمسين، ثم الستين لانتهاء الحرب العالمية الأولى، باعتبار أنه كان قائد القوات الفرنسية في معركة «فيردون»، ولكن تصرف ميتران قد سبب موجة استياء، وحمل جاك جوليار على أن يكتب:

«سيُسجِّل المؤرخون أن السؤال الأساس الذي يُقِضُّ مضاجع المدافعين عن حقوق الإنسان في فرنسا خلال عام كامل عاشت فيه البوسنة رعبًا لا يوصف، هو وضع رئيس الجمهورية باقة الورد على ضريح بيتان، المارشال السابق الخائن. ففي فرنسا لا يقبل أحد أي تعدٍّ على الرموز، ومن المؤسف أن الأمر ذاته لا ينطبق على الحقائق»(1).

ربما أحسَّ ميتران بأنه يعرف سرًّا دفينًا لدى الفرنسيين، وهو عدم رغبتهم في أن يُجلى ما حدث خلال عهد حكومة فيشي بشكل نهائي. وبهذا المعنى فإن ضبابية ميتران عكست آراء أكثر من مجرد البالغين الفرنسيين إبان عهد فيشي. إلا أن مدى تورطه مع حكومة فيشي يبقى غير محسوم.

عُيِّنَ ميتران في الحكومة المؤقتة التي أسست في آب/ أغسطس سنة 1944م في انتظار عودة ديغول لمدة أسبوعين في منصب وزير أسرى الحرب، وكان عمره آنذاك سبعًا وعشرين سنة. ولكن خلال الحرب كان له لقاء عسير مع الجنرال ديغول في الجزائر العاصمة حيث

(1) Quoted in Richard J. Golsan, **Vichy's Afterlife: History and Counterhistory in Postwar France** (Lincoln: University of Nebraska Press, 2000), pp. 152 _ 153.

رفض دمج ثلاث حركات سجناء متنافسة، ولم يُستدع ميتران إطلاقًا للخدمة تحت إمرة ديغول. دخل ميتران الحكومة في عهد بول راماديه سنة 1947م وزيرًا لموظفي الدولة السابقينَ. ومن سنة (1947 إلى سنة 1958م) خدم ميتران ضمن الجمهورية الرابعة في إحدى عشرة حكومة، وكان يُعتبر وزيرًا غير اشتراكي نيوراديكالي انتخب باعتباره نائبًا مستقلًا في دائرة نيافر الوسطى. ودُعمت سُمعته في المكر والخديعة بحادثة غريبة، ادَّعى البعض أنها قد دُبِّرت لأغراض دعائية. ففي يوم 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1959م أعلنت الصحافة أن ميتران قد نجا من محاولة اغتيال، والتي اتَّهمه النائب اليميني روبير بيسكي بتدبيرها لكسب تعاطف الرأي العام. ورُفعت حصانة ميتران البرلمانية حتى يُمكن مُحاكمته، ولكن المحاكمة لم تحصل أبدًا، لأن بيسكي فرَّ من البلاد، ولكن ما تُسمى بـ «فضيحة المراقبة» أضرَّت بصورة ميتران إلى حدٍّ كبير خاصة، وأنه عجز عن الدفاع عن نفسه بسبب نزعته السرية(1).

لقد كان انتقاله من اليمين إلى اليسار في دوائر السياسة الفرنسية على ذات القدر من الغموض، إذ عاش حياته في هذه الفترة من وراء حجاب كثيف من صنعه. ففي سنة 1956م واجه ميتران الجنرالَ ديغول في انتخابات الرئاسة، وأبرزت النتائج قدرته على جمع ائتلاف يساري مكَّنه من حصد 45 % من جملة الأصوات في الجولة الثانية من الانتخابات، فصار بعدئذ سياسيًّا ذا آفاق واعدة ناشئًا في أوساط اليسار، ولكن هذه صورة مركَّبة بعض الشيء إذ أراد أن يُعتبر مثقفًا محبًّا للكتب ومتحضرًا من أعماق البلاد في آن معًا، وقد وُصف أيضًا بأنه «شخصية من رواية» وبأنه «كيان حائر متردد أشبه بشخصية غودو المسرحية»(2).

كان سر ميتران الكبير قبل مرضه هو عيشَه حياة عائلية موازية مع عشيقته «آن بينجو» ولمدة طويلة التي أُنجبت فيها ابنة أسماها مزارين. لقد كُتم هذا السرَّ عن الشعب الفرنسي حتى كُشف عنه للمرة الأولى للعلن في مجلة: «باريس ماتش» يوم 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1994م عندما صار عمر مزارين عشرين سنة، وبقيت ستة أشهر على مغادرة ميتران منصبه بصورة نهائية.

وبذا وبحلول سنة 1981م عندما شُخِّص بسرطان البروستات، كان ميتران قد تعوَّد حياة السرِّية والكتمان. وكانت أشد التَّبعات السياسية وطأة على الإطلاق للسرية التي أحاطت

(1) Alistair Cole, **Francois Mitterrand: A Study in Political Leadership** (London: Routledge, 1994), pp. 11-12,19-20.

(2) David S. Bell, **Francois Mitterrand** (Cambridge: Polity Press, 2005), pp. 171-181.

بمرض ميتران، السرعة التي تحوَّل بها من سياسي ديمقراطي مراع للحزب الاشتراكي وللشريحة الكبرى من الناخبين وللحقوق الفردية للمواطنين، إلى سياسي مستبدٍّ مهووس بسلطة الدولة. صارت الدوافع الديمقراطية التي كانت جزءًا أساسيًّا من حياته في رحلته للوصول إلى السلطة ثانوية فجأة: الحزب والناخبون وحقوق الفرنسيين والفرنسيات صارت جميعها مرتهنة بغاية شاملة واحدة: المحافظة على سريَّة مرضه.

فقد أنشأ خلية أزمة تخضع لأوامره المباشرة باعتباره رئيس الدولة، وتنتهج ذات الأساليب التي كانت قوات الشرطة والحرس الوطني الفرنسي تتعامل بها مع النشاطات الإرهابية، وترجع بالنظر إلى رئيس الدولة وإلى مجلسه الوزاري المُضيَّق. قامت هذه الوحدة بناء على أوامر كانت تفتقر دومًا إلى الأسس القانونية اللازمة بعمليات التنصت على الاتصالات الرئاسية التي كشفتها بعدئذ صحيفة «ليبيراسيون».

وقد أدَّى حرص ميتران الشديد على الحفاظ على مرضه سرًّا «لاعتبارات تهم أمن الدولة» إلى أضخم خرق غير قانوني للخصوصية في تاريخ فرنسا الجمهوري، فبناءً على أوامره قام فريق من الحرس غير مرخص له بالتنصت على هواتف المئات من السياسيين والصحفيين والناشرين والشخصيات الباريسية. وقد برَّر الرئيس هذا بأنّه كان يحتاج أن يعرف إن كان أي من هؤلاء يستعد لإفشاء تفاصيل عن مرضه، ولكن كان هذا أيضًا عذرًا للحفاظ على حياته العائلية السرِّية، وتأمين سلامة بينجو وابنتهما اللتَين كانتا تعيشان سرًّا على نفقة الدولة في المأوى والحماية. لقد أنكر ميتران أي تنصت على الهاتف عندما أجاب على سؤال من التلفزيون البلجيكي قائلًا: «لا يتنصّت قصر الإيليزيه على أحد، لا تنصّتَ هنا».

أحاطت هذه الصبغة من السرية زياراته لبلدان أجنبية إذ كان يُعدُّ طائرتين: واحدةٌ له وأخرى تصل متأخرة بعض الشيء تحمل عائلته السرية. علم قادة دول أجنبية بالأمر وربما تكهنت بعض الصحف بحقيقتها، ولكن لم يُكتب أو يُقال شيء، وأصبح الكذب مكوِّنا أساسيًّا في الحياة اليومية، إلى حدٍّ أنه تسرَّب إلى مساحات من الحياة السياسية للرجل، فصرنا اليوم مثلًا نعرف أنه وبالرغم من كل إنكاره بأنه أعطى الإذن في شهر تموز/ يوليو لسنة 1985م للمخابرات الفرنسية بإغراق سفينة «راينبو ووريير» التابعة لمنظمة السلام الأخضر العالمية، التي كانت تُحضِّر للتشويش على اختبارات نووية فرنسية في المحيط الهادي، وقد أكَّد الأميرال بيير لاكوست هذا الخبر في شهر تموز/ يوليو لسنة 2005م.

وللكاتب الفرنسي تييري فيستير الذي عمل متحدثًا رسميًا باسم بيير موروا الوزير الأول في حكومة ميتران الاشتراكية الأولى، رأي غريب وتاريخي حول موقف ميتران من الحقيقة، فهو يزعُم أن الجنرال دي غول صاح مرة: «ما لي وللحقائق؟ هل تظن أنه بإمكاني إنشاء حكومة فرنسية حرة ضد الإنكليز والأميركيين باستعمال الحقائق؟ يُصنع التاريخ بالطموح لا بالحقائق»[1]. ويقتبس فيستير هذا المقطع ليبرهن على أطروحته القائلة: إن الذهنية الفرنسية تعتبر الكذب أصلًا في السياسة والصدق استثناءً فيها، وأن كل من يحاول معالجة تصرفات السياسيين بمعيار الصدق ساذج التفكير. ويصل إلى المحاجة أن الشعب الفرنسي، وبخاصة النُّخب، لا يستوعب كيف يمكن أن يُوبَّخ بيل كلينتون وقد كانوا مرتاعين من تبعات مثل هذا التوبيخ على قدرتهم على الحفاظ على سرية حياتهم الخاصة، خاصة الجنسية منها. ويظن بيستير أن ذلك يفسِّر رد فعل الشعب الفرنسي، أكثر من مجتمعات ديمقراطية أخرى، ساخرًا وواثقًا بصفاء النفس، وأكثر امتعاضًا من نمط العيش الأميركي.

ويبقى السؤال الذي تصعُب الإجابة عنه أكثر هو: هل كان ميتران ليختار هذا السبيل من السرية والغموض والاستبداد في كل الحالات، وبغض النظر عن حالته الصحية؟ هل كان مجبولًا على الزهو بذاته ومتغطرسًا ومتعلقًا بحبائل السلطة ومغرياتها؟ وبما أنه سبق لي مراقبته قبل أن يصل إلى السلطة، لم ألاحظ أي سمات طاغية مشابهة آنذاك، أعتقد أن المرض كان العامل المحفِّز، ولكن كأمور أخرى تتعلق بميتران لا يمكن لأحد أن يكون متأكدًا.

السجل الرئاسي

أثبت ميتران أن رؤساء الحكومات قد يكونون مرضى وحالاتهم عسيرة وعلاجهم متطلِّبًا غير أنهم لا يزالون قادرين على الحكم بفعالية، وفي هذا فهم لا يختلف عن بقية الناس. قد شهد علاج السرطان تقدمًا هامًّا، وصار المرضى اليوم قادرين على تحمل علاجات قاسية بشكل أفضل. كان ميتران في هذه المرحلة من العلاج لا يزال يستعمل الهرمون فقط، وهو أقل إجهادًا من العلاج الكيمياوي. وبالرغم من كل ذلك، عند النظر فيما أنجزه سياسيًّا في تلك السنوات وخصوصًا في ولايته الأولى (1981 ـ 1988م) يَعجب المرء لكثرة ما أنجزه.

كان ميتران رئيسًا نشطًا في ولايته الأولى، إذ تحدَّث للعموم ألفًا وسبع مائة مرة رغم

(1) Thierry Pfister, **Lettre ouverte aux gardiens du mensonge** (Paris: Albin Michel, 1999).

عيشه خوف فقدان الصوت، والتي هي أحد المضاعفات الجانبية للعلاج، لقد سافر إلى الخارج في مائة وأربع وخمسين مناسبة، وقام بستين زيارة رسمية لخمس وخمسين دولة، وبسبعين رحلة ذات يوم واحد، وحضر ثمانية عشر اجتماعًا للمفوضية الأوروبية، وستة اجتماعات للقمة. وأمام هذا السجل الحافل، يصبح من الصعب المحاجة بأنه كان عليه الاستقالة في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 1981م. حيث من العسير الزعم بأن مرضه قد أثَّر على اتخاذه القرارات بأي شكل من الأشكال طوال سنواته السبع الأولى رئيسًا.

فخلال علاجه الأولي، حين كان منتقدوه يجهلون حقيقة مرضه، خضع ميتران لضغوطات شديدة من اليمين الفرنسي الذي كان يحتقر ما اعتبروه اهتمامًا حديثًا بالاشتراكية وخيانته للبورجوازية. كانت أهم محاور هجومهم الأول، معالجته الفاشلة في البداية للملف الاقتصادي، وتلهفه على النمو، عكس دورة الاقتصاد العالمي في سنتي (1981 و1982م). كما خضع ميتران أيضًا لضغوطات من اليسار للوفاء بوعوده الانتخابية، لا سيما وأنه كان ثمة وزراء شيوعيون في حكومته، لقد قام بعدئذ بإعلان خطأ نادر قائلًا: «لقد كنت متحمسًا بفعل نصرنا الذي أخذ ألبابنا. وكان الجميع يتوقعون بأن نسق النمو الاقتصادي سيعود إلى الارتفاع بحلول سنة 1982م، وبصراحة، افتقرت إلى الخبرة اللازمة لمواجهتهم»[1]. ولسائل أن يسأل في حالة كان وضع الرئيس الصحي أفضل، هل كان سيتوجه أكثر نحو اليسار؟ كباحث دائم عن الربح السياسي، فقد أدرك ميتران إنه بإمكانه تحمل فشل في الخطة الاقتصادية لليسار في وقت مبكر من الفترة الرئاسية بحيث يمكنه إحداث تغيير. وكان أيضًا يناسبه أن يكون على وفاق مع اليسار، وأن يتعرض لهجمات اليمين في هذه الأشهر الأولى الصعبة من العلاج.

في 23 آذار/ مارس سنة 1983م غيّر ميتران خطته الاقتصادية، فرفع من الضرائب وأبقى الفرنك الفرنسي ضمن النظام المالي الأوروبي. وبمساعدة وزير المالية جاك ديلور أقنع ميتران المستشار الألماني هلموت كول بإعادة تقييم المارك الألماني ب 5.5 % وفي وقت لاحق، كان كل من هلموت كول وميتران وديلور، الذي كان عندئذ رئيس المفوضية الأوروبية، مسؤولين عن اتفاق سنة 1985م في العمل الأوروبي المشترك، ومن ثمة ظهور العملة الموحدة في اتفاقية مازريخت وإنشاء منطقة اليورو. كان الثلاثة شديدي الحماسة للاندماج الأوروبي، وقد دعم ميتران هذه القضية ببراعة واقتناع، منتهيًا إلى فوز طفيف في

(1) Tiersky, **Francois Mitterrand**, p. 133.

الاستفتاء الخاص باتفاقية ماستريخت في أيلول/ سبتمبر من سنة 1992م والتي دشّنت عملة اليورو في القانون.

ومنذ بداية فترته الرئاسية، ساند ميتران غاستون ديفير ـ وهو زعيم اشتراكي محترم وعمدة سابق لمدينة باريس ـ في تشريع للامركزية. وبعد مائة وخمسين عامًا من حكم المحافظين المعينين من باريس في عهد نابليون في مدن فرنسا الداخلية، قُلّصت السلط المركزية للدستور الفرنسي. كما تقدم ميتران بشكل مبدع بسلسلة كاملة من السياسات لتدعيم حقوق المرأة.

لقد حدثت إحدى أهم اللحظات في حياة ميتران السياسية يوم 21 كانون الثاني/ يناير 1983م عندما خاطب مجلس النواب الألماني قائلًا: «إن السوفيات بصواريخ (س ـ س ـ 20) يهددون بشكل أحادي الاستقرار في أوروبا، أنا لن أقبل هذا، وأعتقد أنه يجب علينا تسليح أنفسنا حتى نعيد التوازن». وقد استعمل ميتران نفوذ الرئاسة الفرنسية ليقنع الديمقراطيين الاشتراكيين الذين كانوا آنذاك في المعارضة بسياسة دفاعية حكيمة. لقد ساهمت مبادرة ميتران في تعزيز التحالف عبر ـ الأطلنطي، وأنهت إلى الأبد كل مخاوف واشنطن السابقة عن كيفية تعامل الرئيس ميتران مع الحزب الشيوعي الفرنسي. ويعود الفضل في تحييد الشيوعية الفرنسية بشكل حاسم منذ ذلك الحين في جانب كبير منه إلى ميتران.

وفي سنة 1982م ساند ميتران بريطانيا العظمى ومارغريت تاتشر عند الغزو الأرجنتيني لجزر الفوكلاند، وتعاون مع البريطانيين بكشف أسرار حول طائرات «سوبر إيتندار» الفرنسية، وصواريخ الإيكزوسيت التي بيعت للأرجنتين. لقد كان مفتونًا بتاتشر حيث قال مرة لرولاند ديما، حليفه المقرب ووزير خارجيته لاحقًا: «يا لهذه المرأة تاتشر، لها عيني قيصر وفم مارلين مونرو». وكانت العلاقات الإنكليزية ـ الفرنسية جيدة بشكل مدهش طوال فترة حكمه. ولكن كل النجاحات السياسية الواضحة التي كللت فترته الرئاسية الأولى، لم يكن يجدر به ـ حسب أي تقرير طبي منطقي ـ المنافسة مرة أخرى في انتخابات سنة 1988م. وقد نجم قراره بالمشاركة في الانتخاب عن رغبته في مزيد من تعزيز نجاحه السياسي. إذ خرج منتصرًا من صراع على النفوذ دام عامين مع رئيس الوزراء آنذاك جاك شيراك الذي يمثل تحالف اليمين. لقد فُرض شيراك على ميتران وزيرًا أولًا عندما فاز اليمين بأغلبية المجلس الوطني سنة 1986م. كان ميتران ضعيفًا جدًّا على الأرجح لما خسر أغلبيته البرلمانية، غير إنه كذّب الخبراء الذين توقعوا أن يبرز شيراك على أنه الأقرب إلى الرئاسة.

وعوضًا عن ذلك، كان ميتران هو من خرج من هذا الصراع على النفوذ الذي دام عامين في صورة الأجدر بثقة الناخبين وتعاطفهم. وبدأ في تحديد طريقة لتقاسم السلط بتوزيع للمسؤوليات سيمثل سابقة للمستقبل: إجمالًا، سيحتفظ الرئيس لنفسه بصلاحيات حول السياسة الأمنية والخارجية، في حين يمتلك الوزير الأول صلاحية التصرف في السياسة الداخلية، كما يشير ميتران إلى ذلك ببلاغة عالية: «في حين تعود الكلمة الفصل إلى البرلمان في المسائل الاقتصادية والاجتماعية، سيشرف الرئيس عليه لاعبًا دور: الوسيط ـ الحكم». وعلاوة على ذلك، «تقع مسؤولية استعمال أسلحتنا على رئيس الدولة» لذا فقد حدد ميتران قائلًا: «لا سبيل إلى أن أكون رئيسًا عاجزًا ومنزوع الصلاحيات».

وفي يوم 22 آذار/ مارس لسنة 1988م، وبعد بعض التردد، دخل ميتران رسميًّا سباق الانتخابات الرئاسية، ولم يشك سوى القليل في أنه سيفوز، ولكن ميتران، كما كتب الدكتور غوبلير، لم يستشره ولا استشار البروفسور ستيغ، اللذان أمل كل منهما في نفسه أن الرئيس لن يترشح مرة أخرى للانتخابات. ويعتقد غوبلير أنه في حال سُئل كان ستيغ ليجيب: أنه عاجز عن أية توقعات طبية يقينية، ولكن المخاطر كانت جسيمة للغاية. وقد زعم غوبلير أن ستيغ قد أمدَّ ميتران آنفًا بإحصائيات تبعث على التفاؤل تبين أن نصف مرضى سرطان البروستات على الأقل يعيشون لأربع أو خمس سنوات، وأنه بعد هذه المرحلة يساوي معدل الموتى في هذه الحالات معدل الموت العادي، ويموت هؤلاء المرضى من جراء أسباب أخرى. لكل مريض تقريبًا القدرة على حجب المعلومات التي لا يريد الاستماع لها، ويتبنى تلك التي يجدها ملائمة، ولم يكن ميتران استثناءً، إذ إن ذهنه في الغالب تعلَّق بهذه المحاورة بالذات، ولم يشأ أن يسمح لأطبائه بالدوس على أحلامه في فترة رئاسية ثانية بالسؤال عن نصيحتهم العارفة. قد يكون جزء منه قد صدق بالفعل أنه نجح في التعافي من السرطان في تلك المرحلة، وأنه قادر بعد ذلك على هزيمة شيراك. ففي أيار/ مايو سنة 1988م فاز ميتران على نحو مقنع للغاية في الجولة الثانية بنسبة 54% من جملة الأصوات مقابل 46% من الأصوات لصالح شيراك.

ولأسباب لا تزال إلى الآن مجهولة، صار ميتران على استعداد لبحث احتمال الاستقالة في حزيران/ يونيو سنة 1990م مستعملًا تدهور صحته ذريعة. ويصف غوبلير إحدى لقاءاته مع الرئيس في شأن التقارير الطبية الدورية، بأن مفاجأته كانت كبيرة لما اقترح عليه الرئيس كشف جزء من الحقيقة حيال حالته الصحية. ويذكر غوبلير قول الرئيس بعد أيام قليلة: «من

الممكن أن أقرر الرحيل في آب/ أغسطس، وفي ظل هذه الفرضية عليك أن تهيء الظروف الملائمة فيما يتعلق بحالتي الصحية، وإذا قررت الانسحاب فسنعلن كل شيء، ولكن فقط في تلك الحالة وحينها سأحادثك بالهاتف». أبرزت المسودة الأولى لتقرير غوبلير الصحي أن الرئيس يشكو من إرهاق شديد غير محدد السبب إلى الآن، وأنه في حاجة إلى راحة تعقبها فحوصات طبية أخرى. ورأى كبار معاوني الرئيس في هذه الصياغة «قنبلة سياسية موقوتة» فحذفت من التقرير الطبي الدوري بناء على طلبهم، وعوض ذلك أصدر تقرير عادي تمامًا إلى الصحافة. ولكن أبقى غوبلير على تحذير طبي ضمني بالإحالة على أن فحوص دم الرئيس تبرز معدلًا عاليًا من عوالق الإيريثروسيت[1] وهي في بعض الأحيان إشارة إلى مرض خطير قادم، سمع غوبلير بعد ذلك بأن تفكير ميتران العجيب في الاستقالة الذي لم يعزه إلى الظروف الصحية قد ألغي الآن.

هل كان يجب على ميتران الاكتفاء بولاية واحدة وأن ينسحب عن الحياة السياسية في سنة 1988م؟ يبرهن أصحاب هذا الرأي على صحته بالقول، إن ميتران قد أظهر تراجعًا في حكمته السياسية خلال الولاية الثانية، ويشيرون أساسًا إلى معارضته الأولية لإعادة توحيد ألمانيا بعد سقوط جدار برلين في سنة 1989م، وقد شاركته تاتشر في هذا الموقف مما أضر البلاد بعلاقات فرنسا وميتران نفسه بألمانيا. وإلى ذلك الحين، كان ميتران قد أظهر سداد رأي شبه مطلق في علاقته بالمستشار هلموت كول، ووصلت شراكتهما ذروتها حين تصافحا في يوم 22 أيلول/ سبتمبر 1984م تخليدًا لذكرى معركة «فيردون» في الحرب العالمية الأولى. ولكنه دخل الآن في مشاحنات مع ألمانيا حول مسألة إعادة التوحيد، إذ كان يخشى أن ألمانيا الموحدة لن تساند مشروعه للاندماج الأوروبي بذات حماس ألمانيا الشرقية لهذا المشروع. وكانت لتاتشر مخاوف أخرى تتمثل في توحيد القوة الألمانية، فأرادت أن تستميله إلى أن يشاركها في معارضة إعادة التوحيد، ولكنها فشلت في النهاية. حيث حل المسألة بالطريقة التي يحذقها أكثر، عقد مع هلموت كول صفقة سرية: في مقابل

(1) كريات الدم الحمراء هي خلايا دم حمراء وظيفتها امتصاص الأوكسجين من الرئتين عند استنشاق الهواء، وحمل هذا الأوكسجين في الدم إلى الأنسجة، ثم العودة بثاني أوكسيد الكربون وبخار الماء الذي ينفث عند الزفير. وتعيش كريات الدم الحمراء لمدة 120 يومًا. ويطلق مصطلح «سرعة تثفّل كريات الدم الحمراء» (ESR) على مدى سرعة انقسام الخلايا واستقرارها في الصفائح الدموية (الصفائح الدموية أو المصل هو السائل البروتيني للدم، والذي يمنحه اللون). يزداد البروتين في الصفائح الدموية عند الإصابة ببعض الأمراض، مما يعني أن كريات الدم الحمراء تستقر بشكل أسرع. وتعتبر سرعة تثفّل كريات الدم الحمراء فحصًا أساسيًا للكشف عن الالتهابات التي تصيب الجسم.

مساندة هلموت كول لمشروع اليورو الذي ينهي وجود المارك الألماني وهيمنته على الفرنك الفرنسي. يلتزم ميتران بمساندة إعادة توحيد ألمانيا. وإلى حد هذه النقطة، بينما كان قادة أوروبا منقسمين فيما بينهم حول مسألة إعادة التوحيد، كانت الولايات المتحدة بقيادة الرئيس جورج بوش الأب الداعم الأساس لهلموت كول، ولكن في مقابل هذا التراجع في الدهاء السياسي في ولايته الثانية، لا بد من الثناء عليه في ملف الأكراد، وبخاصة استعداده لمؤازرة التدخل العسكري، مؤسسًا آفاقًا جديدة للتدخل الإنساني.

واجب التدخل

استغل ميتران اجتياح صدام حسين للكويت يوم 2 آب/ أغسطس سنة 1900م لممارسة صلاحياته الكاملة في المجال المحفوظ له، وهو السياسة الأمنية. كان يصارع لإثبات نفسه منذ وقت طويل، إذ برهن زميله في الحزب الاشتراكي ميشال روكار الذي عينه وزيرًا أولًا بعد تردد طويل على فعاليته وشعبيته. وأخذ نفوذ ميتران يذوى، منذ الانتخابات الرئاسية، فأراد أن يهيمن على هذه القضية الدولية، بأن طلب من روكار ألا يقطع عطلته البحرية ليتعامل معها. واتجه ميتران إلى إقامة حوار مع بغداد مع الدعم الكامل لاستعداد أميركا لاستخدام القوة ضد صدام إذا اقتضت الحاجة.

كان ميتران واقعيًا بما يكفي ليدرك بأنه سيتوجب عليه في نهاية المطاف أن يقبل أنه إذا خاضت قوات فرنسية الحرب، فسيكون ذلك تحت القيادة الأميركية الشاملة. وكان يعلم أن وزير الدفاع ذا الميول القومية المتشددة جان بيير شيفانمان لن يستسيغ هذا، ولذا شجعه هو أيضًا على عدم قطع عطلته. وكان ميتران من أخذ القرار النهائي بمشاركة الفرنسيين تحت القيادة الأميركية بتأييد من مجلس النواب بغالبية 523 صوتًا مقابل 43 صوتًا، وفي يوم 14 أيلول/ سبتمبر سنة 1990م حيث أرسل خمسة آلاف جندي فرنسي من اللواء السادس خفيف التسليح إلى المملكة العربية السعودية مع خمسين طائرة، وفي النهاية شارك أكثر من اثني عشر ألف جندي ضمن قوة جرارة متعددة الجنسيات ضمت أكثر من خمسمائة ألف جندي. بدأ قصف المواقع العراقية في يوم 17 كانون الثاني/ يناير سنة 1991م، ولكن المساهمة الفرنسية لم تكن مركزية ولا موسعة شأن البريطانيين، وهو أمر وجده البعض في الجيش الفرنسي مزعجًا. ونتيجة للانتقادات المحلية حول سياسته الانبطاحية تجاه القضية العراقية، قدم شيفانمان استقالته يوم 30 كانون الثاني/ يناير سنة 1991م. في المقابل كان ميتران حاسمًا وجريئًا، إذ لم يبد أي أثر لتبعات مرضه السلبية طوال هذه الفترة.

إلا أنه أظهر استعدادًا لانتهاج طريقة جديدة في التدخل حيال الملف الكردي اتسمت هذه المرة بالكثير من الراديكالية. فقد كانت زوجته دانيال منذ فترة طويلة مساندة بارزة للقضية الكردية ومدافعة عنها. ومع نزوح المهاجرين الأكراد إلى شمال العراق في الأسبوع الأول من شهر نيسان/ أبريل سنة 1991م، فقد أقنعت زوجها بمتابعة التغطية التلفزيونية لمحنتهم. ففي الثالث من نيسان/ أبريل أرسل ميتران برنار كوشنير ـ مسؤول العلاقات الخارجية ذو الحضور الملفت، بحيث جعله الرئيس نيكولا ساركوزي وزيرًا للخارجية في سنة 2007م، إلى أنقرة للتفاوض مع الحكومة التركية حول صيغة قرار مقبولة من مجلس الأمن. ابتدع كوشنير عبارة: «واجب التدخل». كان أسوأ سيناريو يرغب به الرئيس التركي تورغيت أوزال هو تدفق لاجئين أكراد من العراق إلى الجنوب الشرقي التركي. ولذا كانت المفاجأة الديبلوماسية أنه في يوم الخامس من نيسان/ أبريل حاز قرار مشترك لمجلس الأمن بالأمم المتحدة تحت عدد (688) يأتي على ذكر الأكراد لأول مرة في قرار للأمم المتحدة على موافقة مجلس الأمن مع دعم الحكومة التركية له. وكان ذلك في غاية الأهمية للمنطقة بأكملها، ففي يوم 7 نيسان/ أبريل، بدأت القوات الجوية الأميركية في إلقاء المؤونة بالمظلات على قمم الجبال الثلجية حيث كان اللاجئون يجاهدون للبقاء أحياء في ظروف معيشية بدائية ومزرية.

وفي الثامن من نيسان/ أبريل كسب جون مايجور رئيس الوزراء البريطاني تأييد الاتحاد الأوروبي لفكرة استعمال القوات العسكرية لحماية «السماء الآمنة»، حيث ستصبح الآليات العراقية من دبابات وسيارات مصفحة وطائرات هليكوبتر ممنوعة من التحرك تحت تهديد القصف. وقد قوبل استعداد البريطانيين لتأييد هذا الإجراء ضد رغبة واشنطن بتعجب وترحيب الفرنسيين، ولم تواصل فرنسا في زعمها الأسبقية في طرح هذه الفكرة. أفضى جهد بريطاني فرنسي مشترك في نهاية المطاف إلى إقناع الرئيس بوش المتردد، الذي كان على وشك تشخيصه في أيار/ مايو بالإصابة بفرط الدرقية، بحظر أية نشاطات للحكومة العراقية شمال خط الطول 36 لقد كانت تعبئة قوات الحلفاء البرية في شمال العراق مفصلية. ففي 16 نيسان/ أبريل وبعد أسبوعين من بداية الهجرة القسرية، دخلت عملية «توفير الأمان» حيِّز التنفيذ مع انتشار قوات برية أميركية وفرنسية وبريطانية وهولندية وإيطالية وإسبانية في شمال العراق.

وبشكل محدود للغاية، بمراسلة مايجور سنة 1991م، استعملت ما كان لي من نفوذ لأقنع

الحكومة البريطانية بالتدخل بقصد إنقاذ الشعب الكردي، ونتيجة لذلك تابعت في حرص مواقف ميتران والنقاش الدولي المتصاعد حول جدوى التدخل[1]. فحتى ذلك الحين وفي خضم الحرب الباردة، فُسِّر ميثاق الأمم المتحدة بشكل حرفي، بأن على كل تدخلات الدول الأجنبية أن تكون لأغراض إنسانية رهينة طلب الدولة المعنية للمساعدة الأممية. كانت تهدف تلك التسوية إلى تجنب أية تدخلات لتخفيف الصعوبات والمواساة في المحن. إلا إن مقاربة ميتران ومايجور غيرت هذا الواقع، وأصبحت المساعدات المقدمة للأكراد أول التدخلات لأغراض إنسانية المدعومة بالقوة العسكرية، التي ستسم التحركات الدولية في التسعينات في الصومال وفي البوسنة وفي كوسوفو.

لقد ظن ميتران بشكل مثير للاهتمام في ضوء موقف جاك شيراك المختلف حول حرب العراق سنة 2003م، أن قرار الأمم المتحدة عدد (688)، الذي طالب العراق بالتوقف عن مهاجمة الأكراد، والذي أكَّد على سماح العراق بدخول المنظمات الإنسانية ـ كان تفويضًا من الأمم المتحدة للتدخل العسكري. وقال: «للمرة الأولى توقف الإحجام عن التدخل في النقطة التي أضحى فيها عاجزًا عن مساعدة المهددين بالخطر». وقد ذهبت الولايات المتحدة خطوة أبعد وأكدت أن القرار رقم (688) قد كرَّس ما جاء في القرار السابق رقم (678) الذي يشير إلى استعمال «كل الوسائل اللازمة لحماية المدنيين»، وقد عارض بعض القانونيين في الأمم المتحدة هذا الربط، وأن القرار رقم (688) لم يحل بالذات على القرار رقم (678). ولكن كان المهم في الأمر أن أعضاء مجلس الأمن وافقوا على هذا التحرك جاعلين التحاليل القانونية للنصوص غير ذات بال.

ولكن رغم أن ميتران أبدى حماسة مثيرة للإعجاب لتكريس واجب التدخل في القضية الكردية، فإن سجله في التدخل «لمساعدة المحتاجين» كان أقل روعة في أماكن أخرى. وفي حقيقة الأمر ألقت محاولاته الفاشلة في هذا الصدد بظلالها على ولايته الثانية في سدة الرئاسة. يصح هذا القول خاصة في ملف البلقان ليبقى السؤال المهم: هل يعود هذا إلى تغير في مواقفه أم إلى تبعات مرضه؟ ففي شهر كانون الأول/ ديسمبر، وخلافًا لآرائهما السابقة، تراجع ميتران ووزير خارجيته رولان ديماس عن معارضتهما للطلب الألماني لاعتراف الأمم المتحدة بكرواتيا قبل التسوية الشاملة في يوغوسلافيا السابقة، مما ترك البريطانيين في

(1) David Owen, **Balkan Odyssey** (London: Victor Gollancz, 1995), pp. 14-17.

موقف حرج، فسارع جون مايجور ووزير خارجيته دوغلاس هيرد إلى قبول الاعتراف أيضًا على مضض. وبصورة أكثر حكمة، رفض الاعتراف كل من مفاوض الاتحاد الأوروبي اللورد كارينغتون وممثل الأمم المتحدة سايريس فانس إضافة إلى الحكومة الأميركية. وبعد بضعة أشهر، وبقيادة الولايات المتحدة هذه المرة، تقرر الاعتراف بالبوسنة والهرسك دونما تعبئة لقوة أممية ذات صلاحية في تحييد الصرب والكروات، لكن هذا الأمر أشعل فتيل الحرب في البوسنة. شرع صرب البوسنة بدعم من صربيا في التطهير العرقي لمناطق شاسعة من البوسنة مجبرين كثيرًا من المسلمين والكروات البوسنيين على مغادرة منازلهم فيما يعتبره الصرب، وفي غالب الأحيان وفق دلائل تاريخية واهية، قراهم أو مدنهم. لقد ترافق هذا مع حملات قتل واغتصاب بربرية وتراكم للناس في المخيمات في وضع أشبه بالمخيمات النازية إبان الحرب العالمية الثانية، ومثل الكثيرين حول العالم راعني تسامح الأوروبيين والأميركيين مع هذه الحوادث الفظيعة. ففي أوائل تموز/ يوليو طالبت علنًا بالتدخل العسكري. وكنت متعجبًا ومنزعجًا لعدم استعداد بريطانيا أو فرنسا لاستعمال قواتهما البرية أو الجوية لدرء التطهير العرقي الصربي المسلح السافر المتواصل. كما تحججت حكومات دول الناتو بأنه لم يكن ثمة سبيل للتدخل.

ونظرًا لنقدي العلني، أدهشني أن يطلب مني أواخر شهر آب/ أغسطس سنة 1992م أن أكون مساعد رئيس ندوة جديدة للاتحاد الأوروبي حول يوغوسلافيا السابقة، رغم أني كنت أعرف أن سايريس فانس مساعد المدير بالأمم المتحدة قد ألحَّ في توظيفي. واعتبرنا أن مهمتنا الأولى بصفتنا ممثلين للأمم المتحدة وللاتحاد الأوروبي إيجاد خطة سلام عادلة وإذا رفض الصرب هذه الخطة، سيطلب من ميتران ومايجور وبيل كلينتون (الرئيس الأميركي الجديد) استخدام قواتهم العسكرية لتطبيقها. وكنت أعلم أن ميتران ومايجور لم يكونا ليأذنا لهذه القوات بالاشتباك مع جيش صرب البوسنة في معركة شاملة، إذا لم تشارك الولايات المتحدة أيضًا بقوات عسكرية، رغم أنهما ملتزمان بالمشاركة الكاملة في بعثة الأمم المتحدة للتدخل الإنساني.

لعلي أحسست بتفاؤل مبالغ فيه، بأن امتعاض الرجلان واستعدادهما لاستعمال القوة العسكرية ضد حكومة العراق، قبل عام فقط، لحماية الأكراد إشارة إيجابية على أنهما قد يغيران موقفهما، رغم أن القوات الأميركية كانت الطرف الأكثر فاعلية في هذا التدخل. وقد كنت متطلعًا شخصيًّا إلى تحول القيادة من الأمم المتحدة إلى حلف شمال الأطلسي،

ودعمت منطقة حظر جوي يؤمنه الناتو الذي زرت مقره في كانون الأول/ ديسمبر 1992م بدعم من الأمين العام للأمم المتحدة.

التقيت ميتران في قصر الإيليزيه مطلع أيلول/ سبتمبر، وكنت قبل ذلك التقيت مايجور في لندن. بدا ميتران شاحبًا للغاية، غير أن تصرفاته اتسمت بالإصرار الواضح والهدوء واللباقة. وقد أخبرني أنه رغم دعمي السابق للضربات الجوية ضد الصرب، فإنه يجب على ألا أتوهم أبدًا أن فرنسا قد تساند مثل هذا الإجراء. لم يفاجئني هذا إذ أكّد لي ذلك مسبقًا في لندن وزير الدفاع الفرنسي الذي كان رأيه أقرب إلى رأيي، إلا إن نبرة رد ميتران خيبت أملي بشدة، ولكني واصلت الرجاء أنه سيستعيد الحماسة التي أبداها لحماية الأكراد بالإذن للتدخل المسلح لدعم تسوية السلام التي كنت وفينس عازمين على طرحها في أقرب وقت ممكن. وبعد أشهر قليلة وصلت السرية التي أحاطت بمرض الرئيس إلى نهايتها.

نهاية السرية

شاع خبر مرض ميتران يوم 11 من أيلول/ سبتمبر سنة 1992م عندما صار من المحال تفادي إجراء عملية جراحية في المستشفى لتخفيف ضغط البروستات على المثانة. وقد أدّى هذا التضخم في البروستات إلى عجز الرئيس عن إفراغ مثانته، وهذا من الأعراض الجانبية المعتادة والمزعجة في آن. لقد كان قبل إجراء العملية ونتيجة لتضخم البروستات يضطر إلى الذهاب إلى دورة المياه بنسق مطرد. وقبيل مناظرته التلفزيونية الهامة والناجحة حول مساندة معاهدة ماستريخت مع فيليب سيغان يوم 3 أيلول/ سبتمبر، اضطر ميتران إلى الاستيقاظ اثنتي عشرة مرة في الليلة السابقة. ولما آن وقت المناظرة، لم يكن ثمة سوى فقرة واحدة للإعلانات التلفازية تمكنه من الذهاب إلى دورة المياه، فأبدى ميتران عندئذ، كما في مرات أخرى أثناء مرضه، إرادته الفولاذية وجلده وشجاعته. جعلت العملية الجراحية من تواصل السرية أمرًا محالًا. يذكر الدكتور غوبلير أنه عندما كشفت مدة مرض الرئيس لهيبار فيدرين الكاتب العام لقصر الإيليزيه تعجب قائلًا: «لا بد أنك تمزح! أنى لكم بملازمة هذا الدور طوال تلك المدة؟!».

وبعد انكشاف خبر مرضه بعد إجرائه العملية الجراحية المسماة بالشق المجهري، عاد ميتران لانتهاج الصراحة حيال وضعه الصحي، فتحدث للعموم عن اكتشاف الأطباء سنة 1990م أمرًا غير طبيعي وهي إشارة ظن أن بمقدوره الرجوع إليها لاحقًا وقت الحاجة إذا

تدهورت حالته الصحية. وحتى حين صار خبر مرضه مشاعًا، تواصل التعتيم الإعلامي بعد إجراء العملية الجراحية، واتخذت إجراءات مكثفة لتأمين عينات البروستات المستأصلة في العملية إلى التحاليل الهيستولوجية عند طبيب يقتصر دوره على التبليغ بأن هذه الأغشية حاملة للسرطان، وطلب من هذا الطبيب ألا يكذب في عمله، ولكن جرت ترتيبات بأنه لن يذكر في أي تقرير أن هذه الأغشية تحمل علامات على أنها قد خضعت للعلاج الإشعاعي. وفي قصر الإيليزيه، لم يرد أحد أن توجد سجلات على أن الرئيس قد سمح لطبيبه بأن يصدر تقارير طبية مضللة مرة كل ستة أشهر لمدة أحد عشر عامًا، وأن الرئيس خضع سابقًا لعلاج من السرطان بالأدوية وبالأشعة. ولذا احتفظ ميتران بالحقائق حول حالته الطبية، وواصل بأمر طبيبه، الذي صار آنذاك مفتشًا في وزارة الصحة، بأن يصدر تقييمات طبية مضللة كل ستة أشهر. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1992م أوقف استعمال حبات الأستروجين واستبدلت بالعلاج الكيميائي بناءً على اقتراح طبيب أميركي. في حين لم يكن غوبلير متحمسًا لهذه الفكرة، ونصح الرئيس بالعدول عنها.

هل يسمح للرئيس ميتران بالمواصلة في خدمته للشعب الفرنسي من موقعه الحالي؟. كان الجواب القانوني الإيجاب بالطبع، إذ للرئيس المنتخب مباشرة من الشعب ولاية مباشرة، وكان لا يزال عامان ونصف حتى نهاية ولايته، ولكن تهديد عجزه تضخم خاصة خلال الولاية الثانية، وذلك هو ما حدث بالفعل. وقد صمدت صحة ميتران بالقدر الكافي لتمكنه من انتصار صعب وطفيف على تصويت حول اتفاقية ماستريخت في 17 أيلول/ سبتمبر سنة 1992م. ويبدو هذا الفوز أجدر بالملاحظة خاصة في ضوء الاستفتاء الفرنسي التالي بـ «لا» حول مشروع دستور الاتحاد الأوروبي سنة 2005م. وبمجرد انتهاء استفتاء 1992م، لم يكن لميتران أية أسباب قاهرة تمنعه من الاستقالة لأسباب طبية، ولكنه للأسف أصرَّ على المواصلة.

هل كان لمرض ميتران وقد صار الآن علنيًّا أية تأثيرات على مواقف السياسة الخارجية الفرنسية؟ كانت تجربتي المباشرة تخص السياسة الفرنسية تجاه الحروب في يوغوسلافيا السابقة منذ أيلول/ سبتمبر لسنة 1992م. قبل موسم أعياد الميلاد لسنة 1992م اقتربت أنا والجنرال فيليب موريون، القائد الفرنسي لقوة الأمم المتحدة في سراييفو، من التفاوض حول وقف لإطلاق النار. وأردت أن أقنع الإدارة البريطانية باستعمال المحاربات المصفحة الواقعة في الجزء الكرواتي من البوسنة والهرسك إلى سراييفو، ولكن قوبل طلبي بالرفض.

ولم يعد موريون قادرًا على جعل الفرنسيين يبحثون تعبئة المزيد من الآليات. ما كنا نحتاجه هو بنادق ذات أعيرة مناسبة، والأفضل أن تكون مع رادار مدمج لتأمين احترام وقف إطلاق النار مع إمكانية الرد على أي هجوم صربي بالمدفعية الثقيلة، مقابل واقع أن الحكومة البوسنية كانت تملك جنودًا أكثر من الصرب في سراييفو وحولها.

وفي كانون الثاني/ يناير 1993م، أعلنت ما سميت بخطة «فانس ـ أوين» للسلام. لم ترغب كل من فرنسا وبريطانيا في تغيير طبيعة المهمة من تدخل إغاثي محض إلى دور أمني في حفظ النظام، ما لم تكن الولايات المتحدة مستعدة للمساهمة بقوات على الأرض. كان أحد أسباب هذا التردد أنهم وبحلول شهر شباط/ فبراير فقدوا الثقة في الديبلوماسية الأميركية التي اعتبروها انتهازية، ومنحازة إلى حكومة مؤيدة للبوسنة تريد أن يحارب الغرب الصرب. ولم يدرك كثير من الأميركيين في هذه الحالة بأن عناصر الحرب الأهلية التي تواجدت جنبًا إلى جنب مع حرب قمعية في وضعية معقَّدة للغاية، محكومة بحملات التطهير العرقي للصرب والبوسنيين. كان ميتران مساندًا متحمسًا لخطة السلام هذه، سعيدًا بأني كنت مستعدًا أن أحارب نيابة عن الاتحاد الأوروبي في نيويورك ضد رغبة إدارة الرئيس كلينتون الجديدة في تحييد هذه الخطة، رغم أنها تحظى بدعم الاتحاد الأوروبي وروسيا وأغلبية كبيرة لأعضاء مجلس الأمن.

وفي نهاية المطاف في شهر شباط/ فبراير قدم وزير الخارجية الأميركي الجديد وارن كريستوفر موافقة مشروطة إلى حد كبير للعمل معنا في هذه الخطة، وكان مستعدًا لجعل النيتو جاهزًا لتطبيق هذه الخطة عند الاقتضاء. ولكنه ارتكب خطأ فادحًا في إلغاء إمكانية فرص التسوية، التي اتضح بعد عامين ونصف أنها تعمل لفائدة الصرب ضد مصالح المسلمين ذوي الأغلبية في حكومة سراييفو، التي يريد الأميركيون التعاون معها. ولأجل كسر برودة المفاوضات قبل ميتران عن طيب خاطر طلبًا مني ومن سايرس فانس في آذار/ مارس لاستضافة اجتماعٍ في باريس بالرئيس سلوبودان ميلوزوفيش. ولم يكن من السهل بالمقاييس السياسية المحلية على ميتران أن يستدعي ميلوزوفيتش، إذ تزامن هذا اللقاء مع اجتماعات داخلية هامة في نقاش حول السياسة حيال يوغوسلافيا السابقة بحضور مثقفين مثل برنار ـ هنري ليفي المدافع عن الحكومة البوسنية، وآلان فينكييلكراوت مهللًا لكرواتيا كما حلم بها فرانجو تودمان. ولكن كان استعداد ميتران لإقامة هذا الاجتماع مفصليًّا، وأبرزت تصرفاته أثناءها المكانة الكبرى التي لا يزال يحظى بها.

كنت مع ميتران لعدة ساعات يوم 11 آذار/ مارس سنة 1993م. فباستثناء لونه الشاحب وبشرته شبه الشفافة التي رأيتها أول مرة في أيلول/ سبتمبر سنة 1992م ومجددًا في كانون الأول/ ديسمبر، بدا أفضل بكثير مما توقعت، ولكأنه تعافى من مرضه. لقد كان في أحسن حالاته في الاجتماع المسائي بقصر الإيليزيه، حيث ألقى المعلومات اللازمة وكانت مداخلاته في الأوقات المناسبة، وقدَّمها في غالب الأحيان بكثير من الانفعال العاطفي، خاصة لما تحدث عن علاقات صربيا التاريخية بفرنسا، معتمدًا على تجربته الشخصية. وقد أشار ميتران أكثر من مرة إلى الفترة التي قضاها سجين حرب من حزيران/ يونيو 1940م إلى كانون الأول/ ديسمبر 1941م عندما هرب إلى فرنسا الحرة تحت حكم فيشي. وقد روى انبهاره الشديد ببسالة السجناء الصرب في مخيم سجناء آخر يقع في الطرف المقابل من الطريق في ظروف أسوأ بكثير من ظروف سجنه هو. وقال: إن الاختفاء الحالي لصربيا عن الساحة الأوروبية والفراغ الذي خلَّفه ذلك، يستدعي إلى نفسه ذات الشعور الذي أحسَّ به عندما سمع نبأ سقوط بلغراد في سنة 1941م. وبعدها سمح لي ولفينس بتولي الحديث معظم الوقت مدعِّمًا حججنا عند اللزوم في فاعلية كبيرة، وكان ينظر إلينا عند إجابته بحثًا عن الإرشادات موضحًا في الأثناء دعمه المطلق لمقترحاتنا، وقد وصف خطة السلام في إحدى المراحل بـ «الطفل الذي فاق جماله توقعات والديه» وقد تأثَّرت كثيرًا بالحزم والحماسة التي أبداها. وكان أحد الأسباب التي كنت أجهلها آنذاك وراء تحسن حالته الصحية، هو أن العلاج الكيمياوي الجديد لم يلائم حالته، فاستبدل بعلاج الهرمونات السابق، كان لعلاج الكيمياوي سجل جيد في معالجة العديد من أنواع السرطان، ولكنه كان ذا تاريخ مخيب للآمال في علاج سرطان البروستات.

كان من المثير مشاهدة ميتران وهو يستعمل كل أساليب الإقناع والحجاج مع ميلوزوفيتش فقال: إن فرنسا إحدى أصدقاء صربيا التاريخيين، لذا فهي لا تود أن ترى صربيا معزولة أو خاضعة لعقوبات قاسية، وعلى ميلوزوفيتش مواجهة مستجدات الوضع ومعطيات المناخ السياسي الدولي. فإذا تواصلت الحرب فلن يمكن حتى لأقدم أصدقاء صربيا وحلفائها فعل الكثير لمنع تشديد العزلة الدولية عليها، وكان من غير المرجَّح أن تخرق حتى روسيا الإجماع الدولي إذا ما دعي إلى عقوبات أشد، وهو ما سيحدث قريبًا، فكان لزامًا التوصل إلى اتفاقية في الأيام القليلة التالية. وكان ميلوزوفيتش أمام خيار تاريخي، ولم يزعم أحد إنه بإمكان ميلوزوفيتش التحكم تمامًا بصرب البوسنة، غير إنهم كانوا يعتبرونه أخًا أكبر، فكان

له لديهم نفوذ حقيقي. فإما أن تتواصل الحرب وتتفاقم الأزمة وتشتد العقوبات الدولية، وإما أن تتوقف الحرب، ممكِّنة صربيا من إعادة بناء اقتصادها، والاضطلاع بدورها الذي تستحقه في أوروبا. ولما حدث هذا اللقاء عقب زيارة ميتران لواشنطن وقبيل زيارته لموسكو فقد جاء في توقيت مناسب تمامًا.

وكما كان متوقعًا كانت آخر ملاحظة وجهها لي ميلوزوفيتش بعد الخاتمة المؤثرة لكلمة ميتران: «لماذا لم يثر الرئيس مسألة رفع العقوبات؟»، ولم يكن ميلوزوفيتش عرضة البتة لتأثير المشاعر، فلم يبد عليه أنه تأثر إطلاقًا بحجج ميتران، وكان على استعداد لأن يبرم الصفقة حتى وإن كان هذا يعني انسحاب الصرب من 70% من الأراضي التي يحتلونها الآن، والاكتفاء ب 43% من أرض البوسنة والهرسك، وذلك من المفارقات العجيبة بالنظر إلى انتقادات إدارة كلينتون الأولية، بأن خطة السلام منحازة تمامًا إلى الصرب. وبعد نجاح ريتشارد هولبروك واتفاقات دايتون في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر وبعد أن خسر الكثيرون حياتهم أو عانوا صعوبات كبيرة، احتفظ الصرب أكثر بنسبة 6% من السابق. ومن المثير للاهتمام أن رؤساء الحكومات بمن فيهم ميلوزوفيتش عادوا إلى باريس في 14 كانون الأول/ ديسمبر 1965م لتوقيع الاتفاقيات في اجتماع رعاه الرئيس شيراك.

لم يكن ميلوزوفيتش عنصريًا ولا حتى قوميًا متعصبًا، رغم أنه استغل الشعور الوطني بشكل واضح، ولم يكن حتى شيوعيًا بل كان قائدًا سياسيًا مستبدًا شغوفًا بممارسة السلطة والحفاظ عليها، ومستعدًا لخوض الحروب واستخدام الميلشيات واغتيال الخصوم السياسيين. لقد انتحر والداه وعمّه المُحب. ولم تكن ثمة أية علامات واضحة على اضطراب ذهني في المرات القليلة التي قابلته فيها، رغم أنه كان يبدو محبطًا أحيانًا، ولكن دون حالة اكتئاب مرضي. وبعد تسع سنوات من هذا اللقاء في باريس، اعتقل ميلوزوفيتش سنة 2002م وجلب إلى محكمة الجنايات الدولية الخاصة بيوغوسلافيا في لاهاي. ولكنه كان قبل ذلك قد تفاوض مع الأمم المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا، وقابل عديد الرؤساء ورؤساء الحكومات والوزراء الأجانب، دون أن يبدي أي انشغال بأنه قد يجلب يومًا ما إلى المحاكمة، ولم يتمّ التطرق البتة إلى إمكانية منح العفو، ولم يطلب أبدًا إدراج هذا البند في أي من الاتفاقيات المختلفة، ولدى وصوله إلى لاهاي أُكتشف أن ميلوزوفيتش يعاني من ارتفاع ضغط الدم. وتلت ذلك محاكمة مطولة بشكل غير مسبوق، واستُنتج عقب

التشريح أن موته في السجن سنة 2006م، قبل أن تصل المحاكمة إلى حكم نهائي شامل، كان نتيجة لانسداد شريانه التاجي، أو نتيجة لأزمة قلبية، وقبيل موته مباشرة شاعت روايات من مصادر مطلعة تتحدث عن تناوله خلسة لدواء يبطل مفعول دواء تخفيض ضغط الدم بغرض الزيادة في مدة مرضه، وبالتالي مدة مداولات محاكمته، ومن المثير للريبة في ضوء هذه المعلومات، أن وفاة ميلوزوفيتش وقعت قبيل فرض مراقبة ضد الانتحار، وهو إجراء يسبق إصدار الحكم النهائي في القضية.

لما قدمت شهادتي للمحكمة سنة 2003م وشاهدت ميلوزوفيتش لمدة يومين سجينًا في طور المحاكمة، بدا لي في صحة جيدة، ولم يكن ثمة من سبيل بالنسبة له لاستعمال الاضطراب الذهني وسيلة دفاع أمام المحكمة. لقد هيمن على المداولات متوليًا الدفاع عن نفسه، ومسائلًا إياي وبقية الشهود قصد الدفاع عن صربيا وعن الأمة، وبصفة ثانوية عن نفسه باعتباره رئيسًا. تساءلت آنذاك عن إمكانية محاولته الانتحار عوض محاكمته باعتباره مجرمًا عاديًا، كنت أشك أن إيهامه لنفسه كان عميقًا لدرجة تعجزه عن الإدراك أنه سيعتبر مذنبًا في أغلبية التهم على الأقل. وقد يكون هذا عاملًا في قراره تغيير دوائه، وبالتالي المخاطرة المتعمدة بحياته، ورغم إنه وصف بالوحش وبالمجنون في الصحافة، لم يكن ميلوزوفيتش أيًا منهما، بل كان رجلًا شريرًا يستبد بقدر كبير من السلطة شبه المطلقة، بغرض تحقيق أهدافه الخاصة.

وافانا ميتران ذلك المساء على العشاء في وزارة الخارجية، وهو أمر لم يفعله أي رئيس فرنسي منذ زمن بعيد. كان من الواضح أنه قرر القبول على مضض برفع العقوبات إذا ما أراد تحقيق أي تقدم مع ميلوزوفيتش. وبيّن موقف فرنسا في كلمات واضحة ومؤثرة، إذا تمَّ احترام اتفاق السلام «فإنه يجب رفع العقوبات، حالما يصير ذلك ممكنًا إجرائيًا». أقر ميتران بأن هذا الموقف قد يلقى معارضة في بعض الأوساط، وكان يقصد بقوله الولايات المتحدة، غير أنه سيستغل كل نفوذه لجعل آخرين مثل المستشار هلموت كول يدعمون هذا الموقف فـ «ستخوض فرنسا معركة رفع العقوبات وستنتصر فيها». لقد كان واعيًا تمامًا بالأهمية التي كان يوليها ميلوزوفيتش لرفع العقوبات وكان محقًا، إذ بعد ستة أسابيع في 25 نيسان/ أبريل وفي محاولة للتخلص من العقوبات وافق ميلوزوفيتش على تعديل خطة السلام بما يرضي مسلمي البوسنة. ولكن رفض صرب البوسنة هذا التعديل للأسف في

مؤتمرهم الوطني في «بيه لينا» (Bijeljina) وكانت النتيجة المستحقة تشديد العقوبات على صربيا. ولم يدع ميتران مجالًا للشك عند ميلوزوفيتش في ذلك المساء في باريس حول طبيعة العرض المقدم، ولكنه أوضح تمامًا أيضًا الخطر السياسي الجسيم في إضاعة هذه الفرصة. وكانت مهلة اتخاذ القرار قصيرة للغاية، إذ أقرَّ ميتران بصراحة بأنه سيفقد الأغلبية البرلمانية في خلال أسابيع قليلة، وسيصبح نفوذه حوالي 60% مما هو عليه الآن، وسيكون التصرف حيال العقوبات أصعب كثيرًا آنذاك، وكان هذا أداء مبهرًا من شخص سيعاني آلامًا مبرحة في غضون شهرين، وسيضطر إلى استهلاك كميات كبيرة من مسكنات الآلام، كانت هذه تقريبًا آخر مساهمة شخصية لميتران في السياسة الدولية، والتي كانت بالفعل لمسة فنان.

تقاسم السلطة

كما توقع ميتران لميلوسوفيتش، مني الحزب الاشتراكي الفرنسي بخسارة فادحة في انتخابات المجلس الوطني أواخر آذار/ مارس بنسبة 20.2% فقط من جملة الأصوات. وقد تقلصت الكتلة البرلمانية الاشتراكية من 282 عضوًا إلى 72 عضوًا في أدنى مستوى لها منذ إعادة تشكلها سنة 1971م، وقد عُوِّض آخر رئيس وزراء اشتراكي في عهد ميتران بيير بيرغوفوي بإدوارد بالادير مرشح اليمين. غيَّر ميتران في هذه الفترة الثانية من تقاسم السلطة تمامًا من استراتيجيته، مستفيدًا من شخصية رئيس الوزراء الجديد. ففي حين كان تقاسم السلطة مع جاك شيراك موسومًا بالتنافس المتواصل على النفوذ، فقد تطورت بين ميتران وبالادير علاقة شراكة متحضرة. لقد قابلت بالادير في باريس يوم 27 نيسان/ إبريل لسنة 1993م وكان رجلًا فطنًا، وكما حذَّرني الأميرال جاك لانكساد رئيس فريق الدفاع الفرنسي، كان بالادير دقيقًا للغاية وحذرًا إزاء مزيد من التوريط للقوات الفرنسية في يوغوسلافيا. وعلى عكس وزير خارجيته المعيَّن حديثًا آلان جوبيه الذي كان يتمتع بشخصية مقربة جدًّا إلى شيراك، وذي أسلوب حوار هادئ وعصري، كانت كل حركات بالادير وسكناته محسوبة سلفًا ومقيدة بالضوابط.

علم بالادير من تجربته الخاصة أنه يمكن للحكومة الفرنسية أن تواصل العمل مع رئيس يحتضر شريطة وجود تفاهم فكري بين رئيس الوزراء ورئيس الدولة. وكان بالادير كاتبًا عامًّا للإيليزيه في عهد بامبيدو حتى وفاته، وتأثر جدًّا لما طلب منه الرئيس بامبيدو وهو يعاني

الألم المبرح أن «دعني وحيدًا فلا أريدك أن تراني أبكي».علم بالادير أن بامبيدو كان على وشك الاستقالة قبيل موته، واعدًا بالتحدث قريبًا إلى الشعب قائلًا: «سأتوجه للفرنسيين بحديث، فثمة أمور يجب أن أخبرهم بها» ولكن لم يتسن له القيام بذلك الخطاب إذ توفي وهو في سدة الرئاسة في 2 نيسان/ أبريل سنة 1974م.

كان التحدي بالنسبة لبالادير هو استعمال منصب رئيس الوزراء لبناء نفوذه حتى يكون هو من تختاره أحزاب يمين الوسط للرئاسة، وليس جاك شيراك. ففي كتابه: «عامان من الماتينيون» كتب بالادير عن ميتران:

«لعبت صحة الرئيس دورًا أساسيًّا في بناء صورتي في أذهان الفرنسيين، ولم أكن أعرف سوى ما أخبرني به وأحيانًا بصورة تفصيلية، كان يعلم أنه بإمكانه الاعتماد على كتماني الأسرار، وأني لن أستغل ضعفه الجسدي لتحصيل منفعة شخصية أو سياسية. كان هذا ليكون مشينًا في نظري... وأضيف إني لن أفتخر لنفسي إذا ما حاولت إفساد الوضع بمواجهة رجل مريض»[1].

وتعاون ميتران مع بالادير بطريقة ما كان ليتعامل بها مع شيراك في الفترة الأولى من تقاسم السلطة. كتب محرر جريدة: «لوموند» في عدد 16 حزيران/ يونيو سنة 1993م أن ميتران:

«أنتج نظرية لامعة عن تقاسم السلطة المثالي بناء على مبدأ بسيط، وهو عدم تحويل الاختلافات إلى خلافات، وعلى أقصى تقدير قد تصلح هذه الاختلافات للتعبير عن التنوع أو لإطلاق الانتقادات، وألا تظل أدوات للصراع على السلطة كما حدث سنة 1986م»[2].

تحدث بالادير عن إن لهذه الوضعية فوائد خالصة، وكان على الأرجح يعتقد صادقًا أنها عامل قوة إضافية. فقد أبرز النموذجان تقاسم السلطة قوة الجمهورية الخامسة، وبرهنا على أن مؤسسات ديغول الدستورية كانت أكثر ليونة من تلك التي أثنى عليها ميتران لما كان في المعارضة.

---

(1) Edouard Balladur, **Deux ans a Matignon** (Paris: Plon, 1995).

(2) Quoted in Tiersky, **Francois Mitterrand**, pp. 228-243.

وحسب رأي الإيليزيه، فقد كان هيبرت فيدرين محقًا لما كتب: أن تقاسم السلطة في ظل حكومة يمينية كانت إيجابية بالنسبة لميتران، إذ وضعت الكثير من صلاحيات الرئيس بين يدي رئيس الوزراء. «وهذا الأمر يناسبنا تمامًا، إذ إن العاملين برئاسة الوزراء ذوو طوية سليمة، وسيكون من السهل على بالادير [وعلى رئيس طاقمه نيكولا] وبازير أن يعطلوا نشاطاتنا ولكنهم ويا للعجب التزموا بقواعد اللعبة السياسية»[1]. ورغم أن ميتران قد قيّم في شهر آذار / مارس أمام ميلوزوفيتش مقدار النفوذ الذي سيخسره في اقتسام السلطة الموالي في سنة (1993 إلى سنة 1995م) فإنه وبحلول شهر أيار/ مايو سنة 1993م تدهورت صحته وتضاءل نفوذه بشكل تدريجي، حيث كان يصل إلى الإيليزيه صباحًا من شقته، ويتجه مباشرة إلى السرير حيث يبقى معظم اليوم. وبشكل غير مفاجئ، كان لميتران دور يصغر بازدياد في صناعة القرار الفرنسي المحلي والخارجي[2]. فمنذ أيار/ مايو صار أقل اهتمامًا بالقضايا الناتجة عن انهيار يوغوسلافيا السابقة. وفي تلك الأشهر من نيسان/ أبريل ـ وأيار/ مايو حين أيّدت بشكل خاص وحتى علني، منتقلًا من المفاوضات إلى الدعم العسكري، إلا إنني لم أستطع استرعاء انتباه ميتران. وصار تركيزه بشكل طبيعي على معركته الذاتية مع الموت.

ومن المحال أن نعرف بشكل أكيد إذا ما كان بصحة جيدة، فهل سيضغط لإرساء خطة أثينا للسلام التي رفضها صرب البوسنة في بالي، ولكن تشير السجلات أنه قد يفعل ذلك. كان هذا هو ذات الرجل الذي ليس فقط أدرك الحاجة إلى التدخل لأغراض إنسانية لمساعدة الأكراد في سنة 1991م ولكن أيضًا في حزيران/ يونيو سنة 1992م ودون أن يعلم أية دولة عضوة بالاتحاد الأوروبي، طار بصورة مفاجئة إلى سراييفو، وفي ذلك بعض المخاطرة الشخصية، في مبادرة ناجحة وشجاعة لمواصلة فتح المطار. ولم تكن الصعوبات المرافقة لتقاسم السلطة لتقف في طريقه. ووفقًا لاتفاقه مع بالادير وجوبيه لم يكن ليجد معوقات إذا أراد أن يقدم الدعم الفرنسي لجهود تطبيق القانون، كان جوبيه ليسانده. ولكن فشلت فرنسا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة في تأييد تطبيق ثلاث خطط سلام متعاقبة:

(1) Hubert Védrine, les Mondes de francois Mitterrand: **A L'ELysee 1981 - 1995** (paris Fayard, 1996). pp. 56-57.

(2) Owen, **Balkan Odyssey**, pp. 123 -125.

خطة فانس ـ أوين في أيار/ مايو 1993م، وخطة عمل الاتحاد الأوروبي في كانون الأول/ ديسمبر 1993م، وفي خطة مجموعة الاتصال في صيف سنة 1994م.

لم تكن يوغوسلافيا وحيدة في معاناة تبعات فقدان ميتران لحماسة التدخل، فلو كان ميتران أفضل صحة لألحَّ على بالادير وجوبيه للموافقة على قرار مجلس الأمن طلب القائد العام لقوات الأمم المتحدة روميو دالار في ستة آلاف جندي لمنع الإبادة العنصرية في رواندا في نيسان/ إبريل1994م. ولو اتخذت فرنسا موقفًا أكثر التزامًا بموقف التدخل في الأمم المتحدة، كان يمكن أن يتجاوز تردد الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، وكانت قوة أكبر تابعة للأمم المتحدة لترسل إلى رواندا سنة 1993م. وكان من الممكن أن تستنقذ أرواح ثمانمائة ألف روندي قتلوا في أحداث العنف[1].

تعرض ميتران في داخل فرنسا لانتقاد شديد بسبب تسليح جيش رئيس الحكومة الرواندية جيفينال هابياريمانا ذي الأغلبية من الهوتو. ففي كانون الثاني/ يناير طلب دالير الإذن من كوفي عنان الذي كان آنذاك رئيس قوة حفظ السلام بالأمم المتحدة للإغارة على مخابئ سلاح الجيش الرواندي، ولكن الأخير رفض[2]. وبعد أن مات هابياريمانا في تحطم طائرة سنة 1994م، بدأت مجازر الهوتو في حق التوتسي. وبحسب عديد النقّاد، بدا الرئيس ميتران ورئيس الوزراء بالادير ضعيفين وعاجزين عن رد الفعل. وقد فشلت قوة حفظ السلام الفرنسية، ضمن «عملية الزمرد»، من إيقاف عمليات القتل، ويدّعي توتسي رواندا أن إقامة هذه القوة لمنطقة عازلة مكّنت القتلة الهوتو من الفرار.

وأميل للاعتقاد بأن صحة ميتران المتدهورة هي ما أثّر على سياسته في رواندا ويوغوسلافيا، وأجد أسبابًا لذلك. فعادة ما يوصف الأشخاص المرضى بأنهم متجنبون للمخاطرة ومترددون في التصرف، وأكثر استعدادًا لترك الأمور تسير كما اتفق دونما تدخل فيها. ولكن لا سبيل للتأكد من ذلك كما هو الحال مع ميتران دومًا، فكلما سبر المرء تصرفاته

---

(1) Lieutenant-General Romeo A. Dallaire, «Foreword», in Scott R. Feil, **Preventing Genocide: How the Early Use of Force Might Have Succeeded in Rwanda** (Carnegie Corporation of New York, 1998).

(2) Adam Lebor, **«Complicity with Evil»: The United Nations in the Age of Modern Genocide** (New Haven, CT: Yale University Press, 2006), p. 167.

ودوافعه وجد مراوحة عميقة الجذور. وربما لا يعدو أن يكون عزو خموله الأخير إلى مرضه بمثابة منحه حسن الظن.

الوفاة

وثَّقت تطورات علاج ميتران وتحولاته منذ أن صار مرضه علنيًّا ببعض التفصيل من الدكتور غوبلير، ولكن بشكل أقل منذ أيار/ مايو سنة 1993م حين اشتد المرض بميتران. واحتدت انتكاساته أكثر في تشرين الثاني/ نوفمبر، وقد جُربت العديد من العلاجات وخلطات الدواء، إذ اختلف الأطباء والجراحون حول أنجع طريقة للعلاج. ولكن لم يعد غوبلير، الطبيب الموثوق المؤتمن في علاقته بمريضه. ولم تحدث الخلافات بين أطباء ميتران، والتغييرات في علاجه تغييرًا جذريًّا في وضعه الصحي.

ولكن ثمة جانبًا من علاجه يستحق مزيد من التوضيح، وخاصة في ضوء اعتماد الرئيس كينيدي على ماكس جاكوبسون المثير للشكوك والمكنى بـ «طبيب الشعور الجيد» المذكور في الفصل الرابع، وهو استخدام ميتران لعلاجات بديلة مثيرة للشك جدًّا. يفعل الناس الكثير من الأمور في مثل هذه المواقف، فقد بدأت آن بينجو عشيقة ميتران في أخذ آراء مختلفة حول الطب البديل. وقد كان أخوه أيضًا يتابع الساحة الطبية الأميركية على أمل إيجاد مقاربات جديدة وأدوية جديدة.

وحسب غوبلير، الذي صار الآن محيدًا، تدخَّل شخص يدعى الدكتور ميركو بيليانسكي في الموضوع. وقد كان باحثًا سابقًا في مؤسسة باستور، ودكتورًا في العلوم اكتسب سمعة كبيرة بين مزاولي الطب البديل، مثل الدكتور فيليب دي كوبيير الذي استدعي هو أيضًا لقصر الإيليزيه. ويلخص غوبلير هذه المنافسة الطبية التي لم تكن الوحيدة بينه والدكتور ستيغ من المدرسة الكلاسيكية من جهة، وبين بيليانسكي وكوبيير من المدرسة البديلة من جهة أخرى. حيث شملت علاجات بيليانسكي استعمال جزيئات غير سامة مستخرجة من منتجات طبيعية، كان من المفترض أن تقرن هذه الجزيئات بأي علاج إشعاعي لتقي المرضى من العوارض الجانبية، وكان كوبيير يعتقد بأن منتجات بيليانسكي كانت أفضل الموجود واستعملها على مرضاه، رغم أنه رفض التأكيد إن كانت استخدمت على ميتران. ويبدو أن الرئيس قابل بيليانسكي بمنزله في كانون الأول/ ديسمبر 1994م رغم وجود قضية مدفوعة أمام محكمة في سانت-إيتيان حول مدى قانونية ممارسة بيليانسكي للطب وللصيدلة، وبعد المحاكمة في نيسان/ أبريل سنة 1995م فُضَّت منظمة بيليانسكي غير الربحية.

ومع استعمال علاج الهرمونات بالإضافة إلى العلاج بالأشعة، اعُتمدت أنواع علاجات أخرى. إلا أن حالة ميتران ظلت تتدهور، وصار يقضي الكثير من الوقت في سريره. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 1994م كان غوبلير لا يزال يرافق الرئيس إلى حصص العلاج رغم أنه كان واعيًا تمامًا بالتنافس، وعدم التجانس اللذين يسمان المرافقين الطبيين للرئيس، واستنتج غوبلير وقتئذ أن الرئيس لم يعد قادرًا على أداء مهامه، وأنه لم يكن يستطيع تأدية الرسالة التي ائتمنه عليها الفرنسيون. وبحلول كانون الأول/ ديسمبر تضرر صوت ميتران وصار يعاني صعوبات في الكلام، ووقّع غوبلير على آخر تقرير طبي للرئيس بالرغم من إنه لم يكشف بعد المدى الكامل لعجزه. ولم يعد غوبلير منذ ذلك الحين الطبيب الفعلي له.

وفي 8 كانون الثاني/ يناير 1996م وبعد ثمانية أشهر من ترك المنصب، توفي ميتران في نومه عن عمر يناهز التسعة والسبعين عامًا بعد أن قرر بنفسه أن يوقف العلاج. وكان طبيبه آنذاك جون بيير تاروت هو من هاتف بينجو وابنتها مازارين أولًا، ثم دانييل ميتران وأبنائها.

وبعد فترة قصيرة من وفاة ميتران، أراد غوبلير أن ينشر كتابًا حول تجربته كطبيب للرئيس ولكن حظر هذا الكتاب من النشر، وأودعت شكوى في محكمة فرنسية من دانييل وأبنائها اعتبرت الكتاب لاحقًا تطفلًا خطيرًا على خصوصية العائلة. وأصدرت المحكمة أمر حظر يمنع أي مبيعات للكتاب، ويسلط غرامة مالية على كل كتاب في حال خرق هذا التشريع. فقد اعترفت القوانين الفرنسية بحق الخصوصية منذ 150 سنة. ومنحت فرنسا هذا القانون مكانة دستورية سنة 1970م، بإدراجه في الفصل التاسع من مجلة القانون المدني الذي يشير ببساطة إلى أن: «لكل شخص الحق في أن تُحترم حياته الشخصية». ولا يسقط هذا الحق بعد الموت بل يحق لأعضاء عائلة الميت أن يقدموا طلب خصوصية بالنيابة عن الشخص المتوفى، ولم تكن الشخصيات العامة استثناءً.

وبعد بضعة أسابيع من قرار المحكمة، نُشر الكتاب على الإنترنت باللغة الإنكليزية وبحلول آذار/ مارس 1996م صار النص متوفرًا في عديد الخوادم بالولايات المتحدة، وأصبح أيضًا بطبيعة الحال متاحًا في خوادم فرنسية كذلك. وحين أقفل الموقع الفرنسي الذي يحمل هذا الكتاب، أصبحت الخوادم الأميركية هي المصدر الرئيس للمواطنين الفرنسيين لقراءة آراء غوبلير تحديًا لقانون الخصوصية في بلادهم. لقد قرأت تقرير غوبلير أول مرة باللغة الإنكليزية على الإنترنت، واخترت أن أستعمل صياغته وأقتبس منها بشكل مكثف، إضافة إلى حديثي المباشر مع الدكتور غوبلير.

هل كان يجب على غوبلير أن يكتب قصة الحيلة الطبية بمثل هذه السرعة بعد وفاة ميتران؟ أعتقد شخصيًّا، بعد تفكير عميق، أنه كان يجب عليه أن يفعل ذلك، ولكن كان من الأفضل لو أنه كتب في مجلة طبية متخصصة في البدء مع بعض التقييدات والالتزامات شأن ضمانة مراجعة الزملاء، الذين يغطون المنشورات المماثلة. لقد أجليت حقائق طبية هامة تتعلق بأخلاقيات مهنة الطب في حالة مرض ميتران. ما هي الالتزامات الحقيقية وراء «قسم أبقراط» الذي يفترض أن يقيد تصرفات الأطباء؟ هل تقيم هذه المعايير من وجهة نظر اجتماعية، وإن كان كذلك فهل يمكن الحفاظ على دور الطبيب محاورًا شخصيًّا للمريض وإيقاف الممارسة التي صارت منتشرة بجعل الطبيب صوتًا علنيًّا له؟ ستدرس هذه الأسئلة وغيرها في الفصل الثامن. في نهاية الأمر دعم قرار غوبلير، ففي شهر سنة 2004م اعتبرت المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان قرار المحاكم الفرنسية بحظر نشر كتاب غوبلير خرقًا للفصل العاشر من المعاهدة الأوروبية لحقوق الإنسان.

تركة ميتران

بعد عام واحد من وفاة ميتران وفي كانون الأول/ يناير عام 1997م. دُعيت للمحاضرة في ملتقى بيومين أقيم جزئيًّا من قبل اليونيسكو في باريس لاستذكار حياته. لقد كان وما زال أقرب صديق لي من الدوائر السياسية الفرنسية منذ سنة 1966م ميشال روكار وهو رئيس وزراء اشتراكي ناجح لكن ميتران يكرهه. حيث عدَّد ميتران في آذار/ مارس سنة 1993م في صحيفة لوفيغارو خلفاءه المختارين حسب الأولوية قائلًا في احتقار: ديلور، ليوتار، بار، شيراك، كلب شيراك ومن ثمة روكار. لقد تعمد ميتران تدمير كل خلفائه الاشتراكيين بشكل منظم وممنهج، سعيدًا بخلافته من قبل رئيس يميني هو شيراك، الذي كان دومًا يثني عليه لأنه ساعده في هزيمة الرئيس الوسطي جيسكار ديستان. ولذا فلم أدَّعِ الحيادية، ولكن بعد معرفتي به لثلاثين عامًا ومعرفتي بالاحتيال والاستغلال وحتى الفساد في ميتران السياسي كان لا بدَّ لي من الاعتراف بالرقي والمهارة في ميتران الإنسان، لقد أعجبت كثيرًا بالطريقة التي أدار بها سنواته الأخيرة بأنفة وجسارة، والطريقة التي تخلى بها عن الرئاسة في أيار/ مايو سنة 1995م حين كان في المراحل الأخيرة لمرض عضال. وقد وفَّر ذلك للمشاهدين، داخل فرنسا وخارجها، ذكرى لا تمحى، أثَّرت إيجابيًّا في فترته الرئاسية بأكملها.

وفي الذكرى العاشرة لوفاته قال هيبار فيدرين: «أوحى ميتران للجميع بالقوة والنجاح،

وقد استرعى اهتمام الجميع». ولقد وجد خصوم ميتران بأنه ليس من السهل تجاوز ذكراه، فهيمنته رئيسًا وإنجازاته في الصراع الملفت مع السرطان جعلت منه شخصية محورية في الحياة الفرنسية. كان سجله العام كرئيس لفرنسا سجَّل إنجازات داخل فرنسا، وسيذكره التاريخ في أوروبا وحول العالم عبر تعامله مع فترتي تقاسمه للسلطة وبتمسكه بالمنصب، لقد حقّق حلمه في أن يكون صاحب أطول فترة رئاسية منذ عهد نابليون.

ما زالت فرنسا تحت وقع التعقيدات والتفوق والتناقضات والاستبداد والتشعبات التي اتسمت بها فترته الرئاسية. وتخضع العادات السرية التي تخص الحياة الشخصية للسياسيين للتمحيص، وكذا التزام ميتران الراسخ بمزيد من تدعيم الاندماج الأوروبي الذي يبدو مهمًّا أيضًا بالنسبة لساركوزي في أيامه الأولى. على محصلة هذا النقاش يعتمد إذا ما كان يمكن اعتبار ميتران الرئيس الأخير، كما أخبر بنفسه كاتب سيرته الذاتية المعنونة: «الرئيس الأخير» ـ جورج مارك بينامو ـ في زمن العولمة والاندماج الأوروبي، قادرًا على تمثيل الأمة الفرنسية كما يجب. وتعتمد أكثر على مدى مواصلة ساركوزي للنهج ذاته.

وفي سنة 2006م قال جاك آتالي لما ما زال شيراك في سدة الحكم: «لم تعد فرنسا اليوم أمة مستقلة، وليست أيضًا جزءًا من اتحاد أوروبي شامل. إننا اليوم في اللامكان. ثمة حنين لملكية وحاجة لرئيس أكثر نفوذًا». وأما في خصوص رئيسه السابق فقد كان أتالي في غاية الوضوح فقال: «لقد كان فرنسوا ميتران آخر ملوك فرنسا»[1].

(1) Elaine Sciolino, Dead 10 years, Mitterrand, **«the last King»**, «lives on in French esteem», **International Herald Tribune**, 14/15 January 2006.

الجزء الثالث

شخصيات تاريخية



الفصل السابع

بوش وبلير والحرب في العراق

أدّى خليط الغطرسة والجهل ببوش الابن للقيام بمغامرات كان الهدف منها إخفاء مشاكل خارجية خطرة لطالما أرّقته[1].

ستيفن غروبارد

بدا بلير عملاقًا سياسيًّا نصفه قيصر ونصفه مسيح. وبالتزامن مع الظروف القاسية بعد فوضى العراق، بدا ضحية مكشوفة وحيدة، موصومًا بشكل شخصي كما في قضية «المال مقابل الألقاب». اكتشف بلير، مثل لويد جورج وتاتشر من قبله، أن السياسة البريطانية لا يمكن أن تقام بسهولة على نمط نابليون.

اللورد مورغان

(عن خطاب توني بلير أمام مؤتمر حزب العمال 2001)[2]

إن اتفاق الرئيس الأميركي جورج دابليو بوش، ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير على اتخاذ قرار الحرب على العراق، وتحمّل تبعاتها يبيِّن بوضوح أعراض هذا الغرور. والدليل على هذا التفسير لا يُستمد فقط من كمية المعلومات، التي أصبحت الآن متاحة للعامة عن كيفية وقوع هذه الأحداث، ولكن أيضًا، في حالة بلير، من خلال تعاملاتي الشخصية معه حول هذا الموضوع خلال الفترة الممتدة بين (1998 و2003م). هذا الفصل يختلف عن الحالات التاريخية الأخرى (الفصول 3 ـ 6) والتي لها رؤية متباعدة زمنيًّا عن الفترة التي تتناولها.

(1) Stephen Graubard, **from Theodore Roosevelt to George W. Bush** (London: Allen Lane, 2006), p. 39.

(2) Lord Morgan, **«The judgement of History»**, **Parliamentary Monitor** (2007), vol. 149, pp. 16-17.

توني بلير

رغم أن الحرب على العراق كانت عملية أميركية بامتياز، فإنه من المهم مناقشة تطور رؤية بلير للعراق منذ قدومه للسلطة في أيار/ مايو 1997م، أي: ثلاث سنوات ونصف قبل مجيء بوش إلى البيت الأبيض. التقيت توني بلير لأول مرة خلال محادثة هامة في 15 تموز/ يوليو 1996م في منزله عندما كان زعيمًا للمعارضة، وكان الموضوع هو مدى استعدادي لدعم حزب العمال الجديد علنًا. ناقشت معه موضوع العراق لأول مرة في 2 آذار/ مارس 1998م في داونينغ ستريت. ولإظهار مدى اهتمامي بنظام صدّام حسين قدّمت له كتابًا عن الأكراد كتبه جوناثان راندال، وهو أحد مراسلي الواشنطن بوست من أصحاب الخبرة، وهو ما عكس عمق اهتمامي واعتقادي بضرورة معالجة المسألة الكردية التي لطالما تجاهلتها الديمقراطيات الغربية. تمنيت لو قرأ رئيس أركان الجيش في حكومة بلير هذا الكتاب المتميز لما أثاره من أسئلة متعددة متصلة بالمستقبل. فلقد ناقش، مثلًا، تبعات هزيمة القوات العراقية سنة 1991م التي كانت مرغوبًا فيها. فكتب رندال:

> **«كان التخطيط الأميركي مزيجًا من السذاجة والسياسة الواقعية، تكتيكات أكثر من استراتيجية، لا تبدو متجانسة إلا إذا كانت افتراضاتها الغربية صحيحة. لا أحد كان ينبغي أن يستغرب من أي شيء حدث من 2 آب/ أغسطس 1990م عندما غزا العراق الكويت واحتله إلى نهاية آذار/ مارس الموالي، عندما سحق صدّام حسين انتفاضات الشيعة والأكراد»**[1].

تابعت الاهتمامات التي أعربت عنها في ذلك الاجتماع في رسالة إلى بلير يوم 12 تشرين الثاني/ نوفمبر، محاجًا أنه لا بد أن تكون هناك استراتيجية سياسية تضم الأكراد للمساعدة في إسقاط صدام حسين. أجاب بلير: «نحن لا نعمل لإسقاط صدام حسين ونظامه. لأنه ليس لنا الحق أن نحدِّد من الذي ينبغي أن يكون رئيسًا للعراق، ولكن نحن نفضل رؤية حكومة مختلفة في بغداد». هذا التباين طبع مشكلة بريطانيا الخاصة: فالحكومات البريطانية المتعاقبة شعرت بأنها ملزمة قانونيًّا باستخدام مصطلح خاص ومرن للتعبير عن ضرورة تغير النظام استنادًا إلى ميثاق الأمم المتحدة. هذا الموقف يحتاج إلى إعادة التفكير به.

---

(1) Jonathan C. Randal, Kurdistan: **After Such Knowledge, What Forgiveness?** (London, Bloomsbury, 1988), p. 73.

بعد انسحاب مفتشي الأمم المتحدة من العراق في كانون الأول/ ديسمبر عام 1998م نتيجة لعدم تعاون صدام ، شنّت الولايات المتحدة وبريطانيا حملة قصف لمدة أربعة أيام ضد أهداف عراقية. وجرت العملية العسكرية كما في عامي (1993 و1996م)، ومرة أخرى في عام (2002 و2003م)، مع الولايات المتحدة وبريطانيا استنادًا لقرارات الأمم المتحدة الصادرة في عامي (1990 و1991م) إضافة إلى قرار مجلس الأمن (1205) الذي صدر في عام 1998م. طلب مني بلير تناول العشاء معه في 18 كانون الأول 1998م في 10 داونينغ ستريت، أي: في الليلة الثالثة لبدء الهجوم التدميري. كان السبب الرئيس لدعوة بلير هو رغبته في ثنيي عن إنشاء منظمة جامعة للأحزاب سميت لاحقًا بأوروبا الجديدة، والتي عارضت هذه الأخيرة انضمام بريطانيا إلى منطقة اليورو. لكننا ناقشنا المسألة العراقية أيضًا بإسهاب، وبدا مزاجه مختلفًا تمامًا عما كان عليه قبل يومين عند تناول العشاء مع زوجته واثنين من أصدقائه المقربين، حيث لاحت «عصبيته الواضحة»[1].

وخلال عشاء ضم زوجاتنا أقيم في الثامن عشر من ذلك الشهر في ظروف مماثلة، وجدته مرتاحًا وساكنًا. لقد كانت بدايته جيدة كرئيس وزراء خاصة في تعامله مع مسألة إيرلندا الشمالية، وبدا كما لو كان مقدَّرًا له أن يكون رئيس وزراء ناجح، إذ لم يكن هناك فرط لنشاط لا مبرر له، فلم يكلف نفسه مشقة الحصول على آخر المستجدات عن الهجمات التي كانت قد بدأت، إذ لاح هادئًا وعقلانيًا ولم يبدُ متغطرسًا. كان مستعدًا لمناقشة تعقيدات العلاقة بين الأغلبية الشيعية والأكراد والسنة في العراق بشيء من التفصيل، ولكنه لم يكن على دراية كبيرة بهم، ومن الواضح أنه لم يقرأ كتاب راندال حتى الآن. اتفقنا على أن الوضع الذي سمح لصدام بالبقاء في السلطة كان غير مُرضٍ تمامًا، وتشاركنا في حالة الإحباط بسبب قيود الأمم المتحدة التي شعر بلير بأنه مجبر على التحرك من خلالها. وفي غضون ذلك كان قرار الولايات المتحدة لتغيير النظام الصادر عن الكونغرس والمسمى: «قانون تحرير العراق» قد صوِّت عليه بأغلبية ساحقة، ولم يستعمل الرئيس بيل كلينتون فيه حق النقض. كان التحدي استمرار صدام في السلطة، وليس أسلحة الدمار الشامل التي ذكرت بشكل موجز فقط، رغم أن كلانا اعتقد أنها مازالت موجودة في العراق.

ألقت الولايات المتحدة وبريطانيا أكثر من 600 قنبلة وأطلقت 415 صاروخ كروز ضد

---

(1) John Kampfner, **Blair's Wars** (London: Free Press, 2003), p. 32.

أهداف عراقية خلال هذه العملية، مما أسفر عن مقتل ما يقدر بنحو 1400 عنصر من الحرس الجمهوري العراقي. وقُيمت العملية التي كانت تستهدف بعض المنشآت النووية لاحقًا بأنها أخّرت برنامج صدام للأسلحة النووية بسنتين[1]. ورغم التزام كلينتون بقرار الكونغرس الداعي لتغير النظام في العراق، فإنه لم يكن مستعدًا للسماح بغزو عسكري ضروري وشامل لتحقيق ذلك. فالرأي العام الأميركي لم يكن مستعدًا لتقبل عملية عسكرية برية في العراق. فمحاولة عزل كلينتون في شباط 1999م على خلفية قضية مونيكا لوينسكي كانت قد أضعفت قدرته على التوجه للأميركيين للحصول على تأييد، وقد يكون هذا السبب أيضًا عاملًا عند اتخاذ قرار ما يجب القيام به تجاه تهديد أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة المتزايد للولايات المتحدة. كانت كوسوفو هي المسألة ذات الأولوية لعمل عسكري من قبل حلف شمال الأطلسي للعام المقبل.

كان حديثي الثاني مع بلير خلال أزمة كوسوفو، عندما شارك حلف شمال الأطلسي في الغارات الجوية على صربيا. ففي 16 شباط/ فبراير 1999م اتصل بي رئيس الوزراء بشكل غير متوقع لرغبته في حديث مطوّل ومفصّل عن مدى انشغاله بالوضع المتدهور. فالقوات الصربية لم تتأثر بهجمات حلف شمال الأطلسي، كما رغب في مناقشة آرائي العامة حول الشروع في التحضير لاستخدام القوات البرية لحلف شمال الأطلسي. لقد تعرَّضت بالاسم وهنري كيسينجر، بشكل غير مألوف، إلى هجوم في مقال للجنرال تشارلز غوثري ـ الذي أصبح رئيس أركان جيش بريطانيا ـ بسبب آرائي تلك[2]، وقد كانت تلك إشارة صغيرة لكنها مهمة لعملية ما من داعي لها، وهي تسييس رؤساء أركان الحرب. وعلى ما يبدو فإن مستشاري كلينتون قد أخبروه أن سلوبودان ميلوسيفيتش سينثني عن رأيه إذا هدّد، وإن لم يفعل ذلك فإن القصف سيؤدي الى تلك النتيجة في ظرف ثماني وأربعين ساعة ثمّ اثنتين وسبعين ساعة[3]. وحقيقة فقد استغرق القصف اثنين وسبعين يومًا، والأهم من ذلك هو التدخل القوي من بوريس يلتسين لدى ميلوسيفيتش، ليوافق على سحب القوات المسلحة والشرطة الصربية التي انسحبت دون هزيمة تذكر.

---

(1) Michael Gordon and Bernard Trainor, Cobra II: **The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq** (New York: Pantheon / London: Atlantic, 2006), p. 13.

(2) Charles Guthrie, «**The war of the generals**», Sunday Times, 28 March 1999.

(3) Bob Woodward, **State of Denial: Bush at War, Part III** (New York: Simon & Schuster, 2006), pp. 60 - 61.

أوضحت لبلير في مرحلة مبكرة أني كنت أتحدث من برلين في خط مفتوح، فضحك وقال: إنه يريد أي شخص يستمع إليه أن يعرف مدى قلقه. كان بلير صريحًا بطريقة مدهشة وكان نقاشًا ثريًّا، لكني أحسست ولأول مرة بنبرة تمجيد في صوته. عاد فيما بعد التوتر الحقيقي بين بلير وكلينتون حول ضرورة الاستعداد لإرسال قوات برية، وفي 21 شباط/ فبراير أخبر بلير البرلمان أن الفيالق البرية كانت خيارًا.

في اليوم التالي أدلى بلير بخطاب في شيكاغو حاول فيه توضيح الظروف التي يجب أن تتدخل فيها بريطانيا بجدية في صراعات الآخرين دفاعًا عن قيمنا. ومهما كانت درجة الخطأ والصواب فقد وافقت على جانب هام منه، لكن ما كان غريبًا في مثل هذا الخطاب المهم هو ذلك القدر القليل الذي حظي به من التحليل لتداعياته داخل الحكومة البريطانية. لقد صاغه أستاذ الدراسات الحربية لورنس فريدمان، الذي استغرب هو الآخر بأن بلير لم يقم إلا بتغيرات طفيفة على نصِّه المقترح، ولذا كان وقعه متدنيًا في وزارتي الخارجية والدفاع.

أحد الآثار الجانبية المدمرة لمسألة كوسوفو، والتي ظهرت في وقت لاحق، هو ذلك الإحساس بالثقة في النفس والهيمنة التي بدأت تظهر على بلير في تعاطيه مع الشؤون الخارجية. كانت كوسوفو أول اختبار لبلير في أول أزمة دولية وأولى العلامات التي لا تدعو للشك عن سلوكيات الغطرسة التي بدأت تظهر. فقد استُقبل كبطل أثناء زيارته مخيمات اللاجئين، وهو ما حدا بكلينتون ذات مرة لمخاطبته بلهجة حادَّة طالبًا منه التصرف «بلباقة واعتدال» وأن يتوقف عن «شد انتباه الآخرين»[1]. بدأ بعرض آرائه الخاصة بكل فخر، فسخر مساعدو كلينتون من نغمة صوت بلير الشبيهة «بنغمة صوت تشرشل»[2]. أحد المسؤولين الذي رآه عديد المرات قال: «توني يبالغ في فعله، ويفعل ذلك بشكل مبالغ، إنه يستعمل يده أكثر مما يجب»[3]. كما أن أحد مساعدي كلينتون ادَّعى أن بلير: «يرش الكثير من الأدرينالين (عوضًا عن الحليب) على رقائق الذرة الخاصة به».

من المهم التذكير بأن هذا الهرمون الذي يصطلح على تسميته في الولايات المتحدة

---

(1) Kampfner, Blair's Wars, p. 57.

(2) Andrew Rawnsley, **Servants of the People: The Inside Story of New Labour** (London: Hamish Hamilton, 2000), p. 272.

(3) Kampfner, **Blair's Wars**, p. 49.

بالأدرينالين، يفرزه النخاع من الغدة الكظرية، والذي يعتمد في دراسة سلوك البشر في حالة الهوس أو الغطرسة. ولكن إذا كانت هناك أية صلة فهي معقَّدة ضمن النظرية العاطفية الثنائية العامل، حيث يمكن أن ينتج الأدرينالين إثارة فسيولوجية، ولكن تحتاج تلك الإثارة لمسار فكر أو إدراك لتأويل معناها[1].

بعد محادثتي الهاتفية مع بلير، بدأت أقدِّر شخصيته وأسلوبه في القيادة. كان أسلوبًا مختلفًا عن أسلوب جيمس كولاغان الذي يتسم بالقياس والتنظيم، الذي اعتمده أثناء رئاسة وزرائه. كان بلير يحبِّذ التصريح بأنه يتبع أسلوب مارغريت تاتشر في القيادة، ولكن هذا الادِّعاء غير صحيح في كثير من الجوانب، لا سيما أسلوبها الدقيق في التعاطي مع حرب الفولكلاند.

فخلافًا لبلير، كان لتاتشر التزام هام بالفلسفة السياسية، كانت معروفة باهتمامها بالتفاصيل الدقيقة. ولكن الأهم من ذلك كله، هو الخبرة التي كانت لديها عندما تولَّت رئاسة الوزراء، وذلك لعملها لسنوات عديدة ضمن الحكومات التي تزعمها كل من هارولد ماكميلن وإدوارد هيث. كان بلير أكثر رئيس وزراء عديم الخبرة منذ رامزي ماكدونالد عام 1924م، فهو لم يتقلد أي منصب وزاري قبل مجيئه إلى داونينغ ستريت. هذا النقص في الخبرة أثبت في وقت لاحق أنه مضر بسجل بلير أكثر مما كنت أعتقد في البداية.

إلى جانب ذلك، لم يكن لبلير أي تدريب رسمي أو خبرة في الإدارة، فحاول تعويض ذلك من خلال التحدث إلى خبراء التسيير فبدا حسب مقال نشر في: «الإدارة اليوم» أنه يريد أن يتصرف مثل رئيس تنفيذي: «سريع في خطواته، مرن في تفكيره وسريع في أخذ القرارات التي كان يتخذها غالبًا، وهو في حالة وقوف، أو بصدد ارتداء قميص أو وهو على الأريكة أو وهو ممسك بالقهوة في يد والهاتف الجوال في اليد، مسيِّرًا الشركة المحدودة العامة (PLC) لبريطانيا العظمى كما لو كانت شركة ستي للاستثمار»[2]. لكن دور رئيس وزراء ليس ذاك المتمثل في مدير تنفيذي كما أن حكومة بريطانيا ليست شركة تحقق أرباحًا للمستثمرين.

سعت تاتشر مثل بلير لخلق سلطة أكبر في داونينغ ستريت، لكنها عملت في إطار هياكل

(1) S. Schachter and J. Singer, «Cognitive, Social and Physiological Determinants of Emotional State», Psychological Review (1962), vol. 69, pp. 379- 399.

(2) Francis Beckett, **«Blair's Way», Management Today, 1 March 2005.**

مجلس الوزراء القائمة للقيام بذلك، وعلى الرغم من أن تاتشر استفادت كثيرًا على المستوى الشخصي من مستشار الشؤون الخارجية تشارلز باول، الذي صار دبلوماسيًا يعمل هناك، إلا أن أمين مجلس الوزراء بقي شخصية قوية ومستقلة. على النقيض، اختار بلير أسلوبًا ممنهجًا وتدريجيًا لتدمير نظام مجلس الوزراء، فبدأ بتعيين جوناثان باول «شقيق شارلز» قائدًا سياسيًّا للموظفين، وأعطى إلى جانب ألستير كامبل، السكرتير الصحفي لبلير، صلاحيات استثنائية في الخدمة المدنية، وهوما قوّض تدريجيًا سلطة أمين مجلس الوزراء، كما أن النقاشات الجماعية والمسؤوليات قد انخفضت.

في وقت لاحق من سنة 2001م وفي غمرة الاحتفال بالنصر بعد الفوز في الانتخابات العامة لفترة ثانية، قام بلير وفي غياب رقابة برلمانية بتغيير أسس مجلس الحكومة بالكامل فيما يتعلق بالشؤون الخارجية والدفاع، وهو نظام تطور أثناء الحرب العالمية الأولى ليلقيه جانبًا دون أية دراسة موضوعية جادة. لم يكن هذا تحديثًا، وإنما غطرسة وتدميرًا يتحمل بلير وحده مسؤوليته.

كما صمم هيكلًا جديدًا عن عمد كي يمارس دورًا أكبر في السياسة الدولية مماثلة لتلك التي يملكها الرئيس الأميركي. كان مكتب رئاسة الوزراء وإلى ذلك الحين في تعاطيه مع المسائل الأمنية والخارجية مصممًا لخدمة مجلس الوزراء ككل. ومن صيف 2001م فصاعدًا جُلب كبار المسؤولين وموظفيهم في الشؤون الخارجية والدفاع والاتحاد الأوروبي إلى أمانتين جديدتين في 10 داونينغ ستريت، داخل الأجواء المفعمة بالحركة[1]. لقد كان القصد من أمانات داونينغ ستريت خدمة رئيس الوزراء وحده، سياسيًّا واستراتيجيًّا، كما فعل الشيء نفسه مع اللجنة المشتركة للاستخبارات من حيث ترتيبات عملها وليس هيكلها الرسمي. صُممت هذه الهيكلة الجديدة في مبنى 10 لتسبب تراجع تدريجي لوزارة الخارجية، ووزارة الدفاع، وأمانات الدولة التابعة لهما. ولسبب غير مفهوم تجاهلت الصحافة ذلك، وأصبحت متيمة بالهالة التي بدأ بلير يسوقها كرئيس وزراء ناجح.

بعد أشهر قليلة من إحداث الأمانتين في داونينغ ستريت، وفّرت الهيكلة الجديدة الوسيلة لبلير لتقديم رد شخصي حول هجمات 11 أيلول/ سبتمبر في كل من نيويورك وواشنطن.

(1) David Owen, «Two-Man Government», **Prospect**, December 2003; David Owen, «The Ever-Growing Dominance of No. 10 in British Foreign Policy since 5 April 1982», in Graham Ziegner (ed.), British Diplomacy: **Foreign Secretaries Reflect** (London: Politico's, 2007).

جورج بوش

في كانون الثاني/ يناير 2001م أصبح جورج بوش رئيسًا للحكومة دون أن يشغل سابقًا أي منصب وطني في حكومة. صحيح أنه كان حاكمًا لولاية تكساس، ولكن من غير المألوف أن يمارس حاكمًا في هذه الولاية سلطة تنفيذية أكبر من تلك الموجودة في معظم الولايات الأميركية الأخرى. عندما انتخب بوش رئيسًا، بدأ بالقول: بأنه سيعين الناس الطيبين وموظفي السلطة، ثم يحاسبهم على النتائج متبعًا أنجع الطرق المعتمدة في معهد هارفرد للأعمال الذي درس به. تلك المقاربة للسلطة هي نقيض للغطرسة، مثل توصيفه للسياسة الخارجية التي وعد بها عندما كان يسابق من أجل المنصب، حيث قال: إنه يريد أن يكون الموقف الأميركي في العالم «قويًّا لكن متواضعًا».

في 16 شباط/ فبراير 2001م وافق بوش أن تقوم المقاتلات الأميركية والبريطانية، كجزء من السياسة المستمرة والموروثة منذ السنوات الثمانية عن الرئيس كلينتون، بضرب أجهزة الرادار ومراكز القيادة. وفي العاشر من آب/ أغسطس قصفت الولايات المتحدة وبريطانيا ثلاثة مواقع دفاع عراقية، وكان تعليق الصحافة عن ذلك ضئيلًا.

سواء رغب بوش أم لا في لعب دور خارجي متواضع وعدم الانخراط في بناء الدولة والبقاء مجرد زعيم غير متدخل مفوض، سيظل لغزًا تاريخيًّا. لكن من الواضح أنه بعد 11 أيلول/ سبتمبر 2001م أصبح ذلك أمرًا مستحيلًا على أي رئيس أميركي القيام به. صدم بوش في البداية وهو ما بدا على وجهه عندما علم وهو في مدرسة في فلوريدا بخبر استهداف طائرة لمركز التجارة العالمي في نيويورك. فحالة السخط التي شعر بها الأميركيون على الفور بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر كانت تعني أنهم مستعدون للتخلي عن الخطوط التوجيهية الفلسفية الطويلة التي وضعها جون كوينسي أدامز، عندما كان وزيرًا للخارجية في عام 1821م تحذير تبرره تجربة فيتنام. فأميركا «لا تبحث عن أعداء في الخارج للقضاء عليهم، بل هي فاعل خير ينشر الحرية والاستقلال على الجميع، فهي الفائزة والمدافعة عن نفسها فقط».

منذ اللحظة التي استولى فيها بوش في 15 أيلول/ سبتمبر على الصلاحيات وزمام الأمور ليخرب ويدمر قال: «الأشخاص الذين هدموا هذه المباني سيسمعون منا قريبًا» مقدمًا في ذلك نفسه «كالمقرر» الوحيد للأشياء ليكون «الرئيس في زمن الحرب»، ورأى أن الأولوية

الرئيسية بالنسبة له هو تعبئة أميركا لعمل عسكري، وبذلك كان تبنيه لعبارة: «الحرب على الإرهاب» غير دقيق وحتى مضلل، ولكن كان مفهومًا في سياق الظروف الحالية التي كان يحتاج فيها لحشد بلاده لمواجهة العدو الذي تمثل في تنظيم القاعدة. كان المشكل وإلى وقت قريب هو تضخم صورته الذاتية، فوعد «بطردهم وجعلهم يفرون». وفي 16 أيلول/ سبتمبر صرّح: «بتخليص العالم من الأشرار». ولم يكن ذلك مجرد كلام، بل كان يمثل حقًّا مقاربته. رأى الحرب في بعدها العسكري مثل الحربين العالميتين الأولى والثانية، لم يستوعب بأن تلك الحربين قد انتهت على الأقل زمنيًّا، وأن الحروب الآن وعلى حدٍّ تعبير الجنرال البريطاني روبرت سميث: «حرب بين الناس»[1].

عادت الرغبة في حمل السلاح دوليًّا لأميركا بعد 11 أيلول/ سبتمبر 2001م. فاستغل الرئيس بوش اللحظة وهو على حق، فاختار أولًا اتخاذ إجراءات عسكرية ضد أفغانستان وحكومة طالبان التي كانت تأوي تنظيم القاعدة العقل المدبر لهجمات 11 أيلول/ سبتمبر. كما حشدت بعض الدول المختلفة الأخرى مثل الصومال والسودان مع تنظيم القاعدة. فإيواء أفغانستان للإرهاب الدولي مهّد الطريق لعملية وقائية ضدها، وهو ما كان مرغوبًا فيه حتى قبل 11 أيلول. وبمجرد حصول هجمات القاعدة على نيويورك وواشنطن شكك القليل في العواصم العالمية في أن الرد العسكري ضد أفغانستان كان الرد الصحيح. ما يجب تذكره هو أن عملية 11 أيلول/ سبتمبر لم تكن كما كان يتصورها الكثير من الناس في العالم اليوم بأنها ردُّ فعل شخصي لسياسات وإجراءات بوش. كان ذلك أقل نتيجة مباشرة للصراع العربي ـ الإسرائيلي. فالتخطيط لعملية 11 أيلول/ سبتمبر كان قد بدأ مبكرًا عندما كان الرئيس كلينتون منغمسًا بحيوية في البحث عن تسوية بين الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك.

من السهل تجاهل أطروحة صموئيل هانتغنتون «صراع الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي» التي نشرت في الولايات المتحدة في وقت يعود إلى عام 1996م. وأنه كان ثمة نقاش ساخن ولعدة سنوات حول الأصولية الإسلامية. القاعدة نفسها ادّعت أن الولايات المتحدة تهربت من مواجهتها بريًّا في الصومال سنة 1993 م. أي: في وقت مبكر لم يظهر فيه جورج دابليو بوش بعد على الساحة العالمية.

---

(1) General Sir Rupert Smith, The Utility of Force: The Art of War in the Modern World (London: Allen Lane, 2005).

في شباط/ فبراير 1993م، استهدف مركز التجارة العالمي بشاحنة ملغمة بـ 1500 من نترات اليوريا قيدت إلى الطابق السفلي لتنفجرمخلفة ستة قتلى. عثرت الشرطة عندما قُبض على رمزي يوسف ابن شقيق خالد شيخ محمد ـ وهو أحد رموز القاعدة الذين ألقي القبض عليهم في باكستان، وأدين في وقت لاحق لدوره في الهجوم ـ على كتلة من قصاصات الصحف معه. فالشهرة هي أحد الأسباب الثلاثة إلى جانب الانتقام ورد الفعل التي دفعت الإرهابيين للقيام بهذه الأعمال[1].

عاد وجود القوات الأميركية في العربية السعودية إلى الواجهة عندما قتلت القاعدة خمسة من أعضاء فريق التدريب العسكري الأميركي المشترك في تشرين الثاني/ نوفمبر 1995م [2]. وأعقب ذلك هجوم انتحاري من حزب الله مدعومًا من إيران على مبنى سكني خارج الرياض بسيارة مفخخة، وهو ما خلَّف تسعة عشر قتيلًا أميركيًّا. تلا ذلك الإعلان عن فتوى من أسامة بن لادن تدعو جميع المسلمين للمشاركة في الجهاد لإجبار القوات الأميركية على مغادرة العربية السعودية.

قامت القاعدة في 7 آب/ أغسطس 1998م وبواسطة سيارة مفخخة بهجوم على سفارتي أميركا في كل من نيروبي ودار السلام، وهو ما كان له أثر مروِّع. وردَّ كلينتون على ذلك باستهداف كل من أفغانستان والسودان بصواريخ توماهوك، وتبع ذلك اتصال هاتفي من زعيم حكومة طالبان في أفغانستان الملا عمر على كبير المسؤولين في وزارة الخارجية الأميركية[3].

قامت القاعدة في تشرين الأول 2000م باستهداف المدمرة الأميركية كول في ميناء عدن قبل شهر من انتخاب بوش رئيسًا. وعلاوة على ذلك، عثرت السلطات الفليبينية عام 1995م على جهاز حاسوب محمول تحت كرسي طائرة يحوي خطة عن كيفية مهاجمة مبان أميركية كمركز التجارة العالمي، بواسطة طائرات وضعت من قبل خالد شيخ محمد، العقل المدبر لهجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، والذي ألقي القبض عليه في روالبندي من طرف

(1) Louise Richardson, **What Terrorists Want: Understanding the Enemy, Containing the Threat** (New York: Random House, 2006), p. 96.

(2) Christian Alfonsi, **Circle in the Sand: Why We Went Back to Iraq** (New York: Doubleday, 2006), p. 354.

(3) المصدر نفسه، ص. 368_369.

مسؤولي الأمن الباكستانيين في آذار 2002م، وكشف التحقيق معه معلومات عن تفاصيل أكثر من عشرين مؤامرة ضد أهداف تتعلق بالبنية التحتية الأميركية، بما في ذلك مراكز الاتصال ومحطات الطاقة النووية، السدود، الجسور والأنفاق. وقد اعتبر جورج تينيت، رئيس وكالة الاستخبارات المركزية: إنه ما كان ليكشف عنها لو عُومل كمجرم عادي تُقرأ عليه حقوقه ويُرسل مباشرة إلى نيويورك لتوجه إليه لائحة الاتهام[1].

كان ينبغي أن تكون هناك إجراءات عاجلة ضد تنظيم القاعدة أثناء فترة كلينتون وقبل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. استغرق الأمر من الخامس والعشرين من كانون الثاني/ يناير 2001م، تاريخ وصول بوش للسلطة، حتى الرابع من أيلول/ سبتمبر لعقد لقاء رئيسي مع مستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس، ووزير الخارجية كولن باول، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد وتينيت حول موضوع القاعدة.

كان على تقرير لجنة الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر وضع حدٍّ لسياسة إلقاء المسؤولية على الآخرين بعد فوات الأوان، مثلًا ما إذا كانتْ إدارة كلينتون أو بوش مسؤولة عن مقتل ما يقرب من 3000 شخص في عملية القاعدة. الجواب الذي كان هو أن كلتا الإدارتين فشلتا. ما يحسب لبوش هو تحدَّثه بلطف عن المسلمين المحبين للسلام داخل الولايات المتحدة، محاولًا طمأنتهم إثر تصاعد التوتر بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، كما أنه لم يرتكب ذاك الخطأ الذي ارتكبه الرئيس فرانكلين روزفلت بعد عملية بيرل هاربور من خلال استعماله الاعتقال كما حدث مع مواطنين يابانيين.

غطرسة بوش وبلير المتنامية

إن ما هو غير مألوف ولا يقبل الشك هو قدرة منظمة إرهابية على توسيع انتشارها لإحداث مثل هذا الدمار الهام في المدينتين الأميركيتين، وهو ما دفع ببوش وبلير على حدٍّ سواء للقول إن التحديات التي تواجههم الآن لم يكن لها مثيل في تاريخ البشرية. أصبح ذلك سمة للطريقة التي تحدَّث بها بوش وبلير بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر من أن العالم الذي عاشا فيه كان بطريقة أو بأخرى مختلفًا عن العالم الذي عاش فيه زعماء العالم السابقين؛ فمشاكلهم بطريقة أو بأخرى أكبر وأكثر تحديًا من مشاكل هؤلاء. وهو ادِّعاء

(1) George Tenet, **At the Center of the Storm: My Years at the CIA** (New York: Harper Collins, 2007), pp. 160, 255.

سخيف عندما ينظر المرء إلى تحدِّيات الحرب العالمية الثانية ومشكلة الأسلحة النووية أثناء الحرب الباردة التي واجهت جيل قادة ما بعد الحرب. لغة وبلاغة كلا الرجلين ثبَّتتا حلقة التعصب: أصبحت التعددية والمؤهلات أكثر ندرة، وهيمن اليقين والبساطة أكثر من أي وقت مضى.

رغم أن عملية غزو أفغانستان كانت مبررة، فإن علامات مقلقة عن نمو الغطرسة لدى بوش ظهرت منذ بداية الحملة الأفغانية. ففي المقام الأول استخف منذ البداية بالمشاكل طويلة الأمد المتعلقة بالسيطرة على البلد بعد أن تحقق الغزو. وعلاوة على ذلك رُكِّز على الحرب والطرق العسكرية في التعاطي مع مظاهر الإرهاب الجديدة في جميع أنحاء العالم على حساب الحصول على دعم المجتمعات المحلية التي تعمل في داخلها مما سمح للقاعدة بأن تقوى[1]. فعقلية الحرب تحطُّ من قيمة الطرق في التعامل مع الدول غير المستقرة والإرهابيين الذين تأويهم. فالآثار الجانبية للتقنيات الجديدة المعتمدة مع السجناء، مثل تلك المستخدمة في غوانتانامو، وممارسة الترحيل السري عملت على تفريخ الإرهاب. كان مناخ العمل المحيط ببوش في تجاهل لإمكانية أن تؤدي نتائج مقاربتهم إلى تعقيد المشكلة التي هم بصدد التعاطي معها، صفة مميزة لمتلازمة الغطرسة. ودفاعًا عن بوش ومستشاريه كان هناك قلق حقيقي وكاف حول الوسائل المتبعة في التعامل مع الإرهاب بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، فروجعت العديد من الأسئلة لكن لم توضع كأولوية. كان ينبغي أن تتمّ أية معالجة بمساعدة الدول الأخرى وسياسيين قادرين على تحمل المسؤولية، ولكن بدلًا من ذلك اقتصرت التغيرات على اتفاقيات سرية بين أجهزة المخابرات والمحامين الحكوميين والدول الأخرى، مما لم يسمح بأي تدقيق برلماني.

كانت علامة التحذير من غطرسة بلير المتنامية هو ذلك الخطاب المذهل الذي ألقاه أمام مؤتمر حزب العمال مباشرة بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، عندما وعد الشعب الأميركي قائلًا: «كنا معكم في الأول وسنبقى معكم إلى الأخير». كانت محصِّلة اعتماد بلير الحصري على الوزارات الجديدة في داونينغ ستريت، هي غياب الموضوعية والاستقامة والروح الجماعية التي أصبحت السمة المميزة لسوء التقدير وعدم الكفاءة لديه، في التعامل مع تداعيات غزو أفغانستان سنة 2001م وغزو العراق سنة 2003م.

---

(1) Bruce Riedel, «Al-Qaeda Strikes Back», **Foreign Affairs**, May/June 2007.

كان هناك بطبيعة الحال رؤساء، ورؤساء وزراء غير أكفَّاء من قبل، ولكن عدم كفاءة بلير كانت من نوع خاص جدًّا ويتقاسمها إلى حدٍّ كبير بوش. كانت لهذه الغطرسة ثلاثة أعراض مميزة: الإفراط في الثقة بالنفس، والأرق، وعدم الانتباه إلى التفاصيل. الثقة بالنفس التي تحتفظ لصاحبها حصرًا بصنع القرار، ولا تبحث عن المشورة، وتفشل في الاستماع أو تزدري من حكمة الآخرين، خاصة إذا تعارضت مع وجهة نظر الزعيم نفسه فهي الغطرسة بعينها. فإذا ما جُمعت مع طاقة لا تهدأ ومستعدة للتدخل على أساس شعور فضفاض في صورته الواسعة بدلًا من دراسة تفصيلية لجميع المعلومات ذات الصلة، حينها ستصبح الأخطاء الجسيمة أمرًا لا مفر منه تقريبًا. كان ذلك هو الحال مع بوش وبلير في تعاطيهما مع الأمور بعد 11 أيلول/ سبتمبر. حيث كان سبب سوء التقدير عدم الكفاءة المتغطرسة وهو ما سيُشرح بالتفصيل لاحقًا.

أحب بوش وبلير النفخ في صورتهما من خلال الظهور في مظهر الساسة العظماء الذين لديهم البصيرة، ليدركوا أنه يجب أن يُنظر للعالم كله الآن، وليس فقط أفغانستان والعراق، على أنه جديد ومختلف تمامًا عما كان عليه بعد 2001م. وفي الواقع لم يتغير العالم جوهريًا، من زاوية القرون التي خلت، بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. ولكن رغم ذلك كان هناك كثير من اللاعقلانية وقليل من القدرة على التنبؤ. كان الأصوليون الإسلاميون على استعداد للتضحية بحياتهم من خلال ارتكاب عمل إرهابي، مما جعل حمل القنابل أكثر فتكًا وحمل جهاز نووي قديم في حقيبة ممكنًا، مما استغرق الأمر بعض السنوات لتهدأ لغة الخطابة، ففي شباط 2007م فقط أعلنت الحكومة البريطانية رسميًّا وقف استخدام مصطلح «الحرب على الإرهاب».

أصبحت سمة من سمات كل من بوش وبلير عدم إظهار اهتمام كبير للعملية والتفاصيل أو احترام للحقائق. كان الجمع بينهما من حيث القوة غير متكافئ على نطاق واسع بطبيعة الحال، ولكن بلير عوَّض ما يفتقر إليه في علاقته بالسلطة من خلال فصاحته الكبيرة ولغته العاطفية. تكمن أهمية بلير السياسية في كونه عزَّز معتقدات وأحكام بوش المسبقة في فترة ما بعد غزو أفغانستان، وفي غمار الاستعداد لغزو العراق. كان ذلك شكلًا من أشكال الجنون الثنائي. فروابط بلير بكلينتون مفيدة لبوش من خلال إبقاء الديمقراطيين «على متن سفينة الحرب».

بدا بلير على علاقة ممتازة مع كلينتون عندما كان رئيسًا، لكنه قال في وقت سابق لأحد

مساعديه: «كلينتون يعبث حولك، لكن بوش عندما يعد بشيء فهو يعني ما يقول»[1]. ومع ذلك تساءل المسؤولون من ذوي الخبرة عما إذا كان بلير يخدع نفسه حول علاقته ببوش. فشعروا بالقلق إزاء عدم وجود محتوى في حوار بوش وبلير وحول مدى أهمية المواقف المتبادلة. لاحظوا كيف أن مارغريت تاتشر أجبرت رونالد ريغن على التصريح بحقيقة نواياه، وهو ما لم يفعله بلير مع بوش، أو كيف أن جون ميجر، ورغم الوقت الوجيز قبل فترة حرب الخليج 1991م، أقام بعد ذلك علاقة متينة بعض الشيء مع بوش الأب.

كان الشكل الخاص لغطرسة بلير هو هوسه بالعروض السياسية ليتسنى له وضع نفسه في مركز الأحداث بشكل واضح، ولقد أصبح هذا واضحًا بالفعل عندما سُرِّبت مذكرة خاصة كتبها لموظفيه سنة 2000م وحثَّهم فيها على البحث في جميع الأنحاء على «مبادرتين أو ثلاث لافتة للنظر، وشخصيًّا يجب أن أتبنى هذا الرأي بقدر أكبر»[2]. كتب رامزي ماكدونالد، وهو من كتَّاب السيرة الذاتية لرئيس وزراء آخر من حزب العمال، عن سنوات بلير العشرة في الحكم:

> **يكمن الأصل الحقيقي للمأساة في التشويه الفكري الذي أصبح أكثر انتشارًا في ثقافتنا العامة الرديئة على نحو متزايد. وأفضل عبارة لهذا هي «الحدسية»... فسحره وتلألؤه الجذّاب، حديثه الفج عن «بريطانيا جديدة» و«دولة يافعة» وازدراؤه من حكمة الخبراء الذين تعلموا من دروس الماضي أفضل مما فعل هو، كان جزءًا من الأعراض القاتلة[3].**

وفَّر العالم بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر لبلير فرصًا لا نهاية لها لأحد الأعين الصائدة للمبادرات، فانغمس في المواقف الكبيرة. فبعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر اتَّبع جدول أعمال محموم نظم فيه أربعة وخمسون اجتماعًا مع زعماء أجانب، وقطع أكثر من 40000 ميل في إحدى وثلاثين سفرة منفصلة.

وعلى النقيض من ذلك، كان بوش أكثر انضباطًا في كيفية التعامل مع جدول أعماله مصرًّا على وجود ما يكفي من الوقت للنوم، فبدا أقل تهيجًا وأكثر تحكمًا في النفس. لقد بالغت الصحافة البريطانية، وبتشجيع من داونينغ ستريت وبوزاراته الجديدة للشؤون الخارجية

---

(1) Kampfner, **Blair's Wars**, p. 263.

(2) Leaked memorandum of 29 April 2000 from Tony Blair to staff, reported in the **Times**, 18 July 2000.

(3) David Marquand, «A man without history», **New Statesman**, 7 May 2007.

والدفاع، في وصف مدى التورط المبكر لبريطانيا في أفغانستان على خلفية إطلاقها بعض صواريخ كروز، والمساهمة من طرف القوات الجوية الخاصة.كان الغزو أولًا وقبل كل شيء عملية أميركية قادتها وكالة الاستخبارات المركزية في جميع معالمها الرئيسية، حيث استخدمت المال لبناء التحالف الشمالي، وبمساعدة البنتاغون من خلال استخدام القوات الخاصة والقوة الجوية لإمالة ميزان القتال لصالح أولئك القادة الأفغان، المستعدين لتحدي طالبان. ولتعزيز الانطباع بدوره المحوري الشخصي، حطَّ بلير الرحال في كابول في كانون الثاني/ يناير 2002م أي بعد ثمانية أسابيع فقط من سقوط سيطرة طالبان على العاصمة لصالح الحلف الشمالي. كان هذا الأخير يعاني من قلة النوم، فبالرغم من عطلته الأخيرة في مصر إلا أنه كان مرهقًا ذهنيًا وجسديًا[1].

حاول بلير المحافظة على الوتيرة نفسها خلال عام 2002م وجزء كبير من 2003م. فعزم على أن يكون محور كل شيء، وهو ما رسمته وأبرزته الصحافة البريطانية، غير أن الرأي العام الأميركي أحب أسلوبه السهل، وأعجب بحسن تعبيره ومهاراته في العرض، وهو ما أسعد بالتالي بوش لحشد أهمية بلير لصالح موضوع العراق.

لخص بلير في آذار/ مارس 2002م استراتيجيته في رسالة إلى الدكتور جورج كاري، رئيس أساقفة كانتربري:

> **بصراحة، أنا القائد الغربي الذي ستستمع إليه حقًا الولايات المتحدة في هذه القضايا. وهذا له ثمنه، وهو ما يعني أني لا أعمل حتى أؤثر في الناس، ولا أناقش علنًا، ولا أعدد المطالب. إنه خطٌّ صعب جدًا والاقتراب منه يكتسي بالحساسية. بالطبع إذا كنت قد اختلفت جذريًا مع أهدافهم يجب أن أقول ذلك... وأهدافي يجب أن تكون جرَّ الأميركيين نحو استراتيجية معقولة في العراق. التفكير في عمل عسكري في الظروف المناسبة فقط. توسيع الاستراتيجية بحيث تكون أوسع حول العالم، بما في ذلك عملية السلام في الشرق الأوسط وإفريقيا، والبقاء وإدراك حقيقة ذلك في أفغانستان[2].**

حتى الآن كان الادِّعاء البسيط بأن السياسة الخارجية لبريطانيا لا تُسير من داونينغ

---

(1) Paul Scott, Tony & Cherie: **A Special Relationship** (London: Sidgwick & Jackson, 2005).

(2) Quoted in Anthony Seldon, **Blair Unbound** (London: Simon & Schuster, 2007), p. 87.

ستريت مع تهميش متزايد لوزارة الخارجية. سجل السفير البريطاني في واشنطن ما يلي: «ما بين الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر واليوم الذي تقاعدت فيه في نهاية شباط/ فبراير 2003م لم أجر أية مناقشة سياسية موضوعية ولو مرة واحدة مع وزارة الخارجية على الهاتف الآمن في مقابل العديد من الاتصالات والنقاشات مع داونينغ ستريت»[1].

انشغال بلير المتغطرس برغبته في أن يكون محط أنظار الجميع، وأن يكون في قلب الأحداث، وحتى إن لم يستطع أن يحقق أي شيء مضمون، مازال حاضرًا في اجتماع الثمانية G8 في سانت بطرسبرغ في تموز/ يوليو 2006م. عندما تُرك الميكروفون مفتوحًا دون علم بوش وبلير، فكان باستطاعة العالم سماع الطريقة التي تحدث بها الزعيمان إلى بعضهما. كما كان عرض بلير وتعهده بدبلوماسية نشطة حول أزمة لبنان ذا دلالة خاصة. كما قال: إن ما كان يدور في ذهنه هو قدرته على أن «يذهب ويتحدث فقط» وإن فشله في تحقيق أي شيء لن يضر زيارة وزيرة الخارجية كونداليزا رايس المقررة لاحقًا. كان بلير سعيدًا لمجرد أنه يظهر كمقدم لها. وهذا ليس محطًّا من شأن رئيس وزراء بريطانيا فحسب، بل طريقة بوش المبهمة لرفض عرض بلير كذلك، كما أوضحت وبجلاء كيف أن تركيز بلير الأساس كان نفسه، موقفه الشخصي وعرضه لـ «مبادرات ملفتة للنظر». كان هذا بالنسبة له أكثر أهمية من جوهر وتعقيدات الموضوع. ولازمه ذلك في سعيه الدائم لإرث شخصي إلى أن ترك الحكومة سنة 2007م.

التقى كل من بوش وبلير في 20 أيلول/ سبتمبر 2001م في أميركا، وعندما سأل بلير عن العراق، فأجابه الرئيس: «إن العراق ليس المشكلة العاجلة. أبدى بعض أعضاء إدارته رأيًا مختلفًا، كما علّق، لكنه كان الوحيد المسؤول عن اتخاذ القرارات»[2].

اختيار بوش الإطاحة بصدام حسين من السلطة كان فقط بعد غزو أفغانستان. حيث أخبر دونالد رامسفيلد في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 2001م بإعداد خطة غزو وإعلام تومي فرانكس (القائد العام للقوات الأميركية في الشرق الأوسط) بالاطِّلاع على ما سيستغرقه

---

(1) Christopher Meyer, **DC Confidential: The Controversial Memoirs of Britain's Ambassador to the U.S, at the Time of 9/11 and the Iraq War** (London: Wneicienfeld & Nicolson, 2006), p. 190.

(2) Thomas E. Ricks, **Fiasco: The American Military Adventure in Iraq** (London: Allen - cane, 2006). p. 31, quoting the National Security Council summary of the conversation reported by the 9/11 Commission.

الأمر. بدأت إدارة بوش للتو بالربط بين العراق والقاعدة علنًا وبتعمد، كما بدأت أيضًا بنقل صورة للعالم بأن الولايات المتحدة وباعتبارها الدولة التي بإمكانها أن تفعل ما تشاء، لن تحتاج للأخذ بعين الاعتبار رأي الدول الأخرى. فعومل القانون الدولي بازدراء. كانت سياسة بوش تقوم على الأخذ بطرف كل شيء، ويماثله في ذلك كل من رامسفيلد وديك تشيني. بدأ بوش بصفة شخصية في إظهار استعداد صارخ بشأن العراق للتخلص من كل القيود الدولية مع نظرة ضئيلة للنتائج، وقد يكون مردُّ ذلك سبب خاص جدًّا.

ففي 26حزيران/ يونيو 1993م تعرض مقر الاستخبارات العسكرية التابع لصدام لهجوم بصواريخ التوماهوك، واعتمد الرئيس كلينتون في سلطته على قرارات الأمم المتحدة التي يرجع تاريخها إلى عامي (1990 و1991م) والتي أعلنت أن العراق يمثل خطرًا على السلم العالمي. وشنَّ الهجوم ردًّا على اكتشاف محاولة من المخابرات العراقية لاغتيال الرئيس الأسبق جورج بوش الأب وعائلته عندما كان في زيارة للكويت من 15 إلى 18 آب/ أبريل. كان على متن الرحلة امرأتان تعنيان الكثير لجورج بوش الأب وهما والدته وزوجته. فليس من الصعب تصديق أن ذلك كان تحديًا كبيرًا له في علاقته بصدام الذي وصفه بالشخص الشرير.

أصبحتُ ولأول مرة على بيِّنة من طبيعة صدام حسين في صيف 1978م. عندما اغتيل وزير مالية عراقي سابق في شوارع لندن. كان صدام أقوى رجل في بغداد، رغم أنه لم يصبح رئيسًا بعد، وفي فترة وجيزة جدًّا من الزمن أصبح واضحًا للشرطة والمخابرات البريطانية والأجهزة السرية (أم. آي. 5)، و(أم. آي. 6) أنه متورط شخصيًّا وبشكل قوي في عملية الاغتيال.

كانت هناك العديد من المقالات التي حاولت تحليل شخصية صدام، فكتب أحدهم مختصرًا عن حياته ذكر فيه أن: «هذه الشخصية السياسية المتألِّقة المكوَّنة من طموح مسيحاني من أجل سلطة غير محدودة، غياب للوعي، عدوانية غير مقيدة وريبة عامة، هي ما جعلت صدام خطيرًا جدًّا وذا نرجسية خطيرة»[1]. دُهش الطبيب السويسري الدكتور بيار رنتشنيك[2] بتأني أجوبة صدام على التلفزيون في تشرين الثاني 1990م. فتحدث عن هذا

(1) Jerrold M. Post (ed.), **The Psychological Assessment of Political Leaders: With Profiles of Saddam Hussein and Bill Clinton** (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2003), p. 344.

(2) Pierre Rentchnick, **Medecine et Hygiene**, 6 March 1991, p. 662.

الموضوع إلى طبيبين بريطانيين كانا متواجدين أثناء ذلك في جنيف، وزعما أن ذلك راجع لمعالجته بالليثيوم لمعاناته من اضطراب ثنائي القطب، وأنه كان قد عانى من نوبتي اكتئاب، واحدة أثناء الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات، وأخرى أثناء خريف 1990م[1]، غير أن صدام وأثناء محاكمته في العراق لم يستخدم في أي وقت من الأوقات المرض العقلي كعامل للتخفيف من محاكمته، ولم تظهر المحكمة العراقية الخاصة أي اهتمام في استكشاف أي مرض عقلي قبل أن يُحكم عليه بالإعدام شنقًا عام 2006م.

صدر هذا الحكم عن جريمة استخدام الغاز ضد المواطنين الأكراد في حلبجة سنة 1988م، حيث ألقت الطائرات العراقية ولمدة يومين مركَّب سيانيد الهيدروجين الذي طوِّر بمساعدة شركة ألمانية، مما أسفر عن مقتل أكثر من 5000 مدني. من المخزي أنْ أرسلت وكالة الاستخبارات المركزية مذكِّرة في ذلك الوقت إلى سفاراتها محيطة إياهم علمًا بإمكانية ضلوع الإيرانيين في إلقاء الغاز[2]. ومع هذه الإبادة الجماعية ضد أبناء بلده، تجاوزت إدارة صدام العتبة من خلال تحديها لأهم أهداف الأمم المتحدة. لقد كان عدم وجود عقوبات قاسية وردعية ضد العراق من قبل مجلس الأمن إلى جانب الاحتجاجات العالمية المكبوحة، غير أخلاقي وخرق واضح لاتفاقية الأمم المتحدة لعام 1948م بشأن الإبادة الجماعية. كان من المؤسف للغاية للعدالة الدولية أن يمنع الفيتو الأميركي محكمة الجنائيات الدولية في لاهاي صدام من أن يحاكم هناك في عملية مماثلة لتلك التي عومل بها ميلوسيفيتش.

لم تكن الحكومة الأميركية والبريطانية جزئيًا حريصتان بقدر كبير على رؤية محاكمة في لاهاي، لأن قبولهم السابق بغزو العراق لإيران كان من الممكن أن يثار بطبيعة الحال. يرجع تفسير قبول الجميع إلى ممارسة هذا الشكل من أشكال السياسة الواقعية فقط من خلال الأمل في المساعدة على بقاء الحرب متواصلة لثماني سنوات، وهو ما من شأنه أن يحرق الثورة الإيرانية، لكن ذلك يعدُّ أمرًا مضللًا جدًّا بالنسبة لتعصب القادة الدينيين الإيرانيين الذين واصلوا ذلك دون هوادة. ومما لا شك فيه أن ذلك كان في صالح الولايات

---

(1) Huge L'Etang, **Ailing leaders in power 1914 _ 1994** (London: Royal Society of Medi-, cine,1995), p. 66.

(2) Robert Fisk, **The Great War for Civilisation**: The Conquest of the Middle East (London: Fourth Estate, 2005), p. 262.

المتحدة وبريطانيا لدعم سيادة القانون الدولي سنة 1980م ومعاقبة صدام. غير أن الولايات المتحدة وبريطانيا دفعتا ثمن ذلك أثناء غزو العراق للكويت سنة 1990م حيث اضطرتا للرد. فعندما ذهبت الحشود العراقية للحدود الكويتية ـ السعودية على بعد 200 كيلومتر من مدينة الظهران السعودية، كان الرئيس بوش الأب شجاعًا في الاستجابة على الفور من خلال نشر قوات أميركية في العربية السعودية، على الرغم من أنها في البداية كانت ضعيفة جدًّا كي تتصدّى لصدام لو أنه هاجم العربية السعودية. كان بوش ماهرًا أيضًا في تعامله مع المبادرات الدبلوماسية اللازمة لبناء تحالف عسكري حقيقي ومتعدد الجنسيات، ليضمن أن الجيش العراقي سيضطرّ للانسحاب من الكويت في وقت مبكر من عام 1991م، لم يتضمن السعودية والأردن ومصر فقط، ولكن ضم أيضًا سوريا.

في ربيع تلك السنة وبعد وقف إطلاق النار، فرضت الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا منطقة حظر جوي فوق شمال العراق في تدخل إنساني لحماية الأكراد (فرضت في العام التالي منطقة مماثلة لحماية عرب الأهوار). لقد نُوقش هذا الموضوع في الفصلين السادس والثامن. عثر مفتشو الأمم المتحدة في 24 أيلول/ سبتمبر 1991م في بغداد على عدد كبير من الوثائق تتضمن تفاصيل برنامج العراق للأسلحة النووية، ولم تكن هذه الوثائق مخبّأة داخل مؤسسة عسكرية، ولكن عبر شارع يؤدي إلى فندق يستخدمه صحفيون أجانب.

لو صرفنا النظر عن الحجج حول التزام صدام بقرار الأمم المتحدة المتعلق بأسلحة الدمار الشامل، في حين أنه كان يعرقل عمل مفتشي الأمم المتحدة، فإنه من السهل جدًّا أن ننسى كيف أن نفوذه السياسي الخبيث بدأ يزداد بشكل مطرّد في المنطقة. فعل ذلك مع بعض الدول بسبب استمرار الولايات المتحدة وبريطانيا في فرض مناطق حظر طيران، كما عمل بلا رحمة ضد حملة العقوبات الاقتصادية للأمم المتحدة من خلال رفض السماح بدخول الإمدادات الطبية العاجلة للأطفال العراقيين، في حين كان يلقي اللوم على الأمم المتحدة على غيابها. وخلال التسعينيات سجلت منظمة الصحة العالمية ارتفاعًا حادًّا في معدلات الوفيات قبل الولادة، والأمراض التي يمكن تجنبها بين الأطفال العراقيين. وفي جزء منه وكنتيجة، أصبح من الصعب وعلى نحو متزايد حشد تأييد في المحافل الدولية لتنفيذ العقوبات، فتسامح مجلس الأمن مع تجاهل الأردن وتركيا للعقوبات النفطية بدلًا من مواجهة حاجتهم بمنحهم تعويضات مالية عن ذلك. وهذا يعني أن الولايات المتحدة وبريطانيا كانتا تقوّضان موقفهما الخاص في تنفيذ العقوبات على مرِّ السنين، وعلى نحو

متزايد وفي ظل مناخ نفاق نمت معارضة سياسية دولية للعقوبات ضد العراق. واستغلت فرنسا الفرصة بسحب طائراتها العسكرية من مراقبة مناطق حظر الطيران. كما ازدادت نزعة دول كثيرة أخرى من بينها روسيا وألمانيا لتجاهل عقوبات الأمم المتحدة الاقتصادية فأقامت علاقات تجارية مع العراق. كانت الولايات المتحدة وبريطانيا قادرتين على منع الطيران العراقي، والدبابات وطائرات الهليكوبتر من عبور خط الشمال، ولكن في الجنوب طُرد عرب الأهوار من بلد صدام كما دُمرت منازلهم. بدا العالم راغبًا في نسيان أن القوة المتعددة الجنسيات التي قادتها الولايات المتحدة عام 1991م اختارت عمدًا عدم اجتياح بغداد، وأوقفت ولأسباب إنسانية إطلاق النار على القوات العراقية المنسحبة، معتمدة بدلًا من ذلك على اتفاقية وقف إطلاق النار التي أقرها مجلس الأمن الدولي. إنه لمن العار على هياكل الأمم المتحدة وخاصة مجلس الأمن أن تُنتهك قرارات الأمم المتحدة لوقف إطلاق النار باستمرار من قبل صدام، إضافة لعدم تقديم شرح صحيح للإحصائيات الصحية المتدهورة للأطفال. لقد عرف الجميع في مجلس الأمن أن صدام تلاعب بالأولويات الصحية داخل العراق لأغراض سياسية، ولكن تحدث قلة عن ذلك بحرية.

لم تستطع إدارة كلينتون في سنة 1996م الحصول على إذن من الأتراك أو السعوديين لاستخدام قواعدهما الجوية لمهاجمة العراق عندما انتهك صدام منطقة حظر الطيران الشمالية في أربيل. وبدلًا من ذلك، أطلقت الولايات المتحدة في الثالث من أيلول/سبتمبر أربعين صاروخ توماهوك لإخراج محصنة دفاع جوي عراقية من منطقة حظر الطيران الجنوبية، ولكن هذا كان على بعد 200 ميل من أربيل. فعدم فاعلية الرَّد أظهر كيف وقع احتواء صدام الواهن. من الممكن أنه كان غير قادر على مهاجمة جيرانه، ولكن جرائمه ضد الإنسانية لم تقل خلال تلك الفترة. كما أحسَّ أنه قادر على تحدي الأمم المتحدة من خلال رفضه التعاون مع مفتشيها المكلفين بمراقبة التزامه بعدم تطوير أسلحة دمار شامل. وقع سحب مفتشي الأمم المتحدة سنة 1998م نتيجة عدم تعاون صدام معهم، كما وقع التصدّي لمقاتلات الولايات المتحدة وبريطانيا طوال هذه السنوات الاثنتي عشرة. كما أن القول إنه تم احتواء صدام حسين عام 2002م هو قول عار عن الصحة.

بغض النظر عما كان يقوم به صدام ضد الشيعة والأكراد خلال هذه السنوات، لم يكن هناك استعداد في الولايات المتحدة أو في أي مكان آخر لاستخدام القوة العسكرية للإطاحة به من السلطة. كما فشلت تدابير مجلس الأمن الدولي في التخفيف من حدَّة ارتفاع معدلات

وفيات الرضع، والتدهور الصحي، والظروف الاجتماعية، للملايين من العراقيين وهو ما مثَّل عارًا على القوى الدولية.

لقد كُشف عن الفساد المحيط ببرنامج الأمم المتحدة (النفط مقابل الغذاء) في تقرير لجنة مكلفة من الأمين العام القادم كوفي عنان، والتي ترأسها بول فولكر، الرئيس السابق لمجلس الاحتياطي الفدرالي للولايات المتحدة الأميركية. ونشر التقرير في 14 أيلول/ سبتمبر 2005م. فبيَّن عنان أنه كان على علم، على الأقل في وقت مبكر من شباط/ فبراير 2001م، بمخطط رشوة شمل 2500 شركة ضمن برنامج النفط مقابل الغذاء، فانتقُد على نحو كبير في التقرير لعدم اطِّلاعه الحكومة العراقية في وقت لاحق على العمولات في تقاريره الفصلية للأمم المتحدة. فكمثال عن هذه العمولات باعت الشركات الفرنسية لصدام مساعدات إنسانية بقيمة 3 مليار دولار، في حين أن الشركات الروسية قامت بمعاملات بقيمة 19 مليار دولار في قيمتها الإجمالية، ومن برنامج النفط مقابل الغذاء، وبقيمة تزيد عن 100 مليار دولار. وكون جميع أعضاء مجلس الأمن كانوا على علم بموضوع الرشاوى لا يعدُّ ذلك عذرًا للأمين العام للأمم المتحدة كي يلزم الصمت. تضررت مكانة الأمم المتحدة ضررًا بليغًا من تواطؤ الأمانة العامة، والأمين العام مطالب بالطبع بالعمل مع أعضاء مجلس الأمن وخاصة مع الدول الخمسة الدائمة العضوية، وهو مسؤول أيضًا عن سمعة ونزاهة الأمم المتحدة. لقد كان عنان في كثير من النواحي ناجحًا جدًّا في تقلد هذا المنصب، ولكن كان عليه أن يخرج هذه القضية للعلن، وأن يجعل مجلس الأمن يواجه الازدواجية والإجرام الذي تضمنته.

كل هذه الإجراءات من قبل صدام حسين لم توضح فقط بأن سياسة الاحتواء التي تنتهجها الولايات المتحدة وبريطانيا لم تكن عملية، بل إن صدام مازال يشكل خطرًا على بلده والمنطقة. وكان العمل العسكري لإزاحته هو البديل الوحيد. فمحاولات اغتياله فشلت، لكن كان هذا يعني أن على الولايات المتحدة المستعدة لنشر قوات تكفي ليس فقط لإسقاط صدام، ولكن أيضًا لإجراء عملية بناء للدولة عقب ذلك.

الذهاب إلى الحرب

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، ازدادت الرغبة لدى الولايات المتحدة للعودة مرة أخرى إلى العراق، مع أعداد القوات البرية التي استخدمت سنة 1991م. شعرت

أنه كان من الأفضل التعامل مع قضية أسلحة الدمار الشامل الموجودة بالعراق بعد الإطاحة بصدام. واعتقدت مثل الكثير من الآخرين الذين درسوا القضية أن صدّامًا كان يقوم بتطوير أسلحة الدمار الشامل، إلا أنه ما كان يجب أن يسمح لذلك أن يكون السبب الوحيد لتبرير غزو العراق، لقد كان صدام بذلك الوقت يواجه العديد من القرارات الصارمة التي فرضتها عليه الأمم المتّحدة إثر هزيمته.

في الرابع والعشرين من تموز/ يوليو 2002م اجتمعت أنا وزوجتي بتوني بلير وزوجته تشاري على طاولة العشاء في داونينغ ستريت. وبات من الجليّ بالنسبة لي أن توني كان على وشك أن يقحم بريطانيا في سياسة بوش تجاه العراق، وقد شاطرته الرأي في ذلك. وما كان جليًا وبشكل خاص هو أنّه وعلى غرار استعداده سنة 1998م عندما جمعنا عشاء لاستكشاف السياسة الداخلية المعقّدة للعراق، فإن بلير الآن وبشكل ملحوظ يظهر نفورًا من الدخول في أيّة مناقشة تفصيلية حول تبعات الغزو. شعرت آنذاك بأنّه لا مفرَّ من دراسة تجريدية للصعوبات السياسية المؤكدة التي ستعقب استبدال صدام والهيمنة السنية. وقد حاولت أن أفعل ذلك بطريقة «محامي الشيطان» إلا أن بلير كان رافضًا لذلك تمامًا. لقد بدا مقتنعًا أنه لم تكن هناك مشاكل لا يمكن حلُّها ولم تحل بعد. لقد أسأت فهم تردد بلير الدخول في أي نقاش على أنه تحفظ لسرية المعلومات، وهو ما ينبغي أن يكون، ولكن الأمر كان مختلفًا في استعداده لمناقشته المسائل العسكرية الحساسة المتعلِّقة بكسوفو.

كان من الواضح أن غرض بلير من الحديث ذلك المساء ليس لإعلامي بصفتي استشاري، إنما كان ليطلعني باقتضاب على ما كان ينوي فعله، ليضمن دخولي إلى نادي المؤيدين الذي أراد خلقه كلما تعلَّق الأمر بأية مسألة مثيرة للجدل. كان جليًّا بالنسبة لي بأنه اتخذ قراره حول مسألة العراق، حيث أكَّد على أن بريطانيا ستكون بجانب بوش لو قرر الأخير بأن يغزو العراق. أدركت حينها بأن هدفه من ذلك الاجتماع هو دفعي لإخبار زملائي في الصحافة بأن بريطانيا مشاركة في الحرب لا محالة، وبلا شك هذا ما فعلته أنا والآخرون. اعتمدت لاحقًا خطة التأهب للحرب في وثائق مسرَّبة، وبدا حينها امتعاض الكثير من الناس جليًّا. ولكن كي أكون منصفًا، فلم يكن كلًا من بوش وبلير قادرًا على توضيح نواياه إلا بطريقة انتقائية وشاملة في آن، في حين كان لا يزال هناك عدة أشهر قبل حدوث الغزو، مما يقتضي عادة أن يكون التخطيط للحرب، وحتى التهديد الفعلي بالدخول إليها سريًّا. كما يستهلك الأمر وقتًا، مثلما حدث أثناء الاستعداد لحرب العراق عام (1990 ـ 1991م)، لتنظيم القوّات المسلحة، وتحديدًا الدبابات والأسلحة الضخمة.

غير أن اهتمامي بحالة توني بلير منذ ذلك الاجتماع لم تكن لأجل تأييده للغزو، الذي شاطرته الرأي فيه، ولم تكن لرغبته لإيصال رسالته بطريقة غير مباشرة، والتي أتفهّمها، وإنما من أجل طبيعة تفكيره المنغلقة. ندمت بأن تلك الحادثة لم تكن سببًا كافيًا لإخطاري في ذلك الوقت، بل إنني بقيت متسائلًا ومستنكرًا بأنه لم يكن نفس الرجل الذي التقيته على طاولة العشاء قبل ثلاث سنوات ونصف. لقد ظهرت بعض علامات متلازمة الغطرسة جليَّة على بلير أثناء العشاء الثاني، بالإضافة إلى إيمانه الراسخ بخططه، والتي ناقشتها مع زوجتي في طريق العودة إلى المنزل، كانت ثقته بنفسه عمياء وبدا نشطًا ومهتاجًا. وتجاهله للصعوبات التي كانت تواجهه وتملأ طريقه أوحت لي بأن الأمر قد قُضي في ذهنه بضرورة تغيير النظام بالقوة. لم يكن موضوع أسلحة الدمار الشامل مهمًا وحاضرًا في أحاديث بلير، حيث كان تركيزه على التخلص من صدام حسين فحسب، لأسباب أخلاقية وجغرافية سياسية، وذلك ما كنت أدعمه، إلا إنه، وكما قالت زوجتي لاحقًا: كان متلبسًا دور المخلص.

تعتبر فرصة ممارسة القيادة الصارمة والمثيرة للجدل إحدى نقاط القوة للديمقراطية التمثيلية، وهناك حاجة لإبداء هذا الحزم من آن لآخر. إلا أن الديمقراطية التمثيلية تتطلب انفتاحية حذرة على عملية اتخاذ القرارات، حيث يكونوا فيها مخلصين صادقين، وعلى قدر المسؤولية والمحاسبة بعد اتخاذ القرارات الهامّة، ومستعدين للتنحي عن السلطة لو تطلب الأمر.

أبدى كلٌّ من بوش وبلير شجاعته عندما قررا غزو العراق، وبما إنني أؤمن بمحاسن الديمقراطيّة التمثيلية، فإنني أشجّع قيادة رؤساء الحكومات. ومن الضروري لأولئك القادة، دائمًا وفي وقت الحرب تحديدًا، أن يدفعوا ويحرِّضوا مستشاريهم الدبلوماسيين والعسكريين. ووُثِّقت صورة القيادة هذه جيدًا في كتاب إليوت كوهين: «القيادة العليا» إلا أن بوش وبلير لم يطبِّقاها على وجه الدقة. ففي الأمثلة التاريخية الأربعة التي طرحها كوهين عن «لينكولن باحثًا عن جنرال له نفس وجهة نظره عن الحرب، وكليمنصو محاولًا الموازنة بين رغبات القادة العسكريين المتناقضة، وتشرشل وتعطُّشه للخيارات، وبن غوريون وإصراره على التمسك بالأصول في أعتى الأزمات»[1]. لم يبدُ أن أيًا من بوش ولا بلير كانا منخرطين مع خطط الجيش لإتمام حرب العراق.

(1) Eliot A. Cohen, **Supreme Command: Soldiers, Statesmen, and Leadership in Wartime** (New York: Anchor, 2003), p. 208.

في الحقيقة، لست مهتمًا بنظرية المؤامرة. إنني أؤمن، وعلى عكس العديد من النقّاد، بأن بوش وبلير اعتقدا فعلًا بوجود الغاز والأسلحة الكيميائية داخل العراق عام 2003 م. كما اعتقدت بذلك أيضًا الخدمات الاستخباراتية الفرنسية، والروسية، والإسرائيلية. وأعتقد بأنهم كانوا يخافون جدًا من استخدام العراق لهذه الأسلحة، كما استخدم الغاز ضد إيران مسبقًا، لذا تخوَّفوا من تطوير العراق للأسلحة النووية. وجرت نقاشات جادَّة في واشنطن ولندن عن مدى احتمالية نقل أسلحة الدمار الشامل العراقية إلى دول مسلمة مجاورة، غير أن معظم الباحثين يرون بأن ذلك لا ينطبق على بغضاء صدّام وعداوته لجيرانه. ولكن لم يبدِ أيًا من بوش ولا بلير أدنى استعداد لفهم طبيعة وتعقيد الحرب التي شنُّوها. كانت أهدافهما الاستراتيجية هي تغيير النظام، ولأسباب وجيهة. كان بوش مطَّلعًا ومنفتحًا على هذا الجانب، إلا أن بلير لم يكن على نفس القدر من الاطِّلاع. لقد أكَّد جورج تينيت، الذي أصبح لاحقًا رئيسًا لوكالة الاستخبارات المركزية، بأنه: «لم تشنّ أميركا الحرب على العراق بسبب أسلحة الدمار الشامل فحسب، بل أظن، وأشك بأنه كان السبب الرئيسي لها. لقد كان ذلك مجرد تغطية وتضليل»[1].

بدا لي بأن طبيعة ومدى انعدام كفاءتهما مرتبطة بغطرستهما، ففي حالة بوش ظهرت الثقة العمياء لزملائه المقربين المحافظين، شيني ورامسفيلد. بينما لم يكن لبلير أي زملاء وزاريين مقربين. وصارت علاقة ارتباط غزو العراق بعدم الكفاءة والغطرسة موضوعًا مثيرًا ناقشه وحلَّله عدد من المحلِّلين الأكفَّاء[2]. إلا أن الاستدلال بتلك العلاقة ليس كافيًا لبرهنة متلازمة الغطرسة، حيث يجب أن يكون هناك فحصًا شاملًا لطبيعة عدم الكفاءة وللتخبط اللذين يصاحباها. فكما في كل الحروب، دائمًا ما تحدث أخطاء في الأحكام والقرارات. إنني، بتركيزي على عدم الكفاءة المتغطرسة، لا أهدف إلى الزعم بأنها مصدر الأخطاء الأوحد، ولكنها جزء رئيس في عملية اتخاذ القرارات.

(1) Tenet, **At the Center of the Storm**, p. 321.

(2) H. D. S. Greenway, «Fatal combination of hubris and incompetence», **Boston Globe**, 11 July 2003; J Freedland, «The blind prophet», **Guardian**, 3 September 2003; Arthur Schlesinger Jr, «Opportunity knocks», **American Prospect**, 21 November 2004; Charles A. Kupchan and Ray Takeyh, «Middle East: reaping what Bush sowed», **International Herald Tribune**, 19 July 2006; Ricks, Fiasco.

عدم الكفاءة المتغطرسة 1: فشل التخطيط للعواقب

كان لدى جورج بوش ميِّزة وجود اثنين من الزملاء من ذوي الخبرة، وهما: كولن باول وديك تشيني، اللذان سبق وأن كانا مع والده في الحكومة عندما قام صدام حسين بغزو الكويت. كان هدف صدام الأهم من وراء الغزو هو درء خطر الثلاثين مليار التي طالبت بها الكويت العراق كديون مستحقّة عليه، ولهذا السبب لم يكتف باحتلال حقول الرميلة النفطية المتنازع عليها، وإنما استولى على مدينة الكويت، ومن ثم تعمَّد الاتجاه جنوبًا نحو الحدود الكويتية ـ السعودية معرِّضًا بذلك السعوديين للتهديد.

منذ البداية وعند الاجتماع الثاني لمجلس الأمن القومي في الثالث من آب/ أغسطس 1990م أُخذ موقف صدام الشخصي بعين الاعتبار. فتساءل باول بصفته رئيس هيئة الأركان المشتركة قائلًا: «ما مدى تفرُّد هذا العدوان؟ وإذا رحل، هل سيحظى ببديل معقول؟». وقال براندت سكاوكروفت بصفته مستشار الأمن القومي: «قد ينهار العراق». فردَّ عليه ريتشارد هاز المختص في السياسة الخارجية بأنه: «من المستبعد أن يكون ثمة شخص آخر لديه قوة شخصية مماثلة قادرة على إبقاء البلد موحدًا»[1]. لقد ظلت هذه المحادثة أساس حملة عاصفة الصحراء لسنة 1991م فقد كان على الولايات المتحدة أن تخرج القوات العراقية من الكويت لا أن تهاجم بغداد.

قام الرئيس جورج بوش الأب بجمع قوات متعددة الجنسيات مع عدد هام من الحشود العسكرية المساهمة من دول عدةً أهمها المملكة المتحدة، وفرنسا، والمملكة العربية السعودية، ومصر. وفي الثاني عشر من كانون الثاني/ يناير 1991م صوَّت الكونغرس لصالح قرار يسمح باستخدام القوة، وهو ما قام به أيضًا مجلس الشيوخ، ولكن في التصويت الأخير كانت النتيجة 52 مقابل 47 من الأصوات مع معارضة العديد من الديمقراطيين. في البداية أسهم القصف الجوي لمدة ستة أسابيع في التفوق العسكري. وتبعه، في الرابع والعشرين من شباط، هجوم سريع بواسطة دبابات مزيفة وهجوم شامل للمروحيات، وتبعه وقف إطلاق نار في السابع والعشرين من شباط/ فبراير مدعومًا من كل من تشيني وباول. أحسَّ تشيني بعد ذلك أن عدم الإطاحة بصدام كان خطأ، لكن هذه الفكرة المستعيدة للأحداث لم يشاطره إياها الرئيس جورج بوش الأب، أو وزير خارجيته القادم جيمس بيكر، أو بايكر

(1) Alfonsi, **Circle in the Sand**, p. 68.

سكاوكرافت أو باول. واستنادًا على هذه الأحداث، يمكن للمرء أن يعتقد بأن مسألة الإحاطة بتفاصيل تبعات غزوة أخرى هدفها الإطاحة بصدام حسين وبعد اثنتي عشرة سنة من الغزوة الأولى، هي مسألة شغلت رأي جورج بوش الأب. ولكن من الظاهر بأنه كان على اقتناع بأن الإطاحة بصدام ستتسبب في بعض المشاكل القليلة، باعتبار أن الأميركيين سينظر إليهم على أنهم محرِّرين. إلا أن الحقيقة المؤلمة أن بوش وبلير قد أفرطوا في سوء تقدير المسألة، كما فعل تومي فرانكس الذي لم يأخذ بجدية الإشارات المبكِّرة الدالة على أن صدام كان يخطط للتمرد[1].

كان على بوش بعد السيطرة على بغداد سنة 2003م أن يقرر ما إذا كان سيختار الإصلاح السياسي وتسليم السلطة إلى العراقيين، ومن ثم تأمين انسحاب مبكر، أو الاحتلال وبرنامج بناء دولة في العراق، مع تأجيل الانسحاب إلى وقت لاحق، إلى أن تتحقق الأهداف. كان على بوش وبلير أن يختارا إحدى الفرضيتين قبل الغزو. ولكن ما حدث هو أن بوش حين أحسَّ أن هناك انقسامًا بين مستشاريه، قرر تأجيل كل القرارات إلى ما بعد الغزو، وإلى أن يذعن بلير. بدا واضحًا أن تشيني ورامسفيلد، من خلال موقعهما من أفغانستان وقبل غزو العراق بكثير، كانا رافضين لفكرة إعادة إعمار الدولة، ومترددين في التورط فيها. لقد كانا، وإلى جانب نائب وزير الدفاع بول ولفويتز المنتمي للمحافظين الجدد والزميل دوغلاس فيث من وزارة الدفاع، «لم يصدقِّوا أن الولايات المتحدة ستكون مجبرة على إدارة شؤون العراق في فترة ما بعد الحرب».

لقد كان هدفهم السيطرة السريعة على البلاد ومن ثمّ تسليم الأمور إلى شخصيات المؤتمر الوطني العراقي المفضلين، والذين كانوا بالمنفى ليعجلوا بعدها بالانسحاب. وبناءً على هذه السياسة فقد وجَّه تشيني إصبع الاتهام في أواخر سنة 2003م إلى باول قائلًا: «لو لم تعارض المؤتمر الوطني العراقي وقائده أحمد شلبي، لما كنا في مثل هذه الورطة »[2]. وعلى خلاف ذلك، فإن وزارة الخارجية التي يترأسها باول كانت تؤِّيد مشروع إعادة بناء العراق، ومهما فعل بوش فقد كان عليه أن يختار إحدى الطرق. لقد كان ترك بوش مسألة التخطيط

---

(1) Gordon and Trainor, **Cobra II**, pp. 500 – 501.

(2) George Packer, **The Assassin's Gate: America in Iraq** (New York: Farrar, Straus & Giroux, 2005), p. 147.

لما بعد الحرب من دون حل خطأ جسيمًا، بالرغم من أنه قرر أن يوكل المهمة لرامسفيلد عوضًا عن باول.

أما بالنسبة إلى الوضع في بريطانيا، فإننا نعلم أنه وقع تسريب العديد من الوثائق الرسمية[1] التي تثبت أن مسألة التخطيط لما بعد الحرب على العراق قد عُرضت على بلير، وإنه قد بدا متجاهلًا لمخاوف مسؤوليه. وبالنسبة إلى أولئك المهتمين بدراسة القرارات الخاطئة، وعدم الكفاءة في تطبيق السياسة البريطانية، فإن هذه الوثائق السرية وفّرت كنزًا دفينًا وثمينًا من المعلومات. فلقد حذّر مدير مكتب العلاقات السياسية السير بيتر ريكاتس في 20 آذار/ مارس 2002م قائلًا: «إن محاولة الولايات المتحدة إيجاد علاقة بين العراق وتنظيم القاعدة أمر غير مقنع»[2].

لقد ظهرت العديد من الروايات حول العلاقة بين تنظيم القاعدة والعراق، ولعل من أهمها تلك التي تتحدث عن اجتماع ضمّ محمد عطا، العقل المدبِّر لأحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، بعميل استخبارات عراقي في براغ، وذلك قبل خمسة أشهر من اختطاف الطائرة. ولقد صدَّقت هذه القصة وكَتبت عنها مقالًا في جريدة: «وول ستريت»[3]، ولكن ذلك كان عار عن الصحة وكُذِّب قبل غزو العراق. ومع ذلك كان ثمة إشارة عن الطريقة الفضفاضة التي تم بواسطتها توظيف الاستخبارات لصالح البيت الأبيض، وهو ما حدا بمجلة: «التايم» في وقت لاحق لوصف لويس ليبِّي، رئيس مساعدي تشيني، بالمسؤول عن دعم هذه القصة بكل مثابرة. وقد أطلقت التايم على ذلك: «صعوبة قتل ما يفضِّله ليبِّي»[4]

في شهر شباط/ فبراير، ذهب بلير للقاء بوش في كراوفورد بولاية تكساس، ليحذِّره من طريق الغزو الذي كان يخامره، والذي سبق وأن شرعوا في تطبيقه. حيث راسله وزير الخارجية جاك سترو، قائلًا:

«علينا أيضًا أن نجيب عن أهم سؤال، وهو ما الذي ستحرزه هذه العملية؟ يبدو أن هناك فراغًا كبيرًا في هذا المستوى، أكبر مما في سواه. إن معظم التوقعات

---

(1) Mark Danner, **The Secret Way to War: The Downing Street Memo and the Iraq War's Buried History** (New York: New York Review, 2006).

(2) المصدر السابق، ص 140.

(3) David Owen, «**Next stop Iraq**», **Wall Street Journal**, 15 November 2001.

(4) Fall of a Vulcan', **Time**, 7 November 2005.

الصادرة من الولايات المتحدة تفترض ضرورة تغيير النظام لضمان التخلص من أسلحة الدمار الشامل العراقية، ولكن ما من أحد قدَّم تفسيرًا مقنعًا لكيفية ضمان هذا التغيير، ومدى فعاليته»[1].

في الحادي والعشرين من تموز/ يوليو وقع تبادل وثيقة بين الوزراء لمسؤول، زُعم أنها متعلقة بالعراق، وكانت تحت عنوان: «ظروف العمل العسكري» وقد حذَّرت من أنه:

لقد أولي القليل من التفكير لموضوع الظروف السياسية للعمل العسكري، أو تبعات ما بعد العملية وكيفية تشكيلها. عندما ناقش رئيس الوزراء قضية العراق مع بوش في كراوفورد في شهر شباط/ فبراير، قال: بأن بريطانيا سوف تدعم العمل العسكري لضمان تغيير النظام في حال توفَّرت بعض الشروط المعينة: تضافر الجهود لبناء تحالف، تشكيل الرأي العام، هدوء الأزمة الفلسطينية ـ الإسرائيلية، واستنفاذ خيارات اتخاذ إجراءات تؤدي للتخلص من أسلحة الدمار الشامل بالعراق بمساعدة مفتشي الأمم المتحدة.... يمكن أن يصبح احتلال العراق في فترة ما بعد الحرب عملية مكلفة ومطوَّلة لبناء الدولة. وكما هو جلي، فإن خطط الولايات المتحدة العسكرية تغض الطرف تقريبًا عن هذه النقطة[2].

بعد يومين حُذِّر بلير من تثبيت الاستخبارات في واشنطن، واعتبر ذلك أكثر خطورة حتى من الإنذار الذي أصدره سترو في شهر آذار/ مارس. لقد سُربت مذكِّرة شخصية سرية بريطانية بتاريخ 23 تموز 2002م إلى وسائل الإعلام بعد مضي سنتين على غزو العراق، تصف الاجتماع الذي حضره كل من رئيس الوزراء، ووزير الخارجية، ووزير الدفاع، والنائب العام، في غياب كل من نائب رئيس وزراء بلير، ووزير الخزانة جوردن براون. وقد حضر الاجتماع أيضًا كل من رئيس لجنة الاستخبارات المشتركة، جون سكارلت، ورئيس جهاز الاستخبارات البريطاني السير ريتشارد ديرلاف الملقب بـ «ج»، والذي وصف محادثته الأخيرة في واشنطن قائلًا: «يبدو أن اللجوء إلى العملية العسكرية أمر محتوم. لقد أراد بوش أن يطيح بصدام بواسطة العمل العسكري الذي بُرر لتلازمه مع الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل، إلا أن الاستخبارات والحقائق التي ثُبتت حول الخطة.... كان هناك القليل من النقاش في واشنطن حول العمليات العسكرية وفترة ما بعد الحرب»[3]. بعد ذلك أخبر

---

(1) Danner, **Secret Way to War**, pp. 148- 149.

(2) المصدر نفسه، ص 152ـ153/ 161.

(3) المصدر نفسه، ص 88 ـ 89.

ديرلاف جورج تينيت أنه عارض كلمة: «تثبيت» في سجل الاجتماع كما أنه قام بتصحيحها مما يعكس وجهة نظره تجاه «أسلوب الاستخبارات غير المنضبط الذي استخدم». وقد صرَّح أيضًا أنه كان هناك خلاف راق، ولكنه هام بينه وبين ليبِّي حول اعتقاده في وجود علاقة بين العراق وتنظيم القاعدة[1]. حضر ذلك الاجتماع أيضًا رئيس أركان الدفاع، الأدميرال السير مايكل بويس، الذي صرَّح بأن العسكريين استمروا في طرح العديد من الأسئلة ومن أهمها: «كيف ستكون النتائج إذا قام صدام باستعمال أسلحة الدمار الشامل منذ اليوم الأول: أو إذا لم تسقط بغداد وبدأ القتال في المناطق الحضرية؟»[2]. كان مساعدو بلير السياسيين الثلاثة: جوناثان باول، وآلستاير كامبل، وسالي مرغن موجودين في الاجتماع. ومنذ ذلك الحين كانت السياسة، وليس الاستراتيجية العسكرية، هي المهيمنة في داونينغ ستريت بما أنهم في تحضير الرأي العام في بريطانيا للحرب، وكانت طريقتهم الحاسمة في ذلك إبراز امتلاك صدام لأسلحة الدمار الشامل كواجهة.

وما كان جليًّا في تلك الوثائق المسرَّبة أنه بحلول نهاية شهر تموز/ يوليو 2002م، كانت مجموعة الرؤوس المدبِّرة في قصر «وايت هول» تشير إلى أنه سوف يُفرض مشروع بناء دولة مكلف وطويل المدى عليهم، ولكن الجيش وخدمات الاستخبارات كانوا قلقين جدًا بسبب عدم وجود أي تخطيط لما بعد الغزو في واشنطن. ومع ذلك فقد كان بلير يتجاهل التحذيرات التي كان شعبه يقدمها له. فعند لقائي به على العشاء الذي سبق أن ذكرته، كان بلير يصرف النظر عن وجود أي صعوبات، محاولًا بذلك أن يعطي انطباعًا أنه تمّ التعامل مع كل الأمور. لم يكن ذلك مجرد عجز عادي، بل عدم كفاءة متغطرسة. حيث أضحى متجاهلًا تمامًا لكل جدال حول الصعوبات العملية المرجَّحة. كما ذكر مسؤول كبير إنه عندما حذَّر بلير من الصعوبات التي سوف تواجهه كان بلير يقول: «أنت نيفيل تشامبرلاين، وأنا وينستون تشرشل، وصدام هو هتلر». لقد كان من الصعب مواصلة الحوار مع قائد يفكِّر في الأمور بشكل عاطفي وبسيط.

كان ذلك مزاج بلير كلما تعلَّق الأمر بتقديم النصائح له. لقد دُعي الخبير الأكاديمي في سياسات الشرق الأوسط، تشارلز تريب، وآخرون للقائه، فأورد تريب في تقرير عن اللقاء:

(1) Tenet, **At the Center of the Storm**, p. 310.

(2) Danner, **Secret Way to War**, p. 91.

في إحدى اجتماعات داونينغ ستريت في تشرين الثاني/ نوفمبر 2002م والذي حضره كلٌ من بلير، وسترو، وستة أكاديميين على اطِّلاع بالعراق والشرق الأوسط، تمّ التطرق خلاله إلى نقطتين: الأولى: أن سترو يعتقد أن العراق بعد صدام سيكون شبيهًا بروسيا بعد السوفيات، ويمكن تصنيفه ببساطة كمخلوق غريب أي: «مجتمع انتقالي». والثانية: إنه إما وقع إقناعهم بذكاء من طرف «محاربي الحرب الباردة» الذين يحومون حول إدارة بوش، أو كانوا قد فشلوا في إقناع «حليفهم الوثيق» على تصميمهم بتفكيك دولة العراق وبنيتها الأمنية. الأدهى هو أن بلير بدا لا مباليًا تمامًا بمدى تعقيد وغموض سياسة المجتمع العراقي، فقد كان يؤكِّد فقط على أن خلع صدام سوف يزيل «الشر» من البلد[1].

إن اهتمام بلير واقتناعه بأنه كان يحارب الشر، يتطابق مع حديث بوش حول حملته الصليبية، وأنه بكل بساطة سوف يخلص العالم من «الأشرار».

وعلى عكس ما كان في بريطانيا، أعلن رئيس أركان الجيش الأميركي اللواء أريك. ك. شينساكي عن عدم ارتياح الجيش، وأخبر مجلس عموم لجنة القوات المسلحة في شباط/ فبراير 2003م قبل الغزو أنه وباعتبار خبرته في حفظ السلام في منطقة البلقان، فإن مسألة العراق فيما بعد الحرب تتطلب «بعض مئات الآلاف من الجنود». كان ذلك التقدير المنطقي لرجل أمضى معظم حياته العسكرية في فيتنام، وقاد قوات الناتو لحفظ السلام في البوسنة، وأشرف على قيادة كل من القوات البرية لحلف شمال الأطلسي والجيش الأميركي في أوروبا. وسمح الفصل بين السلطات في الولايات المتحدة الأميركية بمثل هذه الصراحة في جلسات الاستماع في الكونغرس. حيث كان التقليد في بريطانيا بأن يقدم الزعماء نصائحهم للوزراء على انفراد عند مثولهم أمام اللجنة المختارة في البرلمان. وعلى ضوء ما حدث في العراق، فإن برلمان بريطانيا بات في حاجة لإعادة النظر في قناعاته.

لقد كان على بوش ومستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس، أن يفرضا على البيت الأبيض مراجعة مستويات القوة المخطط لها بعد الإفادة التي قدمها شينساكي. وعوضًا عن ذلك وبعد أيام قليلة، قام بول وولفويتز بمعارضته، وأخبر لجنة بيت الموازنة أن ذلك «التخمين خيالي» وفسَّر ذلك بأنه: «من الصعب تصور أن الأمر يتطلب المزيد من القوات

(1) Charles Tripp, «Militias, vigilantes, death squads», **London Review of Books**, 25 January 2007.

لفرض الاستقرار بعد سقوط صدام ، أكثر مما تتطلبه إدارة الحرب وضمان استسلام قوات الأمن التابعة لصدام وجيشه. إنه أمر صعب تخيله»[1]. وبالنسبة لذوي الخبرة في صراعات ما بعد الحرب، فقد كان من السهل تصور سبب الحاجة إلى المزيد من القوات بعد الحرب. وكذلك كان الأمر بالنسبة لرؤية بريطانيا فيما يخص تجربتها في إيرلندا الشمالية على مدى ثلاثة عقود، وفي البوسنة والهرسك من عام 1992م والفترة التي تلتها.

بالنسبة للمدافعين عن السياسة البريطانية وعن بلير، فإنهم يلقون كل اللوم على الأميركيين لعدم كفاءتهم، وذلك لاستخفافهم بمدى معرفة بريطانيا بالمنطقة. لقد كانت بريطانيا وعلى عكس أميركا منخرطة في العراق خلال أغلب سنوات القرن العشرين. فبحلول عام 1918م، قام ديفيد لويد جورج بإرسال أكثر من مليون من الجنود من القوات البريطانية ومن رابطة الشعوب البريطانية إلى الأراضي العثمانية، لفرض الاستيطان في فترة ما بعد الحرب[2]. لقد حكمت بريطانيا العراق، وإن لم يكن ذلك بنجاح كبير، في إطار تفويض انتداب من عصبة الأمم من سنة (1920 إلى غاية سنة 1932م)، وظلت مقرَّبة من الملك فيصل ونوري السعيد اللذين سيطرا على البلاد طيلة عقدين متتاليين. وقد كان لوزارة الخارجية البريطانية، ووزارة الدفاع، المعرفة والخبرة والآراء السديدة اللازمة لمعالجة تبعات أي غزو وخاصة في ضوء أخطاء سنة 1991م. ولكن بلير لم يستفد من هذه الخبرة. كما أن وثيقة استراتيجية مكتب الخارجية التي كانت وزارة الخارجية تأمل في وصولها، بعد أن تجاهل البنتاغون وثيقتهم، لم تصل[3]. ففي أثناء ذلك كتب السفير البريطاني في واشنطن عن «الكفاح الجبار» طيلة ستة أشهر لإبقاء بريطانيا «داخل الحرب»، وعن «الطاقة الضئيلة التي تبقت في داونينغ ستريت للتفكير في تبعات الحرب. فمنذ أن انشغل داونينغ ستريت بسياسة العراق، باء مجهود مكتب السياسة الخارجية لمشاركة الأميركان التخطيط لمرحلة ما بعد الحرب بالفشل»[4].

كانت تلك عاقبة تعاطي بلير مع مسألة الاستعداد للحرب، وتهميشه بذلك لمكتب العلاقات الخارجية، متجاهلًا تحذيرات الجيش وأجهزة المخابرات. ومع ذلك فمن

(1) George Packer, **Assassins Gate**, pp. 114 - 115.

(2) David Fromkin, **A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East** (New York: Avon, 1990).

(3) John Newhouse, **Imperial America: The Bush Assault on the World Order** (New York: Albert A. Knopf, 2003), p.43.

(4) Meyer, DC **Confidential**, pp. 8, 223 - 224.

المنطقي أن نتوقع أنه وفي كل علاقة موضوعية وحقيقية بين رئيسي حكومة مثل بوش وبلير، لا بدَّ أن تكون هناك مناقشة مفصَّلة حول كل القضايا الرئيسية، بما في ذلك مسألة ما بعد الغزو. ومع ذلك فقد كانت هناك القليل من الأدلة التي تفيد بأنهم ناقشوا الأمر بدقة. حيث عيَّن بوش رامسفيلد بشكل رسمي ليكون مسؤولًا عن التخطيط لما بعد الحرب في 20 كانون الثاني/ يناير، بالرغم من أنه كان على التخطيط أن يُنجز في واشنطن وقصر وايت هول قبل أشهر.

وفي 31 كانون الثاني/ يناير 2003م اجتمع الزعيمان في واشنطن والتي ظهرت بعض الوثائق المسرَّبة حوله في كتاب[1]، إلا أن أكثر التفاصيل انفردت بها صحيفة: «نيويورك تايمز» التي تمكن صحافيوها من مراجعة كاملة لمذكِّرة اجتماع كبير مستشاري رئيس الوزراء ديفيد مانينغ[2]. فقد أُعلم بلير بأن تاريخ بدء القصف حُدِّد مبدئيًّا يوم 10 آذار/ مارس 2003م، ومن الواضح أن كلًّا من بلير وبوش لم يعتقد أنه كان من الضروري التخطيط للعواقب المحتملة، فتوقُّعات بوش أثناء الاجتماع بينَّت بأن الجيش العراقي «سوف يُسحق بسرعة». وبالطبع أورد روبرت درابير في كتابه: «ميت بالتأكيد» أن بوش صرح قائلًا: «كانت الخطة أن نحافظ على سلامة الجيش، ولم يحدث ذلك». ولكنه لا يذكر كيف كانت ردَّة فعله عندما اكتشف أن الخطة انعكست.

لقد أخبرني أحد المحافظين الجدد حينها أن كل الانقسامات في صفوف القوات العراقية سوف تتوافق مع الحلفاء وتساعد في الحفاظ على القانون والنظام. لقد تصوَّر كل من بوش وبلير في اجتماعهما أن الانتصار سيكون سريعًا، وكانا يتبادلان الأفكار حول حكومة عراق ما بعد الحرب، فيقول بلير: «سيكون من الغريب بالنسبة للناس أن نسلِّم العراق إلى طاغية آخر». إلا أن كلاهما كان يعلم بأن تسليمهم البلد للعراقيين الذين تختارهم الولايات المتحدة، كان أمرًا رئيسيًّا حسب اعتقاد رامسفيلد، وتشيني، وولفويتز. وعندما سأل بلير عن تخطيط ما بعد الحرب، أخبرته كونداليزا رايس بأنه: «أُحرز تقدم كبير في العمل»، إلّا أن بوش كان لا يزال يتحدث عن: «معضلة الانتقال إلى الإدارة المدنية» موضحًا بذلك أن

(1) Philippe Sands, **Lawless World: Making and Breaking Global Rules**, rev. ed. (London: Penguin, 2006), pp. 272-273.

(2) Don Van Natta Jr, «Bush was set on path to war, memo by British adviser», **New York Times**, 273 March 2006.

المسألة مازالت لم تحل. كان مؤيدو بلير في دفاعهم يدورون حول فكرة أن رئيس الوزراء يؤكد أنه لم يتم إعلامهم، لكن ذلك لم يقف في وجه الاستجواب الجدي. فقد تم تجاهل سلسلة من البرقيات القادمة من طرف سفير بريطانيا في واشنطن، السير كرستوفر ماير، والتي كشف عنها برنامج «بي بي سي» التلفزيوني «لا خطة، لا سلام» الذي عُرض في يومي 28 و29 تشرين الأول/ أكتوبر 2007م. حيث كان قرار بلير أيضًا بألا يحل أحد محل ماير عندما عاد من العراق قبل الحرب، تاركًا بذلك المنصب شاغرًا لفترة طويلة وفي فترة حرجة. وعندما أُطلق سراح مانينغ من داونينغ ستريت، تبيِّن أن معظم أخطاء التخطيط كارثيّة. فقد أشارت كل الأدلة إلى أن «التخطيط لما بعد الحرب في العراق لم يكن أكثر أولوية في لندن من واشنطن»[1].

وإذا أخذنا بعين الاعتبار سمات الغطرسة، فإنه لم يكن لا لبوش ولا لبلير مستشارين في وزارات الدفاع والخارجية أثناء اجتماع كانون الثاني/ يناير، حيث لم يكن بصحبتهم سوى موظفيهم الخاصين العاملين في البيت الأبيض وداونينغ ستريت. وقد وُظفت المجموعة العاملة نفسها لضمان إعادة صياغة الآراء والتحيُّزات بخصوص الزيارات المتكررة لقياداتهم السياسية عبر المحيط الأطلسي، لقد كانت تلك ظاهرة خطيرة وثّقتها بطريقة جيدة إدارة المنظِّرين والتي تسمى بـ «جماعة التفكير». ووصفت أعراض هذه العملية جيدًا في كتاب حمل عنوان: «عن سيكولوجية عدم الكفاءة العسكرية» بأنها «شخصية مصممة على الإنهاك». تطرق الكتاب لطريقة جون كينيدي في التعاطي مع فشله الذريع في أزمة خليج الخنازير. إن تحليل ماضي عدم الكفاءة في المجال العسكري يقدِّم أربعة عوارض تحدث في غالب الأحيان، وهي: «فقدان الطاقة البشرية، الثقة المبالغ فيها، الاستخفاف بالعدو، وتجاهل التقارير الاستخباراتية».[2]

نعرف الآن بأن اللواء تيم كروس أخبر بلير في وقت مبكر من شهر آذار/ مارس بأن مخطط فترة ما بعد الحرب كان مشوشًا كليًّا. وقد لخص كراوس رؤيته لما كان يجري في واشنطن بقوله: «المخطط الذي كان، هو أننا لا نحتاج لمخطط». وكشف كراوس في حوار

(1) John Ware, «Revealed: Blair was warned of looming disaster in Iraq», **Sunday Telegraph**, 28 October 2007.

(2) Norman Dixon, **On the Psychology of Military Incompetence** (London: Jonathan Cape, 1976), pp. 399-400.

مع صحيفة: «الصاندي تايمز» في 21 تشرين الأول/ أكتوبر 2007م قائلًا: «بينما كنا نضايقه بالمواضيع، كان بلير يستمع ويسأل، فلم تبدو أيًا من أسئلته أو أجوبته مثيرة للدهشة، وفي الحقيقة فقد بدت تدعم ما بدأت أذنه تلتقطه في أي مكان آخر». كما يتذكر كراوس إنه أخبر بلير قائلًا: «نريد أن نكون حذرين جدًّا ولا نشرع في هذه الحرب حتى نتبيَّن كيفية إنهائها، وأنا واحد من أولئك الذين ليس لديهم فكرة واضحة عن كيفية القيام بذلك». وغادر كراوس داونينغ ستريت وهو في يفكِّر بأن بلير: «بدا وكأنه لم يكن لديه المقدرة لفهم مجال وتعقيدات ما يمكن أن يكون ضروريًّا في فترة ما بعد الغزو. كما لا أظن أنه فهم ما يمكن أن تؤول إليه النتائج». كانت القضية بالنسبة لكروس مسألة فشل في القيادة: «لقد فهمنا الموضوع على نحو خاطئ، واستخففنا بالمصادر التي من خلالها يجب أن ننظر إلى العملية، كما أسأنا تقدير الوقت اللازم لذلك».

وسمعت بطريقة سرّية ـ رغم إنني لا أملك البرهان عن ذلك ـ أن بلير أثناء لقائه الأخير ببوش في جزر الأزور في الرابع عشر من آذار/ مارس، وقبل أيام فقط من عملية الغزو، وُجِّهت له بعض الأسئلة من طرف المؤسسة العسكرية حول غياب تخطيط لفترة ما بعد الغزو، ولكن من الأفضل أن نفترض أنه لم يثرها. ولهذا فقد أرسل كل من بلير وبوش جيوشهما إلى الحرب دون سابق علم حول كم من الوقت سيمكثون هناك كقوة محتلة. وقد حدا ذلك بأحد عملاء وكالة الاستخبارات الأميركية السابقين إلى القول:

> **لم يكن هناك شك بأننا سنصل إلى بغداد في وقت لا يُذكر، لذا كان من الأفضل أن يكون هناك مخطط حين نصل إلى هناك. فلم يكن لدينا أي شيء سوى أربع صفحات باور بوينت. كان ذلك عجرفة، كانت لنا عادة التهكم على مجموعة حملة الدكتوراة أي: وولفويتز وفيث الذين عرفوا الكثير أفضل منا... لقد هيأنا الظروف لكي يحدث ذلك، كانت تلك فوضى من صنعنا نحن**[1].

كان ذلك يعني أن واحدة من فرضيات هنري كيسينجر الثلاث لأية حرب في العراق والتي وضَّحها على مسمع السفير البريطاني في شهر تموز/ يوليو 2002م، لم تكن قد تحققت. فكيسينجر قال: إنه كان يجب علينا: «أن نصل إلى بغداد ونحن نملك مخططًا

---

(1) Michael Isikoff and David Corn, Hubris: **The Inside Story of Spin, Scandal, and the Selling of the Iraq War** (New York: Crown, 2006), pp. 417-419.

واضحًا لخلافة صدام، وإلا فإن الأمر سيكون كارثيًا إذا بدأنا نقاشًا حول النظام الذي سيحل محله بعد الإطاحة بصدام»[1].

وفي 17 كانون الثاني/ يناير طلب دوغلاس فيث من قائد الفريق الملازم المتقاعد، جاي غارنر، بأن يهتم بأمر ما بعد حرب العراق، وبمكتب إعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية. وكان الملازم كروس نائبًا له. لم يمد غارنر بأية مخططات جاهزة، لأن فيث كان يأمل أن يلتجئ غارنر إلى أحمد شلبي وجماعته في المهجر[2]. وعندما التقى بوش وبلير في 31 كانون الثاني/ يناير 2003م، أعلنا بكل غرور أن: «الفشل لم يكن خيارًا» لكن كلا الرجلين كان قد سبق وأن قدَّم إشارات عن فشل قبل حتى أن تبدأ عملية الغزو. في غالب الأحيان يلقي القادة الشجعان بالنصائح التحذيرية جانبًا، لكن ذلك كان تهورًا بالنسبة لبوش وبلير ألا يستمعا إلى المخاوف التي أُبديت لهما، إذ أنها كانت واقعية. فعدم التخطيط لدرء تلك المخاوف التي أصبحت أمرًا واقعيًا كان تهورًا، وفي حقيقة الأمر فقد كان ذلك أكثر من تهور. لقد كان تقصيرًا في أداء الواجب، وهو أمر جدير باللوم. إن التعاطي أو بالأحرى عدم التعاطي مع المسائل الحيوية لتخطيط مسبق لما يجب فعله تجاه عراق محتل، إلى جانب الفشل في توفير قوات كافية لحفظ الأمن، أدَّى إلى ظهور علامات غطرسة عدم الكفاءة على بوش وبلير، وهو ما خلف لعنة العقوبة (نيمسيس) التي طالت مئات الآلاف من الناس. كانت مسؤوليتهما عن ذلك جليَّة للجميع، ولا يمكن إلصاقها بمواليهما أو بالعراقيين.

لم يسلط لا بوش ولا رايس الضوء على التحضيرات المفصلة للمرحلة الانتقالية إلّا في خضم فترة ما بعد غمرة الفرح بنجاح الغزو. ففي أيار/ مايو 2003م وصل بول بريمر إلى بغداد كزعيم أميركي لسلطة التحالف المؤقتة بصلاحيات هامة، ومصرًّا على التواصل مع بوش. وفي وقت لاحق تقرر النأي عن وعد غارنر العام بإجراء انتخابات في ظرف تسعين يومًا مع انتقال مبكِّر للحكم. كان يبدو أن جزءًا من مهمة بريمر هو إخراج أحمد شلبي من اللعبة أو التقليل من تأثيره، ولهذا فإن خيار بناء الدولة هو ما تبنَّاه بوش فيما بعد، ولكن بعدد ضئيل جدًّا من الجنود، والسعي لجعل ذلك عمليًّا، خاصة مع بدء عملية التمرد. فبوش

(1) Meyer, **DC Confidential**, pp. 190, 224, 282.

(2) Rajiv Chandrasekaran, **Imperial Life in the Emerald City: Inside Baghdad's Zone** (London: Bloomsbury, 2007), p. 33.

لم يشرح للأميركيين ثمن تلك الحرب[1] كما فعل روزفلت في رسالة 1942م إلى اتحاد الدولة عندما حذّر قائلًا: «تكلّف الحرب المال، وهذا يعني السندات والضرائب. وهو ما يعني التخلي عن الكماليات والأشياء الأخرى غير الضرورية. بعبارة بسيطة يعني ذلك حربًا شاملة بمجهود فردي أو عائلي في دولة موحدة». وبدلًا من ذلك سرى انطباع منذ 2003م أن الولايات المتحدة لم تكن في حالة حرب، بل الجيش الأميركي هو الذي كان في حالة حرب في حين اكتفى باقي البلد بالمشاهدة.

عدم الكفاءة المتغطرسة 2: سعي بلير لاستصدار قرار أممي ثان

قبل سبعة أشهر من غزو العراق، كان وزير الخارجية الأميركي كولن باول هو من أقنع الرئيس بوش بالذهاب إلى الأمم المتحدة، قبل الشروع في تدخل عسكري مباشر. وحذّر كولن باول جورج بوش وهما على طاولة العشاء في الخامس من آب/ أغسطس 2002م من إضافة العراق إلى أفغانستان في التدخل العسكري الأميركي الأحادي الجانب، ونصحه بأن يسعى للحصول على الدعم الأممي، وكانت كونداليزا رايس الشخص الوحيد الحاضر معهما آنذاك.

فبحسب الصحفي بوب وودورد قال باول: «مازال باستطاعتك القيام بالدعوة إلى تحالف أو تحرك أممي للقيام بما يجب القيام به» كما حذّر من «غليان» في العالم العربي قد يخنق كل ما تقوم به الولايات المتحدة، لا في حربها على الإرهاب فحسب، بل في كل علاقاتها الديبلوماسية والدفاعية والاستخباراتية الأخرى[2]. وأثناء ذهابه إلى الأمم المتحدة كانت حجج كولن باول تلقى دعمًا قويًا من توني بلير. في الثاني عشر من أيلول/ سبتمبر ومع فقدان الفقرة الحاسمة من ملاحظاته، ارتجل بوش في خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة قائلًا: «إن الولايات المتحدة ستعمل مع مجلس الأمن الدولي من أجل القرارات الضرورية» ولكنه كان يعني «القرار» في صيغة المفرد. هذا التعبير غير المناسب أشغل الفرنسيين للدفع من أجل استصدار قرارين اثنين. وفي الشهر التالي قرر الكونغرس الأميركي الترخيص لاستعمال القوة العسكرية ضد العراق، وهو ما سمح للرئيس باتخاذ خطوة «رآها ضرورية ومناسبة».

---

(1) Robert D. Hormats, **The Price of Liberty: Paying for America's Wars** (New York: Times, 2007).

(2) Bob Woodward, **Bush at War** (New York: Simon & Schuster, 2002), pp. 333 - 334.

كان تمرير القرار (1441) بالإجماع في مجلس الأمن في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر 2002م إنجازًا ديبلوماسيًا، ولكنه كان مراوغة سياسية أيضًا. كانت فرنسا وألمانيا وروسيا ما زلن بعيدات عن الاقتناع بمسألة غزو العراق. ومع ذلك نجحت صياغة القرار في زيادة الضغط الدولي على صدام حسين، وعجَّلت من إمكانية التدخل العسكري، إذا لم يبد أي تعاون. كان نجاح الأميركيين في ذلك يقاس بردة فعل الفرنسيين. فمع حلول التاسع من كانون الأول/ ديسمبر حُقق «انسجام ظاهر بين وجهتي النظر الفرنسية والأميركية»[1]. وفي الحادي عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر، ذهب جنرال فرنسي إلى واشنطن ليعرض ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشرة ألف جندي، ومئة طائرة جاهزة للتحرك، بعد التقرير الأول لكبير المفتشين الأمميين المنتظر صدوره في 27 كانون الثاني/ يناير 2003م، والذي توقَّع الفرنسيون ألا يكون في صالح صدّام. في الثالث عشر من كانون الثاني/ يناير، أرسل الرئيس الفرنسي جاك شيراك مبعوثًا خاصًّا للتحدث إلى رايس مصحوبًا بالسفير الفرنسي جان دافيد لوفيت، وهو الذي كان موظفًا في الأمم المتحدة أثناء المفاوضات حول القرار (1441). قائلين: إن الفرنسيين لم يرغبوا في نقض قرار ثان، ولذلك فضلوا أن تذهب الولايات المتحدة للحرب طبقًا للقرار (1441) إذا شعرت أن المساعي الديبلوماسية قد استنزفت.

ومباشرة بعد التصويت بالإجماع في مجلس الأمن، وفيما كان جورج بوش محتفلًا بالدعم المطلق في الكونغرس، كان على توني بلير، بشكل حكيم، أن يوضِّح لبرلمان بلاده أن القرار (1441) يمكن أن ينطبق على ملف أسلحة الدمار الشامل فقط، إذا ما تنحى صدام. وهو أمر على غاية من الأهمية بالنظر إلى كونه سيمكن بلير من الربط المهم بين الدعوة إلى تنحِّي صدام كأمر ضروري لفرض الانصياع للقرارات المطالبة بإزالة أسلحة الدمار الشامل وبين تغيير النظام. حيث هذا المطلب الأخير لم يحظ بدعم كاف داخل أروقة الأمم المتحدة كهدف في حدِّ ذاته، بل بربط الاثنين معًا، بما يحقق كسب الدعم الأممي وتوسيع الدعم والتفهم داخل البرلمان.

إن تفسير لوائح الأمم المتحدة هي مسؤولية مجلس الأمن، وهو ليس بمحكمة قانونية ولكنه تشكيلة من الدول الأعضاء، لهم سلطة التحرك حسب تفسيرهم للوائح. فنصائح المحامين هنا ليست سوى عامل من عوامل ترجيح الكفّة عند مناقشة مصطلحات القرار

(1) Charles Cogan, **French Negotiating Behaviour: Dealing with La Grande Nation** (Washington, DC: United States Institute of Peace Press, 2003), pp. 205 - 209.

الأممي. إن المطالبة باستقالة رئيس عن طريق مجلس الأمن الدولي تحت التهديد بتحرك معين، حسب البند السابع من لوائح الأمم المتحدة، يمكن تبريره من طرف مجلس الأمن كتحرك يراد به درء تهديد للسلام. حيث لتهديد السلام أن يتجاوز وصية اللوائح بعدم التدخل في السيادة الداخلية لدولة أخرى. بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر فقط، أصبح هذا الطلب خيارًا قابلًا للتطبيق في العراق بسبب جاهزية الولايات المتحدة للقيام بتحرك عسكري. إذ إن قرارًا أمميًّا يطالب صدام وكبار معاونيه بالتنحي، لضمان إزالة أية إمكانية للعراق لتطوير أسلحة الدمار الشامل تعقبه انتخابات تحت إشراف الأمم المتحدة، كان يمكن أن تكون من أولى ردود الفعل الديبلوماسية لبوش وبلير في سنة 2002م. وكان يمكن أن يتبع ذلك غزوًا إذا ما قوبل القرار بالنقض أو التجاهل. كان ذلك سيكون أفضل بكثير من التركيز على أسلحة الدمار الشامل، فقط، وسيكون مبررًا بالنظر إلى تاريخ صدام الطويل في الاستهانة بقرارات الأمم المتحدة.

كان الجدل بشأن ضرورة تنحي صدّام بغرض فرض قرارات الأمم المتحدة في ملف أسلحة الدمار الشامل سيدعم موقف توني بلير داخل حزب العمال. بل كانت ستكون له فوائد أكبر، فالجيش البريطاني سينخرط بشكل مفتوح في تخطيط مفصَّل للغزو، مع تحّمل تبعات ذلك في الأشهر التي تلي العملية. كانت بريطانيا ستجد نفسها فيما بعد في موضع قوي لتجادل في واشنطن من أجل الدفع بأعداد أكبر من الجنود لضمان استقرار البلاد في الفترة الموالية للغزو، ومراقبة حدودها ومنع التمردات. أما الفائدة الكبرى فهي جعل البرلمان والشعب البريطاني يعرف الحقيقة في الأخير. كانت بريطانيا ذاهبة للحرب لهدف مركَّب وهو التخلص من صدام وضمان أن هذه المرة، وخلافًا لعام 1991م، ستزال أسلحة الدمار الشامل كليًّا وبلا رجعة، وستعاد حقوق الإنسان للأكراد والشيعة، وستتحسَّن الخدمات الصحية لأطفال العراق.

لماذا أراد بلير قرارًا ثانيًا؟ إن القرار (1441) في حدِّ ذاته يوفِّر شرعية للحرب اعتمادًا على إحياء القرارين 678 و687، رجوعًا إلى حرب الخليج الأولى، واللذين يتضمنان استعمال القوة العسكرية. كان ذلك تفسيرًا مثيرًا للجدل اختلف حوله أشخاص كثيرون. وفي مجلس الأمن نفسه كان هناك دائمًا تفاسير مختلفة حول صياغة القرار (1441) كما بالنسبة إلى القرارات الأممية الأخرى الخاصة بالعراق في التسعينيات. ورغم اجتماع مجلس الأمن

قبل أي تحرك عسكري أمر لا يقبل النقاش، كان هناك جدل حول ما إذا كانت هناك حاجة لتأكيد انتهاك مادي قام به العراق ضد قرارات سابقة، أم أنه يمكن تمرير قرار آخر يدعم التحرك العسكري بصفة خاصة؟. بالنسبة إلى الولايات المتحدة وبدرجة أقل بريطانيا، كان هناك التزام بالاجتماع فقط لتقييم الوضع، والحاجة إلى التوافق التام مع كل القرارات الأممية ذات العلاقة بهدف ضمان السلام والأمن. كانت وجهة النظر الأميركية أن قرارًا آخر من مجلس الأمن لم يكن مطلوبًا حسب عبارات القرار (1441)، إذا أُخذ في الاعتبار سلسلة القرارات التي اتخذها مجلس الأمن قبل ذلك، والمطالبة بنزع سلاح العراق. إن غموض التأويل لم يكن صدفة، كما لم يكن أمرًا نادر الحدوث: كان ذلك جزءًا من الواقعية السياسية، والتوافقات التي مكّنته من مناقشة القرار (1441) أولًا قبل تحريره.

وبالنسبة لأولئك المعتادين على آليات عمل مجلس الأمن الدولي في أميركا وبريطانيا كان ذلك مفاجئًا نوعًا ما، حتى أن توني بلير دفع باتجاه إصدار قرار ثان. كان ديك تشيني ورونالد رامسفيلد ضد تلك المحاولة بشكل قاطع، وكان كولن باول مجرد داعم لأنه أحسَّ أن بلير بحاجة إلى ذلك سياسيًّا. حيث علم باول من جورج بوش في الثالث عشر من كانون الثاني/ يناير أن الولايات المتحدة ماضية في الغزو. وفي التاسع عشر من كانون الثاني/ يناير قبل جورج بوش بصفة خاصة وببعض التردد سعي بلير المحموم من أجل قرار ثان. كان انعدام الحماس الأميركي أمرًا مفهومًا، لأنهم كانوا يعرفون أن الفرنسيين على استعداد للموافقة.

وفي مؤتمر صحفي في العشرين من كانون الثاني/ يناير أعلن وزير الخارجية الفرنسي دومنيك دي فيلبان بشكل استفزازي واستعراضي: «لا شيء! لا شيء!» ليبرر الحرب. كان هذا بعد أن بات مقتنعًا إثر لقائه كولن باول في 19 كانون الثاني/ يناير أن الحرب واقعة لا محالة. وفي اليوم الواحد والعشرين أبدى جان دافيد لوفيت اعتراضًا للأميركيين مرة أخرى، وبدا كما لو أنه يريد التملص من وضعية دوفيلبان في اليوم السابق. وهو أمر لم يقم به السفير الفرنسي في لندن. اقترح لوفيت على فرنسا والولايات أن يقرّوا باختلاف وجهات النظر كأصدقاء، فإن كان لا بد من الحرب فإن فرنسا ستجاري أي تحرك عسكري تحت القرار (1441). فهي لن ترسل جنودًا لكنها بالمقابل لن تدعم أي قرار يدين مثل ذلك التحرك، بشرط ألا تواجه قرارًا ثانيًا. كانت كل الأسباب تدعو للاقتناع أن روسيا ستقبل تلك

الصفقة، وأن ألمانيا ستسلم بها، وأن الصين ستمتنع عن التصويت. وأثناء الاجتماع لم يشعر الأميركيون لوفيت بأي تشجيع للتفكير بسقوط القرار الثاني.

لم يكن خاف أن على مجلس الأمن أن يمرر قرارًا آخر يرخِّص للحرب بصفة علنية حتى تكون تلك الحرب قانونية. أسرّ بلير لجورج بوش في اجتماع في 31 كانون الثاني/ يناير 2003م أن قرارًا ثانيًا من مجلس الأمن سيوفِّر «اتفاقية تأمين»[1].

لماذا أراد بلير «اتفاقية التأمين» تلك؟ أولًا لأنه كان يعرف أنه لم يكن نزيهًا مع الرأي العام البريطاني فيما يتعلق بتغيير النظام، وأنه كان يبالغ في التأكيد على موضوع أسلحة الدمار الشامل لتجاوز المعارضة الشديدة داخل حزب العمال، حول مدى قانونية الإقدام الفردي على الحرب على أساس القرار (1441). من الطبيعي أن أي رئيس وزراء كان سيسعى لكسب دعم حزبه للحرب، أما على الصعيد السياسي، فقد كان بلير يرغب في تحقيق موافقة البرلمان بأصوات حزب العمال فقط. ولكن الفوز بدعم أحد نواب حزبك ليس ضروريًا للحصول على ترخيص البرلمان. ففي سنة 2003م كان حزب المحافظين المعارض يساند غزو العراق بكل حماس، لذلك لم يكن دعم البرلمان بمجمله محل شك، كما أن دعمه لتحرك عسكري على أساس القرار (1441) كان دائمًا ممكن الحصول عليه إذا طلب.

لكن بلير أثناء محاولته الأولية للحصول على أصوات المزيد من العماليين، كان يدفع بنفسه ضد تحديات، ويخاطر بهزيمة محققه في استصدار قرار ثان من مجلس الأمن. بالإضافة إلى ذلك وبسعيه المحموم هذا، فهو يخاطر بالتقليل من مصداقية القرارات الموجودة كمبرر قانوني للحرب. وإن كان الأمر كذلك فسيقول منتقدوه: لماذا بذل كل ذلك الجهد للحصول على قرار ثان؟.

بعد لقائه ببلير، أبدى بوش دعمًا فاترًا لاستصدار قرار ثان، وذلك أثناء مؤتمر صحفي جمعهما في واشنطن في 31 كانون الثاني/ يناير[2]. بدا السبب واضحًا الآن. فالبرغم من أن بلير كان يؤكِّد علنًا على أهمية قرار ثان، كان يُسرُّ أن ذلك ليس بالأمر الضروري. تتضح في المذكرة المسربة لمستشار بلير، ديفيد مانينغ، مسجلًا فيه اللقاء مع بوش قبيل المؤتمر

(1) Sands, **Lawless World**, p. 273.

(2) «Blair's Mission Impossible: the doomed effort to win a second UN Resolution», **Financial Times**, 29 May 2003.

الصحفي، السخرية التي كانت تطغى على النقاش حول القرار الثاني، كان بوش مصممًا على غزو العراق، وقال إن: «التحرك العسكري آت على أي حال» حتى دون القرار الثاني، وحتى إن فشل المفتشون الدوليون في إيجاد أسلحة دمار شامل. فأجاب بلير بأنه: «يقف بقوة مع الرئيس، وإنه جاهز لفعل أي شيء لنزع أسلحة صدام».

إذن، لم يكن القرار الثاني، الذي سعى إليه بلير، يعني له أي شيء على الإطلاق. إذا كان عدم الاحترام يكمن في الغطرسة، من الصعب تخيل أمر أكثر غطرسة من هذا. ورغم ذلك عرض بوش أثناء اللقاء إمكانية الجمع بين القرار (1441) وتغير النظام. قال بوش: «في وقت ما، عندما نمرر القرار الثاني، علينا أن نحذر صدام من أن لديه أسبوعًا ليغادر. علينا أن نعلم وسائل الإعلام أيضًا، وليكن لدينا رؤية واضحة إذا رفض صدام الرحيل»[1]. ولسبب ما، لم يُسلَّط الضوء على هذا الأمر. كان ذلك سيكون طريقة درامية في تغيير النظام، وبالتأكيد في الربط بين أسلحة الدمار الشامل وتغيير النظام قبل الشروع في الغزو. أثناء الاجتماع قال بوش متنبئًا: «من غير المتوقع أن تقع حرب داخلية بين المجموعات الدينية والعرقية المختلفة» وافقه بلير على هذا التقييم.

في واشنطن، كما أورد بوب وود ورد، لم يكن بعضهم ميَّالًا إلى قبول أي عرض فرنسي للتوافق، حيث اعتقدوا أن الصدام مع فرنسا «لحظة تحرّر للولايات المتحدة وحتى بالنسبة إلى توني بلير... كل العملية كانت يائسة داخل الأمم المتحدة. لقد حالت فرنسا بين بلير وبوش وبين الأمم المتحدة»[2]. ولكن ثبت أن ذلك لم يكن تحررًا لبلير بل إهانة. فبإلحاح بلير على أنه بإمكانه تأمين الأصوات الضرورية لقرار أممي ثان، وعدم التوقف على الموافقة الفرنسية، أظهر بلير درجة عالية من الغطرسة. فلم تتوفر الأصوات في الأمم المتحدة لقرار ثان، وأُخبر بلير بذلك، ولكنه تجاهل النصيحة. من الواضح أنه لم يثق في الرئيس شيراك الذي حذَّره في تشرين الأول/ أكتوبر قائلًا: «إذا كان باستطاعتنا تنحية صدام فإن النتائج ستكون كارثة»[3]. كما ناقش بلير المسألة العراقية مع شيراك لفترة طويلة، ورأى أن شيراك

(1) Van Natta, **Bush was set on path to war**.

(2) Bob Woodward, **Plan of Attack** (New York: **Simon & Schuster, 2004)**, p. 285.

(3) Ned Temko, «Blair ignored Chirac on Iraq», **Observer**, 25 February 2007, reporting on Sir Stephen Wall's interview in a BBC2 three-part documentary on Tony Blair by Michael Cockerel.

يحاول حماية روابط فرنسا الاقتصادية مع ذلك البلد. يبدو أن تعنُّت فرنسا في مجلس الأمن أمر لم تتح مناقشته من طرف الحكومة البريطانية، أو حتى من طرف فريق صغير من الوزراء، رغم أننا انتظرنا أن تنشر الأوراق للعموم أو حتى تُسرَّب قبل أن نتأكد. على الأقل كان على بلير استعمال القنوات الديبلوماسية البريطانية، وخاصة آلية الرباعية العريقة في محاولة لإعادة فرنسا وألمانيا إلى أرضية تعايش مع الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة وحتى يدعم مجلس الأمن الغزو. إنه وقت الاتفاق بين وزراء الخارجية ضمن الرباعية[1]. إن اتفاقًا شبيهًا بما اقترحته فرنسا من الاحتفاظ بالقرار (1441) كان سيظهر أن مجلس الأمن هو ملتقى سياسي وليس محكمة قانونية.

كانت مشكلة بلير من تلك الدبلوماسية أنها ستعني اقتحام الآخرين، وخاصة وزير خارجيته، وأن تلك العملية سترخي قبضته على المسألة، لقد فضَّل متابعة سياسة ليِّ الذراع مع الفرنسيين ومع باقي أعضاء مجلس الأمن. لذلك ضغط باتجاه الحصول على قرار ثان، متجاهلًا وبكل بساطة تحذير الفرنسيين من أنهم قد ضمنوا أغلبية الأعضاء التسعة اللازمة ضد المملكة المتحدة والولايات المتحدة في مجلس الأمن.

ولسوء الحظ، ركَّز بلير اهتمامه على الحاجة إلى ضمان قرار ثان من مجلس الأمن يرخص صراحة اللجوء إلى الحرب. قاده اعتقاده، بإمكانيته للحصول على مثل ذلك القرار، إلى عمى حقيقي وازدراء لمن حذَّروه من إمكانية فشله. بدا كما لو أنه خدع نفسه بشأن قدرته على الإقناع. كما أن سعيه للحصول على قرار ثان أظهر تجاهلًا محيرًا للضرر الذي يمكن أن يسببه للإجماع المصنوع بعناية، والذي حصل عليه من خلال تمرير القرار (1441) بالإجماع، وبالإضافة إلى ذلك، فقد رفض بلير عروضًا للتعاون قدمت أثناء العملية. باختصار، أظهر تسييره لوهم استصدار قرار ثان انعدام كفاءة ناجم عن الغطرسة.

لقد حاول الأميركيون كسب تأييد الأعضاء المترددين من مجلس الأمن. لكن دومينيك دي فيلبان ذهب بعيدًا في تجاوز حدود الصداقة مع زميليه البريطاني والفرنسي وتجولوا

---

(1) لاتحاد الدول الرباعية تاريخ طويل في حل الأزمات الصعبة، وتحديدًا أزمة برلين. ولا تقتصر على ذلك، بل تسهم أيضًا في حل الاضطرابات السياسية الأمنية والخارجية. إلا أن الدول الرباعية فقدت تأثيرها تدريجيًا، ويُرجع البعض تاريخ بدء تراجعها إلى مفاوضات برلين عام 1996م، وذلك عندما شعر الأميركيون بأن الدول الأوروبية الثلاث (بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا) تآمرت ضدهم حول موضوع وصول الاتحاد الأوروبي إلى أصول حلف شمال الأطلسي. وبشكل تدريجي عُقدت اتفاقية برلين عام 2002م، إلا أن الدول الرباعية كانت هي الأفضل في مسألة حل خلافات وانقسامات العراق، ويجب إعادة إحيائها.

بإفريقيا، متملِّقا لأعضاء مجلس الأمن للتصويت ضد قرار ثان. وبينما كان بلير، في داونينغ ستريت، مأخوذًا بحماس اللحظة، فشل في إدراك إخفاق المبادرة البريطانية في نيويورك. ولم يحدث منذ أنطوني إيدن وأزمة السويس أن أخفق رئيس حكومة في فهم مزاج مجلس الأمن كما فعل بلير. ففي الثامن من آذار/ مارس بدا واضحًا أن الفرنسيين أحصوا أصواتهم بدقة أكثر، وأن دول الستة المترددة (أنغولا، الكاميرون، تشيلي، غينيا، المكسيك وباكستان) لن تدعم القرار الثاني. وبذلك الدعم الضعيف كان القرار ساقطًا لا محالة.

استرجع السيد سيفن وول (الديبلوماسي والمكلف بعلاقات بلير مع الاتحاد الأوروبي) تلك اللحظة عندما شقَّ بلير مع سكرتير الإعلام صفوف الاتحاد الأوروبي قائلًا: «صادف أن كنت في رواق المقر الحكومي، حيث كان بلير وأليستير كامبل يتمشيان هناك، وقد قررا بفعالية لعب الورقة المضادة لفرنسا»[1]. لقد تجاهلا أن تهديد شيراك باستعمال الفيتو كان مقررًا فقط لذلك المساء. ولعبا على مشاعر البريطانيين المعادية لفرنسا. كانت سياسة مفضوحة ولكنها ساعدت في كسب دعم البرلمان في ذلك اليوم.

ومن جهة أخرى لم يكن الموقف الفرنسي من منطلق المبدأ. كان الاستنتاج المنطقي أن «الحكومة الفرنسية لم تكن تكافح من أجل الإنسانية كما يبدو لأول وهلة»[2].

لقد تبين أن فشل بلير بشأن القرار الثاني الذي حاول عبثًا الحصول عليه، كان أمرًا مكلفًا للغاية. فهو لم يقلل من مصداقية الاعتماد على القرار الثاني لتبرير الغزو قانونيًّا فحسب، بل وهدم الإجماع القائم حول القرار (1441)، وزاد من حدة الانقسامات ضمن المجتمع الدولي. كما عمَّق الفجوة بين بلدان الاتحاد الأوروبي حول مجلس الأمن. مع قيادة فرنسا نصف المعارضة للقرار في مقابل إسبانيا وبريطانيا اللتين بدتا ضعيفتين. كما أضرَّ ذلك بخطاب بلير المؤيد للاتحاد الأوروبي.

إن الفشل في السعي لاستصدار قرار ثان هو خطأ بلير. لقد كان واهمًا حول قدرته على النجاح، متذمرًا من نصائح الآخرين وتحذيراتهم، رافضًا لأي حل وسطي هام ودقيق حينما يعرض عليه. ولقد أصر على المكابرة بالرغم من أن الواقع كان يعارضه. لقد كان مغامرًا بشأن المخاطر التي يركبها، ولا يقدِّر حجم تكلفة الفشل المحتمل.

---

(1) المصدر السابق.

(2) John Vicour, «A very different take on France›s role in Iraq», **International Herald Tribune,** 20 March 2007.

بلير يتلاعب بالقانون الدولي والاستخبارات

أرسل النائب العام والمستشار القانوني دستوريًّا للحكومة، اللورد غولد سميث، مذكرة إلى توني بلير في 7 آذار/ مـارس 2003م تحت عنوان: «مشورة بشأن مشروعية العمل العسكري ضد العراق دون قرار إضافي من مجلس الأمن»[1]. كان حكمًا طويلاً ومتوازنًا ولكن كان يحفه لُبس واضح في عدة مواضع. يقول التقرير، إنه يمكن إجراء: «قضية معقولة» لأن القرار (1441) ومن حيث المبدأ يمكن أن يُحيي التفويض بضرب العراق، ولكنه اعترف بأن مثل هذه الحالة ستكون قابلة للطعن في المحكمة.

وفي 17 آذار/ مارس قدَّم غولد سميث بيانًا أكثر اقتضابًا وجلاء قائلًا إن: «خرقًا ماديًّا للقرار (687) أحيا سلطة استخدام القوة تحت طائلة القرار (678)». قُدم هذا البيان شفويًا أمام مجلس الوزراء، وكُرِّر نفس الشيء أمام البرلمان. فصرَّح بلير بأن البيان الثاني كان مجرد نسخة مختصرة من البيان الأول، وقاوم كل المحاولات لنشر النسخة الأولى. وفي 9 آذار/ مارس 2005م وقبيل الانتخابات العامة قال بلير ردًّا على الجدل المستمر: «إنه يقال أن الرأي القانوني للنائب العام كان مختلفًا عن ذاك البيان الذي قدَّمه أمام مجلس النواب، وهو ما يعد محض عبث» قدم مفوض المعلومات ريتشارد توماس إشعار تنفيذ سنة 2006م ضد النائب العام، طالبًا بيان إفصاح لأن مشورة غولد سميث في 7 آذار/ مارس 2003م كان «يعتريها لبسًا معنويًا كبيرًا»، أكثر من ذلك الذي قدمَّه في 17 آذار/ مارس. نُشر بيان الإفصاح في 26 أيار/ مايو 2006م، كان الرأي القانوني الرسمي الأول للنائب العام بالنسبة لأي شخص غير متحيِّز طويلًا، ملتبسًا في مواطن عدة، ولكنه متَّزن، أمّا الرأي الثاني فقد كان قصيرًا، وغير ملتبس في حكمه. كان مجلس النواب ومما لا شك فيه واعيًا بمخاطر أي تحدٍّ قانوني في المستقبل. وفي الواقع فقد تلاعب بلير بمجلس الوزراء والدولة فيما يتعلق بهذا الموضوع منذ سنة (2003 ولغاية 2006م). كان مثل هذا السلوك غير مقبول كليًّا، لأنه كان مبنيًا على قرار وصفه مفوض المعلومات بمسألة: «على درجة من الخطورة والأهمية كقرار دفع البلاد لعمل عسكري».

سرى اعتقاد على نطاق واسع مفاده أن بلير استند على أحد معاونيه، وهو النائب العام، ليغير إفادته رغم نفي غولد سميث لذلك لاحقًا، مما حدا بأحد كبار محامي وزارة الخارجية إلى الاستقالة إثر بداية الحرب. وسواء أثَّر بليرعلى مدَّعيه العام من عدمه، فإن هذا الأخير

(1) Sands, **Lawless World**, Appendix X, pp. 328 - 342.

وبدون شكٍّ قد انتهك قانون قواعد السلوك الوزاري من خلال حرمانه مجلس الوزراء من حرية الوصول إلى المشورة كاملة، وفي صيغتها المدوَّنة كما ينص على ذلك القانون. غير أن تضليل بلير لمجلس الوزراء ليس بالأمر الجديد، بل إنه ظل يقوم بذلك ولمدة تزيد عن عشر سنوات فيما يتعلق بالمسائل الداخلية، والمسائل الخارجية وبنفس القدر.

فما بدا أشدَّ غطرسة هي طريقة بلير وبوش قبل الحرب، حيث كانا مستعدين للتلاعب بمعلومات الاستخبارات على النحو الذي يتناسب مع أهدافهما. ففيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل أقر كلا القائدين بأن المسألة قد حسمت، في حين أنها كانت ما تزال ضبابية ولم يُحسم فيها نهائيًّا. كما أن بلير ارتكب وبصفة شخصية أخطاء هامة عندما شدَّد على خبر تلقَّاه من المخابرات الإيطالية، ومفاده أن العراق كان على استعداد لشحن أكسيد اليورانيوم أو «الكعكة الصفراء» من النيجر، في حين أن وكالة الاستخبارات المركزية لم تكن متأكدة من ذلك. كما أن بلير أخطأ حين سمح بانتشار تحذير مدته خمسة وأربعون دقيقة، ويتناول إطلاق العراق لصاروخ قادر على إصابة أهداف عسكرية بريطانية، بينما كان الجميع يعلم أن الصواريخ العراقية كانت قصيرة المدى، وغير قادرة على إصابة أهداف من هذا القبيل. ولكن مهما يكن من أمر فإن داونينغ ستريت أطلع صحف الإثارة على ذلك، وهو ما جعلها تتناول الخبر على نطاق واسع، وعلى أساس أن ذلك يعني افتراضيًّا عدم وجود تحذيرات من هجمات ضد القوات البريطانية في قبرص والشرق الأوسط. وكان بلير وعند تقديمه التقارير إلى البرلمان أو توضيح المسائل لزملائه بصفة سرية، يعمد إلى تجريد عدد كبير جدًّا من التحذيرات الداخلية التي كان جهاز الاستخبارات البريطاني يضيفها في كلِ مرّة. وكشف التقرير المدافع عن بلير والذي أعدَّه اللورد هوتون أن المخابرات لم تلفِّق أية معلومة، وعلى النقيض من ذلك فمن المهم الإشارة إلى أن الكثير من الناس الذين درسوا وقائع تحقيق هوتون توصلوا إلى نتيجة مختلفة رغم قراءتهم للأدلة نفسها.

كان الساسة وعلى مرِّ العصور يقدِّمون آراءهم على أفضل وجه ممكن، مركِّزين على ما هو إيجابي، ومتجاهلين ما بدا منها سلبيًّا. كما أن التلفيق السياسي ـ كما يسمّى ـ لم يبدأ مع بوش وبلير، إلا أن ما هو جديد لديهما استعدادهما لتلفيق مسائل استخباراتية. لم يكن «أساتذة التلفيق» أمثال كارل روف وأليستير كامبل أكثر نفوذًا من تلك الشخصيات المماثلة لهم في الزمن الماضي فحسب، بل كانوا منفردين في ضلوعهم وعلى نحو كبير في النقاش الداخلي حول العراق، كما أنهم أصدروا تعليمات بصفة شخصية في مسائل مخابراتية.

وفيما يتعلق بموضوع بلير فإن كامبل كان ضالعًا في نشر ملفَّين تمّ فيهما وعلى نحو مزعوم تحديد مدى الخطر الذي يشكِّله صدام. فرفض وزير الخارجية ـ جاك سترو ـ أحد الملفين، والذي أصبح يعرف باسم: «ملف المراوغة» واصفًا إياه بـ: «هورليكس» ثم سُحب من طرف الحكومة نفسها، فيما ساد اعتقاد كبير أن الملف الثاني اعتمد على تقديرات استخباراتية مؤقتة من أجل خلق دعاية مقنعة لمسألة تأييد الحرب. تساءل أحد أعضاء مجلس الوزراء، وهو وزير الخارجية السابق روبن كوك، عن شرعية التأويلات التي قُدِّمت عن المعلومات الاستخباراتية، والتي طُلبت وحُصل عليها بكل حكمة وبشكل شخصي وعلى نحو مقتضب من جهاز الاستخبارات البريطاني؟. ليستقيل فيما بعد مصوتًا ضد قرار غزو العراق، قائلًا أمام مجلس العموم: إنه لا يصدق التبريرات التي قدمتها الاستخبارات. كما أن تشارلز كينيدي، زعيم الحزب الديمقراطي الليبرالي، اتخذ فيما بعد موقفًا مضادًا من المشروع برمته. كما دعمت عملية تصويت أعضاء الحكومة ونواب حزب العمال في البرلمان لصالح قرار موقف بلير، وهو ما سنح له بالحصول على أغلبية، لكن كان ذلك بعد جهد مرير.

كان بلير وإلى حدِّ اللحظة قد حصل على الثقة من كل ألوان الطيف السياسي في البرلمان، غير أن تلاعبه بتلك الوقائع في ذلك اليوم ألحق في وقت لاحق ضررًا بليغًا بتلك الثقة التي منحه إياها. وقد يكون ألحق ضررًا أزليًا بمفهوم التعاون الحزبي الثنائي في بعدها المطلق فيما يتعلق بالسياسة الأمنية والخارجية، فكلما أضحت الوقائع جلية للعامة أصبح اسم بلير مرادفًا لكلمة: «بلير الكذّاب» الذي لم يعد باستطاعته التعويل على الدعم التلقائي الذي يتلقاه عادة رئيس الوزراء من البرلمان البريطاني والشعب في زمن الحرب. وقد دفع ذلك بصحفي، وهو معلِّق سياسي متبصِّر في صحيفة: «التايمز»، إلى التعليق عن حالة توني بلير العقلية ليصفه في 29 آذار/ مارس2003م[1] وفي وقت مبكِّر بـ: «المعتوه» مستخدمًا تلك الكلمة في معناها المجرَّد. ومضى في ذلك ليستشهد بتلك الكلمات الطائشة التي ألقاها بلير في البرلمان، والتي أشار فيها إلى أنه سوف يتجاهل قرارات النقض في مجلس الأمن، واصفًا إياها بـ«النَزْوّية» و«غير العقلانية».

بوش وغطرسة ما بعد عملية الغزو

أزيح الستار عن كتاب أميركي تناول حرب العراق وحمل ببساطة عنوان: «غطرسة»[2].

Matthew Parris, «Are we witnessing the madness of Tony Blair?», **Times**, 29 March 2003. (1)

Isikoff and Corn, **Hubris**. (2)

في الأول من أيار/ مايو 2003م أطلّ جورج بوش مرتديًا ملابس طيران كنجم من نجوم هوليوود على ظهر حاملة الطائرات إبراهام لينكولن قبالة ساحل ولاية كاليفورنيا، وقف على مقصورة القيادة للاحتفال بالنصر في العراق، كان برج التحكم في السفينة مزدانًا بشعار: «المهمة أنجزت». لقد كان ذلك عملًا متغطرسًا ومن طراز عال جدًّا، كما كان ذلك أيضًا إهانة حقيرة ـ وإن لم تكن عن قصد ـ للقوات في المعركة، والذين يعلمون جميعهم وعلى نحو جيد عبثية الشعار. كان لدى دونالد رامسفيلد رغبة في ثني بوش فعلًا عن استخدام تلك العبارة في خطابه، ولكن رغم ذلك فإن بوش عمد إلى ذلك قائلًا: «انتصرت الولايات المتحدة وحلفاؤنا في معركة العراق». لم يذهب توني بلير في خطاباته إلى هذا الحد، ولكنها كانت في وقت مبكّر مؤججة بالابتهاج بالنصر.

كان رامسفيلد، بغض النظر عن كل أخطائه، تهكُّميًا جدًا ليعاني من متلازمة الغطرسة. ففي رد فعله على الانهيار السريع للقانون والنظام في بغداد، وانتشار النهب، والذي كان نتيجة لقبول بوش بنصيحته، التي مفادها عدم الحاجة إلى إرسال مزيد من أعداد القوات إلى المعركة للسيطرة على عملية الاحتلال، ردَّ وزير الدفاع عن ذلك وبكل بساطة قائلًا: «الهراء يحدث» وقد دفع ذلك الكاتب المسرحي ديفيد هير لتناول المعنى العميق لهذه الملاحظة في عمل مسرحي[1].

سيكون حجم عدم الكفاءة شيئًا منتهيًا بعد غزو العراق، لكن ذلك سيظل يحيِّر المؤرخين لفترة طويلة. كيف أمكن لواشنطن، أو بالأحرى البنتاغون، أن يكون غير كفؤ جدًّا من الناحية التنظيميّة على الصعيدين السياسي والعسكري؟ الجواب الوحيد عن ذلك يكمن في الانطواء واللامبالاة ـ واللتين تعدّان من علامات الغطرسة ـ التي يستند عليهما العديد من شاهدي العيان في وصف سلوك بوش. كما قدَّم وزير الخزانة الأسبق، بول أونيل، الذي شغل هذا المنصب منذ سنة (2000 وإلى غاية 2002م) تقييمًا صريحًا لمدى حضور هذه الميزات في سلوك بوش أثناء توليه الرئاسة. فعلّق على ذلك قائلًا: إن بوش ومنذ البداية كان: «قد تعاقد وبكل وضوح مع المواقف الأديولوجية القوية التي لم يتم التفكير بشكل كامل من خلالها، ولكن بطبيعة الحال تلك هي طبيعة الأديولوجيا. كان التفكير من هذا المنطلق آخر شيء يمكن أن يرغب في اعتماده المُنظِّر». ويمضي أونيل في ذلك ليصف أحد الاجتماعات:

(1) David Hare, **Stuff Happens** (London: Faber & Faber, 2004).

«كان مثل الكثير من الاجتماعات التي كنت أحضرها منذ مدة تزيد عن عامين، فالطريقة الوحيدة التي يمكنني من خلالها وصف ذلك، هي أن الرئيس كان مثل رجل أعمى في غرفة تغصُّ بأناس صمٍّ، فلا توجد صلة واضحة بينهم»[1].

أحد الأمثلة الأخرى المتورطة هو ديفيد كاي، مفتش الأسلحة السابق للأمم المتحدة والذي كُلِّف منذ الخامس من حزيران/ يونيو 2003م بالبحث عن أسلحة الدمار الشامل وحضر الإيجاز الصحفي الصباحي لبوش يوم 29 تموز/ يوليو بعد أن كان قد قدم من العراق في اليوم السابق، فأخبر الرئيس قائلًا: «أكبر خطأ ارتكبناه هو السماح باندلاع حالة النهب وانعدام القانون»، ومضى في حديثه يحذِّر بأنه لم يعثر على أسلحة الدمار الشامل ومن المحتمل ألا يُعثر على أي منها. قام اللصوص في ذلك الحين بالاستيلاء على طنين من اليورانيوم غير المعالج أو «الكعكة الصفراء»، و(194) طنًّا من المتفجرات ذات درجة انفجار عالية و(411) طنًّا من المتفجرات السريعة الانفجار[2]. غادر كاي الاجتماع وهو يكاد أن يكون مصدومًا من غياب تحقيق من طرف بوش في موضوع أسلحة الدمار الشامل، خاصة إذا ما قورن ذلك بتحقيق ديك تشيني المفصَّل.

ناقش بوش وحكومته الحربية في العاشر من آذار/ مارس وقبل الغزو «اجتثاث البعث» ولكن بينما كانت الاستنتاجات تفتقر إلى التحديد، قال شخص كان حاضرًا أثناء الاجتماع إن: «التهجم كان واضحًا، تعامل مع هؤلاء الناس بطريقة ليِّنة وحاول العمل معهم»[3]. لكن يقال إن الوثيقة النهائية المسرَّعة لاجتثاث البعث التي أصدرها بول بريمر، لم يطَّلع عليها لا كوندليزا رايس ولا كولن باول. فكولن باول كان يعتقد أن السياسة التي صاغها مكتب دوغلاس فيث لم تمثِّل الحل الوسط الذي كان قد وافق عليه مجلس إدارة الحرب. لقد كان ذلك خطأ مميتًا ارتكبته رايس التي أصبحت فيما بعد مستشارة للأمن القومي، وذلك من خلال سماحها بخروج وثيقة من هذا النوع من البنتاغون مباشرة ودون أن يراجعها مكتبها. كما أكَّد وزير الدولة البريطاني لشؤون الدفاع جيف هون في أيار/ مايو2007م إن اجتثاث البعث كان خطأ وأضاف: «أعتقد أننا شعرنا أن الكثير من الناس البعثيين كانوا أولًا وقبل كل

(1) Ron Suskind, **The Price of Loyalty: George W. Bush, The White House, and the Education of Paul O'Neill, pb ed.** (New York: Simon & Schuster, 2004), pp. 127, 149.

(2) Peter W. Galbraith, **The End of Iraq: How American Incompetence Created a War without End** (New York: Simon & Schuster, 2006), p. 102.

(3) Chandrasekaran, Imperial Life in the Emerald City, p. 77.

شيء أناسًا من الحكومة المحلية، وأولًا وقبل كل شيء موظفي الخدمة المدنية ولم يكونوا مؤيِّدين متعصبين لصدام»[1].

مثال آخر لأسلوب بريمر الاستعماري الفرعوني، كان الأمر الثاني المتعلق بسلطة الائتلاف المؤقتة، والذي أصدره بعد أحد عشر يومًا من وصوله إلى العراق، والقاضي بحلّ الجيش العراقي، والقوات الجوية والبحرية، ووزارة الدفاع وأجهزة الاستخبارات. وفي 12 آذار/ مارس وافق بوش والمجلس الاستشاري للحرب على اجتثاث الحرس الجمهوري ولكن مع الإبقاء على الجيش النظامي، ويبدو أنّ بريمر لم يستشر وزارة الخارجية، ووكالة الاستخبارات المركزية أو رايس على بنود النظام، كما أنه لم يذكر ذلك للساسة العراقيين فما بالك بالتشاور معهم. كان ذلك ربما الخطأ المميت[2] وهو الشيء الذي رفض أن يغيره.

كما حذّر مدير مركز وكالة الاستخبارات المركزية في بغداد بريمر الذي لم يستشر الخبراء الأميركيين في بغداد قائلًا: «بين عشية وضحاها سوف تكون قد دفعت بما بين (30000) إلى (50000) بعثي تحت الأرض»[3]، وعلى حدِّ تعبير جندي عراقي مُسنّ: «كلّهم متمردون الآن، لقد أضاع بريمر فرصته»، وفي المقابلة المذكورة سابقًا، قال هون وبكلّ سرور: إنه تجادل مع رامسفيلد حول ملخص فصل ما قوامه (350000) عراقي من الجيش وقوات الشرطة «لكن أدركت بأنّ ذلك كان واحدًا من تلك النداءات المصدرة للأحكام. لقد كان بودِّي طلب ذلك بطريقة أخرى». كان بلير قد قال شيئًا بطريقة غريبة في حوار سبق مقابلة هون بوقتٍ قليل، بأنّه تمّ دائمًا تصور أن الجيش العراقي سوف يُبنى من «خربشة»[4]. فحسب أنتوني سيلدون:

> **لم يكن لبلير أيّ تدخل مباشر في عملية اجتثاث البعث أو حلِّ الجيش. لقد كان سعيدًا بتمثيل مانيغ سيورز له. قال أحد المسؤولين: «كان عقله في مكان آخر، فلم يكن مطّلعًا على ما كان يحدث في هذه المرحلة» في حين أشار آخر قائلًا: «لا أظنّ أن رئيس الوزراء شعر بأنّه كان عليه اتخاذ أي مزيد من الاهتمام الشخصي لتحقيق الاستقرار في العراق، لقد كان بصدد ترك كلّ ذلك للأميركيين»[5].**

(1) **Guardian**, 2 May 2007.

(2) Chandrasekaran, **Imperial Life in the Emerald City**, p. 84.

(3) Ricks, **Fiasco**, p. 158.

(4) Tony Blair, **Today, BBC Radio** 4, 22 February 2007.

(5) Seldon, **Blair Unbound**, p. 191.



صورة رقم 19
جون كينيدي بطل الحرب بعد أن خدم في جنوب المحيط الهادئ،
كان في حالة صحية سيئة ويعاني بالفعل من مرض أديسون



صورة رقم 20
الرئيس كينيدي على عكّازين، 16 حزيران/ يونيو،
بعد أن تفاقمت مشاكل ظهره خلال زيارة له إلى كندا
في الشهر السابق



صورة رقم 21
كينيدي ونيكيتا خروتشيف في فيينا/ حزيران يونيو 1961م



صورة رقم 22
هانس كراوس، طبيب كينيدي في البيت الأبيض، وماهر في تسلق الجبال



صورة رقم 23

يقدم كينيدي جائزة «تسلق 50 ميلًا» إلى رجل مجهول الهوية،
في فلوريدا 23 شباط فبراير 1963م. الأمير ستانيلاف رادزيفيل (إلى أقصى اليمين)،
كان قد نال جائزته، وآخرون في الصورة من بينهم الدكتور ماكس جاكوبسون (صاحب النظارات)،
لي رادزيفيل وتشارلز سبادلينغ (أقصى الشمال)



صورة رقم 24

كينيدي مع فيلي برانت، عمدة برلين الغربية (على يسار كينيدي)، والمستشار لألمانية الغربية كونراد أدنيارو، برلين، 26 حزيران/ يونيو، 1963م



صورة رقم 25
جزاليسيمو فرانسيسكو فرانكا ترحب بالشاه والملكة ثريا
في زيارة رسمية إلى مدريد عام 1957م



صورة رقم 26
جثة رئيس الوزراء الإيراني السابق أمير عباس هوفيدا، مقتول بطلق ناري في السجن



صورة رقم 27
الشاه مريض جدًا في بنما في المنفى
من كانون الأول/ ديسمبر حتى آذار/ مارس 1980



صورة رقم 28
الرئيس فرانسوا ميتران والمستشار هيلموت كول مشبكين أيديهم
في ذكر الحرب العالمية الأولى،



صورة رقم 29
توني بلير، يرافقه الجنرال السير مايك جاكسون (يمين)
وقـائـد قـوة حفظ السلام لكوسوفو المستقبلية، في زيارة لمقر قيادة الجيش
قرب سكوبي في جمهورية مقدونيا اليوغسلافية السابقة، في أيار/ مايو 1999م



صورة رقم 30
صدام حسين خلال تنفيذ الإعدام بحقه شنقًا في 30 كانون الأول/ ديسمبر بأمر من الحكومة العراقية،
هذه الصورة التقطت بطريقة غير مشروعة على الهاتف المحمول،
التي أطلق بعدها صيحات الانتصار



صورة رقم31

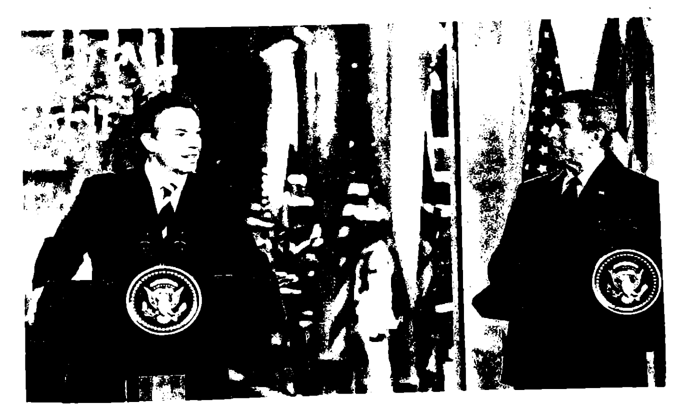
الرئيس جورج بوش الابن، يستعرض الدمار في موقع برجي مركز التجارة العالمي

مع مكبرات صوت،

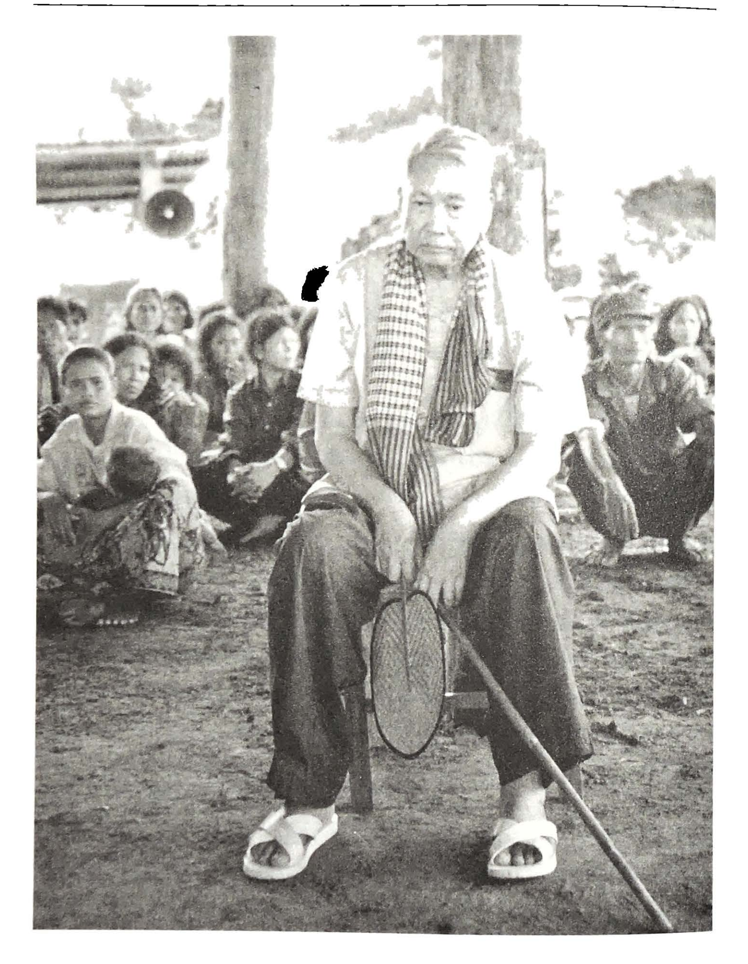
15 أيلول/ سبتمبر 2001م. قائلًا: «الناس الذين دمروا هذه المباني سيسمعون عنا قريبًا»



صورة رقم 32
بوش وخلفه العلامة «المهمة» أنجزت
معلنًا انتهاء العملية العسكرية الرئيسية في
العراق 1 أيار/ مايو



صورة رقم 33
بوش وبلير في مؤتمر صحفي مشترك في البيت الأبيض 28 تموز/ يوليو، 2006 م،
والوقوع في الخطأ ليس في العراق فقط، بل وفي لبنان أيضًا



صورة رقم 34
بول بوت في لقاء جماهيري بالقرب من ونغ فينغ في كمبوديا،
تموز/ يوليو1997، حيث حكم عليه بالسجن مدى الحياة، توفي عام 1998م.

هذه الاختلافات في الرأي داخل بريطانيا حول ما كان يزمع القيام به مع البعثيين والجيش العراقي، تتبلور في تعليق الولايات المتحدة الدال على الارتباك.

كان بوش وفي تعاطيه مع مسألة العراق وحسب الكولونيل لورنس ولكرسون، الرئيس السابق للموظفين في إدارة باول، «منعزلًا وبعيدًا جدًّا عن تفاصيل التخطيط لفترة ما بعد الحرب، لقد استغلّ الأتباع انعزال بوش»[1]، إلا أن بوش لم يكن أبدًا رهنًا، لقد قام بخطوات كبيرة، لكن أحيانًا دون معرفة جميع المواقف على رقعة الشطرنج. فلم يعمل إلا نادرًا بنصيحة باول كاملة، في حين أنه عمل في أغلب الأحيان بنصيحة رامسفيلد وتشيني برمتها، لكنه كان لا يزال يختار لنفسه. لقد كانت مشكلة بوش أنه قد خلق ما أسمته رايس في آب/ أغسطس 2003م: «الحكومة الأميركية المختلة وظيفيًّا»[2]، وكما خلص الصحفي بوب وودورد أن الجو العام حول بوش يشبه في كثير من الأحيان البلاط الملكي، مع وجود تشيني ورايس في الحضرة، وبعض الحكايات المتفائلة والأخبار السعيدة والمبالغ فيها، وتقضية وقت طيب للجميع[3]. فالحقيقة هي أنه لم تكن حكومة بوش فقط المختلة، بل إن بوش نفسه كقائد عام كان مختلًا.

واحدة من المفارقات لخلل إدارة بوش هي أن تركيبة لجنة مجلس الوزراء ما تزال تعمل، ولكن في بعض المجالات، وهي عادة تلك التي لم يتحمّل فيها رامسفيلد مسؤوليات إدارية. كان يمكن عادة أن يُكبح جماح رامسفيلد فقط من طرف مجلس الأمن القومي أو الاجتماعات المخصّصة لكبار المسؤولين، والتي دعت إليها رايس لحلِّ الخلافات. لقد كان التعاون المشترك بين الإدارات حول موضوع العراق واحدًا من المجالات التي نشطت بشكل جيّد فيما يتعلّق بالمال. فهنا لعبت وزارة الخزانة في البداية دورًا رئيسيًّا تحت إمرة أونيل الذي تقلّد هذا المنصب الوزاري، وأيضًا وكيله جون تيلور الذي بقي حتّى سنة 2005م. إذن لم يفشل كل شيء في العراق، فالتخطيط المسبق كان ذا جدوى في بعض المجالات، كما أن أعضاء مجلس الوزراء اشتغلوا مع بعضهم البعض. فلو كان بالإمكان فرض تلك العلاقات نفسها فقط بين البنتاغون ووزارة الخارجية من قبل بوش فيما يتعلق بالتخطيط الأمني للمرحلة التالية، لما فشلت حكومته المختلة وظيفيًّا في هذه القضية الجوهرية.

(1) Quoted in Joseph S. Nye Jr, «Transformational Leadership and US Broad Strategy», **Foreign Affairs**, July/August 2006, p. 148.

(2) Woodward, **State of Denial**, p. 241.

(3) المصدر نفسه، ص 226.

كان الجنرال تومي فرانكس، قائد المنطقة في أفغانستان والعراق، أكثر شخصية وثق وعمل معها بوش بصفة مباشرة. رجل ذو طبع حاد ومن سكان تكساس المزاجيين الذي قلَّل علنًا من هيئة الأركان المشتركة[1]. ففي كتابه: «فشل» وصف توماس فريكس، كبير مراسلي البنتاغون السابق لدى وول ستريت جورنال، والذي يقوم فرانكس بالمهمة نفسها الآن لدى صحيفة الواشنطن بأنه: «نتاج صناعة جيشه، وأن أخطاءه عكست أخطاء تلك المؤسسة. فالجيش ذهب إلى العراق، وهو محمَّل بقدر مهم من الغطرسة»[2].

تجرّع بوش تلك الغطرسة، فها هو يتحدث كعمدة مغرور في أحد أفلام رعاة البقر، ويعد الشعب الأميركي بعد انهيار نظام طالبان في أفغانستان، بأن أسامة بن لادن سيُلقى القبض عليه «حيًّا أو ميتًا». وقد كان ذلك أمرًا هزئت منه زوجته، وهو ما يعد علامة جيدة، إن لم يكن كل المقربين يشاطرونه في كل شيء كان يقوله.

بعد مرور أكثر من سبع سنوات كان زعيم تنظيم القاعدة لا يزال غير معتقل، كما أن عناصر طالبان أعادوا تنظيم صفوفهم للقتال مرّة أخرى. أمّا في العراق فقد أصبح واضحًا أن صدّام أعدَّ لمقاومة منظمة لعملية غزو ناجحة، كما أن المتمردين كانوا على وشك أن يتسببوا في مشاكل كبرى للقوات المحتلة. كان ردُّ بوش عند ذلك هو قوله: «أحضروهم». لقد أولى القليل من التفكير في الفقرة الأخيرة لمسألة كيفية كسب المزيد من الدعم من السُنّة المؤثرين، أو لكيفية التقرّب من إيران للتأثير على الأغلبية الشيعيّة، متجاهلًا أن الطريق الديبلوماسي تجاه إيران فيما يتعلّق بضمان النجاح في العراق، قد غُض الطرف عنه.

ففي أيار/ مايو 2003م أرسلت إيران مقترحًا سرِّيًا إلى وزارة الخارجية من أجل «صفقة كبرى» مع «الشفافية التامة» وكانت تهدف إلى طمأنة الولايات المتحدة أنّ إيران لن تطور أسلحة نووية، كما أن المقترح عرض إنهاء: «أي دعم مادي للجماعات الفلسطينية المعارضة» وتحويل حماس وحزب الله إلى «مجرّد منظمات سياسية». فهل أحبط بوش الاجتماع المزمع في جينيف دون معرفة مدى جدِّية سعي كبار مسؤولي حكومته وراء ذلك؟[3]. لقد كانت إيران في شهر أيار/ مايو في أضعف حالاتها؛ فوكالة الاستخبارات

(1) المصدر السابق، ص 82.

(2) Ricks, Fiasco, p. 129.

(3) On the Ground. Nicholas D. Kristof's New York Times blog.

المركزية اعترفت بأنّ الايرانيين تخلّوا عن برنامجهم للأسلحة النووية. وعلاوة على ذلك كان هناك ما يكفي من الإشارات عن نمو تمرد عراقي، وهو ما جعل من ذلك أفضل وقت بالنسبة للولايات المتحدة لعقد صفقة مع الإيرانيين، مع التأكد من معرفة أنه عندما يكون العراق دولة ديمقراطية مستقرة، سيكون من السهل ضمان أن إيران تخلّت عن الأسلحة النووية، وسلكت طريق الديمقراطية.

كان هذا هو المنطق المقنع للبدء في إقامة حوار مع إيران عام 2002م وقبيل غزو العراق. من السهل أن ننسى أن الإيرانيين كانوا مفيدين للولايات المتحدة أثناء غزو أفغانستان من خلال المساعدة في حشد حلف شمال الأطلسي، وأيضًا من خلال طرد عناصر القاعدة من مدينة مشهد المقدَّسة عندما عبروا الحدود إلى إيران في عام 2002م. وبالنظر إلى أن إسقاط صدام كان الهدف منه تحقيق وصول الأغلبية الشيعية إلى السلطة في العراق، فإن قدرة إيران على إلحاق الأذى كانت واضحة. كما أن بوش وبلير قرَّرا أنه بإمكانهما التعامل مع الشيعة في العراق، رافضين في الوقت نفسه حوارًا إيرانيًا موسَّعًا. إنه من الصعب التأكّد ممّا يكمُن وراء قرار بوش، لكن الثقة المفرطة كانت بالتأكيد عاملًا. كما أن رفضه لأي حوار مع سوريا كان مضرًّا للسوريين أيضًا، وهو ما كان يمكن أن يؤثّر على السنة في العراق. لقد كانت العلاقات السنية ـ الشيعية محفوفة، مع أقلية سنية في حاجة إلى التعود على كونها لم تعد القوة المهيمنة في أيّ نظام ديمقراطي ناشئ. فمن خلال ذهابها منفردة، كانت قوات التحالف مكشوفة للمتمردين الذين وقع دعمهم ومساندتهم عبر حدود العراق مع سوريا وإيران.

وبوش الذي بدأ باجتماعات مركَّزة وثقة في الجيش ووكالة الاستخبارات المركزية على نحو مكشوف، انقلب في وقت لاحق بإلقاء اللوم عليهم. حيث قال إن: « تومي فرانكس والجنرالات كانوا قد واجهوه بجرأة وطمأنوه بأنّ غزو العراق شُرع فيه بخطة مناسبة مع الأعداد المناسبة من القوات». ربما صدَّق فرانكس هذا عندما قال قبيل تقاعده ولكن حتى حين فعل كان الأمر محلَّ نزاع داخل البنتاغون بين كبار الشخصيات العسكرية. وبحلول صيف 2003م ومع تنامي التمرد، بدا جليًّا أن ذلك غير صحيح، فبوش أقرَّ أيضًا بأن رئيس وكالة الاستخبارات المركزية، جورج تينيت، كان متأملًا، مشيرًا في ذلك إلى تصريحه فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل في العراق قائلًا: «إنه هدف الفوز» «Slam dunk» وهو

مصطلح في كرة السلّة يعني تحقيق النجاح[1]. بينما صرَّح تينيت في روايته التي نشرت في عام 2007م أنه: أخبر الرئيس بأن تعزيز العرض العام كان: «الضربة القاضية» وهي العبارة التي أخرجت لاحقًا خارج السياق تمامًا، ولازمته منذ اللحظة التي ظهرت فيها في كتاب وودورد[2]. كانت «لعبة اللوم» قد أصبحت سمة من سمات الفشل في العراق بحلول عام 2007م. ففي مقابلة على إذاعة (بي. بي. سي) قال لورانس ولكرسون: إنه تمنّى لو أنه كان قد تقاعد في عام 2004م على خلفية موضوع غوانتانامو، وأن قراءة كتاب تينيت والاستماع لتينيت وهو يعقد لقاءات جعله يظن بأنّ بعض الأشخاص في وكالة الاستخبارات المركزية كانوا قد « كذبوا» على باول قبل اجتماعه في مجلس الأمن في شباط/ فبراير 2003م[3].

حضر بوش في 24 أيلول/ سبتمبر 2003م حفل عشاء خاص في واشنطن بصحبة بول بريمر وزوجاتهم، وحين رؤية رسم بياني عند بريمر، يظهر أسماء عشرين شخصًا ينقلون تقارير له، خاطبه بوش قائلًا: «انظر، أعلم أنّك درست بكليّة إدارة أعمال، ولكن أنا أيضًا درست بكلية إدارة الأعمال. لقد تحصّلت على عدد كبير جدًّا من التقارير المباشرة»[4]. وفي 27 تشرين أول/ أكتوبر وبينما كان بصدد اللعب في قاعة الألعاب الرياضية في البيت الأبيض بصحبة بريمر سأله بوش عن رامسفيلد قائلًا: «هل هو يقوم حقًّا بعملية إجهاض مخططات؟» وبدا متفاجئًا عندما أخبره بريمر بأنّه فعل. لقد كان من المؤكد إنه كان واحدًا من الأشخاص القلائل في واشنطن الذين لا يعلمون بصنيعة رامسفيلد المحدقة، وهي علامة أخرى على أن القائد العام لم يكن لديه إلمام حقيقي عن إدارته.

كان تاريخ 12 تشرين الثاني/ نوفمبر 2004م، الذي يأتي بعد عشرة أيّام من انتخابه من جديد كرئيس، وقتا سياسيًّا مناسبًا لبوش كي يعيد النظر في عدم قدرته على السيطرة على التمرُّد ومراجعة عبثية توقعاته المتفائلة. حيث كانت المحاولة الثانية للتعاطي مع موضوع الفلوجة لا تزال جارية عندما التقى باول كل من بوش وبلير في البيت الأبيض. فقال باول: «لا نملك العدد الكافي من القوات... نحن لا نسيطر على الساحة»[5]. لقد كان هذا أيضًا

(1) Woodward, **Plan of Attack**, p. 249.

(2) Tenet, **At the Center of the Storm**, p. 362.

(3) Lawrence Wilkerson, **PM, BBC Radio** 4, 11 May 2007.

(4) Woodward, **State of Denial**, p. 249.

(5) Ricks, Fiasco, p. 407.

رأي بريمر فيما بعد. وفي الشهر التالي تلقّى بوش برقية من مدير مركز وكالة الاستخبارات المركزية في بغداد جاء فيها: «إنّنا نواجه تمرُّدًا شرسًا وسيكون لدينا 2000 قتيل». وفي أيّام قلائل بعد ذلك وتحديدًا في 17 كانون الأول/ ديسمبر أخبر خبير الاستخبارات العسكرية الأميركية بوش قائلًا له عن جانب التمرّد: «إنه قوي ويتغذّى جيّدًا، إنه متنوع. لقد أصبح ذلك يهدِّد بحرب أهلية في غياب الانخراط في بعض أشكال المصالحة. فهم لديهم الوسائل لمحاربة هذا ولمدة طويلة»[1].

كان يجب على كلّ من بوش وبلير الاعتراف بأن عليهما تغيير المسار، ويقرّرا نشر المزيد من القوات. لقد كان ذلك سيقود إلى نتائج مدمرة بعمق، ولكن لم يكن لهم هذا الشعور في قرارة أنفسهم لمواجهة الحقيقة. فإحدى ميزات الزعماء المتغطرسين هي عدم تغييرهم لمواقفهم لأن ذلك يعني أنهم يعترفون بالخطأ. فبلير يمكنه أن يتباهى بأنّه لم يكن باستطاعته «العودة» إلى مؤتمر حزب العمّال، وهو تصريح عبثي بالكاد يمكن تخيّله. كما أن مارغريت تاتشر ادَّعت أيضًا الفضيلة في «السيدة ليست للتراجع». فالقادة الديمقراطيون الحكماء يتغيرون حسب الحقائق، أو يتغيرون إذا كانوا على خطأ. أمّا بوش وبسبب ذهنيته المتخشبة رفض نداءات من أجل تعزيزات لتجنُّب الانزلاق الجلي والآني للعراق في اتجاه الحرب الأهلية، وأصرَّ في خطابه المتغطرس على «الفوز»، ولم يتغير ذلك إلا بعد الهزيمة الانتخابية في الانتخابات الجزئية لسنة 2006م لمّا قرَّر إرسال «دفعة» من 21000 من الجنود الإضافيين إلى بغداد. وبحلول ذلك الوقت كان بلير يبتعد عن داونينغ ستريت، ولم يحاول أبدًا حتى زيادة عدد القوات البريطانية أو نشرها بعيدًا عن البصرة.

وفيما يتعلّق بالقانون، فإن نهج بوش بدا يعكس نهج مستشاره القانوني ألبرتو غونزاليس، الذي أصبح المدعي العام في مرحلة تالية، بأن خطر القاعدة جعل اتفاقية جنيف الصارمة للحدِّ من استجواب السجناء الأعداء مهملة[2]. لذلك سعى الى تجنب قيود القانون الدولي فيما يتعلّق بالاستجواب والاحتجاز بعد التدخل العسكري. لقد اعتقد بوش بأنّ «الحرب على الإرهاب بشّرت بنموذج جديد» وبأن اتفاقية جنيف لا تنطبق على القاعدة، وبأن سجناء

(1) المصدر السابق، ص 408.

(2) John Yoo, **War by Other Means: An Insider's Account of the War on Terror** (New York: Atlantic Monthly Press, 2006), p. 39.

طالبان كانوا «مقاتلين غير شرعيين» وبذا فقدوا صفتهم كمساجين حرب[1] لقد انتقدت هذه القرارات بشدّة[2]. بدا أن بوش يستسيغ نكهة التحرّك بطريقة أحادية مع مشاورات قليلة أو منعدمة مع الأصدقاء أو الحلفاء. لقد ضرب في الواقع باتفاقيات دولية مقررة منذ أمد عرض الحائط، معلنًا أنه بوسع أميركا أن تفعل ما تشاء. فالضرر الحاصل في بريطانيا جرَّاء مصداقية توني بلير ناهيك عن مصداقية أميركا في الخارج من الصعب المبالغة فيه. كما أن معاملة السجناء الذين أخذوا من أفغانستان، والذين احتجزوا في غوانتانامو وما حصل في سجن «أبو غريب» في العراق عندما أهان واستغلّ الجنود الأميركيون السجناء المسلمين، صدم من يحملون نوايا حسنة تجاه الولايات المتحدة. لقد كانت ضربة مزدوجة لبريطانيا عندما حدث شيئًا مماثلًا لذلك من قبل جنود بريطانيين. ولهذا فقد تعزَّزت انتقادات الدول حول السياسة السرية «للترحيل القسري» للمتهمين بالإرهاب إلى دول حيث أنظمتها كانت متسعة لاستخدام أساليب مفرطة وغير دقيقة في الاستجواب. كما أن تصريح بوش بأن أميركا أدانت كلّ التعذيب بدا للكثير نفيًا مزدريًا لحقائق واضحة. إلا أن بعد فترة ولحسن الحظّ بدأ النظام القضائي الأميركي، حين طولب بذلك رسميًا، إظهار استعداد لتحدِّي افتراض بوش لسلطة الرئيس في وقت الحرب فيما يتعلّق بقانون الكونغرس والدستور. حيث يجري نقاش هام الآن داخل الولايات المتحدة حول سلطات الرئيس في زمن الحرب.

غطرسة بلير بعد الغزو

لم تتضح حقيقة تبعات عملية الغزو وغياب تخطيط لفترة ما بعد الصراع، والذي كان قد أولاه بلير القليل جدًّا من الاهتمام الجاد من ذي قبل إلا في 3 أيار/ مايو 2003م، وتحديدًا بعد عشرة أيام فقط من عبارة جورج دابليو بوش الشهيرة: «المهمة أنجزت» والتي كانت اختبارًا للعلاقات العامة. وأيضًا عندما كتب جون سويرز، السفير البريطاني في مصر والذي كان قد عمل سابقًا في داونينغ ستريت وأُرسل كمبعوث خاص إلى العراق من ذي قبل، مذكرة تحت عنوان: «العراق: ما الخطأ؟»[3]. فكان ما لخَّصه عن فريق عمل التبعات الأميركي بقيادة الجنرال دجاي غارنر بأنه: «لا قيادة، لا استراتيجية، لا تنسيق ولا هيكلة وبعيدة عن متناول

(1) المصدر السابق، ص 41.

(2) Brian Urquhart, «The outlaw world», **New York Review of Books**, 11 May 2006.

(3) Gordon and Trainor, **Cobra II**, pp. 471-473.

العراقيين العاديين». كانت وجهة نظر سويرز بأن الحاجة إلى المزيد من القوات واضحة، واقتراحه بأن «وجود بريطاني فاعل في بغداد هو أمر جدير بالنظر رغم المشكل السياسي الواضح... فالتفويض بنشر كتيبة واحدة في الشوارع مازال يمكن أن يُحدث تأثيرًا». ووقع تأييد اللواء ألبرت وايتلي، أكبر ضابط بريطاني متواجد مع القوات البرية الأميركية ويعمل في المقر الأميركي العام للقائد ديفيد ماكيرنان، لوجهة نظر سويرز فيما يتعلق بالحاجة إلى المزيد من القوات. لقد كانت المسألة ما إذا كان يجب إحضار اللواء السادس عشر للقتال الجوي البريطاني إلى بغداد وهو متواجد في العراق، ومن المقرر أن يعود أدراجه إلى الوطن. لقد كانت مذكرة سويرز بالكاد تكون أكثر من رسالة جدِّية إلى رئيس الوزراء، في ظل وجود آلاف الجنود المتواجدين في البصرة، والذين هم في خطر لأن ما أصاب بغداد كان من المؤكد أنه سيصيب في القريب العاجل البصرة. لكن ما الذي حصل لمذكرة سويرز في داونينغ ستريت؟.

وفقًا لأنتوني سيلدون فإن: «بلير عندما سمع بالخطة أعطى دعمه الكامل، لكن شيئًا لم يحدث، وتجلى ذلك في المعارضة العنيفة من ووكر مايكل الذي كان قد خلف (الأدميرال السير مايكل) بيوس قائد أركان الدفاع»[1]. لقد كان بإمكان مجلس وزراء الحرب إعادة نشر هذه القوات، ولو أنهم فعلوا ذلك لكان من المستحيل على بوش أن يرفض القيام بذلك هو أيضًا. ولم يكن من المسموح لدونالد رامسفيلد إرسال 160,00 جندي من فرقة الفرسان الأولى في مثل هذه العملية الفرعية.

فهذا السؤال الحيوي برمته عن سبب تواجد هذا العدد الضئيل جدًّا من الجنود في العراق وأفغانستان بعد العملية، وهو ما يختلف عن عملية الغزو، لا يزال محاطًا بالسرية العسكرية والكثير من الإيجاز. فالمسألة مرتبطة كثيرًا بالنقاش المتعلق بعملية الموازنة ومستويات القوة في المستقبل في كلا الدولتين، أكثر مما هو متعلق بالرأي العسكري المهني لما كان مطلوبًا. فتعدد القوات الأميركية العاملة في العراق في كانون الأول/ ديسمبر 2006م كان يبلغ (141,000) مجتمعة مع حوالي (16,500) من القوات العسكرية من 27 دولة حليفة، حيث كان النصيب الأكبر للمملكة المتحدة بـ(7200). وبحلول شهر آب/ أغسطس 2007م، وبعد عملية الزيادة، وصل عدد القوات الأميركية إلى ما مجموعه (160,000) وهو

(1) Seldon, **Blair Unbound**, pp. 189 - 190.

عدد دون الـ (200,000) الذي نصح به شنساكي. كما أن ذلك الأسبوع من سنة (2007)م كشفت فيه وزارة محاسبة الحكومة الأميركية أن البنتاغون لم يكن قادرًا على تفسير فقدان (11,000) بندقية هجومية من طراز أي. (كي47 و80,000) مسدس من المفترض أنهم زودوا لقوات الأمن العراقية. لذلك كان البعض مرتابًا في أن عملية تزويدهم بالسلاح من قبل الولايات المتحدة كانت تغذي عملية التمرد والتي كان في معظمها من سنة العراق. كما كان هناك مقاتلون أجانب جاؤوا أساسًا من المملكة العربية السعودية وليس شيعة إيران، كما أن القنابل التي توضع على جوانب الطرقات كانت قد صنعت أساسًا من قبل مهندسين متدربين تدريب الجيش العراقي، بعد أن سُرقت المتفجرات، ولم تجلب من إيران[1].

وفي نهاية عملية غزو2003م، خُفِّض البريطانيون من قواتهم في العراق من (30,000) إلى (18000)، كما أنه وفي غضون عام انخفض هذا الرقم إلى (8,600) وبحلول آب/ أغسطس 2007م كان قد وصل إلى (5,500) موزعة على قصر البصرة والمطار. لم تكن هناك زيادة في عدد القوات البريطانية وفي وقت جيد وقبل تنحي بلير من منصبه كرئيس وزراء كانت بريطانيا تسحب قواتها، في حين أن الولايات المتحدة كانت بصدد الزيادة في عددها. فبريطانيا لا يمكن أن تمضي مع أميركا إلى الأخير إلا في ظل وجود قوات «إشراف» معتبرة، وهو ما وعد به بلير.

وبحلول عام 2007م، كان من الواضح تمامًا أيضًا أن هناك قوات غير كافية في أفغانستان، وكان الأمر يستغرق وقتًا لتحقيق الاستقرار في أفغانستان والعراق، وبمجرد تحققه فإن الاستقرار سيصبح من الصعب المحافظة عليه. فالآن وحتى عندما أصبح حلف شمال الأطلسي متورطًا، لم تتلق الحكومة الأفغانية ما يكفي من الدعم من لدن الديمقراطيات الغربية سواء فيما يتعلق بتطوير الدعم أو الأمن. كما أنه وبنهاية 2006م، كان مقاتلو طالبان قد عاودوا التمرد في الجنوب. فبريطانيا لم ترفع بعد من مستويات عدد قواتها في حلف شمال الأطلسي، ورغم ذلك لم تكن هناك أية محاولة لتحذير الشعب البريطاني من العواقب المحتملة. بل في الواقع فإن وزير دفاع حكومة بلير، جون ريد، قال ضمنيًا وبصورة غير معقولة: إن القوات يمكن أن تغادر بعد ثلاث سنوات حيث لم يقع خلالها أية إصابات، ولم تطلق خلالها رصاصة واحدة.

(1) David Gardner, «Lost in Iraq: the illusion of an American strategy», **Financial Times**, 10 August 2007.

فبريطانيا لديها تاريخ طويل من التدخل في أفغانستان، حيث كانت قد هزمت هناك وهي في أوجِّ قوتها الإمبريالية. لقد ركبت هضاب وسط أفغانستان في سنة 1959م وأنا طالب، وحتى حينها كانت قوات اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية تنشط في مناطق خطيرة. وعندما غزا الاتحاد السوفياتي أفغانستان في 1979م، أصبح ضعيفًا جدًّا. وخلال الثمانينيات قامت الولايات المتحدة وبريطانيا بدعم الأفغان في حربهم الناجحة بهدف طرد السوفيات. وفي 2006م وبعد القتال الوحشي في الجنوب طوال الصيف، كان واضحًا أن حلف شمال الأطلسي احتاج إلى المزيد من القوات متمثلة في طائرات هيلوكوبتر وقوات الاحتياط المحمولة. كما اجتمع أعضاء الناتو في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر 2006م في ريغا وفشلوا في التوصل إلى حشد المزيد مما يكفي من الدعم الإضافي. وهو ما دفع بمؤلف الكتاب المميز: «الجهاد وصعود الإسلام المسلح في آسيا الوسطى» لكتابة: «الوضع في أفغانستان ليس وخيمًا فحسب بل بائس. فالصراع ضد التطرف الإسلامي لن يُهزم في العراق أو إيران أو حتى الأراضي الفلسطينية بل في أفغانستان»[1]. ومازالت الأمور على تلك الحالة إلى حدود 2007 م عندما أعلنت دول الناتو رفض الحثّ الأميركي على زيادة أعداد قوة المساعدة الأمنية الدولية، والتي كانت مطالبة بتغطية كل منطقة من مناطق البلد، وذلك بالاعتماد على العدد الحالي والمتمثل في (41,000) جندي. وخُصص الأمر ذلك بعنوان رئيس في صحيفة: «التايمز» وفي التاريخ نفسه حمل عنوان: «البعض لن يقاتل، والبعض لا يستطيع القتال في الثلوج، تلك هي المشاكل التي تواجه الناتو».

وفي وقت سابق عزّز السير جيريمي غرينستوك، وهو سفير سابق لدى الأمم المتحدة وأُرسل من نيويورك إلى بغداد لمتابعة سويرز في عام 2003م، ومن أهمية وجهة نظر سويرز قائلًا في الأيام التي تلت النصر:

يبدو لي أنه لا أحد تلّقى تعليمات لجعل مسألة أمن العراق كأولوية، فوضع قانون ونظام في الشوارع هو الأولوية. إذ لم تكن هناك قوة شرطة، كما لم يكن هناك جيش متكون باستثناء الغزاة المنتصرين. كما لم يكن هناك جنرال أميركي يمكنه أن يبين لمن أُعطيت المسؤولية للتأكد من أن الواجب الأول لأية حكومة ـ والمقصود

---

(1) Ahmed Rashid, «NATO›s failure portends a wider war», **International Herald Tribune**, 1 December 2006.

هنا نحن كحكومة ـ الحفاظ على النظام والأمن في الشوارع. لقد كان هناك فراغ منذ البداية تحرَّك فيه بسرعة اللصوص، المخربون، المجرمون والمتمردون[1].

وفي 29 آب/ أغسطس 2003م، حدثت نقطة تحول أخرى مع الهجوم على جامع الإمام علي في النجف، والتي قتل فيه آية الله باقر الحكيم، وهو زعيم ديني شيعي معتدل ومؤثِّر. فحتى ثقة بلير المتغطرسة بنفسه فيما يتعلق بالعراق، بدأت في التواري بنهاية السنة. وفي 19 تشرين الأول/ أكتوبر كانت مشاكل بلير مع القلب، تعني أنه نقل على جناح السرعة إلى المستشفى كمريض خارجي من أجل تقويم نظم القلب، فيما وضعت تفاصيل ذلك لاحقًا[2]. فعندما بدا رئيس الوزراء متعبًا ومتوترًا خلال سنتي (2003 و2004م)، كان أولئك الذين في مقر الحكومة وحولها والذين علموا بذلك، قد تركوا المسألة عرضة لتأثيرات إضافية، ولكن ثقة بلير بالنفس حول موضوع العراق كانت قد اهتزت.

وفي الاستقبال الديبلوماسي السنوي في قصر باكينغهام في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 2004م، أجريت معه حوارًا هامًا لكنه قصير معه حول العراق. حيث أصرَّ علينا الجلوس مع بعضنا في القاعة الكبرى لإجراء نقاش جاد، متجاهلًا ـ لبعض الوقت ـ انتشار الديبلوماسيين الأجانب حولنا. لقد كان بلير هذا مختلفًا جدًّا عن ذاك الزعيم اليهودي المسيحي الذي كنت قد تحدثت إليه أثناء حفلة عشاء في تموز/ يوليو 2002م. لقد كان أقل ثقة بنفسه، كما ظهر مكبلًا بالأحداث بعض الشيء، فالفشل في إيجاد أسلحة دمار شامل في العراق بدا بوضوح مقلقًا له. فشعرت بالأسف من أجله، وحاولت أن أجعله مبتهجًا لكن كنت خائفًا من كارثة مفاجئة فيما بعد، كما انزعجت من عدم أهليته.

وبحلول يناير 2004م، كنت قد أصبحت مقتنعًا بأن بلير فقد وبشكل دائم سلطته ومصداقيته ويجب عليه أن يختار وقتًا مبكرًا للتنحي وشغل وظيفة أخرى. وكنت قد كتبت مقالًا في صحيفة الصنداي تايمز في الرابع من كانون الثاني/ يناير تحت عنوان:

«الحكم الذاتي من قبل بلير يمنحه أزمة السويس». فبينما كان لا يزال الاعتقاد سائدًا

(1) Quoted in Andrew Pierce and Thomas Harding, «Top aide's damning attack on Blair's Iraq war», **Daily Telegraph**, 22 February 2007.

(2) يحدث تقويم نظم القلب بالصدمة الكهربائية، أو إزالة الرجفان، عندما يُجرى صعق كهربائي بتيار مستمر ـ مؤقت بعناية ـ على جدار الصدر باستخدام مُزيل الرجفان، وإذا كان المريض مستيقظًا فإنه يُعطى مُخدرًا لينام قبل الصعق. وعادة ما يعود القلب لحالته الطبيعية بعد الصعق.

بأن إسقاط صدام حسين كان سياسة شرعية، اقترحت بأنه على بلير التنحي كرئيس وزراء في موعد لا يتجاوز الانتخابات العامة المتوقعة في سنة 2005م، فكتبت: «كانت سلطة بلير فيما يتصل بالعراق مدمّرة بشدة ولا يمكن إصلاحها، ليس حزبه فحسب ولكن أيضًا لداخل البلد... فمن شأن انسحاب ناجح أن يجعل رئاسة وزراء بلير ينظر إليها كناجحة عبر التاريخ. فهناك فرص أخرى في انتظار بلير، وهذه ليس آخرها كأن يكون الرئيس المقبل للبنك الدولي.

لم أجر أي نقاش جاد معه منذ ذاك الحين

رغم تعيين بول وولفويتز فيما بعد، فإن الولايات المتحدة كانت في وقت ما مهتمة برئاسة صندوق النقد الدولي مع السماح للأوروبيين بتسيير البنك الدولي. أما بلير فإنه لم يستعد سلطة وثقة الشعب البريطاني والبرلمان بشكل كامل، وهو ما يحتاجه أي رئيس وزراء عندما يكون الجنود يقتلون في الساحة.

نحن نعلم الآن أن بلير كان ومنذ عيد الفصح 2004م تحت تأثير ضغط متزايد، لكنه لم يكن سببه مشكلة العراق أو واجباته كرئيس وزراء، والذي من خلاله أظهرت الصحافة وبشكل جماعي تقييد عظيم، وذلك بعدم نقل أخبار اعتبرتها بحق مسألة خاصة جدًّا وعائلية. فبلير كان قد قرر فعليًّا أن يتنحى من رئاسة الوزراء حوالي أواخر شهر أيار/ مايو وبداية شهر حزيران/ يونيو سنة 2004م. وسواء كان ذلك لأنه كان قد أقرَّ ببساطة أن فشله كان يعني أن الوقت قد حان للاستقالة، أو لأنه كان مكتئبًا، أو لأنه كان قلقًا للغاية، فنحن لا نعلم لعله كان ذلك مزيجًا من الأسباب الثلاثة. لقد أكَّد بعض أصدقائه قنوطه وهو ما يفسر تذبذبه. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان أعلن فجأة بعد عيد الفصح ودون أي تشاور مع مجلس الوزراء إجراء استفتاء حول اتفاقية الاتحاد الأوروبي بعد أن دفعه جاك سترو لذلك. كما نُصح بالعدول عن التنحي من قبل بعض الأصدقاء الموالين له داخل مجلس الوزراء. إن هذا الشيء له بعض نقاط التشابه مع رغبة الرئيس ليندون جونسون في التنحي عندما أصابته حالة من الاكتئاب سنة 1965م بعد إجراء عملية، وعندما كانت الأمور تسير على نحو سيء في فيتنام. أراد وزير الخزانة، غوردن براون، ودون علم بلير أن يستقيل كي يتسنى له خلافته رغم أنه ساعده ظاهريًّا في العدول عن ذلك، اعتقادًا منه أنه من الأفضل لبلير ولحزب العمال أن يستقيل رئيس الوزراء في فصل الخريف، تزامنًا مع المؤتمر السنوي لحزب العمال.

من المؤكد أن مشاكل القلب التي واجهها بلير[1] في تشرين الأول/ أكتوبر 2003م قد عاودته تزامنًا مع زيارته بصحبة زوجته في ذاك الصيف إلى منزل رئيس وزراء الإيطالي سلفيو برلسكوني في سردينيا، لكن لم يُثبت الأمر. واعترف لاحقًا صديق عائلة بلير والمضيف ومؤلف كتاب: «عرض بنك الجنوب»، اللورد ملفين براغ، بأن بلير عاش تلك الإجازة الصيفية تحت ضغوطات نفسية متزايدة قائلًا في أيلول/ سبتمبر 2004م: «أعتقد أن المشكلة الحقيقية كانت شخصية وعائلية. إذ تعد العائلة أولى أولوياته»[2]. ولكن نقلاً عن أصدقاء بلير فقد أكَّد كاتب السيرة أنتوني سيلدون في كتابه: «بلير غير مكبل»، «أنه لم يكن بوجه عام على ما يرام في سنة 2004م» فقلبه على ما يبدو كان قد بدأ يعاني، وهو ما جعله يشعر بأنه «غريب ومرتبك». إذ تعرض إلى نوبتين قلبيتين خلال مسائلة رئيس الوزراء في عام 2004م.

ومع حلول مؤتمر حزب العمّال، كان توني بلير قد أخبر زملائه في مجلس الوزراء عن عدوله ليس فقط عن فكرة التنحّي، بل حتى عن استعداده لقيادتهم خلال الفترة الانتخابيّة المقبلة، وهذا ما أعلنه في 30 أيلول/ سبتمبر 2004م، ولكن مع ذلك أكَّد أن تلك الانتخابات سوف تكون الأخيرة. ولكن لم يكن من الجيد صدور هذا البيان لا سيما بعد اقتنائه منزل تقاعد في لندن، ولكن كان الهدف من ذلك صرف الرّأي العام حول حالته الصحية. وفي اليوم التالي، اتجه بلير إلى العيادة الخارجية لإجراء قسطرة[3] لدقَّات قلبه غير المنتظمة،

(1) كان هناك محاولات منذ البداية لإظهار دقات قلب بلير غير المنتظمة على أنها مجرد نوبة بسيطة، ومع ذلك اعتقد العديد من الأطباء أنه مصاب بالرفرفة الأذينيّة، والذي يُقدَّر عدد المصابين به في بريطانيا بـ 50,000 شخص. ويمكن أن تصل سرعة دقات القلب الأذينية في صدمات مماثلة إلى 250 ـ 350 دقة في الدقيقة، وبعدما تعود دقات القلب إلى حالتها الطبيعية، يشعر المريض بالإرهاق والتعب، إلا أنه لا يستمر طويلًا. وقبل أو بعد النوبة التي أصابت بلير في عام 2003م، اتُخذت له إجراءات تشخيصية اعتيادية للأسباب التي تؤدّي عادة إلى الرفرفة الأذينية، وشملت فحصًا للتسمم الدرقي عن طريق تحليل الدم. ويُعزى سبب فقدان بلير لوزنه إلى الحمية الغذائية والتمارين الرياضية، وليس إلى التسمم الدرقي. وأجريت فحوصات بمخطط صدى القلب (ECG) للكشف عن أي أمراض قلبيّة فطرية أو اختلال في القلب، وذلك استنادًا على تاريخ والده المرضي. يمكن علاج عيوب التوصيل الوراثية في القلب، مثل متلازمة وولف باركنسون وايت، باستخدام الأدوية التي تُبطء من عملية التوصيل في جزء معين في القلب يُسمى حزمة كِنت (bundle of Kent). أما إدمان الكحول وأي منبّهات أخرى فيمكن استبعاد كونه سببًا للرفرفة الأذينية.

(2) Scott, **Tony & Cherie**, p. 227.

(3) تتم عملية الاستئصال عن طريق غرز قسطرة في القلب، بعد إدخالها إلى الأوعية الدموية. ويمكن لرأس القسطرة أن يَحرق راديويًا/ إشعاعيًا للقضاء على خلايا بعينها في القلب، وعادة ما تكون تلك الخلايا قريبة من صمّام ثلاثي الشرفات الذي يسبب دقات القلب غير المنتظمة. وفي حالة بلير أجرى العملية الدكتور واين دافيز من مستشفى ماري، وشخَّصه على أنه رفرفة أذينيّة. عاد بلير بعد ذلك إلى داونينغ ستريت، وأصدر تقرير رسمي من الدكتور بانت =

وهذه المرّة أكَّد المستشفى أنه يعاني من الرفرفة الأذينية. ففي الوقت الذي كانت فيه أزمة العراق في أمسِّ الحاجة إلى التفكير في سياسات جديدة وتفكير نشط، كان رئيس الوزراء البريطاني الذي في سدة الحكم يخفي حقيقة مرضه، وينفي الوقائع ويتظاهر أنه في حالة صحية جيدة. وبذلك اتَّضح أنه كلما عُرف المزيد عن حالة بلير الصحية، كلما عُرف السبب الرّئيس الذي يدفعه إلى التنحِّي. ولكن أولئك المتغطرسون يعتقدون أنه لا يمكن الاستغناء عنهم، ويتعاملون باحتقارٍ مع أي خليفة محتمل.

وفي 14 تموز/ يوليو من عام 2004م، نُشر ما سمي بتقرير «بِتْلَرْ» المتعلق بفشل المخابرات والذي سبق عملية الغزو[1]، الأمر الذي فاجأ بلير أنه لم يكن شيئًا مدمَّرًا، ولكن كان هو من حدَّد بنوده المرجعية بنفسه ومتعمدًا. وعندما يطلب من أمين عام مجلس وزراء سابق مثل اللُّورد «بِتْلَرْ» إجراء تحقيق في لجنة عُيِّن عضو مجلس وزراء سابق وموالي، سوف يدرك رئيس الوزراء آنذاك أن الانتقادات يجب أن تحبك صياغتها، كي تعكس توافقًا في الآراء وبذلك تبعد أي دعوة إلى التنحِّي. ومع ذلك تجاوز تقرير بِتْلَرْ وعلى غير العادة صلاحيته في الإخفاقات الاستخباراتية قبل الحرب، وعلَّق على طريقة بلير في عمليّة صنع القرار واتخاذ القرارات الرئيسية، وأُفرد قدر من النقد لطريقته الخاصة في اتخاذ القرارات المصيرية، وهو جالس على الأريكة قائلًا: «إنّنا نشعر بالقلق إزاء الإجراءات الحكوميّة السّاري بها العمل... للحدِّ من مخاطر الحكم السياسي الجماعي». لقد صيغت برشاقة وبلغة البرلمان المدمرة بعمق، لكن دوران عجلة آلة بلير خفف من التداعيات المحتملة لذلك.

لقد أُخذ اقتباس كولن باول ببيانه للأمم المتحّدة في 5 شباط/ فبراير 2003م، والذي درس بطريقة سيئة، اعتراضات على قادة فيلق الحرس الجمهوري، ومناقشة حذف عبارات «الأعوان الثَّائرين» على الوجه الخطأ، ويعود ذلك إلى الخداع العراقي السابق وعدم توفر الأدلة اللازمة التي تثبت سوء النية العراقية. ومنذ ذلك الحين أصبح ثابتًا أن العراق يسعى

= رانخا، طبيب القلب الشخصي لرئيس الوزراء، ولم يشر إلى أي مرض أصاب قلب بلير. وتعتبر عملية القسطرة ناجحة معظم الأوقات بنسبة 90%، وفي المملكة المتحدة يقدَّر عدد العمليات تقريبًا بـ 3500 عملية كل سنة، وذلك لأمراض القلب المختلفة. وإذا أُهملت الإصابة بالرفرفة الأذينية فقد تؤدِّي إلى تجلط في القلب مما يسبب حجب أحد الأوعية الدموية في الساق، والكلى، والأمعاء، أو حتى الدماغ. إلا أنه يُعالج بشكل مباشر أو خلل أسابيع معدودة، لكن يجب ألا يؤجَّل إلى أكثر من إحدى عشر شهرًا.

(1) **Review of Intelligence on Weapons of Mass Destruction**, HC 898, 14 July 2004.

إلى الامتثال لقرارات الأمم المتحدة[1]. نتيجة لذلك أصبح وجوبًا على باول الاعتذار على ما قدمه للأمم المتحدة. إلا أنه كان صادقًا بقوله إن: «صدّام حسين طور العشرات من العوامل البيولوجية المؤدِّية للعديد من الأمراض مثل غاز الغرغرينا، والطاعون، والحمّى والنّمّشيّة، والكُزاز، وداء الكوليرا، وجدري الجِمال، والحمى النزفية، بالإضافة إلى امتلاكه للمال الكافي لتطوير مرض الجدري».

كشف كتاب: «على حافة الهاوية» لتيلر درامهالير أن الرّئيس السابق لوكالة الاستخبارات المركزيّة للعمليات في أوروبا، أبدى ارتيابه أكثر مما فعله تحقيق «بتلير» في حقيقة اعتماد جهاز الاستخبارات البريطاني وحكومته الخاصة على عميل عراقي سري عمل لصالح الألمان. فقد كانت الاستخبارات الألمانية تنقل المعلومات إلى وكالة الاستخبارات المركزية عن طريق مهندس كيميائي كان يطلق عليه الاسم المستعار كيرفبول (منعطف الكرة). كما ادَّعى أن العلماء العراقيين يمتلكون برنامجًا لتطوير أسلحة بيولوجية موجودة في مختبراتهم المتنقِّلة، وهو ما استخدمه باول في خطابه أمام الأمم المتحدة. فوفقًا لجورج تينيت حصل ذلك عن حسن نيّة، ولم يُحذر قبل خطاب باول سواءً من قِبَل درامهالير أو أيّ طرف آخر حول التقارير الألمانيّة، أو شكوك وكالة الاستخبارات المركزية المتعلقة بكيرفبول[2]. ولكن قامت المخابرات الألمانيّة بإعلام جهاز الاستخبارات البريطاني ووكالة الاستخبارات المركزية بأنّه لا ينبغي قبول ادعاءات كيرفبول، واصفة إيّاه بالمفتري والمدمن على الكحول[3]. أما بشأن ادِّعاء بلير، الذي استند فيه على حكم صادر عن دوائر الاستخبارات، بأن صدام حسين سوف يقوم بتطوير سلاح نووي: «في غضون سنة أو سنتين» فمنذ ذلك الحين لم تتحقَّق أي من هذه المعلومات[4].

في تدخل مدمِّر في مجلس اللُّوردات في 22 شباط/ فبراير من عام 2007م، تحدَّث «بتلر» وللمرة الأولى كفرد وليس كرئيس لجنة تحقيق، فوصف بلير: «بالمخادع» للاستخبارات، وهو وصف لا يتماشى مع طبيعة البرلمان. إذ يقول بتلر:

(1) Kevin Woods, James Lacey and Williamson Murray, «Saddam's Delusions: The View from Inside», **Foreign Affairs**, May/June 2006, pp. 6-8.

(2) Tenet, **At the Center of the Storm**, pp. 375 - 383.

(3) Tom Bower, «Blair's defence over Iraq is crumbling», **Times**, 3 February 2007.

(4) Christopher Ames, «Revealed: the Iraq nuclear deceit», **New Statesman**, 7 May 2007.

هنا يكمن المشكل، فلا المملكة المتحدة ولا الولايات المتحدة كان عندها معلومات تؤكد بطريقة حاسمة أن العراق كان يملك تلك الأسلحة، ورئيس الوزراء كان مخادعًا في ذلك. فالمخابرات البريطانية المشتركة أخبرته في 23 آب/ أغسطس 2002م بأنهم: «يعلمون القليل عن مشروع العراق للأسلحة الكيمائية والبيولوجية منذ أواخر 1988م». كما أن رئيس الوزراء لم يعلمنا بالأمر، وفي الحقيقة لم يطلع البرلمان إلا منذ ما يزيد عن شهر، وهو في وقت لاحق قال بأن الصورة التي رسمتها أجهزة الاستخبارات لذلك كانت: «شاملة ومفصلة وموثوقة». هذه العبارات وبكل بساطة كان بالإمكان عدم تبريرها ماديًّا، بأن هيئة الاستخبارات هي التي زوَّدته بها[1].

حاول بلير في البداية وفي غمار سباق الانتخابات العامة إجراء حملة انتخابية تهدف إلى التقليل من الدور الانتخـابي ومن دور غوردن براون. لكن باءت هذه الاستراتيجيـة بالفشل لا سيما مع الرأي العام، وأنصار حزب العمال في الوقت الذي عاد فيه براون وبدور رئيسي إلى الحملة التي فاز بها حزب العمال بنسبة ضئيلة تصل إلى 36 في المئة من الأصوات. وتبعًا لذلك ظلَّ حزب العمال في السلطة بنسبة (9.6) مليون صوت وهي أقل من عام 2001م التي كانت بنسبة 13.5 مليـون صوت، وأقل أيضًا من عام 1997م والتي كانت نسبتها (13.5) مليون صوت. آنذاك اكتشف بلير أنه هو المسؤول وأنه هُزم بسبب ما حصل في العراق. ولكن مع ذلك ظلَّ يتردَّد على المكتب، وبدأت ثقته بنفسه تعود تدريجيًّا في الصيف رغم الانخفاض الكبير في الأصوات والمقاعد. لكنه لم يفهم بعد سبب تأخر بلاده في «المُضيِّ» وتجاوز العراق. وفي عام 2005م تجدَّدت غطرسته إلا أنها لم تكن بالطريقة نفسها في الفترة الممتدة من (2001 لغاية 2003م)، حيث كان هاجسه بالمحنة قد استبدل بقراراته حول مسألة تاريخ الاستقالة مع مرور الزمن. كما أنه أظهر انطباعًا بأنه الوحيد وبالتوازي مع مجموعة في داونينغ ستريت، الذي لديه القدرة على تنفيذ برنامج الإصلاح في التعليم والصحة الذي شرعت فيه الحكومة. ومع ذلك كان له تدخُّل مستمرّ و«حضور» في المسائل العسكرية وهذا ما أفقد هذه الأجهزة استقرارها، وأحدث خللًا في صفوف الموظفين، وأثَّر بشكل متزايد في خفض فوائد زيادة الأموال. كانت «سياسة التسليم» كما وضعها بلير[2] إحدى

(1) Hansard, HL Deb, 22 February 2007, vol. 689, col. 1231.

(2) Michael Barber, **Instruction to Deliver: Tony Blair, Public Services and the Challenge of Achieving Targets** (London: Politico's, 2007).

نقاط الضعف العامة، والتي تتمثل في الرَّغبة في السّيطرة المركزيَّة لداونينغ ستريت على الخدمات التي ينبغي أن تكون لا مركزيّة، واللامركزية، وهو أمر يحدث في كل بلد كبير حول العالم.

في السنوات التي تلت انتخابات سنة 2001م لاحظ المسؤولون أنه من المناسب أن يعلن بلير قراره قبل أو في بداية الاجتماع لا في نهايته. وقام أمين عام مجلس وزرائه السابق بتلخيص المشكلة في كانون الأول/ ديسمبر 2004م قائلًا:

يوجد حثٌّ كبير على عملية البيع، كما يوجد هناك سيطرة مركزية كبيرة جدًّا والقليل جدًّا ممّا يمكن وصفه بالنقاش الممنهج في الحكومة على جميع المستويات. فأنا ومجلس الوزراء نعتقد في هذا الوقت، والأمر لا يخفى على أحد،... كل هذا جزء من حكومة سيئة في هذا البلد[1].

كُتب مقال في الفينانشال تايمز في 12 أيلول/ سبتمبر 2006 عن «العادات السبعة لرئيس الوزراء غير فعَّال» قدَّرت بأنها فشل في قيادة الإدارة الجماعية، وفشل في إدارة التوقُّعات ومتابعة الأفكار، واعتماد على نموذج الرئيس التنفيذي البطولي، واعتماد نمط حكم استبدادي، وعدم الاستماع إلى الانتقادات البنَّاءة، والإدمان على الأهداف ومقاييس الأداء الاعتباطية، والفشل في إدارة خلافات منظَّمة ومستقرّة. وجميع هذه العادات هي من الأعراض الملازمة للغطرسة.

لم يقم لا رئيس الوزراء البريطاني ولا إسكويث ولا لويد جورج أو تشرشل ولا حتى إيدن بجعل القرارات الاستراتيجية حول الحرب شخصية دون مشورة باقي أعضاء الحكومة كما فعل بلير. فهناك ضمانات هامة تتخذ قبل إصدار أي قرار يتقاسمها كل من القادة العسكريين والدبلوماسيين الرئيسيين في ميدان جُعل معروفًا لجميع المشاركين، ويقوم فيه هذا الفريق الصغير من الوزراء بدوره، وذلك بتقديم تقارير منظَّمة إلى مجلس الوزراء. كانت «مرغريت تاتشر» قد سلكت هذا المنهج في قيادة حرب الفولكلاند في عام 1982م. وهي طريقة جون مايجور نفسها في اتخاذ القرارات خلال حرب الخليج في عام 1991م. إلا أنها لم تكن الطريقة التي اعتمدها بلير في إدارته للحرب على العراق. وفي هذا الخصوص تصرف كامل أعضاء الحكومة كختم مطاطي على القرارات التي اتَّخذها

(1) «How not to run a country» , interview with Lord Butler, **Spectator**, 9 December 2004.

كل من بليز وزمرة صغيرة من الزملاء والمستشارين في داونينغ ستريت في مجال السياسة الخارجية. ولكن ما كان أكثر غرابة آنذاك هو وجود إجراء مماثل لقرارات غوردن براون يتعلّق بالسياسة الاقتصادية. فمثل هذا الترتيب المزدوج قُبل من طرف مجلس الوزراء البريطاني، وتم تجاوزه بصورة شاملة.

كان للرئيس كلينتون تأثير تقييدي كبير على بلير بخصوص أزمة كوسوفو، أمّا فيما يتعلّق بأفغانستان والعراق، فكان كلٌّ من بوش وبلير يعملان ضمن مجموعة صغيرة جدًّا ومغلقة من المستشارين، وبدا كل منهما يشعل الآخر.

كان لبلير قدرة كبيرة على خداع نفسه، كما كانت ثقته عالية باعتقاده أن الأمور ستسير على ما يرام، وهذا ما عُلِّق عليه في عملية صنع القرار في العديد من المجالات داخل حكومته. اكتسب هذه الصفة نتيجة تدريب محاميه على استيعاب خطابه الموجز بسرعة، والثقة في التكلم في جميع محتوياته. ومع ذلك وفي الكثير من الأحيان، كانت معرفته بالسياسة وكيفية تنفيذها سواءً كانت وطنية أو دولية، متصنّعة وتفتقر للتفاصيل عند التدقيق، وبالتالي كان هذا سبب سقوطه في العراق. ذهب السير مايكل روز، الجنرال المتقاعد والقائد عام للجيش البريطاني، وقائد قوات الأمم المتحدة للحماية في البوسنة، بعيدًا إلى حدِّ الدعوة لحجب الثقة عن رئيس الوزراء على خلفية قضية العراق وبسبب «الاضطراب في الأهمية الاستراتيجية الكبيرة»[1]. كما تحدَّث العديد من كبار الجنرالات في السياق نفسه أمام العامة بتحفظ، بينما تحدثوا فيه بشكل حاد فيما بينهم.

في حين أنه كانت لا تزال هناك فرصة متاحة أمام كونغرس الولايات المتحدة لخيار حجب الثقة، إلا أن ذلك لم يعد خيارًا في المملكة المتحدة، فقد اعتاد البرلمان على تقديم أي شخص يرتكب «جريمة كبرى أو جنحة» إلى المحاكمة، كما حصل مع وَارنْ هاستنغس عام 1795م في قضيته الشهيرة، وبعد محاكمة دامت سبع سنوات، أصدر مجلس اللوردات حكمًا يبرِّئه من جميع التهم الموجَّهة إليه. كما كانت هناك محاولة فاشلة لحجب الثقة عن اللّورد بَالمِرْستون سنة 1848م. فخطر حجب الثقة كان بمثابة مراقبة سلطة رئيس الولايات المتحدة كما حصل مع ريتشارد نيكسون. وكان احتجاج كلينتون عند الحنث باليمين مثيرًا

(1) General Sir Michael Rose, «Enough of his excuses: Blair must be impeached over Iraq», **Guardian**, 10 January 2006.

للجدل أكثر من سلوكه الجنسي، إلا أن الكونغرس رفض حجب الثقة رفضًا عمليًّا. كما أن سلطة توجيه الاتهام بالتقصير كانت تخدم غرضًا بالغ الأهمية، وذلك بتذكير أي رئيس أميركي بوجود سلطة أعلى من سلطته، ويمكن لها أن تعزله من السلطة فيما بين الانتخابات. ففي المملكة المتحدة تكمن هذه السّلطة في التصويت البرلماني أو في حجب الدعم المقدَّم من طرف حزب رئيس الوزراء نفسه، غير أن هذا نادرًا ما يُمارس عندما يكون رئيس الوزراء أكثر شعبية من الحزب.

قمت بمجادلة إجراء تحقيق مستقلّ حول الحرب في أفغانستان والعراق ضمن مناقشة في مجلس اللوردات في 29 حزيران/ يونيو2006م[1] كما دعوت إلى إنشاء لجنة مماثلة لـلجنة الدردنيل والتي أُنشئت عام 1916م عقب الكارثة العسكرية في شهر شباط/ فبراير من السنة الماضية. في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 2006م انتقد قائد أركان الجيش البريطاني السير ريتشارد دانات علنًا سياسة الحكومة، وهذا ما لم يحصل منذ الحرب العالمية الأولى، وهو الشيء الذي لم يَقْوَ بلير على تحمله. وفي السنة نفسها سمى رئيس أركان الدفاع البريطاني السّابق، الجنرال تشارلز غوثري، تدخل بريطانيا وحلف شمال الأطلسي في أفغانستان «بالأبله». كما تمكّنت الحكومة البريطانية في 31 تشرين الأول/ أكتوبر2006م من ذلك العام نفسه من صدِ طلب بإجراء تحقيق حول الحرب على العراق، مسلّمة بأن ذلك يمكن أن يحدث في وقت ما لاحقًا، كما نوقشت العديد من الدّعوات لإجراء تحقيق داخل مجلس اللوردات في 22 شباط/ فبراير عام 2007م.

تجاهل بلير بازدراء مشورة ونصائح زملائه، وهذا ما كان واضحًا في معاملته للعديد من وزراء حكومته منذ تولّيه السلطة، وليس أخيرًا وزراء الدفاع والخارجية، ومن ثمة بدأ بتقويض قاعدة سلطته في أوائل عام 2003م عندما أصبح من الواضح أنه لا يمكن الحصول على قرارٍ ثانٍ من الأمم المتحدة. ويقال: إن جاك سترو قد عاد من جديد إلى بلير ومعه مذكرة شخصية على إثر عودة رئيس الوزراء من جزر الآزور في 16 آذار/ مارس 2003م. وعشيّة الحرب، يبدو أن سترو اعتقد أن المملكة المتحدة من واجبها أن تقدِّم قوات لفرض السّلام بعد سقوط بغداد، بالإضافة إلى توفير الدَّعم السياسي والمعنوي الكامل للغزو[2].

(1) **Hansard**, HL e,b, 29 June 2006, vol. 683, col. 1350.

(2) Kampfiner, **Blair's Wars**, pp. 302-303.

كما أن دونالد رامسفيلد كان قد أوضح علنًا: أن الولايات المتحدة كانت متحمسة للذهاب إلى العراق دون البريطانيين، إلا أن نصيحة سترو جاءت مضادة لكل ما كان يرغب فيه بلير لنفسه، لذلك رفضها هذا الأخير. أمّا إستقالة سترو فكانت مدمِّرة، ليس فقط لبلير الذي تبرَّأ منه مجلس الوزراء، بل أيضًا لسمعة بريطانيا في الولايات المتحدة، ولمسألة الثبات أثناء الأزمات.

ولكن بلير لم يعد على حق عندما يدافع عن نفسه بالادِّعاء: بأنه لم يكن لديه خيار. فبريطانيا لم تكن مجبرة على الذهاب إلى الحرب في العراق. لكن بلير، الذي كان وبصفة خاصة تحت ضغط من سترو، طرح المشكلة على مجلس العموم لإجراء تصويت رسمي وفاز فيه بالموافقة. فمنذ أربعين عامًا فيما سبق، واجه رئيس الوزراء هارولد ويلسون، الذي تولى الرئاسة من سنة (1964 ولغاية 1970م) ثم من (1974 وإلى سنة 1976م)، خيارًا مماثلًا حول مساهمة القوات البريطانية في حرب الفيتنام من عدمها، ولم يختر الدخول في الحرب اعتقادًا منه أنه لن يكون له تأثير كبير وكافٍ في التعامل مع تلك الحرب، بسبب طبيعة الرئيس جونسون. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1964م أراد جونسون من ويلسون إرسال بلاك ووتش، وهو فوج أسكتلندي، إلى فيتنام لأغراض الدعم في المقام الأوَّل، كما كشف عن موقفه الأساس مخاطبًا ويلسون قائلًا: إن القليل من عازفي المزامير أفضل من لا شيء! ومع ذلك وبصرف النَّظر عن الانتقادات التي واجهته في خطاب ألقاه في البيت الأبيض في شهر شباط/ فبراير 1968، دعَّم ويلسون الحضور الأميركي في فيتنام، وخاطر عن علم بالتصور أنه كان «ذيل الطائرة في قاذفة قنابل أميركيّة»[1].

وفي مكالمة هاتفيّة مع طرف آخر سمّاها جونسون «زحف ويلسون» حيث واجهه على الهاتف قائلًا: «نحن لن نقول لك كيف تحكم ماليزيا، ولن تقول لنا بدورك كيف نحكم فيتنام». وفي مناسبة أخرى، هدَّد جونسون بسحب الدعم المالي في حال لم يقم ويلسون بإرسال قوات. لكن ويلسون واجه هذا التهديد محتجًّا أنه في حالة سحب بريطانيا قواتها من ماليزيا وهونغ كونغ، لن يحتاج وقتها الجنيه الإسترليني إلى دعم[2]. شكك بعض الساسة أو

(1) Philip Ziegler, Wilson: **The Authorised Life of Lord Wilson of Rievaulx** (London: Weidenfeld & Nicolson, 1993), pp. 222 - 223.

(2) Mark Lawson, «The truth about a special relationship: warmth can be riskier than distance», Guardian, 8 April 2006.

المؤرخين، على ضفّتي المحيط الأطلسي، في أن بريطانيا كانت على حقّ حين بقيت بعيدة عن حرب فيتنام.

أبرز مثال على الازدراء الذي غالبًا ما يأتي جرَّاء الغطرسة، هو الشيء الذي طوَّره وأبداه بلير ضد سترو، والذي جاء من خلال الحساب المسرَّب من داونينغ ستريت والمتعلق بحوار بين الرجلين، بعد نتيجة الاستفتاء الفرنسي الذي رفض دستور الاتحاد الأوروبي. وقد رحب جاك سترو، الذي قام بحملة في استفتاء 1975م للتصويت بـ «لا» بشأن بقاء بريطانيا في المجموعة الاقتصادية الأوروبية، بالنتيجة الفرنسية. وقد ورد في التقارير أن بلير وبعد المحادثات التفت في جلسة خاصة إلى أحد مساعديه وعلق قائلًا وبشكل وقح: «مومس». هذه الملاحظة التي تمت في دائرة بلير المغلقة، وحظيت بدعاية إعلامية كبيرة رغم أنها أُنكرت رسميًّا، لكن لم يتمّ إنكار القصة أبدًا[1]. فإلى حدٍّ ما ودون ديبلوماسية، وصف سترو أي هجوم استباقي على المنشآت النووية الإيرانية «بالأرعن». وبدا ذلك متعمدًا بعض الشيء كما لو أنه تخوف من إمكانية أن يستغل بوش وبلير وجود أي تهديد كجزء من الوضعية التفاوضية حول برنامج التخصيب النووي الإيراني، لشرعنة تحركهم الاستباقي. وفي أيار/ مايو 2006م أزاح بلير سترو وعُيِّنت مارغريت بيكيت التي كانت تفتقر للخبرة في الشؤون الخارجية. كما عيَّن وزيرًا جديدًا للدفاع وهو، دجيف هون الذي ورغم بقائه مواليًا لبلير طوال تلك الفترة فإنه أزيح تدريجيًّا.

أثناء الأزمة اللبنانية في تموز/ يوليو ـ آب/ أغسطس 2006م، وبوجود موظفي دولة عديمي الخبرة في وزارة الخارجية، إضافة إلى وزير الدفاع، لم يوجد أي شخص يمتلك ما يكفي من الخبرة ليتحدى رفض بلير وبوش للدعم العلني لوقف إطلاق النار. كانت تلك اللامبالاة خارقة للعادة. فحتى في إسرائيل وبعد وقف إطلاق النار النهائي كان هناك انتقاد مفصَّل لطبيعة الهجمات الجوية الإسرائيلية على أهداف حزب الله في لبنان، حيث لم يدمروا جزءًا كبيرًا من البنية التحتية اللبنانية فحسب، بل كان تأثيرهم على الحدِّ من قدرة حزب الله الصاروخية صغير. وقد دعا كل من بلير وبوش من مدينة سانت بترسبورغ في بلاغ رسمي أثناء قمة الثمانية إلى إعادة انتشار سريع للقوات الدولية متعددة الجنسيات. فلو كانوا قد سارعوا إلى إعادة انتشار قوات التدخل السريع في لبنان، لضمنوا وقفًا سريعًا

(1) Peter Oborne, «Now Blair silences the Tories with his Euroscepticism. genius!», **Spectator**, 25 June 2005.

لإطلاق النار. وفي عرض أثناء ندوة صحفية في واشنطن في 28 تموز/ يوليو رفض كلاهما وضع ثقلهما الديبلوماسي من أجل وقف إطلاق النار. لقد كانا القائدين الوحيدين اللذين اعتقدا أن هجمات جوية إسرائيلية متكررة على أهداف لبنانية بما في ذلك المنازل والبنايات في مناطق حضرية ستدمر حزب الله. وقد كان الانتقاد المعلن للاستراتيجية الإسرائيلية من داخل إسرائيل قد جعل خطابتهما المتصاعدة حول القيم تبدو مثيرة للسخرية. فتبرأ كلا الديبلوماسيان الرفيعا المستوى، والمعتمدان من طرف بلير من هذه السياسة، حيث أعلن السير ستيفن وول تقاعده علنًا، فيما انسحب السير ديفيد مانينغ، السفير البريطاني في واشنطن، بشكل صامت. لقد كان موقف بلير ضعيفًا أخلاقيًا وعسكريًا. كما تكلم بعد ذلك في لوس أنجلس حول: «محور التطرف الذي يزداد اتساعًا في الشرق الأوسط» متجاهلًا تمامًا أن فشله هو وجورج بوش أثناء غزو العراق هو الذي ساهم في اشتعال المنطقة. والغريب في الأمر أن لبنان وليس العراق هو من دفع الكتلة المعتدلة من نواب حزب العمال لتقول: «لقد طفح الكيل». لقد أجبروا بلير أن يعترف بالقول على الملأ في أيلول/ سبتمبر2006م أن ذلك سيكون آخر مؤتمر حزبي له.

لقد بدا واضحًا حجم الكارثة العراقية لتوني بلير بالضبط عندما نشرت المجلة الطبية: «لانست» في تشرين الأول/ أكتوبر2006م دراسة من إعداد جامعة جونز هوبكنز تقدر عدد القتلى المدنيين منذ آذار/ مارس 2003م بـ(650000) مدني عراقي. وقد قلل الناطق الرسمي باسم توني بلير وعلى نحو نموذجي من شأن الدراسة قائلًا: «نحن نؤمن بأنه لم يكن أحدًا وفي أي مكان قريبًا من الدقة». كما قال بوش: «لا أعتبره تقريرًا ذا مصداقية». ومع ذلك فنحن الآن نعرف أن داخل الحكومة البريطانية قال المستشار العلمي الرئيسي لوزير الدفاع إن هذا البحث كان «قويًا» هو «قريبًا من التطبيق المثالي» و«متوازن» وأوصى «بتوخي الحذر في انتقاد هذه الدراسة بشكل علني». كما أن موظفًا بوزارة الخارجية كان قد استنتج أنه على الحكومة أن «لا تقلل من قيمة اللانست»[1].

ولا عجب أن احترام الشعب لبلير وبوش تقلّص إلى أبعد حدٍّ عندما لم يستطيعا حتى القبول بالإصابات في صفوف المدنيين بشكل علني. فحسب رأيي، وكحد أدنى، احتاج كلا القائدان للقول وبشكل علني أنهما ارتكبا أخطاء، وتأسفا لعدم تطبيقهما لسياسات مختلفة، إلّا أنهما كانا يحاولان دعم الحكومة العراقية المنتخبة بشكل ديمقراطي لإنهاء التمرد. وما

(1) Richard Horton, «A monstrous war crime», **Guardian**, 28 March 2007.

زلت على اعتقادي أن هذه الكارثة الإنسانية في العراق التي تلت الإصابات القليلة أثناء الغزو الفعلي كان يمكن تفاديها، كما كان يمكن تفادي الحرب الأهلية التي انفجرت عقب الغزو. حيث لم ينظر إلى أسر صدام حسين وشنقه الخاطئ في نهاية العام 2006م كنتيجة إيجابية من طرف العراقيين نظرًا للخسائر البشرية الهائلة.

وبعد فقدان الجمهوريين للسيطرة على مجلسي النواب والشيوخ في تشرين الثاني/ نوفمبر 2006م، بدأ بوش أخيرًا بتغيير بعض من سياساته المتعنتة في العراق. فطرد دونالد رامسفيلد وعيَّن خلفًا مهمًّا له وهو روبرت غيتس. كما أصبح نائب الرئيس ديك تشيني أقل تأثيرًا بالمقارنة مع كوندوليزا رايس، التي أقنعت بوش بقبول حوار محدود مع سوريا وإيران فقط في سياق المؤتمرات الإقليمية التي دعا إليها رئيس الوزراء العراقي المنتخب نوري المالكي. ومع حلول نيسان/ أبريل 2007م، زاد بوش وبشكل متأخر من عدد الجنود الأميركيين في بغداد، بينما كانت بريطانيا تخفض من قواتها في البصرة. وبقدوم قائد عسكري أميركي جديد وذكي إلى العراق وهو الجنرال ديفيد بترايوس بدأت استراتيجية جيدة ومختلفة في التعامل مع المقاومة، وبدأت تقوية الجيش العراقي تشق طريقها. كما كانت الولايات المتحدة أخيرًا تحاول استمالة بعض من حركات المقاومة السنية وعزل متمردي القاعدة والأطراف الأخرى التي جاءت لتستغل الوضع وتدمر الجيوش الغازية.[1] ولكن بوش لم يعد يستحق احترام العديد ممن انتخبوه في 2004م وتهاوت شعبيته، بينما كان الديمقراطيون وبحصولهم على الأغلبية في غرفتي الكونغرس، يحاولون التأثير على القاعدة الانتخابية في مسألة إقرار جدول زمني للانسحاب من العراق. ومع حلول خريف 2007م كانت هناك بعض مؤشرات التحسن في بغداد، وبظهور تقلص طفيف في عدد إصابات الجنود الأميركيين. كما بدأ الرأي العام يميل إلى انسحاب بطيء، وبدأت المسألة في حد ذاتها تفقد اهتمام الناخبين. فالجنرال بترايوس كان يستحق الدعم طالما كانت هناك فرصة للعراقيين للتعاون واستعادة النظام وإعادة بناء بلدهم.

في غضون ذلك، وبالنسبة إلى بلير، لم يكن بالإمكان تفادي لعنة العقوبة (نيمسيس) المتمثلة بالهزيمة المستحقة في2007م. لقد رحل الرجل الذي وصل للسلطة عام 1997م بأغلبية ساحقة (179مقعدًا) بعد أن خيَّب آمال حزبه في أيار/ مايو 2007م في الانتخابات

(1) Roger Cohen, «Why Iraq's resistance differs from insurgency», **International Herald Tribune**, 14 _ 15 January 2006.

الوطنية في سكوتلاند وبلاد الغال، وفي الانتخابات المحلية في إنكلترا. فبينما تدور الانتخابات النصفية في المملكة المتحدة، كان الوداع الطويل لبلير الباحث عن إرث مجيد يدمر كل شيء. لم يبدأ أي رئيس وزراء بريطاني من قبل مسيرته بمثل هذه الجودة، وينهيها بمثل هذا السوء. لقد تنحَّى بلير وبصفة نهائية في 27 حزيران/ يونيو 2007م وتمتع خلفه غوردون براون بشهر عسل رائع، حيث كان ينوي الدعوة لانتخابات مبكرة في شهر أيلول/ سبتمبر. فالبلاد بدت أكثر جاهزية «للتقدم» في المسألة العراقية، وهو الأمر الذي لم يكن الناخبون مستعدين لفعله تحت إمرة إدارة بلير، فسُحب الجنود البريطانيون من مدينة البصرة. وقد دعَّم براون الانتخابات عندما كانت استطلاعات الرأي ترجح كفة المحافظين. ومع ذلك بدأت مسألة العراق تفقد وزنها الانتخابي في بريطانيا، كما في الولايات المتحدة. ومع نهاية عام 2007م كانت محافظة البصرة تحت السيطرة العراقية.

لماذا كان بوش وبلير عرضة لأعراض الغطرسة؟

في كتابه حول العراق بعنوان: «الغطرسة الإمبريالية» لمايكل شوير، صرَّح الرئيس السابق للوحدة المكلفة بملف ابن لادن في وكالة الاستخبارات المركزية قائلًا: «ليس الغرور هو أسوأ ما في أميركا أثناء تحملها عبء قضية الديمقراطية. لقد سقط ذلك الشرف في خانة الغطرسة المترافقة مع الجهل»[1]. فحتى الصحفي فيليب ستيفينس، وهو أحد أكبر الداعمين لبلير، كتب مقالًا في جريدة: «الفاينَنشال» تايمز في 14 تموز/ يوليو 2006 بعنوان: «الغطرسة هي الخيط الرابط بين الكثير من المصاعب التي مرَّ بها بلير». وبحكم تجربتي الشخصية مع بلير، بدأت غطرسته تتطور في عام 1999م أثناء أزمة كوسوفو، وتدعَّمت مع السيراليون وأثناء الانتخابات العامة في 2001م وإلى حدود 11 أيلول/ سبتمبر. بينما تطورت أعراض الغطرسة بالنسبة إلى جورج بوش بسرعة بعد 11 أيلول/ سبتمبر. فعندما كان يسرع إلى مكتبه كان يبدو أكثر تواضعًا في وصف سياسته الخارجية، وقد أعطى الانطباع أنه كان يميل إلى سياسة النأي بالنفس أكثر من سياسة التدخل.

وهذا يقودنا إلى سؤال: لماذا تنشأ الغطرسة عند بعض القادة دون غيرهم؟ أعتقد أن الجواب يكمن في كل من الظروف الخارجية الخاصة والشخصية الكامنة في كل فرد. وفي حالة بوش وبلير يبدو أن كلا العاملين موجود.

(1) Michael Scheuer, **Imperial Hubris: Why the West Is Losing the War on Terror** (Washington DC: Potomac, 2005), p. 203.

أما باعتبار العوامل الخارجية، كان عالم الاجتماع دانيال بال قد طرح أن الغطرسة حالة زمنية. «الغطرسة الحديثة هي رفض الإقرار بالحدود، والإصرار على الوصول باستمرار. ويطرح العالم المعاصر مصيرًا هو دائمًا ما ورائي: ما وراء الأخلاق، ما وراء المأساة، ما وراء الثقافة»[1]. إن كانت هذه روح العصر المهيمنة فمن الصعب على قائد ما أن يقاومها، ولكني أعتقد أن التعميم الذي قام به دانيال بال يتطابق مع حالة الولايات المتحدة أكثر من بريطانيا. ومن المؤكد أن الما ورائي كان ولا يزال يحظى بجاذبية لدى الأميركيين بالعودة إلى الأوقات التي كانت فيها الحدود الأميركية تدفع باستمرار نحو غرب القارة. فحالما اكتمل التوسع المجالي لأميركا، أصبحت الحدود فضاء خارجيًا ما ورائيًا جديدًا للاستكشاف. والقضية الكبرى هي أن عقلية القدرة على الفعل هي شيء ينبغي تمجيده لا نقده، وهو أمر محوري بالنسبة إلى الثقافة الأميركية وخاصة الشعبية منها. فرغبة التفكير البطولي في ركوب عالم الشرور والجاهزية لاستعمال أي نوع من الذخيرة يمكن أن يكون ضروريًا لفعل ذلك، هو المسمار المزدوج السن في أفلام هوليوود ومعظم القنوات التلفزيونية. كما أن عبادة أميركا للفتوة تلعب أيضًا دورًا في هذا النموذج. وقد انطلقت المشاكل عندما تحول هذا الحماس إلى غطرسة.

وبوصفها مستوردة للثقافة الأميركية، فقد تقبلت بريطانيا بعضًا منها، ولكنها ربما تمتلك القوة الأقل حضورًا منها في الولايات المتحدة. فالثقافة البريطانية أقدم وأكثر ارتباطًا بأوروبا، وطموحاتها الإمبريالية هي شيء من الماضي. وربما يكون العامل الأكثر ارتباطًا بتغذية الميل إلى الغطرسة هو الاعتقاد المبطن في كلا البلدين، أن كلًا منهما كان ولا يزال هو القوة الخيرة في هذا العالم. وكون هذا ربما يكون صحيحًا لعدة اعتبارات، هو الأقرب إلى تقوية تأثيرها في تشجيع إمكانية أن يصبح قائدًا متغطرسًا محتملًا صليبيًا في عالم بائس.

بالنسبة إلى الولايات المتحدة، خلّفت نهاية الحرب الباردة بلا شك ظرفًا مواتيًا لتشجيع غطرسة قادتها، ذلك أنها برزت كقوة عظمى وحيدة. ففي غياب قوة مضادة لمعارضتها، تُركت الولايات المتحدة في حالة انخداع متهور بأنها كانت «الدولة التي لا غنى عنها» وبأن من واجبها الآن السيطرة على العالم. وقد وجد هذا التعبير معنى له في استراتيجية بوش

---

(1) Daniel Bell, **The Cultural Contradictions of Capitalism**, 20th anniversary ed. (New York: Basic, 1996), pp. 48 - 49.

الجديدة للأمن القومي والتي أطلقها سنة 2002م، والتي تحتفظ بموجبها الولايات المتحدة بحق اتخاذ الإجراءات الوقائية كلما بدا ذلك مجديًا، وردع «الخصوم المحتملين عن مواصلة بناء قوة عسكرية تهدف إلى تجاوز أو معادلة قوة الولايات المتحدة». وقد وضَّح ذلك في وقت سابق آل غور، وهو خصمه الذي خسر الانتخابات الرئاسية لسنة 2000م وبفارق ضئيل، قائلًا:

يؤكّد الرئيس بوش الآن أنه سوف تُتخذ إجراءات وقائيّة حتى لو كان التهديد الذي نتوقّعه ليس وشيكًا... هناك جزء غير مُعلن في هذا المذهب الجديد، يبدو من خلاله أنّنا نعطي الحق لأنفسنا، وفقط لأنفسنا... هذا المذهب هو بمثابة تدمير لهدف العالم المتمثّل في أن كل الدول تعتبر نفسها خاضعة وماثلة للقانون، لاسيما في كيفية تحديد معايير استخدام العنف ضدّ بعضهم البعض. هذا المصطلح سوف يُستبدل بمفهوم يستبعد وجود القانون، ويؤكّد وجود سلطة تقديرية لرئيس الولايات المتحدة[1].

كان الموقف الاستراَتيجي لبريطانيا في العالم، وفي الفترة الموالية للحرب الباردة وبشكل واضح أضعف بكثيـر من موقف أميركا، وحتى أقل احتمالًا لتشجيع الغطرسة الكامنة في زعمائها. ومع ذلك ترك تاريخها لبريطانيا دورًا عالميًّا كبيرًا وميلًا إلى الرغبة في العمل بشكل وثيق مع الولايات المتحدة، التي تسهل لها مواقف الغطرسة كما اعتبرنا ذلك «يفوق طاقة تحملنا». استخدمت أيضًا عبارة: «العلاقة الخاصة» لبعض السنين وعلى نحو متكلّف لتعزيز الإحساس بالخداع النفسي بأهميّة بريطانيا مقارنة بالأمم الأخرى، ومما لا شك فيه أن كلًّا من التاريخ واللغة المشترك للبلدين يضمن الاختلاف بين العلاقة الخاصة التي كانت قد جمعت الرؤساء الأميركيين برؤساء الوزراء البريطانيين عن باقي العلاقات التي تربط سائر زعماء الحكومة. فالأثر النهائي يتمثّل في جعل رئيس الوزراء البريطاني محاصر وسط زخم السياسة الخارجية الأميركية، وبما أنه شخص متغطرس سوف ينتشر هذا عبر المحيط الأطلسي.وقد كانت السياسات تجاه روسيا وإسرائيل أمثلة لهذه العلاقة المتينة.

أما فيما يتعلق بسمات أية شخصية قد تعطف برئيس الحكومة إلى الغطرسة، فقد برز

(1) Al Gore, **speech at the Commonwealth Club of California**, San Francisco, 23 September 2002.

عديد منها على بلير. فقد كان أولًا وكما أوضح جميع المؤرِّخين أن شغفه القديم كان التمثيل وليس السياسة، فقد كان في كل من المدرسة وجامعة أوكسفورد شديد الاهتمام بالمسرح، يؤدي دور ممثل أو عضو في فرقة لموسيقى الرّوك. كما كان من الواضح أن بلير لم يكن منجذبًا إلى السياسة من خلال الاعتقاد الأديولوجي، ففي المدرسة كان من المحافظين وقد عانى دائمًا للتعبير عن فلسفة سياسية تجعل له جذورًا في حزب العمال. لكن السياسة بعد ذلك منحته مسرحًا كبيرًا ليؤدي عليه. فتألّق بلير وباتت حدود نطاق ممارساته التمثيل كسياسي ملاحظة. فالساسة ولا سيما عندما لا يكونون مهتمين بأدقِّ التفاصيل يكونون عرضة للنرجسيّة، ولكن متصنِّعو السياسة يميلون إلى أن يكونوا حتمًا نرجسيين، وغالبًا ما تميل رؤيتهم السياسية إلى جعل أنفسهم مركز كل شيء، وجعل كل الأضواء مسلَّطة عليهم. فبلير يفضِّل أن يحصل على المعلومات على ورقة واحدة أو على الأغلب ورقتين، لأنّه في غالب الأوقات لا يقوم بقراءة المواد الأساسيّة. فليس من الغريب أن يصبح العرض والزيادة والنقصان بالشيء المهم عند السياسيين من ذلك النوع. لكن مثل هذه النرجسية لدى متصنعي السياسة تجعل من الصعب مقاومة دور البطل، وبالتالي تصبح كل العوامل متوفرة لترويج الغطرسة.

أمّا الميزة الثانية التي يتمتَّع بها بلير وتتعلَّق برؤيته لنفسه، فهو لطالما يعتبر نفسه شخصًا جيدًا. ناقش الصحفي والكاتب جيفري ويتكروفت[1] ذلك قائلاً: بأن قوّة بلير تكمن في أنه كان «أنتينوميا معاصرًا» latter–day antinomian. وهو وصف كان يطلق على الزنادقة في القرن السادس عشر، أولئك الذين يعتقدون أن: « النقي التقي يرى كل شيء حوله نقيًا»، بمعنى أن كل ما يقومون بفعله هو في الأصل نقي. فأي شخص يعتقد أنهم لا يتصرّفون عن سوء نيّة يفتقر إلى السيطرة على السلوك ويَهَابُهم. وهم يعتقدون خاصة أنهم لا يجيدون الكذب، وبالتالي أصبح تضليل الحقيقة عندهم عادة. ولذا أصبح الطريق نحو الغطرسة واضحًا، فعندما يعتقد أحدهم أنه بلا شك جيد السلوك دائمًا، يظهر هذا الارتباط بالغطرسة بوضوح، كما أن هذا الشعور يزيل العوائق أمام التصرف بغطرسة. ففي عام 2003م تفاخر بلير بنفسه وبكبرياء عن: «تخلصه من الطغاة الأربعة في كوسوفو وسيراليون وأفغانستان

(1) Geoffrey Wheatcroft, «The tragedy of Tony Blair», **Atlantic Monthly**, June 2004.

والعراق»[1] على حدِّ تعبيره. ولكن في حقيقة الأمر قامت قوات حلف شمال الأطلسي بتعزيز العملية بالديبلوماسية الروسية في كوسوفو عام 1999م، بينما أنه وفي عام 2000م حقق بلير نجاحًا شخصيًا مع بريطانيا في سيراليون مبقيًا السيطرة على قواته أثناء عمله عن كثب مع قوات الأمم المتحدة. أما في أفغانستان وفي عام 2001م فكانت في البداية عملية لوكالة الاستخبارات المركزية بمساندة القوات الأميركية الخاصة، أما في العراق فقد كانت هيمنة أميركية، على الرغم من أن بريطانيا هي الشريك الأكبر في الائتلاف، إلّا أن بلير لم يواجه بوش، فقبل أن يتكلم بحدِّية كان دائم التراجع. فالبعض رأى أن علاقة بلير مع بوش أقوى من علاقته بـكولن باول. لكن صرَّح كاتب سيرة بلير الذاتية المتعاطف أنتوني سيلدون قائلًا:

أرى أنه من المفاجئ جدًا أن بلير كان سيدعم الرئيس دائمًا، لم أستطع إطلاقًا أن أفهم سر تجانس علاقة بلير ببوش. أظن أن البريطانيين لم يتأثروا بحادثة الحادي عشر من سبتمبر. إذن ما الذي يدعو بلير لأنْ يرى بأن صدام يشكل تهديدًا لهم؟ قد يعرب بلير عن مخاوفه، إلا أنه لن يعرض نفسه للمخاطر. لطالما وجدناه أنا وجاك [سترو] متَّقدًا حول أمرٍ ما، حيث يكون حينها مستعدًا ومندفعًا ليقول:«ألق نظرة يا جورج». لكن حالما يقابل الرئيس، تجده يفقد حماسته[2].

يمكن اعتبار ذلك كنقطة ضعف، ولكن الأرجح أنه يمثِّل الحماس التبشيري لشخصين ملتزمين معًا بمشروع يتجاوز أهمية كل واحد منهما، ويبعدهما عن تعقيداته.

كما يمكننا ربط ذلك بطبيعة الاعتقاد الديني لبلير وعلاقته بالإله. فبلير شخص متشبِّع بالمسيحيّة وإيمانه الأنغلوكاثوليكي هو الأهم والأعمق بالنسبة له. إلا أنه يميل دائمًا إلى التقليل منها عَلَنًا، إذ أن السياسي المتلاعب بدينه في بريطانيا ليس لديه رصيد انتخابي كما هو الحال أحيانًا في الولايات المتحدة. لكن بلير قام في حوار تلفزيوني بُثَّ في 4 آذار/ مارس 2006م بالتخلّي عن تحفظاته في الحديث عن دينه، ربما لأنه كان يدرك أنه ملتزم بالاستقالة من مجلس الوزراء قبل انتخابات عامة أخرى، حيث قال وفيما يتعلّق بالعراق: «إذا كان لديك إيمان بهذه الأشياء ثم أدركت أن حُكمًا أُطلق بواسطة أشخاص آخرين، لكن إذا كنت تؤمن بالله فكن متأكّدًا بأنّ ذلك حصل أيضًا بمشيئة الله». ممّا يعني أن المُسَائَلَة هي

(1) Tony Blair speaking to Steve Richards, chief political commentator for the **Independent** and presenter of GMTV's **Sunday Programme**, October 2003.

(2) Seldon, **Blair Unbound**, p. 102.

الشيء المهم حقًّا بالنسبة لبلير، ولكن ليس أمام جمهور الناخبين ولكن أمام الله، ومع ذلك وإن كان بالفعل مقتنعًا بطيبته، فتلك المُسَائلة لن تكون قيدًا كما يعتقد المؤمن الواعي بقدرته على الخطيئة. وبذلك أصبح الإيمان بالله حافزًا للغطرسة وليس قيدًا عليها.

أمّا حالة الإدمان عند بوش فيمكن مناقشتها فيما بعد، ولكن شخصيته الدينية هي الأكثر أهمية. فقد ولدت في داخله مرة أخرى مبادئ المسيحية على إثر اجتماع جمعه بالمبشّر بيلي غراهام في عام 1986م في إطار إجازة في المنزل العائلي في ولاية ماين في الوقت الذي كان فيه والده نائب رئيس. فقد كتب في كتابه: «التغيير للحفاظ عليه» كيف أن ذلك أثار في قلبه تغييرًا على مدى عطلة نهاية الأسبوع قائلًا: «زرع الكاهن غراهام بذرة خردل في روحي، البذرة التي نمت في العام القادم، فقد قادني إلى المسار الصحيح وبدأت في السَّير وكانت تلك بداية التغيير في حياتي». فبوش يرى أن الله ليس القوة التي تحافظ عليه، بل القوة التي تحفِّزه. ولم يكن بالمفاجأة عندما اختار كاتب مسرحي تسليط الضوء على آراء بوش كما كانت، وقبل أن يصبح رئيسًا فكتب: «إنني أشعر كما لو أن الله يريدني أن أترشّح للرئاسة، لا أستطيع شرح ذلك، لكنني أشعر بأنّ بلدي في حاجة لي، فشيء ما سيحدث وستكون بلدي بأمس الحاجة لي في ذلك الوقت»[1]. وليس عندي شك أن أحداث 11/ 9 هي ذلك «الشيء» بالنسبة لبوش. كما قال أيضًا في إحدى المرّات لوزير الخارجية الفلسطيني السّابق: «أنا مدفوع بمهمّة من الله، فقد خاطبني قائلًا: «اِذهب يا جورج وحارب أولئك الإرهابيين في أفغانستان»، وقد قمت بذلك. كما أخبرني قائلًا: «اِذهب لتضع حدًّا للطغيان في العراق «وها قد فعلت ذلك»[2].

سجَّل كاتب السيرة الذاتية جيفري بيريت، والذي كتب سير عديد من الرّؤساء من بينهم يوليسيس غرانت وإبراهام لينكولن، ودوايت أيزنهاور: «هذه هي لغة عدم توفُّر قائد أعلى للقوات المسلحة آخر في التاريخ الأميركي»[3]، فمن جيمس مادسون وصولاً إلى جورج وبوش حيث أصدر الرؤساء الأميركيون 322 «بيانًا موقعًا» لضمان السلطة الرئاسية،

(1) Hare, **Stuff Happens**, p. 10.

(2) Norma Percy, «An almighty splash», **Guardian**, 24 October 2005.

(3) Geoffrey Perret, **Commander-in-Chief How Truman, Johnson, and Bush Turned a Presidential Power into a Threat to America's Future** (New York: Farrar, Straus & Giroux, 2007), pp. 375, 392.

والامتيازات بمعدّل ثمانية لكل رئيس. فيقين بوش بأنّ رئاسته هي من إخراج سلطة عُليا، يعني أنه قدَّم خلال سنواته الستة الأولى في الحكم (800) تصريح يدافع فيه عن إيمانه بمذهب السلطة التنفيذية الوحدوية، وبالمطالبة بالقيادة في حالات الطوارئ بموجب مرسوم.

فالله في عالم بوش وبلير هو وحده القوة التي تحرك البطل ليتحدى الواقع: فالغطرسة ليست شيئًا يدعو إلى القلق، ولعنة العقوبة (نيمسيس) ليست أكثر من سوء الحظ الذي يواجه كل الأبطال في بعض مراحل حملتهم الصليبية من خلال وداع الدموع هذا. ويعتقدون بأنهم سوف يجازون في الجنة. فالمؤرخ الأميركي كيفن فيليبس الذي فهم حزب بوش الجمهوري كتب: «بعض الأسئلة في القرن الواحد والعشرين للولايات المتحدة الأميركية سوف تكون أكثر أهمية مما إذا كان الدين الناشئ والغطرسة السياسية المصاحبة له، ممّا سيجعل كتب الوطن تتحدّث عن ذلك كأصل أو مسؤولية».[1]

الرعاية الطبية

ضلَّل كل من بوش وبلير الجمهور حول حالتيهما الصحية. ففي ظاهر الأمر بدا كل منهما في صحة جيدة. لكنّنا لا يمكننا الجزم حول ما إذا كانا تناولا أية أدوية أو خضعا لأي علاج أثناء فترة حكمهما. وبالتالي لا يمكن أن نتأكّد بأن الدّواء أو العلاج سبب في ملازمة الغطرسة. كما لم يكن لأيٍّ منهما تاريخ يدل على معاناة أحدهم من اضطراب ثنائي القطب. إذًا فإن كانا يشكيان من متلازمة الغطرسة، فمن المحتمل أن يكون ذلك في شكلها المجرَّد، ثم تتجلّى أثناء الأداء السياسي. لقد تم تناول حالتهما الصحية في وقت سابق، ولكن الأمر يحتاج الآن إلى دراسة مفصّلة لمعرفة ما إذا كانت هناك أسباب يمكن أن توضح، لماذا نمت عندهم متلازمة الغطرسة؟.

حالة بلير الصحية

في يوم الأحد 19 تشرين الأول/ أكتوبر2003م سُرِّب إلى الصحافة خبر زيارة بلير لمستشفى ستوك ماندفيل القريب من بلدته الرسمية في تشاكرز. لم يُؤكَّد هذا الخبر رسميًّا

(1) Kevin Phillips, **American Theocracy: The Perils and Politics of Radical Religion, Oil, and Borrowed Money in the 21st Century** (New York: Viking Penguin, 2006), p. 99.

إلا في وقت لاحق وعبر داونينغ ستريت، ونُقل بلير إلى غرب هامر سميث بلندن ليتلقى العلاج حين زُعم بوجود ارتفاع اعتيادي في نمط دقات قلبه. وفي الليلة الأخيرة من عودة بلير إلى داونينغ ستريت صُرِّح بأنه لم يعان من قبل من أي مشاكل في القلب، لكن في المستشفى أُعلن أنه خضع للعلاج من صدمة قلبيّة قويّة، أو لتقويم نظام القلب. وقد كان يشار إليها: «بعدم انتظام دقات القلب فوق البطيني» وهو مصطلح كان غير واضح في هذه الحالة. فقد كان ذلك يعني من المفترض إمّا أن عدم انتظام دقات القلب غير خطير (اختلال في دقات القلب) أو أحد أمراض دقات القلب غير المنتظمة الخطيرة، مثل الرجفان الأذيني أوالرفرفة الأذينية، وهو ما يحدث عندما يكون عدم انتظام دقات القلب له جذوره فوق البطينين.

تفاجأ بعض أطباء القلب باكتشافهم لمعاناة رئيس الوزراء من عدم انتظام دقات القلب فوق البطيني، وشعروا بأن حالته الحقيقية من الأرجح أن تكون رفرفة في الأذين. كما كانت هناك شكوك حول ما إذا كان هناك شيء أكثر جدية حول حالة بلير الصحية، الشيء الذي عززه كلينتون بقوله: «عندما بلغني ما حصل، اِتّصلت لأطمئنّ. تجاذبنا أطراف الحديث وكان يبدو على ما يرام... علمت بهذا منذ فترة طويلة. لقد أخبرني عن ذلك منذ بضع سنوات خلت»[1]. ولاحقًا في شريط وثائقي قامت محررة الصنداي ميرور، تينا ويفر، بوصف «تواجدها في مطعم في برشلونة، بعد عدة أيام من الأزمة القلبية التي تعرَّض لها رئيس الوزراء في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي» عندما قدم كلينتون قائلة:

> **أخبرته من أكون، وسألته ما إذا كان رئيس الوزراء يعاني من أزمة قلبية. فأجابني بكل أريحية وقال: نعم، إنه يعاني من ذلك، وأكَّد على تواصله معه. وقد مضى في حديثه بعد ذلك مؤكِّدًا بأنّه لم يتفاجأ بما حصل حيث إن رئيس الوزراء نفسه أكَّد له إنه كان يعاني من هذا المرض منذ بعض السنين، بالإضافة إلى عدم القدرة على النوم، واستهلاك الكثير من الكافيين[2].**

وفي 27 من تشرين الأول/ أكتوبر صدر بيان عن داونينغ ستريت يناقش ما أدلى به كلينتون: «رئيس الوزراء لا يعاني، ولم يعان أبدًا من أي أزمة قلبيّة، ولم تكن له هذه الشكوى

(1) James Saville and Dan Evans, «Blair kept his heart problem a secret for 5 years», **Sunday Mirror**, 26 October 2003.

(2) Paul Waugh, «Clinton reveals Blair heart scare details», **Independent**, 26 February 2004.

من قبل»[1]. وبذلك تعارض خطاب كلينتون مع ما قاله بلير على موجات راديو «بي. بي. سي.2». فعندما سُئل عن مدى صحة ما صرح به كلينتون، ردَّ قائلًا: «لا، وهذه هي المرّة الأولى التي أتعرّض فيها لمثل هذا، وقيل لي أن ما حصل أمر طبيعي والتعامل معه يحتاج لعلاج بسيط»[2]. نعلم الآن ومن خلال السيرة الذاتية لأحد كبار الوزراء في الحكومة/ وهو ديفيد بلانكات، بأن توني وبعد يومين من العلاج «أخبرني عندما تحدثت إليه هاتفيًّا أنه كان يعاني من هذا المرض ولمدّة 14 سنة، ولكن هذه المرة وجب عليه الدخول إلى المستشفى وهذا ما أصبح حقيقة للعامة»[3].

وفي 4 تشرين الثاني/ نوفمبر تحدثت إلى بلير في حفل استقبال دبلوماسي، فلاحظت خلاله أنه شديد القلق، كما ظهرت على وجهه علامات التقدُّم في السن، وتغيَّرت كل قسمات وجهه، كما بدا أنه فقد وزنه. ومنذ ذلك الحين أتساءل ما إذا كان خالة قلبه نتيجة فرط النشاط في الغدة الدرقية، مما سيفسر فقدان وزنه، لكن لا وجود لدليل على أنه شُخِّص بالتسمم الدرقي.

في كانون الأول/ ديسمبر 2003م كانت هناك تقارير طبية للطبيب المختص الذي هرع إلى داونينغ ستريت على دراجته النارية لمعالجة بلير بعد آلام حادّة، راودته على مستوى المعدة. فأثار، الأمر التكهنات على ألسنة الصحافة بأن ما أدَّى إلى إعلان حالة الطوارئ هذه هو الاشتباه في إصابة الزائدة الدودية. ولكن عند الكثير من خبراء القلب كان هناك ما يدعو حقًّا للقلق الشديد، احتمال لتجلُّط الدم في أذيني القلب، الأمر الذي قد يتسبَّب في قطع امدادات الأوكسيجين، وهو أمر ولحسن الحظ غير مألوف، وهذا ما سوف يسبِّب آلام باطنيّة حادَّة. ولحسن الحظ ثبت أن كل ذلك كان بمثابة الإنذار الكاذب.

فالاشتباه في أن بلير كان يغطي معاناة قلبه الطويلة، ارتفع أيضًا عندما كتب صحفي يعمل في سرية وكخادم في قصر باكنغهام في صحيفة الديلي ميرور في 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 2003م أن الملكة طلبت من الصحيفة أن تؤخِّر العشاء، إلى أن تأكدت أن علاج رئيس الوزراء كان ناجحًا. فقد زعم أنها قالت للصحيفة: «قال لي إن صحته تعكرت بنفس الشكل كما

---

(1) Peter Oborne, **The Rise of Political Lying** (London: Free Press, 2005), p. 97.

(2) Waugh, **Clinton reveals Blair heart scare details**.

(3) David Blunkett, **The Blunkett Tapes**: My Life in the Bear Pit (London: Bloomsbury, 2006), p. 550.

حصل له ذلك في الماضي». وهذا ما دعَّم كلام كلينتون. وقد ردَّ داونينغ ستريت على ذلك قائلًا: «لم يحصل أبدًا لرئيس الوزراء أي أزمات قلبيّة»[1]. لكن كتابًا واحدًا ادَّعى حدوث ذلك في حلقة سابقة عام1997م [2] وهذا ما قد يكون نابعًا عن تقرير لصحيفة: «الغارديان» في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 2003م بأن « مصدرًا جيدًا من دائرة سيدجفيلد التي ينتمي إليها رئيس الوزراء، يؤكد بأن زعيم حزب العمّال عانى خفقانًا في القلب أو حالة مماثلة قبل انتخابات عام 1997م، حيث سعى إلى العلاج الطبي في شمال شرق إنكلترا، عندما كان حزب العمال لا يزال في المعارضة، على الرغم من أنه اعتقد أن المشكلة ليست بالخطيرة».

أعلن في 1 تشرين الأول/ أكتوبر 2004م وعلى نحو مفاجئ، أن بلير عاد إلى مستشفى هامر سميث لإجراء قسطرة. شخَّص طبيب بلير الحالة ووصفها «بعدم انتظام دقَّات القلب» غير أن المستشفى أطلق على ذلك اسم الرفرفة الأذينية. كما أن الاحتمال بأن الاستئصال والذي ينطوي على حرق ترددات الراديو في جزء من القلب، قد كُلل بالنجاح.

كانت هناك تكهنات على مر السنين بأنّ بلير كان يتناول أدوية «حصر البيتا» لعدم انتظام دقَّات قلبه[3]. فسألت عالمًا من ذوي الخبرة الطويلة في هذه العقاقير عمّا إذا كان عرف أي من الآثار الجانبية الطويلة المدى، والتي يمكن أن تجعل بلير عرضة للغطرسة، وبالتالي آلية التنبيه الطبيعية في الجسم إلى الإجهاد والضغط الذي وقع كتمانه داخليًّا؟. فأخبرني بأنه كان قد تلقَّى طلبًا مماثلًا من مكتب الخارجية عن حالة صدام حسين! فجوابه كان: أنه لم يستطع

(1) **Evening Standard**, 20 November 2003. See also 3.45 p.m. lobby briefing by Prime Minister's official spokesman on the same day.

(2) Scott, **Tony & Cherie**, p. 219.

(3) شاع استخدام العَامِل المُحْصِر للأدرينيَّاتِ بيتا كعلاج طبي، وخصوصًا للأمراض التي تصيب القلب، وتحديدًا لأمراض دقات القلب غير المنتظمة، مثل اضطرابات النظم، والخفقان. وبالنظر إلى استخدام محصِّرات بيتا، فإنها أثبتت فاعليتها في تخفيف التوتر والخفقان قبل الأداء المسرحي والفني، وكذلك في المجالات الرياضية. وقد تتجاوز بعض محصِّرات بيتا، مثل الأتينولول، حاجز الدم في الدماغ لتصل إلى النظام العصبي المركزي (CNS) ويعطي ذلك نتائج إيجابية كالتخلص من الفوبيا الاجتماعية. (J. M. Gorman et al., «Treatment of social phobia with atenolol», **Journal of Clinical Psychopharmacology** (1985), vol. 5, pp. 669-77. M. R. Liebowitz et al., Phenelzine vs Atenolol in Social Phobia: A Placebo-Controlled Comparison', **Archives of General Psychiatry** (1992), vol. 49, pp. 290-300) غير أن الدراسات التالية أظهرت بأن تأثيره ضئيل. وتظل مدى فاعلية استخدام محصّرات بيتا لفترة طويلة موضوعًا شائكًا، وما إذا كان ذا تأثير على أولئك الذين تحاصرهم الضغوطات، وما قد تظهر عليهم من أعراض لا إرادية، وعلامات تدل على التوتر والقلق. يستطيع معظم الناس أثناء توترهم أن يدركوا العلامات التي تبدي توترهم، وبذلك فهم يحاولون السيطرة على الأمر لتخفيف التوتر وعلاماته، إلا إنه لا يوجد دراسة تثبت تلك الظاهرة.

إيجاد شخص كان قد أجرى دراسات على الآثار السيكولوجية الطويلة الأمد لـ «حاصرات بيتا» ولا حتى لآثارهم السيكولوجية الحادة، لكن كانت هناك الكثير من الحكايات. أحد حكاياته المفضلة هي عن عازف بيانو محترف والذي أخبره كيف أن أدائه كان غير متزن حسيًّا قبل وبعد الفترة الفاصلة في الفترة التي سبقت تناول «حاصرات بيتا». فقبل تناول «حاصرات بيتا» كان يؤدي النصف الأول بشيء من الغرام، لدرجة أنه وبحلول الفترة الفاصلة كان حسيًّا متعبًا. فالانتقال إلى الشوط الثاني بعد حمام خاطف وتغيير الملابس بسرعة يجعله يشعر بانبساط حسي. إلا إنه وبعد تناول «حاصرات بيتا» بروبرانول وجد نفسه قادرًا على أداء الشوط الأول بتحكم ذهني أفضل، ولم يعد يشعر بأنه مستنزف حسيًّا وهو ما يمنحه شوطًا ثانيًا مُرضيًا أكثر، وكانت النتيجة أداء أكثر اتِّزانًا ذهنيًا. إلا أنه لم يكن متأكدًا من أي التجربتين يفضِّل، أو ما إذا كان الجمهور قد لاحظ!.

وقد كتب لي أحد الأطباء معلِّقا عن التداوي الذي يمكن أن يكون بلير قد خضع له والذي كان قد شاهده على شاشة التلفاز ولمدة سنوات. فكان قد لاحظ أن خط شعره المتراجع كان قد انتقل إلى الأمام، وبعد أن أعلن خضوعه للعلاج لعدم انتظام دقات القلب، كان قد تراجع إلى الخلف مرة أخرى. وقد تعجب الطبيب من إمكانية أن يكون بلير قد تناول «ريجين» لنمو الشعر والذي سجَّل أن له أثرًا جانبيًّا مسببًا عدم انتظام دقات القلب. وافترض أنه عندما لاحظ الأطباء أنه كان يتعاطى «ريجين» أخبروه بالتوقف عن استعماله. ومهما كانت الحقيقة أو الاحتمال فإن تلك هي شخصية بلير وليس حالة قلبه، التي ساهمت في تطور متلازمة الغطرسة لديه.

لقد أصبح أكثر وضوحًا من أي وقت مضى أن بلير تستر عن الطبيعة الحقيقية لمرضه وضلَّل الناخبين عن مدى خطورته. لقد عنون أحد الصحفيين المحققين ذلك بكلمة، «خداع»[1]. فبلير لم يكن أول، وبالتأكيد لن يكون آخر رئيس حكومة يفعل ذلك. غير أن متلازمة الغطرسة كانت رمزًا، ومتوافقة لفترة ولايته في داونينغ ستريت، والتي شرع فيها مسار خداعه.

صحة بوش

أثناء آخر أسبوع من حملة جورج دابليو بوش، كشفت الصحافة أنه كان قد أُوقف لقيادته سيارة وهو تحت تأثير الكحول في سن الثلاثين. وفي حال سُربت هذه القصة، فقد وضعت

(1) Oborne, Rise of Political Lying, pp. 276 - 277.

منذ 1999م محل إحاطة إعلامية مجهولة الهوية، بأن الشاب المرشح كان مغرمًا بالكحول وقد قُدِّم هذا على أنه مرحلة عابرة. فالآن أصبح من الثابت أن فترة بوش كانت أكثر بكثير من مجرد سكِّير وقتي؛ لقد كان مدمنًا على الكحول. فالإدمان على الكحول هو حالة أنه بمجرد ما تتجلى فهي تتطلب يقظة دائمة، لضمان عدم إساءة استعمال الكحول في سرية تامة، ويصاحب ذلك إنكار المريض.

يزعم بوش أنه لم يتناول الكحول منذ 1987م لكن على العكس من ذلك كانت ثمة شائعات في الصحافة عن ذلك. ففي 13 كانون الثاني/ يناير 2002م فقد الوعي بينما كان جالسًا على أريكة في البيت الأبيض يشاهد مباراة كرة قدم. فارتطم رأسه بالقاعة وهو ما نتج عنه تآكل على مستوى عظمة الخد. وأُرجعت الحادثة إلى توفر عاملين وهما: عدم إحساسه بالراحة الجيدة في الأيام السابقة، وتناوله «البريتزل» على نحو سيء. اتصل بي طبيب بريطاني كان قد زار جامعة جونز هوبكنز، وعند التحدُّث إلى مجموعة من الأطباء الشبان، أخبر بأنه على الرغم من أن الرئيس كان قد نقل إلى مستشفى «ولتر ريد» إلا أن عينة من دمه نُقلت إلى مستشفى جونز هوبكنز، والتي أظهرت أن مستوى الكحول في الدم كان في حدود (200) ملغ. دُحضت كل هذه الشائعات من البيت الأبيض، كما لا توجد إشارات أخرى بأن بوش قد استأنف عادة الشرب.

يشيع اعتقاد بأن الشخصية تلعب دورًا هامًّا في الإدمان على تناول الكحول، رغم أنها تلعب اليوم دورًا أقل بعض الشيء من المساهمة في الإدمان. أصبح الآن من الواضح أن شخصية بعض الناس هي جزء لا يتجزأ من تأثيرهم وعاداتهم الإدمانية، إذا ما تجاوزوا إدمانهم[1]. فبوش لا يخفي سر حقيقة أنه لا يطالع كثيرًا، ويجهر بأنه غير مثقف، ولكن ذلك لا يعني ـ كما يدَّعي البعض ـ أن معدل ذكائه هزيل. فبينما كان طالبًا ينتمي للفئة «جيد» مما يعني أنه كان عليه أن يعتمد على روابط عائلته القوية، للوصول إلى جامعة يايل. فلقد تخرج من جامعة يايل للقانون، وجامعة هارفرد للأعمال، وهو أمر مستحيل أن يحدث دون قسط معقول من الذكاء. وبعض الذين يلتقون ببوش وجهًا لوجه يصرحون بلطف بأنهم تفاجؤوا بذكائه. فعديد نقاط الاستفهام تثار حول بوش وطبيعته الغافلة وغير المتصلة؛ وهي باختصار علامات بأن عقله يعمل بطريقة غير عادية. فنداؤه الانتخابي وخاصة فوزه في 2004م يعود

(1) Stanton Peele, «Personality and Alcoholism: Establishing the Link», in David A. Ward (ed.), **Alcoholism: Introduction to Theory and Treatment**, 3rd ed. (Dubuque, IA: Kendall/Hunt, 1990), pp. 147- 156.

فيه الفضل إلى صورته «كشخص عادي». فقد سُئل ذات مرة ما إذا كان يتحدث الفرنسية فقال: «لا، لا أستطيع. أنا بالكاد أستطيع أن أتحدث الإنكليزية». كما أن فكاهة بوش ساعدته في عرض البعض من زلاته، كما ساعدته في المحافظة على الدعم أثناء الانتخابات الرئاسية سنة 2004م.

كان أطباؤه ينشرون سجلات حالته الطبية ـ منذ أن أصبح رئيسًا ـ كل سنة، ولم يحدث بعض التأخير إلا مرة واحدة. كما كشفت هذه السجلات القليل من الاهتمام إلا عندما كان هناك انخفاض في معدل النبض. فبوش كان يعاني ولبعض السنوات من مشاكل نطق عديدة، وكثرة سوء استعمال الألفاظ، وهو ما جعله عرضة إلى جانب ذلك إلى أن يصبح موضوعًا للتهكمات. انكب الأطباء على فحصه لمعرفة ما إن كان يعاني من أي نوع من عسر القراءة لأنه راج أن شقيقه نايل يعاني من ذلك[1]. وكان هناك أيضًا تكهنات حول ما إذا كان بوش يعاني من اضطراب فرط الحركة ونقص الانتباه للكبار (ADHD)، وهو اضطراب مزمن يتميز بسلوك مفرط في النشاط، وانتباه قصير المدى، وضعف التركيز. اضطراب فرط الحركة ونقص الانتباه للكبار هو واحد من أربعة اضطرابات نفسية؛ بالإضافة إلى الاكتئاب، واضطراب ما بعد الصدمة، وانفصام الشخصية[2] والتي عادة مع تحدث بسبب اضطرابات تعاطي مواد بشكل مفرط، مثل الإدمان على الكحول[3].

كما أن كبار أطباء علم النفس وحسب إحدى المجلات الأميركية[4]، جادلوا ولبعض

(1) خلل القراءة (أو عسر القراءة) يتمثل في صعوبة في القراءة أو في تعلمها، ويسمى أحيانًا بـ «عمى الكلمات» ويصيب خلل القراءة ما بين 4 و8 بالمئة من الأطفال الأسوياء. ويشيع بين الأولاد أكثر بثلاث مرات منه بين البنات، وغالبًا ما يكون للمرض تاريخ في العائلة. ناقش الكاتب مارك كريسبين ميلر في كتابه: «بوش وخلل القراءة» بأن لغة بوش جديرة بالاهتمام، إذ يقول: «ليس بسبب الأخطاء الرسمية، بل لأجل لا عقلانيتها الجوهرية» ونقل عددًا من مقولات بوش؛ بعضها هزلي والآخر فاضح.

(2) Kathleen T. Brady and Rajita Sinha, Co-Occuring Mental and Substance Use Disorders: The Neurobiological Effects of Chronic Stress, **American Journal of Psychiatry** (2005), vol. 162, pp. 1483 - 1493.

(3) يشيع تشخيص فرط الحركة ونقص الانتباه (ADHD) بين الأطفال، بنسبة 10% في بعض الولايات، إلا أنه يتلاشى مع سن البلوغ. وتُعالج نوبات الأرق الحادة باستخدام ميثيل فنيدات (دواء منبه مركزي) (ريتالين) وهو علاج مشابه للإمفيتامين يؤدّي إلى تحفيز الدماغ لرفع مستوى التركيز. يصاحب فرط الحركة ونقص الانتباه صعوبات تعلم أخرى، مثل خلل القراءة. وقد يحدث بسبب سوء استهلاك المواد، كالإفراط في الكحول، لذا يعدُّ ذلك سبب رئيسيٌّ تُعزى إليه حالة بوش. وأظهرت الدراسات الجينية المتعلقة بفرط الحركة ونقص الانتباه، وصعوبات القراءة، باحتمالية تأثر آلية النُورأدرينيّ في الدماغ.

(4) John Heilemann, «What's going on in George Bush's mind? A psychopolitical survey», **New York Magazine**, 5 February 2007.

الوقت فكرة أن بوش يعاني من نوع كلاسيكي من اضطراب الشخصية النرجسية، وهو عبارة عن مجموعة أعراض سلوكية ـ نفسية معقدة جدًا. وقد قُبل تشخيص اضطراب الشخصية النرجسي من طرف الجمعية السيكولوجية الأميركية في وقت قريب يعود إلى سنة 1990م، وهو مرتبط بنموذج منتشر من العَظَمة (في الخيال أو السلوك)، الحاجة إلى الإعجاب والافتقار إلى التعاطف. تبدأ في مرحلة البلوغ المبكر، وعادة ما يكون لدى المصابين توقع غير معقول خاصة لمعاملة تفضيلية أو تماثل تلقائي مع توقعاتهم. كما أنهم يمكن أن يكونوا استغلاليين فيما بينهم، وبعبارة أخرى فهم يستفيدون من الآخرين لتحقيق أهدافهم الخاصة. ودراسات التحليل النفسي لجورج بوش تقدم رؤى أكثر عمقًا. كما أن علماء النفس كانوا كثيرًا ما يكتبون عن القادة السياسيين الذين لم يقوموا بعلاجهم. فسيغموند فرويد على سبيل المثال كتب كتابًا عن أندرو ولسون مستخدمًا أدلة مقدمة من طرف زميل ولسون. وبلير كان محل موضوع دراسة تحليلية لعضو البرلمان العمالي السابق ليو أبسي[1].

واحد من الكتب التحليلية عن حالة بوش كتبه الدكتور جاستين فرانك الذي يعتقد أن خصائص شخصية بوش تتداخل معنويًا مع وصف ما يعرفه بأنه حالة من جنون العظمة. إذ يقول:

> **متاعب طفولة بوش المبكِّرة يمكن أن تكون قد جعلت من جنون العظمة حلًّا وطريقة جذابة تهيئه للتعاطي مع ظروفه، وحتى الانتصار عليها. فجنون العظمة والهوس كلاهما يحمل ثلاث خصائص متشابهة أكثر مما ينبغي؛ وهي السيطرة، والازدراء، والانتصار. والهوس المجرد ينطوي على الحب، والحاجة لنفي عدم الاستقلالية، وفقدان شخص محبوب. أما جنون العظمة فينطوي على الكراهية، والحاجة إلى الانتصار على المخاوف الارتيابية. فالشخص المهووس يرغب في إصلاح الضرر الذي تسبب فيه حينما يعرف ذلك، ويشعر بالذنب. أما مجنون العظمة فهو لا يبالي بأي ضرر تسبب فيه لأنه لديه تبريرًا لأفعاله، ولا يشعر بأي ذنب أو شفقة وغير قادر حتى على التفكير في إصلاح ذلك[2].**

إن العلاقة بين مثل هذا المزاج المفعم بجنون العظمة وبين الغطرسة، من الصعب أن يحتاج لتوضيح.

---

(1) Leo Abse, **Tony Blair: The Man behind the Smile** (London: Robson, 2001).

(2) Justin A. Frank, **Bush on the Couch: Inside the Mind of the US President** (London: Politico's, 2006), p. 202.

فليس من السهل تحديد العوامل التي جعلت بوش وبلير عرضة لمتلازمة الغطرسة. فهناك عوامل مهيأة في شخصيتيهما، وربما بعض القرائن الطبية، ولكن لا شيء واضح. وأعتقد بأنه يجب إخضاع هذه العوارض إلى دراسة لمعرفة سبب تأثيرها على بعض رؤساء الحكومات وقادة مجالات أخرى دون غيرهم. فهي ليست في حدٍّ ذاتها متلازمة مرتبطة بالشخصية، وهي ليست حالة تصيب عادة هؤلاء القادة الذين يصلون إلى السلطة، فعلى العكس من ذلك، يبدو أنها تتطور عندما يكون رؤساء الحكومات قد اعتلوا الحكم منذ فترة وجيزة.

الجزء الرابع

دروس للمستقبل



الفصل الثامن

الحماية ضد مرض رؤساء الحكومات

إن مشكلة السلطة الزجرية كانت دائمًا ولا تزال المشكلة المركزية للحكومة... السلطة خطرة. فهي تنمو من خلال ما تتغذّى عليه من تعتيم الإدراك وتغييم الرؤية وسجن ضحاياها. بالرغم من أن صاحب السلطة يضمر النية الحسنة، إلا إنه قد يكون غارقًا في جمود العزلة لهالة ـ يخلقها ذاتيًا ـ من عصمة النفس الفكرية، التي تعد سلبية لمبدأ الديمقراطية.

ريموند مولي

هل يمكن حقًّا أن نولي أهمية للأمراض المتفشية بين رؤساء الحكومات؟ ففي نهاية المطاف، غالبًا ما يقال بشيء من التشاؤم: إنه كما تكونوا يولّى عليكم.. يؤكد امتداد تلك الشكوك أن المرض الذي علينا أن نشعر بالقلق إزاءه ليس هو المرض الذي قد يؤثّر من آن لآخر على فرد من رؤساء الحكومات، بقدر ما هو المرض الذي يؤثّر على النظام السياسي بأكمله.

الديمقراطية التمثيلية

تكمن المشكلة في أن المرضين متصلين. فالقرارات السيئة والأداء غير الكفء يعنيان أن الجوهر الحقيقي للديمقراطية التمثيلية، الذي يتمظهر في كفاءة القائد السياسي واستعداده لتولي القيادة، قد تآكل. فبرزت في مكانها ديمقراطية تشاورية يرى قادتها أنه في إمكانهم أن يعيشوا حياة سهلة ومريحة، إذا رضوا بكل بساطة بالسماح باستطلاعات الرأي العام وبتركيز مجموعات لإملاء أفعالهم، وأقل ترجمة لهذا تسمى: التثليث، ويمكن البرهنة عليها كطريق أسهل للفوز والاحتفاظ بالسلطة على حدٍّ السواء.

قد يبدو نقد الديمقراطية التمثيلية معاصرًا جدًا بعد الهزيمة في العراق، ولكن يجب علينا أن نكون حذرين بشأن تبني الديمقراطية التشاورية. فقبل خمسين عامًا، لاحظ والتر ليبمان الكاتب الليبرالي الأميركي الشهير، أن السياسيين كانوا يحكمون بشكل متزايد على أساس المشاعر الشعبية، وهذا ما أزعجه لأنه شعر أن الآراء الشعبية كانت طوال حياته خاطئة بشأن قضايا راهنة كبيرة ومتعددة فكتب ما يلي:

يمكن أن يكون أمرًا مهلكًا لوجود الدولة الفعلي كمجتمع حرّ إذا فقدت الإدارات التنفيذية والقضائية، بموظفيها الحكوميين والفنيين، قدرتها على اتخاذ القرار. وذلك عندما تُطرح القضايا الكبرى المتعلقة بالحرب والسلام، والأمن والملاءة المالية، والثورة والنظام لاتخاذ القرار[1].

وقد انتهى إلى أن «مرض الدول الديمقراطية يتمثل في زوال حيوية الحكم وإماتتها». وبما أن اختبارات قياس الرأي العام أصبحت أكثر تطورًا من أي وقت مضى، فقد تعلَّم السياسيون التثليث بين وجهات نظر مختلفة. يوجد اليوم زعماء أقل مما كانوا عليه من قبل انتخابهم، وهم يحملون فلسفة عامة قابلة للتحديد، وهذه الفلسفة التي ارتكزوا عليها للقيام بحملتهم والتي بفضلها حصلوا على ثقة الناخبين ليحكموا. وقد طورنا ديمقراطيات أكثر تقييدًا من قبل سلطة الرأي العام الموجه للقضايا، وهي ليست في ذاتها دائمة الثبات، بل يمكن أن تتحول بسهولة وتنتقل في جميع أنحاء العالم.

وفي مثل هذه الأجواء السياسية أصبح من السهل جدًّا على السياسيين الذين يطمحون إلى السلطة، أن يختاروا ببساطة أن يقادوا بإملاءات الرأي العام. وبطبيعة الحال يجد القادة السياسيون في وضع القناعات الراسخة وفي الدفاع عنها وفي الاستعداد للالتزام بها أمام الرأي العام أكثر الاتجاهات انعطافًا وعرضة للحوادث بالنسبة إليهم. فلم يُعبر عن مفهوم الديمقراطية التمثيلية أبدًا بشكل أفضل مما قدمه إدموند بيرك إلى ناخبي بريستون في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1774م «ممثلكم مدين لكم ليس فقط بصناعته وإنما بحكمه كذلك. وهو إذا ما ضحَّى بهذا الحكم من أجل آرائكم فقد خانكم بدلًا من خدمتكم». إن استعادة سمعة الديمقراطية التمثيلية يعني مزيدًا من نجاح عملية صنع القرار، وفي المقابل فإن عدم

(1) Walter Lippmann, **The Public Philosophy: On the Decline and, Revival of the Western Society** (London: Hamish Hamilton, 1955), p. 31.

كفاءة عملية صنع القرار يلحق ضررًا بالغًا للمفهوم بأكمله. فقد أظهر القرن الماضي أن القادة الذين يرغبون في ممارسة حكمهم المستقل يحققون نتائج سلبية عندما يكونون مرضى، نتيجة لذلك فإن الديمقراطية التمثيلية تكون في حدِّ ذاتها قد تضررت.

ينطوي الكتاب على أطروحة مركزية مفادها أن التردد في اتخاذ القرار أو اتخاذ قرارات خاطئة، كنتيجة للمرض المتفشي في رؤساء الحكومات على مرِّ مئات السنين الماضية، كان من بين العوامل المنتجة لحكومات ضعيفة. كان هناك القليل جدًّا من جميع البحوث المنهجية التي تركِّز تحديدًا على رؤساء الحكومات، وتهتمّ بالعلاقة بين حالتهم الصحية السيئة وسوء عملية صنع القرار.

التقييم الطبي

توجد دراسة واحدة عامة حديثة تظهر أن جميع الأطباء يستخفون على نحو فادح بالدرجة التي تتأثَّر بها قدرة المرضى على صنع القرار بسبب المرض[1]. في إنكلترا يعرف التشريع الصادر في عام 2005م فقدان القدرة العقلية على أنها: «ضعف أو اضطراب في عمل الدماغ والعقل»، ووضع قائمة في تشخيص الأعراض التي تشير إلى الحالات التي يكون فيها المرضى:

- غير قادرين على فهم المعلومات وثيقة الصلة بالقرار.
- لا يمكنهم أن يستبقوا في الذاكرة بالمعلومة ذات الصلة بالموضوع.
- غير قادرين على استعمال المعلومة كجزء من عملية صنع القرار.
- غير قادرين على نقل القرار.

وتشير الدراسة إلى أن عدم وجود قدرة على اتخاذ القرارات هو أمر شائع تشخيصه في المستشفيات، ولكن هذا العجز نادرًا ما يُكشف عنه من قبل أطباء العيادات أو الأقارب حتى عندما يُفحص المريض أحيانًا كثيرة. لقد جُبل الأطباء على قدرتهم على الافتراض، إلا إذا كانت هناك أدلة قوية تدحض افتراضاتهم وتبين عكسها. لقد برهن التاريخ أن الأطباء

(1) Vanessa Raymont, William Bingley, Alec Buchan,an, Anthony S. David, Peter Hayward, Simon Wessely and Matthew Hotopf, Prevalence of Mental Incapacity in Medical Inpatients and Associated Risk Factors: Cross-Sectional Study, Lancet (2004), vol. 364, pp. 1421-1424.

الشخصيين المعتنين برؤساء الحكومات والساهرين على صحتهم، قد رفعوا العتبة بشكل أعلى أكثر حتى مما يفعلون مع المرضى الآخرين، أولئك الذين يكونون أقل شهرة، قبل تسجيل ضعف في عملية صنع القرار.

بما أننا نعيش فترة أطول، فقد حلَّ السرطان وتصلب الشرايين محل السل والالتهاب الرئوي كأسباب رئيسية للوفاة. ولكن تتمظهر هذه الأمراض في شكل اكتئاب خفيف أو طاقة منخفضة، مما يضعف نوعية صنع القرار من قبل القيادات السياسية ومن قبل أي شخص آخر كذلك. تصنف منظمة الصحة العالمية الآن الكآبة بين أعلى الأمراض التي ترهق اقتصادات السوق الراسخة وتثقل كاهلها. وقد وجد مقال منشور في عام 2006م أن 29 في المئة من جميع رؤساء الولايات المتحدة يعانون من مرض عقلي، وأن 49 في المئة قد ظهرت عليهم ملامح موحية بوجود المرض العقلي في وقت ما من حياتهم. وهي في الواقع تُعدُّ نسب عالية أكثر ارتفاعًا مما يمكن لشخص أن يتوقعه إذا ما قورنت مع عامة السكان. بين(1906 و2006م) هناك سبعة رؤساء كان يعانون من أمراض عقلية أثناء إدارتهم شؤون الحكم وهم: تيودور روزفلت (اضطراب ثنائي القطب)، وتافت (صعوبة التنفس المتصلة باضطراب النوم)، وويلسون (نوبات الاكتئاب)، وكوليدج (نوبات الاكتئاب)، وهوفر (نوبات الاكتئاب)، وجونسون (اضطراب ثنائي القطب)، ونيكسون (إدمان تعاطي الكحول)[1]. تفشت الأمراض النفسية في العديد من رؤساء الحكومات في بلدان أخرى، كان بعضهم يصرُّ على إخفاء اكتئابه عن المقربين إليه وعن العامة.

ينبغي أن يكون هناك واجب معترف به من قبل كل زعيم سياسي يقرر ترشيح نفسه للمنصب الرئاسي، وهو أن يعلم العامة حول حقيقة وضعه الصحي. فإن يقدموا على حملة انتخابية وهم على علم أنهم يعانون من مرض قد يضعف من قدرتهم على القيادة، لدليل افتقارهم لميزة الصدق التي من حق الأمة أن تتوقعها من قادتها. إذا أُطلع الناخبون على حقيقة الوضع الصحي للمرشح، يصبح الأمر متروكًا لهم لتحديد إذا ما كان مرضًا معينًا في المرشح هو دليل عدم كفاءته لتقلد هذا المنصب.

الاستبعاد الآلي لا مبرر له، فهناك شك طفيف في أن شخصية الفرد يمكن أن تتغير

(1) Jonathan R. T. Davidson, Kathryn M. Connor and Marvin Swartz «Mental Illness in US Presidents between 1776 and 1974: A Review of Biographical. Sources», **Journal of Nervous and Mental Disease** (2006), vol. 194, pp. 47-51.

عند مواجهته المرض، ولكن في بعض الأحيان يمكن أن يكون هذا التغيير نحو الأفضل. يمكن أن نورد على سبيل شلل فرانكلين روزفلت كمثال على المرض الذي يصنع الإنسان، فالمرض لم يضعفه وإنما صقل شخصيته. ويبين مرض جون كينيدي لماذا ينبغي علينا ألا نقر أن مرضًا معينًا يمكن أن يكون تجريدًا لأهلية المرشح لمنصب عال. لقد سلطنا الضوء في هذا الكتاب مرارًا وتكرارًا على كيفية تمكن الزعماء السياسيين من التغلب على آثار أمراضهم، وقد صقلت الأمراض شخصياتهم وهذبتهم، فحكموا بحكمة على الرغم من وضعهم الصحي. فنجد على سبيل المثال تيودور روزفلت ونستون تشرتشل عندما كانا في منصب رئاسة الحكومة، فبالرغم من أنهما كانا يعانيان من الاكتئاب الضئيل وتقلب المزاج، فقد كان التعامل معهما أثناء فترة تقلدهما لمنصب رئاسة الحكومة أسهل من التعامل معهما وهما خارج القيادة. لعل المسؤوليات الجبارة التي كانوا يتحملونها لضمان رفاهية الآخرين وصالحهم قد أنستهم مشاكلهم الخاصة.

ومع أن العلاقة بين المرض والقدرة على القيادة ليست دائمًا واضحة ومتوازية، فهي شيء تحتاج المجتمعات الديمقراطية أن تكون أكثر وعيًا به. هناك ساسة ديمقراطيون متعددون مثل وودروو ويلسون، وفرانكلين روزفلت، وتشرشل، وكينيدي، وجونسون، وبومبيدو، وميتران، لم يثقوا بجمهور ناخبيهم ولم يطلعوهم على معلومات حقيقية حول وضعهم الصحي. فبعض القادة يبقون حقيقة أمراضهم طي الكتمان لسنوات.

السرية

نُوقش في الفصل الخامس لو أن كل من بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا كانت قد عرفت مرض شاه إيران في (1977 أو 1978م) لكان من الممكن أن تقنعه أو تضغط عليه لمغادرة البلاد للعلاج في سويسرا، مع تهيئة الفرصة لقيام مجلس وصاية على العرش يقوم على سلطة مفوضة حقيقية لبدء عملية الإصلاح الديمقراطي. وهذا ما كان من الممكن أن يحبط عودة آية الله الخميني، حيث لا يوجد دليل على أن الجزء الأكبر من الشعب الإيراني يريد دولة يهيمن فيها الإسلام. يشبه تكتم الشاه على مرضه تكتم الزعيم الباكستاني محمد علي جناح الذي كان يعاني من مرض سل في مرحلة متقدمة، حيث شُخص في عام 1946م قبل عام من تقسيم الهند واستقلالها. وقد ترتب على السرية الطبية التامة التي فرضها مطوقًا بها وضعه الصحي عواقب وخيمة على حياة الملايين من الناس في شبه القارة الهندية.

عُيِّن الأميرال اللورد مونتباتن حفيد الملكة فيكتوريا نائبًا للملك في الهند سنة 1946م من قبل رئيس الوزراء كليمنت آتلي، وكُلِّف بمهمة نقل السيادة البريطانية في الهند إلى دولة واحدة مستقلة ضمن رابطة الشعوب البريطانية بحلول عام 1948م، وطُلب منه أن يبتكر خطة خاصة به إذا لم يتمكن من التوسط لإبرام اتفاقية. وقد أخبر جواهر لال نهرو (أحد زعماء حركة الاستقلال في الهند) رئيس حزب المؤتمر، وهو التجمع الذي يمثل جميع الأعراق ولكن ينظر إليه على أنه الحاصل على ولاء الأغلبية الهندوسية، مونتباتن أنه وحزبه لن يفعلوا أي شيء لتجنب التقسيم. أبلغ جناح وهو قائد تحالف المسلمين، مونتباتن بعبارات بينة لا لبس فيها، يجب أن تكون هناك دولة مسلمة منفصلة قابلة للتطبيق.

قام باتل، وهو طبيب من بومباي وصديق شخصي للزعيم المسلم، دون علم مونتباتن أو الاستخبارات البريطانية بأخذ أشعة سينية (أشعة أكس راي) لرئتي جناح. كان جناح خلال العقد الماضي، حسب باتل، يعيش على «قوة الإرادة والويسكي والسجائر» رغم أنه قد قيل له إنه يعاني من مرض السل في مرحلة متقدمة[1].

وفي 15 آب/ أغسطس من عام 1947م، نُقلت السلطة إلى دولتين مستقلتين هما الهند وباكستان، وكان مونتباتن لا يزال يحافظ على جدول مواعيد آتلي الأصلي إلى حدود الاستقلال بحلول 30 حزيران/ يونيو 1948م. وفي وقت مبكر من ذلك العام، أصبح المرض باديًا بوضوح على جناح. وأُقنع كل من نهرو وحزب المؤتمر بالتركيز على إحياء مقترحات بعثة مجلس وزراء المملكة المتحدة إلى الهند في أيار/ مايو 1946م.

كان الفقدان الفوري للحياة، بعد تقسيم الهند، هائلًا. وتبع هذا التقسيم حروب خطرة بين الجانبين. وفي وقت لاحق انقسمت باكستان وأصبحت باكستان الشرقية بنغلاديش في

(1) تحدث عدوى الدرن بسبب متفطرة الدرن، وتؤثر بشكل رئيسي على الرئتين، إلا أن العدوى يمكن أيضًا أن تشمل العقد اللمفاويّة، والكلى، والعظام، والجلد، والسبيل المعوي، والسحايا حول الدماغ. انتشر الدرن في النصف الأول من القرن العشرين، ثم بدأ بالتراجع مع استخدام العلاج الكيميائي في أربعينيّات ذلك القرن وحتى نهايته. إلا أنه بدأ بالظهور مجددًا مع بداية القرن الواحد والعشرين، وبحالات أفظع من السابق. وقد يُعزى الأمر بشكل كبير إلى عدم استجابة بكتيريا الدرن للعلاج، ونمو عدوى نقص المناعة المكتسبة (الإيدز HIV). بالطبع كان جناح يدرك تمامًا بأنه لو علم أيٌّ من معارضيه، سواءً من حزبه وزعماءه الهندوس أو من السلطة البريطانية، فإنهم سيسعون لتأجيل مفاوضات الاستقلال. لذا أكّد على طبيبه الالتزام بأعلى درجات السريّة، ورفض أيضًا تقليص نشاطه السياسي والتوقف عن التدخين. بل إنه حرَّض مونتابن للقيام بثورة عاجلة، ولم يبدِ أدنى استعداد للتسوية.

عام 1971م. ولا تزال اليوم التوترات حول كشمير قائمة بين الجيش الهندي والباكستاني مع مواجهتهم لبعضهم البعض في جميع أنحاء الإقليم المتنازع عليه، وهذا ما يثير القلق خاصة أن كلا البلدين يمتلك الآن الأسلحة النووية. ولو كان كل من مونتباتن ونهرو وغاندي على علم بمرض جناح لما كانت هناك أبدًا الدول الثلاث التي نراها اليوم: باكستان وبنغلادش والهند. أما باكستان وبنغلادش فهما دولتان يغلب عليهما الإسلام، وأما الهند فتسود فيها في المقام الأول الهندوسية، ولكن مع وجود أقلية مسلمة كبيرة جدًا. وإذا كانت الهند قد بقيت غير مقسمة، لكانت قد احتوت ضمن هياكلها الديمقراطية عمليًا شبه القارة برمتها.

ومن القضايا المثيرة للاهتمام أيضًا هي إبقاء القادة على قيد الحياة باللجوء سريًا إلى وسائل تكنولوجية حديثة، فمثلًا أُبقي رئيس إسبانيا الجنرال فرانسيسكو فرانكو حيًا عن طريق أجهزة دعم الحياة. كان أحد الديكتاتوريين القلّة الذين استطاعوا التحول إلى الديمقراطية، ولم يكن مرضه مؤثرًا أثناء فترة حكمه، إلا أن مرضه المميت كان على وشك تدمير خطة ناجحة لنقل السلطة. أتاحت أجهزة دعم الحياة المحيطة بفرانكو لأولئك المتحلّقين حوله لأن يبقوه على قيد الحياة سرًا رغم معاناته. لم يدم الأمر طويلًا حيث أفشت الصحافة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1975م أمر تردّي حالة فرانكو الصحية، ووصفتها علنيًا بصورة بشعة ومفصّلة.

كان فرانكو يعاني من السكري منذ عام 1963م. وهو اضطراب يؤثر على معدل الاستقلاب مما يسبب ازديادًا في معدل السكر في الدم؛ وكان أيضًا يعاني من مرض باركنسون. إن ذلك التاريخ المرضي يعني أنه كان من المفترض على فرانكو وأنصاره السياسيين أن يرتّبوا منذ مدة طويلة لإيجاد خليفة له. إلا أن تلك العملية لم تستكمل بتفصيل، إذ أن فرانكو دخل في غيبوبة. وكان أحد الأسباب التي دفعت بهم إلى إبقاءه حيًا أثناء غيبوبته هو كي يستطيع معاونوه «أن يتأكدوا من أن رئيس مجلس الوزراء، الذي سيختاره الملك الجديد خوان كارلوس، سيكون ذا أهلية ويُعتمد عليه»[1]. كان على فرانكو أن يعيد تعيين المسؤول الموجود عندما تنتهي فترة حكمه في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر، إلا أن ابنته أصرّت على أن يُترك والدها للموت قبل ذلك الموعد، وعليه فقد أُزيلت عنه أجهزة دعم الحياة في 19

(1) Paul Preston, Franco: **A Biography** (London: Harper Collins, 1993), p. 778.

تشرين الثاني/ نوفمبر، ومات متأثرًا بتسمم الدم باليوريا في 20 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1975م[1].

أصبح فرديناند ماركوس رئيسًا للفلبيين عام 1965م. عن عمر يناهز 47 عامًا. وفي بدايات 1971م، شُخِّص بإصابته بالذئبّة الحُمامية[2]، وهو من أمراض التدمير الذاتي للجهاز المناعي يؤثر على شرايين القلب والكلى تحديدًا[3]، لكن لم يؤثر مرضه على قدرته للحكم لبضع سنوات. أمر ماركوس أعوانه وأطباءه بأن يبقوا أمر مرضه سرًا. وبحلول عام 1978م، كان واهنًا ومتعبًا جدًا، فأصبح وجهه منتفخًا نتيجة لعلاجه باستخدام الستيرويدز، ولجأ في بعض الأحيان إلى غسيل الكلى. وبحلول عام 1980م فشلت كليتاه تمامًا، فأجرى عملية زراعة كلى لكنها لم تنجح، ثم اضطر لاستخدام غسيل الكلى بانتظام. وبقي على قيد الحياة مستعينًا بجهاز الكلية، إلا أن الأمر لم يدم طويلًا ففي كانون الأول/ ديسمبر 1984م شُخّص بإصابته بمرض خطير. واضطر إلى الهروب من الدولة وذلك بعد هزيمته في انتخابات عام 1986م. ثم مات في هونولولو عام 1989م.

المرض العقلي

إن المرض العقلي يجعل الساسة متحفظين للغاية، لأن الرأي العام لازال إلى اليوم ينظر إلى الأمراض العقلية على أنها مثيرة للخوف أكثر من الأمراض الجسدية. وهو ما دفع بعض

---

(1) اليورمية هو تكون اليوريا في الدم، وهي حالة مرضية تنتج عن الفشل الكلوي. وتكون أعراضها نتيجة لانخفاض قلويّة الدم، مما يسبب عجزًا في وظائف الكلى. وله أسباب عدة، فإما أن يكون مرضًا أصاب الكلى، أو ضيقًا أو انسدادًا في الشريان الكلوي، أو تكوُّن الضغط المعاكس في الحالب أو انسداده. ويعتبر الصداع من الأعراض الواضحة له، بالإضافة إلى الشعور المستمر بالنعاس. وقد يؤدي إلى فقدان الوعي وإلى الاختلاج، وتعتبر حالة مرضية خطرة، وعادة ما يكون علاجها باستخدام الغسيل الكلوي.

(2) تُصنف الذِئبَة الحُمامِيَّة من أمراض التدمير الذاتي للجهاز المناعي، حيث تؤثر على الشرايين المسؤولة عن إمداد الجلد أو الأعضاء الباطنية. ويمكن أن يؤثر هذا على الجسم بأكمله، حيث تسمى تلك الحالة بالذئبة الحُماميّة المجموعيّة. وتعتبر حالة خطيرة جدًا ومميتة، وخصوصًا لدى النساء. إذ يكون فيه عمل الجهاز المناعي داخليًا، ويصيب بذلك النسيج الضامّ محدثًا التهابًا حادًا. وأفادت الدراسات الحديثة بأن الشخص المصاب يكون في عوز إلى إنزيم D Nase 1، والذي يقلل من نسبة الحمض النووي (DNA). ويمكن أن يكون علاج هذه الحالات بصرف إنزيم D Nase 1. ويختلف العلاج حسب الحالة، فبعضها يُعالج بأدويه لا ستيرويديّة ومضادات للالتهاب مما يساعد في التخفيف من آلام المفاصل. بينما يمكن أن تخفف الأدوية لمضادة للملاريا من الطفح الجلدي. ويساعد الكورتيكوستيرويد في تخفيف التهاب الجنبة والأعراض العصبية. وتتمثل الأعراض في التهاب المفاصل، والتهاب الجنبة، والتهاب الكلية أو عدوى الكلى التي تؤدي إلى الفشل الكلوي وأحيانًا الحاجة إلى الغسيل الكلوي، وقد تظهر أعراض عصبية أو نفسية. ينتشر المرض على مستوى العالم، إلا أنه يشيع بين الصينيين والأفروكاريبيين.

(3) Jerrold M. Post and Robert S. Robins, **When Illness Strikes the Leader**: The Dilemma of the Captive King (New Haven, CT: Yale University Press, 1993), pp. 124 - 128.

الأطباء للقول إن تسريب معلومات لحالات نفسية إلى العامة يستوجب تعاملًا خاصًا، وبأن حجب بعضها يمكن أن يكون أمرًا مشروعًا، لكن الإفشاء الانتقائي ليس بالأمر المقبول، والساسة مجبرون على أن يثقفوا الرأي العام وأن يثقوا بآرائه. فلقد كان الساسة ولفترة طويلة يخشون الكشف أو الإعلان عن أي مرض عقلي لأنه سوف يلحق الضرر بعملية ترشحهم. فيستحضرون تجربة السيناتور توماس إيغلتون الذي أجبر على الاستقالة من الترشح كنائب للرئيس جورج ماك غوفرن قبل بداية سباق الرئاسة لسنة 1972م، وذلك بعد أن سُرِّب خبر خبر تعرضه لثلاث نوبات اكتئاب. وفي بداية القرن الحادي والعشرين أصبحت مواقف الرأي العام تجاه المرض العقلي أقل نفورًا. لكن أي مرشح رئاسي سيتردد في قبول تحدي موجة التحامل التي ما تزال موجودة فيما يتعلق بالمرض العقلي عمومًا، والعلاج بواسطة الصاعقات الكهربائية على نحو خاص عند عملية اختيار شخص لمنصب ما. وهو أمر وصف ذات مرة من قبل مرشح لمنصب محتمل بطريقة لا تنسى بقوله كأنه: «غير جدير بملء دلو من البصاق الدافئ».

وخلال المئة سنة الأخيرة لم يقع اعتبار، وبطريقة رسمية إلا اثنين من قادة الحكومات فقط، كمجانين. وهما الرئيس الفرنسي بول ديشانال، الذي ذُكر في الفصل الأول، والذي استقال بطريقة طوعية لإصابته سنة 1920م بما يعتقد أطباء الأعصاب الجدد بأنه الخرف الجبهي ـ الصدغي[1]. وفي سنة 1952م أجبر الملك الأردني طلال على التنحي لإصابته بمرض انفصام الشخصية.

إلا أن هناك مواقف أكثر استنارة في أوساط الجمهور تجاه المرض النفسي مرتبطة بمدى تعامل رؤساء الحكومات بصدق مع كل مشاكلهم الصحية الخاصة. فمن واجب قادة الحكومات أن يكونوا صريحين فيما يتعلق بالأمور الصحية، كما أن واجب الإعلام فضحهم عند تهربهم من الحقيقة. فمن غير المرجَّح أن التعتيم على مرض رئيس من قبيل ما ارتكبه وودرو ولسون يمكن أن يحدث الآن في الولايات المتحدة. ولن تكون الصحافة الأميركية متواطئة الآن كما حدث أثناء التستر على مرض كينيدي. يجب أن يُنظر للقصة التي قدمت في الفصل السادس عن قدرة فرنسوا متيران على التغطية على إصابته بسرطان البروستات

(1) Francois Boller, Annie Ganansia-Ganem, Florence Lebert and Florence Pasquier, Neuropsychiatric Afflictions of Modern French Presidents: «Marechal Henri-Philippe Petain and Paul Deschanel», **European Journal of Neurology** (1999), vol. 6, pp. 133- 136.

والذي كان في مرحلة متقدمة ويعود إلى أكثر من إحدى عشرة سنة على أنه تحذير. فالتستر، وهو أمر تقرِّه قوانين الخصوصية الفرنسية، تواصل رغم الدروس التي يبدو أنها قُرئت بعد وفاة الرئيس بومبيدو وهو في سدة الحكم سنة 1974م والذي أُخفي سر مرضه عن الشعب الفرنسي. لقد كنت أعتقد بأن الانفتاح الذي تعامل به الرئيس بوش الأب مع التسمم الدرقي والذي قدَّمه على أنه رجفان أذيني سنة 1991م، يعني أننا يمكن أن نتوقع الصدق في القرن الحادي والعشرين، ولكن هذا لم يكن الحال بوجود أمثلة كثيرة أخفت حقيقة مرضها مثل بلير، وبوش، وشيراك، وشارون.

دور الأطباء الشخصيين

كيف إذن تضمن المجتمعات الديمقراطية حصولها على المعلومات اللازمة والمتعلقة بقادتها السياسيين؟. في الماضي، كثيرًا ما كان عامة الناس يعوِّلون على مجرد التقارير الصحية التي يدلي بها الأطباء الشخصيون لرؤساء الحكومات. لكن المسؤولية الأولى للطبيب الشخصي تجاه مريضه لا تعني تحقيق توازن بين المصلحة الفضلى للمريض ومصلحة الدولة. فمن غير المنتظر أن يقوم الأطباء الشخصيون بمحاولة جمع الدورين معًا. وحتى عند المحاولة غالبًا ما يرتد ذلك عليهم. اللورد موران الطبيب الشخصي لتشرشل وأحد الأطباء البارزين ورئيس الكلية الملكية للأطباء، هو أبرز مثال للمحاولة الفاشلة للجمع بين مصلحة المريض ومصلحة الدولة، حيث وجِّهت له انتقادات لاذعة وعلنية بسبب تصريحاته المضلِّلة حول صحة ونستون تشرشل ولاسيما عام 1953م. كما كان الدكتور كلود غوبلر، طبيب الرئيس ميتران، مثالًا آخر في الفشل في محاولة الجمع بين الدورين من خلال لعب دور الطبيب الشخصي والمستشار المستقل. وفي استفسار عن الأخلاقيات الطبية في حزيران/ يونيو 1996م، اعتبر غوبلر الكشف عن مرض ميتران حتى وقت قريب بعد وفاته انتهاكًا للسرية الطبية، لكنّه ادَّعى أنه كان محاصرًا بين رمزين من رموز الشرف إضافة إلى رغبة في الاعتراف بتوقيعه لوصفات طبية تكشف جزءًا صغيرًا من الحقيقة. فالحصول على طبيب شخصي يوفِّق في الجمع بين الدورين، قد لا يخدم مصلحة المريض كما لا يخدم الديمقراطية. فالمزج عادة ما يتماشى بين السرية والحدود السياسية التي تفرض على الأطباء الشخصيين في علاج رؤساء الحكومات، وهو ما ينتج عنه نتائج أقل من المعايير المفضلة. فأفضل ممارسة سريرية وإن كانت متاحة لرئيس الحكومة لا يمكن استغلالها ببساطة خوفًا من ردة فعل الصحافة والشعب عند اكتشافهم لحقيقة الحالة

الصحية. لقد كانت الفترة الأولى التي قضاها جون.ف. كينيدي في الرئاسة أبرز مثال على ذلك.

يعتبر المدققون أن أيّ بيان صادر من الأطباء حول مرضاهم هو خرق ليمين أبقراط. فهم يعتقدون أن أسرار المرضى الطبية يجب أن ترافق الأطباء إلى قبورهم، مع عدم ترك أي سجل ورقي للأجيال القادمة. ولكن هناك وجهة نظر أخرى وهي التي أتفق معها، بأنه يمكن للتاريخ أن يستفيد أحيانًا من رؤية الطبيب الشخصي والمنشورات الخالية من التفاصيل الشخصية، إلا أن التعامل العلني مع الحقائق الطبية يمكن أن يكون ذا قيمة بعد فترة وجيزة من الزمن، أو ربما يتأخر حتّى الحصول على إذن أفراد العائلة المقربين أو عند وفاتهم. الدكتور عباس صفافيان والبروفسور جون برنارد والدكتور جورج فلاندرين، الأطباء الثلاثة المقربون من الشاه، قاموا بالكشف عن بعض المعلومات دون القيام بتجاوزات مع كسب ثقة عائلة الشاه، على عكس ذلك قام موران بخرق القانون وهذا ما جعل العائلة تنتقده لنشره لكتاب عام 1996م إثر وفاة تشرشل بفترة وجيزة، وليدافع عن نفسه أعلن أن ذلك كان مجرد مذكرات طبيب تشرشل الشخصي[1]، إلا إنها لم تكن بالمذكرات المألوفة في حقيقة الأمر.

إن النموذج السليم للإفصاح عن المعلومات من طرف طبيب شخصي هو ذاك الذي اعتمده طبيب الأعصاب الدماغية اللورد براين، حين قام ابنه بالإفصاح عن سجل والده وبموافقة عائلة تشرشل عام 2000[2]، ولكن وفي نواح كثيرة، كان غوبلر على حق، على عكس موران، حين أراد الكشف عن أحداث ميتران إثر وقوع الحدث. وبذلك كان له الفضل في إجراء مناقشة عامة، فتصريحاته كانت لخدمة المصلحة الوطنية الفرنسية، ومن المؤمل أن يؤدي ذلك إلى المزيد من الانفتاح في فرنسا وفي كل مكان. كما أراد غوبلر في دفاعه أن يثبت أنه كان في حاجة للإدلاء عن طريق تصوير الوضع المستحيل الذي كان فيه وسمح بتطويره، نظرًا للطلبات المقدمة له من متيران[3]. ربما كان خطأ غوبلر في البداية يتمثل في عدم نشره في مجلة طبية والخوض في الكثير من التفاصيل الشخصية حول ردة

(1) Lord Moran, **Winston Churchill: The Struggle for Survival 1940-1965** (London: Constable, 1966).

(2) W. Russell Brain, «Encounters with Winston Churchill», **Medical History** (2000), vol. 44, pp. 3-20.

(3) Ronald Tiersky, **Francois Mitterrand**: The Last French President (New York: St Martin's Press, 2000), p. 337.

فعل ميتران من مرضه، فعلى عكس ذلك ما كشفه موران حول تشرشل كانت له صلة ضئيلة ومباشرة بالسياسة العامة، رغم أنها كانت مفيدة للمؤرخين على الأمد المتوسط.

كان لبريطانيا قانون حيث لا يُعلن بموجبه عن بعض السجلات الوزارية لمدة ثلاثين عامًا. إلا إنه تمّ التحايل وإلى حدٍّ كبير على سياسات الحكومة استنادًا إلى مرسوم حرية التعبير والمعلومات. فتخفيض تلك الفترة الزمنية الطويلة إلى عشرين عامًا لها الفضل في عدم فسح المجال أمام المحاولات الدائمة والرامية لتشويه التاريخ. كما أنه وبعد انتهاء فترة الانتظار القانونية عقب وفاة المريض، يكون الكشف عن جميع التفاصيل الصحية ومن وجهة نظري متوافقًا مع يمين أبقراط. فالطبيب الشخصي لرئيس الحكومة وإن قام بكشف الحقائق، عليه ألا يخطئ في المعلومات الطبية المقدمة، كما ينبغي عليه أن ينتقي العبارات المناسبة بكلّ حذر وعناية. كما أنه من الجدير أن يُنشر ذلك في مجلات طبية مختصة حيث تُتبع معايير موضوعية ومراجعة دقيقة، ولا شك أن الطبيب هو المستفيد من عملية الكشف للعيان.

أمّا ما يجب توقعه من الأطباء الشخصيين لرؤساء الحكومات عندما يكون مرضاهم لا يزالون على قيد الحياة، فهو الصدق والأمانة وعدم التضليل عند الإدلاء ببيانات عامة حول صحة مرضاهم. فالقيام بذلك يقوِّض ثقة الجمهور في نزاهة واستقلال مهنة الطب. كما أن الطبيب الشخصي ليس له وصاية الكشف عن أي معلومة إذا قام المريض برفض ذلك، ولكن من منطلق السلطة التي يتمتع بها، وكما فعل أحد الأطباء في الماضي، فللأطباء حق التزام الصمت إذا طُلب منهم تضليل حقيقة الوضع الصحي لمرضاهم. ومن الحكمة أن يعترف التوجيه المهني بذلك، وأن يحثَّ الأطباء الشخصيين على عدم توقيع نشرات طبية عامة حول صحة مرضاهم. فمن الأفضل أن يتم ذلك عن طريق المريض نفسه أو مكتبه الخاص أوعن طريق طبيب آخر.

التقييم الطبّي المستقل قبل تولّي السلطة

إذ لم يكن من الممكن للشعب الاعتماد على الأطباء الشخصيين لمعرفة حقيقة الحالة الصحية لرؤساء حكوماتهم، فكيف لهم أن يعلموا بذلك؟. الطريق الوحيد للإجابة عن هذا السؤال هو النظر في كيفية تطور الممارسات في مجالس الإدارة التجارية. فمن واجب الشركات العامة الكبيرة حول العالم حماية أصحاب الأسهم من الأمراض التي تؤثّر على

كبار الموظفين التنفيذيين. فهم بذلك يعتمدون على قواعد الحكم الرشيد. وشهر تلو الآخر، أصبح التمحيص من طرف رؤساء الشركات أكثر تفصيلًا وفعالية من ذاك التي تمارسه الدواوين السياسية على رؤساء حكوماتهم. كما أصبح شائعًا لدى المجالس الإدارية لرؤساء الشركات العامة، الإصرار على المطالبة بتقرير طبي للمدير التنفيذي المحتمل قبل عملية التعيين، كما أن العديد منهم طالبوا بتقارير طبية سنوية منتظمة. وقامت بعض المجالس بالضغط على المرشدين قصد مساعدة المديرين التنفيذيين الذين يعانون من مشاكل شخصية في تسهيل أسلوب قيادتهم. وتصرُّ بعض الشركات الأميركية الآن على أن الحالة الصحية لكبار الموظفين التنفيذيين الجدد يجب أن تفي بالمتطلبات، وتتغلب على العوائق التشريعية المشار إليها، كأسباب للتقاعس عن العمل. ومع ذلك وفي أغلب الحالات لا تتلقى المجالس النتائج الحقيقية. ولذلك أصرَّت بعض المجالس على أن يشارك أحد أعضائه على الأقل في عملية اختيار الطبيب الذي سيجري تقييمًا للمدير التنفيذي، أمّا البعض الآخر، فقد طالب باستقلالية الطبيب اعتقادًا منهم أن الاستقلالية ليست مضمونة في حالة ثبات وجود علاقة مهنية تربط الطبيب بالمدير التنفيذي. فالترتيب الأكثر طلبًا وتأثيرًا يكون عندما يوافق المدير التنفيذي مسبقًا على إمكانية تمرير المعلومات ذات الصلة بقدرته على الاضطلاع بهذه المهمة إلى رئيس المجلس أو المدير العام، وبواسطة طبيب مستقل ودون طلب الإذن على نحو خاص من المدير التنفيذي، بل أن يقوم فقط بإعلامهم بذلك. وقد أصبح هذا في بعض الشركات اتفاقًا ثلاثيًا بين الرئيس التنفيذي والمجلس والطبيب المستقل. وبذلك يصبح الرئيس أو المدير الرئيسي للمجلس على علم تام بالحالة الصحية للرئيس التنفيذي، مع القدرة على مناقشة المعلومات الطبية التي يمكن تقاسمها مع الزملاء. وباعتبار ما ذُكر كأفضل الممارسات التي تُطبَّق على المدير التنفيذي، لم لا يطبق شيء من هذا القبيل على رؤساء الحكومات؟.

في عام 1960م صوَّتت ولاية كاليفورنيا قصد إنشاء لجنة قضائيّة مؤهّلة للتعامل مع القضاة غير الفاعلين في مناصبهم. ثلاثة من جملة عشر حالات أدَّت إلى التقاعد بسبب الضغوطات النفسية الشديدة، وعدم الاستقرار، والسلوك الخاطئ والمنحرف، وضعف الذاكرة وعدم القدرة على التركيز أو فهم ما يُقال[1]. كان القضاة يحكمون خلفًا عن زملائهم وقد أصبح هذا النمط المعمول به، بالإضافة إلى المهن نفسها سعيًا لإقامة آليات للتحقق من تلك القرارات

(1) Ronald R. Fieve, **Moodswing: Dr Fieve on Depression**, rev. ed. (New York: William Morrow, 1989), p. 146.

التي يمكن أن تؤثِّر على الشعب. في كانون الثاني/ يناير 2007م كشفت الملفات الصادرة عن مكتب التحقيقات الفيدرالي أن القاضي بالمحكمة العليا ويليام راهنكويست أصبح بحلول كانون الأول/ ديسمبر 1981م مدمنًا على تعاطِّي مخدِّر «بلاسيديل» ذي الآلام القاتلة، وهو الشيء الذي اكتشف خلال سحب دم أجري خلال تنويمه في المستشفى عن آلام الظّهر كان يعاني منها. إلا إنه أقلع عن تعاطي هذا المخدر، بذلك لم يحكم الأطباء على تلك الحادثة كسبب لحرمانه الترقية إلى منصب رئيس المحكمة العليا عام 1986م حين سئلوا من مكتب التحقيقات الفيدرالية عن الأمر. ما أظهرته هذه المرحلة، يدل على أن الإدمان يؤدِّي إلى اتخاذ إجراءات مسبوقة بعلامات تحذيرية ضد شخص ما، وأن الإدمان قابل لأن يُزال. فالتقييم الشخصي المستقل والمنتظم لا يضمن ديمومة عملية انتقاء علامات التشخيص ومع ذلك يبقى أفضل ضمان موجود جنبًا إلى جنب مع الانفتاح الكبير الصادر عن رئيس الحكومة المريض.

الإشكاليّة الرئيسيّة وليست المباشرة تطرح ما إذا كانت الديمقراطيات تطالب المترشحين للانتخابات الرئاسية بصفة مباشرة أو غير مباشرة بتقديم تصاريح طبية خاصة بهم. إجابتي بخصوص هذه الإشكالية حتمًا: «نعم» وأعتقد أن اعتماد هذا الإجراء أمر ضروري، كما أنه لا يمكن الاعتماد على صحافة السبر. فالحكم الرّشيد، ناهيك عن التمحيص العام والمساءلة، يتطلَّب تقييمات طبية عامة ومستقلة لجميع المرشحين قبل الانتخابات التمهيديّة في الغرب أو قبل أي انتخابات لزعامة حزب سياسي. لقد بدأ العمل بهذا الإجراء ولكن تبعًا للأجهزة الخاصّة لن يقبل معظم الساسة الذين يطمحون إلى منصب رئيس الحكومة بمثل هذه الضوابط. فهم يريدون اختيار الطبيب المكلَّف بإجراء التقييم الطبي مع السيطرة على ما يقال للزملاء السياسيين، وما يصدر عن الصحافة. ولكن في حقيقة الأمر، وأبعد مما أعترف به علنًا، يحبِّذ العديد من كبار الساسة تطبيق تشريعات أكثر صرامة للحدِّ من غزو خصوصياتهم. كما لا يزال هناك اعتماد كبير على التقارير الصحية الصادرة عن الأطباء الشخصيين للمرشحين قصد ضمان كشوفات انتقائية ومتحيِّزة للمعلومات، وبذلك يجب على الشعب توخّي الحذر في التعامل مع هذه المسألة.

سوف يكون من المفيد لمهنة الطب، سواءً على الصعيد الوطني أو العالمي، إنشاء مدوّنة تهتم بإصدار المنشورات الطبية العامة للأشخاص البارزين. وقد ينص أحد المبادئ التوجيهيّة على ضرورة بقاء نصيحة الطبيب الشخصي شخصية وخاصة، كما لا ينبغي أن

تصدر البيانات العامة بشأن المسائل الصحية عن طبيب شخصي. كما يمكن أن تمثِّل مبدأ توجيهي آخر في أنه من الأفضل استخدام طبيب مستقلّ كلّما كانت هناك حاجة إلى إجراء تقييم طبي. وكذلك يمكن أن يستمر نشر البيانات العامة من المريض نفسه أو من موظفيه.

ينبغي تشجيع الديمقراطيات على سن تشريعات تجعل من التقييم الطبي المستقلّ والعام إلزاميًا على جميع المرشحين لمنصب رئيس حكومة، قبل تقديم أنفسهم للانتخابات المباشرة أو غير المباشرة على الصعيد الوطني، وعن طريق حزبهم السياسي. كما ينبغي أن يتم الاتفاق في هذا التشريع على أن يضمن أي تقييم طبي يُنشر بشكل أو بآخر عدم خضوع وجهات نظر الأطباء للرقابة. وتبعًا لذلك سيكون الناخبون على دراية بالحقائق الأساسية حول الصحة الطبية لأي مرشح لمنصب رئيس الحكومة قبل الدخول إلى صالة الاقتراع. الشرط القانوني لمثل هذا التقييم المستقلّ قد يثني بعض الساسة عن المواصلة أصلًا. وقد يتمنى ساسة آخرون إجراء وقائيًا لجعل أي سجل تاريخي طبي في متناول العامة ما لم يكن قد سرِّب حتى الآن وقبل أن يُكشف النقاب عنه من قبل تقييم مستقل. فلا شيء يمكن أن يوقف الساسة عن التصريح بتاريخهم السياسي لتشوشهم الذهني. وقد تفطّن بعض الساسة إلى أفضليّة إعطاء تفسيرات في وقت مبكِّر قصد حماية النّاخبين المحتملين من أي مفاجآت من شأنها تعكير مسار الانتخابات.

من الأفضل إجراء فحص طبي مستقل تحت إشراف طبيب عام أو مختص في الخلايا العصبية، ومع ذلك يجب أن يُستعان بأطباء وجراحين مختصين قصد اختبار القدرات النفسية بما في ذلك الوظائف المعرفية، لقد تطوّرت تلك الاختبارات إلى حدٍّ كبير على مدى العقود القليلة الماضية، بالإضافة إلى المزيد من التطورات المستقبلية[1]. فلجنة الانتخابات في بريطانيا تقوم وبناءً على مشورة الكلية الملكية للأطباء بالاتفاق حول فريق أطباء مستقلين من خلاله يمكن اختيار الوزراء المرشحين. كما يتم الاتفاق من خلال هذا المجلس على شكل التقييمات الطبية التي يُعمل بها، والاختصاصات التي تُقدم. بالإضافة إلى ذلك تقوم اللّجنة الانتخابية بإرشاد الأطباء أو الطبيب الشخصي إلى كيفية إفشاء المعلومات إلى عامة الشعب. أما في بلدان أخرى فتضطلع هيئة مستقلة مشابهة بهذه المسؤولية. كما إنه من

(1) Marshal F. Folstein, Susan E. Folstein and Paul R. McHugh, «Mini-Mental State»: A Practical Method for Grading the Cognitive State of Patients for the Clinician, **Journal of Psychiatric Research** (1975), vol. 12, pp. 189-198.

الضروري أن يتم أي فحص طبي للسياسي، سواءً كان مرشحًا أو رئيس حكومة، حالي دون دعاية للعامة، لتتاح لهم فرصة التنحّي عند مواجهة التقارير الطبية أي نوع من المشاكل.

ففيم يتمثل تأثير التقييمات الطبية المستقلة العامة على رؤساء الحكومات في الماضي؟. يمكننا التكهّن فقط ولكن من الضروري القيام بذلك. كانت التقييمات الطبية المستقلة أساسية وقت ونستون تشرشل، فهو بدون شك استهزأ من التقييمات العامة السلبية عام 1945م. كما فعل بخصوص حالته الصحية عندما أخذت له صورة وهو ينفخ في سيجارته وممسكًا كأس براندي في يده. فهو بهذه الطريقة، يحاول صرف نظر الرّأي العام عن تقييمات 1951م. ولكن بحلول 1955م، لم يكن هذا ممكنًا، فقد قام تقييم طبي عام بكشف الأزمة القلبيّة الخطيرة التي كان يعاني منها منذ سنتين، وهذا ما حول تشرشل من شخص بالغ الثقة بنفسه إلى شخص تعيس يعدُّ أيّامه.

كما أن فرانكلين روزفلت هو قائد سياسي آخر تأثّر مساره الوظيفي بالكشف العام الذي نشر حول صحته الطبية. لقد اِلتقى روزفلت بعد ذلك بزميله الجديد هاري ترومان في البيت الأبيض في 18 آب/ أغسطس 1944م، حيث قام هذا الأخير بوصف روزفلت أمام الصحافة بالورد البري القوي، أمّا على الصعيد الخاصّ فقد قام ترومان بإخبار مساعده قائلًا:

«أنا أشعر بالقلق إزاء الحالة الصحيّة للرئيس، كما لا أملك أيّة فكرة حول ما إذا كان في حالة واهنة... كانت يداه ترتعشان ويتحدّث بصعوبة كبيرة... كما لا يوجد دليل على معاناته من أمراض عقلية، بل كل ما في الأمر كانت أمراضًا جسدية حولته إلى مجرد قطع... وهذا ما يجعلني أشعر بالقلق الشديد»[1].

فهل كان الشعب الأميركي سيساند روزفلت في ولايته الرابعة كرئيس في تشرين الثاني/ نوفمبر 1944م لو أنهم اطلّعوا على تفاصيل حالة قلبه الشديدة التي نُشرت في تقييم طبّي مستقلّ؟. فروزفلت وقع اختياره ليحكم وربّما سيخسر، كما هو الحال بالنسبة لتشرشل، في أي تقييم طبي مستقل. كما أنه من الممكن أن يقوم بتذكير الجميع بتنبؤات الأطباء حول الشلل مدّعيًا أنهم قاموا بإخباره بعجزه عن الوقوف، ناهيك عن المشي لخطوات قليلة. لكن معرفته بالمواجهة التي سيتعرّض لها أمام ما سيكشفه التقييم، قد تؤدي به إلى التنحّي من

(1) Quoted in interview with Harry H. Vaughan, Oral History, **Presidential Archive**, Harry S. Truman Library, Independence, MO.

الحكم. في الحملة الانتخابيّة لعام 1944م، كان روزفلت قادرًا على الاعتماد على احتياطات مخفيّة، فقد استردَّ قبل الانتخابات، قوته القديمة جاعلًا حملاته في الهواء الطلق لساعات تحت المطر مع إظهار قدر كبير من الحيوية في مدينة نيويورك. وبذلك حتى وإن كُشفت حقيقة حالة روزفلت الصحيّة عن طريق تقييم طبي مستقل في صيف 1944م، فمن الممكن أن يعاد انتخابه لفترة أخرى في تشرين الثاني/ نوفمبر من السنة نفسها. هذا ما يجعله يستحق وبجدارة لقب البطل القومي.

أثارت الانتخابات الرئاسيّة لعام 1944م علامة استفهام حول ما إذا كان نشر تقييم طبي مستقل لروزفلت في فترة حرب يقصد من خلاله أن الدولة الديمقراطيّة تقوم بإفشاء الكثير من المعلومات حول صحة قائدها. كما طرح السؤال نفسه مع تشرشل الذي كان يقاتل من أجل انتخابات عام 1945م قبل ذكرى هزيمة اليابان. مثل هذه الحقائق تبيّن مدى صعوبة وضع قواعد صارمة من شأنها خدمة رئيس الحكومة. وبالتالي دَعَا البعض إلى إحداث استثناءات بشأن طبيعة الكشوفات الطبية في أوقات الحرب. فأنا وعلى الرّغم من كل الصعوبات ضد أي إعفاء، كما أعتقد أن قواعد الكشف عن المعلومات الصحية لرئيس حكومة قبل الانتخابات ضمان ديمقراطي أساسي أثناء الحرب أكثر مما ينبغي في زمن السِّلم.

كيف يمكن لتقييم طبي مستقل التأثير على المسار المهني لكبار السياسيين، ولكن لعدد قليل من الوجوه؟ إذا كان أنتوني إيدن قد اعترض على إجراء تقييم طبي مستقل سنة 1955م، فمن المحتمل أن يُمنح شهادة طبيّة سليمة نسبيًّا. فقد صارع أثناء الانتخابات ليصبح رئيسًا للوزراء ومن غير المحتمل أن يعتمد الناخبون على التصريحات التي نُشرت حول العمليّة الفاشلة، وكلّ ما يترتّب عليها من التهابات في الأوعية الصفراوية وأمراض أخرى عديدة.

لو كان جون كينيدي على وعي بالمواجهة التي سيخوضها أمام ما سيحدثه الكشف الطبي المستقل قبل الانتخابات الرئاسية لعام 1960م لقرر الكشف على أكثر المعلومات عن حالته الصحية قبل ذلك الموعد، وربّما بعد خوض آدلاي ستيفنسون انتخابات 1956م سيكون منح الوقت الكافي للشعب الأميركي لاستيعاب الحقائق. كما يكاد يكون من المؤكَّد تأريخ مرض أديسون من خلال خدمته في الحرب. وللمرة الأولى لست مقتنعًا أن مرض أديسون سيمنعه من الفوز بأربع سنوات لاحقة. فربما تغير موقفه وساعده على الاعتراف بأنّ أي شخصية عامة عرضة للتقييم الطبي المستقل والدَّوري للتوقف عن الاستخدام العشوائي للأدوية المؤدِّية إلى التغييرات المزاجية. وربما أصبح موشكًا، أكثر من أي وقت مضى،

على قبول الحاجة إلى اتِّباع نهج أكثر انضباطًا للعلاج الطبي لمرض أديسون كما هو شأن آلام الظهر.

لو أن ليندون جونسون قد واجه تقييمًا طبيًّا مستقلاً في الانتخابات الرئاسيّة لعام 1964م، عندما كان يحظى بشعبية كبيرة، لكان عندئذ قادرًا على التعامل مع التنبؤات حول حالة قلبه. ونظرًا لطبيعته، كان من الممكن أن يسيطر ويمنع كشف تفاصيل اكتئابه وارتيابه، ويضمن عدم توفر أي تقارير طبية، وأن أطباءه لم يفشوا إلا القليل. العديد ممّا ذُكر كان سيطبَّق على ريتشارد نيكسون الذي اشْتُهِرَ بسعيه وراء إعادة انتخابه في عام 1972م.

وفي بريطانيا، وبعد هزيمة هارولد ويلسون سنة 1970م، عقد العزم على معاودة الإطاحة بـإدوارد ويلسون من داونينغ ستريت على الرغم من المخاوف التي كانت تراوده حول حالته الصحية. ولكن قبل الانتخابات العامة التي جرت عام 1947م، أُكدت حالته الصحية الجيدة في أي كشف طبي عام ومستقل، وهو ما قاد حزبه نحو النصر. ففي الماضي لم تكشف سجلات الكشوفات الطبيّة المستقلة عن نتائج مثيرة. والأثر الكبير للكشف الطبي المستقل يكمن في إقناع أولئك الذين يعانون أمراضًا بعدم التستر لئلا يضطروا إلى كشف حالاتهم الصحية عن طريق الكشف الطبي المستقل.

لو أنّ توني بلير خضع إلى كشف طبي مستقل قبل فوزه على التوالي بالانتخابات الثلاثة العامّة الأخيرة، سوف يكون عندها مضطرًّا إلى الإفصاح عن كل التفاصيل حول دقَّات قلبه غير المنتظمة. من الأكيد أنه سيكون مضطرًّا لتقديم تفاصيل طبية دقيقة قبل الانتخابات على إثر معرفته بمدى إلزامية الكشوفات الطبية. فالمزيد من الانفتاح حول حالته الصحية من شأنه أن يبعد عنه أي ضرر، ويخفِّف الآثار السياسية الجانبية.

التقييم الطبي المستقل بعد تولي الحكم

ماذا يحل برؤساء الحكومات عند تعرِّضهم للمرض وهم في السلطة؟ يصبح الأمر عندها أكثر تعقيدًا وفي حاجة إلى نظام خاص ومختلف. فينبغي تشجيع الديمقراطيات على سنّ تشريعات تلزم رؤساء الحكومات بإجراء كشوفات طبية مستقلة وسنوية بصفة سرية. فبالحفاظ على الكشف الطبي يكون الطبيب المستقل قادرًا على متابعة الحالة الصحية لرئيس الحكومة دون خلق قلق عام أو إشعال جدل سياسي. فمن الأفضل وللاحتفاظ بقدر من الاستمرارية الطبية، الإبقاء على الطبيب نفسه في فترة ما قبل الانتخابات. كما أن

الطبيب العام والمستقل ملزم تشريعيًّا برفع مخاوفه إلى شخصية سياسية مرموقة. في واقع الأمر، تعتبر القدرات العقلية أكثر حساسية ويصعب تقييمها مما يجعل الطبيب المستقل في حاجة إلى الاستعانة بخبراء في التقييم دون ضجة إعلامية. وإذا كان رئيس الحكومة في حالة صحية لا تستدعي القلق لن ترفع عندئذ أي من التقارير، ولن تكون هناك دعاية تحيط بالكشف الطبي السنوي. أما إذا كانت تلك النتائج تشكك في قدرة رئيس الحكومة على الوفاء بسلطاته وواجبات منصبه، فهو مجبر عندئذ عن التنحي عن طريق السياسيين فقط.

إصابة رئيس الحكومة بالمرض تثير بعض الأسئلة الحساسة والعميقة في بعض الأحيان. فالسماح بالفصل الطوعي من الخدمة في نظام ديمقراطي لا يمكن أن يكون بمعزل عما يكشفه التقييم الطبي المستقل، ولا عن تعليمات صادرة عن مجموعة من الأطباء. يجب أن تكون المشورة الطبية المستقلة سرية في المقام الأول سواءً عن طريق سياسيين أو الأسرة. أما إذا تقرر تجاهل الكشف الطبي، فذلك سوف يتم عن طريق قائد سياسي رفيع المستوى في تعامله مع الحقائق، ومراعاته لجميع العوامل ذات الصلة. وفي أغلب الحالات يكشف الواقع العلمي والحتمي على التعارض القائم بين السياسي رفيع المستوى، ورئيس الحكومة المنتمي لنفس الحزب. فعندها يشعر ذلك السياسي بالحاجة إلى إجراء مشاورات غير رسمية مع قادة المهن الطبية، وطلب النصيحة السرية في خضم العديد من العوامل الأخرى كي تتضح لديه الرؤية حول ما إذا كان من الضروري رفع القضية أمام الزملاء داخل مجلس الوزراء.

إذا شعر أغلبية مجلس الوزراء بعدم قدرة رئيس حكومتهم على النهوض بسلطاتهم وواجباتهم، يقوم كبير وزعيم الساسة برفع تقرير إلى الكونغرس في الولايات المتحدة؛ والجمعية العامة ومجلس الشيوخ في فرنسا؛ ومجلس النواب وكل من الغرفتين البرلمانيتين في بريطانيا؛ وبرلمان البندستاغ والبوندسرات في ألمانيا. وإذا قررت هذه الهيئات وبأغلبية متفق عليها أن رئيس الحكومة أصبح غير قادر على الاضطلاع بمهامه، ينبغي عندئذ تطبيق الأحكام الدستورية ذات الصلة قصد اختيار خلف له. كما يمكن التفويض لكبار السياسيين في الحق بإجراء تقييم طبي مستقل في أي وقت عند الشعور بالقلق إزاء صحة رئيس الحكومة، فإجراء تقييم طبي مستقل هو الشيء الكافي الذي يجبر رؤساء الحكومات على التنحي طوعًا عند إصابتهم بالمرض.

وضعت الولايات المتحدة الأميركية على عكس بقيّة البلدان استراتيجية متطورة من

خلال التعديل الخامس والعشرين قصد التعامل مع رؤساء حكومتها المصابين بالمرض. لقد كانت هناك مبرِّرات قوية تدعو إلى الاعتماد على أحكام دستورية من شأنها أن تجبر الرئيس نيكسون على التنحي من منصبه في وقت مبكِّر. وروبرت داليك يعتقد أن:

تأثر «نيكسون» بقضية ووترغيت في إدارة الأزمة في الشرق الأوسط في عام 1973م ومفاوضات السّلام سنة 1974م، وقد أحسن كيسينجر صنعًا على الأقل عند التشاور مع سائر أعضاء مجلس الوزراء حول تعليق سلطة الرئيس بموجب التعديل الدستوري الخامس والعشرين. في حين أن أي مناقشة من هذا القبيل قد تؤدِّي إلى تقويض العلاقة بين نيكسون وكيسينجر، مع الإشارة إلى قلق كيسينجر إزاء الرفاه الوطني أكثر من بقاء نيكسون[1].

كان هناك تصور واضح حول أداء نيكسون بمناسبة 11 تشرين الأول/ أكتوبر 1973م عندما أُبلغ هنري كيسينجر، وزير الخارجية ورئيس المجلس القومي آنذاك، أن إدوارد هيث، رئيس الوزراء البريطاني يودُّ التحدث إلى نيكسون خلال النصف الساعة القادمة حول مخاوفه إزاء ما يحدث في الشرق الأوسط. وقال كيسينجر لنائبه في مجلس الأمن القومي براندت سكوكروفت: «عندما تحدثت إلى الرئيس كان ثملًا». ولذا اتفق على تأجيل المكالمة مع هيث إلى اليوم التالي. لكن المثير للدهشة في وضع نيكسون الطريقة التي تحدَّث بها كلٌّ من كيسينجر وسكوكروفت «كما لوكان الإفراط الزائد في شرب الخمر عند نيكسون جزءًا من حياتهم اليومية». بعد أيام وبالتّحديد في 24 تشرين الأول/ أكتوبر، كان نيكسون مجدَّدًا في حالة سكر عندما حذر ليونيد بريجنيف على الخط الساخن من تحرك موسكو بمفردها في حال لم توافق الولايات المتحدة على تدخل عسكري مشترك. وقد نوقش هذا الأمر في الفصل الثاني. كما ساهم كيسينجر في تعزيز الخيال حول نجاح نيكسون في الخروج من هذا الموقف. كان هذا شكلًا من أشكال تعثُّر الديمقراطيات القوية والأكثر تطورًا في تسيير أعمال بلادها عند الأزمات.

ومع ذلك وفي بعض الديمقراطيات الماضية، اعتبرت الكشوفات الطبية جزءًا واحدًا من مجموعة الاعتبارات السياسية التي تساعد رئيس الحكومة على البقاء في الحكم. ولهذا

---

(1) Robert Dallek, **Nixon and Kissinger**: Partners in Power (New York: HarperCollins, 2007), pp. 524, 530-531, 622.

السبب يعتبر إجراء فحوصات طبية ثابتة لجميع المرشحين لمنصب رئيس الحكومة قبل الانتخابات تدبيرًا وقائيًّا هامًّا. ولهذا السبب فعلى الإجراءات المتعلقة برئيس الحكومة الحالي مراعاة التعقيدات والحيل الحكومية في بعض الحالات بعينها. وهذا ما يتطلب حكمًا متوازنًا لتقييم جميع العوامل، وليس على الأقل العلاقة غير المؤكدة بين المرض والقدرة على اتخاذ القرارات.

الشيخوخة

قد لا تكون الشيخوخة السبب الوحيد لعدم قدرة رئيس حكومة على إدارة الحكم. قد يكون هذا التأثير متأتّيا من الشيخوخة لا غير. فالتقدم في السن يعتبر عاملًا خطيـرًا للاكتئاب ولكثير من الأمراض الأخرى. ومن الضروري التذكير أيضًا أن القادة السياسيين المتقدمين في السن، لا سيما عند إصابتهم بالمرض، هم أكثر ميلًا لقبول الوضع الرّاهن وعدم الحسم في اتخاذ القرارات، وغالبًا ما يصبحون أقل انفتاحًا، وهو ما يؤدي بالوضع السياسي إلى الانجراف. وقد كانت جلُّ هذه الخصائص متوفَّرة في العديد من كبار القادة الأوروبيين في فترة ما بين الحربين العالميتين، لا سيما الرئيس ديغول الذي أصبح قلقًا من سوابق بيتان وتشرشل ولا يريد التشبث بالمنصب في حال وجود شفقة مثيرة حول التدهور البدني والعقلي. فمارشال بيتان الذي أُعيدت تسميته كرئيس للحكومة الفرنسية عام 1940م، أصبح في سن الرابعة والثمانين متذبذبًا وفي بعض الأحيان غير متماسك وغير قادر حتى على التعرف على الناس. وقد تطور لديه أيضًا مرض باركنسون والذي كان خفيفًا وفي بداياته، وقد سمع العديد من المقربين إلى ديغول رغبته المتكتِّمة في وجود شخص يقوم بتحذيره عند عجزه عن جمع كامل قواه.

لكن الآن وفي سن الثامنة والسبعين من الأجدر أن يتنحى ديغول من المنصب، إلا إنه لا يزال جاهزًا لتبرير تمسكه بالبقاء في الإيليزيه. وعند قرب نهاية اليوم وداخل مكتب ديغول قال مساعده جان ديسكريان: إنه كان جالسًا في مكتبه وماسكًا ورقة بيده، وعندما ألقى عليه التحية، هم بقراءة محتوى الورقة قائلًا:

«هل تعلم أن» سوفوكليس «قام بكتابة مسرحية» أديب عند كولونيس «في سن التسعين»؟ وفي سنّ ناهز عن الثمانين لا يزال مايكل أنجلو يقوم بعمل مثير للإعجاب في مدخنة الكنيسة، وفي مبنى قبّة القديس بطرس. أمّا تيتان فقد أتم

رسم معركة ليبانتو في سن الخامسة والتسعين، ولوحة الهبوط من على الصليب عن سن تناهز السابعة والتسعين. وقد أنهى غوته الجزء الثاني من «قبضة» المماثل لأعماله السابقة في سن الثالثة والثمانين. كما كتب فيكتور هيغو توركومادا في سن الثانية والثمانين، وأسطورة القرون عند بلوغه الثالثة والثمانين، ثم جاء فولتير والآن مورياك!»[1].

وبذلك بدأ ديغول بخداع نفسه. فهناك فرق كبير بين القرارات المتَّخذة عن طريق رئيس حكومة مسنّ والتي تؤثِّر على ملايين المواطنين، والقدرات الإبداعية لهذه القائمة من كبار الفنَّانين والكتاب. كما أن الوهم الذي انتاب ديغول والعديد من رؤساء الحكومة المسنين يتمثل في أن كلاً منهم يعتقد نفسه هو الوحيد القادر على تجاهل مرور السنوات عملًا بالقول المأثور «عمري يترتب على شعوري». وكثيرًا ما يطيل وينسى رؤساء الحكومة أن العديد من حكوماتهم هي ضمان لصانعي القرار الرئيسيين المجبرين على التقاعد في سن لازالوا فيه يهتفون عنده بمدى قدرتهم على مزاولة السلطة. فمن الغرور والمخاطرة السماح لرؤساء الحكومات بالتشبُّث بالسلطة في الوقت الذي يتقاعد عنده أغلب الناس. ولماذا لا تزال العديد من الحكومات تنتظر الإبقاء على قواعد التقاعد من بعض صانعي القرار؟ في المملكة المتحدة، غالبًا ما يتقاعد الأدميرالات والجنرالات وحراس الجو في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات. أما رؤساء الشرطة فعادة ما يتقاعدون في سن مبكرة، لكن الأطباء والجراحين الاستشاريين كثيرًا ما يضطرون إلى التقاعد في سن الخامسة والستين. كما أن الأطباء المزاولين في المملكة المتحدة والذين يعملون كمتعاقدين مستقلين شأنهم شأن القضاة عليهم التقاعد في سن معينة. ومن النادر جدًّا، في الأعمال التجارية الخاصة والعامة، أن يتم تعيين رئيس تنفيذي قد تجاوز سن الستين، كما لا يمكنه مزاولة العمل بعد سن الخامسة والستين. ولكن بعض الساسة في العديد من الدول يواصلون إعفاء أنفسهم من الممارسات والقواعد والحفاظ على سلامتهم الصحية إلى حدِّ سن الثمانين كما يفعل بعض رؤساء الحكومات.

ومع ذلك شرعت الحكومات في وضع تشريعات أكثر مرونة لسن التقاعد. فالسن الثابت يميل إلى الذهاب حيث ترتفع تكلفة المعاشات التقاعدية، أما الصحة الجيدة فهي تعني

(1) Jean Lacouture, De Gaulle: **The Ruler 1945-1970** (London: Harvill, 1991), p. 573.

رغبة الناس في مواصلة العمل. لكن النتيجة الطبيعية لطول الحياة الوظيفية هي الاستعداد الكبير للتقاعد بمجرد الإصابة بالمرض ـ الذي يمكن أن يحدث ـ دون سابق إنذار. وبالتالي الاستعداد الكامل لتقبل المشورة الطبية والتقييم الطبي المستقل في حالة صنع القرارات.

واحدة من بين الضمانات البسيطة والمميزة ضد متلازمة الغطرسة النامية عند مزاولة السلطة، هي كيفية سن الديمقراطيات للتشريعات قصد ضمان عدم بقاء رئيس الحكومة في منصبه لمدة زمنية طويلة. فبعد إعادة انتخاب فرانكلين روزفلت للمرة الرابعة، كان على الولايات المتحدة أن توجد تشريعًا يحدُّ من جبروت الرئيس عند المباشرة. وبناءً على ذلك، صدر قانون يحدُّ من ترشح أي رئيس إلى أكثر من ولايتين متتاليتين، ممّا يعني ثماني سنوات كحدّ أقصى. ومنذ ذلك الوقت، لم يبق أي رئيس أميركي في الحكم أكثر من ثماني سنوات وهذا ما خدم أميركا إيجابيًّا. كما أن نائبي الرّئيسين ترومان وجونسون، اللذين دخلا البيت الأبيض قصد استكمال الشروط الرئاسية لأسلافهم، لم يسعَيا مناضلين إلى البقاء أكثر من ثماني سنوات عبر ولاية رئاسية ثالثة. فأيزنهاور وريغان وكلينتون، حكموا لمدة ثماني سنوات على الرغم من أن الدوائر الانتخابية أبدت لهم ترحابًا في حال البقاء لفترة أطول. وبما أنهم الرؤساء المشاهير وفي نهاية الثماني سنوات، فهم قادرون على القتال والفوز بولاية ثالثة، عند السماح لهم. ومع ذلك وإن حصلوا على ولاية ثالثة، فثلاثتهم معرضون للإصابة بأمراض خطيرة في وقت مبكِّر. وبغضِّ النظر عن احتمال الإصابة بالمرض، فولايتان فقط تحدُّ وإلى حدٍّ كبير من فُرص القادة في الخضوع للتسمم الحكومي. فرئيس الحكومة الذي يعمل أكثر وقت هو أكثر عرضة لتطور الغطرسة.

في بريطانيا، لا يوجد حدٌّ مشرَّع لتحديد فترة خدمة رئيس الحكومة. كما لا يوجد دورة ثابتة للبرلمان بالرغم من أنه لا يمكن الاستمرار أكثر من خمس سنوات دون إجراء انتخابات عامة يأذن بها كلّ من مجلس العموم ومجلس اللوردات. فعلى بريطانيا سن تشريعات تحدُّ من عدد السنوات التي يمكن أن يشغلها من هو برئاسة الحكومة إلى ثماني سنوات، سواء كانت متتالية أو متقطِّعة. هارولد ويلسون هو من بين الأمثلة التي خدمت ثماني سنوات متقطِّعة. لو أن مارغريت تاتشر عمدت إلى التنحّي في أيار/ مايو 1987م بعد ثماني سنوات، لنأى بها هذا القرار وبسمعتها الكبيرة والحسنة إلى منأى أفضل مما أبداه التاريخ عنها بعد أن نُحيت من قبل أعضاء البرلمان المحافظين في عام 1990م. فالتقليص في فترة الحكم إلى ثماني سنوات يدعو توني بلير إلى التنحّي في موعد لا يتجاوز أيار/ مايو 2005م، وفي الواقع

فقد فاز توني بلير بولاية ثالثة في ذلك الوقت، ولكن بأغلبية منخفضة بالإضافة إلى اندهاشه من عدم قدرته على السيطرة. وتبعًا لذلك، وبعد ستة أشهر، أعلمه أعضاء البرلمان بضرورة تنحِّيه في غضون سنة.

لا يوجد في فرنسا تحديد لسنوات الخدمة الرئاسية، لكن طول هذه الفترة فيما بين الانتخابات قُلِّص من طرف جاك شيراك من سبع إلى خمس سنوات. وبتحديد فترتين بعشر سنوات في ذلك الوقت، كان يتعين على شيراك التنحي في أيار/ مايو 2005م بدلًا من 2007م. وكانت الفدرالية الروسية منذ عهد بوريس يلتسين تعتمد ولايتين بمدة ثماني سنوات. وفي إفريقيا والعديد من البلدان الاستعمارية المتحصلة على الاستقلال تعتمد على دساتير تنص على ولايتين تصل معظمها إلى ثماني سنوات. وعلى نحو مأساوي فكلما ازدادت سلطتهم الشخصية يعمد الكثير جدًّا من الرؤساء لتغيير دستور دولتهم لإطالة أمد بقائهم في السلطة، فيكون وجودهم في الحياة افتراضيًّا وله نتائج مدمرة. هذا التوجه ولحسن الحظ بدأ بالتراجع.

العزلة

لجو السلطة المحيط بمعظم زعماء الحكومات تأثير هام حتى على أكثر الشخصيات استقرارًا. فهم محاطون بجهاز مدني تنفيذي، ولديهم أعداد كبيرة من المستشارين السياسيين، سائقي سيارات، أعوان شرطة مرافقين وطائرة خاصة. وهم يميلون للسفر من جناح خاص بالشخصيات المهمة في مطار إلى آخر، كما أنهم يعيشون في منازل في قلب العاصمة مملوكة للدولة، وأيضًا عادة في أماكن ريفية من البلاد. كل هذا يؤدي إلى مستوى معيشة لا يمكن أن يصله إلا القليل جدًّا من الناس الأثرياء في العالم. لكن الأهم من ذلك كله هو أنه يخلق عزلة لرئيس الحكومة، والتي وقع الآن دعمها بأعداد مهولة من جهاز الأمن الشخصي. فحتى في السويد تغيرت الإجراءات منذ اغتيال أولوف بالم سنة 1986م عندما كان عائدًا من السينما بصحبة زوجته. وقد زادت البلدان في حجم ونطاق الحماية الشخصية لرئيس الحكومة مع تنامي خطر التهديد الإرهابي.

عندما أصبحت عضوًا في البرلمان لأول مرة سنة 1966م كان باستطاعتي السير على طول داونينغ ستريت دون أن أبدي أية وثيقة ولا حتى للشرطي الواقف في الباب، ثم أدخل ليستقبلني المصاحب في الداخل. في ذلك الوقت لم يكن هناك إلا ثلاثة وزراء يتمتعون

بالحماية الشخصية وهم: رئيس الوزراء، ووزير الخارجية، ووزير الداخليّة وعادة ما يكون ضابط أمن واحد، وفي بعض الأحيان ضابطي أمن في أية مناسبة عامة. أمّا الآن فالكثير من الساسة يحظون بالحماية الشخصية، كما ازداد عدد أعوان الشرطة المنخرطة كثيرًا. واليوم أصبح داونينغ ستريت مغلقًا أمام العامة، والحواجز ترفع للسماح بمرور السيارات. فمشاهدة وصول الرئيس الأميركي إلى داونينغ ستريت هي بمثابة مشاهدة عملية عسكرية. كما أن مجيء وذهاب رئيس الوزراء يتضمن عرض خاص للشرطة، الأسلحة والعربات. لقد قطعنا شوطًا منذ 1945م رغم أنه محزن ولكنه ضروري في غالب جزئيته. لقد سارت بريطانيا مشوارًا طويلًا منذ قادت فيولات أتلي بصحبة زوجها سيارتهما الخاصة نحو قصر باكينغهام لاستلام ختمّ المنصب كرئيس للوزراء من جورج السادس.

وحتى الآن هناك عزلة أكثر غدرًا وهو التنظيم الهرمي، أي: الخضوع ضمن الحكومة التي تدعم زعيمها لكي يتمكن أولئك من الاعتقاد وبسهولة بأنهم ليسوا مثل الرجال والنساء الآخرين، ولهذا فإنه هناك الكثير من الحاجة إلى الثبات والموازنة القوية في شخص أي رئيس حكومة للتثبت في الامتيازات وحدود الغطاء الذي يحيط بهم. فالحاجة إلى إقرار دوري من قبل الناخبين مع خطر الهزيمة ظل أحد التجارب الديمقراطية الأكثر إفادة. لكن للأسف فالأثر الإيجابي للحملة ومع التسوية السفلية حيث يصبح الزعيم أقرب إلى حياة المواطن العادي لا تستمر. فمظاهر القوة، خاصة الحماية الشخصية تبقى مصاحبة لقائد الحكومة خلال الانتخابات، وهذا يعني أنها محمية من الدعاية الانتخابية العادية، وأن الطريقة القديمة للاجتماعات مع نشطاء الحزب قد اندثرت. فجون ميجور كرئيس وزراء وهو يبني «علب الصابون» للقيام بحملته في الانتخابات العامة لسنة 1992م يبدو بالفعل ذكرى بعيدة.

ولأكثر من أربعين سنة وأنا شخصيًّا أشاهد تحول العديد من الساسة إلى زعماء حكومات في العديد من الدول. فأرواحنا في أيدي قادة حكوماتنا. وفي كثير من الأحيان تصبح تلك الأيدي والعقول التي تتحكم بها غير قادرة على اتخاذ أفضل القرارات على نحو فعّال. لدينا إجراءات لمحاولة ضمان حصول صانعي القرار الرئيسيين في التجارة، والأعمال والقوات المسلحة لتعمل بقدرتها الكامنة. لقد حان الوقت لتتخذ جميع الدول الديمقراطية إجراءات لحماية قدرة رؤساء حكوماتهم.

الطغاة وتغيير النظام

ثمة شيء واحد لوضع المبادئ التوجيهية لمعرفة كيفية وجوب تعامل المجتمعات الديمقراطية مع قادتها الذين أصبحوا مرضى جدًّا، وهو الوصول إلى سن متقدمة أو الغطرسة الكبيرة أثناء أداء واجباتهم، بل ثمة شيء آخر لإلزام الطغاة الذين أصبح حكمهم خطرًا على شعوبهم.

العديد من الطغاة ينغمسون في سلوك يجعلهم في أغلب الأحيان يبدون للعالم الخارجي كما لو كانوا يعانون من مرض عقلي معترف به. لكن هذه الحالة نادرة. وكما قيل من ذي قبل فلا هتلر ولا ستالين كانا «مجنونين» بأي معنى تقرِّه مهنة الطب، لكن موسوليني كان كذلك، بسبب الاكتئاب الذي عرفه في سنواته الأخيرة. فخلال حياته السياسية الخاصة بدا الكثير من الطغاة والذين تعاملت معهم، مجرد مجانين بالنسبة إلى الرأي العام. فلو عرض قادة الحكومات هؤلاء من قبل على محكمة الجنايات الدولية، فإني أشك أن الكثير منهم مثل سلوبودان ملوزوفيتش أو صدام حسين كانوا سيقرون بالمرض العقلي في دفاعهم. فإذا أردنا التعامل مع قادة بمثل هذا الخطر على شعوبهم الخاصة، وأحيانًا على العالم برمته، فالمسألة ليست ما إذا كانوا مرضى عقليين، بل ما إذا كان العالم على استعداد للتدخل. فكما تحتاج المجتمعات الديمقراطية لتطبيق إجراءات جديدة للتعاطي مع المرض لدى قادة حكوماتهم الخاصة، فالأمم المتحدة في حاجة لتكون مستعدة للتدخل للإطاحة بقائد، أو لتغيير نظام قد يبدو أنه يمثل خطرًا على السلام.

ثمة ثلاث طغاة على نحو خاص خلال الأربعين سنة الماضية إلى جانب صدام حسين يجسدون هذه الحاجة، وهم بول بوت، عيدي أمين، وروبرت موغابي. فعندما أصبحت وزيرًا للخارجية سنة 1977م، كان بول بوت قد أصبح زعيمًا للخمير الحمر في كمبوديا منذ سنتين. فعندما ولد كان اسمه «صولاث صار» ثم استعار اسمه الحربي في سنة 1970م. لقد كان طالبًا ماركسيًّا راديكاليًا في باريس، وعضوًا في الحزب الشيوعي السري ثمّ أصبح أمينه العام سنة 1962م. ثمّ انجذب إلى الفوضوي الروسي بيتر كروبوتين. كما أن سلوكه الهادئ اتسم بالقسوة، عكست تلك التي لدى ستالين وخاصة ماو. كما أنه تعرض أيضًا إلى المثقفين والناس الذين كانوا يمكن أن يقتلوا لمجرد أنهم يرتدون نظارات أو يتحدثون لغة أجنبية. كما أعرب عن اعتقاده في الثورة الدائمة. وعند وصوله إلى السلطة ألغى ببساطة كل من «النقود، المحاكم، الصحف، نظام البريد والاتصالات الخارجية، وحتى مفهوم

المدينة». ودون أي اعتبار لمليوني ساكن هناك، أفرغ العاصمة فنوم بانه في نيسان/ أبريل 1975م ودفع الناس إلى الخروج إلى المناطق الريفية المحيطة بها. «فلم يتمّ تقليص الحقوق الفرديّة لتكون في صالح الجماعة، لكن أُخمدت كلها تمامًا. فابتكار الفرد وروح المبادرة أدينوا أصلًا في حدِّ ذاتهم. كما أن وعي الفرد هُدِّم بشكل منتظم»[1]. فعلى مدى أكثر من ثلاث سنوات فقد نصف مليون كمبودي حياته من مجموع سبعة ملايين نسمة.

ولم توجد علامات واضحة لمرضه يمكن أن تفسر تعصبه. فمفتاح شخصية بول بوت في أنه يبدو عندما كان صغيرًا وهو في مدرسة بوذيَّة تعلَّم كيفيَّة القضاء على الفردانية، وقام بالجمع بين عدميَّة بوذيَّة ثيرافادا وما ورائيـات وخرافات الخمير. وكما كتب فيليب شوت في سيرته الذاتية: «هناك العديد من الأسباب للمأساة الفظيعة، فالثقة بالنفس المبالغ فيها لدى قادة الدولة الجدد وخاصة قائدها الرئيسي وهو الرجل الذي سيصبح بول بوت، ولكنه مجرد عنصر واحد... فالغطرسة هي الخطيئة المحدقة بالاستبداد في كل مكان»[2].

لكن لا يسمح لنا ضميرنا الغربي بأن يُنسينا الكمّ القليل الذي فعلناه. فلم ينته القتال إلا في 25 كانون الأول/ ديسمبر 1978م عندما أرسلت الفيتنام (100.000) رجل عبر الحدود مع كمبوديا. وقد دفع النموذج المضلل للسياسة الواقعية الولايات المتحدة ودولًا أخرى من بينها المملكة المتحدة إلى اتخاذ موقف، والذي كان في الحقيقة تجاهل جرائم بول بوت لأنّه عارض سيـطرة الشيوعيين على فيتنام. لكن الإبادة الجماعـية في كـمبوديـا وفَّرت محنة مخيفة لتورُّط الولايات المتحدة في جنوب شرق آسيا إبَّان حرب الفيتنام.

أمّا في إفريقيا فإن رئيس أوغندا عيدي أمين غالبًا ما وصف بأنه مهرج مجنون، ولكن في الواقع كان ساديًّا فاحشًا. كما أصبح العالم الآن أكثر وعيًا بذلك من خلال فيلم سنة 2006م، «آخر ملك لإسكوتلندا». ففي شهر كانون الثاني/ يناير سنة 1971م وفي عمر الخامسة والأربعين كان عيدي أمين قد اعتلى السلطة نتيجة للانقلاب الذي أطاح بملتون أوبوتي. وفي البداية اعترف بقتله وقال: إنه اقتصر أساسًا على الجنود الذين اعتبرهم خونة، ولكنّه سرعان ما أصبح خارج نطاق السيطرة تمامًا، مجيزًا في ذلك مئات الآلاف من عمليات القتل، ومرتكبًا جرائم ضد الإنسانية ذات طابع بشع. لقد كان سلوكه غريبًا وغير متوقَّع. وقد

(1) Philip Short, **Pol Pot: Anatomy of a Nightmare** (New York: Henry Holt, 2005), p. 63.

(2) المصدر نفسه، ص 4.

شكك بعض الأطباء في إمكانية أن يكون يعاني من المراحل الأخيرة من مرض الزهري[1] والمعروف باسم شلل المجانين العام. غير أن التشخيص لم يثبت ذلك وتبين في وقت لاحق أنه كان خاطئًا، لأن المرض كان آخر محطة، توفي أمين في نهاية المطاف لأسباب طبيعيّة سنة 2003م في المملكة العربية السعوديّة، حيث منح اللجوء السياسي.

لست خجلًا من الاعتراف بأنّي عندما كنت وزيرًا للخارجيّة أُحبطت تمامًا من عدم القدرة على وقف مجازر أمين. ففكّرت في اغتياله، ناقشت ذلك مع ديبلوماسي رفيع المستوى ينسّق مع جهاز الاستخبارات البريطاني. ولكن في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية أصبحت ثقافة القيام بمثل هذا العمل عميقة الجذور داخل الأجهزة الأمنيّة في بريطانيا، وأيضًا لأسباب وجيهة جدًّا. فعندما يعتبر اغتيال قادة الإبادة الجماعية كخيار في زمن السلم فإن سلبيات اتخاذ هذا الإجراء تقريبًا دائمًا ما تفوق الإيجابيات. وفي نهاية المطاف وتحديدًا سنة 1979 أطاح تدخل حكومة تنزانيا العسكري بأمين من خلال الهجمات عبر الحدود والاستفزاز المستمر. وبناء على طلب المساعدة بعد ذلك من قبل الرئيس التنزاني جوليوس نيريري. كما سمحت لبريطانيا بدعم القوات التنزانية المحتاجة لدفع تكاليف الذخيرة اللازمة وذلك بطريقة ملتوية. «لقد ترك حكم أمين أوغندا مدمرة، وينعدم فيها القانون، ومفلسة. مع عدد قتلى يصل إلى (250.000 شخص)»، ولكن في هذه الحالة من الصعب الادعاء بأن التدخل العسكري الخارجي في عام 1979م جلب السلام والاستقرار. وأمام إصرار بريطانيا لم يعاد انتخاب أوبوتي كرئيس وعُيِّن أوغنديًّا آخر مقبولًا. ومع ذلك عاد أوبوتي في وقت قريب كرئيس إلى أن أطيح به سنة 1985م «كان قمعه سيئًا كما كان قمع أمين» مع حوالي (300.00) حالة وفاة بين المدنيّين[2].

كما أن أوغندا لا تزال غير مستقرة تحت قيادة رئيسها المتغطرس الجنرال يوري موسيفيني، وعدم استقرار أوغندا انتشر في رواندا مع الإبادة الجماعية المروعة لعام 1994م

(1) ينتقل مرض الزهري عبر الاتصال الجنسي، وصنِّف في أحايين نادرة بأنه مرض فطري. ويحدث بسبب اللولبية الشاحبة، وهي بكتيريا ملتوية يمكن رؤيتها في عينة الدم تحت المجهر، ويُعالج مرض الزهري باستخدام البنسلين. وللزهري ثلاث مراحل سريريّة: الأولية، والثانوية، والثالثة. وعادة ما تبدو المرحلة الثالثة جليّة بعد سنوات من الإصابة، إلا أنها قد تظهر أحيانًا بعد شهور. ويمكن أن يسبب ذلك قصورًا عصبيًا، أو هزال في الأعضاء، أو الشلل العام، وأحيانًا تبرز معها علامات على هوس العظمة. وعاش أمين سنوات عديدة عانى فيها من الشلل العام.

(2) Martin Meredith, **The State of Africa: A History of Fifty Years of- Independence**, pb ed. (London: Free Press, 2006), p. 238.

والتي امتدت أيضًا إلى زائير (الكنغو الديمقراطية الآن). وقد رفض مجلس الأمن الدولي بقيادة الولايات المتحدة في عهد الرئيس كلينتون التدخل في رواندا مع قوة الرد السريع الموسعة، التي دعا إليها القائد الكندي التابع للأمم المتحدة، في هذه البؤرة. فهناك قليل من الشك في أنه إذا كان قد أطيح بأمين بعقوبات أممية مدعومة من جيران أوغندا بين عامي (1975 و1976م) فإنه كان يمكن أن يكون أفضل سيناريو للاجتياح العسكري التنزاني، كما أن تاريخ تلك المنطقة بأكملها كان يمكن أن يتحسَّن كثيرًا.

قسوة روبرت موغابي أصبحت واضحة بالنسبة لي عندما كنت بصدد التفاوض معه على استقلال روديسيا بين عامي (1977 و1979م)[1]. ولكن خلال معاملاتي معه لم يقل أية كذبة واضحة، كما لم ألاحظ أية علامة لعدم الاستقرار العقلي. ولكن مع ذلك فقد كان متعصّبًا أديولوجيًّا وعنيد ومتسلِّط، فادعى أنه قائد سياسي ماوي، على الرغم من أن جهاز الاستخبارات البريطاني، وبناءً على طلبي، اكتشفت أنه كان يرتاد سرًّا اجتماعات في مابوتو عاصمة موزنبيق حيث تلقَّى تعليمًا مسيحيًّا في مدرسة في روديسيا. ولكن على أساس «اعوجاج قليل أفضل من كثير من التعصب» كما اعتقدت سنة 1978م أن جوشوا نوكومو من شأنه أن يكون أفضل أول زعيم لزمبابوي ديمقراطية عوضًا عن موغابي. وقد ساعدت لفترة من الوقت في متابعة مفاوضات سرية مع نوكومو لتحقيق ذلك. وفي النهاية خلصت إلى لقاء بين نوكومو وإيان سميث عُقد في لوزاكا في سرية تامة بحضور وزير خارجية نيجيريا، جو غاربا، الذي حضر برعاية أولوسيجون أوباسنجو وبحضور أيضًا رئيس زمبابوي كينيث كاوندا بوصفه المضيف. وانتهى الاجتماع مع عودة نوكومو مباشرة إلى روديسيا ليقع استقباله كرئيس وزراء عند مدرج الطائرة من قبل الجنرال بيتر وولز، قائد الجيش في روديسيا واضعًا بذلك نهاية للاستقلال غير القانوني. لقد كان بالإمكان إجراء انتخابات نزيهة وحرة في غضون سنة بدعم بريطاني، كما أنه على الأمم المتحدة ورابطة الشعوب البريطانية أن تستأنس بقوة عسكرية وحملة مراقبين. لكن لم يكن الأمر كذلك، حيث تقرر عقد اجتماع آخر تحتضنه لوزاكا، لكن المبادرة أصبحت معروفة لدى العامة قبله ولم يعقد الاجتماع أبدًا. لقد كان كل من نيريري وموغابي ضد المفهوم برمته تمامًا.

لقد كنت خجلًا بعض الشيء في بداية الثمانينات لما كنت قد قمت به من سياسة سرية

(1) David Owen, «Africa», in **Time to Declare** (London: Michael Joseph, 1991), pp. 291-318.

لأن ذلك كان ضد توقعاتي، فموغابي وكرئيس وزراء جديد بدا مشرفًا على فترة رائعة من المصالحة. وأخذًا بعين الاعتبار ما كان يجب عليه وعلى بعض القادة السود الآخرين تحمله بعد إعلان سميث غير الشرعي للاستقلال، فمصالحة موغابي مع المتمردين البيض داخل زمبابوي بدت على حدٍّ سواء سخية ومستنيرة. لكن وعلى نحو مؤسف كانت مرحلة موغابي الإصلاحية بصدد التلاشي، وفي تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1980م فبعد ستة أشهر فقط من الاستقلال وقَّع موغابي سريًّا على اتفاق مع كوريا الشمالية، لتدريب لواء خامس جديد يتألف بالكامل تقريبًا من المقاتلين السابقين لمتحدثي الشونا للتعاطي مع المنشقين في الداخل. ومقارنة بجيش الزمبابوي، كان لدى اللواء الخامس بزَّات مختلفة، أفضل المعدات، الأسلحة وشبكة اتصالات مختلفة. وقد سمح موغابي للواء الخامس فيما بعد بالاستعمال العشوائي للقوة مع الضرب والحرق والقتل الجماعي في كانون الثاني/ يناير من سنة 1983م ضد شعب ماتابيلي. وما أثار دهشتي كثيرًا هو أن موغابي كان قد شجب بشدّة الفساد الذي رأى أنه مرتبط بالرأسمالية. فموغابي نفسه بدأ يصبح أكثر فسادًا من أي وقت قد مضى. كما دمَّر تدريجيًّا الديمقراطية البرلمانية، ورفض كل تملّق من القادة الأفارقة الآخرين للتنحي عن السلطة.

كانت زمبابوي منذ بداية القرن الواحد والعشرين في قبضة شيخ متعصِّب، كما أن موغابي كان قد خطط لتدمير الإنتاج الفلاحي للدولة الذي ازدهر ذات مرة، كما خطط لتدمير استقرار اقتصادها بشكل وحشي وتقويض الأساس الديمقراطي لدستور 1980م. وبحلول سنة 2005م كان أكثر من ثلث سكان زمبابوي والبالغ عددهم 12 مليون نسمة في حاجة لمعونات غذائية لتجنب حالة سوء التغذية. وبعد ذلك بعامين كان البلد في دوامة متراجعة مع وجود تضخم حاد قُدِّر بـ(11000) بالمئة، كما أعلن موغابي وهو في عمر الثالثة والثمانين أنه يسعى إلى ست سنوات إضافية في السلطة. لقد واجه العالم محنة أخلاقية صارعها عمال الإغاثة في أماكن أخرى. ومن خلال المساعدة في توفير الغذاء، تعزّز البقاء في السلطة لأولئك الذين أدُّوا إلى كارثة إنسانية حقيقية، يحاول أيّ كان التخفيف منها.

كان موغابي ولعدة سنوات قد وصف «بالمجنون» من قبل الصحافة البريطانية والأميركية، وهو تشخيص سطحي جدًّا يعلَّق عليه. كما كنت رفضت الاتصال به ولمدة تزيد عن أكثر من ثلاثين سنة اعتقادًا مني أن ما كان يقوم به موغابي كان يعكس الطبيعة الوحشية والتدميرية لشكل شيوعية ماو التي كان معجبًا بها. كما كنت فيما بعد وفي عام 2006 م. قد

شاهدت مسرحيّة رائعة بعنوان: «فطور صباح مع موغابي» وقد قدم ذلك نظرة إفريقية خاصة لما يمكن أن يكون أصل مشاكل موغابي مشابهًا نوعًا ما لدور الخرافة في شخصية بول بوت. فالحقيقة التاريخية أن المسرحية وفي جزء منها هي اكتشاف لرؤية وايستن هاف أودن الشهيرة «أولئك الذين يتعرضون لشرور، يردُّون عن ذلك بالشرور». فما أُكد عليه وما كان معروفًا لدى الكثير في المنطقة هو كراهية موغابي العنيدة التي شعر بها تجاه ايان سميث لرفض منحه إخراج استعطاف يتسنّى له به رؤية ابنه البالغ ثلاث سنوات قبل وفاته، بسبب ملاريا التهاب الدماغ في أكرا سنة 1966م، ومع ذلك فإن المسرحية تمضي لتصوِّر روح الراحل المريرة نغوزي الذي مات بعنف وعاد على هيئة الرفيق يوشيا تونغوغارا، ليطارد ويجلب الرعب لموغابي وفقًا لتقاليد شونا. ويتحدَّث موغابي إلى طبيب نفساني أبيض وتترك المسرحية المرء يتساءل عن القوى التقليدية العميقة التي يمكن أن تقود موغابي.

فكون جنوب أفريقيا ما بعد التمييز العنصري لم تتوحَّد مع مجلس الأمن الدولي لضمان إزالة موغابي عن السلطة في زمبابوي منذ أوائل 1990م قد يترك وصمة دائمة في كلا البلدين وفي المنطقة برمتها. ويمكن حتى أن يقوِّض الديمقراطية في جنوب إفريقيا نفسها إن صدقت نظرة بعض المتشائمين. فيا لها من مفارقة أن تشعر حكومة عمالية سنة 1995م وبأغلبية قليلة ومع وجود معارضة من المحافظين ضد استخدام القوة، بأنها غير قادرة على اتِّخاذ عمل عسكري لإعادة الشرعية في روديسيا، لأن أقلية جنوب إفريقيا من العنصريين البيض كانت تدعم سميث، وكانت ترفض الإطاحة به بواسطة تدخل عسكري. والآن ومنذ سنة 1997م وحكومة حزب العمال ذات الأغلبية البرلمانية الكبيرة ووجود معارضة من حزب المحافظين، ترغب في اتِّخاذ إجراءات صارمة ضد موغابي، ولا تزال تشعر أنها غير قادرة على التدخل عسكريًّا، وذلك لأن حكومة ديمقراطيّة جنوب أفريقية هذه المرة رفضت المساعدة في الإطاحة بموغابي.

حق الأمم المتحدة في التدخّل

إن هذه الأمثلة الوجيزة لبول بوت وأمين وموغابي تبين أن التدخل الإنساني له حدود والذي تحدده في الكثير من الأحيان السياسة الواقعية. وهذا ليس بالأمر الجديد فالتدخلات العسكريّة كانت دائمًا محدودة بحسابات القوة العسكرية، الإرادة السياسية والالتزام العقائدي. ويتضح ذلك من خلال رفض حلف شمال الأطلسي التدخل ضد الغزو السوفياتي

للمجر سنة 1956م وتشيكوسلوفاكيا سنة 1968م. فالسياسة الواقعية تقبع خلف عدم اكتراث مجلس الأمن الدولي بالإبادة الجماعية في رواندا، وهو أمر واضح مرّة أخرى في السودان. فكوفي عنان الأمين العام للأمم المتحدة دعم مبدأ «مسؤولية الحماية» لإضفاء شرعية على التدخل الإنساني، وهو ما قبلت به الجمعية العامة سنة 2005م.

لقد اتّصفت فترة عنان كأمين عام للأمم المتحدة بعزمه على الدفاع عن مبدأ «السيادة المشروطة» وتحدِّيه للرأي القائل بأن سلوك الدولة هو من شؤونها الداخلية، ولا يجب انتهاكه. لقد أخبر الجمعية العامة في أيلول/ سبتمبر 1999م وفي ضوء ما حصل للأمم المتحدة من تجاوز في موضوع كوسوفو «أصبح مفهوم الدّولة الآن وعلى نطاق واسع هو خدمة الشعب وليس العكس» ومضى عنان في ذلك ليعلن أنه على الدول الأعضاء في الأمم المتحدة أن تتبنّى «تصوُّرًا على نطاق أوسع، وأكثر تعريفًا لمفهوم المصلحة العامّة». لأنه لم يعد ممكنًا النظر إلى الإبادة الممنهجة لمواطني دولة تافهة استراتيجيًا، على أنها مسألة ذات مصدر قلق قليل أو معدوم بالنسبة لمجلس الأمن. لقد كان واعيًا بأنه بعد كوسوفو، «إن لم يكن الوعي الإنساني العام... قادرًا على إيجاد منبر عظيم في الأمم المتحدة، فثمة خطر كبير وسوف ننظر في أي مكان آخر من أجل السلام والعدالة».

فالنظام مثله مثل رئيس الحكومة يمكن أن يكون هدفًا للعقوبات، فإذا تجسدت فيه الأهوال والعيوب فهو نظام لا بد من استبداله. ولفرض تنحّي رئيس حكومة أو نظام، أصبحت أكثر اقتناعًا من أي وقت أن الأمم المتحدة يجب أن تكون أكثر استعدادًا لتأكيد أوسع تعريف علني لمفهوم «خطر على السلام» ضمن أوسع تعريف لميثاق الأمم المتحدة. وهذا يعني أنه يمكن طلب تغيير نظام، إمّا عن طريق موجة حادّة وقصيرة من العقوبات الاقتصادية والسياسية، أو من خلال التهديد. وهذا يعني أن تفسير ميثاق الأمم المتحدة يعطي مجلس الأمن الحق في الإصرار على تنحية رئيس حكومة ما عندما يقع الإقرار بأن وجوده في السلطة يمثل خطرًا على السلام. ففي خريف 1977م وفي أعقاب حالة الرعب العامة إثر الظروف التي أحاطت بوفاة الناشط بيكوستيف المناوئ للتمييز العنصري، دعّمت المملكة المتحدة إدارة جيمي كارتر أخذًا بعين النظر اعتبار مجلس الأمن ولأول مرة أن التمييز العنصري في جنوب إفريقيا كان «خطرًا على السلام» وبأنّه كان ينبغي تطبيق حظر إلزامي على الأسلحة.

فالتدخل العسكري لا ينبغي أن يكون الملاذ الأول، ولكنه يحتاج إلى أن يكون متاحًا وليس فقط بعد سنوات من الانتظار. فمن المهمّ جدًّا أن الإخفاق الذريع في العراق لا يستبعد تدخلات عسكرية في المستقبل. كما أن استخدام الحوافز و«نهج العصا والجزرة» مهم أيضًا. لأنّها كانت مجدية في التعامل مع الكولونيل الليبي معمّر القذافي. فالقذافي أحد قادة الحكومات الذي وصف ولسنوات عديدة بأنّه «مجنون». وقد كان هذا بالرغم من إنه لم يتم الإقرار أبدا بأنّه يعاني من مرض طبّي معروف. وقد وصف بطريقة جيدة من قبل الأخير ستيفن إجيرتون، الذي كان دبلوماسيًّا بريطانيًّا يافعًا، إبان الثورة الليبيّة وفي بداية سنة 1970م:

> كان للقذافي مبادئه الصارمة، وإذا سلّم أي كان بذلك، فإنه ثمة نوع من المنطق الجنوني فيما يقوله ويفعله. لكن منطقه ليس بمنطقنا ولا نعتقد من هذا المنطلق أنه منطق أغلبية العرب أو حكّامهم... أظنّ أنه اعتقد حقًّا أنه «منادى» وأنه من الصعب للغاية على الفانيين التنبؤ بالكيفيّة التي سيقوده إليها هذا النداء.

وفي الواقع كان ذلك أمرًا صعبًا، فالقذافي وعلى مر السنين كسب مناصرين أقوياء ليس آخرهم نيلسون مانديلا، الذي كان ممتنًّا له لدعمه لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي على مدى سنوات عديدة. لقد أربك تورُّط القذافي في الإرهاب عديد من الدول. كإمداد نظامه للجيش الجمهوري الإيرلندي في وقت مبكّر من سنة 1980م وتورّطه في سنة 1986م في تفجير ملهى الجميلة الذي كان يرتاده جنود أميركيون في برلين، والذي أدّى إلى مقتل ثلاثة أشخاص وجرح 229 آخرين واستهدافه طائرة البان آم فوق لوكربي في سنة 1988م مما أدّى إلى معاقبة ليبيا لدعمها الإرهاب. إلا أن وهجوم الرئيس ريغن الانتقامي سنة 1986م على ليبيا وبصفة خاصة لمنزل القذافي الخاص، والذي قتل فيه أحد أفراد الأسرة المقربين، كان بدون شك عاملًا في جعله يبدأ بمراجعة سياساته. كما أن ريغن كان يستعمل لغة الانتقام وهو أمر مرفوض بموجب ميثاق الأمم المتحدة، لكن سلاح الجو الأميركي جعل ذلك الأمر واضحًا للقذافي.

وقد جعلت عديد الضغوطات القذافي يغير موقفه من الإرهاب، ومستعدًّا لوقف برنامج ليبيا النووي. لقد كان قرار ريغن العسكري وبدون شك عاملًا في الوصول إلى تلك النتيجة، فالولايات المتحدة برهنت على ذلك عندما تعلق الأمر بدعم أنشطة إرهابيّة. وهي لن تشعر بأنها ممنوعة من التعامل مع حكومة قد قدّمت مثل هذا الدّعم من خلال تفسير قانوني خاص

لعبارات ميثاق الأمم المتحدة. لكن ما كان ينقص بالإضافة إلى ذلك هو دوافع إيجابيّة أو حوافز للقذافي ليتغيَّر.

فالرئيس كلينتون ثم الرئيس جورج وبوش، الذي تعامل مع رئيس الوزراء توني بلير، قررا إضافة حوافز لمصانع أسلحتهم. لقد منحوا القذافي ضمانات كحافز شخصي بأنه في حالة تغيره فلن يقع الإطاحة به من السلطة من خلال تدخل عسكري من خارج البلد وهو أمر لم يكن مسلَّم به. وبالإضافة إلى ذلك فإن ليبيا وفي حالة تخليها عن دعمها الكامل للإرهاب وتوقفها عن محاولة امتلاك أسلحة نووية، فإنهم وفي مرحلة تالية سوف يقومون برفع كل العقوبات. وقد أدَّى ذلك إلى انتصار السياسة الواقعية. ووافقت ليبيا سنة 2004م على دفع 35 مليون دولار كتعويض لضحايا كارثة لوكربي الملاحية. كما رفعت الولايات المتحدة في تموز/ يوليو من سنة 2006م ليبيا من قائمة الدول الإرهابية. وعلاوة على ذلك فإن سياسة الحوافز برمتها لن تنفع مع القادة الطغاة الذين هم ليسوا تحت تأثيرات ديمقراطية عادية من لدن مواطنيهم، ما لم يكن هناك أيضًا تأثير حقيقي.

تطور السنوات الأخيرة وجد نوعًا جديدًا من الخطر فيما يتعلق بعمل القانون الدولي. كما أن محاكمات قادة حكومات بارزين هي مسائل حديثة العهد جدًّا كي تؤدي إلى تقييم نهائي للتأثير الوقائي لذلك. فالنهج القانوني لديه توعد لكنه لا يمكن أن يكون عدالة مطلقة ويجب أن يكون هناك استعداد لتحقيق التوازن بين العدالة والمصالحة. كما أن دعاة العدالة المطلقة هم كثيرو الضجيج في إدانتهم لأي إجراء لتجنب عقد محاكمة، وهم في غالب الأحيان محقين في ذلك. لقد كانت محاكمة سلوبودان ميلوسيفيتش ذات عظة وعبرة، وإن كانت مأساة كون الحكم لم يصدر أبدًا، وذلك بسبب وفاته في السجن. فالتأخيرات الطويلة في تلك القضية في لاهاي حدثت في جزء منها بسبب وجود لائحة اتهام طويلة من ذاك القبيل. فتهمة أولية على أساس قاعدة ضيقة مثلما هو الحال في محاكمة صدام حسين كان يمكن أن تكون أكثر حكمة.

إن الصراع بين المصالحة والعدالة يتضح جيدًا من خلال قضية الرئيس الراحل أوغستو بينوشيه، المسؤول عن الاستخدام الواسع النطاق للتعذيب واختفاء العديد من المواطنين التشيليين. وقد لعبت السياسة الواقعية دورها حين أوقف في لندن بسبب المساعدة الحيوية التي قدمها بينوشيه وحكومته للقوات العسكرية البريطانية أثناء حرب الفولكلاند. كما أن الحكومة البريطانية بدت مستعجلة في «دعوة الأطباء» لإيجاد طريقة لتجنب تسليم بينوشيه

إلى إسبانيا لتقع محاكمته سنة 1998م. لكن وقع دحض هذا التأويل من قبل وزير الداخلية آنذاك جاك سترو الذي صرَّح بأنه اتخذ القرار بناءً على تقرير طبي جيد أثبت أن بينوشيه لم يكن مهيأ للمحاكمة، وقد أرسل بينوشيه إلى التشيلي: أي إلى شعبه وحكومته ليقرروا ما إذا كان سيقدَّم إلى المحاكمة بدلًا من مثوله أمام محكمة دولية. لقد كان وقع ذلك على التشيليين أنه عليهم تقرير حجم التسوية الوسطية لماضيهم، والتي يجب الالتزام بها. فالكثير من الأدلة الطبية لبينوشيه في المملكة المتحدة لا يبدو أنها تصمد أمام التدقيق الجدي. كما أن صحة بينوشيه بدت أنها تتحسن بعد عودته إلى تشيلي وقبل سنوات قليلة من وفاته وهو شيء محرج نوعًا ما. والآن يمكن للحكومة البريطانية أن تدَّعي أن النظام القانوني في المملكة المتحدة قد اتَّبع بدقَّة مهمة جدًّا الأحكام القانونية الجديدة بموجب القانون الدولي. فلأول مرة لم يكن قائد دولة ذات سيادة في مأمن من اتهامات بالتعذيب، وحوكم في ظل العدالة الدولية الجديدة.

يجب على مجلس الأمن في المستقبل أن يعمل على أساس أن انتهاكات حقوق الإنسان عظيمة، وبصريح العبارة قد ترتقي إلى مستوى الإبادة الجماعية، وهو ما يجب الشروع فيه تلقائيًّا إذا كان ذلك يمثل بموجب الميثاق «خطرًا على السلام». إن ذلك يمكن أن يحدث وفقًا لمبدأ السيادة المشروطة. كما أن هذا من شأنه أن يضيف «سهمًا آخر إلى جعبة» مجلس الأمن وهو ما يمكِّنها من السماح بعقوبات سياسية واقتصادية ملزمة، وإذا لم تكن هناك استجابة فالتدخل العسكري.

فخلال السنوات الماضية كان بإمكان الاتحاد السوفياتي والصين نقض مثل هذه القرارات تلقائيًّا حتى ولو كانت هناك التسعة أصوات اللازمة في مجلس الأمن. وفي القرن الواحد والعشرين فإن ذلك يمكن أن يتغير، لأنه من السهل تجميع أغلبية في مجلس الأمن في بعض الحالات عندما تكون هناك اعتبارات إنسانية لإجبار رئيس حكومة أو نظام على التخلي عن الحكم. لكن ليحدث ذلك يجب علينا جميعًا أن نتعلم من الأخطاء التي وقعت في العراق. فاختبار الساحة من المحتمل أن يكون إيران. فمجلس الأمن وفي أعقاب أي تدخل من هذا القبيل لن يكون ملزمًا بالإصرار على تغيير أية حكومة يجب أن تكون ديمقراطية منذ البداية، على أن عدم القيام بأي شيء لن يكون مقبولًا لشرائح واسعة من الرأي العام العالمي، وغير متوافق مع النظام العالمي لأن الدول الديمقراطية يمكن أن تكون من حين إلى آخر مستعدة لتقديم تنازلات والقبول بتغيير أنظمة هي غير ديمقراطية في الأصل على

اعتبار أن لديها تمثيلًا على الأقل. ولأسباب عملية مماثلة فإن ميثاق الأمم المتحدة لم يضع شرط الديمقراطية في العضوية.

القوانين والاتفاقيات الدولية التي لدينا في بداية القرن الحادي والعشرين هي نتاج عالم، ناشئ متحضِّر ولكن ليس المثالي. عالم قد حاول أن يكون ومن خلال الأمم المتحدة ومنذ عام 1945م أن يصبح أكثر تماسكًا من أي وقت مضى. عالم كان قد اختار أن يرسِّخ نفسه في أخلاق وثقافات العديد من الحضارات التي تشمل تقريبًا جميع الأعراق والأديان والمذاهب. عالم حاول التوصل إلى احترام لميثاق الأمم المتحدة رغم كل الإخفاقات. فذاك العالم الذي «صنع في الولايات المتحدة الأميركية» ختم عليه بأسماء الرؤساء التاليين من فرانكلين روزفلت، وهاري ترومان، ودوايت أيزنهاور، وجون كينيدي، وجيمي كارتر وجورج بوش الأب. ومنذ عام 1945م أظهرت استطلاعات الرأي أن الشعب الأميركي يعتقد أنه ليس في المصلحة الوطنية لحكومتها دهس الأمم المتحدة، شاعرين بأن الأمم المتحدة وفي جزء كبير منها صنيعة الولايات المتحدة. هناك حاجة ملحة لإصلاح الأمم المتحدة، وهذا الإصلاح يحتاج إلى تفعيل تام لالتزام جميع الحكومات الأميركية الكامل في الأمم المتحدة. هذا ما كان مفقودًا منذ عام 1991م. فاختبار الأمم المتحدة من المرجَّح أن يكون السودان وبصفة خاصة دارفور.

الخاتمة

لقد درست الأمراض التي يحملها رؤساء الحكومة معهم حينما يدخلون مكاتبهم، أو تلك التي تظهر عليهم أثناء ممارستهم لمهامهم العليا، أو تلك التي تكون نتيجة للمرض الذي يصيبهم بسبب ممارسة الحكم، بالتفصيل في هذا الكتاب، بيد أن هناك ظاهرة أشد أهمية وغير مألوفة تحتاج إلى الوقوف عندها. فمثلما بينّت وناقشت من قبل فإن تجربة ممارسة الحكم يبدو أنها تؤثر في رؤساء الحكومات من خلال شيء ما أطلقت عليه تسمية «متلازمة الغطرسة» «hubris syndrome».

إن مهنة الطب تتجنب عن حق عبارات مثل: «الجنون» و«الاختلال العقلي» عندما تتحدث عن الصحة النفسية. ولكن لوحظ على مدى قرون أن شيئًا ما يصيب الاستقرار النفسي عند بعض الناس عندما يكونون في السلطة، والعلاقة السببية بين الإمساك بالسلطة وهذا السلوك الشاذ الذي يحتوي على شيء من عدم الاستقرار العقلي، يرجع الفضل إلى عبارة برتراند رسل في التعبير عنها بعبارة «الثمالة بالسلطة» التي أشير إليها في مقدمة الكتاب (ص xix). إن السلطة هي صنف من المخدرات التي تطيح بالعقل وليس كل زعيم سياسي يملك الطبع الضروري والمتجذر للوقوف في وجهه: بمعنى أنه مزيج من الحس المشترك، وروح الدعابة، والكياسة، والشك بل وحتى شيء من النزعة التهكمية تنظر إلى السلطة كما هي في جوهرها، أي: فرصة للخدمة والتأثير ـ وأحيانًا التحكم ـ في مسار الأحداث وتطورها.

إن الغطرسة هي على وجه التقريب شكل من أشكال المخاطر المهنية التي قد يصادفها رؤساء الحكومات، كما يصادفها غيرهم في مجالات أخرى من مثل المجال العسكري أو مجال الأعمال، لأنها تتغذى من العزلة التي غالبًا ما تحيط بهؤلاء. ومن المثير للاهتمام أن شركة مثل جنرال موتورز وضعت دراسة حول هذا المفهوم لفهم سلوك كبار رجال الأعمال الذي يخادعون أنفسهم، وينأون عن الواقع المحيط بهم. وقد تناولت الدراسة الفكرة القائلة إن هناك لحظة ما يكف فيها هؤلاء الأفراد عن العيش في العالم نفسه الذي تشكل

المؤسسة التي يحكمونها ويقودونها جزءًا منه، وانتهت الدراسة إلى وصف الرعب الذي ينشأ من الاعتقاد بأن رجالًا أقوياء فانين يتحولون إلى رجال يظنون أنهم خالدون، «وقد وصف الإغريق هذه الحالة بالغطرسة أو «الهيوبرس» وكانوا يعرفون أن الآلهة التي نلتجئ إليها باعتبارها حقيقة ماثلة، لا توافق على ذلك ولا تقبله، وهي تطلب من البشر شيئًا من التواضع»[1]

إن الخراب الذي يمكن أن تجلبه غطرسة رؤساء الحكومات لا تصيب آثارها إلا أولئك الذين يحكم هؤلاء باسمهم. إن فضائل الديمقراطية التمثيلية تكمن في أنها تمكّن هؤلاء القادة المنتخبين من ممارسة القيادة الحقيقية، وإظهار الحسم الذي يفضله معظم الناخبين على التردد والشك والتذبذب. بيد أن ممارسة هذه الزعامة تتطلب كسب ثقة الناخبين التي تفقد غالبًا عندما يتجاوز الزعيم الخط الفاصل بين الكفاءة في اتخاذ القرار، وعدم الكفاءة الراجع إلى متلازمة الغطرسة.

إن مقاربة الطب للعلل النفسية يجب أن تتمّ في الأصل في غياب أية عوارض جسدية أو علامات على المرض، وهو ما يعني أن يلفت نظر الطبيب إلى مشكل ما ليس العارض العضوي أو الجسدي، وإنما السلوك غير السوي من بعض النواحي إذا جازت العبارة، وفي غالب الأحيان لا تتمكن مهنة الطب من اكتشاف أي سبب من الأسباب المؤدية إلى هذا السلوك، ولكنها مع ذلك ستصنفه كالمرض النفسي. وبعض أنواع السلوك تصنف بأنها علامات على عوارض مرضية معينة، وحين يمكن تمييز عارض من العوارض والتحقق يصبح من السهل التنبؤ أو الوقاية منه وربما معالجته.

من خلال هذه المقاربة التي تقوم بعملية تصنيف أنواع معينة من السلوك باعتبارها عوارض على متلازمات معينة، فإن مهنة الطب لا تقوم باكتشاف المرض مثلما يمكن أن يفهم أو يقال في المعنى الضيق عن اكتشاف مرض السل مثلًا، وانما تقرر أن بعض أنواع السلوك تشكل مرضًا نفسيًّا، وهذا هو الفرق الأساس لأنه يشدد على أمرين مختلفين، ولكنهما ممارستان متساويتان على مستوى الصلاحية فيما يتصل بما ينبغي الاعتراف به أو لا باعتباره مرضًا. فمهنة الطب حين تقر بوجود متلازمة معينة، أو حالة سريرية معينة لا يمكن أن تقف في وجه أية بديهية لا يمكن ردُّها، أو أية بديهية موضوعية مستمدة من

(1) Howard S. Schwartz, «Narcissism Project and Corporate Decay: The Case of General Motors», **Business Ethics Quarterly** (1991), vol. 1, no. 3.

التجربة مثلما هو الحال عند اكتشاف مرض ما، غير أنها تتخذ قرارًا جماعيًا وبراغماتيًا يرى أنه من المعقول الحكم على بعض صنوف العوارض السلوكية التي توجد غالبًا مجتمعة غير منفصلة بأنها تشكل مرضًا من الأمراض. ولعل أفضل مثال على ذلك بالرغم من انقضاء وقت طويل للاعتراف به، هو ما يعرف باضطراب ما بعد الصدمة. وهي حالة لا يمكن أن تحدث إلا إذا توفر شرط وجود حادثة تسببت في الصدمة، ويتميز بمجموعة من العلامات والعوارض كتصورات الماضي، وفرط الانتباه، والكوابيس ذات الصلة بالحادثة، وأُقرت اليوم بعد نقاشات طويلة ومجادلات بأنها متلازمة مرضية.

إنني أرغب في أن تقوم مهنة الطب بالتعمق في الفرضية القائلة: إن هناك نوعًا من السلوك المتغطرس يظهر عند بعض الزعماء، وخصوصًا السياسيين منهم، والذي يمكن وصفه بطريقة مشروعه بأنه يشكل متلازمة معترف بها طبيًا، أطلق عليها متلازمة الغطرسة. ويعتقد بعض الأطباء النفسيين أن السلوك المتغطرس هو سلوك مجموعي ونتاج للمحيط الذي يعمل فيه رئيس حكومة ما، ومن جهة أخرى فإن الغطرسة تنشأ بمرور الوقت، فهي لا تنجم فجأة حتى تحصل الصدمة مثلما كان عليه الحال في 11/ 9. وهو يعطي الانطباع بأنه يتوالد ذاتيًا وينشأ من تلقاء نفسه، حتى أن الفرد يبدو مشدودًا إلى شيء ما لا يمكنه الفكاك منه غير مرتبط البتة بالعوامل الخارجية. وهذا العنصر أو العامل هو الذي يشكل متلازمة الغطرسة.

وبخلاف كل المؤشرات السابقة والحاضرة، والدلائل على الضرر الذي يمكن أن تلحقه متلازمة الغطرسة على اتخاذ الزعماء للقرار بشكل عقلاني، يبدو من الحكيم ألا تتم دراسة هذه المتلازمة عند الفلاسفة الكلاسيكيين والكُتَّاب المسرحيين والمؤرخين فحسب، بل أيضًا العلماء وخصوصًا الأطباء منهم. وفي اعتقادي فإن هناك ما يدعو إلى الاشتغال على فرضية قوامها أن هناك متلازمة ضمنية يظهر مزيج من عوارضها ومظاهرها مجتمعًا لا مفرقًا مستقلًا بعضها عن بعض، وعلى مهنة الطب أن تحكم عما إذا كان ذلك يشكل صنفًا مرضيًا. وقد شرحت هذه الحجة في مقال نشرته في المجلة الطبية الملكية[1]، أرجو أن يكون فاتحة نقاش في الموضوع.

(1) David Owen, «Hubris and Nemesis in Heads of Government», journal of the Royal Society of Medicine (2006), vol. 99, pp. 548-51; Simon Wessely, «Commentary: The Psychiatry of Hubris», **Journal of the Royal Society of Medicine** (2006), vol. 99, pp. 552-553.
David Owen and Jonathan Davidson, Hurbris Syndrome: An Acquired personality Disorder? A Study of us presidents an Uk prime Minister over the last 100 year's, **Brain** (forth Coming)..

وقد عرفت الخمسين سنة الاخيرة سيلًا من العلوم التي تدرس النفسية عند الناس، كعلم الوراثة، والعلوم العصبية، وعلم النفس، والوبائيات، وكلها تسير قدمًا وتعثر على طرق جديدة تضيف إلى بعضها البعض. إن تحسن المعرفة من خلال إنتاج أدوية جديدة تحسن من القدرة الذهنية صار اليوم أمرًا مسلمًا به وحقيقة ماثلة، وقد حقق نجاح العلاج البسيط القائم على مثبطات الاستيل كولينستيراز دفعًا للبحث في طرق أفضل لتسريع المعارف وإيجاد أدوية لهزم الخرف، يمكن أن يبدأ الناس الذي تكون الوظيفة المعرفية عندهم في المستوي الطبيعي في استعمالها. وبإمكاننا أيضًا أن ننظر إلى المواد ذات المفعول النفسي التي لا تستعمل فحسب من أجل كبح فرط النشاط كما هو الحال بالنسبة إلى فرط الحركة ونقص الانتباه، بل أيضًا للزيادة في القدرات وتفريغ الضغط النفسي ومساعدة الناس على الاسترخاء أو المساعدة على الاندماج الاجتماعي، وحسن المعاشرة. وفي حين كان الأمفيتامين مستعملًا من قبل القادة السياسيين مثل أنطوني إيدن وكينيدي، فإنه من المحتمل ألا تكون هذه الأدوية الجديدة مستعملة من قبل نظرائهم في القرن الواحد والعشرين، وأقدم هذه الأدوية على الإطلاق هو الكحول وهي مادة نفسية المفعول.

كما توجد في الحقيقة دلائل جيدة على اشتراك عدد من الناقلات العصبية في حدوث الإدمان، بما في ذلك الدوبامين والغلوتامين وحمض الغاما أمينوبوتيريك[1]، ولما كانت العلوم العصبية تتطور باطِّراد، فإنه يبدو من الممكن تمامًا ملاحظة أن الوظائف التي تتميز بدرجة توترها الكبير والتي توبعت لمدة طويلة تحمل في طياتها إمكانية الكشف على تغييرات تصيب بعض المواد في الدماغ (من مثل السيروتونين والدوبامين وغيرهما) والتي بإمكانها أن تؤثر في المزاج، وأن تقدم تفسيرًا عن بعض التغيرات السلوكية التي يمكن وصفها بأنها « متلازمة الغطرسة». فقد زعم البعض أن الدوبامين هو عبارة عن مادة ذات صلة بالثواب أو الجزاء تنساب في الدماغ بعد نجاح ملحوظ، وأن هناك آلية خطر/ ثواب عندما يتحدث الناس بصيغة الماضي عن شيء مرعب وقع أثناء مغامرة ما، والبعض اليوم يتحدث بشكل مبهم عن شعور اندفاع الدوبامين. والواقع أن كل هذا بعيد عن أن يبرهن عليه، غير أن الروابط التي تقام تجعل من العلوم العصبية ميدانًا تتقدم فيه المعارف بشكل سريع.

---

(1) Drug Futures 2025?: **Horizon Scan** (Department of Trade and Industry, 2005), p. 20.

إنه لا يوجد إلى الآن تفسير علمي لمتلازمة الغطرسة، بل ولا يمكن لتفسير كهذا أن يوجد، غير أنه بملاحظة ما طرأ على علوم الدماغ الحديثة أثناء حياتي باعتباري طبيب أعصاب سابق ورجل سياسة، فإنني أعتقد أنه من الممكن في الأخير أن يُقدم تفسير للكيفية التي يصاب فيها بعض الزعماء بملازمة الغطرسة دون غيرهم. ومن الممكن ألا يوجد علاج طبي لها ولا أي علاقة سببية من الوجهة الطبية، غير أنه صار من الأوضح أنها مسألة أكبر من مجرد مرض عادي، فهي تمثل تهديدًا خطيرًا لنوعية أية زعامة وللحكومة المناسبة في عالمنا هذا. إنه من الصعب الكشف متى لم يعد الناس يثقون بمظهر الرجل اللطيف طيب المعشر الذين يبدو عليه كما هو الحال بالنسبة إلى بوش وبلير.

إن التحكم في سلوك الزعماء السياسيين المتغطرس يجب أن يعتمد فيه على تقوية آليات المراقبة، والتوازنات الديمقراطية، وقد بنيت هذه الآليات على فترة زمنية طويلة في الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا، ويبقى الأهم هو اليقظة والتدقيق من قبل أعضاء الحكومة لأنهم هم أكثر من يرى السلوك الحقيقي لرؤسائهم أثناء ممارسة الوظيفة. كما أن استعداد الوزراء المبدئية لتقديم استقالاتهم يعتبر أمرًا بالغ الأهمية. فقد استقال أليوت ريتشارد من وزارة العدل عكس أرشيبالد كوكس المدَّعي الخاص الذي أقاله الرئيس نيكسون، كما استقال سيروس فانس عندما وقف الرئيس كارتر ضد نصيحته له بعدم إرسال طائرات الهليكوبتر في محاولة فاشلة لتحرير الرهائن الأميركيين. كما استقال روبن كوك باعتباره زعيمًا لمجلس العموم في سنة 2003م بسبب غزو العراق. ولو استقال كولين باول أو جاك سترو قبل غزو العراق لكان تأثير ذلك كبيرًا جدًّا. غير أن ما يقف في وجه هذا الرأي هي تلك الفرصة التي أتيحت للعموم للإطاحة ببوش وبلير في انتخابات (2004 و2005م)ولكن ذلك لم يتمّ، بل تمكنا من الفوز في الانتخابات للمرة الثانية، بالرغم من أنه في منتصف انتخابات (2006 و2007م) ظهرت علامات على عدم الرضا عن كليهما.

كما انخرس النقد الإعلامي في كلا البلدين قبيل الحرب على العراق وبعدها، إما لأن الصحف كانت موافقة على قرار الذهاب إلى الحرب، وإما لأنها كانت محرجة لإدراكها الصعوبات التي كانت تنتظر العمليات العسكرية عند غزو العراق، وهو ما حصل فعلًا. كما كان من الصعب التنبؤ بالتمرد دون أن تكون هناك معلومات أكثر حول النقص في الخطط الموضوعة لما بعد الغزو، ولا بد من القيام بجهد كبير في سياق صحافة التقصي في ضفتي الأطلسي، بالإضافة إلى تدقيق أكبر من قبل الكونغرس والبرلمانات لمعرفة هذه الخطط التي وضعت.

وفي الديمقراطية لا يوجد شيء بإمكانه تعويض ضرورة المعرفة بالطبيعة الحقيقية وشخصية من صوَّتنا لهم ليصيروا رؤساء للحكومات. والصحافة هي من يمتلك دورًا أساسيًّا في القيام بهذه المهمة. وفي هذا المجال تلعب الشخصية دورًا مهمًّا، وهو ما أوضحه جيمس هيلمان سليل مدرسة التحليل النفسي اليونغية في كتابه: «قوة الشخصية» إذ كتب قائلًا: إن التأثير الذي يحد من الصورة الذاتية الفردية يمنع ذلك التضخم، وذلك التجاوز والتعدِّي أو الغطرسة التي يعتبرها العالم الكلاسيكي من أعظم أخطاء الإنسان. وبهذه الكيفية تعتبر الشخصية قوة ناعمة[1]. «إننا نحتاج إلى المزيد من القرائن والمعلومات التنبيهية لنعرف كيف يطوّر بعض الزعماء والقادة متلازمة الغطرسة عندما يكونون في وظائفهم. إن حس الشعوب السليم وثقتها في الديمقراطية هي التي تضمن امتلاك أولئك الذين وقع الاختيار عليهم بصفات وخصال في شخصياتهم تمنعهم من الوقوع في «الثمالة بالسلطة».

إن القادة والزعماء الذين تمكَّنوا لحسن الحظ من الإفلات من متلازمة الغطرسة، هم أولئك الذين كانوا حذرين وحافظوا على التواضع الشخصي طوال بقائهم في موقع السلطة بأن استمروا ما أمكن ذلك على نمط حياتهم السابق، ويستمعون إلى رأي أقرب المقربين منهم ـ أزواجهم وعائلاتهم وأصدقائهم ـ وحاذروا من الوقوع في شراك السلطة. إن هؤلاء الزعماء يحاولون دومًا طلب المشورة بشكل جيد، حتى وإن كان هذا المسار لا يغير شيئًا من آرائهم. وهم قد يخطئون في التقدير، ولكنها أخطاء لا تنبع من الجهل أو احتقار آراء الآخرين. وعمومًا فهم يقبلون في إطار النظام الديمقراطي باحترام الصيغ المؤسساتية الرقابية والتوازنات، وهم لا يفعلون ما من شأنه أن يمس بها أو يتجاوزها، سواء أكان ذلك في وزاراتهم ومكاتبهم أو في البرلمان.

وصف أحد أفضل المؤرخين المعاصرين، دافيد راينولدس، غطرسة الزعماء الذين تعتبر شخصياتهم مفتاح كل مقاربة لهم من خلال استنتاج مفاجئ قال فيه:

«هو زعيم حسن النية مقتنع بصواب آرائه، وتكاد تصل درجة وثوقه من قدراته على الإقناع حدَّ الغطرسة. ويعرض عن نصيحة المحترفين من حوله، ويسعى إلى تقييد الحياة السياسية والإعلام من خلال حلقة ضيقة، وهو زعيم تتحول بلاغته إلى شيء محبط شيئًا فشيئًا، وخلف مظهره البريء يختفي إنسان يعلم أنه ذهب بعيدًا

---

(1) James Hillman, **The Force of Character: And the Lasting Life** (Ballantine, 1999), p. 178.

ولا يمكنه العودة إلى الوراء. ومن الذي يُذكِّرنا بجميع تلك الصفات؟ بالرغم من الاختلافات، إلا أن نهج توني بلير لاجتماعات القمة له شبه وطيد بذلك الذي عرفه نيفيل تشمبرلين من قبل»[1].

ومن رؤساء الحكومات الديمقراطيين الذي عانوا من متلازمة الغطرسة في القرن الأخير بالإضافة إلى تشمبرلين، وتوني بلير، يمكن أن نشير إلى دايفيد لويد جورج، ومارغاريت تاتشر، وجورج بوش الابن. كان تيودور روزفلت وليندون جونسون متغطرسين، لكنهم شُخِّصوا بأنهم يعانون من اضطراب ثنائي القطب[2]. وقد كان ويدروو ولسون يعاني من هذه المتلازمة أيضًا، ولكنه كان يعاني أيضًا من تصلب الشرايين ومن نوبات متكررة من الخرف، أما فرانكلين روزفلت فقد بدا وكأنه أصيب بمتلازمة الغطرسة سنة 1973م عندما خسر معركته مع الكونغرس حول القسم القضائي من خطة إعادة البناء التي تتصل بتعيين القضاة في المحكمة العليا. غير أنه ولحسن الحظ كان يتمتع بروح الدعابة وشيء من روح السخرية، وهو ما كان يعني أنه لم يخسر مرساته ضمن النظام الديمقراطي.

حلل رايموند مولي الذي يعرف روزفلت جيدًا منذ سنة 1928م وحتى سنة 1936م مسألة «الثمالة الذهنية» التي تصاحب السلطة حينما تمارس لفترة طويلة قائلًا:

«إلى حدود انتهاء صلتي بروزفلت كنت آمل أن تكون خصلة البراغماتية التي أعرفها فيه قد تركت في عقله منفذًا. وقد وجدت أخيرًا.... أنه هو بنفسه من أغلق النوافذ بعنف. لقد اكتشف طريقة خاصة جديدة ليعطي الثقة لنفسه من أفكاره المسبقة..... وأخيرًا ومثلما هو المتوقع من شخص منغلق على نفسه متجاهلًا للآراء الخارجية والنصائح لسبب أو لآخر، فقد صار يشكو من نوع من الثمالة الذهنية، وصار يعيش في عالم من الأفكار أنتجها بنفسه، عالم من الزيف»[3].

وفي مقابل هذا التأكيد على المرء أن يقرَّ بالاحترام الذي كنَّه لروزفلت كثيرون ممن عملوا معه عن قرب. فبفضل تصميمه الذاتي وقسوته ومكره وتفاؤله تمكنت الولايات المتحدة في

(1) David Reynolds, **Summits: Six Meetings That Shaped the Twentieth Century** (London: Allen Lane, 2007), p. 393.

(2) Davidson et al., «**Mental Illness in US Presidents between** 1776 and 1974».

(3) Raymond Moley, quoted in Bert E. Park, **The Impact of Illness on World Leaders** (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1986), pp. 280-281.

منتصف الكساد الكبير من تجاوز المصاعب الاقتصادية، ومثلما أُثر عنه قوله: «إن الشيء الوحيد الذي علينا أن نخاف منه هو الخوف نفسه». فابتداء من (1941 إلى 1945م)، مكنته هذه الخصال، التي كانت في جزء منها نتيجة المرض، من تلك السلطة السياسية لتعبئة بلده للحرب والانتصار فيها لصالح العالم كله. وأنا لا أعتقد أن روزفلت قد عانى من متلازمة الغطرسة ولا ونستون تشرتشل أيضًا.

أما من جهة الديكتاتوريين، فقد عانى أدولف هتلر من هذه المتلازمة، أما بينيتو موسوليني فكان يعاني من الاكتئاب ومن اضطراب ثنائي القطب، ومثله ماوتسي تونغ، وكان يعاني كليهما من متلازمة الغطرسة أيضًا. في حين عانى خروتشيف من الهوس الخفيف تمامًا كالكثير من الديكتاتوريين.

أما القرن الأخير الذي يمكن اعتباره أفضل القرون وأسوأها في الوقت ذاته من وجهة تاريخ العالم السياسي، ففيه عرفت الإبادة الجماعية والقتل الجماعي للمدنيين خلال الحروب المنتشرة عبر العالم، والتي تقدم الدليل على أنه الأسوأ. بيد أن انتشار الديمقراطية يعتبر مقياسًا على التقدم والسنوات المئين بين(1906 و2006م) تعتبر الأفضل بالنسبة إلى الديمقراطية. وبحسب منظمة فريدوم هاوس، المنظمة التي تتابع شؤون الديمقراطية عبر العالم ومقرّها نيويورك، فإنه لم توجد أية ديمقراطية كاملة سنة 1900م في حين ظهرت حوالي(21) منها في سنة 1950م و(120) بحلول سنة 2000م.

ففي منتصف القرن العشرين ضمت الـ 22 ديمقراطية 31 بالمئة من سكان العالم، غير أنه بانتهاء القرن كانت هناك (120) ديمقراطية (من بين 192 دولة) مما يشكل نسبة (62.5) بالمئة من مجموع سكان العالم. إننا نحتاج في القرن الحادي والعشرين إلى التركيز على تعميق هذه الديمقراطيات، وهذا الانفجار الديمقراطي في النصف الأخير من القرن العشرين يمثل توسع الاستفتاء الشعبي، وتشظي الاتحاد السوفياتي، ونموًا في التنافس الانتخابي القائم على التعدد الحزبي. غير أن هناك ما هو مثير للخلاف والاختلاف، ولكني أعتقد أن ذلك هو الطريق الصحيح للفعل وأقصد بذلك ما أعتبره تحديًا خاصًا في تقديري يتصل بالديمقراطية في الدول العربية والإسلامية، وهي دول لم يعرف أغلبها أي تاريخ لأي شكل من أشكال الحكم الديمقراطي. ولكن ذلك سوف يستغرق وقتًا وستكون أفغانستان وباكستان والعراق وإيران وسوريا والأردن ومصر المحك والأرض الفعلية لأي إصلاح ديمقراطي استراتيجي. وإذا كان المطلوب هو نجاح العملية الديمقراطية فإنه سيحتاج إلى

كل مهارة الديبلوماسية التي تتطلب الصبر والمداومة والتفهم، وهي مهارات تنقص هذه المنطقة. فبعد العراق صار من السهل الإعراض عن العملية الديمقراطية ولوم المحافظين الجدد في الولايات المتحدة، ومحاولة إيجاد ملجأ في تشكيك أولئك الذين تواطؤوا مع الظلم والاستبداد طوال الثلاثين سنة الماضية، والوقوع في ذلك معناه القيام بقراءة خاطئة للأحداث. إن التحدي هو أن نتعلم من أخطائنا الكثيرة في العراق في سبيل تطوير مهارات جديدة، في كيفية التقدم بأناة بقضية الديمقراطية.

لقد حاولت في هذا الكتاب أن أبيِّن من خلال دراسة حالات معينة المشاكل المرتبطة بالعالم حينما يكون هناك مرض يصيب رؤساء الحكومات والدول، وكيف تحتاج هذه الأمراض إلى إعادة تحديدها حتى تؤخذ بعين الاعتبار متلازمة الغطرسة. ولقد اقترحت طرقًا إجرائية للتقليص من فرص أن يكون رؤساء الحكومات أو الدول مرضى أثناء أدائهم لوظائفهم أو بقائهم مرضى أثناء ممارستها. إن مثل هذه الاجراءات قد لقيت اهتمامًا من العالم أثناء الحملة الانتخابية الرئاسية في سنة 2008م حينما خضع المرشح الجمهوري السيناتور ماك كين للجراحة لاستئصال ورم ميلاني في الجهة اليسرى من وجهه في آب/أغسطس 2000م. وفي عام 1999م حينما نافس ماك كين جورج بوش الابن في الحصول على ترشيح الحزب الجمهوري، قدم للجمهور كمية مدهشة من المعلومات حول حالته الصحية في حوالي 1500 صفحة من التسجيلات، كما كانت الوثائق النفسية والطبية جزءًا من مشروع البحرية الأميركية حول قدماء أسرى الحرب. لقد كان ماك كين وهو بطل من أبطال حرب فيتنام قد وعد بأن يكشف كل المعلومات عن مرض الورم الميلاني الذي حُجب حينما وصل إلى الدرجة الثانية (أ) وقبل أن يتمكن الناخبون من تقرير إن كان سيصير رئيس الدولة القادم. كما اقترحت أيضًا إجراءات لتطوير الحكم الجيد واحترام حقوق الإنسان ليس فقط داخل الديمقراطيات، بل في كل أنحاء العالم، بأن يسأل مجلس الأمن نفسه، وكل الدول غير الديمقراطية التي تظل أعضاء في المنتظم الأممي نفسها، باعتبارها جزءًا من المجموعة الدولية عن أي الأفعال التي هي مستعدة للقيام بها للتعامل مع المستبدين سواء أكانوا مرضى من الوجهة الطبية أم لا، حين يتسببون في آلام جماعية وأحيانًا في خلافات داخلية تؤثر في شعوبهم وحتى في جيرانهم من الدول. وهذا معناه التدخل سياسيًّا واقتصاديًّا وربما عسكريًّا، والذي يهدف إلى حماية الشعب من رؤسائه أو من النظام، يتبع ذلك تدخل من أجل المساعدة في إعادة البناء. إن مثل هذا التدخل يبقى مهمة نبيلة بالنسبة إلى الأمم المتحدة، وكل الهيئات الدولية الأخرى في القرن الواحد والعشرين.



فهرس الأعلام

- ن -

- هـ -

- ي -